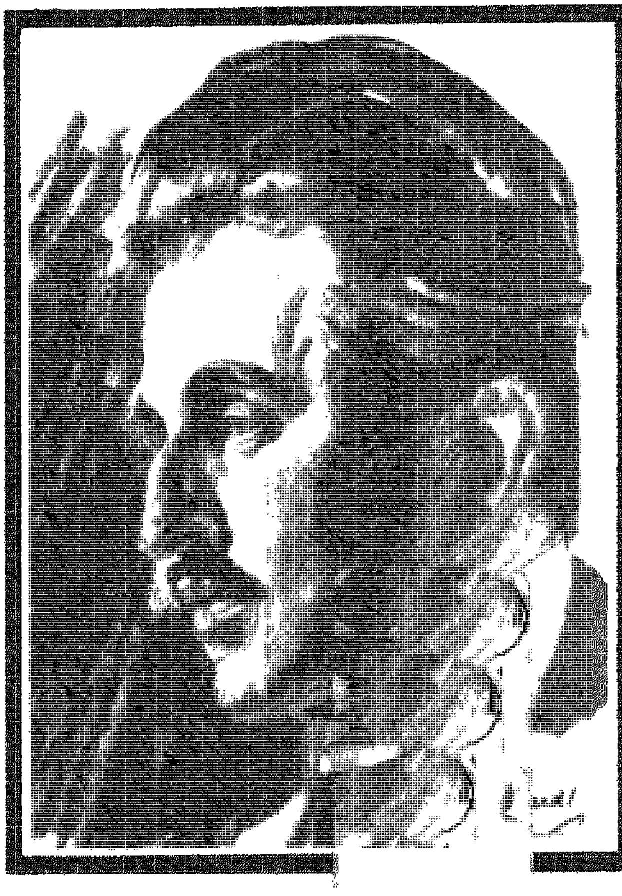
ملوك العرب

رحلة في البلاد العربية مزينة برسوم وخرائط وفهرست أعلام



دار الجيل
بيروت

أمين الريحاني

أمين الريحاني

ملوك العرب

رحلة في البلاد العربيّة مزينة برسوم وخرائط وفهرست أعلام

الجزء الأول

الحجاز - اليمن - عسير - لحج والنواحي المحمية

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثامنة
١٩٨٧

اقدم هذا الكتاب

للناشئة العربية الناهضة في كل مكان



ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ

طرفة بن العبد

مقدمة

كنت في الثانية عشرة من عمري عندما سافرت للمرة الاولى الى الولايات المتحدة . فلم اكن اعرف غير اليسير من اللغتين العربية والفرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان صغارهن . هس ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام « بعبعاً » تخوف به اولادها .

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل .

اما الامة الفرنسية فما كنت اعرف من امم الارض سواها . ولكنها معرفة مطوّسة. كانت المدارس تنشر اذنابها في لبنان: ان فرنسا لأعظم امم الارض ، هي اشرفها واغناها وارقاها . بل هي قطب المدنية ، وعاصمة النور والجمال – هي الطاووس بين الامم .

اما اميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الام وعن المدرسة. تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه. ومع ذلك فلم تخلُ مما تميّزت به الكأسان الاوليان. رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلألىء .

غدوت بعد عشر سنين في اميركا معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا. وما كان خوفي على الامة الاميركية

وانا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتممت له ونقطة الدائرة في كل ما ملت اليه . خفت ان اغلب في ذاك الجهاد، اشفقت على نفسي من ذاك التكالب .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفا وترددا في مضمار الحياة . صرفتني عن حقائق الوجود المادية ، وزيّنت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كئيباً يحمل كتاباً ، وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سبهللا ! فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الى من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم اتخلق مثل سواي من السوريين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك هو لفيلسوفهم امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم [١]

وقد عرّفني امرسون الى كرلَيْل ، وكان كرليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بوساطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً [٢] فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب .

(١) السجايا الانكليزية — English Traits by Ralph Waldo Emerson

(٢) الابطال — Heroes and Hero-Worship by Thomas Carlyle

مقدمة

قرأت كتاب الالهمبرا (١) فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزياً يعرفني الى رسولك واميركياً يصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مـــازج عقليتي الاميركية الفرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه او تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كثيباً يحمل كتاباً ،ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابهـــا غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبينما انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بوساطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي .قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها متوخياً ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

*

عدت الى اميركا استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانـه هناك . فساقتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحـلة في

---

(١) الالهمبرا The Alhambra by Washington Irving

الارض دائمة . وصوروا الارض بادية عربية نبغ فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوءة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمل، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم، وتهز جذوعها السموم ، وصوت الساقية وهي تغني للارض المنعمة في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجمل الساقية — وماذا في نيويورك ؟

ماذا في نيويورك غير الضوضاء والعناء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف [١] وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركاً عظيماً [٢] يحدثاني عن شمّر والقصيم والعارض والرياض. وذاك المستعرب بُركهارت [٣] وقد دخل الى مكة حاجاً، مسلماً صادقاً نقياً. وهذا العلامة بر ُتن [٤] يقص قصة عجيبة بطلها بزّاز من سمرقند قد حمل الكيس — تفتا هندي شاش حرير يا بنات ! ليكشف له اسرار الحريم ثم ركب العيس، وكان دليله ابليس، فاقتفى اثر بُركهارت لغرض في النفس، ونظم قصيدة كفرية كفر بها عن كل مآتيه في التلبيس .

وهذا خليل [٥] الذي راح يهول بنصرانيته في وجه البدو، فقاسى في رحلته الاهوال، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال. اضطهد في بريدة،

(١) قلب البلاد العربية وشرقها Central and Eastern Arabia by W . G . Palgrave

(٢) البطريرك الجريجيري .

(٣) سياحة في بلاد العرب Travels in Arabia by J . L . Berkhardt

(٤) الحج الى مكة والمدينة A Pilgrimage to Al - Medina and Mecca by Richard F . Burton

(٥) التجوال في البلاد العربية تأليف شارلس دوطي وقد انتحل اسم خليل . Wanderings in Arabia by Charles M . Doughty

وطرد من عنيزة، وسُلب وضرب، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في جيبه غير خمسة ريالات، وليس في قلبه ذرة من التدليس والتلبيس. الدرويش خليل، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه. خليل النصراني، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التعصب الاسلامي. خليـــل النصراني الكافر! قُطوا رأسه بالسيف! ولكن الله اخرجه من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت.

وكل هؤلاء من الاجانب يسيحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي، ويخاطرون بانفسهم فيها حباً بالعلم، فيكشفون منه المخبأ، ويجلون المصدأ، ويقربون البعيد، ويغربون في اللذيذ المفيد. وانا في نيويورك كئيب يحمل كتاباً، ويطرق للمحرر الاميركي المتغطرس باباً. اديب شعره طويل، وصدره عليل، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات. آلة كاتبة، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين. اف لها من زوجة نقاقة، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبث. طلقتها ثلاثاً، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعدني عنها وعن الكتب والمجلات. والادباء والاديبات.

وكان لي صديق في دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها. كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه، فصفع السلطة وفرّ هارباً الى الفريكة، فحل فيها اهلاً ونزل سهلاً — سهلاً في القلوب ومنحدراً في الوادي. اقام محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان. الوادي مهد الحرية وحصنها الحصين. سمعني صديقي اردد ذات يوم هذه الكلمات فقال: لا تنخدع يا امين. الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم سادة رعاديد. لا بأس بالهمس: والحمد لله! ولكنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلي.

فقلت: صدقت، وفي نيتي ان اهجر حتى هذا الوادي،في نيتي رحلة الى البادية،الى البلادالعربية على هجين يبعدني عن كل مظلمة وكل عبودية . فهلل صديقي وقال: نسير معاً. واتفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد في الشام يهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود.

لكن الايام عدوة الاحلام، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب. تعقّبت السلطة الاثيمة صديقي كردعلي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكه ويفر هارباً من سوريا. ثم سافر الى اوروبه فذاق من حلو المدنية فيها ما استلذه فاستزادها. فقالت له: عد فعاد، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد المغرب واثمرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم «غرائب الغرب».

اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابعدتني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية كلها. عادت بي الى نيويورك. ثم نكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت الارض زلزالها، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً، وقضت، في الكثيرين ممن استبقت، على جميل الاحلام والآمال.

*

ومن الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وان شاخت، فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها .

رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب . وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الاندلس فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس فسمعت اصواتاً تناديني باسم القومية ومن اجل الوطن، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوءة .

اكبرت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده الامراء الاربعة الى ساحات الوغى. وكان الناس في اميركا يعجبون بالرئيس روزفلت [1] الذي قدم ثلاثة من ابنائه الى وطنه، وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين اول من صورته الآمال ملكاً يفتح لي بابها. وبينا انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى، جاءتني مجلة صديقي سليم سركيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة.

واهم من ذلك يومئذ خبر قرأته مدهوشا مسروراً. جاءني الصديق بصديق آخر، وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزورونني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركا ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي. وهذا الصديق هو قسطنطين يني الذي ابعدته عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره. فجاء العزيز سركيس، كأنه رسول العناية الي، يبشرني بوجوده في خدمة الملك حسين.

هللت وكبرت. وتناولت القلم وكتبت تواً كتاباً الى العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال، اولها: هل يأذن جلالة الملك بالزيارة؟ وآخرها: هل ترافقني انت في هذه الرحلة؟ وما مضى الشهر الأول وانتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه ما يلي:

« اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع ... وهو يرحب بك اذا حضرت. ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعدك على زيارة الحجاز من اقصاه الى اقصاه، ويعطيك المعلومات اللازمة، ويطلعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين

---

(١) ثيودور روزفلت، رئيس الولايات المتحدة (١٩٠١ – ١٩١٢)

الدول من مطلع النهضة الى اليوم ليكون في استطاعتك تأليف كتاب عن العرب مستوف من جميع ابوابه . ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكون درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون بالعادات والمشارب .. اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز ... والسياحة توافق ان تكون في فصل الشتاء ولا تستغرق اكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد ... واني بكل سرور ارافقك حيث شئت ... اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها في الوقت الحاضر للاسباب المعروفة ... والسياحة تكلفك لا اقل من خمسمئة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقارىء شيء من سؤالات سألتها ولم اقف فيها عند حد من التحفظ والمداراة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً عن البلاد العربية ، اذا استنرت بكل ما ينيرني في رحلتي قبل ان اقدم عليها . ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلل النفس بتحقيق امنيتي بعد ان اقابل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية ، ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلمها في بلاد الغرائب وما ابعدها . لا اظن ان من كان قادما من القمر او المريخ يحلم احلاما اغرب منها واعجب .

وفي معلومات قسطنطين مما استرعي له نظر القارىء ايضا قول جلالته : « ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها . » ولكنني لم اتقيد بهذا القول

لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية، واتأكد ان «من يزور الحجاز من اقصاه الى اقصاه» لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً كبيراً منها. وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي عرفت فيما بعد القصد السياسي فيها. وما كان صديقي غير ناقل في اكثرها كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور غير الحجاز. وقد خبر قسطنطين ما خبرته في اليمن وعسير مثلا بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعادات. وتأكد مثلي ان من يحصر زيارته بالحجاز لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفيا من جميع ابوابه. وادرك بعد رحلتنا الاولى من جدة الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولا سيما اذا تمكنت من السياحة في نجد. وما كانت زيارة الرياض وابن سعود بالامر المستحيل. على انني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى الملك حسين.

*

وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب غير الحسين بن علي، وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً. فاننا اذا استثنينا الملك حسيناً وابنه الملك فيصلًا قد لا نجد بينهم، من يعرف زميله الملكي معرفة شخصية خاصة، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذي هو حاكمه.

وليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها، وليس فيهم من يستطيع ان يقول: انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية

والخارجية مما لديّ من تقارير العارفين واخبار المنزهين عن الاغراض السياسية والتحزبات المذهبية . ولا استثني من هذا القول الملك حسيناً او الامام يحيى او السلطان عبد العزيز آل سعود .

قد يكون الملك حسين اكثرهم علماً باحوال سكان البلاد من بدو وحضر، وبمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعداواتهم وسياسة امرائهم، لان مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلادالعربية كافةبل من اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك . وقد يعرف من احوال جارَيه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينفعه في سياسته الحجازية ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية . اريد بذلك ان علمه ، وان تجاوز ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكميها ان يجند من الناس ويجمع من المال ، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما، فلا يصل ذاك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية . ان لسلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثالثة لهما . صورة تجسم نبوغه فلا يكترث بها وصورة تنفي ذاك النبوغ فيعول عليها - فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التفاهم والولاء ؟

اما الامام يحيى فلاشك انه يعرف، وهو العالم الاكبر في امراء العرب، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة . ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهلها من بدو وحضر . او انه لا يكترث بذلك . ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعُمان وما يليها . ولكنه قلما يكترث اذا ذُكر اليمن في غير السياسة . فاذا حدثته عن عادات اهل ذاك القطر القديم واحوالهم الاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس بعربي فيتفكه ويستفيد .

مقدمة

لست مبالغا اذا قلت ان ليس في البلادالعربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها. وليس في العالم اليوم ويا للاسف من يحيط علماً بهذه الاقطار وبشؤونها جمعاء، بحكامها وقبائلها وزراعتها وتجارتها وخراجها وحروبها، ومشائخها وامرائها، بكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية والخارجية غير الحكومة البريطانية او بالحري وزارة المستعمرات فيها. فهي تصدر كتاباً عن البلاد العربية [1] مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات. وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في مـــا يختص بكل قطر منه ابن القطر العالم بشؤونه كلها. زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر للعموم وقلمـــا يُرى خارج الدوائر الرسمية.

ولا اظن ان من وظيفة الحكومة البريطانية او من واجباتها، فضلاً عن ميلها ومصلحتها، ان تعرّف ملوك العرب بعضهم الى بعض، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها ولا اظن ان احداً من ابناء العرب يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي قمت بها.

فها انا اذن في هذا الكتاب، ولا فخر ولا اعتذار، اعرّف سادتي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات. وليتحقق سادتي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداهنة، ولا في النقد تشيع او تحامل. انمـــا غايتي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين.

*

(١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي جغرافي سياسي في البلاد العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والسفراء والقناصل لدولة بريطانيا فقط.

كان قصدي الاول ، عندما سافرت من نيويورك ، ان أسيح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز ونجد فرعا عدنان اي مضر وربيعة .

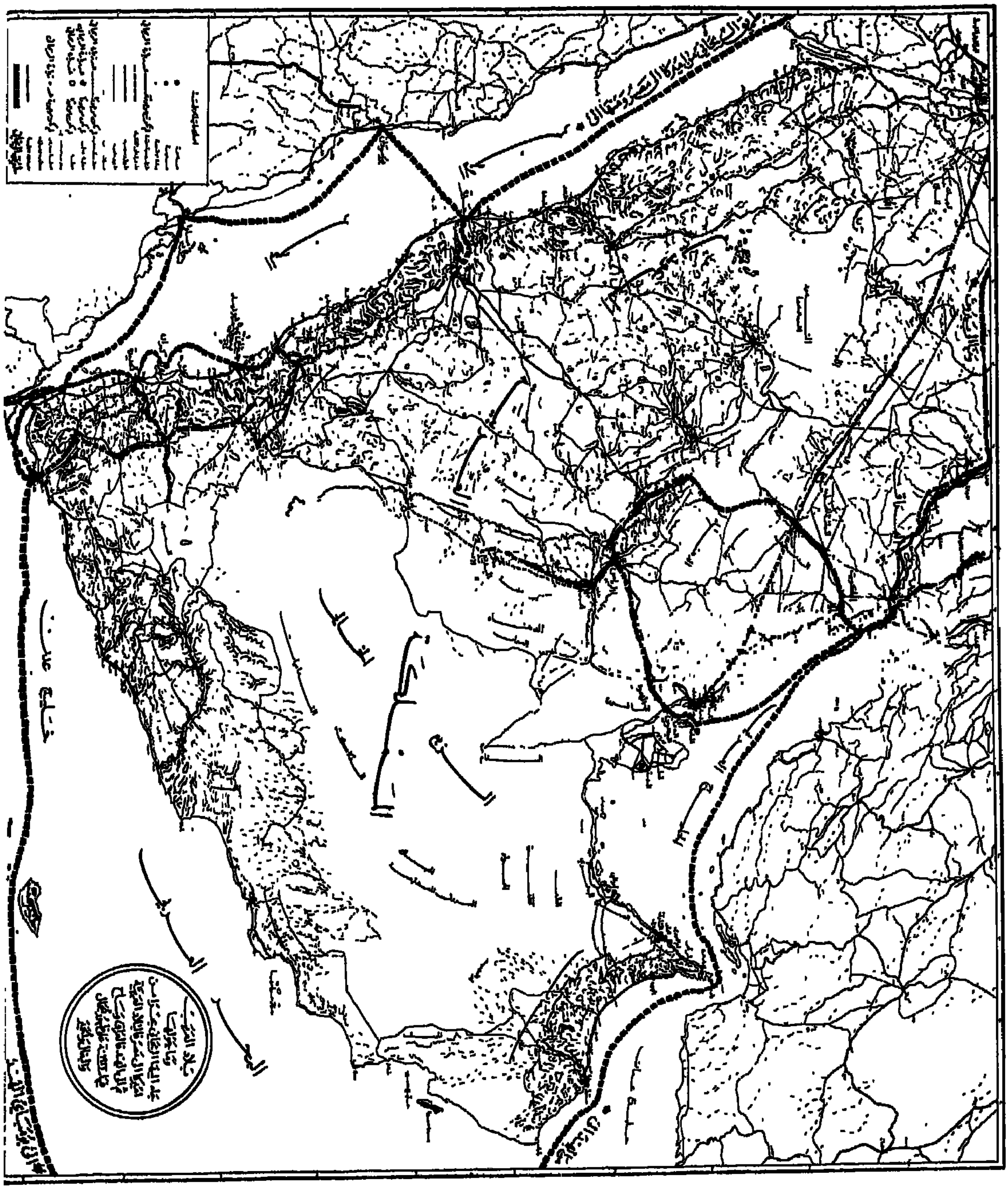
ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت ونقحت فيه حتى اصبح يشتمل على جميع شبه الجزيرة .

اما الحجاز وان كان من اصغر اقطار الجزيرة مساحة، واقلها سكاناً فهو اهمها مركزاً، واولها في السياسة الدولية مقاماً. وقد صار بفضل جلالة الملك محط رحال الوطنيين المجاهدين في سبيل الوحدة العربية . فقل من لا يعرف شيئاً عنه . الحجاز كتاب مفتوح . واهم ما في الكتاب اليوم بعد الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين . النهضة العربية . فقداكتفيت بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغي زيارتها كلها

ولكني لم اتوفق الى ذلك. ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في عدن، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بربان البويخرة التي سافرت فيها الى جيزان. وكانت هذه المرة تقصد مكلا ميناء حضرموت فقلت للربان : اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة فقلت : واي خطر على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فاجاب الملاح الانكليزي : هو فصل الموت — فصل الـ « منصون » [1] .

ثم قال : وليس لمكلا ميناء نرسو فيه . وقــد لا تسمح الانواء

(١) المنصون Monsoon ريح تهب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري في بحري الهند والعرب شرقاً لشمال فتحمل الامطار الى الهند وجنوبي اليمن . وهي ريح صرصر شبيهة بريح السموم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي والبحر العربي اشتداداً يروع حتى الملاحين .



بالرسو في عرض البحر . وانت تعرف باخرتي ، عرفتها في هدأة البحر الاحمر ... فكيف في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ .

فانتصحت آسفاً . فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء عن حضرموت اخذته عن رجال من ذاك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة . وهذا بعض نقص في كتابي .

اما مسقط وهو اول بلد في شبه الجزيرة دخله الاوروبيون والاميركيون (١) فلظني ان العروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه . وقد اكون مخطئاً فأتوفق في المستقبل الى تلافي هذا النقص الآخر في الكتاب .

وهناك عمان وقطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوباً الى مسقط ، وفيها اربع او خمس « مشيخات » مستقلة . فما عذري فيها ؟ اجيب بكلمة واحدة : العجز .

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتوياً الى حد يخشى مع الزيادة الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلأت ماء فلا تحتمل من الزيادة نقطة واحدة . وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور تلك « المشيخات » في عمان قبل ان ازور سلطان نجد في الرياض . فلم آسف على ما خسرت في جنب ما كسبت . ولكنني لا ازال اعلل النفس بما فات .

بقي ذاك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة سياسة « بعد الحرب » وأمّرت عليه النجل الثاني من انجال الملك حسين

---

(١) في ٢١ ايلول ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها الخصوصي ادمون ربرتس Edmund Roberts معاهدة ودية تجارية مع سلطان مسقط سعود بن سويد .

الامير عبدالله. فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات الغربية الثابتة الدائمة . قد لا تزول في عهد اميرها الاول ، وقد يكون اميرها الاول الحامل غداً لواء الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك . اما اذا فازت سياسة التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفا الى سمو اميرها ، والتفكير ولو مؤخراً اذا ابقانا الله واياه على مسرح الحياة .

*

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهم العرب خصوصاً والاسلام عموماً ، والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدهـا القارىء في مكانها من البحث . اما الذين لا تهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب ، والاسفار ، فقد خصصتهم بقسم مما كتبت .

وليس في الكتاب ، ادباً كان اوسياسة ، وصفاً اونقداً ، الا الحقيقة غير المجردة ،لان في التجرد ، في العري ، شيئاً من سوء الادب ، ولا سيما اذا كان المجردِ والمجرَّد في الغربة . ولا ينسى القارىء ، اني جئت الى البلاد العربية من ارض قصية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سحت في بعض ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احياناً غير نسيج من الشمس والغبار .فسئمت التجرد ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها وكأنني بالقارىء يقول : ان في احتجاجك على العري شيئاً من الدهاء . فاعتذر اليه في ما قد يعد مكابرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء من تلك الصناعـــة التي يندد بها ارباب الدين على الدوام ، وتمارسها على الدوام النساء .

وما الضرر في اليسير من المساحيق والالوان ، وفي المهلهل المطرز

من الكساء؟ اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلهل اجمل . واذا كانت تؤلم فهي في زينتها ادعى الى الالم والحزن . إلا انها في كل حال لا تجالس التعصب ، ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها مجردة كل التجرد .

وقد تجيء في بعض الامـــاكن ناقصة او مخطئة ، شأن كثير من الامور والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويـدرك موجود ، والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد تناهى .

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما يكن علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سوريا كانوا او في مصر واميركا، اقول : تعالوا سيحوا معي فتعودوا الى ما ابعدكم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في اداب العرب القديمة ، والى حقائق انستنا اياهـا الايام والغربة ، والى حقائق يجهلها كثيرون حتى من العرب انفسهم، والى حقائق ننقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

تعالوا سيحوا معي فتعودوا الى بـــلاد عجيبة على فقرها ، والى شعب كريم على آفاته ، والى امة حرة ابية على ذنوبها . ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية روحـاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غـير اللسان . ولو استطاع لابعدهم كذلك عن اللسان – لقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة توسع الثلمة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنظل دائماً حيث كنا مدة خمسين سنة ؟

ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل مـا يولد الحب

والاعجاب . وان الروح الذي يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاءالله في مسعاه . فقـــد بددت الايام والاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامم الاجنبية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا « البعبع » في العرب .

امين الريحاني

الفريكة : لبنان
في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و ٢٣ شوال سنة ١٣٤٣

الملك حسين بن علي

الحجاز

حدوده : نجد شمالاً العقبة وامارة شرقي الاردن ، جنوباً القنفذة وجبال عسير ، غرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف عليها وغير واضحة .

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف واكثرهم من البدو .

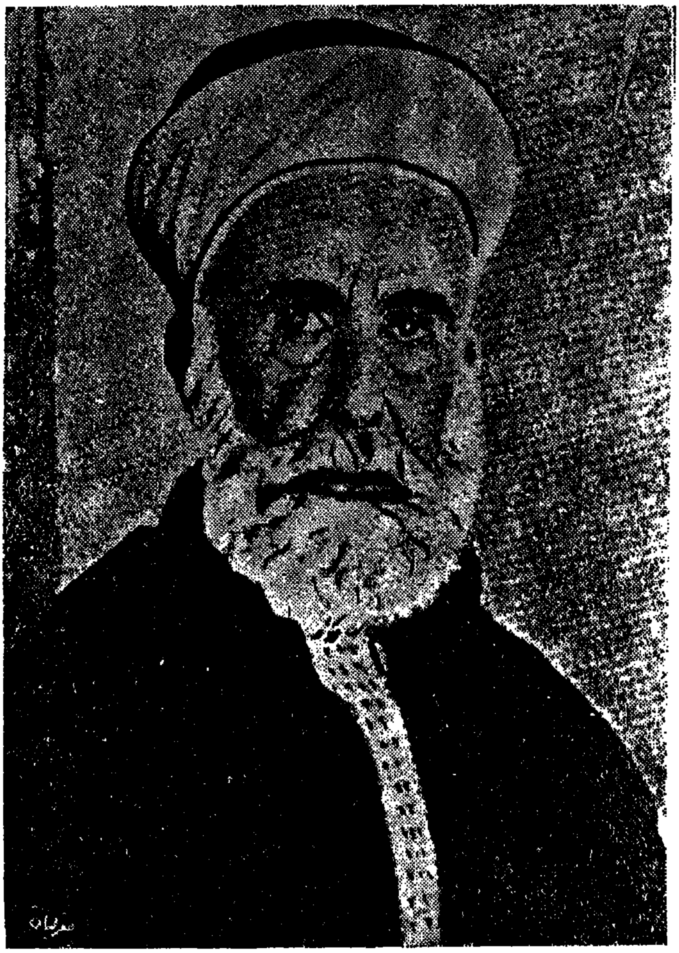
مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والحويطات وبنوثقيف وبنوسفيان .

الاشراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش .

اهم مدنه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف . وعلى البحر : جدة وينبع والوجه .

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع . والشيعة : جعفريون وزيديون .



جلالة الملك حسين بن علي

البدو والحضر

التلفون في الحجاز – عربية لا رطانة فيها – قدوم الملك – رسمه وحقيقة محياه – الديمقراطية العربية – العقال والعمامة–الحضر والتترك – تقبيل اليد والركبة–المقامات والقبلات – البدو – خشونة الحرية – التاجر والمقاتل – الملك بين الاثنين – اللغة التي يفهمها البدو – الانكليز – العرب والاسلام – السوريون في امـيركا – الملك يدعوهم الى الحجاز .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطئت لاول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف العرب غيره من مـلوك العرب . جئت من نيويورك ازوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديقان لي في خدمة جلالته ، هما قسطنطـين يني والشيخ فؤاد الخطيب . وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها .وكانت اولى دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بلّغ جلالة الملك بالهاتف خبر وصولي.

الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرَب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها آلو آلو . الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .

– مركز ، اعطني مكة .

لا ابطاء ، ولا تسويف ، ولا مشاغة .

– مكة ، محافظ جده يتكلم. الديوان . خير . قل لجلالة الملك . . . خير . . . خير . . . ابشر .

ثم كلمني الحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ، لذلك لم ينزل لملاقاتكم . ولكنه يجيء اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد : ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالته وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلمائها.

وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية؛ ثم ناظر المالية ، ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صافحته مسلماً سلاماً عربياً ـ حي الله مولاي بالخير . ولا اذكر بأية كلمة حياني . ولكنني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التقشف، فتبدو في السجاد العادي ، وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران العادية الخالية حتى من الآيات ، كأنها تتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين الاجانب فقط ... ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .

من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسّنون في بعض الاحايين صور الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . اما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبا واميركا اثناء الحرب فهو لا يشبهه ، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها

شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

كانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً قطوباً جافاً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محيّا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأديب الغربي . ولاغرو ، وهو من بني نُمي من سلالة الرسول ، وقد اقـــام عشرين سنة في الاستانة . ان في وجهــه كما في حديثه اذن عنصرين من الانس والكياسة مما غابا ويا للعجب في رسمه ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي فهو رقيق الاديم صافيــه ، عدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منهــا للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فألطف من النور في عينيه . واما انامله فان فيها دليلاً افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل . وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك عن احد احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين ، وهو عقال بني نُمي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . واذا اعتمّ الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هاك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها .

جلس الملك في زاوية من الديوان واشار الى يمينه فجلست وفيّ بعض

الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جده و كبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المنقذ الاكبر ، مهنئينه بقدومه السعيد . فانتهت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا ادري ايبتدىء في الحجاز التترك في البلاد العربية ام ينتهي .

دخل عرب المدينة ، عرب جده ، مطأطئين الرؤوس ، مكتفين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والآخر ثلاث مرات . ومنهم من قبل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملكية . وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم . وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون .

ان التقبيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية . وكل من المقبلين والمقبَّلين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يخجل من ان يعرفه سواه . اجل ، ان بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمنع عنه يده ، بوناً شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس . واذا خفي على عرب البادية ، على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكترثون بها .

يجيء البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي «يا بو علي» وهو سامد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجته لهجة الاكتفاء والقرناء ، قل هي لهجة ابناء القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشاً من البدو خشونة الحرية . ولا يتغير في الحالين ، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذاك . ايدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقاتل . والاثنان لازمان ،

فنأخذ من الاول لنعطي الثاني ،ونذل الاول احيانا لنتمكن من الاخذ والعطاء ، ولا سيما اذا كان الثاني خشن الخلق ، صعب الشكيمة ، ويحمل فوق ذلك البندقية. والبدوي لا يفهم غير لغتين، لغة الدينار ولغة السلاح ،بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده . اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار .

– البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون .

اقول : صادقون . وهم يرعون العهود .

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر، بل فيه باب للريب فسيح. الا انه اراد كما علمت بعدئذ غمز قناة الانكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية. انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز، قلما يصرح بفكره، وقلما يشرّف عدوه بذكره. ولكنه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الآيات ورواية الاشعار وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام ، وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او ببيت من الشعر –«من اعز العرب اعز الاسلام– اعتصموا جميعا بحبل الله ولا تفرقوا– الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه – لا نحارب الا دفاعا عن انفسنا اقول: دفاعا عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة ... وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات. حبذا السوريون لو جاءوا من اميركا واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون. اقول: ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

ــ نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمها ، اقول : واعظمها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب. سمعتم ، يا حضرة النجيب صوت الضمير . عدتم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكناً ـ اقول يا حضرة النجيب ـ كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع . ثم نهضوا مستأذنين ، وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فأشار جلالته تلطفاً ان اجلس . فعدت الى مكاني . ثم قال ، والا عتذار في صوته وكلامه ، صحيح فصحيح : ان حياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت يا ايها العزيز ، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة ... فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكتني باشارة من يده ، وافحمني بل زادني خجلاً وعياً ، اذ قال : الا نقطع فرسخا لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا .

من الضب الى الطب

التبادل بالمحامد والواجبات – الانكليز – دواء الغيظ – الناظر الجبان – الحشرات والدبابات – الضب – درس في علم الحيوان – اعقد من ذنب الضب – قنصل انكلترا – انتقام الملك – اضحوكته – افصح المحدثين والطف الجلساء – الغاز الديوان الهاشمي – التعقيد في السياسة – شخصية ساحرة – الباقي من قريش – بنو سعد – الطب – الكي – « وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد » – مجيء الطبيب من مكة – العلاج .

ان الملك حسيناً ليعتقد بمبدأ التبادل في المحامد والواجبات، ان كان في السياسة او في الاجتماع . وعنده من الدين على ذلك براهين لقد امرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة. هذا هو التبادل بالمحامد والواجبات . وقد اخذ الانكليز منا عهداً بالقتال فاقمنا على العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولكنهم ويا للاسف نقضوا العهود .

عندما يذكر جلالته الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغم فينادي احد نظاره، الناظر الحضرمي، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مفزعة ينشرح لها صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التأثر من غريب الحركات والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والزحافات وفي المبادهات . وبكلمة صريحة هو جبان ـ الجبان الاول في الديوان الهاشمي، اما الثاني فهو الناظر الشاعر. اذ كل شاعر في رأي جلالته جبان .

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات، ولا «بعبع» السياسات يحدث فيه ما يعد عيباً في الرجال. انه لشديد البأس ثابت الجنان. يوم ضرب الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت

لا يبالي . اما الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والزحافات التي يرثي لحالها ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بهـــا ويدرس اخلاقها وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد الهموم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز .

جاءني احد عبيده ذات ليلة يقول: سيدنا يبغيك. فأسرعت اليه فاذا بقنصل بريطانيا هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألني قائلاً : اتعرف ايها العزيز الضب؟ فقلت: في الكتب فقط يا مولاي فقال: سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف. وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد ـــ هات الضب .

نظرت الى القنصل وكان ينظر اليّ ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد وبيده حيوان شبيه بالحرباء فأخذه الملك منه ووضعه على الديوان بينه وبيني .

ـــ هذا يا حضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو يربته بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو سيفه ودرعه .

قال القنصل : انه يشبه الحرباء واظنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة الملك فقال ، الحرباء غير الضب ، والفرق البيّن في الذنب .

ثم اومأ الى القنصل ان تقدم وافحصه فنهض ودنا من الضب، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها. فبدت في وجه القنصل علائم الالم فضحك جلالته، واستأنف الحديث ـ هذا ضب صغير ياحضرة

القنصل ، وقد رأيت منه ما يزيد طوله عن الباع ــ كأنه ضب السياسة . والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ،فقد يقتل خصمه بضربتين. اقول: بضربتين. اماهذا الصغير فلا شرّ فيه يتقى ولا خير يرجى .

دخل اذ ذاك الحاجب ينبيء بقدوم الناظر الحضرمي .

فقال الملك : بلى بلى ، فيــه خير (اي في الضب) وهو يواري الحيوان تحت جبته .

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ،فأشار الملك الى مجلس قريب منه . وما كاد يتبوأه حتى مُدت اليه يد الجلالة ،وصاحبها هادىء البال ، وفيها الضب ،وضعته في حرج الناظر المسكين. فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ،ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك. فقهقه الملك وكاد يستلقي ، وضحكنا كلنا ضحك الصبيان ، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً متكتفاً على عادته ، وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيّدها التأدب. ولكن صيحة الحضرمي ووثبته فكتا منا القيود فتساوى في فترة بهجة الملك والشاعر والعبد المملوك. الا ان جلالته كان اول من ثاب الى الرزانة فخاطب الشاعر موبخاً : لا حق لك انت بالضحك . لا حق لك حتى تركب الطائرة او في الاقل الخيل. والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثنين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب.

عندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الذ ساعة قضيتها مع جلالته وهو في غير موضوع السياسة افصح المحدثين والطف الجلساء . فظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم . ولكني علمت بعدئذ ما يقاسيه الوكيل البريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار عن رموزه . وخبرت بنفسي اثناء اقامتي هناك ما لجلالته من القوة في التعقيد ، والبراعة في التورية والابهام . بل هو يطوف حول نقطة

سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها. فيدنو منها اطواراً في بعض الاحايين ثم يبعد عنها منقلباً مسرعاً ، وجليسه ، وهو يعدو مبارياً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار، يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكل الاسرار، فيتلفت ليرى اين هو من صاحب الجلالة فيراه ، واأسفاه! بعيداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول. والمصيبة في السكوت مثلها في النطق. فاذا قال : فهمت يا مولاي كان من الجاهلين . واذا سكت ظُن سكوته استهجاناً . فيهز برأسه تخلصاً من الاثنين وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الختمة .

وطالما استمالتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بعقولي الى السر في يديه وفي ناظريه ، وكنت كالمسحور في فيضٍ من المغناطيس يسيل من اناملة ومن نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحرٍ ينسيك شقشقات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تزري بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجنان . يبسط يديه اشباعاً اذا احس من نفسه انه افحمك ، ويضمهما الى صدره تلطفاً اذا توقع منك جواباً . ويعالج عقاله او يحرك عمامته اذا رأى منك فتوراً او ادباراً . ويغير جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل. فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو امامك السحر الحلال مجسداً !

كنت اغتنم الفرصة عندما يفك حبوته او يعقدها فاسأله سؤالاً لا علاقة له بالموضوع ملتمساً لفعلتي العذر في حب العلم وفي السياحة من اجله :

— نعم ايها العزيز الباقي من قريش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة اقسام : قريش الاعاضيد ، وقريش القَميس ، وقريش الطائف . ولا يزال بينهم وبين

السلالة النبوية كثير من الحس والعطف ... اما بنو سعد ، وهم الذين ارضعوا النبي، فديرتهم قرب الطائف، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة ويتوارثونها بعضهم عن بعض ... هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى تداوى بالكي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكي .

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى واكتوى فاراني اثر الكيين، واحد في زنده الايمن والآخر في ساقه اليسرى .

– السر في مكان الكي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل بالاعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض . لذلك لا يتركون الكي مفتوحاً ليخرج منه الصديد، كما يفعل غيرهم ، بل يختمونه حالاً بشيء من الملح ، اقول : بشيء من الملح ، يذرونه عليه .

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على الم، فسألني عنها فأخبرته فقال : وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد . وبعد يوم وصل الطبيب من مكة . جاء بامر جلالته يداويني فسألني ثلاثة سؤالات فقط، ولم يفحصني والحمد لله فحصاً طبياً ، ثم قال : لا ينفعك الكي . سخّن السمن وخذ الثوم دقه وامزجه فيـــه وادهن ثلاث مرات كل يوم ، وستشفى باذن الله تعالى وتذكرني بالخير . قال هذا وودع وانصرف .

وها اني اذكرك يا أخا العرب، يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك، يا خير من قابلته في حياتي من الاطباء. وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك، وذاك النور في ناظريك، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك. وسأذكر كذلك انك لم تصف لي ما هو اصل علاجاتك كلها كما يفعل الاخصائيون في البلدان المتمدنة . بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء واصدق الاطباء . سأذكرك دائماً يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك لاني كلما ذكرتك انسى آلامي ، وهذا لعمري خير علاج وانجع دواء .

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين – الحجاج وبئر زمزم – المياه المقدسة المعدنية – الاوبئة – قني الماء في منى – للطاهر كل شيء طاهر – والحنفية لا تضر – القضاء على المكروب – المستشفى في مكة – تقرير مدير الصحة العام – المحجر الصحي في جزيرة ابي سعد – محجر الطور – محجر قمران – البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق – المعاهدة الانكليزية الحجازية – اسباب الصحة واسباب الاستيلاء – جوقة الموسيقى الملكية – طريقة الملك في اصلاحها – كتاب من جلالته .

ان لجلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير عون الرفيق الذي حمل مرة على الاولياء وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم. اما جلالة الملك اذا حافظ على تقاليد فيهـا بقية ، او ليس فيها شيء من الخير ، يسعى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطالها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند، لشدة ايمانهم وتفجر بركان اجتهادهم، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً، واعتقاداً منهم انها اسرع واسلم طريق الى الجنة. فلم يقل الملك حسين ان هذا غلو في الدين، ولكنه أمر بوضع شبك من الحديد على فم البئر فقطع بها الطريق القصيرة –المقرّبة في لغة اهل اليمن– على المستشهدين . ولعله يقبل اقتراح احد رجاله المجنونين بالمشاريع الاقتصادية جنون اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجيج – ماء مقدس ومعدني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستثمر، تُستثمر في سبيل الصحة العامة . وقد باشر جلالته بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة للحجيج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليها . وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب . ان قني الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهمهم المكروب، وهم يدوسونه بارجلهم، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه. للطاهر كل شيء طاهر. والملك حسين كذلك يقول هذا القول الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة. وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل . ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية اسهل منه عباً او صباً .

عقد الملك النية على ان يحجب عن الحجاج وجه المياه، فأمر بان تغطى القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات ليشرب الحجاج منها. وهكذا قضى على المكروب او كاد . ثم أسس مستشفى في مكة[1] مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض . انه ليبغي سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شيء .

وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به

(١) جاء في تقرير بعث به اليّ الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة : اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة اقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً . قسم منها لتمريض الجنود وافراد الشرطة . وقسم لتمريض الاهالي . وقسم لتمريض النساء . وقسم لتمريض الاطفال . وقد اختص المستشفى الاهلي لتمريض الفقراء المحتاجين . اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر مضت فهو كما يلي :

٣٤٩٥	برسم المعاينة
٠٣٣٠	برسم المعالجة في المستشفى
٣٩١٧	تغيير القروح
٠٠٣٤	الوفيات
٠٠٢١	عمليات جراحية

ويلفت اليه نظر الانكليز قائلاً :

ـ وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قمران وهذا محجرنا كامل الاجزاء ، نظيف الزوايا والارجاء ، ولا يُظلم فيه الحجاج ولا يُغبنون ! هم ابناؤنا واخواننا ، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا .

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئة ونيف من حجاج جاوا ، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها. فعفروا ــ ولا استعارة ــ امامها وجوههم ، وقبلوا اليد والجبة والركبة والرجل الملكية ، ثم التراب ، ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل ، وان الخدامين ، وعلى رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام رديء واثمانه غالية ، وان غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيها الحجاج ثلاثة ايام فهي نظيفة لانها خالية خاوية ، يلعب فيها الهواء على الدوام. وهذه لعمري فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

انتهى الينا يوم كنت في جدة خبر البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق ، وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك ان يدعوها لفحص المحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص فيه فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وأمر ناظر الخارجية ان يبعث حالاً بلبأ برقي الى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بان يدعو البعثة المذكورة لزيارة المحجر الصحي في جدة وفحص اسباب التطهير والصحة فيه . ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً .

ـ تأمل يا حضرة النجيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير قلما يفيد ، ويأخذون راتباً في قمران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعد لتتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا

مستحيل ، اقول : مستحيل .

ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس وحداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها ، ان يكون لبريطانيا الحق في تعيين اطباء بريطانيين في جزيرة ابي سعد. فأبى الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض اطبائهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يخشى . الا ان اساليبهم الحديثة لتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية ، وقد تنحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قمران في الجنوب منه. فاذا أمر الملك باقفال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قمران فينتفع بها . وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح والعمران التي تقدم ذكرها.

والى القارىء مثال آخر منها : ان في مكة جوقة موسيقى ملكية امسى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة. وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وتزعج جلالته كل يوم ضعفي الثلاث المرات ، بل تكاد تخرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يُعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد افرادها يعين الملك من يخلفه . وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في وضع حد لهذه النكبة واستئصالها .

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزمارين فقال الملك، وما الضرر اذا نقصت زمراً؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيماً. وانه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

اين المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا مثلي ومن ملتي فلا يتجاوزون في مسيرهم حداً [1] ولا اظنهم ينالون جزاء سعيهم اكثر مما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جدة عاد الى مكة لاشغال هامة وظل معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ فؤاد، المؤلفة من امرىء القيس والنابغة الذبياني والاخطل والمتنبي ، وكان الشيخ قسطنطين بني راعي الكاس والقرطاس فلا يدع فرصة تفوت او كلمة من الشعر تموت .

ومع ذلك غدوت كئيباً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكو فيه ألم الفراق والالم الاخير الاشد من تقليد عقيم يضطره ان يحرمني زيارة ام القرى . فكتب اليّ يعتذر — وتوقيعه الملكي في رأس الكتاب — عذراً لطيفاً عذباً يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته .

عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام. بانامل الشوق تلقيت رقيمك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة ، كان خجلي من بقائكم في جده هذه المدة وتخلصكم

---

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي : حداء بالفتح ثم التشديد والف ممدودة واد فيه حصن ونخل بين مكة وجدة يسمونه اليوم حداً . قال ابو جندب الهندي :

بغيتهم ما بين حداء والحشا   واوردتهم ماء الاثيل فعاصما

جنى على نفسه حرمان لذاته واستفادته من فضائلك وكرائمك ، فان مهما جسمت ضرورة اسباب هـذا الحرمان لا اجده الا حجة علي . وعلى كل حال ففي كالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان . وبها متسع محيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية التي احكم بها على نفسي الا اعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما تهتمّ لها فضائلكم . والله يحفظك ويمنّ عليّ بتلافي ما فات عزيزي . »

فهل في مروج الذهب ورياض الجنة الطف من هذا الكلام واعذب؟
عاد جلالته بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يراضيني به . وكفى بمجلسه رضوة وسلوانا .

ملوك العرب

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوك – الالقاب – الهدية – البدوي الجديد – تلميذ في البداوة – حقوق « الخوة » والحماية – الضيف السارح – الطنب السابح – رفيق الجنب – الاستنجاد – المحاكمة عند البدو – الجزامون – المخبرون – المساوون – الطب في جوار مكة – الاوهام – الناقة التي لا ترضع ولد غيرها – حيلة الاعرابي – عسل الحجاز ورمانه – شهادة الخديوي عباس وشهادة السلطان عبد الحميد – نادي الصلاة – غاياته الثلاث – اعضاؤه السبعة – جلال الدين الرومي – ناي يحن الى الغاب .

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت فانك تقبل ما يقدم لك أو ترفضه ، وتطلب او تتمنى ما تشاء ، ولا رسول بينك وبين مضيفك غير رسول الادب والذوق . اما في الضيافة الملكية فالامر غير ذلك . والقاعدة الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك او ينعم به عليك .

وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة والخشونة ، هم مثل سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك . لذلك هم يعينون ، فوق من ينتدبون لخدمته ، رجلاً يقيم معه فيكون له رفيقاً وسميراً ، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك المزعجات .

كان صديقي قسطنطين يني هذا الرفيق السمير الرسول ، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدثني بالالقاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميركا عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في الموضوع . وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سركيس قبلي ، فقلت : وعسى ان لا اضطر مثله ان ارفض شرفاً

هاشمياً . ان امري في يدك يا قسطنطين . تدارك النعمة قبل حلولها . فقال : والهدايا ؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئني منها .

وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل اليّ كسوة عربية وخنجراً مكياً ، وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ، الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الالقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الاعلاق لا يحوزها غير المقربين .

لبست القميص البدوية ذات الاردان ، ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ، وتمنطقت بالخنجر[1] ورحت تواً اشكر صاحب الجلالة . فلما رآني في هذه الصوره بسط ذراعيه هاتفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست من شدة التأثر بشيء غشي عيني ، فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد ، فما وجدت حتى الجيب فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء قنصل فرنسا وبعض التجار مسلّمين فانتقل جلالته الى البدو — اكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة — وحدثنا في حقوق الحماية والخوة .

— ثلاثة لهم حقوق الخوة والحماية : الضيف السارح[2] والطنب السابح[3] ورفيق الجنب[4] واذا دخل الضيف السارح بلداً او «ديرة» يضيفه اول

(١) يدعى الخنجر في الحجاز قدمية ، والقاف تلفظ جيماً — جدمية — لانه يحمل من قدام ويدعى في اليمن جنبية لانه يحمل على الجنب .

(٢) من كان في سفر .

(٣) من دخل الديرة مستنجداً . ويراد بالطنب بيت الشعر ، وهو من باب تسمية الشيء بجزء منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .

(٤) اي رفيق السفر .

بيت يمر به . له الحق الاول في الضيافة. اقول الحق الاول. فاذا تجاوزه السارح الى جاره يعدها اهانة فيطالب الجار به – مرّ الغريب بيتنا قبل ان يمر ببيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار . . ومن اضاف سارحاً ايها العزيز، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرحل . والاستنجاد ، نعم له حدود . يرفع العرب الاستنجاد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستنجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قتل عمداً بحياتين .

وللبدو طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . ومن تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلالته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لاثبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصمه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزّامون ، واربعة هم المساوون . ويحلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزّام : القضية كذا وكذا . ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا . ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزّام يبسط الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتمدنة بل فيها ما هو اقرب للحق واضمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصمه . وما اشبه المساوين عند البدو بالمحلفين عند الاوروبيين .

قلت ذلك لجلالته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الاوروبيين بكل

فضيلة. عندنا نحن العرب بعض الفضائل . وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك. ليس كل ما يجيء من اوروبا خالياً من الغش او من الشوه والشين. قد يجهل الاوروبيون اشياء نعلمها ونعلّم بها. خذ الطب مثلاً. قد شاهدت ايها العزيز اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبنا فتقول لهم اذ ذاك: جاءني الشفاء من جوارمكة من الله.

ثم قال: وقد يكون في ما تشكو منه بعض الوهم ايها العزيز اقول: بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل . من النوق، لمزاج فيهن او لعلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهنّ فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى، وهذه لا ترضعه لانه ليس بولدها . فيحتال الاعرابي على الناقة، ويسلط عليها الوهم. اقول: يسلط عليها الوهم. وكيف ذلك؟ انه يضع في حيائها خرقة مطوية او شيئاً آخر يسمونه الدُرْجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياماً، فيأخذها غم كغم المخاض. ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدُرْجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضعه .

وكان ينتقل جلالته من موضوع الى آخر وفي كل منها المستغرب من اللذة والبسط المفيد من الحكم والامثال . وهي ببـــلاد وشعب يعرفهما كما يعرف الكتاب الكريم .

— ما حرمنا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمنا كل ثمرة من خيراته . قد انزلناك بواد غير ذي زرع. هذا صحيح. ولكن الحجاز، على فقره، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمانه. عندما جاء الخديوي عباس حاجاً أكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين: واشهد ان لا عسل في العالم مثل عسل الحجاز . اما الرمان، وهو يجيء من وادي ليّه قرب الطائف، فيصير كبيراً كالجبجب (البطيخ) وهو كبير الحبة خال من البذر.

اكبر والذ ما في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا اجمل رمان جاء من اجمل بقعة في ارض الله، وهو يليق بالهدية. كذلك ينادي بائع الرمان : من وادي ليّه ، للهدية. نعم ايها العزيز في عسلنا ورماننا برهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب ، عرب الحجاز .

وكيف ينساهم وفي جدة مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله في مكان آخر . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام. هو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد، فيصلون المغرب اولاً، ثم يبادرون الى اكرة من حديد فيتمرنون ويتبارون في رميها، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الادب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل، بعد الرياضة الروحية ، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها . لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله، ولا اظن ان فريقا من الناس غير اعضائه ، غربيين كانوا او شرقيين ، توصلوا قولاً وفعلاً الى غايات الحياة القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معا .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها، ثم نذكر نعماءه في الاجساد فنسعى دائما في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعماءه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطا .

ان نادي الصلاة في جدة هو مقاصد الحياة كلها . ويصح ان ندعوه نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا ، فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفوة الناس ، كلهم اتقياء عقلاء حكماء وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على نقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبني شيخهم الا كبر في رمي الا كرة ، وغلبني شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الا كبر الذي يرمي الا كرة كالشاب ومن هو الاصغر؟ اما اذا ادخلت القارىء الى النادي الفريد في قصده ومقره فينبغي لي ان اتمم العمل فاعرّفه الى الاعضاء وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط.

هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الا كبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بمباي ويعرفه ويحبه كل الاولاد في جده. ذلك لانه في عيد الفطر يخصهم بقسم مما كسب في الاتجار. فيجلس في ايوان داره والى جنبه اكياس من النقود الفضية، ريالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء وخصوصا على الاولاد. يمرون امامه صفوفا في ذلك اليوم وكثيراً ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبور.

وهذا اخوه الحاج عبدالله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الا كبر وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد ، وان عدل الحاج عبدالله في الحكم ليجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية التي انشئت في جدة .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جدة الا كبر وامير الكتب فيها. فان عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف. لا يقتنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع بها . يجيء الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية ، فيعيرهم ما يشاؤون منها ويشتري ما يعرضون من مخطوط او مطبوع .

وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى

مصادر الثقة في العلوم الادبية والتاريخية والفقهية .

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل يشركون بين الاثنين ، او بالحري يجعلون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون الدمقس والاستبرق ويتطيّبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخمسة الجنيهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة ، ولا الخمس الصلوات يصلونها كل يوم .

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وآنقهم كساء ، وألطفهم مبسماً ، وأقدرهم في عد الاموال وتصريفها . اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي . وعليه دفع الكبيرة والصغيرة ، فاذا شاء جلالة الملك ان ينعم احداً بمئة روبية يحيله على الطويل ، واذا شاء شراء باخرة او سرب من الطائرات فالدفع على الطويل .

ولا اظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محمد في علمي الادارة والاقتصاد . ولا يفوقه يقيناً في النزاهة والاخلاص .

وهذا الملا حسين الشيرازي العالم باسرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح القناديل وآلات الخياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين رومي باللغة الفارسية ، فينشدو ولا شدو البلابل ، فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف .

قال مولانا جلال الدين : اني عود ُقطع من الشجرة وُصنع منه الناي فهو في صوته يحن دائماً الى الغاب .

واني وان كنت ضيفاً سارحاً احس باني عود ٌقطع من تلك الشجرة المباركة شجرة نادي الصلاة في جدة ، وصنع نايا صغيراً . والناي يحن دائماً الى الغاب

الملك حسين

قرون السياسة

الضدان والقبلتان–البعثة الفنية ونتيجة اعمالها–النقابة الوطنية–شروط الامتياز الذي طلبه النعماني – مدرسة الزراعة – المدرسة الحربية – الضغط على تجار جدة–قصة الاسطول الانكليزي والاسطول الهاشمي – تعليم اولاد العرب خارج الحجاز–«سيدنا لا يأذن به»–الموسيقى وشرب الخمر – الطيارات والدبابات – نادي الكأس – مفزعة الحجازيين – شيخ الاسلام وبابا رومة – البدو جهل مسلح – «الهاشميات» لا تصلح شيئاً – ذوو حسن – بدو الرويس – اللبقوم – جاه سيدنا – شيخ حزين – «اتبع من تختارون»–التساهل في المؤتمرات – فيصل ضمناً وصراحة – وزيد وعبدالله – «ان ابناءنا اعداؤنا»

في كل كبير تجتمع الاضداد ولكل كبير من العرب اليوم قبلتان، قبلة الدين وقبلة الدنيا،فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم، ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه. ياقبلتي ساعة نلبس،وساعة نأكل،وساعة نركب السيارة. ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب، كثيرة النفقات. فينبغي لنا اذن ان نستعين عليها بالمعاهدات الدولية ، والقروض المالية ، واما بالبعثات الفنية والامتيازات . وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد.

في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني الى سوريا ليبحث له عن اخصائيين مهندسين واطباء . فعاد قسطنطين الى جدة ومعه بعثة كاملة من الفنيين ، ابناء العرب النجباء ، المخلصين للقضية العربية ، والمخلصين كذلك للذهب الوهاج ، كما اتضح بعدئذ . جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين .فاقاموا في الحجاز سنة ينقبون ويبحثون،ويقيّلون،ولكن

اعمالهم لم تسفر عن شيء مفيد . ولا يعلم جلالته اليوم اكثر مما كان يعلمه قبل قدومهم . نعم ، ان في جوار الوجه نفطاً ينبع على الشاطىء من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطلقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الالماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية فنية تستثمر هذه المعادن ، فتتخلص جلالته من ظل مخالب الشركات الاجنبية .

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الحظوة لدى جلالة الملك . وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة الممتازة [1] لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات . وقد يكون «لشركة المشاريع العامة» [2] في جدة كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه .

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شيء مفيد . وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة . وقد انزلناك بواد غير ذي زرع .

---

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عملية الاستثمار وتحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسعار تبنى على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبا .

وتتكفل الشركة بانشاء خط حديدي بين جدة ومكة وخط ثان بين ينبع والعلا لحساب الحكومة . وتسلم هذين الخطين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها فيصيران ملكاً للحكومة . وتستوفي الشركة قيمة ما تصرف على انشاء الخطين مع الفائدة القانونية من واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة .

(٢) هي شركة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ويدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل ان تعطي امتيازاً لاحدى الشركات .

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها. ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق، وقد يستنكرون ذلك. اما اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو، بدل ان يدفعوا لها، راتب التعليم وليس لجلالة الملك من الموارد الآن ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكانته وقوته قبل وقعة ترَبه[1] وما وقعة تربه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها.

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيد اليهم، بوساطة الجيش النظامي، عزاً قضى « الاخوان » عليه. ولا غرو انه يخص التجار بما يستوجبه تسليح البدو. فاذا أبوا يستشيط غيظاً ويسترسل الى نزعة فيه تركية اكتسابية. قيل لي انه في ساعات الغضب مخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة، بريئاً كان او مذنباً، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته.

رسا الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جدة وكان حديث الناس، فقال احد الظرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه. ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً فوصلت الكلمة الى جلالة الملك، فطُلب الرجل الى مكة، وانزل السجن عند وصوله اليها، وظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه، ودون محاكمة، ثم جيء به الى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الاكبر، فقرصت اليد الملكية اذن ذاك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها.

---

(١) جرت وقعة تربة في البلدة التي تدعى بهذا الاسم وذلك في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبدالله المنظم الذي كان محاصراً المدينة ولم ينجُ منها غير الامير وبضعة من رجاله. راجع تاريخ نجد وملحقاته، للمؤلف نفسه

حدّثتُ احد وجهاء جدة في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله – لا الى اوروبا – بل الى مصر او الى سوريا ليتلقى العلوم فيها . فقال : وهذه رغبتي ولكن سيدنا لا يأذن بذلك . وقد تأكدت ان في جدة غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز – في القاهرة او في بيروت – ولكن سيدنا لا يأذن به .

الا هو الشرع ، لنعد الى الكتاب والسنة . وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملًا ، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن المشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان ككفر كبير ، فهو من الويلات التي يحاربها المتشرع الحكيم والحاكم البعيد النظر . اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود .

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهمهم فوق كل شيء سعادة المسلمين الدائمة السرمدية . وهذه السعادة التي ذكرها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلًا لا تقوم بالموسيقى ، والرقص وشرب الخمر ، وكسب المال ، او بالتعلم في المدارس الاجنبية .

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمدية » بضرر ، كالطائرات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كآلة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحاً ، او كمعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الاذهان ، ويفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة .

– لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ،

من الانتفاع بالكمالات .

ان في جدة افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين، عالم المادة وعالم الفكر، وخبروا الزمان، ولم يفقدوا كنز الايمان . وهم يرون في التعلم، حتى في مدارس الاجانب، غير ما يراه صاحب الجلالة ولكنهم ....

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

وفي جدة اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف، فيطربون لصوت العود، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسنون لعب الـ « بوكر» ولكنهم، اذا جاء المعلم، يتأدبون واذا غاب يلعبون . يكفي ان اقول ان في جدة غير نادي الصلاة . فيها نادي الكأس ايضاً ، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزون العدد المقدس لا يجتمعون الا مثل الفوضويين سراً . حدثني احدهم وكان الاحرى به ان يستعمل ضمير المتكلم بدل الغائب ، قال :

– عجيب يا استاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي ان الخوف يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون . فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مسترسلاً في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم، وهو البارع الحاذق في افانين الحديث، فيغير الموضوع دون ان ينتقل منه او ان يسيء: عندما كنت في الاستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني :لا يُصلَح هذا الكون الا بامرين ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصلحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيله علم مسلح .

— احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه الغاية

— اقول لك بحرية ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو حسن[1] الى آخر الدهر لصوصاً عصاة ، وبدو الرويس[2] لا يتغيرون ولا يصلحون . والبقوم[3] يتذبذبون وينافقون ولا يذعنون الا للقوة وانتم — صل على النبي .

بينا نحن في هذا الحديث جاء الاميرزيد ينبئني بان جلالة الوالد قادم لزيارتي . فارفضت الجلسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . فخففنا الى استقباله ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلاً من رجله يلبسه فوق حذائه ودخل فجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء الخادم بالقهوة وجاء عبد جلالته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظل في وجهه الصافي الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي الانكليز ، وفي فيصل .

---

(١) هم اشراف ذوي حسن يقيمون بين الليث وجده يقطعون الطريق براً وبحراً فيسلبون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديبهم .

(٢) بدو الرويس . مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال بين ينبع وجدة .

(٣) البقوم عشيرة تسكن تربة والخرمة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي ، اشراف الحجاز ، والسلطان عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهابيون . وقد فصل السيف ، سيف نجد ، بينهما في وقعة تربة .

– لا تظنني اشكو يا ايها العزيز النجيب اقول ، اننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعبت المشاكل وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب . والسوريون من صميم العرب . فاذا صعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفاسد المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استثني اقرب الناس اليّ – اقول : اقرب الناس اليّ يخونون او يخطئون – فالحجاز يتبع سوريا وانا يا حضرة الفاضل اتبع من تختارون للخدمة وللزعامة. اقول : اتبع من تختارون ... وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر جلالته يحمل حقيبة فأمر بفتحها ففتحها وقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً رسمية اطلعني عليها .

– ما جئتك شاكياً يا ايها النجيب العزيز ،ولكنها العهود ، وحقوق الاب على بنيه .. ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ،لو امتثلوا لامري ، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات . فتحوا للفرنسيس باب سوريا ،وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية .

قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضمير في « اتبعوا » « وامتثلوا » « وفتحوا » هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الى سوريا ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول . اذن هو ناقم على فيصل . وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبا الى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليلاقيه في جدة كما كان يفعل سابقا .

انها لمن المحزنات . اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف . فلو مثل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكن الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب . ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في

سوريا ، يضيع ما قد يكون كسبه في مفاوضة الاحلاف بباريس ذلك لان السوريين كانوا اميل الى فيصل منهم الى والده لعلمهم انه عصري ، رحب الصدر ، دمث الاخلاق .

فالصلابة التي تفيد في لندن وباريس لاتفيد في الشام . ومهما قيل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يُعزّز زعيماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت اديانها ، واشتدت من جراء ذلك النعرات والنكبات .

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويمحو اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل . وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريدته . يهز على اعدائه السيف واليراع ، ولا يهمه من الملك ماضاع ، وما لا يعطى منه ولا يباع فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير «ملك العرب» لقباً وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقنفذة جنوباً ، رضي امراء العرب ام لم يرضوا .

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية . ولا يلوم العربان ، وفي صدره من العربان دمّلة دامية . ولا يندم على ماتقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة اولاً وآخراً ، وهو لايزال باذن الله قوياً عصياً ، مهما كان من امر «فيصلنا» و «زيدنا» وعزيزنا في شرق الاردن . قد قال بلزاك « ان ابناءنا اعداؤنا » . وما اصدقها كلمة ولا سيما على الاسر الشريفة المالكة .

الملك حسين

بين الاستانة ومكة

اكبر ملوك العرب واضعفهم – ملك الحجاز وملك العرب – فضله الاكبر الثورة على الترك – نشر الدعوة في اوروبا – سيرة الملك حسين – اقامته في الاستانة – رجوعه الى مكة – عون الرفيق – قبر امنا حوا – في ظل الشريف عون – الرجوع الى الاستانة – عضو في مجلس شورى الدولة – امير مكة – الحال في الحجاز مدة امارته – اعلان الثورة – منشور الاستقلال – سورة البقرة – العرب غير المسلمين – الدين في النهضة – الاصلاح التركي – انتصار التترك – عبد الحميد الصغير – مكة وفروق – السن والبسفور

ان الملك حسين اذن لاكبر ملوك العرب سناً ، واظهرهم جلالاً ، وارفعهم من الوجهة الدينيـة مقاماً ، واغمضهم في السياسة مسلكاً ، واضعفهم اليوم سلطة ، واشدهم كرباً وغماً . هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية ، وملك العرب في الجريدة الرسمية ، والمنقذ الاكبر في عين اولئك الذين لا يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز . وليس من ينكر انه كان منقذاً في برهـة من الزمن لا اظن التاريخ يعيدها ، او الاقدار تسمح بتمديد اسبابها ، فتمكن الملك حسين من تحقيق امـال المتهوسين وآماله الوطنية ، بل احلامه الهاشمية .

ان فضله الاكبر لفي ثورتـه على الاتراك ، وان كانت المصلحة والمساومة فيها مرعيـة اكثر من المبادىء التي اعلنت من اجلها . ثم في نشره الدعوة العربيـة في اوروبا ، وان كان ذلك ضمناً من سبيل آل البيت الخاص . ثم في الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام .

ان في النهضة العربية مجد الملك حسين وانجاله البواسل الذين حاربوا في سبيلها، وان في الوحدة العربية المفازات التي ضاعت فهلكت فيها كل امالهم . ومن المسؤول في ذلك ؟ ان في سيرة الملك حسين مـــا يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية .

واليكها بالايجاز .هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون [1] ولد سنة ١٢٧٠ هـ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكه مع والده وجده، ثم عاد والده الشريف علي الى فروق واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ هـ وكان خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وعُين عضواً في مجلس شورى الدولة فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية .

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبدالله بضع سنين وتزوج بابنته عبديه خانم [2] كان الشريف عبدالله يومئذ امير مكة ،وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكسبته شيئاً من الكياسة الاسلامبولية واشياء من السياسة التركية .

(١) في ما تسمى الطبقة الرابعة ممن تولوا سدانة الكعبة ، التي تبدأ سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير نبغ في قومه . فالفرع الذي أسسه في مطلع القرن الماضي من زمن ابراهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيـــد الذي تغلب عليه . وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعان الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نمي . ويتصل نسب ابي نمي بكبير اخر في السلالة الهاشمية هو قتادة بن ادريس . وقتـــادة من ولد موسى الجون . وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول .

(٢) هي ام ابنائه علي وعبدالله وفيصل . وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام ابنه زيد .

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبدالله، منهم الحسن الصالح، الذي قتل في جدة، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته الى الوهابية. فحمل حملته المشهورة على الاولياء، فأمر بهدم القبور والمقامات وكان جهاده يذهب حتى بقبر «امنا» حواء لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون: لك ماتشاء في الاولياء، ولكن حواء ام الناس اجمعين، ونحن نحتج على هدم مقامها. فاقتنع الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر(١)

وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتلألأ ذكاؤه واشتد عزمه وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً، غيوراً على قومه وبلاده، لجوجاً متهوساً. ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى. فراب الاستانة امره، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ ﻫ ليكون ضيف البادشاه واسيره مثل من تقدمه من الاشراف، فأشرب هناك روح السيادة العالية ومبادىء السياسة التي اشتهر بها المابين.

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واسندت

(١) هذا المقام او القبر هو في جدة، طوله خمسة وسبعون قدماً. وامنا حواء مدفونة فيه. وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد منها يبعد مئات الاميال عن الاخر، قد يكون قايين فر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن، ومات ودفن هناك، فان الصيادين يدلونك على كهف عال في الجبل الى اليمين وانت سائر من التواهي الى عدن القديمة — هذا قبر قايين! اما قبر ابينا ادم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي. فهم اي الزوار، عندما يقفون تحت القبة المباركة امام ضريح الامام، يسلمون قائلين: السلام عليك يا علي وعلى ضجيعيك آدم ونوح. ابونا ادم مدفون اذن مع علي في النجف، وبين النجف وجدة حيث قبر امنا حواء ما يزيد على السبعمئة ميلاً. لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير. اللهم لا تشتت هذه الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما شتتت العائلة البشرية الاولى.

اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة، فاستمر في وظيفته الى سنة ١٣٢٦هـ اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة ثم عاد الى ام القرى اميراً عليهـــا ، وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانيه من الحرب العظمى عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك.

ان مايستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام راتب باشا السوداء، كان نهباً للناهبين، ومحط رجال السفهاء من الاتحاديين، فتعددت من فوضى الاحكام المظالم، وغدا العدل شريداً، والامن طريداً، فكان الحجاج والمطوّفون يُسلبون حتى في ظل البيت الحرام في رائعة النهار. ومع ذلك فلم يُغضب الشريف حسين اثمٌ من مآثم الترك يومئذ اكثر من خروجهم، وهو في نظره الاثم الاكبر، على التقاليد الاسلامية البالية. انها لعمري فضيلة فيهم يستحقون من اجلها احترام الامم المتمدنة .

اما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي اصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦ و٥ رمضان سنة ١٣٣٤ فجائت قسمين، قسماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصبر جلالته ثماني سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه، وقسماً نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة . وقد ذكر من الذنوب الاخيرة في منشور الاستقلال «مخالفة نصوص الشرائع الاسلامية» و«اهانة النبي» و« التبديل في شريعة الوراثة الشريفة » و« المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل» و « اعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و « اصدار الاحكام التي فيها مخالفــة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج على اعدام الاحرار في سوريا .

ومنشور استقلال العرب هو أساس الوحدة العربيــة ! أوَلا يحق

لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمين : ماذا يهمنا من نهضة اساسها سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذاك السبيل ولتيك الاسباب الدينية ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده .

لست انكر اخلاصه في احتجاجه على ما يعتقده بدعة في سلوك الاتحاديين . الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد . قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سوريا الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سوريا ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الراقي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس ما يجلو الحقائق مثل الايام ، ولا ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث . ولعمري ان ملوك العرب لا يفلحون ، لا يفوزون فوزاً تحسن نتائجه وتدوم ، ما داموا يتخذون الطائفية وسيلة لتأدية سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهان شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرون سنة ونيفاً ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يحاربهم بسلاح هم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتنك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبا الجهاد ولم يفلحوا ، فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام؟ انها لمن المحزنات . ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين اولاً فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الخيبة

والفشل في سياسته كلها .

يدعونه عبد الحميد الصغير . ولعمري اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز ، لان الامور تقاس ببيئاتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروق ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من اعماق البسفور . فما قول اهل جدة وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذاك الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم ، هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة او المعروف .

بين مكة ودَوْنِن استريت

رسول اللورد كتشنر – التجنيد في الحجاز – الشريف يعتزل السياسة – الفظائع في سوريا – احتجاج الشريف وجواب جمال باشا – فيصل في الشام – حيلة الشريف في انقاذه – رجوع فيصل الى المدينة – رسل الانكليز والمفاوضات – الشروط الخمسة – التأهب للوثوب – كتاب من السر ارثور مكماهون – الشريف يطلق بندقيته – اعلان الثورة – تسليم الحاميات في مكة وجدة والطائف – الشريف حسين ملك الحجاز – اعتراف الاحلاف به – تهنئة الاميرال الفرنسي – كتاب من مندوب بريطانيا العظمى في مصر – السر ردجينلد ونغات .

بينا كان جلالة الملك ونجلاه الاميران عبدالله وزيد جالسين ظهر يوم من الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يبغي سيدنا . وكان الرجل رسولاً خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى الشريف حسين من مندوب بريطانيا في مصر اللورد كتشنر دعوة للانضمام الى مصاف الاحلاف. فابى يومئذ الشريف. ثم كتب اليه خلف اللورد كتشنر السر ارثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودّد .

وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى المدينة ليسلم على انور وجمال عندما زاراها في طلائع سنة ١٩١٦ . وقد كان نصح الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ،ولكنه بعد دخولهم عرض عليهم المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سوريا والعراق ، واعطاء البلدين نوعـــا من الاستقلال بانشاء حكم لا مركزي فيهما. وعندما رفض الترك طلبه والحوا عليه – رغم ذلك – بالتجنيد في الحجاز راح الى قرية خارج مكة يعتزل السياسة الى حين .

ثم حدثت الفظائع في سوريا، ورأسها شنق احرار العرب ، فاثارت غضب الشريف فكتب الى جمال باشا يحتج على اعماله القاسية ، فأجابه جمال ان يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواه. و كان الامير فيصل في الشام يومئذ فخاف الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من الخطر هناك. فكتب الى جمال باشا يقول انه مهتم بالتجنيد وسيشترك العرب مع عساكر الدولة وحليفتها المانيا في الزحف على ترعة السويس اللهم اذا اسرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . فجازت الحيلة على جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة الاف ليرة واربعة الاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف المتردد المتودد ، فارسلوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكما على القدس والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقا خليج فارس، وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر المتوسط، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبهما في خليج العرب، ماعدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والاتفاقات التي اجرتها بريطانيا العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او من الافراد.

ثانيا، تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من

اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعدٍ ، اياً كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية من دسائس الاعداء اومن حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة . وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى الى ان تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها الماديـــة . ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعي فيه حالة الحكومة العربية .

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتهـا الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها.

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق يعد ويسوف الانكليز ويعدّ العدة سراً للعمل الخطير، يتأهب للوثوب . وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتابا يعلمه بذلك فاجابه السر آرثور مكـــماهون في كتاب مؤرخ ١١ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمـــادى الاول ١٣٣٤ ﻫ) يقول فيه :

« قد تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الامين وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها وترونها موافقة للاحوال الحاضرة . ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها. ويسرني ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع

رسولكم حامل هذا . وستحضر الاشياء الباقية بكل سرعة ممكنة . فنبقى في بورت سودان تحت امركم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت الينا اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذلون الجهد في اعمال السفن ليبثوا بوساطتها الالغام في البحر الاحمر ، ولالحاق الضرر بمصالحنا هناك . فنرجوكم ان تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاق البريطاني العربي قبل ان يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، وانقطع الحجاج عن الحج ، ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون الدُخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الأعداء ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفد عداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ هـ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر وبيده بندقيته اطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى في جدّة والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في مكة وجدة في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد بجنوده قلعة « اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبدالله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً في جده ، والاميران علي وفيصل ، وقد خرجا من المدينة بجمعان العربان ليحاصر الترك فيها .

وقد برهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم اظهرها القتال، وعززها الجلد في النضال ولم يمر شهر على حصار قلعة «اجياد» التي كانت تصب نارها على مكة، وخصوصاً على قصر الامارة فيها، والشريف في غرفته الخاصة في ذاك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت تخترق السقوف والجدران – لم يمر شهر حتى كلل الحصار بالنصر. سلمت «أجياد» في ٤ رمضان. ثم استولى الامير عبد الله على الطائف في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة.

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (٣١ تشرين الاول ١٩١٦ م) بويع الشريف حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى، اي انكلترا وفرنسا وايطاليا، ملكاً على الحجاز، وجاء الاسطولان الانكليزي والفرنسي الى جدة يحملان الى جلالة الملك تهانيء تلك الدول احلافه، فخطب في حضرته اميرال الاسطول الفرنسي ودعاه باعظم امراء العرب.

قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذاك الاطراء من الاميرال الفرنسي ولكنه لا ينسى ما خُط على الورق وما لديه من الرسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة. هوذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر ردجينلد ونغت، مؤرخ ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادى الثانية ١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي:

« اؤمل ان لا يبرح من بال جلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود. »

الوحدة العربية [1]

رأس البلية فيها – معاهدة سيكس بيكو – كتاب السر ادواردغراي الى سفير فرنسا في لندن – بشرط ان تكون المدن الاربع ، حمص وحماه والشام وحلب ، للعرب – تنازل الملك عن جزء من سوريا – وماذا في شبه الجزيرة – قبلة العرب الفاتحين – الاهتمام بسقف البيت قبل الاساس – فضل الحسين قبل ان صار ملكاً – طموحه – عداوه لامراء العرب – الخطل في سياسته وثباته فيهما – امانيه واماني ملوك العرب – الشرط الثاني من الشروط الخمسة – حلفاء بريطانيا العظمى – خداع وكلائها او جهلهم – سذاجة العرب – دولة سورية هاشمية – تنازل الملك وانسحابه – « لا أبغيها » .

انه ليصعب على من انعم النظر وكان منصفاً ان يقول من هو راس البلية في القضية العربية. واذا ما بغينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع ، اي موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعـــة اجزاء تجسمت في انكلترا وفرنسا ، ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . ورأس البلية اذن تنين ذو اربعة رؤوس .

ولكن هناك عاملاً واحداً يعد من اهم اسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل اخر ، الا وهو السياسة الدولية السرية. لنجتنب التعميم. ان المعاهدة السرية – التي كانت سرية – بين فرنسا وانكلترا ، اي معاهدة سيكس بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً. فبينما كان السر ارثور مكماهون يفاوض مكة ويقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل

---

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب .

سيكس قد اتما عملها المشؤوم فقسما البلاد السورية الى مناطق سياسية اقتصادية ، زرقاء وحمراء وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحة البلاد مناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او دون شرط . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير فرنسا في لندن المسيو كمبون كتاباً مؤرخاً ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح الاحلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب ويكون لهم المدن السورية الاربع اي حمص وحماة وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها، ثم تنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربع والسواحل ايضاً . ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشارفة — وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالاشغال — على ولاية الموصل . نعم ان الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء مشارفة كان ام اشغالاً . والاستيلاء يبدأ غالباً بالشروط وينتهي بالاطلاق .

ايجوز ان نقول اذن انه لولا المعاهدة السرية بين فرنسا وانكلترا التي تقدمت المعاهدة بين انكلترا والشريف ، لكانت تحققت اليوم الوحدة العربية؟ ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال، في سوريا وفلسطين ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة. واني في هذا القول لا انطق بغير نصف الحقيقة .

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه بسوريا وفلسطين، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة، اذا مال بوجهه اليها، غير الامراء الاعداء، والقبائل المتمردة، والصحارى

والقفار ؟ اما سوريا وفلسطين، قبلة العرب الفاتحين، فينبغي ان تكون جزءاً من الحجاز او يكون الحجاز جزءاً منهما. لا فرق عند الشريف. وفي ذلك الانضمام تتحقق الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس؟وليس الاساس ايها العربي الغيور في سوريا وفلسطين، بل هو في نجد واليمن وعسير، في الامراء الاعداء والقبائل المتمردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ،وجمع شتاتهم تحت رايته، لكانت له سيادة تذلل عندها عقبات الشمال ، وتزول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقد فشل في سوريا وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز. وانه في ثباته ومضائه ، في دهائه وابائه ،عندما كان يمهد السبيل الى العمل الخطير ،ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة، من سلاح وذخيرة ومؤونة ومال، واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها ــ انه ، وان كان مبدأه المساومة ، لجدير بالاعجاب والاجلال .ولكنه بعد ان صار ملكاً طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكمين اضمر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقاً، فان الخطل في سياسته العربية تقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجاً ، وقد انكشف الستار ولم يبق في القضية سر يستثمره الدهاء؟انه لوهم قديم ُطلي بذهب حلم جديد ولكن الملك حسيناً اصلب ساسة الارض اليوم رأياً

وايبسهم عوداً .فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهراً سيف السياسة والدهاء على اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية.ما اعظمها وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا غير رجل طماح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهـــم ? ومن من امراء العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه واخوانه في الجزيرة يعلل النفس بتحقيق تلك الاماني ، اماني الشريف ، واماني الملك، واماني المنقذ الاكبر ? وهي كلها واحدة لا تتغير .

ولكنها لا تتفق مع اماني الآخرين . قلت انه اضمر لهم العداء في الشرط الثاني من شروطه الخمسة . فقد جاء فيه ان « لو وقعت فتنـــة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الأمراء » تتعهد بريطانيا ان تساعده عليهم «مادة ومعنى» . ولا ريب ان ابن سعود والأدريسي كانافيذهن الملك عندما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط ، ولا ريب ان معتمد بريطانيا كان يدرك ذلكلما بينالملك وابن سعود والادريسي من العداء القديم. ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيا واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجبعليها محاربتهما من اجل الملك حسين ?

وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته سلفاً معاهدة سيكس بيكو ?ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر وان في تلك الشروط دليلا على سذاجة في المنقذ الاكبر مهما كان دهاؤه السياسي. وان في قول بريطانيا بها دليلًا على جهل فيمعتمدها، او حماقة في رُسلها ، او خدعة في حكومتها مهما كان من قول رجالها في برّها

بالوعود ومحافظتها على العهود .

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعورة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ،يريدها اولا سورية ، وقد لا يريدها الا هاشمية. فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى نائب ملك بريطانيا في مصر كتاباً يقول فيه : «فمتى اضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم عليّ الانسحاب من الامر والتنازل عنه»... ثم قال وهو لا يزال يصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوى الاعتزال والانسحاب ... وانها (اي بريطانيا) لا ترتاب في اني واولادي اصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم... ثم تعينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة .

ولا تزال هذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذاك الحين الى يوم تشرفت بمقابلته في جدة ، وقد قال لي يوم ودعته ، وهو يقبض على لحيته ،«اني لا ابغيها (اي الزعامة) لا ابغيها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل . ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فأنسحب اذا شاءوا واشاركهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت او متبوعاً . اقول ، يا حضرة النجيب ، تابعاً كنت او متبوعاً . »

وهذا ما وطدني يومئذ احد المقاصد من رحلتي ، فشجعني في رسالتي الوطنية العربية . وحبب اليّ خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه وبين امراء العرب [1]

---

(١) في تاريخ نجد وملحقاته للمؤلف ، تتمة تاريخ الملك حسين .



حضرة الامام يحيى

بريشة المؤلف

الامام يحيى بن حميد الديـن

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من المخا على البحر الاحمر الى تعز فماويه فَقعْطبه . شمالاً خط يمر في بلاد خولان وبني بشر الى نجران . غرباً البحر الاحمر من الشيخ سعيد الى ميدي وشرقاً البحر السافي او الربع الخالي .

الويته : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعده .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون .

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو اسلام وبنو مطر والمكارمه .

اهم مدنه : صنعاء وذَمار ويريم وإبْ وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخه .

مذاهبه : الزيدّية والاسماعيلية والسنة (شوافع) واليهود .

التبليغ في الترويع

«والله نذبحه» – «سفرك الى اليمن مستحيل» – وصولنا الى عدن «بامر من الحاكم» – القنصل الاميركي – وكيل بريطانيا العظمى – المعري وعمر الخيام – الخطر في السفر الى اليمن – «لا يمكننا ان نحميك» – الاشاعات والشبهات – سلطان لحج يرحب بنا – زيارة بقيود – الاعتراض على رفيقي «الحجازي» – الجواسيس – السياسة في الترويع – وكيل الامام يحيى في عدن – اللغة العربية في المهجر – سفير يحمل سيفاً وخنجراً – المفسدون – حبال المحنة – وميض الامل – كتاب من دار الاعتماد – كتاب من وكيل الامـــام – الجاسوس التائب .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل غريب اللهجة لا اللسان يبغي كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية . فسألته: من اين أنت ؟فقال: من اليمن. وكنت يومئذ في اهبة السفر الى بلاد العرب فأستأنست بالرجل وبلهجته وقلت، وانا راغب في الاستفادة: اجلس وحدثني عن بلادكم . فقال على الفور : بلادنا طيبة الهواء والماء ولكن اهلها دائماً في احتراب . فقلت، ومن يحاربون ؟ فاجاب: حاربنا الاتراك، وحاربنا القبائل، وحاربنا الادريسي، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً.

ـ وهل الامام يحيى حاكم اليمن كله ؟

ـ لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد دائماً. نحب الحرية ونحارب من اجلها. نذبح اقرب الناس الينا لنكون مستقلين. نقول للامام: هذا الرجل لا نشتهيه (لا نريده) حاكماً، ونقيم منا شيخاً علينا ونقول له : انت حاكمنا انت امامنا .

قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة : والله نذبحه .

ثم سألته ما اذا كان من اجانب في اليمن فقال : لا . وانه لا يؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالاقامة هناك .

— واذا جاءكم الاجنبي ؟

— والله نذبحه .

— واذا ساح متنكراً .

— اذا عرفناه فوالله نذبحه .

— اوَ ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

— اذا كان مسيحيا فهو والفرنجي سواء عند اهل اليمن. وقد يحميه لسانه او يصرف النظر عنه .

قلت واذا انكشف امره فعرفتموه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته الناعمة اللطيفة : والله نذبحه . كأنه يقول نضيفه ونكرمه .

سافرت من نيويورك وفيَّ من قصة «نذبحه» ما يضحك ويزعج معاً .
ثم رُوّعت في مصر . قلت في بيت بعض الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان الاديب السوري نعوم شقير [١] حاضراً فقال على الفور : غير ممكن ، فذكرني رحمه الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد «نذبحه» فقلت : ولماذا؟ هل من خوف على حياتي ؟ فاجابني ثانية . مستحيل ، غير ممكن . ثم صرح بما فيه بعض الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر .

— ومن هم اولياء الامر ؟

— الانكليز .

---

(١) له تآليف ادبية وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في تاليف « تاريخ الحج »

ـ وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟
ـ هم في عدن يرصدون الابواب . ما لك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة سلطان لحج وهذا يكفي . في اليمن حرب اليوم ، والاخطار كثيرة . . . زد على ذلك . . .

ولم يزد شيئاً جديداً . سكت فروّع ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن مستحيل . ودعاني للعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا تقول ان سفري الى صنعاء مستحيل فقبل الشرط رحمه الله وما لمسنا في تلك الليلة في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدّه واجتمعت فيها بصديقي القديم قسطنطين يني. وخطر لي ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب تلطفاً سؤلي. فسافرنا متوكلين على الله، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً، وهو في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلائق بين الانكليز والملك متراخية في ذاك الحين كما اسلفت القول .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلاً: بامر من الحاكم فقلت : وهل هو امر عام او انه يختص بنا فقط ؟ فأجاب :هو امر عام يا سيدي. ثم اخذ عنواننا ووعدنا بان يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دائماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطن فقدمته للقنصل الاميركي وسألته ان يطلب من الحاكم اعادة جوازي. ثم اعلمته بقصدي فصفر مدهوشاً ثم قال: وقد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك . . . انصحك لا تسافر ـ هذا اذا اذن لك . . . في البلاد حرب اليوم، والطرق

غير امينة ، وانا لا اقدر ان احميك .

فقلت وكاد يملكني الغيظ : اسمع يا رجل ، قد تنازلت في العاصمة وفي الوزارة الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني اليه وتقول له اني ابغي مقابلته . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات .

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير ولكني اجتمعت في النادي مساء البارحة بالمعاون الاول . تعال نزوره الآن . فذهبنا الى دار الوكالة فاستقبلنا المعاون قائلاً للقنصل: قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة . وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة . دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت وكيل بريطانيا والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهل طويل القامة طلق المحيا . صافحنا وامر بالجلوس فجلس معنا الماجر رَيْلي معاونـــه الاول وكان القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال يخاطبني : قيل لي انك شاعر فقلت صدق من اخبرك . فضحك وتتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم فذكر الجنرال عمــر الخيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الخمر واللهو والغناء . ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية .. فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وشرحت اجابة لطلبه الفرق بين الشاعرين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الخيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبهني ، كما يفعل موظف اميركي ، في الحديث عما ابغي منه . وكان في ذلك اشبه بموظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . تطرقنا من الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : او لا

تهمك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكنّ في السفر الى اليمن خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال ، هذا قنصلي وقد غسل يديه مثل بيلاطس في قديم الزمان . وانا راضٍ بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟.. اني مسافر الى صنعاء يا حضرة الجنرال وليس لي مهمة سياسية.. لا علاقة لي باية حكومة من حكومات العالم . الا اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت. فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة انكلترا انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميركا بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية. فاذا كنت استطيع ان اخدم انكلترا في ما اعتقده نافعاً للعرب افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسألكم مكافأة غير اذنٍ بالسفر الى صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكراً ولمصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال ، لا دخل لحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاخطار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا أذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً اتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلاً : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة: يظهر ان الجنرال يعرفك

وسأبحث لاعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن. وما كان متوانياً او مبطئاً . فاوقفني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين الى الامام يحيى . والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر الى صنعاء وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميركا من قبل الشركات المالية ابغي امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بامري . فكيف يأذنون بالسفر الى صنعاء وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ، فانما يبغونها لانفسهم

وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحاً في البلاد أبث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان ... سبقنا في البرق الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى ادارة الشرطة بمراقبتنا انا ورفيقي ؟

ولّى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت اثناء ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد القنصل مرافقتي فقيل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك الانكليز . فكتبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من الاول مؤهلاً مرحباً ، وجاءني ورفيقي بوساطة القنصل اذن من الثاني مصحوب بكتاب يقول فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع وان السفر بدون حرس لا يكون ، وان أمر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة الحاكم . اظنه خاف

ان نسافر من لحج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس . على اننا والحق يقال بتنا والخطر الاكيد احب الينا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب اليّ وحذرني من اولئــــك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون الماجر ريلي بعد ان يزوروك . ثم قال : ويظهر ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك . فأكدت له انّ رفيقي صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، واني ارفض السفر اذا صدر الاذن لي وحدي .

بعد ثلاثة اشهر اي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل بعضها بوزارة المستعمرات بلندن، وبوزارة الخارجية الاميركية بوشنطن .

عندما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخــذت خطة اخرى فسعت بوساطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدة اسهل طريقاً واقل خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي فارى في تهامة ما قد يغنيني عن زيارة خصمهم الامام فرفضت بتاتاً وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان يتفضل فيرفقنا بالحرس اللازم الى حدودهم اي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم . فجاءني منه جواب يقول فيه ، قد كتبت الى سلطان لحج بخصوص طلبكم وسأعلمكم بما يجد .

اقف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر آخر من مصادرها الغريبة . بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحت اقصد وكالة اخرى سياسية . يمت في فم البركان ، في عدن القديمة ، ومعي رفيقي قسطنطين ،

بيت القاضي عبد الله العرشي وكيل الامام يحيى وسفيره الى الانكليز في عدن . فلما وصلنا الى دار السعادة اليمانية بادر الى استقبالنا عندالباب رجل صغير نحيل في قميص من القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء وفي رجله الخف ، ، وعلى رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقية بيضاء . هو القاضي عبدالله سفير الحضرة الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى جانب مسند القاضي عـــدد من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة نيويوركية اشار اليها فضيلته قائلا : نعم الغيرة غيرة ابناء العرب في اميركا على الوطن واللغـــة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عنـد الفاظ وتعابير ليست من العربية بشيء . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساتذة من العرب هناك ؟ . . . اما هـذه واشار الى مجلة مصرية ، فاسلوبها « ناهي » (جميل) . . . ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا برقيتكم من بورت سودان وصلت هـذه المجلة وفيهـا مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنـا باللقاء . . . ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . . . يوم وصلتنا برقيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالسلك (تلغراف) حضرة الامام. ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب . . .

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابساً ثيـــابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في الفندق. وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما عليّ يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالي

وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدومه لما عرفته لاول وهلة ابن القميص والطاقية والخف من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها . وهذا البرد اليماني المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني . وهذه العمامة العامرة الباهرة الالوان ، والسيف يحمله بيده ، والجنبية في زناره . هوذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها .

والغريب ان القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه . فما انعش لي املاً ، ولا قال انه زار كذلك صباح ذاك اليوم الوكالة البريطانية . فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري ، وانه لا يقدم على عمل لا يُستحسن في دار الوكالة ، وانه يقبض منهم ، لا من الامام ، المشاهرة . وقال بعضهم — بئس المفسدون — انه يقبض من الاثنين ، وانهم ، اي الانكليز اذا شاؤوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لقنصل اميركا ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبدالله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاخطار ، فلا يستطيع ان يرفقني بالحرس اللازم ، وغيرها من الاقاويل . لله منك يا عدن ما اكثر الدسائس فيك والجواسيس .

جاءني بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي « مجدداً للوعد مؤكداً للوداد » يبشرني فيه بوصول برقية من حضرة الامام مجيباً بالايجاب . ثم قال : فاي وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الجيش في ماويه[1] واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم ويرفقكم بمن يقوم بخدمتكم وحراستكم الى السدة الشريفة . انتم منا

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبية وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عدن .

وعلينا واجب الحب والاكرام .

وصلني هذا الكتاب وانا في لحج ضيف سمو السلطان عبد الكريم فضل انتظر الفرج من الوكالة البريطانية . وكنا،على جميل ضيافة سموه وحفاوته بنا ، في حالة تعددت همومها . فقد مرض اولاد الرفيق قسطنطين بالحمى ومرضت انا بـ « القال والقيل » وكان داء الجدري متفشياً في البلد فخفت ان يكون قد اصيب رفيقي به . واطلعني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم : لا تأذنوا لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن منا . فاذا تمثل القارىء تلك الحال ، وقد بقينا اسراء في القصر بلحج ، يدرك شيئاً من سروري بكتاب القاضي عبدالله العرشي .

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر . ومرت خمسة ايام حسبنها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكليز الظن . ولكن سئمت التسويف والمماطلة، ونفرت من الاثرة في امر اربعة اخماسه بيد سواهم حقاً وعملاً . ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم . فها ان صاحب البلاد يرحب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق من ماويه الى صنعاء . والسلطان عبد الكريم ، رغم رسائل الوكالة ، يرفقنا ساعة يشاء بحرس الى حدوده. وانا ورفيقي،وحياتنا على كفنا، مكتفيان بهذه الضمانة .

— واذا مت يا مولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري) اموت والله في حبكم ، في حب العرب .

فضحك سموه وأمر لي بمداعة [1] وأمر كاتب سره ان يكتب الى

---

(١) تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واظنها تحريف مدعاة لفظاً ومعنى . ففي القاموس المدعاة تفيد الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور.

الحاكم في عدن يقول انه مستعد ان يرفقنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه. فجاءني بعد يومين الكتاب التالي :

دار الوكالة . عدن ، في ٥ نيسان ١٩٢٢

الى المستر امين الريحاني

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب اليّ ان اعلمكم بان البلاد في اضطراب ، وان السفر فيها خطراً على المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً لديكم بان الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات المحمية .

لكم باخلاص

ب.م . رَيلي

المعاون الاول للحاكم بعدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي: قد يُقطع رأسك ولا احد يسأل عنك .. وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا احتاجه في السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين ، في بيروت وفي نيويورك ، لينعيني في الاقل الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني

تابع صفحة ٨٦

وقد قال الشاعر فيها : مداعتي انيستي جليستي في وحدتي

تقول في كركرها بالله خذني باللتي

العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة الدراسية. نعم قد كنت مزوداً بكتب التوصية من الملك حسين. وقد رأى القارىء في ما تقدم ما له من المنزلة عند الانكليز الذين حاولوا ان يمنعوا صديقي عن السفر لانه في خدمة جلالته. واما اولياء الامر من رجال الامام يحيى فسيرى القارىء ما للملك الحجاز عندهم من المنزلة .

اما الخطر وان جسّمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز اليقين خصوصاً في بلاد الحواشب، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز، الكائنة بين لحج واليمن الجنوبي. وكانت عساكر الامام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت الى الحواشب ونكلت بهم، فارسل الانكليز على اليمانيين طائرتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا وعادوا خاسرين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب. ولذلك اطلقوا الرصاص على رجال الوفد اليماني عندما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء . فماذا عسى ان يكون حظنا منهم ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية ؟

قيل لنا اننا اذا اجتزنا سالمين المُسَيمير ، عاصمة السلطنة الحوشبية ، نكون قد اجتزنا منطقة الخطر الاكبر في طريقنا . ولكن كلمة قالها القاضي عبدالله العرشي بصفته الرسمية – اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من اجلكم – وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل . اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين ، فيطلع القارىء اولاً على اسلوب المراسلة في اليمن اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالعه في مجلة عربية قال عافاه الله :

الامام يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

أمد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين .

وبعد فصدورها للسلام ، مقبّلة بواطن الاكف والاقدام ، وهي لكم صحبة السيد الماجد ... امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من المملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة للمزاورة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة . وقد وجدته على جانب عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف ... وعرفت ان لا مانع من توجهه الى حضرتكم وكتبت في التوصية به وتسهيل سفره وحسن وفادته الى امير الجيش في ماويه ، حماها الله . وسيتضح لكم حسن نيته وما هو عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند المواجهة وربما تستفيدون منه ومن نصائحه ومعرفته بالاحوال ما يكون فيه نفع الوطن وعمرانه . وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد نوّركم الله بمعرفة كل شخص فتعطونه حقه وفوق حقه . وفي هذا كفاية . والله تعالى يصلح بكم جميع الامور والسلام عليكم .

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠ — من المملوك

عبدالله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكه معاً ينبغي ان اسجل على اولياء الامر فعلة قد يفيدهم نشر خبرها . عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس

اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها واعطته الوكالة كتاباً مختوماً ليفضه بعد ان يخرج من لحج ويعمل بموجبه .

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة. بل انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما احتواه . سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها .

الامام يحيى

في الطريق الى صنعاء

حدود لحج – الحواشب – اجسام العرب – وادي دبن – جبل وروه – حديث الولد الجندي – الخندق – ابن السلطان يلاقينا مرحباً – القصر في المسيمير – العشاء – السلطان علي بن مانع – اعداؤه واحزانه – اخلاصه للانكليز – راتبه الشهري – « عند الانكليز مال وحكمة » – صباح غير مبارك – رمي الفخار على رجالنا وهم يحملون – « هم يطردوننا . عجلوا بالرحيل » – اطلاق البنادق والفطور – السلطانة تكرم الضيف – ماوية – الزيود – جيش الامام النظامي – السيد علي بن الوزير أمير الجيش – مجلس القات – « هل انت حسني او حسني » – وجاءنا الفرج في بيت من الشعر – الملك حسين واولاده .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدُكيم التي كانت يومئذ حدود السلطنة اللحجية شمالاً وفيها حامة انكليزية من الهنود وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي عبدالله العرشي الى امير الجيش ، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي ابن مانع ، جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم. والحوشبي لا يثقل نفسه بالعدة والثياب . ليس في العالم جندي اخف منه حملاً ، وأشد منه بأساً . ولا اظن ان في جنود الامم المتمدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل . هاك الحوشبي مثلًا وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ، وعضلاته الشديدة

المفتولة تتحرك كالاجزاء الدقيقة في آلة كهربائية ، وقامته المتناسقة الاعضاء تُسر بالعري فيكتفي بالفوطة يشدها على وسطه ليستر بهـا عورته — هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يثب صاحبه، والبندقية على كتفه والامان في قلبه، كالغزال الشارد امامك .

من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو ينظر اليّ من حين الى حين كأنه يبغي الحديث . سرنا في وادي دُبّن ، وهو طويل يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيسان تشوي الضب . و كنا بدأنا في التصعيد ، فتراءى لنا خيال اسحم على الافق البعيد، فوق قنن من الجبال كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وَرْوَه — جبل وروه — تراه من عدن وسنراه غداً من ماويه لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا في عدن بالجبال. ولكني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه. رافقناوروه يوماً واحداً وغاب عن الابصار و كذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على فراقه .كان يحدثني وهوينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على بؤس حاله سامد الرأس.

-- العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بايجاب .

— وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى، فما سرّه الخبر ، فقال: السلطان رجل طيب يا امير، ما فيه شر.

سألته : وهل تحب الاتراك؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال: علي سعيد باشا[1] رجل طيب. كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلط[2] كثيرة . اما الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلط . انظر الى ذاك الجبل . وراءه الصبيحة أشر العرب . وهم دائماً يعتدون علينـا نحن الحواشب

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب .

(٢) الظلط ، النقود الذهبية والفضية .

المحافظين على الامن . الحوشبي فقير ولكنه منيع، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة يا حضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن للعباد ، وحضرة الامير – العفو – لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت أمر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .

– ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟

– يحكمني الآن الانكليز . هل تحب الانكليز ؟

– يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .

– وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟

– اي والله نحبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو الحوشبي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .

سرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الخُندُق وهي قرية خيامها من القش والغرْف ، فيها سمْسَرة[1] للقوافل والمسافرين فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجاناً يحمل منا كلمة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدومنا .

استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الخُندُق والمسَيمير فرقة اخرى من جيش السلطان، يتقدمها ابنه الصغير راكباً

(١) الخان في اليمن يدعى سمسرة والمقهى مقهاية .

جواداً رائعاً . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في الوادي اصوات البنادق ترحيباً اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلهـــا ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الحافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها .

وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء : ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبيه الحقول المزروعة وهي تتموج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلببب المكان لينبيء بالسلم القروي ولكنه مفقود فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول سيجيب السلطان على سؤالنا . هذه جنود تطلق البنادق ثانية ولاءً لا عداءً تأهيلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل فجلسنا في حلقة على الارض ننطح بايدينا الزاد . وكأن السلطان وهو ينظر الينا ، أعجب بسفي البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا ...

كان السلطان علي نحيلاً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة يقصرون حياتي هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولكني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد[1] اما الاربعة فالواحد

(١) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسيجيء ذكرهـــا

منهم فوق[1] يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكنون لا نعتدي على احد . والآخر تحت[2] يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزانة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك[3] لا يخاف الله . والرابع [4] عدونا اليوم، صديقنا غداً لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب! وعلينا ان نحاربهم كلهم . واننا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نفنيهم او يفنونا . . لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل جمل ، والامام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

– وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليّ ويده على لحيته ، وثلاث اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثمئة روبية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روبية ، احسبها . وعلينا ان نؤمن للقوافل الطرق ، وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتتركهم وتواليه ؟

فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه خصمهم كذلك في المذهب . هو زيدي شيعي ، وهم سنيون .

(١) اي امام صنعاء الامام يحيى (٢) اي عرب الصبيحة (٣) اي عرب الضالع جيران الحواشب شرقاً (٤) اي سلطان لحج .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيـــام مثلنا ليودعنا ثانية . وفهمنا منه انه قبل بذلك الا اننا في صباح اليوم التالي، بينا كان المكارون والخدم يحمّلون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بغتة ان اناء من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن اناء آخر تبعه ــ رأيناه يرمى من النافذة ولم نرّ الرامي ــ فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين أقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجال يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وسرنا نتقدم الحملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا ــ أقول وقلبي ولا أتهم رفيقي ــ يختلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوثي عندما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً تنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .

بعد قليل قرب القوم منا فاذا هم خدم السلطان يحملون على رؤوسهم الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤوا بالفطور ! اي بالله . كيف نسافر قبل ان نفطر ؟ وكيف نسافر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في

خدرها رأتنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكرأ من أجلنا . فارادت تنبيه الخدم النائمين فى الطابق الاسفل ولم تشأ ان تسمعنا صوتها أو ترينا من النافـذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهيئوا لنا الطعام . الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوهم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا يقفون .

أكثر الله ايتها السلطانة من فخّارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . وكيف لا وانت السيف في اكرام الضيف . تضربين من اجلنا الكسل ، وتلحقيننا بالعسل .

تروّعين ايتها الحوشبية الالمعيـة ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع اعجابنا حتى في بـــلاد الزيود ، التي تنسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تنسي الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود (١) شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذاك النهار وهي مثل المسيمير مختبئة في الجبل وراء الوادي الذي اجتزناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به ايما استئناس . كأننا عند حدود الامام عدنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح من السطوح صاحب ذاك الصوت ، وهـو جندي بيده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم أمير الجيش . وكانت فاتحة الالطاف . فلما دنونا من القصر سمعنـــا الموسيقى

---

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب وهم وان قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع زيديون بل زيود كأنهم يريدون بذلك ان زيداً متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيود .

العسكرية تعزف نشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي : فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنبيات ، وعندما وصلنا إلى الباب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ،أوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ،وعلى كل دكة واحد او اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ،التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في اجسامهم [١] كنت وانا اتلمس طريقاً امثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فـــاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعـــة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفـاً

---

(١) هم يغمسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقيهم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عساكر الامـــام وكثيرين من اهل اليمن يتنيلون لا اتقاء للبرد بـل حداداً على الحسين . على ان الوهم في هذه العادة اصبح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحداد لا ينيلون ثيابهم .

ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون [1] وفي

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ولكن القات غير الشاي . القات يخدرهم وتبغهم ومسكرهم وهم يدمنونه ادمان الاوروبيين الخمر.
قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقاتا يصفو به العيش احيانـاً واوقاتـا
يا عاذلي عن حصول القات مت كمداً لا نترك القات احياء وامواتـا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براك معراج قلبي حين يصعده جبريل روحي الى اعلى سماواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الاولى اي الكيف ، وشيئاً من خاصة الافيون المخدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة اخرى هـو يطرب النفس . ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن . بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل . قد تحققت بنفسي انه يؤرق ، ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعقوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس . ولم ينتبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً، ويفضلونه على خبز يومهم .

جميع الناس في اليمن ، من رجال ونساء واولاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون القات — يخزنون . والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً بطيئاً طويلاً كما يمضغ بعض الاميركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « اي كتلة » في الفم يجترونها . ولكنهم لا يبصقون مثل الاميركيين الا عندما تذوب التخزينة فيبصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها . ان مجلس القات لا يتم بغير اباريق المـاء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . امـا الاغرب من ذلك اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكثرون من قهوة قشر البن يغلونـه كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على مـا اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل،

الزاوية عند منضدة صغيرة ،الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق وزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليـه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد مـلوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين،وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينـا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر « وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل .

بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه يعرفه اما خطأ واما تلطفاً ، الى السيد (١) امين الريحاني ، فظنني حضرته من اشراف المسلمين واراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب،

ويفسد اسباب الهضم ، ويحدث مثل الافيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي(Catha edulis) وهو نبت شبيه بالبطن الا ان شجرته صغيرة، وورقه مثل ورق العفص ، يزرعه أهل اليمن في البساتين . مثل اشجار الثمار ويبيعونه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . هم يقطفونـــه اغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر،ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونهـــا ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الارض. ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل) فتمسي الغرفة في تلك الساعة كمقهى الحشاشين في دخانها وكربونهـا ، وكالاصطبل في فرشها .

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون ،البدو منهم والحضر .

فسألني قائلًا : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فبلبل الخاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلهاسود تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتهـا كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل احدّ ، ولا نزال والحمدالله في بداءة الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى درون . اما اذا اكتشف الامير بعدئذٍ حقيقة دينك — اصدقه بالخبر يا رجل ولكن — هل تعلن امام الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او دروينيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدها .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناءذلك اسيرخوف اشد من خوفي في ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور . وما خفت على حياتي خوفي من تعرقل مسعاي - من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح عليّ فقلت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغلغل في صميم فؤادي [1]

اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة. وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه ، وتبادلنا واياه الثقة والولاء. فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيلها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين ... الى ان قال : الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله .

فتصدى قسطنطين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز. ثم قلت وانا اتوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب سره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف ويعتنوا بامرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات تقل الترهات .

---

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً .

الامام يحيى

اليمن الاخضر القديم

الطيارات – الفاتحة – الامام – وادي الذهب – وادي نخلان – نقيل – المحرس – نجد الاحمر – رياحين لبنان – جبل بعدان – ساحة الاستقبال – موكب الزيود – اسماعيل باسلامه عامل اب – مدينة قديمة عالية – وادي المرقد – شجر البن – نقيل سماره – ثمانية الاف قدم فوق البحر – قاع الحقل – يريم – الرهائن – ذمار – امير الجيش ابن الوزير الثاني – خطبته المدهشة – « لا فسق في البلاد ولا زنى » – والزانية – حديث الجنود وشكواهم – رفيقنا السيد محمد – الغرض من زيارتي الامام – البيوت في اليمن وعسير – الوحشية والاستقلال .

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة ، وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأنزلنا في الطابق الاعلى ، في غرفة سقفها واطٍ ونوافذها ضيقة صغيرة ضاق منها صدري ، فهربت الى السطح ونصبت سريري هناك .

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما فيَّ من الانقباض والاضطراب ،يحاول تسكين خاطري وتسليتي بما قصه علينا من قصص الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل . فقلت له ، وانا احس ان الحيوان المسجون فيَّ وفي تلك القلعة يشتهي الفلاة : اننا نروم الوصول الى الحضرة الشريفة باسرع ما يمكن ونلتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك مخلاً باداب الضيافة ، ان يسهل امرنا فنسافر في الغد . فوعدنا خيراً .

ثم جاءنا بعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل

الينا هدية من القات . فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وتناقش واياهم في موضوع الطائرات . نقرأ عليها الفاتحة فتسقط كالطير المذبوح الى الارض. فأفحم القسطنطين ، وبادر الى القات يكتشف فيه اليقين .

اما انا فاعتصمت بالسطح ابغي العزلة والهواء ، فصحبني ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان، فشكا اليّ اموراً وأسرّ أخرى : لا شك ان حضرة الامام رجل كبير قدير ، ولكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ، فقد استنزل على جنوده هول طائراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ،ولا يعزل الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطائرات وبما عدّده الشافعي من سيئات حكم الامام . فحلمت حلماً غريباً عجيباً ما ذكرت منه عندما استفقت غير اني كنت والامام يحيى نطير في طائرة صنعت في انكلترا ،وكُتبت على جناحيها فاتحة القران ، ونقشت على الواحها آياته البينات . فبأي سلاح يا ابن الوزير تحارب طائرة المؤمنين؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطائرات، مصحوبين بحرس من جنود الامير المنيّلة اثوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم . فتهنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليّ الاحلام ، وانا على ظهر الدابة شطران ، شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يا مقدم ، فيخيل اليّ اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح تتكلم العربية .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح ، فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا يساوران النوم. فنام رفقائي في كن صغير لا يليق في بلاد الله بغير المواشي — ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل اليمن — ونمت انا في الفـــلاة على سطح ذاك الكن ، ساعتين لا غير ثم نهضنا قبل الطيور نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس وسرنا في ارض خضراء تفوح من ادغالها روائح النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم ؟ فهو من اجمل الاودية واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة . رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان [1] ثم اجتزنا وادي نخلان وفيه رأينا لاول مرة سلك التلغراف الذي يصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من الوادي في نقيل [2] المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضر والجرد دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء صخورها تعلو اربعة الاف قدم عن البحر ، فجف الهواء ، وبرد الماء ، وتعددت حولنـــا النباتات والرياحين التي ذكرني بعضها بلبنان فهوذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى أعلى درجات نقيل المحرس تراءى لنـــا منها جبل بُعدان ووراءه جبل حبّ أعلى وأبعد منه ، وانكشف امامنا مشهد آخر من السهول والهضاب ، في وسطها ، عند منحدرٍ من جبل بُعدان ،

---

(١) من مزروعات اليمن الحنطة والشعير والذرة والدخان والعدس والبطاطا والورس والحلبة والقات. (٢) النقيل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية.

مدينة اب القديمة . التي تتساوى في علوها ووادي نحلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال ، هناك يترجل المسافر اذا كان معروفاً وينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر ينبيء العسامل بقدومنا ، فبتنا ننتظر «استقبالاً يليق بنا» كما قال فيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي . وما عتمت ان تحركت الجموع وخرجت من المدينة ، فشاهدنا عسكراً زاحفاً الينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول جاء العامل اسماعيل باسلامه بخيله ورجاله ، ، بجنده وجمعه ، وبنوبته واهازيجه ، يستقبلنا ويرحب بنا باسم الامام ، وبعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذاك الجمع المنيّل المهلل نحسب انفسنا في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجان ، والجنود مسترسلو الشعور ، مكحلو العيون ، المزينة عمائمهم بالورود والريحان ، حولنا وامامنا ينشدون بصوت جبلي رهيب .

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه لا بــد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يرسي في سماه

دخلنا المدينة دخول الفاتحين ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من بيوت العامل اسماعيل، المشهور في بلاد اليمن، اعلاها واسفلها، بكرمه وفضله وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته ومثلما اسرعنا من ماويه ابطأنا في اب ، بلا حياء في الحالين . فجاءنا ونحن هناك برقية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون لفراقنا فأخجلنا وعاد بنا الى ما كدنا ننساه من التأدب في الغربة .

من حسنات اسماعيل باسلامه انه لا يخطب في ضيوفه ، ولا يفاخر

بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادىء الخاطر ، وديع النفس، غني كريم، يحبه جميع من يشتغل في ارضه كما يحبه جميع من في حكمه . وهو يخلص للامام اخلاصاً لا يشك الامام بــه ولا يخشى من تقلبه . انه العامل الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة [1] منه . وقد يكون السبب في تساهله ورحابة صدره انه سني حضرمي . وقد تكون هذه الخلال من فطرته وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تتغذى خصوصاً في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هوشافعي، واول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على اني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار ، يظل في فضائله الجمة قريباً من الله والناس .

جاءنا صباح اليوم التالي يسلم علينا وبيده طاقة من وردنيسان قدمها لي . وزرت واياه بساتينه التي يزرع فيها من الثمار انواعهــا ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فرأينا الزيتون، والموز، والعَمب، والعنب، والتفاح ، والرمان زاهية

---

(١) سمعت بالرهائن في لحج فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت انكر صحة ما سمعت . الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامــام يحيى يتقاضى كل موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهينة واحدة ، ابناً او اخاً او نسيباً عزيزاً ، يبقيه في حوزته كفالة الاخــلاص والوفاء في التابعية . وهؤلاء الرهائن – عند الامام على ما قيل اربعة الاف منهم – يقيمون في المدن المختلفة كل بعيــد عن اهله ومسقط رأسه . فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض وتمنح الاخرين ، بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيهــا .

كلها زاهرة . ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل لان تلك البقعة من الارض في حين انها تعلو خمسة الاف قدم عن البحر فانها لا تبعد اكثر من عشر درجات عن خط الاستواء .

اما مدينة إب فمسوّرة، وهي وسخة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء، ولا نقطة ولا حبة من الدواء ويكثر فيها الجدري والحمى واكل القات . اننا كلما صعّدنا في اليمن نرى « التخزين » في ازدياد وصحة النسل في نقص ظاهر ولا سيما في الاولاد . فان وفيات الاطفال في اليمن كثيرة ، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً اكثر من سبعة او عشرة اولاد . واظهر ما فيهم النحول . والشحوب ، وضعف الاعصاب .

قلت ان إب جميلة من بعيد ، فالقادم اليها من ماويه او تعيز يراها في السهل وحوله الربى كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر ، مفروش في بحيرة جفت مياهها . والقادم اليها من يَريْم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مَرْج او كبرج في جزيرة . ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال . مشى معنا اليها اسماعيل باسلامه ومعيته ، وارفقنا الى ذمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي . فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى ان يزداد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء .

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفد الذي يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً ، وشاهدنا فيه لاول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه

وزهره الليمون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب . وبساتين غضة من العنب والموز ، تجري في ظلالها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره . وبدأنا بعــد الظهر نصعّد في نقيل ذاك الجبل ، وهو اعلى نقيل في اليمن فوصلنا الى وسطه عند الغروب ، وبتنا تلك الليـلة في قرية تدعى المَنزلُ .

ولما وصلنا الى رأس النقيل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة ، والهواء ، على حمو الشمس ، بارداً ، فشعرت بالبرد لاول مرة في اليمن. ولا غرو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيب في لبنان . ومن تلك الذروة الهائلة ، المدهشة المنعشة ، رأينا منبسطاً امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منـه ظفار [١] التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورهـا وحصونهـا . انـ ذاك القاع في مزروعاته المتنوعة ، وبقاعه المحصودة ، لشبيه بطنافس خضر وصفر وبيض وسمر تملأ العين بهجة والنفس سروراً . نزلنا اليه وسرنا معجبين بانتقالنا السريـع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء .

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مَرْيَه في عهد حِمْير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . فقـد خرج لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون ويهللون مرحبين . ما فهمت من النشيد غير كلمة نصر الله المسلمين ، رسول الخير الامين . ولكني علمت انـ الاولاد هم من الرهائن عند الامام . انه لحكم عسكري قاس شديد ، بل حكم

(١) لا يزال في ظفار اثار حميرية رأينا من شكلها الحلى الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان وبينون وسلحين .

اشتباه وارتياب . فلا عجب اذا اخلص العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولده عنده او اخ او قريب عزيز .

سألنا صاحب سمسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال : لا غنم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شبابنا في عسكر الامام ، واولادنا هاربون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ، السيد عبدالله [1] ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل حضرة الامام بلاد العدل والدين والصدق والوفاء الحكم الكامل العادل تراه عندنا في اليمن ، فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ، ولا رباء ولا رشوة ولا اغتصاب . كل ذلك لاننا محافظون على ديننا ، عاملون بكتاب الله ، مجاهدون في سبيله تعالى . . . ثم قال : نحن نقول ونفعل ، وغيرنا يقولون ولا يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب كذابون ساقطون ، يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن حاربنا الاتراك مراراً ، وجاهدنا الكفار الخونة في تهامة ، وسنحارب كل من يحاول اختلاس فتر من ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا نتقهقر . نحارب ونرجع الى الشمال ، نحارب ونعتصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطىء الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ، واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟ اين فيصل اليوم ؟

(١) عبدالله بن الوزير هو الذي تزعم الانقلاب الذي اودى بالامام سنة ١٩٤٨ — الناشر .

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في مُلك عربي زمامه بيد الانكليز ؟ لكان احسنَ فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه وبين ابيه الحسين. الملك حسين ! ان قلامة ظفر الامام والله لخير منه . يا للعار ! ايفتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟

حاولنا اصلاح ظن الامير في ما أشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت تأكيداتنا من ثورة غضبه .

العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء الله مثل اهل اليمن. هذا اذا اقتدى امراؤهم بمولانا الامام واخذوا من احكامه مثالاً لاحكامهم . فتطهر البلاد كلها من الفسق والفجور ، من الزنى والخمر ، من الرباء والرشوة كما تطهّر اليمن .

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناها عندما ذكر الامير في مطلع حديثه الفسق والزنى . ثم عند ذكره ذلك ثانية همّ رفيقي بالكلام فمنعته باشارة من يدي ، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه . وما جوابه؟ اضحكني من الامير ما غاظ القسطنطين ذلك لاننا في احدى الليالي السابقة ، جاءت الامرأة التي طبخت لنا العشاء ، والنساء في اليمن خارج المدن الكبيرة سافرات ، تعرض نفسها علينا بثمن فسطان من الشيت . وقد قال لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار : لولا رفيقكم السيد لكانت النساء تجيئكم من كل سمسرة [1] .

---

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه ألحوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث. فلم لم يلوموا لاني نقلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله ؟ - لا فسق ولا زنى في اليمن ! أيبغون الحقائق التي تدغدغ تقواهم دون سواها؟على الكاتب ان يصدق قراءه.

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائماً لجميع الناس، فاسمع الشريف والبدوي، والحمّال والجندي، والتاجر والسياسي، فأدون احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذاك ابديه. واني اسألك ايها القارىء، وانا اشاركك الان في ما سمعت وشاهدت، ان ترجىء رأيك كذلك الى ان تسمع الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه. وها قد اسمعتك كلام ابناء الوزير وهم من كبار رجال الامام، وحديث احد الشوافع العقلاء وهم باطناً اعداءُ الامام، وحديث صاحب سمسرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام. واليك الآن بحديث من يحارب لتعزيز وتمديد حكم الامام.

كان في حرسنا جندي اسمه احمد، حارب على صغر سنه، في ثلاثة حروب مع الطليان في طرابلس الغرب، مع الانكليز في الهند، ومع الترك في اليمن. قال احمد: أُخذت خدعة من عدن. قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاتراك والكفار فركبت الباخرة ونزلت في طرابلس وبعد ان صرت في عسكر الطليان عرفت انهم يحاربون الاتراك المسلمين. ولكنهم اعطوني مالاً واسمعوني الكلام اللطيف، وعاملوني معاملة حسنة، فحاربت واستغفرت الله، الطليان احسن من الاتراك، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام. اما الاتراك فلا يهمهم النظام، ولكنهم لا يدفعون مثل الطليان. والآن يا افندي — اقترب مني ليهمس كلمته همساً — لا مال، ولا نظام، ولا لطيف

....

الخبر في كل شيء. اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد النـاس ولولا خطبة الامير عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكني آسف لاني دققت في التسجيل فذكرت اسم البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت المرأة للاهانة. اني اعتذر اليك ايتها المجدلية اليانية واسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال.

كلام . اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن عماله طماعون يشتهون دائماً الفلوس... قسمتنا خمسة ريالات في الشهر ـ عندما يدفعونها . ولكنهم يسيرونا في البلاد من طرف الى طرف وليس في قميصنا بغشة ـ اي قرش ـ واحد . والاهـــالي لا يحبوننا لانهم يدفعون ضرائب كثيرة ، ولا يطعموننا ولا يوآووننـا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في هذه القميص شيء ـ نفضها ليريني انها فارغة ـ وثمنها يا افندي انا والله دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النيل لأقي جلدي من البرد. والقات ؟ من يدفع ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزيدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : اين زوجتك ؟ففرقع اصابعه وهو يشير اشارة يمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل .وهو لم يزرها منذ سنة. « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلط» فقال احد رفاقه : مسكينة تموت ولا تراك .

وقال آخر لحيته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والنبي ! لا ازال في الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا ـ واشار الى قلبه وسكت .

ثم راحوا كلهم ، ويد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرّج وفك العسر
يا مفرج على النفس في ضياقها (١)
بدّل العسر بكل اليسر
وفتّح ابواب قطال (٢) غلاقها
كيف قوم محوّز (٣) وقوم اخر

---

(١) في ضيقها (٢) قد طال (٣) محاصر .

في المقايل [1] على شرب تنباكها .

لم ار عرباً يتكتمون في امورهم مثـــل عرب اليمن وخصوصاً الزيود . ولكنهم اذا سنحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجهرون ، فيفصحون ويصدقون . والسيد والاعرابي واحد من هـــذا القبيل . ارفقنا امير الجيش في ذمار باحد السادة اكراماً او استعلاماً، لا فرق، فكان يركب بعيداًعن الجنود،ولا يقترب منهم الا امراً او ناهياً وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني.فما كان بيننا من الكلام الا السلام.

ولكنه في اليوم الثاني سألني همساً ان اطلعه السر فيحفظ الماءبارداً في قنينة الـ « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء. فدهش وقـــال : الافرنج اصحاب عقول ـ عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدمعقولنا الا في الحروب .سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً ... اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، ويظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذهاوخبأها في طية من طيات عمامته البيضاء وقال ستبقى سراً بيننا . وعندمانصل الى صنعاء انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ،وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفياليومالثالث اقترب مني وانا اكتب فقال :ما الذي تكتبه في دفترك ؟فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن اسماء بعض النباتات والازهار : ما اعلمتني به . فقال:وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار

(١) جمع مقيل .

والاشجار والحجار ؟ فقلت : قد تهم معرفتها من يجيء بعدي . فاقتنع ظاهراً ثم قال : هوذا اليوم الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب سؤالي . هل انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك اوبأمر من امير الجيش؟فاجاب: لي حاجة في صنعاء ولكنني لولاك ما جئتها اليوم . ارسلني الامير رفيقاً حباً واكراماً. وما قصدك يا امين من زيارتك اليمن ؟

— مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها .

— وهناك مقاصد اخرى .

— نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لحضرة الامام فعسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام. فيفتح المدارس في البلاد ويمهد سبيل العلم والتعليم .

العلم ناهي [1] ولا ريب في ذلك . انا من رأيك، واقسم باللهوبهذه الشمس الغاربة اني صديقك . فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا .

— لا اعلم . قد اكذب اذا قلت لا ، وقد اكذب اذا قلت نعم .

— الست رسول الانكليز الى الامام ؟

— لا ،حتى ولا رسول اي دولة من الدول . لا ناقة لي في السياسة ولا جمل. ولكنني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب، واشتهي ان اراهم جميعاً في ائتلاف بعضهم مع بعض . اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة العربية وتعزيزها .

— ناهي ولكن كيف تتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمن كله باسره . ثم الى حكم البلاد العربية كلها باسرها .

(١) ناهي ، جميل

ـ قد يكون الامام رجلها وابن بحدتها . ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك .

ـ ولكن كيف يجتمعون واين ، ومن يدعوهم ؟

ـ يا حضرة السيد ، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابلغهـــا الامام . فلو اطلعتك انت على كل شيء فماذا احتفظ للحضرة الشريفة ؟

ابتسم السيد محمد وقال كلام حكيم . ولكنني انا اطلعك على ما لا علم لك به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سحت في عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلـم . اتعرف السبب؟ لا يزال أهل اليمن وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوفٌ دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير ـ وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه ـ هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، قد رأيت بعينك الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ ـ واخذ بيده فنجان القهوة ـ ولكنه لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي اقاتلك ، استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفىء ، يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب حتى اهلنا . فاذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟

فقلت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاتراك ؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

الامام يحيي

ـ وهل في اليمن اناس من الباطنيين ؟

ـ كان منهم طائفة فافنيناهم بالسيف .

ـ أهذه هي طريقتكم في اليمن ؟

ـ نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم . لا حق في البلاد لغير اهلها . ونأبى الشركة فيها كما نأباها في الحريم ، فنحارب ليسلم الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

صنعاء اليمن

وعلان – حزيز – البن المطري – جبل لقم – صنعاء – جمال الاسماء وجمالها – جبل عشار – جبل آنس – معادن الفضة والطلق – نشيد الزامل – بير العزب – الدوشن – بيت من بيوت الشام – ازهار لبنان – طباخ متمدن – الحمام – السيد علي زباره – القاضي عبدالله العمري – الطواف في المدينة – الهندسة العربية في البناء – الاحياء درجات – اجرة البيوت – اسعار لوازم المعيشة – « وهم مع ذلك يشكون » – حصار صنعاء ووقعة شهاره – الحضرة الشريفة – المظلة المشهورة – البنود والطبول – قصة الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام .

في صباح اليوم الثاني عشر (١٨ نيسان سنة ١٩٢٢) بعد خروجنا من لحج وصلنا الى حزيز، المرحلة الاخيرة في رحلة مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسنات الى مقامها في الذاكرة وفي الفؤاد . اني وانا اكتب الآن اتمتع بها واستأنس بترداد ذكرها . كأني في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء .

بتنا الليلة السابقة في وعلان ، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلاً من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يُستغرب مثله في الدرجة الخامسة عشرة عرضاً ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من عشرة آلاف قدم فوق البحر [1] هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة

(١) هذه قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدام الانكليزية .

١٠٠٠٥ جبل سماره	٩٥٠٠ جبل ذقار قباله	٦٧٥٠ مدينة اب
٠٩٠٢٠ يريم	٧٦٥٠ ذمار	٧٥٤٤ صنعاء
٠٩٠٠٠ بوعلن	٨٠٠٠ مناخه	٩٨٤٠ جبل شام

الى طقس اشبه بطقس الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحر بقرن صغير من قرونها الذهبية كل ريح تهب فتدميهـــا ، ثم تحييها ، وتوسل الحرارة فيها .

وصلنا الى حزيز وما هي الا بضعة بيوت وسمسرة ، ساعة الضحى فجلسناهاربا من الشمس في فيء حائط نتناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال اثنان شهيران بما ينبتان ويجاوران . هما بنو مطر غربـاً ، وفيه احسن ما يزرع في اليمن من البن ، ولُقُم شمالاً ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفّاف من الهواء . بينا نحن ندنو من لقم الذي اصبح على يميننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية ، في سهل ذهبي منقطع الاخضرار .

اثنا عشر يوماً في المشقات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . اي صنعاء ، مثّلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثّلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ، ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ، ومطيتنا غير الخيال ،

يتبع حاشية صفحة ١١٨

عند اشتداد البرد يجمد الماء في صنعاء وقد سقط الثلج في ذمار لاول مرة في حياة من شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠ — ١٩٢٢ ، سنة رحلتنا .

نشاهد ما يثبت المقال، ويحقق الامال. هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ. وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر. وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم. وهذه كنوزك وسحر قصورك وسحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير. كنا نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال. ولكنها من الحقيقة في اعلى مكان. أفما صعدنا واياك ايها القارىء في نقيل السيّان: واجتزنا وادي نخلان، ونمنا في يريم ووعلان، وتقيّلنا في ظل بعدان، وها نحن نشرف على قصر غمدان.

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املًا. وكلما دنوت منها، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها. هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة. فيها الهواء اعذب من الماء، والماء اصفى من السماء، والسماء اجمل من حلم الشعراء. وفيها البرد، وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئا. وهي قائمة في قاع سنحان، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم، ومن جهة اخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين. ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها. اقربها اليها عُصُر وهو يظلل المروج في الاصيل، ونُقُم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج — تلغراف المرايا — الذي ينقل اوامر الامام من قنة الى اخرى. وهذا عِشار وفيه الرخام والمرمر. وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق. وهناك رضراض وفيه معدن الفضة. وهنالك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق.

وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميلٍ خارج السور رجال

الامام وثلة من جنوده . وسرنا في موكب ألفناه وما مللناه لان « الزامل » ، نشيد الزيود ، عكس ثيابهم المنيّلة راقنا جداً. وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب تمثلهم على العدو زاحفين ، وبمجرد الزامل غالبين منتصرين .

سرينا على موْر [1] حل [2] السحر
ليلة مغدرة [3] ما قمرها هليل [4]
واصبح الصبح وحِنّا [5] براس النقيل
فنِنْحور [6] العدى غارسين القتيل
نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم يزجون فمروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك . ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى ، افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعاء والحيّ الجديد منها الذي يدعى بير العزب . هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال اليمانية مشهداً آخر كان له في لبنان مثيل . الا وهو « المشَوبِشْ » الذي يدعى في اليمن « الدَوْشن » فشرع يصيح مرحّباً بنا صياحاً فيه نبرات وغنّات جمعت بين رديء الخطابة والنشيد ، علمنا منها اننا نور شمس الكمال ، وقمر الفضل والجلال ، وغيرها من آيات المحال .

وعندما وصلنا الى بير العَزب، اي الحي الذي يسكنه اغنياء صنعاء وفيه قصور الامام ومركز الحكومة ، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه بميدان الشرارة، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام

---

(١) نهر معروف. (٢) وقت. (٣) مظلمة. (٤) ما هل فيها قمر. (٥) نحن. (٦) في نحور .

ابهج واتم . البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير. ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان ، وحوله القرنفل والريحان ، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان ، يغرد فيها القمري والحسون ، وتتلألأ خلالها الشمس فتكلل حبال الماء المتصاعدمن البركة لجيناً رجراجاً .

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول ففي مائدة ، على طاولة تحت المشمشة ، عند الشاذروان ، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرسي كرسي ، وان في ايدينا الشوكة والسكين ، وان ما نأكل قد طبخه طباخ متمدن ، وان بالغ بالابازير .ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر ـ الحمام . فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام : الحمام يوم وصولكم لا يجوز . ولكني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام يأمره بتنظيفه واعداده لنا ـ لنا وحدنا .

ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول فيذلك هو التحذر من اجتماعنا بالناس ومحادثتهم وذلك عملاً بامر الحضرة الامامية الشريفةالتي كانت يوم وصولنا متغيبة في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال سريح استفحل امره وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤوساء تلك القبائل كانوا يفاوضون السيد الادريسي لينضموا اليه وينصروه على الزيود . فلما أُخبر الامام بقدومنا امر الا نقابل احداً من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبدالله العمري وهو يد الامام اليمني ورئيس ديوانه ،فاستأنسنا بحضرته وسررنا بحديثه . الفيناه على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة

والتساهل ، فحملنا زيارته على المقابلة بينه وبين اولئك المتبجحين امراء الجيش وشكرنا الله ان في رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ، ويحسنون الرأي والموازنة .

سألنا زائرنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبناه بما نعلم فقال. له سنة في عدن ولم يفعل شيئاً (اي في محادثاته مع الانكليز بخصوص الحديدة) وسألناه نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود وبعض الخلل . ولكنها نتيجة غيرة اخطأت السبيل . الشافعي والزيدي اليوم متساويان . وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، سمح الخلق ، قويم الخطة ، لا يعرف في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير والصغير او بين الزيدي والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون . نياتهم حسنة اما غيرتهم فقد اخطأت كما قلت السبيل ... نعم حضرة الامـــام يضبط الامور بيد شديدة . لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في الاطراف حيث بعض الاضطراب لا يزال موجوداً .

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبـة الامام ، وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل اخر كان معنا كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زباره فقال : حينما يرجع الامام . وراح ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب فاستاذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن ننتظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا شرطيين وأحد الموظفين . مشينا في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ، ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام ، اي بوابة الشمال ، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود

وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد ملّوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البحث عن اجابة طلبي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك . دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها دون اسواق التجارة .

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً ، اسواقها مثل اسواق جده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ست طبقات ، فبناؤها اجمل هندسة واكثر اتقاناً لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن ، وبين كل طابق والاخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امتن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة ، يستخدمها الناس للإستقبال والقيلولة فيفرشونهـا بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه أحمر واصفر واخضر وازرق ، اي الاصبـاغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات .

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان رفيقي ، ونحن ننتقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت نقيم فيه ، يقول : هذه الدرجـة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور .

مـا عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والاجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيويورك الى الاقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حـالا الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيهـا المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها غير اربعة ريالات تساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً . اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة ريالات . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زناران من الجص وكوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فـلا تقل حسناً ولا تزيد نفقة عن البيوت (١)

وهم مع ذلك يشكون – يشكون قلة المال ووقوف الاشغال ، وعسر الاحوال . ومنهم من ينسبونها كلها الى حكم الامام ، ومنهم الى الله وحده ، ومنهم العاقلون الذين يبرئون الله والامام من شرور هذه الايام ، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم .اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة

---

(١) لم تتأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غـلاء حاجات المعيشة لان ارضهم ، ولا تزرع كلها، تطعمهم ، واثوالهم تكسيهم ، فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . وهاك بعض الاسعار سنة ١٩٢٢ .

لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش

لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش

السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً

القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً .

البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً .

القدح ٤٠ اقة ، والاقة في اليمن كيلو وثلاثة ارباع ، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية .

كما قاوم تلك 'يكثر الضرائب ، ويدخر الاموال ، فتقل ولا غرو في ايـــدي الناس فتسبب وقوف الاشغال وعسر الاحوال فضلاً عمــا يعتري اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الاهلية . فضلاً عن العشائر وجميعها مسلحة فيندر في البلاد ذاك الغرس الطيب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلــك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

قال المأمور دليلي : بعد ان حاصر الامام صنعاء[1] وسلم الترك غنمنا من البنادق خيرات (اي كثيراً) فكانت بندقية الموزر تباع بريال واحد وبعد وقعة شهاره من استطاع ان يجر مدفعاً الى بيته اعطي له. فلا عجب اذا كان في العشائر من يناهض الامام ويعصي جيوشه المنظمة .

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانه قد سبقنا الى بير العزَب ودخل مفسداً حيث لايستطيع سواه . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في النزهة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا : الاولاد في المدينة يجتمعون عليكم ويزعجونكم .

سكتنا على علمنا اننا اسرى الى ان يرجع الامام. والاسير لشدة ما يحدّق بالجدران يصبح حاد النظر ، وتتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة ـ تك تك ـ تك تك

(١) هو حصار صنعاء ١٩٠٤ الذي استمر ستة اشهر فأكل اهل المدينة اثناء الحصار لحم البغال والحمير حتى والفيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قيل لنا عن الستين الفاً . ولكنهم اعادوا بعد ذلك الكرة على صنعــاء فتقهقر الامام وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شهاره المشهورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور ايضاً يدحرجونها عليهم . واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من كرامات الامام .

تلك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت شريط السلك اي التلغراف وعلمت ان المركز فوقنا في الطابق الثاني من البيت. وكان لمنزلنا باب موصد من الخارج بينه وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون. ثم جاء واحد وهو يقول: هم عرب مثلنا . وفتح الباب فاستاذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشاً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اننا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها تقية ، ورعة ، عالمة عادلة فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس الرسمي ففي الطابق الثاني من البيت .

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً ــ وقال المفسدون تحفظاً ــ جعلتنا على مقربة من الأذن الامامية والعين العلوية ، ومما لا ريب فيه ان الزيود يتقون كثيراً ويتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قريبون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها . زد على ذلك انهم يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفخة والابهة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الامام يوم يؤم المسجد الجامع ، فتحف به السادة والعلماء ، وتمشي امامه ووراءه الجنود وهم ينشدون « الزامل » تتقدمهم النوبة وثلة من الفرسان ، والمظلة وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكواكب، وقد مشى تحتها القمر المنير سُبُل الدنيا والدين .

هي ذي المظلة التي طبق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان. قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي كالخيمة، قطرها ثلاثة اذرع، و كلتها

مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش، وعلى اطرافها من الخروج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة .

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة حجماً وشكلاً، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس . والى جانبها البيارق والرايات فكان الدليل اللطيف اسرع بيده مني برغبتي. ففتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً . والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف . والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة .

سررت بخروجي الى الحوش وبدليلي . ولا غرو، فقد شاهدت الرايات والطبول، ولمست بيدي المظلة الشريفة، واستأنست بالجندي الكريم الذي نفعني بشيء من علومه، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً بطرائف الامام . «كان قبلك في هذا البيت فتحي بك [1] وكان الامام يزوره ليلاً وحده . سافر الاسبوع الماضي وهو رجل «ناهي» اعطاني هذه «الساكوة» واستدان مني عشرة ريالات اعادها اليّ عند سفره عشرين ... لا ادري والله ولكني سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) . »

ولكن الجندي في اليمن، مثل قارىء الجرائد في البلاد المتمدنة، لا يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها . فغداً يحدّث عنا فيقول : اننا جئنا من الجامعة الاميركية لنشتري الكتب الخطية .

---

(١) جاء من قبل مصطفى كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيى في ذاك الحين مفاوضات سياسية .

الامام يحيى

الضيف المأسور

الامام في مجلسه – فراش الملك – خطاب ابين فيه قصدي ومذهبي – كتاب التوصية من الملك حسين – الوحدة العربية والوحدة الاسلامية محط رحالها – «هل عندكم كلام مضبوط؟» – قصيدة الامام – المهنئون – تقبيل اليد والرجل – ملوك اليمن قديماً – التقاليد والعادات – جرجي النمساوي – شيخ الاسلام – « مسيحيان من لبنان» – رجل المسيح السمحاء – عدد سكان اليمن – السياسة الاوربية – ما يؤثر عن جورج وشنطون – العرائض – عريضة تغيظ الامام – « اذهبوا اذهبوا » الوشاية والظن – ضيف مأسور – كتابي الى الامام يعاد الي – السلك يشتغل – باب الفرج – اصل المحنة .

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة. ثم عاد الامام الى صنعاء من رحلته السلمية موفقاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ، فكنا بعد استئذانه اول المسلّمين المهنئين . لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة التي شاهدناها في ماويه وذَمار . حاجب واحد ، وهو جندي زيدي في عمامته غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رآنا قادمين .

دخلنا وفينا ما يعتري كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن. اترى الامام مثل امراء جيشه ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ أيشف ظاهره عن باطنه ، فترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يخدع بما يكنه مما لا تفصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روّاعة وله لحية قصيرة مستديرة سوداء تتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من القطن مخططاً فوقه جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبيه الوسائد يتكىء عليها ، وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخادم ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له. وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صافحناه مسلمّين فرد السلام مرحباً بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط اليمن والبلاد العربية باللغة التركية .

كان في نيتي ان القي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً . ومما قلته بعد تهنئتي بعوده سالماً موفقاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها ، فاننا مهما استرسلنا في حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الخاص . وهذا الحب يحملني اليوم على السياحة في البلاد العربية . فاني، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني الاكبر . . واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين كل من اقام حقاً وازهق باطلاً . بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرائها الكبار كالغزالي وابن الفارض والمعري ابي

العلاء . بل ادين بدين كل من قال بالوحدة العربية ،وتجديد مجد العرب، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً خالصاً لوجه الله . فمن أعز العرب أعز يا مولاي الاسلام .. ولا غرو اذا جئت بلاد اليمن حاجاً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى . على اني لقيت في جدة ، في مقام الملك حسين الرحب العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً مفتخراً . واول مرة ذكرت في حضرته اني ارغب في زيارتكم كان — حماه وحماكم الله — اول المستحسنين بل اول المحبذين والمشجعين . فجئت يرافقني باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين يني ،وهو في حب العرب والعربية على جانب عظيم من الغيرة والاخلاص .. والبلاد اليمانية مهد العرب ! جئناها متجشمين المشقات، مذللين العقبات، مصعدين في الجبال الشامخة، متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء ، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى . وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد الله عليه ، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً .

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب ثم وقف قسطنطين فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسرّ بهـــا واثنى عليه ثم قدمنا لحضرته كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الكاتب اهمل الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً . اما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جدة كان قد كتب كتاب تعريف احمله الى حضرة الامام ، فلم يستحسنه جلالة الملك ، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب كتاباً آخر ؟ يعرّف فيـه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ

الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي لأسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ . ونحن ،لخاطرجال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي ما سيجيء ذكره . افضنا في الحديث بالوحدة العربية، فكانت اول كلمات الامام في الموضوع: وصلتم الى محط رحالها . بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية أصح أساساً وأسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية . ومن أعز العرب أعز الاسلام .

وكنت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحـــافل تهيم وتذري الدمع تهيام ثاكل

والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين ويحثهم على الاجتماع والتعاضد .

ايا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا وحوطوا ذمار الدين عن كل مائل
كما فعلت اصحاب طه ومن تلا ــ هموا قافيــــاً آثارهم من حلاحل

فقلت : ان القومية تجمع الشعوب والدين يفرقهم . وانـنا نحن المسيحيين في سوريا مثل العرب المسلمين تجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين . ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص ــ من مجمل القضية الى اجزائها ــ فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك . مما دلني على انه ذو عقل عملي حاذق . واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين دخلوا اذ ذاك فمر بيده على فمه . فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى وقت آخر .

دخل الزائرون المهنئون وفيهم بعض السوريين من طرابلس الشام

وبعض الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية تقبيلات متنوعة لهـا درجات ومقامات ، ان العظمة و « المحسوبية » في صنعاء أشد منهما في الحجاز .

قرأت كتاباً لرحالة فرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذاك الحين بالقرب من ذمار [1] ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفـاً ينبئنا بما لعادات اليوم هناك من الجذور في التقاليد . وهـذا الامـام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة يجلس على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث ويأذن بتقبيل يده وكفه وركبته ورجله . بل يأكل فوق ذلك القات : ويشرب من الماء ويحمد الله ولا يقف مسلّماً الا لواحد في ملكه .

على انه تزحزح قليلًا عندما دخل محمود بك نديم آخرُ والٍ من ولاة الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد . فاستقبله واقفاً نصف وقفة ، وبادله قبلة اليد بقبلة في وجهه . ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياشينه وجزمته فركع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان . ثم ذلك الافرنجي اي النمساوي الموكل بعمل الخرطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، فقدمه الامام الينا قائلا : هـذا منكم : ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه اميركياً من اميركيي نيوانكلند القدماء فاستوى الامام واقفاً وصافحه مصافحة الاقران . هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية . وكان قد تقدم حضرته ثلاثة صبيـان ، منهم اثنان من اولاد الامـام يرفلون بالاثواب المخططة ذات الاردان . وعلى اكتافهم البردُ اليمانية ، وعلى

(١) هو الامام المهدي لدين الله .

رؤوسهم عممٌ مزركشة بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن . دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه .

غصت القاعة بالمهنئين، وكان حضرته يعرّفهم الينا فيقول: هذا امين، وهذا قسطنطين، مسيحيان من لبنان فقلت : حضرة الامـــام شغف بالسجع . فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاها، فسألني سؤالاً غريباً ثم جاوب عليه فكان الجواب اشد غرابة : لمـــاذا دُعي صاحب الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة تاريخية وجيزة فلم يقنع ، فقال : لان رجله كانت مسحاء . واشار بيده الى رجله ثم توكيداً بالسبابة الى خط الانحناء اي القوس في راحتها .

قد ساءتني والحق يقال هـذه النسبة وان لم يكن الاحتقار فيهـا مقصوداً ، وعاد بي الفكر الى جده، الى مجلس الملك حسين، الذي لا يسمع فيه الزائر كلمة واحدة تكدر او تسيء . بل لا يسمع غير ما يسر ويفكه ويفيد . اما الرجل المسحاء والمسيح ! لم اتمكن على تساهلي من دفع ما وقر من هذه الكلمة في النفس وقد اكون اسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال سألته لانه في ذاك الموقف لا يليق ولا يجوز. ولكن عذري اني طالب علم سائح في سبيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال: بالتقريب لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم تحكمون ؟ فاجاب وهو يبتسم ويضم انامله الى كفه اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي باللغة العربية وكان قوله ولا شك تزلفاً : كل واحد من الخمسة ملايين مطيع للامام ، فاعترضه الامام قائلاً : لا لا . ومال بوجهه إليّ وهو يشير بيده تلك الاشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنةٌ منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غير القديمة التي كانت تشمل

عمان وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها .

وكان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلم وما يهتم به من اخبار العالم . فهو يطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار كأنه من هذا القبيل مدير شركة اميركية او رئيس وزارة بريطانية — سألني عن ارلنده — وهل حازت استقلالها ؟ سألني عن لويد جورج — وهل يخلفه في الوزارة كرزن ؟ وعن زغلول باشا — واين هو الآن ؟ وعن الاتراك — وهل عقدت المعاهدة بين مصطفى كمال والفرنسيس ؟ وعن اميركا — وكم سنة يحكم الرئيس ؟ وهل يعاد انتخابه ؟ وكم مرة يجوز ان يعاد ؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج وشنطون الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلًا : ما تحررنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا في هذه البلاد ، اعجب جداً . اما كلمته المأثورة: فاستعدوا في ايام السلم للحرب . فابرق لها جبين الامام كأنها حديث شريف ، واطرق وهو يهز برأسه ويقول : ناهي ، كلام ناهي ، حكمة رائعة .

وما توقف عن اكل القات وشرب الماء اثناء الحديث . ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحملون العرائض والكتب . الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها في الحال ويقضي بها . ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها انظر اليه واراقب عينيه ، وفيهما يبدأ الانفجار او ما يشير اليه . انما الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم ، مثل رسول السلم ، يبسم لك مطمئناً . كثيراً ما شاهدت هذه السيماء المتناقضة فيه . ولكنه في ذاك الحين تغير تماماً فساد الغضب في ناظريه ، وقلص العنف شفتيه

فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فاشار بيده اشارة سريعة جافية ان اذهبوا اذهبوا ، ولم يفه بكلمة سلام واحدة .

خرجنا كالمطرودين ، وبتنا في امر هذا الامام حائرين ، أبدوي هو اذا غضب ، وسياسي اذا رغب ، وشاعر في ما يحب ؟ أعالم مجتهد ، وحاكم مستبد؟ أغليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان في شخص واحد في زيدي؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد الغلط ، ولكنه عادل ، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يحابي ، وعند الاقتضاء سمح حليم ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخير من رجاله ، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة ، رأيته في ليالي رمضان ، وقد انصرف جميع كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، وسيدخل القارىء بعدئذ الى ديوانه ، فيرى كل شيء في مكانه .

اما الان فعلائقنا — في لغة السياسيين والصحافيين — متوترة ، ومنا بدا منا ، على ما اعلم ، ما يسيء الى الحضرة الشريفة بشيء ، فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاء » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل البال في غوامض الدين ، ولكن رجل حضرته انيقة الشكل لها قوس بليغ ، يدل بحسب علم الفراسة ، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق ، فاين هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذاك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوفه ورسل السلم والخير اليه .

مرّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا البال ، او اشارة تعيد الينا الثقة والامل ، ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً ، ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة

الريب وسوء الظن، بل نود انفسنا بعيـدين عن الزيود وبلادهم . أفلم يرضَ الامام يا ترى بكتاب الملك حسين، ام هو في ريب من أمرنا مما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات . فقـد قال لي احد السادة : الناس مشتبهون بكم ، حتى الذين اكرموكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم . فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياتنا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينـا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين. ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال ان المشي في الشمس يتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمن المحرقة ، فالاحسن ان نخرج عند الغروب ، ثم جاء سيادته عنـد الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينـا الخروج للنزهة ، وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله . . .

اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هـذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار . فلما فتحت دفتري مساء ذاك النهار لأدون فيه بعض الخواطر اطلعت على ما يلي : : وبما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروب مثلي ، قال الرفيق ؟

ترجو الخروج الى المدينة باحثاً فيهـــا عن الشيء الذي لا تعلم
لكن لسوء الحظ بابك موصد « ان اللبيب من الاشارة يفهم »

وفي اليوم الثالث وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق، حاولت الخروج الى الساحة فردني أحـد الجنود في الباب . صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز ، فنحن لا نزال أسيرين ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كان الامام غائباً ، فما السبب وما العذر الآن يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الحضرة الامامية كلمة يمكني ان انقلها بالحرف

لانها أُعيدت اليّ :

مولاي .

حياكم الله بالخير والسعادة ، اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم أسير فضلكم ، وموضوع اكرامكم ، وسأكون مدى العمر شاكراً لكم . وجئت الآن اسألكم ، واستميح عن ذلك عذراً لعلمي بما انتم فيه من الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم ، ان تعلموني اذا كنتم تسمحون بمقابلة خاصة ومتى . فاني مقيد بخطة سفرٍ تضطرني الى القيام باذن الله بالمحدد من زمانٍ ومكان ، وفي كل حال اني شاكر ابداً لمولاي الامام ، فخر العرب والاسلام ، حمى الله ذماره ، وأعز بنوده ومناره ،

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠ امين الريحاني

فاعاد الامام كما قلت الكتاب اليّ وقد كتب في اعلاه بخط يده :

عافاكم الله ووفقكم ، لا بد نطلبكم لما اشرتم اليه ان شاء الله قريباً ﻫ

والحرف الاخير ﻫ علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويُكتب باسمه .

زادني الكتاب حيرة واضطرابا ، فضلاً عما ظننته اهانة مقصودة ، أهذه طريقة الزيود في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصارى ، فلا يرغب حتى بورقة من اشيائهم ؟ قد اكون اسأت الظن ساعة الحنق والاضطراب ، على ان ما عرفته بعدئذٍ وشاهدته اثناء اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير الاول كله تماماً .

كادت تحملني تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء من مظاهر الاجتماع والسياسة ، سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم

وعمران بلادهم ، وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله ، فما السبب في الانقلاب ؟

ما نمت تلك الليلة الا قليلاً ، وكنت كل مرة استفيق اسمع السلك يشتغل مجداً ، وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة ، ولا حاجة لـ « قد » التوقيع . فان سبب كربتنا كما تحققنا انما هو الملك حسين ، او بالحري كتاب التوصية منه ، فرأى الامام الحكمة في تثبت الامر قبل ان يفاوضنا بشيء ، فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما اكرمنا من اجله ذاك الاكرام الجميل في الطريق ، فاذا كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى ان تكون نتيجة كتاب التحرير ؟

حكم الامام

الامامة بالسيف – شروطها – سبب الفتن والحروب – الرهائن – اعداء الامام – اليمن في الماضي–اول امام زيدي في اليمن– الفرق الزيدية – الائمة الاقدمون – اليمن الاكبر – القرامطة في اليمن – اول دخول الاتراك – اول ثورة عليهم – خروج اشراف ابي عريش على امام صنعاء – خروج لحج وعدن من حوزته – رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ – انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ – ثم سنة ١٨٩١– الامام المنصور – احمد فيضي باشا – الامام يحيى – ثورة ١٩٠٤ – حصار صنعاء – الصلح – ثورة ١٩١١ – عزت باشا – معاهدة ١٩١١ – رجوع الامام الى شهارة – الحرب العظمى – رسوله الى لحج والانكليز – كتاب ملوك العرب – اعداء الامام بعد الحرب – التجاؤهم الى الملك حسين والسيد الادريسي – الشوافع – العشار .

ان الحكم في اليمن ديني وضعاً ومدني عملاً ، له فروع في الاصل مذهبية وله مظاهر في العمل غير يمانية فقد أخرجهم الامام زيد [١] الذي ينتسبون اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر ، وعلمهم الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش . ولكان الحكم هناك قريباً من الديمقراطي لو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعلوا الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف . ولكن عقيدة غامضة باطنية في من انشق الزيود عنهم حملتهم ، على ما اظن ، على التمسك بضدها قالت فرقة الشيعة : لا امام بعد الامام

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد ليسترجع الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصلب .

الثاني عشر وهو صاحب الزمان [1] فامست من العقائد الدينيـة التي ينمو فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، ويشين اساليب العبادة فيجعلها سخرية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان ، كأن الزيديين يقولون لخصومهم : اذا انتم رضيتم بامام موجود دائمـاً في كل مكان ، ولا يُرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يهتدوا في ذاك الحين الى غـــير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحقيقاً لاملهم فقالوا : ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، انما هو

(١) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٣٦ ﻫ . غاب عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً . ولكنه حي ابداً ، وموجود في كل مكان ، وسيظهر – هو الامام المنتظر – ليطهر العالم من الفساد والضلال .

حاشية : قد تفضل احد علماء النجف فاصلح ما في الحاشية السابقة من الاغلاط التاريخية والدينية فقال ان الامام الثاني عشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ ﻫ ، وانه «غاب عن الابصار الغيبة الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ ﻫ ، وغاب الغيبة الكبرى اي عن الجميع الا نادراً سنة ٣٢٨ ﻫ . فيكون عمره اليوم ١٠١٨ سنة .

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، يحيا ويموت ، ويأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الآفاق متنكراً متخفياً الى ان يأذن الله بالظهور » .

قد يشكل على القارىء قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه «يتجول في الافاق متنكراً » والذي أراه على قصر باعي في هذا العلم ، ان في الحالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقيم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميركا .

الامام المنتظر .

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر [1] شرطاً، منها ان الامام يجب ان يكون مكلفاً بالغاً ، وحراً اي ليس بعبد، ومجتهداً، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المحذور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من يحكموها من السفهاء والمعاتيه ، وهي تحول دون مطامع العبيد والمماليك – لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم وبعضهم يرتقون الى المناصب العالية – الذين زعزعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واوهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة ، اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم ، والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول، اي القرآن والحديث والفقه واللغة ، ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحيــــاة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية ، اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيهما، لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني .

ولعمري ان شروط الامامة في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها لولا هذا الشرط الذي ينزل السيف منزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، ونتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً .

(١) وهي ان يكون الامام مكلفاً ، ذكراً ، حراً ، مجتهداً، علوياً ، فاطمياً ، عدلاً سخياً ورعاً ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الاطراف ، صاحب رأي وتدبير ، مقداماً فارساً .

وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف تصمن سبل الفلاح والعمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طماحاً، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة ؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامحين اليها، ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكمين . فاذا أحسوا بوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه . فيتسع المجال اذ ذاك لغيره من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتدق طبول الحرب ، ويخنق دخان الفوضى روح الامن والنظام والعدل .

لا نخطىء اذا قلنا ان الفتن في اليمن حالة مستمرة يتخللها في بعض الاحايين فترات يسود فيها السلم والسكينة . وقد كانت قبل ان جلا الترك عنهـا ميداناً لسيف الاسلام — الجهاد ثالث الماء والزاد — بل لسيف الامام زيد ، بل لسيف كل طماح من السادة المحترمين — ميدان هلاك ودمار ، لا يسكن فيه غبار ، ولا تخمد له نار ، الا في فترة عياء عام او تفوق شخصي مثل فترة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد ، وبالعدل والرهائن .

ولا عجب ، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة ، اذا كانت الرهائن اساس الملك ، لكنه ، ولا ريب ، اساس فاسد ، لا يسلم حتى في ايام الحرب ، اجل، ان الرهائن دمّل في حكم حضرة الامام ، بل دمّل في نفسية اهل اليمن، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة ، وان كانت سليمة العقيدة ، فليست بسليمة في وطنيتها ، لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامـــة ، واعداؤه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً ، ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكنة، وسبل التجارة والسفر فيها

آمنة ، فهو دائما في احتراب ظاهر مع الادريسي ، وفي احتراب خفي مع الشوافع ، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل. وفي احتراب سياسي مع الانكليز ، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن ، هؤلاء اعداء الامام ، فضلاً عن السادة اقرانه ، الطـامعين بمكانه ، ليس فراش الامامة بالفراش الوثير ، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في نزع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية ، في المبايعة بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة .

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي، في عهد اسلاف الامام يحيى ، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة ، وسأعود بالقارىء الف سنة الى عهد مضى ولا اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيى بن الحسين القاسم الرّسي يدعو النـاس الى المذهب الزيدي ، فاقام في صعدة يعلم عدة سنين ودُعي الامام ، هو رسول الزيدية الاول في اليمن ، ولكن الذي أسس الامامة في صعدة هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالرسي المذكور .

وقد تشعبت الزيدية الى فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي سمي سرحوباً ، والسرحوب كما قيل شيطان اعمى يسكن البحر ، وهذه الفرقة تقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف والفرق الاخرى في الامـام المنتظر ، والسليمانية تتبع سليمان بن جرير وتقول ان الامامة شورى بين الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسلمين ، وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليفتين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول

بوجوب السب ، ومنهم من يقول بوجوب الاغضاء .

كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين (٩٣٠ ﻫ) الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت. والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً فقد انفتح فيها الباب للحسني والحسيني ولم تكن دائماً مستقلة . فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء الترك ، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٧ م) ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عتّم ان ثار اهل اليمن على الترك فأخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فثار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن. ثم ثار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واعلن استقلاله .

وفي سنة ١٨٤٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا على ابي عريش ، وتقدموا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا بالترك فدعوهم الى صنعاء. ففازوا هذه

المرة، ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين لان اهل اليمن الذين يثورون على سادتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يوالون الاجنبي طويلاً. ففي سنة ۱۸۹۱ نهضوا على الترك فحاربوهم واخرجوهم من صنعاء. وكانت تلك الثورة فاتحة حروب وفتن استمرت ربع قرن، يوماً تضطرم نارها، ويوماً تهمد تحت الرماد وعندما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعثت الدولة الفريق احمد فيضي باشا، فتقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها، فتقهقر الامام المنصور الى صعده .

وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى، فاعاد سنة ۱۹۰٤ الكرة على الترك، فحاصرهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر ـ «اطعمناهم النار والفار» ـ فسلموا بدون شرط . وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيناً في نواحي اليمن الاسفل، فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الفاً من الجنود لتأديب العصاة، فاستولى ثانية على صنعاء، ثم تتبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره . ولكنه دُحر شر دحرة هناك (۱) فعقد بعدها اتفاقاً والامام - رقّع صلحاً ـ لم يدم غير بضع سنين .

ففي سنة ۱۹۱۱ كانت العشائر قد تاقت الى الحرب، فهجمت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام ولكنها لم تفز فوزها في حصار ۱۹۰٤ ـ ۱۹۰٥ . وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ايطاليا . فسعى عزت بما كان له من حنكة، وفصاحة، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام ليمنعه على الاقل من مخالفة

(۱) راجع شرح صفحة ۱۲٦ من هذا الجزء .

العدو كما فعل بعدئذٍ السيد الادريسي .

وقد كان عزت كريماً جواداً ، فاستغوى العرب بالمال ، واستمال الامام بفصاحته وحذقه . فعقدت معاهدة ١٩١١ (شوال ١٣٢٧) لمدة عشر سنين وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها . قد تعهدت الدولة كذلك بان تدفع للامام ولرجاله السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسمئة ليرة ذهباً . وبما ان الزيود ، بموجب مذهبهم ، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم ، كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالمئة بدل الجباية .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الحِمير في شهاره ، وظل والاتراك على ولاء ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا بــه بعد دخولهم في الحرب العظمى ، ومع ذلك فلم ينقلب عليهم ، ولا ساعدهم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن ويظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا يفاوضونه بطريقة غير رسمية ينضم الى الاحلاف في الحرب فارسل بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى لحج لا الى عدن يطلعهم على احواله ويعتذر . وقــد كان يومئذٍ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب » [١] المعـاون الاول للحاكم في عدن

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابــه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي ينحصر موضوعه باليمن وعسير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٣٤ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوحت اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انفسهم .

فذكر هذا الخبر في كتابه .[1]

الامام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزيدي الاول في اليمن السيد يحيى بن الحسين الرسي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا نفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور. وبعد وفاة المنصور ظفر ابنه يحيى المتوكل على الله بالامامة . وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثانية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات . ولحضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً ، مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون « » محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهّر ، و"قاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات .

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله المعروف بالضحياني وهو لا يزال حيا . ولكنهم لم يفلحوا . ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب

---

(١) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ١٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد علي شريف الى لحج ليستطلع مقاصد الانكليز . ولقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان لحج وحليف الانكليز) حاضراً .قال الرسول ان الامام لا يخلف مع الترك وبينه وبينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتباته ومرتبات عشائر حاشد وبكيل .ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان ينسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ولكانوا ينسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . فقد اقنعوا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد » .

هارلد جاكوب في كتابه « ملوك العرب »

الامام من السوده جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يبغي الامامة . وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماؤه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام . هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم . كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سراً اليها عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ وقصدهم السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين . ولكن الانكليز لم يأذنوا لهم بالمرور فرجعوا الى بلادهم . قد سمعت من مصادر شتى ما يدهش ويضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعداءَه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة .

قد استتب لحضرته الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد . وانتفع بمن تخلف من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه . وانتفع بنصراني نمساوي فأسس معمل الخرطوش . وانتفع بمذهب اجداده فحارب الادريسي وتغلب الزيود على الشوافع مراراً . الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يحاربون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله ان المرء ليأسف على امة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة .

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً يمانياً لا حكماً زيدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ ذاك يدينون له طائعين راضين ، او انهم يأبون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية في يد اعدائه . اما اليوم فمهما قيل في عدله الجم ، وحلمه الشامل ، فالشوافع في حكمه غير راضين ، والذين في

الجيش منهم يحاربون الشوافع اخوانهـــم مكرهين . ومن المظالم التي يشكونها انه يجمع الزكاة والاعشار منهـم بالتضمين كما كانت تفعل الدولة العثمانيـة في الولايات . والعشّار مثل الجـــلاد ، مكروه في كل بلاد .

الامام يحيى

الضرائب والسلاح

المسموع واليقين – قوة الامام – عزلة اليمن – المذهب والجنسية والوحشية – الجند النظامي – المجاهدون – العرض يوم الجمعة – انواع المدافع والبنادق – معمل الخرطوش – قصر غمدان – غنى الامام – قصص الكنوز – حكاية السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام، وحديثه – « الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام » – الضرائب – العشور – الزكاة – رسم الجمارك والقوافل – والجزية يدفعها اليهود – بيت المال – اليوم المنتظر – غلبوم العرب .

كنت اسمع الناس في جدة يتكلمون عن الحكومة العربية في الحجاز فيذكرون اليمن كأنه ولاية من ولاياتها ، وكأن الامـام ، وهو العربي الصميم – هاك قصيدته في جريدة القبلة – يبغي الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره زعيماً . وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طائرات تبـــدد صفوف الزيود وتشتتهم في الاودية والجبال ، فتنسيهم الامـام ، ووحدة الاسلام . ولكننا سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الامامية الشريفة ، وشاهدنا جنودها النظامية . لا نظن ان عدناً تشاهد ما شاهدناه ، وان الحجاز يسمع ما سمعناه ، لان الحقيقة في البلدين مشوهة ، او مطموسة ، او مجهولة .

وهذا مما يؤسف له . فان ملوك العرب وامراءها ناؤون بعضهم عن بعض ، وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين . قـد يسمع احد المسافرين كلام مثل ابن الوزير ، فيحمله الى الحجاز ، فيظنه النـاس هناك كلام الحكومة . وقد يسمع احد رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورة لآراء الامام ومقاصده . لا انكرُ ان شيئاً منهـــا

ينعكس في كلام الاثنين . ولكن الامام الكبير ، الكبير باستعداده وبطمحه ، لا يظهر في كلمة يقولها هو او يقولها احد رجاله .

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل – قد سمعته يتكلم . ولكن اعماله ، وقد ادهشنا بعضها ، وبعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا تنحصر بالزيود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط [1] وانما هي في تلك العزلة التي توجبها العقيدة ، ويثبتها التاريخ ، وتعززها الجبال . اجل، ان قوة الامام يحيي لفي ثلاثة يقدسها اهل اليمن ، هي المذهب والوطنية والوحشية [2] وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه العناصر الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكتم طبعا فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زيدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، ويأذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي يرغب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شراذم من الجند في ماويه واب ويريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها واجزائها ، بنوبتها ، بسريتها ، بمشاتها ، بمدفعيتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ابن اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ،

---

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنيين الشوافع ، وعشروف الفاً من اليهود ، والباقي من الزيود .

(٢) اني استعمل هذه اللفظة ، وحشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك انهم ينفرون من الغريب .

مشية الاوز Goose - step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى . وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهـــم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها [1] ، بعضهـا مجلوب وبعضها مغنوم ، وبعضها مشترى من رجال عسير . وان معمل الفشك في قصر غمدان [2] الذي يديره جرجي النمساوي يشتغل دائمـــا ، فينجز اربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة [3] . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي [4] ثلاثمئة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخلو من المبالغة .

في كل حال يحق للامـام ان يردد انشودة الانكليز الحربيـة الاستعمارية فيهتف قائلا : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ،وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجن والكنوز المرصودة .فالامام غني،غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بير العزب خزنة من الذهب والفضة ، لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعنده

---

(١) قيل ان عند الامام اربعمئة الف بندقية . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كالطليانية القديمة ، وعنده مئتا مدفع متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقـد رأيت يوم العرض مدفعين من طراز الهاون .

(٢) قصر غمدان القديم دُرس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنعاء فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش ، والسكة ، والسجن .

(٣) هم يجلبون الرصاص ويستخرجون من ارضهم ملح البارود .

(٤) عدد الجيش النظامي خمسة الاف .

في شهاره ، في قنن الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليها سواه . واذا اكتُشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا عُرف الحجر فلايستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكلٍ سرُه مفتاحهُ ، عند الامام . دعنا والكنوز .

ان الضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها مثل الاكليروس عند النصارى تأخذ ولا تعطي . في ايام الدولة كان اهل اليمن يدفعون الزكاة فقط ، وكانت العشائر معفاة منها . اما اليوم فهم كلهم يترحمون على الاتراك . قد اسمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح . واليك الان بحديث لرجل غريب ، كان يلبس فوق ردائه معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر عليه وشرب وهو في رقاعه وطوله ووسعه وازراره البيضاء والسوداء آية في الزي والاختراع ، وكان الرجل يشد فوق هذا المعطف الجنبية اي الخنجر ويحمل بدل البندق العصا .

استوقفت هذه القيافة المبتكرة نظري فسألت الرجل عن مهنته فقال : مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً فقال : نعطي ولا نأخذ. فاعتذرت واستغفرت فقال : تريدها بلغة الفقهاء . قلت : بلغةٍ من فضلك افهمها . فاجاب وهو يهز برأسه حياتنا هبة من الله ونحن نهبها الامام . لا نربح ولا نخسر . فقلت ولكن للهبة طرقاً واساليب. فقال ضاحكاً وهو يلطم صدره بيده : كلها عندي . انا اصلاً ، كما يقول الفقيه – وماذا يقول الفقيه ؟ – يقول : انا اصلاً واحدٌ امّارٌ بالسوء . اما انا فثلاثة وفي كلهم الخير . ثلثي يا افندي شيخ ، وثلثي فلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

– نعم انا سيد ، وان كان السادة ينكرون ذلك علي. الثلث الاول

خدم الامام فجمع له الزكاة . جمعتها بهذه ـ وهز بيده العصا ـ جمعتها « ظَلَظ » (نقوداً) ، جمعتها مالاً (مواشي)، جمعتها اعشاراً، وحتى ثماراً .وما اكلت والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطخت يدي بنقطة دم من شاة او حمامه . كلها للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فــلا ارجم العشّار ، ولا اخبىء الحمام . دفعت خيرات (كثيراً) وما بقي شيء بعد خمس سنين من الارض او المــال او الظلط . كلها للامام . والثلث الثالث يا افندي ، خاض من اجل الامام ساحات الوغى . وفيّ شاهدان ، هوذا الاول ، وذا الثاني ـ قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين ـ وما عدت الى بيتي وفي جيبي « بُخشة » [1] واحدة لا والله . خمسة ريالات، هذا الرسم. ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . نقبضها بخشات ست بُخشات كل يوم ـ والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت اشتري القات من كيسي ، هم يوزعون القات على « النظام » (العسكر النظامي) القات والبُر (الحنطة) . اما المجاهدون فلله امرهم وعلى الله ـ ست بخشات كل يوم . والظلط مخزون ، مخزون ليوم شديد ... نقول لحضرة الامــام : من شروط الامامة السخاء . فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر: ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها ليس بالتبذير... الامام رجل كبير عظيم، ينظر الى المستقبل بعينين .له مقاصد كبيرة . ونحن كلنا للامام. نعطيه، نعطيه، ولا نأخذ منه الا ما شاء ان يتفضل به . الحياة هبة من الله ونحن نهبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة

(١) الريال النمساوي يقسم الى ثمانين بخشة ، والبخشة نحاسة ضربت في صنعاء والليرة العثمانية تساوي تسعة ريالات نمساوية فتكون قيمة الريال احد عشر غرشاً تركياً وقيمة البخشة ثلاث بارات .

ينبئك بها هذا السيد . فقد صرت سيداً ياافندي لاني لا اخدم اليوم الامام بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر اليها نظر هذا السيد الظريف . فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً . والخضرات اي الثمار - والقات منها - تثمن فيدفع اصحابها العشر نقـــداً . ثم زكاة المواشي والدواجـن و « القراش » (الدواب) وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة الاصلية [١] ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة الحلي حلي النساء من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهـاد عند الحاجة . اضف الى ذلك الرسم المفروض على اليهود وان كان قليـلًا . فاليهود في اليمن ذميون يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريالات في السنة على الغني ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسمين ، ما يدفع عيناً وهو العشور ، وما يدفع نقداً .

كل ما يجمع من العشور والأموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في كل الأقضية ، وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الحبوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شيء منها الا بامر من الأمام على ان من حسنات بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه ويستوفي الدين منهم من الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً في التجارة وفي المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملًا .

وما سوى القروض فلا ينفق من بيت المال الا القليل ، لان عنــد الامام مصدر خراج آخر هو الجمرك ورسم القوافل . فكل ما يدخل

(١) يبلغ مجموع الزكاة الاصلية خمسمئة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

الى صنعاء من عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً . وكذلك كل جمل وكل دابة محملة . فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته . اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او اثيمة . كل ما فيه مدخور بعون الله ، وبفضل الامام والرهائن ، مدخور لليوم المنتظر . غليوم العرب الامام ، المان العرب الزيود .

الشمائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء – شهادته في الامام – رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في الناس–دعوا الصغار يأتون الي–التناقض في سلوكه–القصد من الجلوس في الفلاة للناس – كيف يقضي الامام يومه– مكتبة من المخطوطات – كتاب الاكليل – « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » – المدارس –العلماء والقراء والعامة –ذكاء الاولاد–حب العلم والحرب – الامام الامبراطور – الامام الطبيب – الكرامات والتشوير .

كان للرفيق قسطنطين خادم مَدَني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف بمكة، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين. استصحبه الرفيق، فكان اضحوكة الطريق ، واعجوبة الخطر والضيق . وكأن الاقدار تحسن الامثال ، فكان ينطبق على المدَني ومطيته – بغلة كانت او ناقة او حماراً – المثل المشهور . شبيه الشكل منجذب اليه . وكم وهلة روّعتنا واضحكتنا معاً ، والمطية فيها تضرب بقوائمها الهواء، والمدَني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن ضاحكاً ، وان غلظت في فمه اللعنات، ويروح راكباً فوق مطيته كأنه سيد السادات. ولد لا يعرف التوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا اسوأها . فما رافق احداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا بمعلوماته عنه ويحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا برؤية المدينة ، فراح يطوف فيها ،وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من عسل الالفاظ ، وعيناه

تبرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، ففضلها حتى على جدة . فقلت : افلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب : في مكة امي . وهذا ، اي حبه امه واحترامها ، هو بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة . قلت انه نقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده .

— أين رأيته ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد . ولما رآني قال : حي الله الجاي . وقام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده فقبلتها . وسألني عن اسمي وقال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمدلله . فقال بارك الله فيك . هو حياني ، والله وامي ، قبل ان حييته . ما رأيت احسن منه ، والطف منه رجل متواضع كريم الاخلاق ـ والعدل ! وامي لا اظن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه . هو جالس الآن في الساحة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امام ، يا حضرة الامام . جاء وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني . دموعه افصح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي ، ما اقول غير الصدق ... لا اظن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الأمام

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها . على اننا نضرب صفحاً عن رأيه وننظر في ما تضمنه حديثه من الحقائق . قد حياه الامام عندما رآه قادماً وقام له . وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يجهل ما اذا كان مسلماً او مسيحياً . هذا جميل منه . ولكننا تساءلنا ما

السر يا ترى في ما تناقض من سلوكه . ينهض لخادمنا ويستقبلنا جالسا. والسر لا يزال سراً نزفه الى القارىء ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناهه .

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ، على شكاوي الرجال والنساء . وهذه بذاتها ثناء على الامام لا يقارنه في النطق ثناء . نذكرها اجلالاً ساكتين حائرين . ان امر هذا العربي اليماني الشريف لغريب ينسب المسيح الى الرجل المسحاء ، ويشبه المسيح في عطفه وحنانه ، دعوا الصغار يأتون اليّ . من فم مسلم زيدي تتساقط درر حبك ، وفي اليمن يُسمع صدى كلماتك ، ايها السيد الكبير الأوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم الحدود ، ويحصر الحقيقة بالنصارى والزيود .

قد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدني ، بل رأيت حضرة الامام وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكاوي الناس واعياً صابراً ، طلق المحيا ، عطوفاً شفيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها ويحيل البعض الآخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في تعميم العدل والانصاف . قد علمت ان الحجّاب في بابه يردون احيانا من ينبغي ان تسمع دعواه ، او تُقدّم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظلون في مكمن من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب . فيجلس الامام حيث لا حاجب بينه وبين الناس . انما هي عادته كل يوم صباحاً عندما يخرج من قصره الى الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، ويقف وراءه جندي حاملاً السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتتح الجلسة التي تستمر من

الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوبا ببعض الموظفين والجنود وبمن شاء من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر ويرجع الى القصر راكبا في موكب رسمي تتقدمه النوبة، وتعلو فيه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل. وبعد الغداء والقيلولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب، وهو يأكل اثناء هذه المدة او بالحري «يخزن» القات، بل يظل في بعض الاحايين حتى الساعة العاشرة مساءً في الديوان قائما بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . على انه يغار عليها من عيون الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أُخبرت ـ واني اروي حديث المكتبة كما رويت حديث الكنوز ـ ان كتاب الاكليل (١) كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء .

ان للامام يحيى رأياً في العلم والملك جميلًا . وهو من اكبر العلماء والمجتهدين، وعنده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة

(١) كتاب الاكيل للحسن بن احمد الهمداني .لم ارَ منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندها وزفياتها ومراثي حمير في عشرة اجزاء . الاول : اصول الانساب . الثاني : نسب ولد الهميع بن حمير . الثالث: فضائل قحطان . الرابع : السيرة القديمة الى عهد تبّع بن ابي كرب . الخامس : من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي النواس . السادس: في السيرة الاخيرة الى الاسلام . السابع : في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المنتحلة . الثامن :ذكر قصور حمير ومدائنها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدن . التاسع : امثال وحكم باللسان الحميري . العاشر : في معارف همدان وحاشد وبكيل .

وترفعه الى سدة الملــك . وهو القائـــل : قبّح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انــه ابعدهم نظراً ، واشدهم همة ، وادقهم اجتهاداً [1] وقد قال لي احـــد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في حبه العلم لا يحب على مـا يظهر تعميمه . لم نرَ مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداؤه في احتراب . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد وبالصلاة وبالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتدّين .

اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقــه . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا مَن هم من السادة. وليس الفقيـه دائماً فقيهاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة فقط . ومن هـــذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء ويدعون بالقراء ، والعامة . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة وبيدهم مقاليد الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئاً من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافظة على كل مـا

---

(١) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة. والامام يحيى يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد بن علي بن زيد العابدين وفي بعض الاحايـين على اصول الامام احمد بن حنبل .

فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك تراهم يكرهون السيد ويسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولداً ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتهي السفر . فقال : عندنا والحمدلله ما يغنينا عنه . فقلت : ولكن الاسفار تفقه وتفكه . فقال : الذي عندنا يكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يبذل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس ،كان عندنا ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير — كل شيء ،وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ،لا يحب التعليم ،ويأخذ مع ذلك ثمانية ريالات في الشهر ، وينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتروالالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

— ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .

— بلى ، ولكنه ... سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟

— وهل عند الامام خيرات ؟

— خيرات ، خيرات .

— وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟

— اشتهي ان يكون لي هذا القدر — وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض — من علمه .

– اوَ لا تحب ان تكون جندياً ؟

– بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق .

– وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راغبـــا في الحرب وفي تقتيل اخوانك ؟

– صدقت ولكن حضرة الامام اعلمنا . فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب . كلنا نحارب من اجل الامام . وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة وبما يجب على المسلمين . قد امرنا الله بالجهاد ...

اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هذا الشعب اليماني وذاك الشعب الذي قام في اوروبا منذ عشر سنوات يلبي امر امبراطوره بتأديب العالم وبسط السيادة الالمانية على اوروبا جمعاء . وكلمة الامام اليوم مثل كلمة ذاك الامبراطور بالامس ، تكاد تكون منزلة في نظر رعيته .

ان الامام يحيى اذن رب الحرب والاجتهاد ، رب السيف والقلم . هو الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن . وهو القاضي الشفيق العادل يجلس في الفلاة كي لا يقف احدٌ بينه وبين المظلوم . قد علمت ذلك ايها القارىء ولم تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب . تداوي المريض بالايمان وتشفيه بالصلوات . اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب الاوحد في اليمن .

اخبرني احد الذين عالجهم انه كان مصابا بداء الصرع وكان في رأسه اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البدو ، واكتوى ، واحتجم وظل في رأسه الصرع والاهتزاز . فجاء الى الامام ضارعاً مستشفيا . فلباه الامام . اخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه . ثم تناول ورقة وكتب فيها آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات . ثم اعطاه الكأس قائلاً : اشرب باسم الله . فشرب

المريض الماء. فقال الامام: اذهب في شأنك، قد شفيت باذن الله. وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها .

امــا التشوير [1] وحضرته القدسية تشوّر ايضاً ، فاليك بمثل منها . جاءه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقمين، فمنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الامام . فأطل حضرته عليهم وأنبهم فثارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية فاطلق بندقيته. فقال الامام : رصاصك بين عينيك قبل ان تغرب هذه الشمس : وعاد الى مجلسه ، الى فراش الملك مطمئنا . وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون ويستنفرون . ولكن الذي اطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء يستريح والبندقية بين يديه ، وفمها تحت انفه . نعس الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ، فأطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بــين عينيه ! وكان ذلك قبل غروب الشمس !

---

(١) التشوير ، مثل «العين» يصيبك منه الشر المقصود وفي هذه الحادثة حدد الامام الوقت والمكان ، فكان ما شور بل تنبأ به . وقوة التشوير عند العرب تنحصر بالسادة الأشراف .

الجو ينجلي

فوائد السفر البطيء – حصون اهل اليمن الثلاثة – ضعف الزيود– القرن الثالث للهجرة – العزلة والتعليم – جو الظنون ينجلي – زيارة الامام – حديث خطير – خير اليمن في السلم لا في الحرب – « افتحوا البلاد للتجارة » – الانكليز – الادريسي – خطة الرفيق الحربية – نفور وزور – عدن والاجانب فيها–مندوب الامام الصنو صفي الاسلام احمد بن يحيى الكبسي – بداءة المفاوضات- رمضان – ابطاء السيد احمد – نحثه بالقوافي ونهجوه .

من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والاكتشاف والدرس . كنا في طريقنا من لحج الى صنعاء سؤالاً متجسماً ، سؤالا حياً متحركاً ، اذا أذن لنا بالاستعارة. وحسبنا في بعض الاماكن ان نقف ساكتين صابرين ، فيجيئنا ولي الامام مادحاً ،ويجيئنا عدو الامام قادحاً. فضلاً عن الفلاحين والجنود، وقد عضهم البؤس والفقر فيجيؤننا شاكين ومتبرعين همساً بما نبغيه من المعلومات .فوصلنا الى صنعاء وعندنا « خيرات » من اخبار الامام والزيود واليمن . قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الآن تمهيداً وافادة ً انها تتفرع الى فرعين ، الواحد فيه قوة الزيود الطبيعية، والثاني فيه ضعفهم الكامن في تلك القوة .

قد ذكرتُ ان الامام هو الزيود ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة – ثلاثة حصون – هي المذهب والوطنية والوحشية اي الاعتزال . اما المذهب فلا رأي لي فيه . واما الوطنية فالمدارس توسع نطاقها لتشمل في المستقبل القريب ربوع العرب كلها .

ولكنها الوحشية ، اي النفور من الغريب والنزوع الى العزلة ، تؤثر في السائح اشد التأثير واسوأه. وهي مع ذلك اول الحصون المقضي عليها، لانها لا تقوى في هذه الايام على تيار العلم والتجارة، ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بعضها من بعض .

اما ضعف الزيود ففي جهلهم الكثيف وتقهقرهم ، لا بالنسبة الى الاوروبيين بل بالنسبة الى المصريين والسوريين والعراقيين. كأنك في السياحة في تلك البلاد السعيدة قولاً وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة . لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن . ان الامام لكل شيء . هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن . هو الاب الاكبر ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا سمح الله المنون . على انه ، وان حافظ كالاب الرؤوف على ارواح ابنائه ، وعلى صحتهم . فقد اهمل عقولهم اهمالاً محزناً مفجعاً . وهو ذا النقص في حكم الامام .

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها . ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تفوق ما فقدوه . ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينها بين الحضرة الأمامية وسائر ملوك العرب ، اضف الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية بين اليمن وعدن ، وهي من الامور الجوهرية التي لا تتم الا بموالاة الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة البلاد .

اثنا عشر يوماً في الطريق واسبوع في الاسر انضجت هذه العقيدة. فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة فيّ متمكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي لي في رجاله وفي شؤونه ، فلو الفيتهم

كالمصريين او كالعراقيين لكان حديثي مع الامام غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز .

وهناك مسألة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات ، هي مسألة الحديدة . الحديدة ! لاينام الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعاء ، في يد الادريسي والانكليز . وهي قضية اليمن السياسية الكبرى اليوم .

لا تسل ايها القارىء كم كان سرورنا عظيماً عندما دخل احد الحجاب في اليوم السابع يبشرنا بقدوم الحضرة الشريفة جاء الامام يزورنا في منزلنا ، والحمدلله مُزيل الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل من رافقه من الحرس في الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة غير العمامة شكلاً لا لوناً وذؤابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشراف الحجاز وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا النعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراءه فأمر ان نجلس على الديوان وجلس هو امامي على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فانقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته تواً بعد المقابلة . فما اتكلت على الذاكرة آنئذ ولا أتكل عليها الآن . ليتيقن القارىء صدق الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يُخدع من كان يجيد التفرس مثلكم . انظروا اليّ . ان قصتي كلها في وجهي . فاذا رأيتم ما يريبكم ، او ظننتم فيّ شيئاً من التلبيس ، فمروني فاسكت واعود غداً من حيث اتيت .

فاعتذر حضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعاد الكلمة التي وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون – هل عندكم كلام مضبوط ؟ فقلت : غير ما توجبه الوطنية العربية وتثبته المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله . ولكن قبل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا مع اميركا ، ولست امثل رسمياً الملك حسين. انا مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وهنا اعدت ما قلته في المقابلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في السفر . فاذا ساعدتموني في تحقيقها تعززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد حتى الان في حبي للعرب واخلاصي لهم. ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل المصارحة يشك في ما اقول .

فاعاد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامره شيء من الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعني الآن بيت القصيد . فقلت : هما بيتان . الاول ان تتفقوا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز . ينبغي لكم يا مولاي ان تفتحوا البلاد للتجارة وللسياح. لان اليمن لا ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم الخارجي اتصالاً حديثاً . فلو عقدتم مع الانكليز معاهدة تجارية ودية دون ان تمس استقلال اليمن بشيء او تقيد بشيء سيادتكم ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم معاهدة مع ملك الحجاز وانكم اتحدتم لتعزيز شؤون البلدين ومصالحهما المشتركة ، يتسامحون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدها . اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديدة على طريقة ترضيكم.

بل اعتقد ان الحديدة ، وهي ميناء صنعاء التاريخية والطبيعية ، تعاد اليكم اذا استعضتم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضتكم والانكليز واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا يخفى على مولاي انه اذا فتحتم بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الامن والسلم في البلاد . واما عزلتكم اليوم ، فاذا دامت ، تتلاشى فيها قوتكم . انكم تبذلون اموالكم وحياة رجالكم في الحروب الدائمة وفي الاستعدادات الحربية التي هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يا مولاي وهذا لا يكفي فالامة تحتاج الى ثياب تقيها البرد ، والى تعليم يقيها الجهل والمرض ، والى تجارة تقيها الفقر والشقاء . ولا تنال ذلك الا بالسلم وبالعلم . لست ممن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب ويستبشرون بها ، بل من مبادئي وآمالي ان تتحسن العلائق بين الفريقين . واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً تاماً . ولكني اغار عليها من الجهل يا مولاي كما اغار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين الا في اتحادنا ، في اتحاد ملوك العرب وامرائها اتحاداً لا يقدح بسيادة كل منهم ، ولا يجحف باستقلالهم التاريخي . اضعفتم انفسكم بالحروب . قتلتم البلاد بالحروب . أفما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، والتفاهم والتحالف ؟

كان الامام وهو مطرق يصغي لما اقول ، ويهز رأسه مبتسماً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادريسي حليف

الانكليز وعدونا ؛ يأخذ منهم المال والسلاح ويحاربنا بها . وهو بيننا وبين الحجاز المانع الحاجز .

— هو ينضم اليكم عندما تتحدون . لا يقف الضعيف عدواً بين قويين .

— ولكن الانكليز يساعدونه .

— الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد ادعوكم اليه — الى حد فيه تتم المحالفة اليمانية الحجازية . فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلونها ويسعون في عقد معاهدة صداقة وتجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن وعسير، وفي عقد معاهدة ودية تجارية بينها وبين بريطانيا؟ اما الحديدة فتعاد اذ ذاك اليكم ويسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسكلة اخرى وعنده اللُحيّة وميدي وجيزان والصليف، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تعمير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذاك تحديد الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام: ناهي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم ولكن لم تثمر المفاوضات حتى الآن . هم يماطلون ويسوفون ونحن صابرون .

— لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعلموا بها .

وكان قد نفد صبر القسطنطين وهو يتحفز للكلام ، فقال مخاطباً الامام : بل يعيدون الحديدة اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذاك نضرب الادريسي من الشمال، وانتم تضربونه من الجنوب فتأخذون الحديدة

منه كرهاً وترغمونه فيضطر ان ينضم الى المحالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب، فشرع يخطب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديث وهدير الطائرات . فخففت منها على بناء السلم الذي ابنيه . وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره ، واعدت بعدئذ عليه ما طالما قلته في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتمدين ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا . مـــا جئت لانصر جهلاً مسلحـاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللباس وفي المسكن

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الاناة . فمهما كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم — نشتهي عدن — دعنا نزحف على عدن فنأخذها بعشرة ايام ! — فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة . وقد احسست بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم من استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت طماح يحلم حلماً سياسياً باهراً ، ويعد لتحقيقه العدات، ويجمع الاموال، الذهب والفضة ، ويخزنها لذاك اليوم العظيم . وان لعدن مرقــداً ولا شك في حلمه ، وعلَماً في محيط علمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودرة في تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات ، ولكنه لا يعلم على ما اظن ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء :

في عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملوهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته ، يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهو الرفيع الجناب الوسيع الرحاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع شكاوي الناس .

وكأنه سمعنا نئن ، سمع النفس الصامتة تشكو الاسر ، فأذن لنا في ختام تلك الجلسة بالتطواف والتنزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد سررنا بهذا التعطف الامامي ، عدنا بعد بضعة ايام دون كلمة او اشارة من حضرته الى الريب المؤلم والظنون . وقد كان ظني ، سامحني الله ، ان القسطنطين افسد علينا الامر بخطبته الحربية ، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . ومما زاد في الطين بلة ان الرفيق ، ونحن في تلك الحال ، شرع ينظم القصائد في مدح الحضرة الشريفة وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ . فرحت انا ابحث في المدينة عن ترياق لسم الجزع والقنوط .

ان حياتنا في صنعاء في الايام العشرة الاولى كانت والحق يقال كادوار من الحمى يتخللها فترات نقه قصيرات . ولم نشف الشفاء التام الا بعد ان زارنا ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب . دخل حضرة السيد يتقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدثنا بجمال صنعاء الذي يفوق بهاء القاهرة وجلال الاستانة ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة ويشم النسيم ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هذه السياحة التي اتحف السائحين باخبارها تمهيداً وتعريفاً ، رفع العمامة عن

رأسه واخرج من احدى طياتها رسالة من الحضرة الشريفة ، بـل خطا اماماً ، انبأنا بان السيد احمدبن يحيى الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومعتمدها في المفاوضات بشان المعاهدة . وقد خط الأمام الخط بيده ، بالحبر الأرجواني ، على طريقته الخاصة ، اي بضعة اسطر منهـا متناً والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالهلال ، وختمه بالحبر الاحمر[1] اما نص خط الاعتماد فهاكه .

بسم الله الرحمن الرحيم

يحيى حميد الدين
(صورة الختم) امير المؤمنين
المتوكل على الله رب العالمين

الصنو صفي الاسلام احمـــد ابن يحيى الكبسي حرسه الله . كل المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مـع السيد محمـــد علوي السقاف[2] باطلاعكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقـه قسطنطين ومعهما كتاب ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ اراده انجاز الكلام والمـراد منه البغيـــة المقصودة والضالة المنشودة . فليكن منكم الكلام معهما لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداء وانتهاء مع لوازمها الذاتيـــة والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من الجميع عن كل احـــد . واعرضوا هذا عليهما . وقد اعلمنا الحاجب بالاذن لكم بالدخول اليهما والسلام عليكم .

في ٢٨ شعبان الوسيم ١٣٤٠

---

(١) خط الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .

(٢) والاثنان تقدمانا في المفاوضات بين الملك والأمام بخصوص المعاهدة .

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجّاب في الباب لا يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الامام . فكان السيد احمد الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم فيستنشق هواء المدنية دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة ومجاريها المضرة . والسيد احمد جسيم وسيم ، بطيء الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ، لطيف الاشارة . وله عين في الفتن السياسية ثاقبة اللحاظ ، وعينان في كشف الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا واياه في رمضان فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء ـ هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السحور ، ثم وقت النوم ، ثم اوقات الصلاة ـ ظاهر وماشي؟[1] ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجيئنا بعد نصف الليل اوبين المدفعين مدفع السحور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده بين الشمس والزبرقان وكان يجيء حرسه الله والطيب ينتشر من اردانه ، وبقايا القات بين اسنانه ، فيسأل اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ بنداً واحداً من المعاهدة واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذاك الطبول مبشرة بمدفع الافطار ، فينهض ، السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا نراه بعدئذ الا بعد ان تتعدد منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحجّلة ومني المخجلة . اجل قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

(١) ومعناها في اصطلاحهم افهمت ؟

في ١٦ رمضان الكريم

لقد هيّج في القسطنطين نهمة الى الشعر كانت راقدة . لطالما تاقت النفس وتشوقت العين الى شيء يخصني من ذاك العنوان الجليــــل في الدواوين : وقال يمدح فلاناً . ولكني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً، فقلت وانا في صنعاء أهجو سيدي وصديقي السيد احمـــد بن يحيي الكبسي ،قدوة السادات الكرام ، وأحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بطءٍ ومطلٍ من الكبسي
وقلت هو الصوم المطيل لذا الحبس
ولكن ظني قام يشكو جهالتي
ويكشف عما في الوعود من اللبس
فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا
وخرنوبه لا شيء فيه من الدبس

الامام يحيى

المخيّم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق – البروتستانتيون والكاثوليكيون – الزيود – امام الزيود – الضيافة العربية – رسم الامام – المخيم المنصور – الامام في المخيم – ثباته في العمل – حسن الادارة – كتاب المخيم – الاخصائيون – الامام الشاعر – قصيدة قسطنطين في هجو القات – هياج الشعراء في صنعاء – قصيدة الامام في مدح القات .

ان للدين تأثيراً في الاخلاق وفي العقول . فانك لتلقى امرءاً ذا فكر وقاد ، ونظر نقاد ، سليم الذوق والعقل ، كبير النفس والخلق في كل اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه . فتلقاه اذ ذاك سخيف الفكر وان ضن به ، سقيم الذوق وان عالجه بالاعذار وحلو الكلام ، عقيم العقل وان اغرق في الاجتهاد ، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله .

خذ البروتستانتيين مثلاً . فانهم بوجه الاجمال اسلم عقيدة واوسع حرية في العقليات من الكاثوليكيين . ولكن في البروتستانتية مذاهب تضيق عندها جادة الحياة وتربدّ آفاق الطرب والسرور . فلا يُحب لذلك تقيها ، ولا يُرغب في مجلس عالمها ، وقلما يطاق قسيسها اذا كان من الطراز القديم . بينما ان رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ، وان ضيقوا على العقل وقيدوه ، لا يطفئون انوار اللهو والسرور في جادات الحيـــاة .

ان الزيود مثل بعض البروتستانت عقيدة وعملاً . وان امامهم الاكبر في سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليذكرني بذاك القسيس

المحترم الذي يحمل الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه ، فيسمى ، والغم مخيم فوق حاجبيه ، في نشر كلمة الرب في الناس . الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن الضيافة والمؤانسة ولا يحزن عليك اذا ظنك في ضلال ، ولا يقف مبشراً بين يديك .

انك لا تجد في ملوك العرب من هو اعلم من الامام يحيى في الاصول الثلاثة ، الدين والفقه واللغة ، ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه . وهو اوسع نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض اوقاته في المطالعة : بل هو الشاعر الوحيد في حكام العرب جميعاً . قد اشرت الى قصيدته المشهورة التي يدعو فيهـــا الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارىء على شيء من رقيق شعره ايضاً .

ولكني الآن مثبت ما قلته في تأثير الدين او بالحري المذهب في الانسان ليسمح لي حضرة الامام اذن ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة الى ما يعد نقصاً في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة لولا انني احسب نفسي من العرب وانتسب مثله الى قحطان ، فاغار عليه وعلى شريف تقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال . فهل يخل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا آكل ضيفه الاجنبي ولو مرة واحدة ? أوَ ليس « الخبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ? واذا كان الضيف عالماً تلذ له مطالعة الكتب ، وخصوصاً المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطلعه على بعض ما عنده منها ?

اما اذا استأذنه الضيف بأخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين

الامرين . على ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح والأسفاه من صور الجيش صورة واحدة . وقد كنت في ما منع مصراً لاني كرهت ان اعود من صنعاء وليس لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي من فن التصوير ، واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه ، فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام .

العفو يا مولاي . اننا في زمن يحل الرسم فيـه غالباً محل الكلام ، وله في احوال شتى المقام الاول . فضلاً عن ان الناس غربيين كانوا او شرقيين يرغبون في مشاهدة كبار الناس . فاذا حرموا ذلك فلا يحرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجـلات .

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة كبير من ملوك العرب ليقصر في واجب التصوير ، كلمة ورسماً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه . وديوان الامام يسمى « المخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من جميع كتابه ، ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « تخزينة » مضغة) من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود تتخلله خيوط صفراء ، وقـد نزع سيفه وبردته وعمامته كما ينزع احد الغربيين القبعة و « الساكوه » تجرداً للعمل ، كأني به اميركي كبير يفوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يملي على كاتب سره .

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبـات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه ، ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا

رفعة ولا ترفع فيه ، يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وورق واقلام وحبر ، ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العَمْري ، والى يمين القاضي ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على ركابهم يكتبون . وقبالتهم من زملائهم ثلاثة آخرون ، وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الختم الامامي والمحبرة الحمراء يختم الرسائل والخطوط والاوامر التي تدفع اليه ، وبيد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيده الاكبر .

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مساء فيجيء جندي ببريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، ويضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها ، فيفضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكير صغيرة وكبيرة ، ويقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام ، ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف ه اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الختم فيختمه ويرمّله ، ثم الى من يلفه لفافة ويكتب عليها اسم صاحبها .

الديوان الامامي او المخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلمون ويجلسون ويسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والصياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوته ولا نرى وجهه — الوجع بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين ... ناهي ، ناهي .. جوابك تحت الختم ... البلا بروحك ظل مكانك ... اسكت يا يهودي ، البرص يعميك اسكت ... «أ» دوله البندق يا آنسي .. على رأسي . حسن الحرازي يا سيدي — لينتظر —

هو يشتهي السفر ذا الحين لينتظر - يقول ان العامل. . . فيحتدم الامام غيظاً ويصيح مثل حاجبه وبه - ضربك الله بروحك اسكت. اخرج!

وعند الامام يحيى اخصائيون يستشيرهم ويستعين بهم . هـذا السيد احمد الكبسي المقدم الاول العالم بشؤون العشائر واطماع رؤسائها وطغيانهم ، قد اقترب من الامام وفي فمه « تخزينة » عامرة ليهمس كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زبارة امير القصر ، قصر غمدان ، ومدير السكة والسجن فيه ، يطالع استدعاءً طوله ذراعان ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهذا « جرجي » ابو الخرطوش يعيد النظر في رسوم قنابل رممها ولا يستطيع صنعها في صنعاء قـد جثا امام فراش الملك ورائحة الخمر تفوح من فيه . - وكم يلزمنا من هـذه ؟ فيجيبه الامام : الف - ومن هذه ؟ الفان . - ومن هـذا المدفع الهاون ؟ - خمسمئة فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الختم فيختمه ويرمّله .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر الى أحد ولا احد ينظر اليه ، فيتبوأ مجلسه في الزاوية ويأخذ كتاباً مخطوطاً يقلب في صفحاته ، فلا يتبرع برأي او يتلطف بكلمة الا نادراً . وهـذا ، قد انتصف الليل ، احد الموظفين في دائرة السلك « التلغراف » جاء برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبدالله ويقدمها بعد ان يطالعها للامام . هكذا يستمر العمل الى ما بعد منتصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانباً ويتناول غصناً من القات بيده او يشرب جرعة من الماء ويتلمظ هاتفاً : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل تدق الطبول ثم

يطلق مدفع السحور فينهض الكتاب واحداً بعد الآخر ويخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام وكاتبه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية بعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازه في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شيء من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد . لذلك ترى الامام وكاتبه الاول الاخيرَين غالبـاً في الخروج من الديوان .

والامام يحيى ، على ما هو فيه دائماً من اشغال الملك وهموم الامامة، يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر : أجل ، قـد نظم قصيدة يدافع فيها عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحي ذات يوم بوساطتي تحت شجرة الجوز الى الرفيق قسطنطين. قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صنعاء بخمر قصائدك ، وكلها مديح وتباريح، فما نجا احد، حتى ولا ولد الساقية ولا مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية . فلماذا لا تغير النغمة والحنان ، وتستبدل القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك . فاجاب الرفيق : أتريد ان أهجوك ؟ فقلت : انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوك اياي مثل مدحك الامام مبتذلاً . فقال : أتريد ان أهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي ان اسمعك هاجياً . اهجُ — اهجُ — ولم ادرِ اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل . ولكني سمعت صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو فيها القات .

فنهض الزعيم الشاعر في الحال وبادر الى القلم والسيكارة ، وجلس في البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثباً الى الديوان. وبعد ساعة في الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة

بيده يكرمني ، يجربها فيّ على عادته :

القـــات فيه عجاب كما يقول الصحـاب
درّت به الشاة لمـا ان طاردتها الذئاب
ذاقتـــه فاستعذبته وسال منهـا اللعاب

الى ان قص القصة التي يروونها في اليمن . اضاع الراعي شاة من غنمه فراح يبحث عنها فرآها نائمة في فيء صخرة وورق القات في فمها . فجربه مثلها فاستعذبه :

و أمسى يجمع منـه حتى تملّى الجراب
مشى يحدث عنه وفي الحديث الصواب
فصدقوه وذاقـو ـ هُ مثله واستطابوا

وبعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن ويعدد الفضائل التي يروّنها فيه يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعـه انبئوني هل عند شخص جواب؟
جربته واختباري يجدي به الاسهاب
تنتاب جسم الفتى قشـــعريرة والتهاب
وفيه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخـــز والعذاب خراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتياب
لا نفع في القات لكن فيه الشقا والعذاب
وتزهق النفس منـه والقلب والاعصاب
والجفن يزبل حتى يغشى العيون سحاب
وسؤ هضم وقبض منه يغيب الصواب

والراس يثقل وطئاً وبالدوار يصاب
ويعتري بعد هذا المفاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه أشد من عرفت من الشعراء شغفاً به ، واسرعهم في نظمه . وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه القصيدة اقتراناً طبيعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارخت ريباً القات للقتل باب
في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النفحة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة الامام مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء يبغي المعارضة والدفاع فليسرع قبل ان يرحل الشاعر . وكان اسبوع في عاصمة حمير والاذواء أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحروقات منها المهلكات . أجل ، قد جاء احد الشعراء وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكبير الذي تجاسر ان يذم القات وما ذمه ، وهوذا ذنبه الاكبر ، بغير المبتذلات الشعرية والركاكات : فاوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد بضعة ايام جاءنا من المخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم ، على غير العادة اليمانية « ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن القات من الغزل والدماثة والاتضاع . تلك روح الشاعر الحقيقي — ما يزيد الناظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً واعجاباً . وما اجمل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيل القصيدة بها .

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الاشغال وتبلبل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بمزاياه الحميدة ، ان للقات مزايا لا يحصيها الاسهاب فيذكر عشراً منها فقط :

فللعيون جــلاء للضعف منه ذهاب
وللثغور صبــاغ زمردي يذاب
أحسن بثغر مليح له المـذاب رضاب
يا مـا احيلاه ظلماً تشفى به الاحباب
وللنفـوس مريح والنشـاط انجذاب

. . .

ويشحذ الفكر حتى يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عن من له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر الاديب العالم في الامام فيقربه من كل من آثر الكتاب جليساً . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين فهــو سراب
أليس من جاوز الحد اكله والشراب
يكون عرضة خسر ويعتريه اكتئاب
والاكل والشرب مالا بـه الكرام تعاب
وانما العيب اسراف منـه يبدو العجاب
هـذا الملفق يا قسطنطين منــا جواب
يُهدي اليك عليــه من الحيـاء نقاب

لانه ليس كفؤاً للدر وهـو تراب
فاستر ملفق يحيى فالستر فيـه ثواب

ان في الابيات الاخيرة من الدماثة والخفة والتواضع ما يستحب في اصغر الشعراء واكبرهم . فكيف بـه في احد كبار الحكام والامراء ؟

الامام يحيي

الزيود واليهود

منزلنا بيت الصلاة – الوفد الفرنسي – ماء الوضوء – الصلوات والبصل – المتداوون – الخنازير النصارى – الحارس احمد يهتدي– السيد والهجري – ظلم السادة – حزام واليهودي – قاع اليهود – السيد محمد يعدد الواجبات – وكلها من اجل اليهود وسعادتهم – يدفعون الجزية راضين – الزيدي واليهودي في حب المال واحد – رسائل اهل اليمن – لا يستعملون الغلافات – حسابات وزير المالية – الصراحة والايجاز – الاسلوب التركي والاسلوب العربي .

هيوا على الصلاة ! هيوا على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي يصلون . الحاجب والحارس والسيد والخادم والعشي والبستاني وولد الساقية الذي يغني الى جمله من الشروق الى الغروب: صدر البُنيّة بستان وانا زرعته ، كانوا كلهم يجيئون خاشعين فيتوضأون في بركة الشاذروان ، ويفرشون حولها في ظل شجرة الجوز بردة او احراماً ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء . ما رأيت ولا عرفت اناساً يصلون مثل هؤلاء الزيود. وماقرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل هؤلاء الزيود. ولا اظن ان صلاة تصعد من فم بشر فتذهب كالهباء المنثور مثل صلوات هؤلاء الزيود .

كان في البيت ازاء بيتنا الوفد الفرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا هناك ، وكان احد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماءً من الشاذروان ، فسألته مرة ، لمن الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى . فقلت : أليس في بيتهم ماء للغسل ؟ فقال : هم يشتهون الماء للشرب . فقلت : أتسقونهم من هذا الماء ، من ماء الشاذروان ؟ فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير

نصارى لا يستحقون احسن منه .

ويجيء هذا الزيدي فيتوضأ في البركة ثم يفرش بردته تحت اغصان الجوز ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم ... رب العالمين » ويضرع اليه ليهديه « الصراط المستقيم » . ويجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شيء من البصل واللوبياء والبرسيم . كنت دائماً عندما أرى البستاني في عمله وفي صلاته آسف على الماء الغزير الذي يكفي ليروي حقلاً وسيعاً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل ، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزيدي غير حقل ٍ زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض؟ بغض العالم خارج اليمن ، وبغض الخنازير النصارى ، وبغض اليهود في بلادك ، حتى وبغض الشوافع اخوانك في الاسلام . ان صلواتك وماء الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضع اذ ذاك ماء بلادك في الارض البور ، ولا تسق ماء وضوئك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهال .

جاءني ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصبغة اليود مرتين فشفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان تشكر الخنازير النصارى لان هذا الدواء اختراعهم ، صُنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين — ورفع يده ورأسه الى السماء — عينه ترى كل شيء ورحمته تسع كل الناس . ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون اليّ الآلام من جرح او قرح وكنت كل مرة اعالجهم اذكرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية

والمخدرات — بعـد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا أجهل العرب — ليزيلوا الامراض ويخففوا الالام البشرية . وكانوا ، وقـد جاؤوني زيوداً، يرجعون مسلمين الى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها: الانسان أخو الانسان أحب او كره .

ولما عاد خادم الفرنسيين ليأخذ الماء من الشاذروان انتهره الحارس احمد وهزّ له العصا . والله بالله اذا سقيتهم من الشاذروان اشكوك الى الامام . ما سررت بشيء في صنعاء سروري بعصا احمد وكلماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسيته ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح التي زرعها الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم ، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة تحرك فيهـا الحياة ، وترويها بماء المكرمات. اما التبعة في رقاد تلك البذرة وخمودها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس . واذا علموهم شيئاً فمزيجه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمن حقوق في الارض وفي الرجـال شبيهة بالحقوق التي كانت لسادة الاقطاع Feudal Lords في اوروبا الا ان لا عبودية فيهـا . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيـلة الفلانية هجرتنا [1] اي في حمايتنا ، وهذا الرجل هجري فمتى كانوا كذلك

---

(١) جاء في الحديث : من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأة يتزوجها فهجرته الى من هاجر اليه.
حاشية ثانية : جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة « من كانت هجرته الى الله ورسوله ... » من القرآن . فكتب يصلح الخطأ عالمان فاضلان الواحد فرنسي باريسي والثاني عربي نجفي . ولكنت وقفت عند شكر العالمين لو لم يكن اسلوب كليهما في النقد يستحق بل يستوجب هذا التعليق .

فالعلم بنظر ساداتهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاءً ضغط على رجـــله فنزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيتي وقال بصوت خافت : جميع الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طماع كسلان متكبر . هذا المثل — واشار الى السيد قدامنا — وهذه اعمالهم — واشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله — يحملني حذاءه .

وليس اليهود في مذهب الزيود وفي جهلهم اقل من النصـــارى استحقاقاً للكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، أحد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يمر به . — ابعد — يا يهوده ضربك الله بروحك ! زادك الله عماوة يا يهوده ، اخلِ السبيل ! وقد لا يكون المسكين في الطريق . ولكن حزاما وهو شغف بحب اليهودي يراه على مسافة قادمـــاً نحونا ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن انه

تابع حاشية صفحة ١٨٩

كتب العلامة المستشرق لويس ماسينيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الفرنسية واردفها بهـــذه الحاشية : في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال انها من القرآن فيجب اصلاحها .

وكتب العالم النجفي مقالاً طويلاً بليغاً في عمود كامل من الجريدة فوبخني توبيخاً ، وشتمني شتماً ، وذمني ذماً لا يليق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اميز بينهما .

اني مذنب يا حضرة الجهبذ النقريس . ولكني اتعزى بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته : ان الملـــك حسيناً نفسه يغلط احياناً في الايات ويخلط بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٤٥ من جريدة القبلة والعدد ٤٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

يرضيني بذلك . ثم يبصق عليه ويهتف قائلا : لولا الامام . بلى ، لولا عدل الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفد صبري عليه ، اني اشكوه الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هـذه الفعلات . فصار بعدئذٍ اذا رأى ذا السوالف قادماً في جهـــة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مرّ به اتفاقاً يميل بوجهه ساكتاً صابراً كأنه لم يره .

وكان السيد محمد ، رفيقنـــا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الحائزين على ذا الانعام من حضرة الامـــام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيهم وهو مدينة معتزلة بينها وبين بير العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشرارة الكائن بين صنعاء وبير العزب . فزادني بذوي السوالف علماً وبالامام يحيى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال: يجب على اليهود يا امين ان يرسلوا السوالف كي لا نظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأ. ويجب عليهم ان يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل الفخامة. ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف[1] من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة بها فيزيد مالهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان يتجاوزوا الطابقين علواً فيسلم اليهودي اذا وقـع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا اصلهم وقوميتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السمحاء وفضـــله عليهم . ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم وبصق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي بذبح فدان .

(١) هو من باب تسمية الشيء بضده . واليهود في صنعاء يرفعون « الزخارف » ويبيعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الوقود .

فاذا ثبت الذنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً ما يتمنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان . ولا نجيز لليهودي التملك . الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة، تسعة وتسعين سنة . ولا يخفى عليك ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ويجيز لهم ان يصنعوا الخمر فيشربوا ، ولا يبيعوا غيرهم فيحزنوا . ويجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فنستخدمهم في بيوتنا ، وندخلهن حريمنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام .

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال . هم راضون شاكرون ما دامت الجزية وهي تافهة تخلصهم من التجنيد . وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرية القديمة . فلم يدخل عليهم من جديد ، او بالحري من غريب ، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه الترك ، فهو يدعى حاخام باشا .

قلت انه لم يكن احد ليدخل منزلنا الا باذن من الامام . ولكن يهودياً كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميرية واوصيته على غيرها ادهشني ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان . فظننت ان الحارس حزاماً نائم او غائب ، والا فكيف يأذن له بالدخول . سألت اليهودي فقال : هو في الباب . فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت . فاشتريت منه ما اشتريت ودفعت المال . مشى اليهودي مسروراً والمال في جيبه حتى وصل الى الباب فاوقف هناك ، فرأيت حزاماً ويده على تلابيبه والبندق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي ويده في جيبه يخرجها ويقاسم الزيدي ما قبضه مني من المال . الا اني لم اتحقق مصدر الخلل . ولولا

علمي بتفوق الزيـــود واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا السوالف رشى ابا النيل ليأذن له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض ابو النيل على عنقه وابتز منه ليس نصف الربح بل نصف المال كله . وقد يكون الزيدي في تغاضيه عندما دخـــل اليهودي ،نصب له الشرك الذي وقع بعدئذٍ فيه . كأنه قال لنفسه : القنص للقناص. ليربح من ضيف الامام وانا اربح منه. ان بيت الاول من زجاج مصبوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط . الواحد يحب المال ، والثاني يشتهي «الظلط »وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين؟وهل في الاقتصاد ما يستقبح وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الأكبر ؟

اظن ان الامام يحترم اليهود ويحميهم ويقيم فيهم العدل فيأمر بذبح المدان اذا اهينوا ، لانهم المثال الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام الايمان . المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فـاذا كان اليهود في عهده آمنين مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين، فالزيود وقد حرمهم «الظلط» امسوا من امهر الاقتصاديين والناس على دين ملوكهم .

ان اول مـــا شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادرِ ما تلـــك القصاصات المكردسة التي رأيتها لاول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ، ونحن في إبّ ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من « كابون » الدولة العلية . ثم وصلنا ونحن في زمار من عامـل اب برقية اخرى مكتوبة على قصاصة من معروض بالتركيـة مرفوع الى جناب قـــائمقامية حراز العالي . فالامام يحيى الذي غنم من الترك المـــدافع والسلاح احتفظ بمـا تركوه من الاوراق والدفاتر

ملوك العرب ١ (١٣)

والكابونات والمعاريض ولم يأمر بتقطيعها وباستخدامها في ادارة السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي المخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية . اما في البلاد وبين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة الامام وقد تكون بخطه الشريف ، فتقرأها ثم تنظر في ما لها من هامش فتقطعه وتجاوب عليه ، وتلف الجواب سيكارة وتعيدها مع الرسول . واذا اسرفت في الورق واضعت مقدار ختم منه دون ان تسوّده توبخ على ذلك ، وقد تعزل اذا كنت موظفاً في الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف فتشقه وتستعمل ظهره للمراسلة واذا كانت الرسالة من صنوٍ وهي على قدر بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطراً كنعلة الفرس او سطرين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في بيت او بيتين من الشعر . ومما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط وينهق كثيراً في الليل . فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زباره يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير التموين والضيافة . فاغتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع ما تكردس على رأسه من الرسائل والحسابات . فنزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع القسم الابيض

منها ويعيده الى مكانه ثم يمزق الباقي . ومن الرسائل التي اطلعنا عليها ما يـلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو ... ريالاً في ريال في ريال
فسمن والحبوب وما سواها ... لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع مئتي ريال الى احد العمال ، فقلت له . أتمزق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول : اذا دفعت الفي ريال لا اسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان تبرز الامر فاجاب قائلا : لا ينسى ولا يسأل. فعجبت لهذه الصلة ، صلة الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللفافات وفيهـا الشكايات نظماً ونثراً ، اني لا ازال اذكر منها رسالة جاءتني يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعني الى الجوزاء وتركني هناك ، ان القات في شهر الصوم غال جداً وان الله لا يخيب امله « بامير المحسنين العزيز امين » . وما اغرب مـا ترويه هذه الرسائل واحزن ما تفشيه، وفيها شكوى اليوم وراءشكوى البارح ، ووراء الاثنين او على هامشها بياض يسوده الغد بما قد يكون ابعد غرابة واشد حزناً .

ولفضيلة الاقتصاد بالورق في اليمن شقيقة اجمل منها ، الا وهـي الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وبما يوجبه الايجاز من اهمال الالقاب وعبـارات التبجيل . او ليست الصراحة والايجاز والخطابة البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم في مـا دخل

من بـلادهم في حكم الاتراك كالحجاز مثـــلاً وبعض نواحي اليمن وعسير ، امسوا اتراكاً في مـــا يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون ويفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فـــلا يزالون من العرب العرباء . الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا العجم يفوقونهم في فخامة الالفاظ وضخامة الالقاب . وهاك مثالاً من تباجيلهم . اذا كان المخاطب امـيراً فالى : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة النجباء الفخام ، عالي المجد و المقام ،فخر العرب والاسلام . . . واذا كان اماماً فالى : خلاصة الاطهار الامجاد ، وروضة المجد الرفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار والجلال ، الركن الاسند والسند المستند . . . واذا كان سيداً بسيطـاً فالى : ذي الاخلاق الزكية ، والشمائل المرضية ، الهمام المقدام ،الرفيع المقام ، التقي النقي . . .

على انه يسر كل من يكبر في العرب شمائل الاجـداد ان يرى في خطوط الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجاز اللذين امتازت بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندي فوق ما اشرت اليه نموذج باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة . قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه تتم الامور والسفر يـــوم الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم تـــتم تلك الليلة . ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرّف الصديق في الساعة السابعـة او العاشرة من ذاك الغـد . الا انـــه جاءنا في اليـــوم التالي والطيب ينتشر من اردانـه .

و « التخزينة » بين اسنانه ، و « ظاهر وماشي » تتمشى في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان تتعشوا عندي. فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح يشكو الصداع ويداويه بالقات وبالآيات .

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدة – وعد من وعود الحرب – الترك والامام – الترك والعرب بعد الهدنة – تسليم الترك في لحج – اخراجهم من الحديدة – احتلالها – احتجاج الامام – جواب الانكليز ووعدهم – تسليم الحديدة للادريسي – سياسة الانكليز العربية – المفاوضات – بعثة الكرنل جاكوب – عرب الصحراء يوقفونها في باجل – الانكليز في الاسر – الامام يسعى في انقاذهم – رجوع البعثة وفشلها – الامام يحمل على النواحي المحمية – احتلال الضالع وغيرها مما في حماية الانكليز – المفاوضات – الهدايا – الدسائس – التسويف والمماطلة – شروط الامام – مقاصد الانكليز .

الحديدة كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء. هذا يبغيها ولا ينفك يطالب بها، واولئك ، وقد وهبوها صديقهم الادريسي يودون لو كان بامكانهم ان يهبوها كذلك الامـام . وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بعدن . ما العمل؟ ايمكننا ان نقسم المدينة بين الامامين ، الامام الزيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير ، فننجو من الكابوس . أو يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوب اليمن بفيلق من زيوده فيضطرهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه ؟ انما هي مسئلة المسائل .

الحديدة من المدن العربية المشهورة. كانت عهد الاتراك وقبله ميناء اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز المئة الف. وكان الترك ينزلون فيها العساكر لاخضاع اهل اليمن فمدوا منها الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة فرنسية امتيازاً بسكة حديد تمد من الحديدة الى مناخة فصنعاء، فباشرت الشركة

العمل بما ارسلته من مواد البناء ، فنشبت نار الحرب في اوروبا فقضت على المشروع وذهبت تلك المواد نهب العربان .

وقد كانت الحديدة اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم اليمانيون اربعين سنة ، فانتزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد . ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداءهم وهم اخوانهم في الاسلام ، فحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في فصل سابق وظل معتزلاً السياسة والحكم مقيماً في جبال شهاره . كان يومئذٍ محمود نديم والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتها البلاد كلها من لحج حتى صنعاء ومن اللُحيّة على الساحل حتى المخا . اما العرب من شوافع وزيود فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذٍ المال .

ولما أعلنت الهدنة سعت بريطانيا باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كلحج دون قتال ، وابوا في الحديدة وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولا الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضربت الحديدة البلد الامن غير المحصن ، فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيى وقتئذٍ الى صنعاء وسلمه الوالي محمود نديم [1] زمام الاحكام في

(١) لم يكن في صنعاء يومئذ غير ثلاثة طوابير، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ، في شبه حصار ازدادت شدته في اواخر الحرب .

اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدة طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يحتج على ذاك الاحتلال فجاءه الجواب يقول: اننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليكم . وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية . اما حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلك الحكم من البلاد أضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية وجغرافية تثبت حقه وتؤيد دعواه .

ولكن الانكليز رغم وعدهم المذكور سلموا المدينة الى صديقهم الادريسي الذي كانوا يمدونه وهو حليفهم بالمال والسلاح ليحارب الاتراك ، عملاً بمعاهدة بينه وبينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين نصروا الاحلاف . اننا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان نثبتها ولا نخفي جزءاً واحداً منها . والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصروا يومئذٍ الاحلاف نصروهم لاغراض خاصة ، اغتنموا تلك الفرصة لتحقيقها . فكان الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي بعدئذ ضربتين وثلاثاً . اجل ، قد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود فكان من الخاسرين . وحمل ابن سعود على ابن الرشيد فكان من الفائزين . وظل السيد الادريسي بعد الهدنة وبمعاونة الانكليز يحارب خصمه الامام دون قصد يشكر او نتيجة تذكر .

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصداقتهم من ساعد الحلفاء في تلك البقعة من الارض على من ظل معتزلاً . ولا نلومهم في تفضيل الادريسي على الامام ،وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين

على ابن سعود . فقد كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك . ولكننا نلومهم لانهم استمروا بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت الثُلَم بين امراء العرب المتخاصمين . وظلوا بالرغم من معاهدات هي وضعاً تختص بالحرب العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام [1] فاذا تساهلنا في تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرقاء في قضية الحديدة .

قد أبرّوا ببعض وعدهم فخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً . فضلاً عن انهم بهذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدة كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الأعلى فسدّوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعاء العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي .

---

(١) كان الكرنل جاكوب المعاون الاول في دار الاعتماد بعدن عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعاهدة مع السيد في جيزان . وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة من المعاهدة التي تقول : ان حكومة بريطانيا العظمى تتعهد بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من التعديات الخارجية كلها دون ان تتدخل في شؤونه واستقلاله . وقد فسر الكرنل جاكوب مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئذ غير الترك . هذه حجته في ان الحكومة لم تساعد الادريسي على الامام . وحجتنا في ما يفسد حجته هي واقعة الحال بالذات التي يثبتها هو نفسه في كتابه . فقد جاء في كلامه على الادريسي والحديدة ما يلي : قد استنجد (الادريسي) بحاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول بان الادريسي جند بعض اولئك العرب فاخذوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قليلاً معه ثم عادوا الى بلادهم .

فامست في شبه حصار لا اتصال لها بالعالم الا عن طريق الانكليز في عدن .

لم تنقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعاء وقد اثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان ترسل بعثة سياسية الى الامام يحيى وزين الامر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدة في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد صنعاء . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وترجمانين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير من الحديدة كانها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتتثبت احوال البلاد التي ستمر بها .

ان في تهامة بين الحديدة وعُبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة ببأسها وسطوتها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلا في تلك الناحية . عربها من السنيين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدة ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان القنصل الانكليزي في الحديدة يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطمأنها .

خرجت البعثة من الحديدة تجر اذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة

ومعها الهدايا الثمينة تقدّمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطمئنين آمنين، فمرت بباجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلًا منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك، فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نُصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وانزلوهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي،بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه خبر ذاك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيالاً ليلاقي البعثة ويرافقها الى صنعاء . ثم ارسل محمود نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويمكنها من استئناف السير اليه «وجاء مندوب سياسي الى الحديدة يعرض باسم حكومة بريطانيا العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القحراء ليطلقوا سراح المأسورين » . ثم تدخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز . ثم طارت طائرة من عدن الى باجل قصد الارهاب والترويع وعادت دون نتيجة تذكر .

لم يلن عود القُحراء ولم يزعزع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية عزمها . فهي كما علمنا لم تأسر الانكليز لتذلهم وتنتقم منهم ولا ، كما تبين، طمعاً بالمال ، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء لانها كانت تخشى اتفاقاً يتم بينهم وبين الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدة لاذنت بذلك .

استمر الاسر اربعة اشهر، فادركت اذ ذاك الوزارة الخارجية بلندن فشلها واصدرت الامر برجوع البعثة. ولكنها لم ترجع الا بعد فتنة دُبرت لحفظ كرامة الحكومة البريطانية [1] وعندما تم الاتفاق في الحديدة بين الوكيل السياسي ووفد القحراء أطلق سراح الانكليز في باجل وأعيدت اليهم الأمتعة والسلاح المحجوزة كلها [2] واصحبتهم القحراء بالفين من رجالها المسلحين يشيعونهم الى الحديدة.

اما الامام يحيى والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والأنقلاب. أتغلب قبيلة عربية حكومه بريطانيا؟ بل الارجح انها انقلبت علينا فأنها وايم الحق تستطيع ان تبيد القحراء، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل.

وكانت النتيجة ان الامام، وقد رجح انقلاب الأنكليز. بادرهم الى المعاملة بالمثل، بل سبقهم الى ذلك، فلجأ، بعد ان نفد ذرع السياسة، الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي التسع المحمية، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ، جزء لا ينفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش. وكأن الامام في هذه

(١) أطلق سراحنا بموجب اتفاق عقد في الحديدة، بعد فتنة دبرت بين عقلاء القحراء ومشايخها فالعقلاء نقموا على المشايخ لانهم اسرونا ... ونهضوا عليهم ... فاضطروهم ان يرسلوا وفداً الى الحديدة للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك.
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب

(٢) قبيل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء. قالوا: أعطنا وصلا بها لان الصلاة لا تحل لنا قبل ان نبرىء ذمتنا فاعطيتهم الوصل فقالوا: ولكنك لم تعد الصناديق. فقلت: ولا أنتم عددتموها حين حجزتموها.»
هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب

السياسة او الخطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها . ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدة او يضطرهم ان يسلموها اليه .

زحفت الجنود وكُتب لها النصر في اربعٍ من تلك النواحي[1] فتردد صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المنتصرون : الى عدن ! وقد كان صدى الصدى في دوائر لنـدن السياسية سيئاً فاستبدلت الحكومة معتمدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استُؤنفت بعدئذ المفاوضات، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية المأثورة: تهادوا وتحاربوا حملت الجمال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والخيل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن .

كان قد مر سنة على هـــذه الحال عندما كنا في صنعاء ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر. واني اذكر كلام احد رجال الامام في هذا الصدد ، قال : ما كنا نهتدي في رسائل المعتمد المتسلسلة الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز. وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلمية يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق. وقد يؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العالية النبأ الثابت القاطع في الامر ... النواحي التسع لنا . هي حقنا . والحديدة كذلك لنا . ولا بـد من احد امرين، اما البر بالوعد من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب. اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم وبين الترك

(١) هي الضالع والشعيب والاجعود والقطبي .

فالجواب بسيط . قد عقد ذاك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فحاربناها وغلبناها واخرجناها من البلاد، ولا قيمة عندنا لاية معاهدة بينها وبين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي اقتفاء اثارهم .

على ان الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر فلا بأس اذا اقتفى سواهم هذا الاثر الحميد . والسيد احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاويز ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، ويتأسف على عهد كانت « الظلط » تكال فيه كالبر وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما فيه من اسباب التقهقر والخمول ، اشرف الاقطار العربية اسماً ، وانزهها خطة ، وامنعها جانباً ، لانه وحده اليوم مستقل اقتصادياً عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، ويأبى التقيد بشيء من مالهم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدبين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء من احوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الابر والاقتصادي الاكبر ، غني مستغن . وهي وايم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . ولكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيد » قضية الحديدة ، قلت في نفسي اسفاً : علمت شيئاً وقد فاتتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام

ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بــل ضعفيها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم وبين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدى اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدي لهم رأيي الخاص بهـا . اما الرأي وقد صرحت به في دار المعتمد فهو ان الذهب مفسد لاخلاق العرب ، مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم خمولاً واتكالاً . ولا يجوز للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستمروا في بذله مشاهرات ومسانهات ، لا استغواء ً، ولا استرضاء ً، ولا استيلاء ً .

ان الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب هي ان يعقدوا والأمراء عهوداً ودية تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنيـة على الثقة المتبادلة والمصالح المشتركـة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها. لا بأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديدة وجيزان والحساء وغيرها من البلدان ، فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدودة .ولكن الأمراء وعقلاء العرب لا يستحسنون بل يستنكرون وجود الوكيل السياسي في بلادهم. اني أرى الغاء هـذه الوظيفة امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلائق وتثبيتها بين الحكومـــة البريطانية وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها. هي هي سلاح السياسة الانكليزية في البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السياسي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع ، وتحيط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود الـتي تقدسها التقاليد الى مـا وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيتية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعميم . اذا كان اولياء الامر واحد ملوك العرب في مأزق من المفاوضات أو العلائق ضاقت فيه عليهم الابواب ،

وكانوا عالمين بان لذاك الملك او الامير عدواً من اهله او من رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بوساطة الوكيل السياسي فيستغوونه بلقب او بذهب او بالاثنين معـــاً ، ويستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ، اذا حدثتهم في الموضوع ، يبادرون الى السؤال عن حاشد وبكيل . هوذا موطن الضعف في حكم الامـــام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بوساطة مشايخهم غير المال سبيل . ان حاشداً على الخصوص مقيمة بالقرب من حدود الادريسي ، والادريسي صديـــق الانكليز وحليفهم ، وللانكليز عنده وكيل سياسي ، وكفى . افلا تراهم ولسان حالهم يقول : اذا كان الامـــام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل عليه في حاشد وبكيل . ولكن الامام يحاربهم علنـــاً في الفلاة وهم يحاربونه بالتجسس والاغراء .

اما الخلاف بـــين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديدة . ولكن مطالب الامام يحيى تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد . ان موقفه تجاه النواحي التسع ، اذا كان مجرداً عن الغرض السياسي الخاص ، لموقفٌ وطنيٌ شريف . ولكني اظن ان السياسة تتغلب فيه على القومية العربية فقد قبل الامام ان يخرج جنوده وعماله من الضالع والشعيب والاجعود وبلاد القُطَيبي التي احتلها ، على شرط ان تكون ادارتها وادارة اليافع والعوالق ولحج وحضرموت بيد امرائها وليس لحكومة بريطانيا ولا لحضرة الامـــام حق التدخل في شؤونهـــا ، وعلى شرط آخر ، هو الاول طبعاً ، وهو ان يخلي الانكليز والادريسي الحديدة

واللُحيّة والصّليف وان تسلم هذه الاساكل البحرية وكل ما كان بيد الترك في اثناء الحرب الى الامـــام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شرط فيه .

اما الانكليز فالقصد الاول والأهم في تقربهم من الامام وابتغائهم عقد معاهدة معه هو على ما أرى ان يبقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك صديقاً لهـم . ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط ، ولا هي اسكلة تجارية بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المتزهـــين عن السياسة الاستعمارية ، والكرنل جاكوب منهم . بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً وآخراً قاعدة بحرية ومركزٌ حربي خطير . فـاذا كانت كذلك فتأمينها اهم مـا ترغب الحكومة فيه . واذا استطاعت ان تؤمنها الى حد تستغني فيه عمـــا تضطر ان تقيم هناك من التحصينات الحديثة والجنود فـلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

غني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية ، وهذا قصدها الاهم ، لا تتنازل عن معاهدات عُقدت بينها وبـــين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغي توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الحديدة فامرها من هـذه الوجهة ثانوي (١) . ولكان افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصراحة . لكنهم يسلكون الى محجتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فـيماطلون ويسوفون ويحاولون اضعاف الامام وافساد

---

(١) يثبت هـــذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديدة والاساكل الاخرى التي كان يطالب بهـــا اي اللحية والصليف .

امره بوساطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الخائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة اما ما قد يتنازل كل فريق عنه الى درجة تقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية — الانكليزية او اليمانية — بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

الامام يحيى

تتمة المفاوضات

الوفد الفرنسي – المنافسات السياسية – الامتيازات – المعاهدات – الفرنسيس والانكليز في افغانستان وفي اليمن– غريب على غريب– الامام يستفيد–احتكار تجارة البن – ميناء المخا – السلاح–الدخيل في عسير – الخطأ في سياسة الامام–المثلث الزوايا في قضية الحديدة– الانكليز بين السيد والامام . الشوافع حائرون–الامر ناضج للسلم – المؤتمر – برقية وكتاب الى صنعاء – الجواب .

لو كان الفرنسيون الذين غشوا صنعاء يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبغون من الامام امتيازاً ، ومعهم من الخمر انواع يحتسونها في الطريق وامام الخدم في عاصمة الزيود . فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان ينبغي ان يتنازلوا عنها اكراماً لاهل البلاد ، ولخير انفسهم لو عقلوا ، اثار عليهم ولا شك تعصب الخدم الزيود فسقوهم وراء الخمر ماء الوضوء من بركة الشاذروان .

قد لا يهم الفرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة . لكن بعض العارفين قالوا : انهم سياسيون جاؤوا يبارون الانكليز في خطب ود الامام . لذلك لم تأمر الحضرة الامامية استقبالهم رسمياً ، وعندما وصلوا الى بوابة صنعاء اوقفهم الحرس هناك ليعلموا الامام ، فأذن لهم بالدخول . ثم بعد ثلاثة ايام جازوا شرف المثول بين يديه . ولكنهم منحوا ما حرمناه وهو الاذن بزيارة « جرجي » مدير معمل الخرطوش . كأن لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنىً خاص يخفى احياناً على ضيوفه اصحاب الانعـام . ان في اجتماع الفرنسيين

بجرجي برهاناً واحداً على ان مهمتهم تتجاوز حدود التجـارة . هوذا معمل الامام ، وهوذا احد رجالـكم ايها الافرنج في خدمتـــه ، فهو يستغني اليوم عنـكم في الذخيرة وسيستغني عنـكم غداً في السلاح . فاذا عاهدكم فكأقران يتبادلون المنفعة .

اما الفرنسيون فيغارون ، كما هو معلوم، من الانكليز ويقتفون اثرهم حيثما ضربوا وحلوا . عقـد الانكليز امس معاهدة مع امـــير افغانستان فتقفاهم الفرنسيون واثبتوا امرهم سياسياً وفنياً هناك. احس الفرنسيون ان الانكليز يبغون عقد معاهدة مع امام صنعاء فسارعوا الى منافستهم في اليمن، والامام مطلق الارادة يمنح امتيازاته من يشاء، ويعقد المعاهدات مع من يشاء .

على ان الفرنسيين سبّاقون في اليمن وفي تجارة البن . فقد تقـــدم ذكر البعثة التي جاءت عن طريق المخا في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة تتسع عندها لمصلحة البلاد حدود الدين ، وتتفكك من اجلها قيود المذاهب . والامام يحيى اليوم يقتفي اثر اجداده الكرام، يستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى . هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حد معقول .

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لهما بشيء من النفوذ داخل بلاده فتكون الاثنتان بلية عليه وعلى بلاده . تقتتلان في سبيل المصلحة فتقتلانها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب. فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته جمعاء ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء . واذا كان له عدو واحد في رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سياسي . واذا كان في البلاد حزب واحد على الامير يصير فيها

حزبان وثلاثة .

اننا نعلم حق العلم ان كل وكيل سياسي في بلادٍ تربيتهـــا الوطنية ناقصة يتخذ له حزباً من اهل البلاد الناقمين لاغراض خاصة على حكومتها، فيستخدمه لمصلحة حكومته .

اجل ، اذا كان ثمة خير في مفاوضة طرفين بامر واحد فان ذلك الخير يزول اذا اشرك به الاثنان . وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الفرنسيين اليوم ، كما يستخـــدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كلّ او جلّ ما يبغيه واول بغياته واهمها الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر . جاءت البعثة الفرنسية تطلب امتيازاً باعادة بناء ميناء المخا المهدوم ، وميناء آخر في الخوخه ، وباحتكار تجارة البن ولكن الامام ، اذا استعاد الحديدة ، فقلما يهتم المخا والخوخه . الا انه يريد أن يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديدة اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل استغناء في جميع الامور .

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الفرنسيين تجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا ويطلبون امتيازاً في المتاجرة عن طريق المخا . وقد علمنا انهم لا ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن . فالامام لا يسلم بذلك ، ولكنه يعاهدهم على بيع حصتـــه او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، ويشتري منهم ما يوافقه من السلاح .

السلاح ! لا شيء في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبـــة لامراء العرب اشد من رغبتهم فيه . فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارىء جواب الامام عندما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله . فقال اليسير ، اليسير . وهو يطمع ببسط

حكمه وسيادته على اليمن كله — اليمن القديم من عُمان حتى آخر بلاد عسير . وقد طالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرجه من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيها . كنت اسمع هذا الكلام ساكتاً لاني لم اكن اعلم يومئذٍ غير اليسير من أمر السيد الادريسي وبلاده .

ولكني بعد رحلتي في عسير ، وزيارتي السيد في جيزان ، ومحادثتي الناس من سادة وعامة في تهامة ، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام ، وتأكدت انه من العسير ، بتلك السياسة ، ان يستولي على الحديدة . وانّى له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر؟ فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على ما اظن مثلها بين الملك والامام . وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم ومؤازرتهم .

ان القضية في اجلى بيان تتحلل الى ثلاثة اجزاء ، الاول والاهم هو وجود الانكليز بين الامام والادريسي . الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا بالامس عوناً للاتراك في سياستهم اليمانية . والثالث هو وجود الحديدة ، وهي محور النزاع ، بين الشوافع والزيود والانكليز . وقد امست بفضل السياسة والفوضى اليفة الخراب والبلاء .

قد كان الادريسي يومئذ يميل الى السلم اذا حُددت حدوده على حال مرضية . وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بفتور منه . فاستحسنوا ميل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة الامام . اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب

الدائم عذاباً واهوالاً ، فكرهوا لذلك الامامين ، وغدوا في حال تحبب اليهم اصغر الشرين .

اذا كانت الحديدة باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم . وكان الامر كما بدا يومئذٍ ناضجاً للسلم ، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك . فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها عقد مؤتمر فجاءني الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك : لا حق للادريسي في جميع اليمن ، لا حق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور العثماني في الحديدة لا ثمرة في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر وكان قد ارسل المعتمد الجنرال سكوت لاسلكياً يهنئني برجوعي من صنعاء ويقول انه راغب في محادثتي . ولكنني لسوء الحظ تأخرت في الحديدة وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم سافر المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئذ الماجر بارت° وبعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامام في عدن هذه البرقية :

اني متفائل مستبشر لاني وجدت ارتياحاً الى المسالمة ورغبة في تحقيق مطالبكم بشروط لا بد منها . اي انهم يرغبون في ان يسلموا الحديدة الى الامام ولكنهم متعاهدون مع الادريسي ولا يرون لانفسهم مخرجاً في غير التسوية السلمية بين الطرفين اي بينكم وبينه . فهل تقبلون بذلك ؟ هل يقبل حضرة الامام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الادريسي وممثل من دار الاعتماد اذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديدة على شرط ان يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الادريسي ؟

قد قابلت السيد في جيزان فوجدته راغباً وميالاً الى الاتحاد

بشرط ان يُعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن ان عقـــد الصلح ممكن بينكم وبينه على شرط تسلمكم الحديدة وارضائه في الحدود الشرقية او الشمالية . ولا يتم الصلح الا بحسن النية وبالاجتماع والمداولة . عرفوني حالاً اذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة الانكليزية بخصوص الحديدة .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد اسبوعين من هذا التاريخ وانا انتظر في عدن أتحمل آلامي العصبية من حرها وسوء هواها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية ، جاءني من صنعاء بالسلك الى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجّاب الى لحج ، ومنها مع رسول الى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما اخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الامطار « فتحير » اي تأخر وصول الجواب .

« كانت المراجعة مع صاحبنا قد عرفتم حسن نيته ومحبته لكم . لكن الادريسي لا حق له في اليمن باي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نحب الا نجاح مسعاك ونحب صون بقية بلادنا عن الذهاب . لا لزوم للمؤتمر مهما كانت الحكومة الانكليزية تريد ذلك فانتم تقومون بكمال هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشرتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديدة وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام . وضّحوا المشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام » ،

ما الحيلة بسادتنا العرب ، أبناء عمنا ، اخواننا ؟ نريد لهم الخـــير الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخـــير الوقتي . اني

على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم مخيماً على البلدين والولاء والتجارة صلتا العمران بينهما

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب آخر الى صنعاء لامكن هناك الفكرة التي بدأت تحل في سياسة الامام محل الاستئثار ، انقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العبث ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد . ان حجتكم في قضية الحديدة ظاهرة ثابتة ، يحضركم فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بهـــا تضرون مصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدة .

المعاهدة

الامارات العربية القديمة – توحيد الكلمة الدينية – توحيد السياسة – المداخلة الاجنبية – ملك العرب وملك الحجاز – المعاهدات مع الحكومات الاجنبية – الدفاع والهجوم – تهامة جزء من اليمن – تحديد المعاملة بالنقود الفضية – معمل للسلاح – مندوب للامام في مكة – مندوب للملك في صنعاء – صندوق التوفير من مال الزكاة – الانشاءات العمومية – كتاب الى جلالة الملك حسين بخصوص المعاهدة – الختام .

بما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي ستتبعه هي ذات شأن في تاريخ القضية العربية أرى من الواجب ان انشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع حضرة الامام . وها هي بكاملها وبالحرف الواحد:

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك وَاعتَصِموا بِحبْلِ اللهِ جميعاً ولا تفرّقوا وبه يكون التعاون والتعاضد على انفاذ احكام الله كما يجب في جميع البلاد لعمرانها واصلاح شؤونها وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيها والاخلال بصالحها وبراحة اهلها وتأمين معاش سكانها وتقوية صناعتها وتجارتها . فلذلك عقدت هذه المعاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين وبين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون على ما تحويه المواد الآتية لتكون دستوراً للعمل بعد تقدم اصلاح النيـة وجعل الاعمال مدارة على الشريعة

الاحمدية في الاقدام والاحجام والنقص والابرام .

اولاً — البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها منذ قرون . وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية[1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها[2].

ثانياً — يعترف حضرة الامام لجلالة الملك بالملك ويعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة [3] .

ثالثاً — يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان بيد اسلافه ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . فليس لاحدهما احداث مقاولة

---

(١) « المطلوب اجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضعناه فابدل به الامام ما تراه في البند وسلمنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » .

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجيـــة » اطلاقاً فاضفنا اليها الكلمات : « تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتهـــا » كي لا تنفي المـــادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهذيبية « ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية . ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك .

(٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملـك العرب . وصرفنا اسبوعاً في المفاوضات بهـذا الشأن ، فجاءني السيد احمد يوماً بعـد منتصف الليـل يوقظني ويقول : يسلم عليـك حضرة

اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً مجعولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما [1] والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقاولة اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يكون معتمداً . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الآخر في ما يتعلق بخصة عاقدها ومملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدى الحكومات .

تابع شرح صفحة ٢١٧

الامام ويسألك خصوصاً ان تساعده في النظر بهذا البند . لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع ويأبى الامام ان يمس شعور جلالة الملك . فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل ؟ يبغيه حضرة الامام منك فعدلنا وبدلنا وتناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيف جانبها . وقد رأيت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام خمسة اضعاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحته حلاً لهذا الشكل وهو النص الحالي. وقد اضفت في المادة الثالثة بعد «ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز » كلمة « وغيره » .

قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يعترف بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربة حملتا الامام على تغيير رأيه في الموضوع .

(١) كان الامام مصراً على رفضه عقد المعاهدات مع الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية. فقبل بالجملة الشرطية « الا ان يكون بعد المشاورة بينهما » وبكلمة « منفرداً » في الجملة التالية : « اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك ... منفرداً » .

رابعاً – بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجلالة الملك ومن تجري عليهم اوامرهما الشريفة من الامراء والتبعة عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل . وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطلب من اي الجانبين عنـــد الاحتياج واللزوم وفي دائرة النصوص الشرعية .

خامساً – عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلى من تطلب منه الاعانة اعانة الطالب بقدار مايدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية . وعلى الطالب للامداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة .

سادساً – بما ان المقدم قبل كل شيء تأمين طرق المواصلة والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقرب لامكان المفـــاوضة والمواصلة بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدة ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليهـــا او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذكرات اللازمة في كلا الامرين وصفة المعاملات والحركات من الجانبين (١) .

(١) سلمنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بها السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحتياطية وهي «اما بسياسة يتفق عليها» بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نأمل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالته اذ ذاك صلة الوصل او الواسطة السلمية بين السيد والامام حليفيه فيتمكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترضي الفريقين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابي الى جلالة الملك حسين بخصوصها في موضعه من الكتاب .

سابعاً — السكة الفضية الخالية من الغش وانواع الربى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابة من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية للتداول وكمية القيمة والصفة المميزة للسكة .

ثامناً — تعيين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء ومندوب من لدن حضرة الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط فيتعاطي المفاوضات والمذاكرات .

تاسعاً — معلوم احتياج المملكتين لانواع الاسلحة والمهمات الحربيةوسائر انواع الترقيات الفنية واحتياجها الى ايجاد معامل وآلات لعمل الاسلحة وغيرها تقوم بالمقاصد . وبعد امضاء هـذه المعاهدة من الجانبين تكون المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك منالمصاريف والمأمورين والمحافظين والعملة وغير ذلك .

عاشراً — يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار يكون الاتفاق عليه لتصرف فيما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة . وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يتعين عليه في خزينته الى وقت اللزوم وتعقد تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتعاطاها الطرفان لتأمين تأدية كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين ولا يكون من احد تأخر بحصول

المقاصد [1] .

احدى عشرة – هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا كان الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه بحسب ما تقتضيه المصالح وتداول الافكار فكل ما يستحبه بعد تقريره فحكمه حكم هذه المعاهدة . وبعد تمام العشرين سنة يكون تجديدها كما هي او تبديل ما يتفق على تبديله ان شاء الله تعالى.

حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠

وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين يني مصحوبة بكتاب الى الملك من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تفاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريبه من العقول في شكل عملي معقول . فلقينا في الامام يحيى اعزه الله اذناً صاغية ، وهمة للعمل داعية . وهو في موقف الولاء ولا شك ثابت القدم مخلص القصد والنية . الا انه لا يحب ان يكبر في البدء خطواته ، ولا ان يوسع كثيراً صراطه . وان التمتع باليسير الآن، خير من الامل بالكثير . قد كانت لنا جلسات طويلات ومباحثات ومناقشات، يسمعكم الصديق قسطنطين خبرها ، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع بنودها بقدر الامكان لتعم ما ننشده من الوحدة العربية وقد فزنا بجل المرغوب وسلمنا ببعض

---

(١) ان المقصود من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امارة ومملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع لمد السكك الحديدية والاسلاك البرقية وتعبيد الطرقات وغيرها وهي احدى الفكر التي كنت ابثها وابشر بها هناك والتي صادفت استحسان جميع ملوك وامراء العرب . وعقدوا النية على العمل بها اما تضامناً واما انفراداً .

الجزئيات التي لا تقدح بروح القضية او تمس بجوهرها .

ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضات الخطيرة في الامم لا تنشأ نشأة واحدة كاملة . فلا بد لها من خطوات الى ذلك الكمال وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال . اما المعاهدة في صورتها الحالية فهي خطوة اولى مهمة . فعسى ان تستحسنوا عملنا وتروا ، وانتم مصدر الحكمة ، صواب رأينا . وفي المستقبل القريب ، بعد ان يتم توقيع المعاهدة، تتوفقون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص توحيد الامور الاجنبية، والنقود، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها . اذ حين تتم وسائل المواصلة بين جلالتكم وحضرة الامام ويكون له مندوب عندكم ولكم مندوب في صنعاء تتبادلون مباشرة الآراء وتتوفقون ان شاء الله الى ما فيه تمام تعزيز المصلحة العربية والاسم العربي داخل البلاد وخارجها .



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

السيد الادريسي

بلاد السيد

او ما يحكمه الادريسي من عسير

حدودها : غربا البحر الاحمر . شمالاً ابو مَتْنه على البحر . جنوباً الُحديدة. شرقاً جبال اليمن(وقد كانت الحدود الشرقية في رمضان ١٣٤٠ كما يلي :آخر جبل رَيمه جنوباً للامام يحيى ،وجبل براع المجاور لريمه للسيد الادريسي .وآخر جبل صعفان شمالا للامام، واول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد) .

سكانها : نحو مليون نفس .

مساحتها : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

اهم قبائلها : رجال ألمع والمسارِحة وبنو مِروان والقُحراء وبنو هلال وبنو عبس .

اهم مدنها : صبيا وجيزان وميدي واللحيّة والحديدة وابو عريش وباجل .

مذاهبها : السنيون : شوافع . الشيعة : جعفريون واسماعيليون . البارسيون واليهود والهندوس .

سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها – بلاد العدو – الاخطار – ثلاث لفائف – الرحيل – السيد علي يؤدب احد المكارين – جبل عصر – طريق العربات – وداع صنعاء – النبي شعيب – شبام – متنه – عساكر الدولة – « اربع ساعات الى صنعاء ! باد شاهم حوق يشا ! » – حمدان النعسان – ثلاثة فصول في وقت واحد – سطح اليمن – بوعان ولبنان – الحميه – حصونها الشاهقة وبساتينها – سوق الخميس – مجلس القات – الصبير والسعادين – مفحق قبو اليمن – السامرية – المقيل – الفقيه الذي قتل تلميذته – حديث الجمال – رحم الله الدولة .

الكريم من لا يعللك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة واذا اكرمك فلا يمتن عليك . والكريم اذا كان موظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول : نعم ، واذا قال : نعم ، يشفع الاجازة مثلًا بالصنيعة والصنيعة بالبشاشة . ان الانكليزي في بلاده وفي حكومة بلاده هو هذا الرجل . اما خارج انكلترا ، ولا سيا في الشرق ، فهو مثل الواحة في الصحراء . لذلك هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله في انكلترا .

قد كان حظي في رحلتي اني مررت ببعض الواحات ، منها واحة في دار الاعتماد بعدن استأنست بظلها وانتعشت . اقول « بعدن » على الرغم مما لقيت فيها من العقبات . فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعاء ثم اسافر منها الى الحديدة لازور السيد الادريسي في عسير . ولكن الامـــام والسيد اعداء والبلدين في احتراب . أمـا الأنكليز ، فاذا كان لاحق لهم في اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان

يمنعوني من الدخول الى بلادٍ صاحبها حليفهم ومدينتها الكبرى الحديدة هي فعلاً في يدهم. سألت المعاون الفاضل في دار الاعتماد ، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء ، ان يعطيني كتاب تعريف الى وكيلهم السياسي في الحديدة ، فاجاب : هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك . وكان كذلك . فاجتمعت بوساطة المعاون بفاضل من افاضل الهند ، روحه شرقية ، وعقله شرقي غربي . هو الدكتور محمد فضل الدين ، الوكيل السياسي في الحديدة لدولة بريطانيا .

وكنت ، وانا في طريقي الى صنعاء ، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لا لما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها ولكني وانا في صنعاء ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو ، فتمثلت امامي تلك الطريق الى عدن، وآفاق الحياة فيها مربدّة كلها . ثم جاءنا احد السادة يزيدنا كرباً وغماً في ما صوّره من الاخطار في منطقـــة الحدود بين الحجيلة وباجل — اذا سلمتم فيها فلا تسلمون من الاسر . الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام .

ولكن حضرة الامام عندما فاوضناه في الامر حقق لنا املاً في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بوساطة عامل حراز في مناخة وامير الجيوش الادريسية في باجل . وقال تهدئـة لبالنا : اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم .

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شيء الصبر . صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل ، ولكننا وجدنا شيئاً من التعزية في الآية : وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . فلا تخلو الطريق بين بلدين متحاربين من الاخطار . وبينا انا افكر ذات يوم في ما اقول لمولاي

الامير في ماويه وقد سألني :أحسني انت ام حسيني ،وعرف بعدئذ اني مسيحي ، وكيف اجيب في يوم ذاك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشد واياهم : نصر الله المسلمين ، ورسول الخير الامين ، بينا انا في هذه الورطة دخل الحاجب وبيده ثلاث لفائف قدمها لي قائلاً: من الامام . ففضضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمْري حفظه الله وتولاه وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاتــــه وصلى الله وسلم على محمد وآل هداته والله يحفظ ولي النعمة ويديم بقاه آمين .

وصلت الى هذا الحد وكدت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : يا رجل هذه الرسائل ليست لي . فاجاب وهو يحلف برأس الامام ان قدجاء بها رسول من الديوان يقول: هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مغضباً :

صدر السلام وصدر جواب البوسطة المرسول الينا . العنوان لنا والمكتوب للريحاني كما تطلعون والله يحفظكم عامل حراز

في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠ علي الاكوع

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار .

وكانت اللفافة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله

بعد السلام والاكرام. ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم

محمد فضل الدين وبوقته ارسلناه تلغرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم. اذا اشعرتمونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيلة ليرافقكم الى باجل.

قائد الجيوش الادريسية
محمد طاهر
رضوان

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

وكانت اللفافة الثالثة :

حديدة ٨٣٣ ٧ — ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياكم الله وعافاكم . سرنا عزمكم لطرفنا . اهلاً وسهلاً بكم. حين وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهمام محمد طاهر رضوان قائد الجيوش الادريسية بباجل ما يلزم . وقريباً نراكم ان شاء الله باحسن حال .

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمدلله ! قد اطمأن بالنا وحسن حالنا . لا تظن ايها القارىء ان اهتمامنا بمثل هذا الامر واشغالك به هو ضرب من السخافة . فانك اذا رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها. فالحمدلله اذن على ساعة في رمضان سعيدة ، بددت غيمات ماوية ويريم من سمائنا ، وفتحت لنا طريق الحديدة ، فصفا الذهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك عشرة ايام . ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديعه لطيفاً كريماً : « ما تمكنا ونحن في رمضان

ان نقوم بالواجب ونود ان تبقوا عندنا الى شهر العنب [1] . قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيسيح في البلاد الغربيــــة ويرى غيرنا . فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا وبينهم . »

ثم امر لنا بالركاب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على راحتنا ، فلم يدع شيئاً من مريحات السفر وحاجاته الا وفره لنا . مثال واحد من غيرته وعزمه . عندما جاءت المطايا صباح يوم الرحيل رأى ان سرج احداها بلا ركاب . فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتبرم ، فضرب السيد علي يده على وسط الرجل واخذ الجنبية [2] منه قائلاً : رح هات الركاب . فراح المكاري الى المدينة راكضاً وعاد ملبياً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . — اذا كان هذا اهماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد وتهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبل الامام إلى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذا كنا نجتمع بهــــذين الفاضلين اكثر من سواهما وكان السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤنسين .

سرنا من صنعاء غرباً نبغي البحر . وما كنا لنتصور ما وراءه من الجبال وما بين جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذاك اليوم

---

(١) عنب صنعاء مشهور بجودته وانواعه وهو ينضج هناك في اخر حزيران .

(٢) للجنبية اي الخنجر عندهم قيمتان ، قيمة حقيقية في ما يصلحله، وقيمة عرضية اجتماعية اي في ما توجبه المروؤة واللياقة . فهي اعز مـا يحمله اليماني ، وفي انتزاعه منه اشد تأديب له واكبر اهانة .

الى رأس بوعان . ولكننا ايها القارىء العزيز لم نصل وإياك اليه . اننا لا نزال بين صنعاء وجبل عُصر في سهل وسيع فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمر البور « كباقي الوشم في ظاهر اليد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالشامات في وجوه البدويات اذا شئنا التشبيب . او كبعض الاوراق الخضرا — وهذا اقرب الى ما كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة — في شجرة عراها الخريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعه دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والخمول .

ان الهواء والسماء والماء تبسم كلها لأرض اليمن . ولكن اليماني لا يستخدمها الا في ما يحتاج مباشرة اليه فمما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما بحثت ، لأن في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء كان يجري نهر هناك ، ولا تزال المياه تتدفق من جبل ُلقم في قني المدينة . ولكن الصنعاني يغني طيلة نهاره لجمل الساقية . او يقضي نصف نهاره في « تخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل من الماء والثراء . اجل ، ان بين لقم وُعصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواقي والجمال . فلو استخدمت لكانت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناضراً .

وهذه هي طريق العربات التي بناها الترك . انه ليحزنك كذلك مرآها وذكراها ، بدأنا نصعد فيها الى جبل ُعصر فحدثنا خرابها فشل الدولة وشكا الينا اهمال الامام . هي طريق الحديدة الى عاصمة اولاذواء ، الى قلاع الزيود ، ُبنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران .

بُنيت لجر المدافع ونقل الجيوش ، لا للتجـارة والمواصلات المثمرة خيراً . تلفتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجته لها الشمس الشارقة فوق ُلقم العاري العقيم .

وما اجمل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب . مدينة عجيبة كان لها من اسباب العمران والمجد والشهرة ما لأكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد ، لهـــا مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيهـــا الاسرار والكهان ، وعزّت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سباء ، وكان حمير ، وكان قحطان . ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان . وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء. فضلًا عما خصتها الطبيعة مما لا يزول ابداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج ، وهي على دنوهـــا من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات. وفيها الغزير من الماء القراح . فلو ُعبدت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال . واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولهـــا ، ومن البلدان العربية والاسيوية والافريقية كلها ، ولغدت في اقل من عشرين سنة باريس البحر الاحمر .

اي صنعاء عاصمـــة الزيود والجمود ، اننا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعود اليك مجد الاجداد محمولاً على أكف العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فترقيه في جسمه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدينته وبلاده وما سواها من العلوم لا نبغي لـك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء عاصمة الاذواء ، اننا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من الناس

ونحن واياهم من سليلة واحدة ، نفادي حتى بشيء من معالم الوطنية من اجلهم ، فتصبح اجسامهم اذا اتقوا الامراض ،وتنجلي عقولهم اذافتحوا المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الأولى وسره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وختمته ، ويودون ان تشاركيهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ونستودعك الله .. قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، وغنا تحت سمائك ، وانتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نحبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ،ومن يحبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تاقت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران — سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، وفي اللانهاية ، وستغبطه منا العظام والتراب .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاحٍ في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . ولكنه ربيع آبدٌ نحيل يكاد يطأ الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله لا يحيا في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجبت عنا المدينة المحبوبة احتجاباً — ابدياً ؟ الله اعلم .

وتلفتت عيني ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

وهوذا النبي شعيب قريب بعيد . هنالك على الافق امامنا يلوح كالطيف اسحم رائعاً هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شُبام فيرافقنا اليوم وغداً .

سرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَتْنه ، وهي للقادم من مناخه او من

الحديدة آخر مرحلة الى صنعاء . مَتْنَبِه ا كانت في ايام الترك مربعا لعرائس الحبور ولرسل السلامة والسرور . فكم من ابناء الدولة المجاهدين — المسوقين الى الجهاد في اليمن — كانوا يخرجون من تهامة فيموتون في قيظ السبخاء ؟ وفي الشعاب ، وفي «النقيل» وفي مضايق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف من يصلون منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم جوق ياشا ! وكانوا يقضون يوماً او يومين ها هنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم فيعيدون ، ويهللون ، ويبذلون من «الظلط» ما لا يزال صاحب «السمسرة» يتلمظ بذكره . فيهز رأسه اليوم آسفاً محزوناً ويريك البيت الذي كان قصراً في تلك الايام ... وكم من يهوديات صنعاء خفّفن فيه من كرب المجاهدين وغممهم !

الطلول الدوارس   هجرتها الاوانس

وقفنا في متْنه اكراماً لعساكرنا وقد اشتهو القهوة ، قهوة القشر . وجميعهم مسرورون لانهم مسافرون في رمضان — ومن كانَ مريضاً أو على سفَرٍ فعِدةٌ منْ ايام أُخرْ — كلهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، ابى التمتع بتحليل النبي ، وكان الجائع النعسان على الدوام . فما ناديناه مرة الا كان ينعس فوق حماره وهو يمشي الهوينا مشية البقر ولا يلذ له الا مؤخر القافلة . اسمه — الدليل لا الحمار — حمدان ، فسميناه نعسان فزاد ذلك في الطين بلة . وكأن الاهانة لحقت به وبحماره فصار لا يُرى في مقدم القافلة ولا في مؤخرها . — يا حمدان النعسان انت الدليل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الوراء . رح يا حسن فتش عن النعسان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف الطريق فينتهره ويسوق بالبندق حماره . فيجيئنا التقي النقي ، الصائم النائم ، وهو يتمتم : بسم الله الرحمن

الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بوْعان . وهي بضعة اكواخ عند جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمراء وبيضاء . احسن ما في هذه الطريق جسورها . في بوعان اسطبل يدعى مقهاية [1] دخل « القراش » اي الدواب والعساكر اليه ورحنا انا وقسطنطنين نبغي ظلًا تحت الجسر فبسطنا غداءنا الى جنب الماء هناك . وبعد ان اكلنا واسترحنا قليلًا استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل بوعان وتلف في الاودية لتصل الى مفحق ومنها الى مناخه . صعدنا في الجبل في طريق وعرة زلاء ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى اعاليه ، فصفرت فيه الرياح واعلمتنا بظهر من مظاهر الطقس غريب . فالشمس شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، والزهور زهور الربيع ، اما الهواء فلا ربيع ولا صيف فيه . كنت اذا اغمضت عيني اظن نفسي في اعالي لبنان في الشتاء . هذه ثلاثة فصول في وقت واحد .

ان رأس بوعان لسطح اليمن . وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء والغربي اي باب مناخه . دخلنا الهيكل من باب صنعاء ، فمررنا برواقه بين انصاب جليلة ، وعمد رائعة ، وصخور هي كالهياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر . وما هي الا بضع دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب المخاوف والاهوال . ان المسافر ليجد نفسه في غير ما الفه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه قد وقفت تماماً ، فيشهق ولا يتنفس ، ويهتف

(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الخان سمسرة ، وفي الطريق من صنعاء الى الحديدة يسمونه مقهاية او قهوة .

ولا يتكلم . هناك مشهد من الجبال والاودية رائــــع ، مخوف ، يهمس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ، ولا تكن فخوراً .

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك في اليمن عندما تقف على ذروة بوعان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ، رؤوس امواجه قنن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة الملتفة بعضها على بعض . وهنالك وراء القنن الشاهقة والصخور الشامخة المسنمة ، والهضاب الهرمية ، والاودية المدلهمة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سريح وكوكبان ، هنالك الغيمة التي هي مناخة وشكلهـــا كسرج الفرس ، دلني عليها حزام ، فما صدقت ان سنكون فيها مساء الغد . وما هول المسافات والشواهق بشيء عند هول الوهاد والاعمـاق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوعان وشبام علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف مناخـه ! سنكون غداً هناك . انك اذا وقفت في بوعان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسها لتتعثر بسنام الصخور والقنن ، فلا نظن ان مـا خلقه الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبابرة ، والكامنة رؤوسها كمون العدو في السحاب. اما اذا حلقت الطائرة فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح اليمن في بوعان شرعنا ننزل الى قبوه في مفحق وبين الاثنين درجات لا تعد ، ووهاد لا قعر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتُسد فيها المنعطفات ، فينزل

عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البغيتين . وكلما وقفنا لاح لنا في المشهد شيء جديد جليل ، في شعب هناك او في نقيل . ان جبال اليمن كجبال سويسرة في وهادها واكبر منهـا في اتساعها ولكنها غير مأهولة ، وتقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعاء الى مناخه لم نمر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدناها هي الحيمه . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراها الى اليمين في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداها ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتنا بلبنان . وما اكثر ما يذكرك في اليمن بلبنان . ارض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقات . وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ؛ عدة احياء . كل حي قرية بذاته ، بيوته عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافة يتخللها شعب او نقيل . اما السبب في هذا التقسيم والتباعد في قرية واحدة فهو يتصل كما أُخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حياً منفرداً بعيداً عن الآخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في مأمن من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لتراهم مع ذلك يحرثون الارض ويستثمرونهـا . اجل ليس في الطريق من صنعاء الى مناخة اخصب واجمل من بساتين الحيمة الغضة ودكاتها المستديرة الخضراء

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمة وسط المنحدر بين بوعان ومفحق ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك الذي يصل مناخه بصنعاء . استقبلنا العامل ورجاله فانزلونا في

دار الحكومة ، واستأذنونا بعد العشاء بأن يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم مكرهين ضيوفاً ، لاننا في مرحلة استمرت اجدى عشرة ساعة وفي اوعر طرق اليمن التي اجتزناها كنا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا برزم القات وبالمداعات ، فاقفلوا النوافذ ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات ، وطفقوا يدخنون « ويخزّنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفالج . خرجت الى الفلاة لانجو من الاختناق ولما عدت الفيت القسطنطين ، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطائرات . وقد تأسف عندما نهضوا بعد منتصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . ففتحنا النوافذ ليطهر البيت ، وما كدنا ننام حتى استفقنا على صوت الطبل ، طبل السحور .

قمنا ، و « لا حول ولا » على الاسنة نشد للرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن واد الى واد — نازلين الى جحيم اليمن ، الى القعر الذي لا قعر دونه في تلك الارض ، الى مفحق . وما مفحق غير اسم لشُعب ضيق مدلهم شاهدنا فيه لاول مرة الرباح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له اسماً غير الصبير وصبر ايوب .

من سطح اليمن في بوعـــان الى قبوه في مفحق مسيرة ست ساعات ، فيها منتهى الوحشة والوعورة . ثم من مفحق عـــدنا الى التصعيد ، ثم النزول مراراً ، فمررنا بقهاية تدعى المجز استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدري بمحاسنه ، فلم يُبق على غير الشكل والعيون . سقت « القراش » بقربة ملأتهـــا من البئر

بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرية بلاد الزيود . قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخلخال يشتغلن في الحقول ، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسنٍ ذهب فريسة الجهل والوباء . وكأن الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يحزنون .

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكهنا احد الرفاق بقصةٍ انستنا بعض اتعاب الطريق . كان الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن النكتة ، وافقنا من متّنْيه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والآخر جمّال حطاب . قدم لي المحدث نوبيش المداعة قائلاً : لا يهمهم الجدري ما دام الفقيه بخير . لهذا الرجل – اشار الى الشيخ الذي كان نائماً – امرأة مثل من رأيت وجه حسن ولسان حلو . وله فتاة اشتهت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت . فقرأت المسكينة اسبوعاً فقط ثم – وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى – وقعت في الشرك . طلبها الفقيه من امها فأبت فافرغ البندق في بطنها . ورأس الامام ! فقلت : قتل الام ؟ فاجاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعاء . وهذا الشائب – مسكين يجب ان يحمل كفنه معه في السفر – هو زوج الام وابو الفتاة . راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتهون دفع الدية .

– وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فلا خوف على حياته . تقبل الام الدية . ورأس الامام ، وتسترجعه

لتكمل القراءة . وما قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

ــ واذا ابت ؟

ــ المأمور يا افندي يرتشي برطل زبيب .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشيهم بالظلط. الترك يأكلون الزبيب .

فقال القصاص : خير الجود الموجود . كانت الظلط في تلك الايام مثل الزبيب اليوم . وكان يحملها الترك من مناخة الى بوعان ثم الى صنعاء في موكب عظيم . انا مشيت مرة فيه ونجوت والحمد لله . موكب عظيم يا افندي. هذا الضابط حامل الظلط ،وهذا الجيش قدامه ووراءه الى يمينه ويساره ،وهو في الوسط مثل العروس يحرسها الفان من النظام [١] . وهناك وراء بوعان الثائرون يكمنون للترك فيسلبون الظلط ويذبحون النظام .

فهز الجمّال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، انقل لهم الحطب . مجيديان اجرة الجمل . وكان ابي واخي وعمي يحاربونهم هناك، عند بوعان . كنا كلنا نأخذ الظلط من الترك .

رحمة الله عليهم . ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات . ولا نظن ان عسكراً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر يقوى على حصون الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال .

بعد ان صعدنا في نقيل مناخة واستوينا الى رأسه نظرنا الى المسافات الهائلة التي قطعناها فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الآفاق البعيدة شرقاً وشمالاً يثبتان ما نقول . انك اذا قطعت تلك

---

(١) الجيش النظامي .

المسافات راكباً ، خفيف الثياب ، لأسير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة ارطال على ظهرك ، وقنطاراً من الهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح الدولة ، ولا يزال اهــــل اليمن يترحمون عليها .

الى الحدود

مناخة – الحصن الحصين – عامل لا يحسن غير الواجب عليه – « لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » – المشهد من سطح البيت – مناخة واب – الفرق بين العاملين – قرية الهجرة – جبل وسل – العتارة – الاسماعيلية والفرق الباطنية – الداوودية – مقهاية وسل – كيس النوم – الفقراء في لندن ونيويورك – قواعد الصحة والطب الخرافية – السعادين ترمينا بالحجارة – قاع صمفان – الحدود – الشيخ حمزة – « على الرأس امر السيد وعلى العين امر الامام » – شيخ الحجيلة – « كلنا نشتهي السلم » المصيبة من الله – وله شريكان في اليمن .

ان مناخة قائمة على قنة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس . وهي قسمان قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية . ولكنها في الحالين حصينة منيعة . فهي في علوها ، ٥٠٠ قدم فوق صنعاء ونيف عن ثمانية الاف قدم فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطىء للنسور والعقبان . وقد كانت بالامس موطىء قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الاهم . فيها ثكنة هي في مقدم الصهوة عند سنامها ، ثكنة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة الاف منهم الفان يحملون البنادق .

وفي مناخة اليوم مركز قضاء حراز ، ودائرة للسلك والبريد ، ومفرزة من الجنود . وهي محطه للتجارة بين الحديدة وصنعاء . اما الحصون فلا حاجة اليها ، لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد

تشرف من الجهات الاربع على الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب . لا اظن ان عسكراً من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادماً من الحديدة ، او من الشرق ، قادماً من صنعاء ، اما اذا نفدت الذخيرة فيها فيتخذ المحاصرون سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا تفعل البنادق كما تيقن الترك في شهاره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقد عرفنا شيئاً من طباع اهل اليمن ، اساس حكم الامام وحصنه الاحصن . اذ لو اعلن عامل حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، اوتصرف بقسم منها : هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اظن ان امام صنعاء يستطيع تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .

أنزلنا في بيت كبير هندسته اوروبية بنـــاه احد ولاة الترك . ووُكل امرنا الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسهما ولا شك من سادته السابقين ، فاقمنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقبلني وهو في قميص النوم وامر لي بمداعة ورزمة من القات . واجتمعت عنده ببعض العلماء وفيهم سيد معجب بعرب الاندلس وباحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، ومما قاله :لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب .

تفضل حضرة العامل فأرسل مع نجّاب علماً بوصولنا كتبته بيدي الى قائد الجيوش الادريسية في باجل . وكان قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود . وأعد لنا اكياس البن التي امر بها الامام ــ هدية امامية .

ولم يلحّ الشيخ الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما وجب عليه من الاكرام كعامل الامام لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تذرع برمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد . هو حر شاذ الطباع لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيه ولا زيادة .

اقمنا يوماً في مناخة نتمتع بمحاسنها ونستريح . صعدنا الى السطح قبل ان احاطت بها الغيوم فكان ادهش ما شاهدناه قريباً منا صخرة قائمة كمسلة فرعون وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلاّء فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل . ووراءها على مسافة منها قرية الهجَرَة المعتصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم سرحنا النظر بالآفاق البعيدة عن حراز فاذا بوادي مَوسنه منبسط امامنا شمالا بغروب ووراءه جبلا حفاش وملحان ، وبالاودية الشرقية التي اجتزناها امس ووراءها النبي شعيب وتحته بوعان . وهناك قنن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هذا القبيل انجيلي يبني بيته يقيناً على الصخرة . وقد الفيناه في هذه الجهة الغربية اكبر همة واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة والدكات والمنحدرات الخضراء .

سررنا بيوم في مناخة سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حلو الشمائل دمث الاخلاق ، وذاك على شيء من طباع البدو الذين لا يسيئك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا الشيخ الاكوع

بحكم الامام ، ولا تبجبح مثل امراء الجيش وبعض السادة في مساوية وذمار ، انها لمن حسناته التي تسر ولا سيما من كان مثلنا قادماً من تلك النواحي الشرقية .

في صباح اليوم الثاني جاءنا من قبله عدد من العساكر ، ضعفنا منا صحبنا من صنعاء ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا ننزل ثانية من سطح اليمن ، من اعلى سطوحه ، الى أوطأ ارض فيه ، الى وادي حجّام في سفح جبل وسل . وهي اوطأ من وادي مفحق ودونها عقبات كؤودات ، فيها النزول اصعب جداً من التصعيد . اما وسل فدونه جبال وقرى نعد منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي يتصل ظله شرقاً بالحيمه . وهذه قنة شبام التي تظلل مناخة بعد الظهر وهي اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراءى لنا تجاه مغرب الشمس جبل ريمه واعلى قنة فيه براع . وهذه على احدى قنن مسار قريه تشاركه في الاسم وبينها وبين شبام الهجرة . تلك القرية العجيبة الرائعة ، المزدحمة بيوتها في نتوء برأس الجبل ، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في لزّها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيويورك .

عندما نجتاز الهجرة نطل على وادي حجّام ومنحدراته كالدرج تحتنا ، واحد تلو الآخر ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة . وقد امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه اليمانيون في الدكات ، في اماكن تظللها الصخور والهضاب ، اي في الشعاب التي لا يصل اليها غير نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس .

انك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور

كأنها جزء منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها .

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه . بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة من الباطنية الذين ابادهم الزيود بالسيف كما اخبرنا السيد محمد . ولكن الابادة لم تتكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى العتّارة وفي ضواحيه .

انهم فرع من فروع الاسماعيلية (١) القديمة يدعى الداوودية . وهم قوم اشداء حاربوا الاتراك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه . وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة ويسميها الجزية او انه يفرض عليهم الجزية ويسميها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال الا كرهاً ، لان في مذهبهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد

---

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام الزيود . من فرقها المهمة النزارية وهم ينتسبون الى المعز الفاطمي يقيمون في بمبي بالهند وعددهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوو يسار ، وامامهم الاكبر اغا خان. ومنها السليمانية في اليمن ويسمون ايضاً المكارمة . هم اصلاً من نجران ، من قبيلة يام الكبيرة ، عددهم هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الادريسي. في الهند من السليمانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة. ومن الاسماعيلية الداوودية وهم من بني مرة اي مرة اليمن لا نجد يقيمون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبَلي حراز وهمذان . ويسمون كذلك البُهرة . عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف . ولكن البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون ، يربو عددهم على الثلاثمئة الف ، اكثرهم من التجار ذوي اليسار ، وداعيهم اليوم طاهر ابن محمد سيف المقيم في سوراة . كل هذه الطوائف اسماعيلية كما قلت لانها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير .

من ائمة او من امراء المسلمين .

نودّع الداوودية في العثّـارة ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على اللكَمة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف ووراءها جبل ِصفمان وفيه حصن مـتْـوح. اما وراءنا فقنة شبام لا تزال تلوح فوق كل الجبال ، ترافقنا اربع ساعات الى ان نقرب من وسل .

وما وسل غير بيتين ومقهاية وبستان من القات . وهاك امرأة اخرى تبادر الى استقبالنا وخدمتنا . بـدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في العالم ، النساء العاملات مثل الرجال . سقت المرأة « القراش » وشربنا نحن والعساكر قهوة القشر ، « تقشرنا »[1] وادركنا ها هنا لزوم الفنجان الخاص الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم . اما الكيس ، اذا كان المسافر يضطر ان ينام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم . هـو كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش . الا انهم لا يربطونه حول العنق ، كما قد تظن ايها القارىء ، بل فوق الرأس . هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخلاً فيمسى اذ ذاك كله ، هو ورأسه ، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون ولا يختنق . ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق ، كأنه اكل ناراً في نومه .

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يحتلوا الكيس . فما قول سادتنا الاطباء الذين يهددوننا بالموت اذا اقفلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض الكربـون في انفسهم ؟ أوَ ليس من الحكمة إذا

---

(١) تقشرنا على وزن تقهونا .

اضطر عدة اناس ان يناموا في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الآخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كلٌّ على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأكل هواءه — حامض كربونه — من ان يأكل هواء غيره ؟

ان في احياء الفقراء بالمدن العظيمة كلندن ونيويورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة صغيرة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا بـه . فهو والحق يقـال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة والفقر والشقاء، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها. ادخل رأسك في الكيس أيها الفقير العزيز ، أنت الساكن في الطرف الشرقي بلندن أو في الحي الشرقي بنيويورك ، أدخل رأسك في الكيس تنجُ ليلاً في الاقل من أنفاس عيالك ومن أقذار بيتك .

أما الكيس الاعظم فهو هذا الفضاء . ولعمري إن من كان هواء الجبل ارثه لا يلقي رأسه تحت سقفٍ ساعة واحدة . إلا أن العربي وعموماً اليماني خصوصاً يخاف هواء الليل ويتأثر من البرد اكثر من سواه . كأن شدة الحر تضعف الدم او تغير في تركيبه فـترق الكريات الحمر فيه فيؤثرُ اذ ذاك البرد في صاحبه تأثيراً مضراً . والذين ينقلون من الاقاليم الباردة ويقيمون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهله .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضع سنين في جدة فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سم زعاف . وكم تناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظتي اسيء اليه ! فلو سكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا تتكلم عنا ، لكنت ولا ريب مغلوباً . لان فيه

من العافية ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، ... لو وُزع على خمسة مثلي ، انا الذي لا استطيع أن انام دون ان افتح النوافذ كلها ، لأقتلهم كلهم التجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالاً ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب آيات منزلات. وهي لا تخلو من الخرافات. ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الآن. الا اني اقول ، قبل ان نترك شهارة وسل وبستان القات ، قد تكون الرئة في الهواء المفعم بالاكسجين كالاسفنجة اذا امتلأت ماء، والاكتفاء حد الفائدة في كل شيء .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح، الى هواء البحر ،وهو لا يزال بعيداً. لولا ذلك لما كان الحر في وادي وَشحام شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتمشون في ظل شبام منذ ست ساعات .

جلسنا للغداء عند بئر قديمة تحت شجرة من الاثب وهي اكبر اشجار اليمن ، فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصاص ، فبادلونا الاكرام ورجمونا نعم رجمونا بالحجارة ، فكانت الحجارة اشد علينا من الرصاص عليهم ، فارتحلنا من ذاك المكان ، تقهقرنا مغلوبين ولكن سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع ضعفان وهناك محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد الزيود ، بين السيد الادريسي والامام يحيى . هناك في تلك البيوت والخيم مركز الشيخ حمزه، حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين باجتياز الحدود ، ونستصحب حرساً من رجاله .

ترجلنا خارج الخيام ومشينا الى بيت حقير بينها ، فاستقبلنا عنده

الباب رجل صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثياب غير الفوطة يتزر بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حمزه فاجاب : ها هو كله ، وقبل ان دعانا الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم - اي تأخرتم - نحن هنا وعساكر السيد في عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الخيار في امرين تبيتون عندنا او تكملون الى عبال . كل شيء حاضر هنا وهناك . من هو امين الريحاني فيكم ؟ فاجبته كما اجاب سؤالي عنه ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غيّر لهجته - نحن يا امين تحت امر من اوصانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم . على الرأس امـر السيد وعلى العين امر الامام . راحتكم علينا وسلامتكم مطلوبة من الله ومنا . فاذا اشتهيتم السفر الآن كان السفر . واذا اشتهيتم الاقامة فاهلاً وسهلاً .

طابت لنا كلمات هذا العربي فاحببناه . استقبلنا بقلب عار مثل جسمه ، فكان صريحاً مليحاً . وكان شريفاً اكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا خفنا ان نثقل عليه . ولما اعلمناه بما اخترنا من الامرين آسفين قال : خذوا القهوة اذن وامشوا لتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الحبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقريب السوداني .

الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليمن الاعلى فتحمل جماله وحميره الكاز والاقمشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو كذلك الوكيل السياسي بـــين البلدين المتجاربين ومندوب الامامين . رجل السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شيء حساب . وعنده حبر وورق وكاتب ، هو ابنه الذكي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل في مناخه يعلمه

بوصولنا . فراح الى الزاوية في بيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الكاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسمها ثانية ، ففعل ومرة اخرى حتى اصبح وبيده ثمن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخه حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصلهم بخير الى عبال .

اخذ الرسالة فلفها لفافة ودفعها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة أبرقت علينا من وجهه القاتم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى .

كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . ومن صنعاء الى مناخه اثنان فقط . ومن مناخه الى الشيخ حمزه اربعة . وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلو لم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل ، يصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحجّيلة بنفسه — شيخ الحجيلة العظيم في الامس . هو رجل صغير يابس مصفر الاديم ، ذو لحية محنّاة ، وشارب مقضوب ، وعين غائرة . ركب حماره ، وبندقيته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عنا ، غير مكترث بنا .

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحجّيلة او كان . وكان في ذاك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي . تحت امره مئة بندق ،

يوقفون القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه . من منا في اليمن وفي تهامة كان يجرؤ ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟سألت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحجّيلة ؟ فاجاب بالايجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك ويأخذ من العرب . كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشيء .

سبحان الله اهو الآن رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة . اجتذبني خبر الرجل اليه . فسقت بغلتي نحو حماره ، وسلمت فرد السلام . ثم سألت سؤالاً اجابني عليه دون ان ينظر الي : هذا قاع الحجّيلة وقريباً نصل الى البلد .

كنا وقتئذ نجتاز ارضاً لا سيادة فيها للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن . ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان يأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة .هي نقطة الحياد بين عبال اخر حدود السيد ومضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام . اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحجّيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المفجعة . شريط التلغراف فيها مقطع ، والعمد مكسّرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي — مناضد وكراسي ودواوين — رأيناها مبعثرة تحت سقوف متهدمة . اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال . لا عجب اذا كان العرب يفضلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب . قد هيج هذا المشهد فيّ الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب . وكنت لا ازال استدرجه الى الحديث فقال :

ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شيء ، ما عدا الاخطار والفقر . وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم . بعيد عن الحرب،

قريب من السادة ، هذه بلية السيد وبلية الامام . ولكان الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا عن السادة وخاضوا المعمعة مع الجيوش. عندئذ تنتهي الحرب ... كلنا والله نشتهي السلم . ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين السيد والامام . لا في عسير ولا في اليمن موجود . لا يتم الصلح الا باحد الكبار ، يجيء من وراء البحار...
ثم تنهد وقال : مصيبتنا من الله. فقلت: من الله وحده؟ ألا دخل للانسان فيها ؟ فقال مستحسناً سؤالي . ثلثها من الله . ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حماره ، فلحقت به وسألته عن الثلاثين الآخرين . فاجاب وهو يستحث حماره ليبعد عني : وثلث من السادة . فسقت بغلتي اليه وسألته معتذراً ان يعلمني بالثلث الاخير . فاوقف الرجل حماره ونظر اليّ وقال : الثلث الاخير ، لا والله بل الاول هو منكم .

ظنني الشيخ معتمد الانكليز ، ولكنه لم يخطيء برأيه في قضية اليمن وعسير . انه اقرب رأي الى الصواب سمعته . وهو ينطبق على العرب كلهم وما يكابدون من السياسة الانكليزية ومن السادة — حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء — ومن التقادير .

السيد الادريسي

نساء تهامة

اشكال العرب — الشبان المخضبون — الشعور الطويلة والتزين — السفور — الرعابيب — المرأة واحدة في باريس وفي عبال — الحناء والكحل والطب — شيخ عبال يزورنا — خطبته البليغة — ابنه يعطينا ربالين — طريق عدن وطريق الحديدة الى صنعاء — الاسراء — المغني المكروب — التكييس — المحسن المجهول — ابن شيخ عبال — عساكر الادريسي السود — « الحوائج » والحسناء — العرب والترك — البرنيطة — شمس تهامة — باجل سوقها ونساؤها — مودة عربية بأريسية — ضيافة الثوافع — الشيخ محمد طاهر رضوان — الصحراء — الرهائن — عساكر الزيود — اطياف الليل — الفجر — البحر .

ان العرب على الرغم من المصيبة المثلثة التي تقدم ذكرها لمبدعون مدهشون في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية . وهم على مـــا بينهم من روابط الدين والعنصر واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنىً . فلا يختلط اليماني بابن عسير ، ولا هذا بابن الحجاز . يخالطون ولا يختلطون . حتى اذا جردتهم مناسك الحج مثلاً من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون — الجدائل — وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان .

انك لتسافر في اميركا مثلاً من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي فلا ترى في اختلاف العادات والتقاليد والازياء ما يستوقف النظر او يستحق الذكر . بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً . اما في بلاد العرب فكلما انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والازياء والعادات ، وتغيرت كذلك المساكن . فلو اجتمع الحجازي والتهامي

واليماني واللحجي والحضرمي والنجدي والعراقي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب غريب مفيد .

من مناخة الى عبـــال ! كأنك انتقلت من سويسرا الى بلاد المكسيك . وان جمال عبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس الجبـــال ساعة الغروب . عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش شبيهة بخيام الهنود الحمر في المكسيك. وابناؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار بامرين ، يتكحلون ويتطيبون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون . فالشبان في شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات . فهم يدهنون شعرهم بالادهان ، ويربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ، ويزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنـات اليوم ليساوي القذال ، ولا يقصرونه كالرجال . وهم يتزرون بالفوطة مثل اهل لحج . وقد تكون طويلة ملونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين ويلبسون فوقها صدرة بيضاء بينها وبين الفوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر والخرطوش . ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور النساء ، وأرجلهم المخضبة بالحناء .

وفي عبال نعود الى السفور ، الى اول الاسلام . في عبال تعددت المدهشات وكان اشدها واحبها الينا النساء ، وقـــد وقفنا في ابواب الخيام يتفرجن على الغرباء . ولا نظن انهن كن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن . الجمال الاسمر نشدناه في كل مكان فما لقيناه حتى وصلنا الى تهامة . والرعابيب ، ها هنّ ذا في عبال . وسيبهجك منهن ما ستراه غداً في باجل . نزلنا في بيت اخلته لنا احدى النساء بامر من الشيوخ ثم جاءت تخدمنا . فسألنا مستطلعين حالها ، فقيل لنا انها متزوجة ، مطلقة ،

وتكره الرجال . اي نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة يا ترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟

اجتمع في الباب وخارجه الاولاد والرجال متفرجين مستغربين . فجاءت العساكر تبددهم لتفتح الطريق لشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا. وهو رجل طويل القامة مهيب الطلعة ، فخم اللباس، متطيب متكحل حافٍ ، الا ان رجليه المخضبتين تلمعان بالحناء . دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً من الحبق قدمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنأنا بوصولنا الى بلاد السيد سالمين ، ثم قال معتذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان ان نقوم بما يوجبه علينا الشرف والناموس . انتم الآن في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وامان . ولكنا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان ننزلهم في بيوت من الرخام والمرمر. فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسعد برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنه قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلاً : رمضان يسود الوجه . انتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان رفضه رفض الضيافة ويُعد اهانة . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسذاجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاتراك في مواقع متعددة .

نمنا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الاسرة ، تحت سماء تهامة

الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير حبل مشبوك ولا غطـــاء غير شبُك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليمانية العديدة اطول من هذه الثلاث الاخيرة واوعر [1] لان الطريق من عدن الى صنعاء وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدة . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطاً عريض الدرجات تتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم . وبكلمة هندسية : اذا مددت خطـــين واحداً من عدن وآخر من عبال الى صنعاء تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

اسرينا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان قمر رمضان كمنجل من فضة فوق قنة شبام . وكان قد نهض الهواء كذلك فانعش فينا ما خدره الحر وأزال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احدٍ من الربع اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بالشام ومصر في ما رددت من الاغاني القديمة ، وقد انجرت انغامها ، ثم اتهمت ، ثم انجدت ، فافسدتها الاسفار ، واكسبتها المسافات على رداءتها ذكراً من الاوطان عزيزاً . ولكنها لم تكن عنـدي ساعة غناء ، بل ساعة تأمل وصلاة .

يا ذا الجلال الازلي الخفي بشيء من جلالك ، يا ذا النور الدائم

. . . .

(١) ركبنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ، وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ، ومن وسل الى الشيخ حمزه ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزه الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمرحلة الاولى .

امددني بقبس من نورك ، يا ذا القوة غير المتناهية ابعث منها فيقواي.

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حالتي الروحية ، من مجرد الصدى بعد السكوت « يا رايحه عالشام خدبني معاك » ؟ . ما عرفت صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وطء الدواب كنا كالاخيلة الساكنة السارية في الليل ، فلم تتباين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكني سألت عند الفجر عن المغني فقيل لي انه رافقنا ساعةً اكراماً وعاد الى عبال . وشد ما كانت دهشتي وأسفي عندما علمت انه الرجل الذي كبّسني (١) مساء البارح فحرك الدم في العروق وأزال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الاوجاع . ثم نهض وايانا ورافقنا اكراماً دون ان يمن وشاء فوق ذلك ان يسلينا باغاني بلادنا .

فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاكرام الضيف احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت يغني ، مهما شذ والتوى ، يذكر الغريب بالاوطان . وما كان اشبهك بعكرمة الفياض ، فلم نعرفك مؤاسياً منعماً ، ولم نعرفك مشيعاً مكرماً . جئتنا من الغسق ، وانعشتنا في الليل ، وشيعتنا في ضوء القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك كالطيف في الظلام . ومهما كان اسمك واينما كنت فانت اخو الانسان ، واميرالذوق والاحسان .

---

(١) من العادات الجيدة في تهامة والحجاز التكبيس . وكلمة تكبيس لفظة تستعمل في اليمن لعلم جاءهم على ما اظن من الهند . فيكبسون المرء من رأسه حتى قدميه . ويدلكون الاعصاب دلكاً ، ويفركون العضلات ويمسدونها بعدئذ تمسيداً . ان المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشيء استئناسه بالمُكبّس . وحتى الصغار هناك يحسنون هذا العلم .

كشف الفجر عن الوجوه فرأينا في الربع بدل شيخ الحجيلة ابن شيخ عبال ، وبدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن ادريس . وهم من العبيد صحيحو الاجسام ، خفيفو الاقدام ، قليلو الكلام . لا يختلف الواحد عن الآخر ، وكلهم سود بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذاك كالشوكالات ، والآخر كالابنوس المصقول . سألت « الابنوسي » وهو يركض ويثير بحافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ? فاجاب . ابي طلع من البحر وانا ولدت في البر ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي اني اسود . قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفيه .

بعد ان اجتزنا قاع عبال وصلنا في الساعة الاولى من النهار الى البيحاح وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت من البيت صبية حسناء ، ممشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدثرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشت لنا وبشت واسرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الابازير كالزنجبيل والهال — كثير من الابازير — يسمونها حوائج . وكان حسن الصبية يتجاوز قوامها ووجهها الى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن ...حوائج وهذه الحسناء ? امض يا امين .

ومما زاد في كربة الرجال صباح ذاك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسناء اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تنشر

للشمس شعرها . كأنها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام .
فحثثنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه . والترك ، ما الترك ؟ هناك – اشار بيده وهو ينتقص اصابعه – هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذاك الجبل ، حفرنا الخنـــادق – كنا تسعين ، تسعين فقط – واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهر ، والله ، ونور هذا النهـــار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا ننقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقي تشتتوا وهربوا . فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والذخائر والمدافع خيرات . يا له من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخبيها وراء الخنادق ويعود يفتش عن غيرها ... ابن اليمن مثل الحجر صلب يابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجليه ... هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما تراهم الآن ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتذمرون . ولا يشكون غير حلم السيد فهم يغلبون الزيود ، ويأخذونهم اسرى والسيد لا يأذن بتذبيحهم .

سرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاحت لنا على الافق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات البرانيط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان البرنيطة او الشبقة لقديمة

العهد في تهامة وبعض نواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في العنصر والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد .

وباي سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطرك رزقك ان تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا تلثمت بها تدفع ثائر الغبار والرمال فقط ! قد تقي العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقي الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العمامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون الى السعي في سبيل الرزق . قد برهن اليماني التهامي في لبسه الشبقة على ان الغريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن ايما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسج فلا تمنع الهواء واسعة الاطراف تظلل الوجه والقذال ، عالية القبع تحفظ الرأس من سهام الشمس .

ويالها من شمس لا تحجب ظلمها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلدة هي وحدها الحاكمة بامرها فيها . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلها مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجرّ الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها الناس من القرى والمضارب المجاورة وينزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشترون طيلة النهار .

مشينا بين صناديق من الكاز واثواب من الخـــام ، بين المواعين المصفوفة على الارض والاكياس ، بين الابازير والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء وبايديهم السلال اكثر ما هنـــاك يكثرون البيع والشراء . أعجبنا من هذا المشهد مظهره النسوي لاننا لم نرَ في بلاد اليمن ، في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، واكثرهن حسان الوجوه والقدود . اما البنات فما رأيت منهن غير المشوقة الهيفـــاء ، وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفة ومشياً . لكن لبسها قد ينسب لولا السذاجة والفقر الى التهتك . هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخلخال ولا يخفيه ، وتلبس فوقه صدرة ضيقة قصيرة لا يتصل طرفهـــا بطرفه فيبدو شيء من الكشح بينهما ولها مشية ينكشف بها الساق ، واذا ساعدها الهواء ، تنكشف الركبة كذلك . ولهـــا لسان لا اثر فيه لما في قدهـــا ومشيها من حسن وبراعة . سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . واسفنا لبذاءة تشينهـــا .

اما تلك العربية التي « تمشي الهوينا مشية البقر » فلم نجدهـــا في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعدك في الانتقال . كنت اظنني في مدينة من مدن المكسيك الجنوبيـــة . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلد اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد

حرها[1] حتى في شهر ايار لا يطاق نهاراً . ولولا انه جاف لما كانت باجل[2] ، ولما كان في ذا القاع اهله .

استقبلنا بعض رجال القائد العام فأنزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظهر في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ . فضلاً عن شيء في اخلاق الشوافع ، عن شيء من الكياسة بل الاخاء ، يمتازون به عن سواهم . تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز ، فأبهجنا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة . ولكننا في تهامة ، فلا عجب اذا نضج في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعاء وزهراً في لبنان .

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها ، فسلم واعتذر . هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلدة لينام . سألنا عن السياسة الاوروبية ، وعن الانكليز ، وعن مصر والهند ، سؤالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران ، بخلاف المألوف ، الى شيء من الحكمة والذوق . فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً ، دون رأي خاص يبديه . ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً . فعلمنا من حديثه ان القُحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي سردود ووادي سهام ، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن شد الشوافع بأساً واكرمهم خلقاً . وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي

(١) في ٢٤ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة فارنهيت .
(٢) باجل على مسير ثلاثين ميلاً من البحر .

يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن . فها هم في البيت تحتنا ، عشرون رجـــلًا ، وفيهم العبيد ، من الزرانيق . سمعناهم في الليل يجوّدون ، وينقرون الدف وينشدون . وما سمعنا من فم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً . سمعنا كذلك « الزامل » في البـلد لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام . فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت . وقد تأكدت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و « يتعسكرون » عنـد السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساءني في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما سمعنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقمنا في باجل وسافرنا مساء اليوم التالي . لا سفر في تهامة نهاراً لمثلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاء ، ما خفنا في طرق الجبـال الوعرة الموحشة خوفنا فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة تطأ الدابة حجراً فتعثر ارى وهدة انفتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان اسراءنا كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والربى ، فما اطمأن ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فتسلم على اطياف تمر بها ، والامن والظلام رفيقان ملازمان . انه ليطمئنك مثل هـــذا الامن نهاراً في اليمن وعسير فكيف به ليـــلًا ؟ وكيف به في بلدين متحاربين ؟ مهما قيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدنون ، يحترمون حقوق الناس ويحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القارىء في طريق التجارة بين البلدين فتيقنت ولا شك ان في هذا الشعب الماجد

الباسل من الحكمة والشرف وكرم الخلق والذوق ما لا يظن مثله في مثله .

وصلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطسّم فاسترحنا فيها ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلّ الهـــلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل . وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية تتخللهـا السبخة بين احراج من الشَّوْرى ، ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور والنار . ولكننا عندما دنونا من البحر شممنا رائحـــة الملح واحسسنا بالرطوبة في الهواء ، فاستعذبنا الاثنين .

البحر ! ذاك الخط الازرق على الافق امامنا ، ذاك العلم الازرق على ساحل العزلة العربية ، ذلك الطريق الى الاهل ، الى الاوطان ، الى المدنية ، وفيه الامل الكبير بالعود الى الحيـاة والجهاد . البحر ! ان ألطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامة وابهج ما شاهدته آنئذ العين انما هو البحر .

السيد الادريسي

الحديدة

الاشباح – قصر الوكالة البريطانية – احتلالنا القصر – ضرب الحديدة من البحر – خرائب الحرب – القنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتعويض – فريسة الحرب وفريسة السياسة – الاستفتاء – « نبغي الترك » – « نبغي الانضمام الى مصر » – دخول الادريسي – القرض المالي – تأديب التجار – الزرانيق – التفرد والتفكك في الاحكام – بيت الفقيه – بيت بخمسة بيوت وخمسة رؤوس – من من الامامين يستحق الحديدة .

هوذا شبح الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خرائب فرنسا في الشمال جاء يلاقينا في الحديدة . هو اول من حيّا صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء . ثم تبعنا كالظل ، وما توارى عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية . فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسينا كما ينسى العابر شحاذاً في الطريق . نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين وكيل بريطانيا العظمى في الحديدة وسفيرها الى السيد الادريسي .

صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة ذات اقفال ضخمة ، كانت مملوءة في الماضي بالصكوك والاوراق ، وبالذهب والفضة . هوذا شبح آخر يحيينا صامتاً ، شبح القوة وراء العروش ، وفي الحروب والجيوش ، شبح المال . انما نحن في دائرة البنك العثماني ، ولم يبق منه غير هذه الصناديق الفارغة وبعض المواعين المكسرة .

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب من خشب الهند فخم كبير ، نقشه يبهر الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين الهندية والطنافس العجمية ، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والايات القرآنية . وفي سقفها العالي من صناعة النقش بالدهان ما يحيّر شكلاً ولوناً ودقة غواة الفن . والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تحجبها شعرية من الخشب الهندي ، كانت مُعدة للحريم يطللن منها على القاعة تحتهن في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب . وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ، شبح الثراء والجاه ، شبح القصف والترف ، شبح السرور واللذات .

كان القصر الذي دخلناه لاكبر الاغنياء في الحديدة ، بناه لعينه وقلبه ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته . فصار بعد موته اجاراً للبنك العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية . وها نحن اقتداء بالانكليز نحتل قسماً منه . فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما ان ننزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر . ومن ساح مثلنا في اليمن قلما يسيء الاختيار وقلما يستحي بذلك . قلنا نحدث انفسنا : من المؤكد ان ليس في الحديده كلها مثل هذا القصر . ثم خاطبنا صاحبه قائلين ، ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا . فرحّب ثانية بنا واصبحنا من تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعيماً ليس من جاء من الجبال فقط بل من يجيء من وراء البحار .

عجبنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرآة بعد غيبة طويلة . فاننا كنا ، بعد شهرين فطمنا عن الشعر المشط والمقراض ، كابناء عسير في رؤوسنا وكالروس البلشفيك في لحانا .

ولكنه ، أمر اولاً باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد الينا شيئاً من الرونق في الاقل .

وكانت باسم الله بداءة احتلال دام شهراً فقط ، وبداءة صداقة لا تقاس بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه . اما الاشباح فكنا محاطين دائماً بها . شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان . وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه . وشبح اللذات كان يحف بنا ويرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات يسودنا فيها ما يسود الرجال . الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول . قد هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في العقول ، من فسادها في النفوس والقلوب ، من سمومها في الامم المتمدنة . وها هو شبحها في الحديدة يذكرنا بها ويرينا شيئاً منها .

ضُربت هذه البلدة من البحر مرتين ، الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آلنبي على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدة جزءاً من الهجوم العام . وكان قنصل الانكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع ، وكانت دار القنصلية بامر القنصل ، الهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعائه اوراقاً سرية . ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء . قيل ان القنصل دمر بيته ، أمر بتدميره لان فرشاً شاء حرقه طمعاً بالتعويض . وقد دفعت له الحكومة بعدئذ اضعاف قيمته تعويضاً . هذا شبح الحرب واثر من افسادها في الاخلاق .

وفي الحديدة واهلها غيره من الآثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع

به كل يوم . ميل في الناس ولا حجة ، أمل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا قصد ولا حسن نيـــة . وبنايات في المدينـة ولا سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافـذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وبين في بيوت ذهبت القنابل بحياة اهلها ، وحزن تحت سقوف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة . أضف الى هذا كله ما قد يكون السبب في ذلك كله اي صورة حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز .

الحديدة التي كانت من اجمل البلدان العربية على البحر واكبرهـــا تجارة . هي اليوم مجردة عن الاثنـــين . فريسة الحرب هي وفريسة السياسة ترى نفسها بين عوامل سياسية ودينية تتجاذبها وتتقاسم ما تبقى فيها من حيـــاة ومن امل . اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها، ولكن التحاسد بينهم يفوق الحب والاخلاص . فلا تركن الى احد منهم ، بل هي تخشى اذا مـــا اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ، وهناك الشر الاكبر ، وهناك الفوضى.

اما الشوافع فيها فهم لا يميلون الى الامام ولكنهم لا يرون في حكم السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتها وبهائها . وحضرة السيد لا يقدم على عمل سياسي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انها ستكون دائماً في حوزته . والانكليز لا يتدخلون في غير ما فيه حفظ الامن والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر . فهي بيدهم الورقة المجهولة في الصفقة الاخيرة، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع الامامين .

وهناك فئة من التجار يبغون امام الزيود . فهم لا يرضون لا بالسيد ولا بالانكليز ، لانهم لم ينالوا من احدهما غرشاً واحداً تعويض مـــا خربته مدافع الاسطول . وتراهم ، اذا ذكروا التعويضات ، يعودون دائما الى قصة القنصل الذي هدم بيته حباً بها . على ان الانكليز يتملصون من دفعها الى الاهالي بقولهم ان ذلك متوجب على صاحب الحديدة ، وقد اهدوه المدينة ، حبـــاً به او نكاية بالامام على السواء . ولكن صاحب الحديدة يبغي مع الهدية شيئاً من اسباب الحكم الاولى ، شيئا من المال . فمن اين يجيء به ليدفع بعض التعويضات عن الانكليز . وهو لا يجمع من اهلها زكاة ما يكفي لادارة شؤونها .

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً . فان ادارة الحديدة في يد خمسة من الحكام اولهم اسماً عامل السيد واخرهم رسماً الوكيل السياسي وبين الاثنين مدير الجمرك ومدير الشرطة ورئيس المينـــا يشاركونهما المسؤولية ووجع الرأس . الا ان الوجع الاشد هو في العـــاصمة في جيزان . لذلك فوجئت الحديدة ذات يوم بارادة ادريسية محورهـــا قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تُعطى به صكوك على الجمرك . فجس العامل والوكيل نبض البـــلد واشار بنصف القيمة . فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا . وما كان السبب في ذلك غير الخوف وعدم الثقة . فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذن ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من الملوم ؟ الحالة السياسية وحدها ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديدة وفي جيزان .

وبين جيزان وعدن وصنعاء قلب مدينة يحترق وكيس مدينة يئن .

قلت ان الحديدة تخشى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منهـــا الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد وانزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن النـــاس انها بداية الاحتلال فسر" التجار بذلك خصوصاً" الهنود منهم . وبعد ذلك — بعد ان غيرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدة ومنهم صاحب التعويضات الذي مر" ذكره ، وكلهم في الحمق والتصلف واحد ، غيّر التجار والاهالي رأيهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوريون مرة . من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا : بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل . فقالوا : نبغي اذن الحكومة المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتمد في عدن يمثل آخر فصل من روايـــة الاستفتاء فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدة أمر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في تلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طابور من العساكر الادريسية ، فختمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذاك الحين . ليست هـذه النتيجة الواحدة لذاك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بميلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه التجار الخمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، واشار عليهم ان يزوروا حضرة السيد في جيزان . فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ، وبينا هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ،

وكانت الركائب حاضرة، فاركبوهم وساقوهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام من الحديدة ، فأنزلوا في القلعة وظلوا سبعة اشهر اسراء فيها ثم اعلموا بذنبهم وبالجزاء فدفع من يستطيع الجزاء مالاً وقدم الاخرون ابناءهم رهائن « المحسوبية » والاخلاص. اما حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما يمس بكرامتهم الشخصية عدلهم في غيرها من الشؤون ؟!

لا عجب اذا كانت الحديدة تخشى الاستفتاء اذن ، وتخشى اظهار ميلها الا سراً وهمساً في بعض الاحايين . واذا فعلت تقع على ما اظن في شرك الفوضى وما يتبعهـا من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير . اما الانكليز فالعرب لا يبغونهم محتلين ، لا يبغونهم على الاطلاق . ولو لم يكن الوكيل السياسي مسلماً لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته ومسؤولياتها . اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديدة اليه ، فيضربهم السيد ويستنفر عليهم الصحراء ، وقد يغري بهم الزرانيق . واذا قاموا يثبتون حكم السيد فيها ويعلنون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زيوده واما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق .

الزرانيق اكثر القبائل التهامية عداً واشدها بأساً ، واقلها صدقاً ووفاءً . هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأبهون بالانكليز . هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها . بل هم، مثل اشراف ذي الحسن في الحجاز ، قطاعو طرق وقرصان بحر ، يهربون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في سفح جبال اليمن بين الحديدة وزبيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاول الطائف في خور

غليفقه . انهم يقسمون قسمين ، زرانيق الشام اي القسم الشمالي ، وزرانيق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدنو من عشرة الاف بندق ، ثلثاها في زرانيق اليمن .

كان الزرانيق ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلغراف ، وينهبون في البر القوافل وفي البحر السنابيك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودهاء . هم دائماً يمثلون في رواية تهامة السياسة دورين وثلاثة ادوار في وقت واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز ليستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً منهم وذخيرة. ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زبيد. ثم نصر قبيلة القحراء عندما أسرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء سبيلها . فلا عجب اذا مال قسم من الزرانيق الى الامام يحيى اليوم وقسم الى السيد الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم أرونا الرهائن . اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين. جاء عدد من الزرانيق ، خمسة وعشرون ، الى الشيخ محمد طاهر رضوان يقولون للسيد . القبيلة كلها ، ونحن الكافلون ، بشرط واحد. فانخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال . ثم عادوا : الرسالة لا تتم الا بدفعة اخرى . فلم ينخدع القائد ثانية ، فقبض عليهم وأسرهم وقيدهم بالحديد وادعى لغرض سياسي ان الزرانيق كلهم مع السيد — وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرانيق سياسيين دهاة كما ان فيهم لصوصاً عتاة . لما أسر قائد باجل رجالهم قالوا : هؤلاء لصوص تتبرأ القبيلة منهم ،

وانكروا انهم من الزرانيق . ولو كان من مصلحتهم يومئذ ان يحاربوا الادريسي لكان اولئك الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلنون من اجلهم الحرب على امام صبيا وجيزان . ان عند الزرانيق شيئاً كذلك من الشرف ، شرف اللصوص ، ولهـــم الجواسيس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيى مثل ما للحكومات المتمدنة . جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناقمين فيه على السيد وعلى الانكليز ، ان سنبوكين من السلاح أقلعا من الحديدة ووجهتها جيزان ، فاسرع قرصان الزرانيق شمالاً ، فلحقوا بالسنبوكين . قطعوا عليهما البحر ، اطلقوا عليهما الرصاص فقتلوا عسكرهما وعادوا بالسنبوكين غنيمة . ولمـــا افرغوهما علموا ان احدهما ملك نوتيٍ في الحديدة لا ملك الحكومة فاعادوه اليه ! ان لهم حتى في اللصوصية قواعد يحافظون عليها وحقوقاً يحترمونها . واغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة .

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديماً مشهورة بالعلم والصناعة ، هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن . وبيت الفقيـــه حرة مستقلة ذات سيـــادة مطلقة ، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيداً عليها . بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام ، خمسة احياء . لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة مستقلة يحكمه باسم الله وباسم الالف حرّاً مستقلاً شيخٌ لا صلة بينه وبين زملائه ، انـه لا عجب ما كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة . وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب ساداتها ، وبفسق نسائها ، وليست في منسوجاتها

كما كانت في الماضي .

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف . لا يمكننا ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والدسائس الخارجية ، اذ لا اثر لذلك في بيت الفقيه وفي الزرانيق . ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لاكبر العقبات في سبيل القومية الناهضة والوحدة العربية . ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ، هذا الاجرام باسم القومية ، هذه اللصوصية باسم الاستقلال . ليبدأ كل امير في بيته ، فيحكمه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً ، ليحكمه بعدل لا يعرف الرحمة والحنان ، ليحكمه بيد من حديد وبقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن سعود السلطان عبد العزيز . فلا يهم اذ ذاك من يستولي على الحديدة وعندي ان من يستطيع من الامامين ، امام صنعاء وامام صبيا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق ويؤدبهم ويدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدة .

السيد الادريسي

اديان واشجان

العيد – نستقبل المهنئين – معرض من الشعوب – التزاوج المختلط والنسل – لا حياة في الدين – لا دين في الترفض – الهندوس – الفارسي كيس صواب – «ادين بكل الاديان» – الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية – محاورة في سر الوجود والخلود – محمد فضل الدين الصوفي – التقنص – العقل سجن الروح – قصة الحكيم الصيني والفراشة – رموز زائلة لحقائق خالدة – صوفي يؤسس ملكاً في تهامة – الاولياء والتوحيد – وصف حلقة الذكر – الكرامات الشعوذات .

العيد ! وحق لنا ان نعيد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزيود ومع الشوافع ، فقلّ نومنا واكلنا ، وحرمنا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطالت مثل النساك شعورنا ، وكثرت تقشفاتنا واوساخنا . العيد ! نهضت صباح اليوم المبارك فارتديت افخر ما عندي ، قميصاً حجازية بدوية ، و « قدمية » مكية ، وكوفية مزركشة هندية ، وعقالا مقصباً شريفياً ، ونزلت اهنىء مضيفي وصديقي محمد فضل الدين .

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر فرشت بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيه الوكيل المحترم . هو عرشه ساعة الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منه ما حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق . وجدته صباح العيد جالساً على العرش معتماً بعمامة هندية وافرة ، طويلة الذؤابة ، باهرة الالوان ، وبيده سفر انكليزي في الفطريات كان يترجمه الى اللغة الهندستانية .

سلمت وهنأته باسم الله ، فاعجب بقيافتي واشركني في عرشه . ثم

دخلنا في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او برمضان المبارك والنوافل الروحية . ولكنه يتصل باطناً بها كلها . الدكتور محمد فضل الدين رجلان مثل كل ذي فكر وعلم وحجى ، رجل يعرفه الناس والحكومة البريطانية وهو الملازم فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية : ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية .

اما الرجل الاول اي طبيب العيون ووكيل بريطانيا السياسي فنتركه للناس . ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين . ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي . ان لفضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي . اضف الى ذلك انه جبلي . هو من قرية صغيرة في جبال الـ « بنجاب » التي تضاهي بجمالها جمال لبنان .

دخلنا في الموضوع الذي اشرت اليه ، وفيه تتشابه العمائم والتيجان وتضمحل اشكالها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهنىء بالعيد السيد محمد العربي عامل الحديدة ومندوب الادريسي فيها . السيد محمد ابن عم حضرة الامام ولكنه مصري المولد والقيافة والحديث . حلو الشمائل دمث الاخلاق وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حال اهلها فجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئني وشريكي في العرش بالعيد . جاء الحديديون زرافات ووحداناً من موظفين وتجار ، وسوقة وسادة ، ونوتيين وادباء . فيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والايراني ، وفيهم من تعدد المذاهب والاديان الشافعي

والمالـكي والحنفي والزيدي والجعفري والاسماعيلي والماروني[1] والبارسي عابد النار ، والهندوسي عابد البقرة والبوذي عابد اللاشيء في اللانهاية السرمدية . وفيهم من القيافات والازياء العباءة والعقال ، والجبة والعمامة ، والصدرة والسروال ، وقميص النوم والنعل ، والفوطة والعري الوانا واشكالاً . اجل ، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب ، ومعرض اديان ، ومعرض ازياء في الملابس والعري قلما نشاهده في مكان آخر .

تعددت الشعوب في الحديدة ، بل في تهامة ، وامتزج دم السوداني بدم العربي ، ودم الصومالي بدم الهندي ، ودم الجاوي بدم الايراني ، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة . ان صفاء الدم في النسل لاعز ما في الامم . وان حفظ العنصر والنسب مع الرقي العقلي والادبي لاجمل ما في الشعوب . أفلا تتقزز من هذا الشريف الغائر العين؟ الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول ؟ أو تروقك طلعة ذاك السيد صاحب العين اللوزية (جاوية صينية) والانف المفلطح (تكروني دنقلي) واليد العربية الجميـــلة ؟ وهل تسرك رؤية ذاك ، هندي الام ، صومالي الاب ، عربي اللسان اسلامي الدين ، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة ؟ فلا هو مسلم ، ولا هو عربي ، ولا هو صومالي ، ولا هو هندي ، لا في اخلاقه ، ولا في وجهه ولا في ملابسه .

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليغير عقيدته ، لينبذها اذا جاء الحديدة . ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة

---

(١) هو ترجمان قنصل فرنسا في الحديدة .

الواحدة ، خصوصاً في الشرق ، بسيئاته كلها . ولكن الهندي يظل هندياً ، والبارسي يظل بارسياً ، والمسلم يظل مسلماً ، ولو امتزجت في سليلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها .

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائراً احد الهندوس ، اصحاب السراويل الشفافة التي تهف حول الجنبين وتبوح بكل اسرارهما ، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي . ففعلت ، فرفض . ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسماً . والسبب في رفضه فنجان الشاي ؟ ان هذا الهندوسي يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم ، بل من كل مَن لا يعبد البقرة مثله . ولا خجل في فعلته ولا حياء .

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه ، وهي قديمة ولكنها نظيفة ، باليد اليسرى دون اعتناء . ان للمعلم الكبير زرادشت رعية في الحديدة لا يتجاوز عددها الواحد الفرد . وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علماً بدينه الجميل وبحاله . هو خان باهادور الفارسي اصلاً ، الهندي بلداً ، الزرادشتي ديناً ، الانكليزي لساناً ، خان باهادور ، وحديثه كزقزقة العصفور ، فيه تكسير وفيه تنغيم . على رأسه عمارة ابناء قومه شارةُ مذهبه ، وعلى قامته الطويلة الـ « فراك » الاسلامبولي مزروراً تحت الذقن ، وتحته بنطلون افرنجي ابيض عريض ، وعندما يجلس يظهر خلال الـ « فراك » طرف قميص بيضاء تدعى في دينهم «سُدْرا» اي الصراط المستقيم ، وفيها جيب صغير يدعى « كيس صواب » اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكيس فارغ يا مستر امين . لا شيء في «كيس صواب»

— السبب لا شيء . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ

عشرين سنة انا وحدي في الحديدة مقيم بين اناس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون اني اعبد الشمس . ومَن يعبد الشمس في الحديدة ، هذه الشمس الظالمة المحرقة ، من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابناء إله واحد ؟ بدأت اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها في ادارة القهوجي [1] وقد يكون يهتم يا مستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها محصورة بالـ « سدرا » . كنت اشغل فكري بالآخرة ، فأين أدفن مثلًا وليس في هذا البلد برج من ابراج السكينة ؟ [2] في الهند نضطر ان نلبس مثل الهندوس ، ونتكلم لغة الهندوس ، ونطهر « نعمّد » ابناءنا ببول بقر الهندوس . البارسي يا مستر امين يقتبس كل شيء . ها هنا في الحديدة ترى المسلم والبنيان [3] والمسيحي وكان فيها اليهود ، وتراني انا خان باهادور البارسي الوحيد فيها اقتبس كل شيء . ادين بكل الاديان . انا مسلم ويهودي ومسيحي وهندوسي وبارسي ساقط لا ينفع ... الصلاة ؟ اصلي قليلًا . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت للقهوجي وبواخره . أتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والنصارى اخوان لنا ، هم منا . بيننا وبينهم قرابة تتصل بزرادشت وابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل؟ ألا تعرف وانت العالم المطلع على كل شيء ؟ ابراهيم الخليل هو زرادشت بنفسه [4]

---

(١) خان باهادور في الحديدة وكيل شركة بواخر القهوجي بعدن .

(٢) برج السكينة عند البارسيين هو برج عال يضعون فيه موتاهم ليأكلها العقبان.

(٣) هم الهندوس او التجار منهم .

(٤) هذا رأي في ابراهيم الخليل غريب ، وقد سمعت في الهند اغرب منه . اخبرني احد العلماء هناك ان بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .

هو نبينا ونبيكم . اضطُهد في ايران فسافر الى فلسطين . زرادشت هو خليل الله وخليل الله ابراهيم الخليل هو زرادشت . لا تتعجب اذن من قولي اني مع الكل . نعم يا مستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف لاني متمسك بالـ « سُدْرا » . ألبسها كما ترى دائماً ، و « كيس صواب » لا يظل فارغاً دائماً ان شاء الله . عنـدي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم . اسمعه يرددها دائماً . فصرت ارددها مثله : الله كريم . اذا كان صراط خادمي ، الصراط المستقيم فانا معه . واذا كان في ضلال فهذه « سدرتي » يا مستر امين وهـذه كذلك الـ « كُسْتي » . حياتي مضمونة في الآخرة وان كانت في هذه الدنيا لا تساوي مسماراً في باخرة من بواخر القهوجي. الشركة الدينية، لضمان الحيـاة الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

البارسيون يغسلون اولادهم ببول البقر (١) والعـادة هندوسية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهـاد . لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل الـ « كستي » اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان . ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة . وكل ما يحرز البارسي منهـا يضعه في « كيس صواب » ليوم الحساب . كان صديقنا خان باهادور يرينا الكيس ، وهو شارة قدر طابع البريد على قميصه ، ويقول: الكيس كبير يا مستر امين ولكنه فارغ ... الله كريم . خان باهادور

---

(١) عجبت لكسرى واتباعه غسل الوجوه ببول البقر
ابو العلاء المعري

يموت في الحديدة وتأكله العقبان وهو مرمي على شاطىء البحر. ولكن سيصلي من اجله المسلم والهندوسي والمسيحي. وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس صواب. الله كريم. الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية، الله رئيسها يا مستر امين...

كنا انا وفضل الدين نقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم وحديثنا الحياة والاخرة وسر الوجود والخلود. وما احلاها ساعة أنستنا السياسات والمذاهب كلها. ان في شخصية فضل الدين الروحية والعقلية من الادب الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية. بل في عقيدته الاسلامية شيء من الاسرار البوذية والغوامض الهندية ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير. كنت اشعر وهو يتكلم عما يفهمه بالاسلام، دين التوحيد، اني مثله مسلم، وكنا عندما نصل الى ذروة الوحدة الكلية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الالهية فنتأكد اننا واحد في الشك وفي اليقين.

— أتعتقد يا فضل الدين بتكرار التجسد ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة. اما اذا كان في تلك النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة التي نحن فيها.

— يروعني التأمل بحدود الادراك في الانسان، بل يملأني حزناً وغماً. خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام. وراء ذاك الافق يهجرك او تحت هذه المياه. لكن أليس من المحزنات ان يضمحل هذا العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب وبيننا ويعرف اجزاءها والوانها وسرعة

دورانها .

– لا يدهشني ذلك ولا يحزنني . في اضمحلال العقل على ما اظن تتحرر الروح . العقل للروح مثل السجن للجسد . واظن ان الحياة مجردة عن الهيولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري الذي يدور على محوره لا يعرف غير الـ « انا » فيه ، هذه الروح خالدة وتحيا ما وراء الحدود التي تحزنك . واظن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها ، ويوازي قوتها ، فتكشف حقائق في الكون جديدة ، وتتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها ، وادواره البشرية والروحية جميعها . نعم يا عزيزي الريحاني ان العقل في الحياة سجن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتألم من قيوده .

– وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سجناً ؟

– انها تحيا بسبب هذا الانفصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها وفي فلكها عقلاً يديرها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنه الجاذبية في الافلاك .

– ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟

– فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالوهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة

حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الحبور تتنقل من زهرة زكية الى اخرى . وعندمـا استفاق حزن لما شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً بائراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

– جميل ، جميل . ومن يزيل الحيرة من قلب الحكيم ؟ يخيل اليّ يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة وكل حقيقة تتكون تكوّناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكوّن تزداد انتشاراً وقوة وحباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيهاً بها ، ممثلاً لها ، عظيماً في الناس . ويستمر هذا الطي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقـة ، الى ان تجتمع ، بالفيض الاولي ، الفيض الالهي البـاهر . فيكون في ذلك أوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون آخر التجسدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداهة في التجسد والخلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

– ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البصيرة . العقل – اعود الى ما قلت – سجن الروح .

– وما دمنا في السجن لا ارى اصلح من البصيرة غذاءً وهواء . وفي البصـيرة كذلك شيءٌ من الخيـال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

– وما الفرق بين الخيال والاوهام الدينية ؟

– الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد الخادم العبد بالجنة .

– وهل تسميها جنة العبيد – عبيد الاوهام ؟

ـ قد سماها احد مفكري العرب [١] بجنة البله .

ـ اني افضل ان اكون فراشة .

ـ فراشة من النور تجذبها اليها نار الالوهية ولا تحرقها ؟ اني اشاركك في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هو من اولئك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي . أمر عجيب يتلوه في تهامة أمر أعجب . كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً ، الطريقة فيه أساس الحكم ، والحكم أساس الطريقة . ولكن الطرق تفسد التصوف فكيف بها في الاحكام ؟

لعمري ان اجمل الكمالات التي نتمناها محققة في الحياة هي تلك التي تقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال السياسية والاجتماعية والادبية كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردها ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ، يقل الجشع والخداع والوهم في نواحي الحياة . ولكن التصوف اجتهاد شخصي ، ونعمة فردية ، لا تورّث ولا تعلّم ولا تُنشر بالاجازات . ومن الاسف انه لا يبقي منها ، بعد موت صاحبها ، غير الطريقة او الحلقة وخزعبلاتها ، والمشايخ وشعوذاتهم .

قال فضل الدين عندما اهداني الكتاب : الجهل المخيم في هذه البلاد يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجيء المرأة اليّ وهي تشكو من

---

(١) ابو حامد الغزالي.

مرض او ألم فأعالجها فتشفى بفضل «الشيخ احمد» . يجيء البدوي وهو يصرخ من اوجاعه ويصيح .جرني يا شيخ احمد، يا شيخ احمد لا تنسى! يغيظني هذا الاشراك بل هذا الكفر . اكاد أجن منه . قلت مرة لأحد المرضى : رح الى الشيخ احمد يداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من الشيخ احمد الى النبي. فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة . استغيثي بالله: اتكلي على الله وحده..
اما حلقة الذكر فسنشاهدها في الحديدة .

وكان قد توفي فيها يومئذٍ شيخ الطريقة المرغنية [1] فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين واستمرت خمس ساعات . صحبني تلك الليلة الى مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة وكاتب العامل وأحد اصحاب فضل الدين . فجلسنا في منصة في صحن المسجد ، اشرفنا منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الحصر في الايوان وعلى الارض في الفلاة ، ووقف في الابواب وحول الجدران جمع من المتفرجين ، وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابناء الشيخ المتوفّى ومشايخ الطرق الاخرى ، ووسطهم سراج منير وقارىء كان يقرأ ساعة وصولنا المناقب التي تفتتح بها حلقات الذكر .

ان المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون فيها فضائل الفقيد ، فيجيئون بنبذة من سيرة حياته ، ويذكرون بعض كراماته . استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القارىء الوقفة الاخيرة فيها هتف المصلون : آمين . ثم

(١) الطريقة المرغنية لاحمد المرغني الذي اخذها عن احمد بن ادريس ، منتشرة في عسير وعدن والسودان.

ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيد الابر فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي متضجراً . قال مدير الشرطة وهو يمسح العرق عن جبينه : طويلة ، والله طويلة . الشيخ يحتاج الى الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء لا يملون اسماع قوافيهم . هوذا آخر لا حسنة حتى في صوته . ولا حيق جعلنا نترحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ، آمين . وكان الحرّ شديداً ، والهواء ساكتاً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ، فينعش قوانا ، والرطوبة اثقل ما فيه ، واللزوجة افجع قوافيه . فاستجرنا منه بروح الشيخ الطاهرة، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكتة الشعراء ، ومنطقة الاولياء ، يا مسكّنة النهقات ، ومحرّكة الحلقات ، اسمعينا ، ارحمينا ، آمين .

استجيبت في الحال طلبتنا ، فوقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادىء واشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا إله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الوراء ، وراحت تكررها وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمئة مصلياً ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة مجلياً ، وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان سرعة وهياجاً عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يمناه ، وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرضاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح البصر ثم امست كأنها تصيح : لله لله لله ، وسكتت فجأة كمن أغمي عليه . ثم عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة :

لا إله الا الله . وجلس الشيخ . فقام آخر يثب وثباً ويقول : حيٌّمْ قيم (١) . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حيٌّمْ قيُّمْ ! وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحــاً في الجو ، واستمرت في حيٌّمْ قيٌّمْ نصف ساعة والشيخ يثب وسطها ويحلج ، وصفق كفاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض فتى لا يتجاوز الثانية عشر سناً ، هو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص تارة ويثب طوراً كالمجنون . مثّل الفتى دوره تمثيـلًا ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدهشاتها واضحكهم كذلك . كهرب الفتى الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشدها ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات وصرنا لا نفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين . كأن الاربعمئة رجل اصيبوا بألم شديد فأنوا أنة واحدة . وبدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذاك وقـد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط فسقط صريعاً مغمى عليه. وهاك من يبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه فتفلت منهما وضربهما ، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمتها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ . سقط امام الفتى الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل عليها من فمه ، فوثب فوقه

(١) اي الحي القيوم .

ولم يأبه له . وهذا آخر يخلع ثيابه .

« خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ

خلاعـــة مسروراً بخلعي وخلعتي »

رمى بعمامته وبجبته وبدثاره الى الارض . فاوقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطـــاهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كليمة ابي حنيفة ، يا مسكنة العباد ، ومنطقة الجماد ، يا ربة الحال ، وسراج الترحال ، قفي ، والطفي ، لا تقتلينا بالكرامات ، ولا تسكرينا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطرق والحلقات ، آمين ، آمين .

احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي—مولد السيد احمد — يدرس ويدّرس في فاس — اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي— العلم بالغيب وما يدعى عند الافرنج Clairvoyance — اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الدباغ — اجتماع الدباغ بالخضر ابي العباس — الطريقة الاحمدية — « امرنا كله جد . من يُعط الجد يُعطِ الجد » — السيد احمد في مكة — رحلته في تهامة — انتشار الدعوة — وفاته في صبيا — تلميذ الشيخ ابراهيم الرشيد — الطريقة الرشيدية وترهاتها —آيات صوفية — فلسفة الزهد والفقر — الامام علي وقطب الجان القفائي — المجيدري يأخذ عن قطب الجان والسيد احمد عن المجيدري — محامد وصلوات ونقمات — استعارات صوفية — السالكون والمشعوذون .

كتبت عند وصولي الى الحديدة كتاباً الى السيد محمد امام صّبيا وجيزان استأذنه بزيارته ، وبت انتظر الجواب . وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيّد ستة ايام فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة التقديس ، السيد احمد بن ادريس ، كبير بيت الادارسة ومؤسس ملكهم في عسير . وفزت بطرفة من ترجمة حياته ، وبنفحة من قدسياته ، فجئت امتع القارىء بها علّه اذا كان مادياً يستفيد ، واذا كان روحياً يستزيد .

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب . والسيد احمد ، نور من انوار الثاني . فقد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب . وُلد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمال فاس في

السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الالف (١٧٥٨ م) وهو شريف حسني من السادات الادارسة المشهورين في بلاد المغرب . درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي في المواضيع التي شاءت العزة السرمدية تلقينه اياها بالوسائط وبدونها .

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشراقه على الاسرار الالهية والكونية يكثر الترداد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسن في الموحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هذه الارواح القدسية وكمالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بوساطة عالم من علماء شنقيط يدعى المُجَيْدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة الالطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته يفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكلية الازلية . اني اتصور المُجَيْدري يقول للتازي : هذا الشاب الادريسي مجد مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في بادىء امره يدرّس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنت الساعة يا مجيدري ، ايتني به فاجمعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ

عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول، هاهنا سراج الطريق . فلازمه وانقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخترق استرة الغيب فيرى ما لا يُرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها العلماء بالكشف [1] . منها انه عرف وهو في فاس بموت الجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب تعليلاً لطيفاً جديراً بالذكر ان المربي او الوساطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات الحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حيا في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى الله وتارة ابعد » . اما اذا رآه على حال واحدة في المكان الذي يعهده فيه فيستنتج من ذلك انه مات . أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقاً ؟ هو ما دام حياً متقلب ، او بالحري يتنازعه دائماً عاملان ، عامل الخير فيقربه من الله وعامل الشر فيبعده عنه . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الوساطة الاولى . اما الثانية وهي بشرية كذلك ، فتجمعه بالخضر ابي العباس . الا انه قبل ان نصل الى الخضر لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي . نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس . وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ست وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشرة سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الآن

(١) Clairvoyance

كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحايين ارتزاقاً . فمرّ يوماً بالدباغ وهو يريـد ان يتجر في الحنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب واتجر في السمن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحاً كثيراً . فجاء اليه شاكراً . فقـــال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجـــارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فتصدق به . فعمل بامره ولزمه منذ ذلك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها بوساطته من الخضر ابي العباس . وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران ضريحه وينشدان هناك الاشعار .

لقد نبتت في القلب منكم محبة كما نبتت في الراحتين الاصابع

....

تعشقتكم طفـــلاً ولم ادر ما الهوى

فشاب عذاري والهوى فيكم طفل

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله فمات ولده فأخبر بذلك ، فارسل الى اهـــله يقول : لا تدفنوه حتى احضر . فحضر بعد ثلاثة ايام فخاطب ابنه قائلاً : من قال لك تموت؟ قم باذن الله . فقام الولد حياً . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليهـــا يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عـــادي مألوف . واني ناقل الخبر حباً بنشر ما اظنه ظلاً إلهياً لحقيقة كلية لا بد في مستقبل الانسان

والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العـــامة يستخدمها صاحبها لخير الناس . يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل . فاذا مرض احد في بيتك تقول له : من قال لك تمرض . اشف باذن الله تعـــالى فيشفى في الحال . وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول مثـــلًا : وددنا لو جاءنا احد بثمر من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول بعض اصحابه : كبر سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له من بنانه ، كان ينهض فيتهيأ ويتزود للسفر ويجيء الى شيخه فيقبل يده مودعاً ويقول : سأجيء لـك بعنب من البحر . فيقول له التازي سراً في اذنه : يا احمد أمرنا كله جد ، من ُيعطِ الجد ُيعط الجد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء بها الى مصر . من ُيعطِ الجد يعط الجد . كان يومئـذ في العقد الرابع من العمر ، فاقام في ارض الكنانة قليـــلاً ثم سافر الى مكة فاقام فيهـــا ثلاثين سنة يجادل ويناقش العلماء ، ويشرح ويعلم العلوم الروحية . وكان يقول دائماً ، لكل نبي دعوة مجابة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخـــلاف بين السالكين من سنيين وشيعيين واهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذاك الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمـــد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها . فتقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقة عند وليه طلبة مقبولة ، ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرىء عند السالك مثلهـــا الخ . هذا نظام في العقيدة والايمان يفسد غالباً الغرض السامي منهما . قد رأينا مثالاً منـــه في حلقة الذكر . وهناك

امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء والى المشايخ ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كان من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكني اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره — اللهم اذا كان مجداً مخلصاً — الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد بن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبة المشايخ العلماء يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية : لم يبق على وجه الارض احد تنتفع منه الا القرآن. فقضى بعد ذلك سنين عديدة لا يشتغل بغير الكتاب ودرس حقائق معانيه. . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته المأثورة : طريقي سُم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجمل . طريقتي ما فيها كون [1] القدم الاول ها هنا والثاني عند الله . هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه وبين النبي كما تبين وساطتان بشريتان هما التازي والدباغ وثالثة روحية هي الخضر ابو العباس . والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الوساطة بينه (ص) وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به ويأخذ عنه في اليقظة وفي المنام . وكذلك السيد احمد ، فقد استغنى رويداً رويداً عن الوسائط كلها ، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين ، وصار في آخر امره—ويصح ان نقول في بداءته — يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام .

قال السيد احمد : اجتمعت بالنبي اجتماعاً صورياً ومعه الخضر فأمره

---

(١) يريد بالكون الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولاحقاً .

النبي ان يلقنني اوراد الطريقة الشاذلية [1] فتلقنتها بحضرته (ص) ثم لقنني بأمر من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات. ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الخضر وصار يكلمه بدون وساطة : يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص [2] والصلاة العظيمية [3] والاستغفار الكبير [4] . المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة . وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير : خزنتها لك يا احمد ما سبقك اليها احد . علمها اصحابك ليسبقوا بها الاوائل .

لعمري ان من يتجه بكل قواه العقلية والقلبية والروحية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر

. . . .

(١) قد سمى السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في تهامة وعسير . اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادعية مسلك الشاذليين . وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية تتصل بوساطة شيوخ بني ناصر في المغرب بالشاذلي . وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسمون بها الا العلماء .

(٢) اي لا إله الا الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

(٣) منها : اللهم اني اسألك ... ان تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم ... صلاة دائمة بدوام الله العظيم ، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، يقظة ومناماً ، واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم – كتاب الاحزاب والاوراد .

(٤) منه : استغفر الله العظيم .. واتوب اليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والآثام.. من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عددها ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم ..، كما ينبغي لجمال وجه ربنا وجماله . كتاب الاحزاب والاوراد .

بالنبي ، ويقرأ ويردد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمية » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصورها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فأراها بالعين المجردة كما أراها بعين الروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، يقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتدأ بالتازي معلماً وانتهى بمحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه . هوذا الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة.

اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيهما الباع الطويل على الاخص في علمي القرآن والحديث « رواية ودراية » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والتقاليد ، ما رُوي منها وما ادركته البداهة واقره العقل . واني ازيدك من كلام كاتب الترجمة ما لا غلو فيه ولا مبالغة « قد خصّه الله بالمواهب المحمدية والعلوم اللدنية [1] والاجتماعية الصورية » . كل هذا صحيح شريف . واشرف ما فيه تخلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امراً يختص بعلوم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة التي أجله عنها . ولكنه استحال عليّ فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فيرى ويسمع ما وراء

(١) العلوم اللدنية التي هي من لدنه تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بوساطة بشرية او روحية .

المحسوس والمظنون . بل كان اذا سئل عن شيء في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم يشرع يفسر بما شاء من العلوم الدينية واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه ثم يتكلم بما يبهر العقول . فما الصلة يا ترى بين كفه وتلك العلوم والاسرار ؟حبذا لو اذن الشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن من اماطة النقاب عن هـذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم يأذن للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له : لا تخربها يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد احمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحج بالسيد احمد الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد اعجب جداً بالسيد احمد ولزمه مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليـوم جامعـة بين الادريسية والشاذلية ، ولكنها تدعى محمدية لاتصالها بوساطة الادريسي فالتازي فالدباغ فالخضر بالنبي . وقـد عادت الى المغرب بوساطة السنوسي ، وسارت الى افريقيا بوساطة محمد المجذوب السواكني ، احد اولياء السودان «الشهير في وقته بين الخلائق ، بالكشف الصادق ، والكرامات الخوارق» . فقد صحب السيد احمد مدة طويلة واخذ الطريق عنه .

ثم اتجه القلب الى اليمين ، فبعث الله منها احد السادة ، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خيراً من مكة لمن يروم الصيد ، صيد القلوب ، التي تحوم كلها هناك . جاء السيد عبدالرحمن بن سليمان الاهدل مفتي زبيد في عصره فالفى فيها السيد احمد «كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم» ولما عاد الى وطنـه حدّث في زبيـد عن شيخه الادريسي وأثنى عليه كثيراً . ثم كتب ترجمتـه في كتاب دعـاه « النفس اليماني والروح

الريحاني » وبينا هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته – بذكر الصالحين تتنزل الرحمات – هزهم الشوق اليه ، ومثلهم الوجد بين يديه ، فقال السيد الاهدل : هـذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : أرخو اليـوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئـذ ان حرك الله داعي السفر في قلب السيد احمد ثم أمر به فخرج يبغي مريديه يوم هاجم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كان اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبد الرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته ، داعياً الى طريقته، ناشراً ما منحه الله من اسرار الكتاب والسنة . وكان حيثما نزل محترماً مبجلاً ، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعز ووصاب ، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنيرون بمشكاته وينتفعون ببركاته . بل كان العلماء والمشايخ له سامعين، وعنه آخذين ، وكانت زبيد نقطة دائرة آماله . اقام اول مرة فيهـا عشرين يوماً ، وعاد بعد ان طاف في تهامة اليهاء فاقام فيها بضعة اشهر،فاخذ الناس يتسابقون الى اقتبال دعوته ونشر طريقته ، التي أجازهـا للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة «في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتها في بيت الاهدال الى اليوم .

مما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البـلاد كانت منذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . فقد كان اهلها متيقظين، وفي العلم راغبين. فكان الشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، واليـوم لا تجد في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . أنلوم الترك الذين حكموا بعدئذ البلاد ، ام نلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس.

اني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومُراوَغه وباجل ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفيه ، وفاتحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صبيا بكم فغدت موردًا للعلم والنزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلت قدراً على زحل

ان آخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صبيا مدة السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتنم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منها التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركبة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب هي السنة الثالثة والخمسين والمئتين والف (١٨٣٧ م) .

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى شيخ صبيا ووليها ، واوسخهم قدماً في علومه واسراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما ينفي ذلك . حلقة حضرناها في عدن فيها ولدان ينغمون ، ورجال يطيبون ويتصابون ، وصفوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون ترنو الى القمر في السماء ثم الى الاقمار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل بل التمثيل . انه في تعليم الولدان لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود ، فيستصبي في اذكارهم الجلمود ، ويغرس في الحلقة سر الوجود — خاتمة المحامد والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني أجل السيد احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه

الشريفة الطاهرة منها .

حققني يا إلهي بانسانيتي حتى اكون انسان العين الكلية الالهية التي لا يحصرها شيء ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعني غاية لذيذ خطابك ومحادثتك في كل حال من احوالي بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذاك السماع الالهي لحظة ولا اقل من ذلك .

واجعلني يا إلهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

وتجلَّ لي يا إلهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الخفية الالهية كلها حتى اعطي كل مرتبة الهية حقها في نفسي .

وتجلَّ لي يا إلهي بسر توحيد الذات المطلسم في آية الانانية المرسومة: انا الله لا إله الا انا فاعبدني .

وتجل لي يا الهي يا ذا الجلال والاكرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي دائماً ابداً سرمداً . . . منزهة ان يلحق بها او تقرب منها لذة في جميع الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لهام بعضه ببعض ، من غير ان تفارقني تلك اللذة لحظة ولا اقل منها حتى اكون حقاً الهياً في نفسي (١) .

من اين للعامة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون ان يدركوا مثل هذه الروحيات ، ويتذوقوا مثل هذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يتفهموا معاني شيخهم الاكبر في « الاستواء الجامع لمراتب الحقيقة الالهية » وفي « آية الانانية الموسوية » و « بسر توحيد الذات » و « بانسان

(١) كتاب الاحزاب والاوراد .

العين الكلية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والتشوقات لفروا من الحلقات هاربين ، وراحوا افراداً ساكتين قانتين سالكين . ان بشراً يصبو الى قلب الالهيات بل الى ذروتها ويبتغي ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطيها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، لكنه قد يضر كثيراً في ما يقام له بعد موته من التكيات وما يسود باسمه من الجربزات .

اجل ، وقد يضر اشد الضرر بفلسفة في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للامم والشعوب الا اذا عمتهم اجمعين . ولعمري انها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمة ويمناً . بعرق جبينك تأكل خبزك . انها لحقيقة اقتصادية والهية معاً . ولكني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدي مقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة وحرفتي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة « كيمياء اليقين » كما فعل سيدي الابر احمد بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجيء بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادر والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ، فاظلم امة كاملة بحديث من الاحاديث النبوية : — لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فمه .

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها امة جمعاء . اني اذا اخترت لنفسي الفقر والزهد

اخطىء اذا استخلصت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلًا يتمثلون به فكيف بي اذا قصصت تعزيزاً لطريقتي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في المسجد ويلزمه دائماً ليل نهـــار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له : من ملك السماوات . فقـال : وهل يدلي لك بالقفة ؟ فاجاب نعم . فاخذه الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامـام وخادمتها وامامهما اكلة طيبة همتا باكلها ، فطرق الباب طارق فخبأت الاكل في البئر . دلته بسلة فوقعت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كنز المؤمن ربه . قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده ... ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب لله . ها هنا قلب الجمود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والخمول في معظم المسلمين .

ولكن في هـذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب « الاحزاب والاوراد » ، غير رسالة « كيمياء اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المبتكر الانظار ، ويفكه فحواها الابرار والتجار ، ويساعد كذلك من يبغي في الصوفية والزهد مسلكاً صالحاً قوياً — ان فيه كذلك « الحزب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرّفتك تعريفاً سطحياً بالجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع « سيدنا احمد بمولانا عبد الوهاب التازي » . وازيدك الآن به علماً . يظهر ان روحية الجيدري كانت مزدوجة اي مركبة من روحيتي الانس والجن . ويظهر انه كان يبـاري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب يقظة ومناماً . فاجتمع هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقاً لسيدنا علي رضي الله عنه . من المعلوم في التاريخ ان علياً

حارب الجن وغلبهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجان القفائي الذي كان لعلي كالخضر لابي العباس للنبي . هو القفائي الشهير الذي اجتمع به المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد . اللهم افتح لنا .

ان الفرق بين هذا الحزب وغيره من الاحزاب يحملنا على تفضيل الخضر في الرواية والحديث . بل فيه ما يحط من قدر الانس والجن وساطة ولا يزيد الامام علياً والسيد الادريسي رفعة وفضلاً . فيه من مرادفات الادعية والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، مـــا تجده في غيره من الصلوات . وفيه من التسخط والغضب على الاعداء والاستغاثة بالله عليهم ما يروعك ويزعزع فيك لاول وهلة الايمان بالصالحين الابرار . ولكنك اذا تبصرت قليلاً يطمئن بالك وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب . خذني بحلمك في ما ستسمع . ان من يستحسن شيئاً ليرغب فيه . فلو كان السياسي او التاجر او الجندي او الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات سيدي احمد لقلت : كفر بالله . ولكن المجنون بالحقيقة الكلية ، المجذوب اليها بجمعيته ، ومن صح ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وسمت اشواقه ، وتنزهت عن اللؤم والجشع والانانية والكبرياء والنفاق اعماله ، وكان مجاهداً في سبيل الفضائل الروحانية والخلقية كلها ، ان هذا الرجل يشتهي ان يطهر العالم والناس من اضدادها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان والشرف وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله

وان يسأله تعالى – وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين – ان يباعد بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك : اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم تدميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لاتقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجلة لخواصك المقربين وعباذك الصالحين ... اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك نرجو ولاية الاحباء والاولياء والقرباء امين .[1]

هذا في كتاب الاحزاب ، ويتلوه من المحامد ما لا يضاهي ورعاً وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمدة الثانية وهي جامعة مستوفية وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمدلله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم .

ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللهجة في حالاته كلها فقد كانت له فترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الحبور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصيص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى مما هو معلوم محسوس . اجل ، وقفَ مرة في « كنف الله وجواره » يعدد مثل ايوب الصديق المصائب والآفات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والباسور ، ولا استثنى

(١) كتاب الاحزاب والاوراد

وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن المجيدري عن قطب الجان القفائي عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

ولكنت وقفت ها هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين المحققين من اهل العمل » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في كلامـــه عن حزب آخر [١] : ان المثابرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغتني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والاحزاب بالغفرانات عند المسيحيين . انها والحق يقال لآفات التقوى وسيئات الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمة ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .

لولا لطفك بحجبك النورانية لاحترقت صور الكون كلها .

ان دون الله عزّ وجل سبعين حجاباً من نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب الا زهقت .

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهمست اسرارها همساً في الاكوان .

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك

---

(١) الحزب المغني لسيدي اويس القرني. ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

والمراسلين وطاشت بجماله ألباب ملائكته الكروبيين ، وانعدمت فيه معارف اوليائك واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتحير الكل في الكل ... ان تخرجني من شهود كل شيء سواك ... فتتفجر ارض طبعي كلها عيوناً عشيقة ... هنا وهناك ... وراء الوراء بلا وراء ودون الدون بلا دون .

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية اذا فاز بها السالك المالك ، هنا وهنالك .

السيد الادريسي

الادراسة في عسير

الرسالة الروحية – الحكم في عسير ايام ابراهيم باشا المصري – انتشار الوهابية – ثورة الاهالي على الحكم المصري الحجازي– انتشار الطريقة الاحمدية – خروج المصريين من البلاد – حكم الشريف حسين – رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ – امام صنعاء والاساكل البحرية – الادارسة واشراف ابي عريش – زيارة الامام في صبيا – الادارسة في مصر والسودان – التزوج بالجواري العبيد – فساد الدم والملك – السيد محمد الكبير – اخلاقه – مصادر قوته – معاهدته مع الانكليز – احترابه واعداؤه – الترك والزيود – ما كسبه بعد الحرب – الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فيهما – علي بن محمد الادريسي – شجرة بيت ادريس ،

واجعلني يا الهي لك عبداً محضا عبودية خالصة
لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

احمد بن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧ م في صبيا . فكفّن بكفن التقديس وشيع الى القبر ولياً . لم يبغ السيادة على احد من الناس . ولم يحلم على ما اظن واعتقد بملك عالمي ادريسي . ولكن من ضريحه ، وقد امسى مقاماً ومزاراً ، مُدت يد السيادة وهي تحمل رسالة طالما سمعها العرب : خصوصا البدو منهم ، واذعنوا لها . ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم يفطنون . يموت الرجل الصالح الابر الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، ويؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك عربي

جديد .

كانت تهامة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكم مضطرب لا تركياً يُعرف ولا مصرياً . ومع ان البلاد ، من القنفذة حتى المخا ، كانت في حوزة ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦ م باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر نافرين منه ثائرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصريين والحجازيين ان كثيرين منهم ، اقتداء بزعيمهم ابي نقطة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقد كان انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية. بالمقاومة التي تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات . وقد فازت السيادة الروحية المغربية نهائياً على السيادة الوهابية . ولا سيما لان « توهيب » الناس يومئذٍ في تهامة لم يكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريفي الذي كان يوماً تركياً ، ويوماً مصرياً ، ويوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندما قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠ م كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد المصريين في حملاتهم على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي من اشراف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقا في حوزته وجزءاً من بلاده . فاتفق محمد علي باشا يومئذ مع اقدر الثلاثة وادهاهم وهو الشريف

حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً . وفي سياسته مراوغاً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وباخراج الانكليز من عدن . فنشبت بينه وبين امام صنعاء حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة في يد الزيود اسيراً ، وبسط بعدئذٍ سيادته على اساكل تهامة كلها حتى المخا ، فأنّ من جوره ومظالمه الناس .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدة واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد الى مقره في ابي عريش .

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الحديدة من الشريف حسين . وكان الانكليز يومئذ كما هم اليوم متذبذبين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال .

نزل توفيق باشا في الحديدة ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في فصل سابق . وقد كان اليمن الاعلى اهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء ، فعادت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً الاتراك ولا اشراف ابي عريش ، فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكماً روحياً بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالاً وجنوباً في البلاد .

جاء الناس من تهامة وعسير ومن اليمن يزورون المقام في صبيا ويتبركون . وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقيماً هناك تتنازعه

عوامل الدنيا ونوافل الدين . ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجاً سيد الاقوام ، فسرت في مجاري القدسيات السياسة ، وشرع ابنـاء ادريس يناهضون سراً وعلناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم . ثم حاولوا بوساطة العشائر ، ابناء الطريقة الاحمديـــة الجديدة ، ان يتغلبوا على الأتراك فــلم يفلحوا في بادىء الأمر . ولكنهم استمروا يستثمرون تلــك السيادة الأرثية التي اصبحوا بسببها اثبت قدماً ، وابعد نفوذاً ، واوسع جاهاً من سائر اعدائهم في البلاد . وقد تجاوز ذاك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب .

جاء ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن اذريس مهاجراً من بلاد العرب . ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر وولد للسيد عبد المتعال عدة اولاد سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك واقاموا في القيروان . ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابناء عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم وسليلتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقران .

اما جدهم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائـه فاساء الى شريف ارثه . بل ان فعلته التي اضرت ولا شك بسليلته لتتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو لا يزال في ظل ابيه الابر ، قريباً من آثاره القدسية . قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب عنصراً ولوناً بالمزاوجـــة ، وقدمت شهوداً احياء على بعض نتائجه . ان من يحب بيت ادريس

ويغار على خيره واسمه ليأسف جداً لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانظار ، ويحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ،لان من يقتنون الجواري في الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرون . الا ان من كان بعيد النظر حكيماً يدرك ان البيت الشريف السالب السيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله .

اقتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً دعاه علياً ، فكان بداءة الدم الاسود في سليلة بني ادريس بعسير . ثم تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام، السوداني الاب انجب ونبغ في بيته ، فلا النجابة ولا النبوغ يصلحان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه .

ولد السيدمحمد الذي يستحق ان يدعى الكبيرفي صبيا سنة١٨٧٦[١] وجيء به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفره بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي ، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو بدُنقُلَه ، وتزوج بابنة هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك . رسا وتزوج في بلاد السود ، بلاد ابيه وجدته ، لانه لم يكن في دمه وهيئته ما يوفقه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستعباد . وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه . فكبرت معها المطامع واستيقظت قواه فشد للرحيل .

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٣

عاد السيد محمد من دنقله الى عسير ، الى مسقط رأسه ، الى قاعدة ملك جله في ذاك الحين صوري متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطنابهـا ، وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغوون رؤساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منهـا . فانقلب عليهم الطامعون واستمالهم الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم فيه ، واستعان بزعيم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومه ، واقتدى بامام صنعاء فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة . ثم مد سيادته شمالاً وشرقا الى الجبال فجمع عدة افخاذ وبطون مـن العشائر تحت لوائه الذي رُفع برهة عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ ويتلألأ في سماء آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليا ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين ، خصم الترك اللدود . والحلف الذي لا ينقض العهود . اخذ من الايطاليين سلاحا فاشهرها ناراً وسياسة على عدوهم وعدوه . واخذ من الانكليز مالا وسلاحا فخدم الاحلاف في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطماع ، ولا يفسدها الخداع . وقد كان لا يزال له غـير الاتراك عدواً . فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذاك الحين كان يعد انتصاراً على الاتراك .

ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداءة امره على مبدأ واحد . فقد كان عربياً صميماً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحالف اية دولة كانت على اعدائه الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه . فـما تذبذب في مبدأه ، ولا تحول عن عزمه . حارب الاتراك وحليفهم

الشريف وصديقهم الامام فكان في الغالب منتصراً وداثماً عزيزاً . لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ، ولكنه سلحها من لدنه بالعزم والمضاء .

ومما يجهل الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الالمان . فقد عقد معه الانكليز بوساطة حكومتهم في عدن المعاهدة الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهدوا ان يمدّوه بالسلاح والمال ، ويحموا اساكل بلاده من التعديات الخارجية . فباشر في الشهر التالي القتال . خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فدحرهم دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صَعْده وشمالاً في تهامة الى القنفذة . ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ اخلاها للملك حسين اكراماً لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ تتعلق بجزيرة فرَسان وكان قد اخرج الحامية التركية منها واستولى عليها .

كان السيد محمد حصيفاً ذكياً ذا دهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من شقاقات وزعامات ، بالزرانيق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع وكان له عون كبير في ارثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاءه الفطري لمعاناً .

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلة في معظم شأنها على الانكليز لا تُستغرب من امير يُعد في البلاد دخيلاً ، وهو في الدفاع عن نفسه وفي تجهيز العساكر يحتاج دائماً الى المال والسلاح .

اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ،منها ثلاثون الف ريال من الحديدة [1] بيد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسمئة نفراً وهو يقوم اذ ذاك مقام الشرطة في البلاد .

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بوساطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون الف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو . يجيء رجال كل قبيلة او بطن او فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادة ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية . ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها . لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر . اما الامير الكريم الذي يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على اقرانه في السياسة ، المنتصر على اعدائه في الحروب . ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم . فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر .

دعوته بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر من حكم في عسير من بني ادريس ، بل هو مدنياً سيدهم كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحياً . وفي الاثنين ، الصوفي والسياسي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي . ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداءة وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشوء ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء . ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية . اي ان

(١) منها ١٥ في المئة عشور أي حبوب وغيره و ٨٥ في المئة ذهب وفضة .

حكماً مثل حكم الادريسي يضعف في التوسيع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة . والطريقة لها مقام قد تصفو في جواره ولكنها تفسد وتعقم كلما بعدت عنه . وهاهنالعمري فشل الصوفي .

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انما هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسبفي بيته . وليس نبوغه وسمو اخلاقه بحجة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او تاجراً لما هم لونه ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب الاجنبية مقاصد السيد محمد فاتسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل الحرب حدوده جنوباً بين ميدي والُلحيّة عند سيل يدعى وادي العين ، فامتدت بعد الحرب حتى دخلت في ملكه الحديدة ومعها اللحيّة والصليف وباجل وُعبال والزيدية . ولكني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم السيد فيها .

فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر علياً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته . والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده وجده السيد الاكبر .

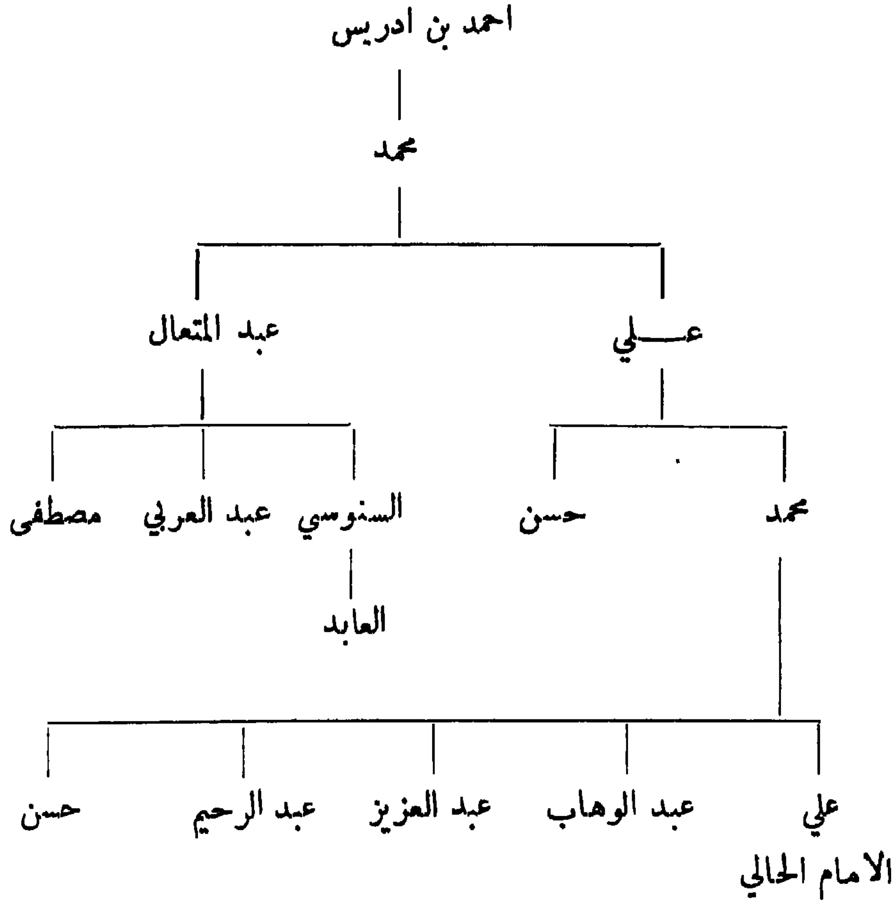
ولد السيد علي الامام الحالي في دنقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي

وكانت قد اقامت وابنها علي سبع سنوات في دنقله بعد رجوع السيد محمد منها ، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صبيا ، فقرأ السيد علي فيها الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه متشرباً مبادئه في السياسة والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان لحج يثنون عليه ويقولون انه على جانب كبير من النباهة والهمة . امـا المقربون اليه ففيهم رفيق صباه وصديقه الحميم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . هـو اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبـة في عمران البلاد قـد يوفق في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى تحقيقها [1] وللسيد علي اربعة اشقاءهم عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم . ثم حسن الصغير وامهاتهم جميعهن حبشيات .

---

(١) لم يتوفق السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن تبقى معه من العشائر في دفع اغارات الزيود في ربيع سنة ١٩٢٥ .فاستولوا باسم الامام يحيي بن حميد الدين على الحديدة كما تقدم وعلى الاساكل البحريـة الاخرى . واستمر بعد ذلك الحكم الادريسي مضطرباً متزعزعـاً الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير حسن الذي عقد وجلالة ملك نجد والحجاز الملك عبد العزيز ابن سعود معاهدة بمكة في سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لبها هو ما معناه : سنحميك بشرط ان تسمع وتذعن . وفي سنة ١٩٣٣ ضمت عسير نهائياً الى المملكة السعودية .

شجرة البيت الحاكم في عسير



على ظهر الباخرة

ثيابي المنشورة – رفيقي المحزون – الوداع – الرفيق الجديد – الحر والليل والامواج ساكنة – بويخرة القهوجي – جثث المسافرين شيء ينعش – اصوات تذبح النوم – الفجر الفضاح – لا خوف على من ينام بين الحك والخارطة – ربان انكليزي كريم – يهدينا الباخرة – يجيء الى المائدة مثلنا في ثيابه الرسمية – « وخلعت نعلي اكراماً لكم ايها الافاضل » – شاطىء تهامة – جزيرة قمران – الحجاج – السيد الحضرمي – ضجيج بعد نصف الليل – الربان يساوم العبيد ويؤدبهم – التربية الشرقية والتربية الانكليزية .

جاء الجواب من الامام مرحباً بنا ، ورست في مياه الحديدة ذاك اليوم باخرة وجهتها جيزان ، فآثرناها على السيارة التي استمرت معيّدة وقمنا نتأهب للسفر بحراً الى العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من اصبح في ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثيابي قصة محزنة . نثرتها في الطريق براً وبحراً . تركت الرسمية منها في مصر – ومن غير الانكليز من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية منها في جدة ، والصيفية في عدن ، وها انا في الحديدة افاخر الدراويش والسالكين بما ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، وما فضل المسافر اذا كان لا ينتفع بشيء من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر في قيافتي الحجازية احمل عصاي وفوطة فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان يستغني عنه .

اما رفيقي الجديد – وقد يسأل القارىء عن الرفيق الاول ، عن

القسطنطين . فالجواب واجب قبل ان استأنف السفر . فُجعت في الحديدة بفراق القسطنطين . فقد وصله كتاب من جدة فيه ان الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم بيتاً في غيابه، وان الفارس الفيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من نصابه ، وان نظارة الطيران المكسرة الاجنحة ، والطيارين يائسون ، وان مدير الميناء هجر الشراع وراح يرعى الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه مـاله فرّ هارباً ، وان « توتو » كلبته المعبودة وقد اضناهـا الشوق والنوى ، مشرفة على الموت : فلو لم يكن من نكبة جدة في غيـابه غير ما حل بتوتو لكفى بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يومٍ والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو – اقرأ – اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا كما تعلم أعز عندي منها – هوذا المركب في الميناء . سأركب اليوم فأراها بعد يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أوّلا يبقى المدني معي ؟ فقال الولد وهو يثب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمي ، انا مشتاق الى امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد . اطال الله بعمر امك يا مدني ، وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول يا عدو نفسه في بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ، كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً . فظننت انك تنوي المتاجرة في الحديدة بالسكاير ولكني سمعتك تقول : قـد لا يرسو في الميناء باخرة اخرى هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت ارى لك الخير الجم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفطمك عن هواك . فيا ليتك دمت رفيقاً لأراك «مُتبسّط» في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما شأنك الآن وتلك اللفائف التي كانت تتلو الواحدة الاخرى في فمك ؟ وكنت تدخن في اول الرحلة المعطرة الذهبية الفم » ، فصرت تدخن ، لهفي عليك ، ما لو شمت رائحتها « توتو » لأغمي عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر بغير الجميل من منظور وملموس ومشروب ومشموم . فاسأل الله ان يعصمك دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوه النفس ، وان يمكنك دائماً من تلك المعطرة الذهبية الفم ، ويعلمك فوق تلك الحكمة والاعتدال ، دمت محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة ، وخادم هو من السادة ، ليفرش له السجادة . وكنت انا في ذي الابهة جزءاً منها افتش عن رفيقي الصوفي فلا اجد غير الوكيل السياسي ، واغرب ما في حاجاته ومواعينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب رافقتنا الى الرصيف . وكان هناك وجهاء المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فما سرني ذلك لان البشرية آنئذٍ تغلبت فيَّ على الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين . لم يشأ ان يرافقوه في السنبوك الى الباخرة ، فاستأنست بذلك وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ،

في كلمته او اشارته ، ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحرّ من شمس النهار كامناً فيه ، والبحر رهواً ، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الامواج فاشغل النوتيون المجاذيف ، ووصلنا بعد ساعة الى جانب بوبخرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير ذاك الاحمر الضئيل في رأس الدقَل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم نادى وكرر النداء فنهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا الينا يسبون ويزجرون — « لسنا بلصوص يا كلاب انزلوا السلم لحضرة الوكيل » فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فحم منه بباخرة .

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقذار ، في كل مكان . صعدنا سلماً آخر الى ما يسمى الدرجة الاولى فرأينا في الغرف المفتوحة ابوابها اناساً نائمين نوم الاطفال . ما ايقظ نداؤنا احداً منهم . ثم نزل الربان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم فسلم على الوكيل واعتذر . فاستأنست بصوته المومىء الى ما في نفسه من التهذيب والكياسة ، ثم نادى احد الخدم فكفر عن اهماله بان أمر لنا بزجاجة من السودا باردة وبكأس من الوسكي . فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث فحدثناه . فكان انتقالنا في ساعة الى شيء من المدنية مستحب ، وادب في ربان باخرة مستغرَب .

وكأنه احسّ بما تسلل الى الاجفان فنهض يتقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى كنفه الخاص ، حيث الاسرّة العسكرية ، فنمنا كلنا تحت القبة

الزرقاء وليس بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع . ساعة فقط . ثم ضجات وقرقعات ، واصوات تزعج الاموات ، وسلاسل تُشد ، وابواب تُسد ، وحبال تئن ، وجرس يطن ، وصوت الربان فوقهـــا يحرك العبيد والحديد . سرت الباخرة ، وهدأت الاصوات والضجات، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج الفجر بعد قليل على وجوه صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء .

اول ما شاهدته قربي دولاب الربان ، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره نيشان ، يقرأ الحُك ويدير الدفة . وكان الربان واقفاً قبالته وراء طاولة عليها الخارطة البحرية . . فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخارطة والحُك . اما الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان فهو من الذين ورثوا الحرفة عن اجدادهم . هو من سليلة اولئك البرتقاليين الذين فتحوا الهند قبل الانكليز ، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاء فقد كان الجزويت في استئثارهم عوناً للانكليز عليهم . اما ابناؤهم اليوم ، وقد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم شيء من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون في منطقة على شاطىء الهند ويدعون غوا [1] ويستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها . ذكرت النيشان ، وما هو الا تطريز بالخيط الاحمر والاصفر يطرزون به قمصانهم ، كلٌ لنفسه في ساعات الراحة من العمل . ما رأيت في النوتيين انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلا ، من ولد الـ « غوا » ابن الهند والبرتقال .

كشف الفجر عن البويخرة وركبها فكان فضاحاً . هاك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوانهم قومياتهم وقيافاتهم وعدم اكتراثهم بما هم

(١) نسبة الى منطقة غوا Goa .

فيه من ضيق وحريق وقذارة . كل يهتم بامره ، لمـــا يلزم المؤمن ويتحتم عليه ساعة الفجر . هذا يصلي ، وذاك يدق البن . هنـــا امرأة تنفخ بالنار . وهناك شيخ يغسل فناجين القهوة ، وآخر يدخن المداعة. هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه ، وهناك فوق زنابيل التمر شاب احكم بين رجليه مرآة صغيرة وهو يلف عمامة على رأسه لفـــاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها ، والى جانبي سابر الغور يرمي بحديدته الى القعر ويسحبها منادياً بالانكليزية ، سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ! فلا نزال قريبين من الشاطىء شاطىء تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي نائمين الا ّ فضل الدين فقد كان تلك الساعة من المصلين .

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون ، وقد صنعت في بلاد الانكليز ، هي من بواخر القهوجي المشهور في عـــدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان باهادور ، الفيلسوف الحديدي . والقهوجي اسم لشركة من « عبدة النار » نوتيوها كما ذكرت من الـ « غوا » نصف المسيحيين ، وربانها ، ومعاونه والمهندس من الكفار الذين صنعت الباخرة في بلادهم. هذه شركة ملاحة شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لبواخرها . وهذا الانكليزي ، وقـــد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يتمعض من حـــال توجب عليـــه الائتمار باوامر الهنود سادته .

قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسيّر باخرة في المحيط الاطلنطي محمولها خمسة وعشرون الف طن . وتراني الآن على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي البارسي بخمس ما كنت اتقاضاه من شركة انكليزية . ومـــا العمل ؟ حامض القهوجي خير من مر

البطالة في بلادي ... ولكني احب العرب واحترمهم . ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كريماً ، على ما تراهم فيه ، مخلداً الى السكينة ، جليداً قنوعاً سكوتاً مثل العرب .

نزلنا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قميص البـــدوية وارداني مربوطة حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وتكّته تصل الى ركبته . وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيـــه وفي ذوقه ، حافياً يلبس « البيجاما » ، ثوب النوم . جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعليّ اكراماً لـكم ايها الافاضل . اهـــلًا وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتـكم . الباخرة لكم ، تأمرون فيها بما تشاؤون .

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هـذا الانكليزي المهذب الفاضل الذي رأت عيناه احسن من « افريقيا » [1] باخرة واحسن منا ركباً . وهو دوماً لا يرى غير الحسن في النـاس . وما كان في حديثه مرة مستهجَناً : بل دائمـاً مفكهاً مفيداً . الرسميات ؟ ربطنا في عنقها صخراً ورميناها في البحر ، فبدت لذلك الباخرة الصغيرة و بفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظهر في عزلة الاماجـــد وعزهم ، بدت كيختنا الخاص ، لا نتكلف فيـــه شيئاً يزعج او يسيء ، ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعـــال . بدو متحضرون ، برابرة متمدنون ؟ اي وابيك . انما هذه هي اللذة الصافية الحقيقة في الاسفار البحرية .

كنا نسير في مضايق خفية وظاهرة قرب الشاطىء بين جزر صغيرة لا اسماء لها ، الا قمرّان وهي اكبرها . ولهـا في جنوبي البحر الاحمر من الاهمية ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج

(١) اسم الباخرة .

القادمين بحراً من الشرق ، من الهند وجاوه ومن العراق وايران ، فيعرجون عليهـا للتطهر في رواحهم ومجيئهم ، قبل الحج وبعـده ، فتتقاضاهم السلطة الانكليزية رسماً مدة الثلاثة الايام التي يقيمون فيها . وجلالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى الثلاثة الايام ، وعلى محجر قمران ، وعلى الجزيرة كلها بجذافيرها . لا لزوم لهـا وعندنا جزيرة ابي سعد . هذا صحيح . ولكن في قمران مركزاً لاسلكياً افادنا ، ومعمل ثلج انعشنا ونحن في الحديدة . وهما يفيدان وينعشان كثيرين غيرنا ، فلا نشارك جلالة الملك اذن الا في قسم من احتجاجه . لا تظلموا الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطىء . وها هي الخارطة على منضدة الربان تنبيء بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا . من هو يا ترى اول من سبر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكامن اليم يستطلع اسراره . ويكشف للنوتي اخطاره ؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وامنها في الليل بالانوار ؟ هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضله كل من سيّر باخرة في البحـار الشرقية ولجأ الى علومه ليسلم من الاخطار .

اجل قد تستغني البواخر الشرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها لا تستغني مهما كانت عظيمة عن خرائط الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانيا تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكلترا كما كانت عهد السكون الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرهـا حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها ورجالها . ولا خوف وايم الحق على امة

عندها العلم وعندها الرجال . لا ترتّب ايها القارىء العزيز بما اقول . ان الانكليزي الاصيل هو مثل هـذا الربان الذي يسقط من عرشه ويظل مليكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ، مليكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض عليه مجدّاً مخلصاً نزيهاً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على ظهر الباخرة ولا يؤاكلنا . رجل طويل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مفتول الساق . وهو من سادات صَيْوُون ، مدينـة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائهـا ، حاد الذهن ، فصيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكلفاً ، وما كان في ما باح به ليخرج من دائرة التكتم والتأدب . الا اني علمت من تلويحاته انه عالم من العلماء وخطيب من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ ابراهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهم من شعراء وادباء مصر وسوريا ، ولم يسمع بالريحاني الا مؤخراً في عدن .

— سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

— قد يكون ذلك .

— وكيف ينخدع به امراؤنا يا ترى ؟

— العصمة لله .

— صحيح . ولكني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته وانه مع ذلك يحسن اللغة العربية .

— كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

— صحيح . وفي حضرموت كذلك .

ـ وهل انت مسافر الى جيزان ؟

ـ ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ، وانه مسافر الى ميدي . ولكن رفيقاً من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد هناك يبغي مقابلة المعاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكثيري في حضرموت القائم على الحزب القُعَيطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى الانكليز في عدن والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة من رائحتهم فقال اذ رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يجيئون الى جيزان ليمدحوا السيد ويستجدوه . وعندما نزل مساء ذاك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين متحاملاً فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو شحاذ كما اقول . وسيرجع وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا الى جيزان ومنها ، فسيسمع القارىء عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثنائها وهي اكبر مدينة تجارية اليوم بين الحديدة وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر الربان ان يقاول العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى الميناء ويدفع اجورهم. واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين. هذه كلمة تمهيد لما اقص عليك . نمت تلك الليلة على عادتي فاستفقت منتصف الليل لاصوات تلج وتضج وقد اختلط اللسانان فيها الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

ـ يا اولاد الزنى تجيئون في هذه الساعة من الليل تساومونني ؟

عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم ـ وهي الكلمة العربية

الوحيدة التي يحسبنها – امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي وسمع زميله يتسخط ويسب . فخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط :

دعهم يا قبطان وعد الى سريرك. اولاد الزنى غدارون.ثم الربان. يا نتانة العبيد ، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش ! والا اكسّر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان تسرقوه ، يا نتانة العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة – امش .

ثم الربان الثاني وهو يقلب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .

الربان : ما في شغل لكم ، امش . الباخرة تسافر هذه الساعة ، امش .

زعيم العمال – على ما ظننت – باللسان الانكليزي المفجع : يشتغلون يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .

ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لغضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة ، فباشروا عملهم في الليل وأتموه قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي ايقظتني تلك الليلة فسلبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرقعة ، الراحة والنوم . ومع ذلك قد كنت مسروراً بما علمت .

لا اظن ان شركة القهوجي التي لا يزعج يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف ان ربان احدى بواخرها يدافع عن مصلحتها هـــذا الدفاع . ولا اظن ان الربان هاي ، وانا اعرف شيئاً من طبـــاع امثاله الانكليز ، يخبرها ويمن عليها . فهو يعمل ما يعتقده واجبـــاً عليه ويسكت .

جيزان

القلعة – المدينة – الذهب والفضة – جيزان في ايام الحروب – المتاجرة – الزوار – الى السدة الادريسية – الاستقبال العسكري والسياسي – في مجلس الامام – « غسان ريحانة العرب » – « هل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟ » – « هل للاميركيين دين ؟ » – الاقتراع والانتخاب – قصة جورج واشنطون – استحسان السيد محمد واعتراضه – سؤال في الجغرافية – قصة لم تقص – محاسن السيد محمد – اجتماعنا به في الليل – الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في السنبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطىء والماء لا يمكن للمرء اجتيازها الا حافياً مشمراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكراسي او بالحري الأسرة التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر في شبه السبخة التي كانوا يغرقون فيها الى الركبة وهناك استقبلنا بعض الجنود والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي الذي رحب بنا باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قريبة منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية ، اي انه ضخم البناء رفيعه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الآخر جديد بناه السيد مصطفى الادريسي وأعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها الشمس ويلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حوشين الواحد ضمن الآخر ، وحمام ومائدة افرنجية ، وسطح مسوّر جميل .

كنت مما سمعته عن جيزان امثل لنفسي بيتاً من القش نقيم فيـــه ، وجواري حبشيات يخدمننا ، وولداناً يقفون فوق رؤوسنا وبايديهم المراوح يروّحون . اما الجواري فما رأينا غير أثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ، والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة . واما الولدان فكانوا واقفين في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات .

جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقاً بعدها عن صبيا شمالاً . فهي من البـــلدتين رأس المثلث على البحر الذي يحيطها كالهلال من ثلاث جهات . بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفساً ولكنها كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمراناً . بناها احد المحسنين الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة اسماؤهم في آثارهم .

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية الشكل تتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعابد الاقدمين ، مربعُ اعلاها اصغر من مربع ادناها . وبينها مفردات وثريات من النخيل ، وحولهـا ذاك الخـط الذي يحيط بها كنعلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوي اليه أحد الحرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وايوان تحتله الشمس طول النهار . ووراء القلعة ، او بالحري القصر شرقاً بجنوب ، قلعة اخرى تشرف على البلد والبحر ، فيها بعض المدافع وحولها

المتاريس .

سررنا ببيتنا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء ، واستأنسنا بمشاهد من نوافذه لا أبهة فيها ولا جلال . ولكنها تومىء كلها الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر والسكينة والإطمئنان . على اني من وجهة اقتصادية ، حرت في امر اصحاب هذه الفضائل القدسية .حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد رزقهم .

عندما رسونا في مياه جيزان كان اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة تقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هذه البلدة ؟ وفي كل سفرة نحمل منـــه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تحيـــا وتحمد الله ، وان كنت لا ترى حولهـــا بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بعدن ؟ سؤال بدهي حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاولين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكان القسم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من مواردها ، فكان ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الي ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدى عاصمتي الادريسي . وهذ

اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة انحاؤها ، غضة حواشيها . يؤمها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي عسير ومن المدن في تهامة جنوباً وشمالاً ، فيجيء معهم الرزق ،التجارة والكسب والخيرات . يحمل الحنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها بواخر القهوجي والسنابيك . جيزان مركز استيراد وتوزيع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلها . وهكذا تعيش جيزان من لا شيء يُرى ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ، وتغدق على كل محترم كسلان . اما سيد هذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريحية ، فهو السيد الادريسي .

جاء رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه ، فركبنا الـ « موتر » (السيارة) وسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصيحون حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ربوة تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لا ضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان . نزلنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها مولد عمليق سلّم ويده على رأسه وادخلنا آمنين ، فاذا نحن في حوش كبير وبين آخرين من الجنود . مشى فريق منهم الى باب دخلناه فاذا بقيّم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . حلّوا محل الجنود فتقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيرا حضرة الامام والحاشية ، فدخلنا واياهم الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب

كبير فخلعنا نعالنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع من ارض الله وسقفه القبة الزرقـاء . وهو محاط باربعة جدران عالية في احدها باب يفضي الى بيت الحريم ، وفي الثاني باب يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث باب المسجد الخاص . اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحدة عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . هوذا المجلس الشريف والمقام المنيف ، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمروحة كبيرة من الخوص .

وقف لنا ورحب بنـــا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الامامة على احد المقربين منها ، قبله في وجهه ، وسلم علي مصافحاً ، ثم امر لنا بالجلوس على ديـوان قربه . وكان في المجلس ساعتئذ السيد السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغـيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رأيتني لاول مرة امام سيد من السود ، امام زنجي يسود مليونا من العرب ، وفيهم الوف من السليلة النبوية . فسادني لاول وهلة الصمت ولكنه ما كاد يتكلم مسترسلاً حتى ارتحت الى حديثـه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كان السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد بن ادريس ، رحمهم الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرها ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخم الشفـة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويـل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . لم يكن فيه من ملامح الزنوج البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه الشديد السواد . وكان فيه

من اثر العنصر السامي الآري – اسلفت القول ان امه هندية – مـــا ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات الملونة لضعف في عينيه ، ويجلس متربعاً على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ، وله في الوقفات اشارة تمكين خاصة به كأنه يجر الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الحفاوة والضيافة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم تسيحون في البلاد العربية لخيرهـــا وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ومن اجلنا نحن حكامها . فتستحقـون اضعاف الاكرام الذي تشكروننا عليه . ولا شكر يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً عليّ . اني اشعر بان في عروقي من الدم الذي يجـــري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقده . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي .

فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ريحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ، ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطامع الاجنبية والسياسية الاوروبية .

ثم انتقل فوراً الى اميركا . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها .

قصصت عليه قصة نيويورك واصحابها الهنود الاولين وبيعهم المدينة الى الاوروبيين بشيء من الودع لا تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً بها وسألني قائلًا : وهل ملك اميركا اليوم من الهنود ؟

حدثته عن الجمهورية الاميركية ورئيسها .

فقال : وهل للاميركيين دين ؟ فاجبته قائلًا : شيء من الدين ، نعم . ثم سألني وكأنه كان يستدرجني الى امرٍ اراده ، لانه كان عالماً بما في اميركا من الاديان .

– وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ – وكم عددهم ؟

– لا يقل عن عشرة ملايين .

– كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

– يزداد نفوذهم يوماً فيوماً .

– وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

– ليس ما يمنع ذلك دستورياً . ولكن الحكم في البلاد للاكثرية وبالانتخاب .

فاستزادني ايضاحاً في طريقة الانتخاب وكان يعي الكلام ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استحساناً .

– ولكنهم يبذلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . أفما كان خيراً بان يعطوه ربعها راتباً ويقيموه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .

– كان جورج وشنطون يا مولاي رئيساً اولاً وثانياً – هي القصة التي كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت اخجل ان اردها : « ما هربنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا » كلمة قالها

جورج وشنطون ، ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة .
اما السيد محمد فقال : امرنا نحن العرب غـــير امر الاميركيين . اذا رفض اميرنا الامـارة فعشرون حوله يطلبونهـــا ويتنازعونهـا ويحتربون من اجلها . على الامير الحاكم اذن وهذه حالنا، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانه كالجندى ويقوم بواجبه دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً . ومـــا كان اسرعه انتقالاً وابعده ، فسألني سؤالا جغرافياً : وهل اميركا بعيدة عن خط الاستواء ؟

– اميركا الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خـط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يوماً في البحر . واميركا كلها ، اي قـارة العالم الجديد ، هي شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

– وهل يمكن الوصول الى روسيا عن طريق اميركا ؟

– بحراً من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسيا ، نعم .

– نعلم هذا ولكن هناك طريق اقصر . بين آخر بر اميركا واخر بر روسيا مضيق ، اتذكر اسمه ؟

– مضيق بيرنغ .

– نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة بين البرين ؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافيـة في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المبادهة المزعجة . فقلت، لا ادري . ولكني اظن ... وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان آخر عهدي

بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيويورك ، وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركا الى روسيا .

لكني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولمت ذاكرتي ووبختها لانها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق فتنسيني قصة افكه حضرة الامام بهاوتعيدها الى الذهن ساعة لا تفيد . ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يدن بعدئذٍ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين . فكيف يجوز ان اوقف البحث لاقص قصة مهما كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر القنفذة اقص عليك قصة مضيق بيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة ورغبتي في قصها .

خرجت من مجلسه وفيّ من الرجل تذكارات كلها حب واعجاب ، وهي اليوم ، وانا بعد سنتين اعيد ذكرها ، لا تحرّك فيّ غير الاعجاب والحب . فيصح اذن ان انقل الى القارىء كلمة من مذكراتي في جيزان .

اول ما يروقك ويطربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية . ثم وقفاته في الحديث وكلمته — إها — في التمكين والتثبيت . واول نظرة في مواهبه واخلاقه تريك انه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهو ساذج ، كريم الاخلاق . لا اثر للروحانيات في وجهه .

ولكن قياس الفراسة الذي يصح في البيض قلما يصح في السود. ان في الولايات المتحدة سوداً يسرقون الدجاج وسوداً لا يحيون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح – جاء في المزمور الواحد والخمسين: طهرني بالزوفى فاطهر. اغسلني فابيض اكثر من الثلج. وهم يؤمنون بكل الانبياء وبكل شيء. اذا خيرت احداً منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داود يفضل القيثارة ولا غرو .... قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة وسيماء الوجوه، لا تظهرها غير الاعمال. واني متيقن انه لو كان في الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك.

نظرة ثانية. اضف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في حديثه، صادق في ما يقول، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه. كبير الخلق والقلب. يميل الى السلم والائتلاف... احسن ما في العبد قلبه اذا حسنت اخلاقه. واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو...

تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها اولاً الملك حسين والوحدة العربية وثانياً الامام يحيى والصلح. وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر في جيزان لا يأذن بالتجوال او بالاعمال نهاراً. فكنا بحكم الشمس والبحر، والميزان دائماً فوق المئة (فارنهيت) في الظل، نستسلم الى ما تبطل فيه الحركات كلها، الا حركة التنفس. وهذه تضعف احياناً فنقف نستغيث. ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلاً ونفكر ليلاً عما نهمله عمداً او في حال الاغماء من المحامد.

خبرت الحر في اماكن كثيرة، من المكسيك الى عدن والعراق،

فما وجدت حراً جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منهـــا مثل جيزان . ان الشمس هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتعل فترسل اشعتها عكساً الى كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على ركبتك تقبلك في فمك قبلة تدوم دون انقطاع اثنتي عشرة ساعة . واذا نظرت اليها وانت تلجأ الى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض فتبدو اشعتهـــا فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر ، وكالوهج الاصفر ساعة الاصيل فترفـع يديك الى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية .

امـــا الرطوبة ، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك ، فلها لون يجيئها من يدي المد والجزر ، ولها جسم يجيئها من كرم العناصر في تهامة ، ورائحة هي رائحة الطحلب والسبخة والملح ، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت منك . فهي كورق الغراء الحـــلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي كثوب يلبسكه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس ، فتلبسه كرهاً وانت تشتهي فوقه ثوباً من الامواج . لله موجة تعيد اليك الحيـــاة . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان والفتيات يلاعبونها ، فلا يليق بك ، في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام فيؤلم ، ما يجوز للصبيان .

السيد الادريسي

بين الامامين

ساعة الاكل والرأس المقطوع – ساعة الاستقبال والخيل والليل – السيد والملك حسين – « المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة ميسرة » – ابن سعود – المحالفة الرباعية – الاتراك – « حاربناهم واخرجناهم من البلاد » – الامـــام يحيى – « كنا واياه متعاهدين » – قصاصة من ورق – كتاب من الامام الى الادريسي – « وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه » – كتاب من الادريسي الى الامام – « وقد انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » – الفرق بين الامامين .

كنا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، اتقاء وجه الشمس . ومـا كنا نخشى مثل ساعة الظهر خطباً ، ساعة يجيء الخدم من بيت السيد السنوسي وعلى رؤوسهم الاطباق ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع . فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حياً وقد حُشي بالارز والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس ينظر عطفا اليك . اخجلني والله وحبب اليّ التنحس في مذهب الهندوس .

والحق يقال انني مللت اللحم ، خصوصاً في مثل ذلك القيظ ، وكنت اشتهي بعد سف شيء من الارز بقعةً خضراء ارعى فيها . واشتهي قبل كل شيء الماء فاجده في النعارة فاتراً ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ، فاغمض عيني واشرب باسم الله . اما كرم الادارسة فما كان ليخلّ قطعاً بقاعدة الضيافة عندهم – « قوزي » كل يوم . اغدق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك الله فيك يا جيزان ، بركة تشمل

من اجل سادتنا بني ادريس آلة لتصفية الماء ومعملاً للثلج .

– هات المروحة يا أبكر .

يدخل السيد أبكر وبيده عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما سرفضل الدين .

– قل له الحكيم نائم . ليجئني منتصف الليل .

ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الاستاذ .

– صلّ على النبي . هات القميص والعباءة يا أبكر .

وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .

– قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً – بعد منتصف الليل .

كذلك تنعكس الحياة في تُهامة ، تُقعدنا الشمس ، تنهكنا ، فيجيئنا الليل منجداً ويوقظنا القمر. ساعة من الفرج – الا اننا والحق يقال لم نكن لنسر بشيء سرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الخيل . والخيل من حضرة الامام ومعها رسول يدعونا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام فنستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلم . فالتضامن بين ثلاثة من ملوك العرب .

– المسئلة بيننا وبين الشريف [1] – الكلام لحضرة الامام – قريبة ميسرة . نحن اولاده ، نحترمه ونجله . ولكننا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم في الامر ، امّا ؛ ليسألنا ، ليشاورنا نعم ،هو لنا بمثابة الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ،امّا ، حكمة في الدين وفي السياسة.وعندنا قوة . القبائل في يدنا ... والله لا تمر اربعة اشهر على المعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه وبين ابن سعود فتسير القوافل آمنة الى مكة والمدينة ... ان عند الشريف

(١) اي الملك حسين .

الحرمين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل الحرمين . لا خير في حياة المسلم اذا كان لا يغار على الحرمين ويسعى دائماً في المحافظة عليهما .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم والامام يحيى . فيتم اذ ذاك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في الوحدة العربية .

فقال سيادته : هـــذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذاك الرجل [1] بعيد .

– وليس على الله يا مولانا امر عسير .

– نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما تروم . ولكن ذاك الرجل أضرّ بنا والله ضرراً جسيماً . ونحن نفعناه . وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . امـــا نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا منا ومنه . لذلك ترى الامر قريباً بيننا ... العرب خداعون غدارون .

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يجيء فيها على ذكر هذ الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى . ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته .

– نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف . اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال . ايُّ خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة نفعونا بها؟ نحن حاربناهم قبل الحرب، وحاربناهم اثناء الحرب، وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا . نحن كنا نحاربهم في تهامه لنردهم عن

(١) اي الامام يحيى .

ابن حميد الدين . اوقفناهم مراراً في زحفهم عليه . دفعناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً وراء ظهرنا . هذا في اثناء الحرب ، اما قبلها فكنا واياه متعاهدين . عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن . ولما جاؤوا يمرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال اوقفناهم وقلنالهم: كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله . وصل الترك بعدئذ الى صنعاء فهموا بضربنا من وراء ، من الجبال ، فلم يمنعهم ابن حميد الدين ، حليفنـــا صنو عهدنا . كأن العهد عنده قصاصة من ورق .

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيى الى السيد والثاني جوابه ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاء .[1]

في كتاب الامام الى «الصنو السيد العلامة» بعد السلام مقدمات ادارية في تاريخ المفاوضات ووسائطها [2] ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الاجنبية « وصون هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل الاجانب ، وعدوان يحدث من اي جانب » .

« واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليـد واللسان . ووالله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الاصقاع لمـــا حركنا ساكناً ، ولما اظهرنا كامناً . ونصرح لكم بانـــه مع ما بينكم وبين الدول من الروابط والسلم بمـــا لهم من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما

(١) بعد دخول الانكليز الحديدة وخروجهم منها واستلام الادريسي زمامهـا سعى بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما . وقد ذكر الامام يحيى اسماء ثلاثـة من رسل السلم والوفاق .

(٢) تاريخ الكتاب ٢٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد وصول نقيب حسن بن مقبل واتفاقه (اجتماعه) بالقاضي عبـــدالله الفخري واطلاعهما على ما بيد شرفي والعرض علينا..

يرومون من التسلط العام والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام ، وبانهم لا يدفعون الاموال والذخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم . ولم يحملهم على اظهار عدواننا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية . ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون . قد انصفتم بما اوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والنحر والتشمير لدفاعهم ومنعهم وحربهم في البر والبحر[1] وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يحتجون بها ويجعلونها ذريعة لهم الى مقصدهم الخبيث من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة تزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز . المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتمونا شيئاً . فانه لا مخبأ بعد بوس ولا عطر بعد عروس . وانتم اعرف بسياسة الدول ومسالكها الى الوصول الى اغراضها بما تبرمه من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر الكافرين ».

وختام الكتاب انتحاب مجد الاسلام الغابر ، واستنهاض المسلمين على جهاد الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الخبيثة على المسلمين

....

(١) اي الانكليز . وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سيء . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بمثله ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . من اين للادريسي ان يحارب الانكليز براً وبحراً . فضلا عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يخشى تقرب الانكليز من الامام كما كان الامام يسعى ليبعد بين السيد والانكليز .

فصاروا لا يملكون مستقلين قياد انفسهم . ولكنها الاهواء عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا بما امر الله به الخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجناب الشريف والمقام المنيف الصنو العلامة الامام يحيي بن حميد الدين » فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضالته المنشودة « ان نرى انفسنا على محكم الاخاء والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عمن هو مثلكم ممن ضمنا وضمه رحم العلم والنسب »[1] .

« ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث، حتى كاد لم يكن هناك رحم توصل ونفوس بين يدي الله عما تفعل تُسأل ، فدعا الاخ اخاه الى حكم السيف والسنان ، بل كر عليه بما هو انكر من وخزات القلم واللسان ، لطال الشرح وتمادى الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم لدى الباري من الحجة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه الحجة ... اما ما اشرتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلو راجعتم التاريخ بالنظر لما قد مضى بيننا وبين الطليان وقد أمددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين الترك فانكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة[2] . بل ظهر للعموم ما اجراه الله على يدنا من

(١) اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد كان صنو الامام بالعلوم الاسلامية والفقه واللغة . واما النسب فقد طعن الزيود به طعناً يثبت ما قلته في التسرّي واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .

(٢) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة» عندما تعاهد وايطاليا اتهم بدسيسة يراد منها ادخال الأجانب الى البلاد العربية . قالوا هذا اجنبي - والزيود

الخبر المعلوم لاتضحت لكم الحقيقة الحاضرة وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الليلة بالبارحة . وفي الجملة ما حالنا وحال اهـــل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

غزلت لهم غزلاً دقيقا فلم اجل لغزلي نساجاً ....

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . وامـا ما طلبتم البيان فيه عن اليمن ومـا ترمي اليه السياسة الاجنبية فمن المعلوم انها لما قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانيا مساعدة العرب اذا ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شيء من شؤونهم . ولكن من الاسف انهم على اراء متفرقة واهـواء مختلفة . ومرت هذه الفرصة وكادت تمر ولم يرفعوا اليها رأساً ... على مـا نشهده الآن في الاختلاف وعدم الانتباه ، لمـا يرفع شأنهم دينا وسياسة . اثبتوا على انفسهم عدم الرشد فاحتقرتهم اعـــين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر الامم . فلا حول ولا ... ومثلكم على وفور من العلم والسياسة ، وبمحل من المعالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه الامة ، وما هو الاقـوم عند الله طريقةً في زوال هذه الغمة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .» في ١٥ شعبان سنة ١٣٣٩ .

....

تابع شرح صفحة ٣٥٠

يحسبون الادارسة دخلاء في اليمن ـ ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال الأجانب وسلاحهم واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . اما الايطاليون . وهم في الشاطىء الافريقي من البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يطأوا ارض تهامة ، ولا اثر لنفوذهم هناك اليوم . ثم اتهم التهمة نفسها عندما دخل الانكليز الحديدة ، وما عتموا ان خرجوا منها .

في هذين الكتابين يتضح امران ، الاول : ان دعوة الامام يحيى دينية ظاهراً وسياسية ضمناً ، ودعوة السيد الادريسي دينية اساسا وسياسية قومية عملًا . الثاني : في كتاب امام صنعاء غموض مقصود وعموميات قلما تفيد، وفي كتاب امام جيزان صراحة مبرورة وتخصيص ليس فيه ابهام .

السيد الادريسي

المعاهدة

الصلة بين الضعيف والقوي – النفع السوي المتبادل– سياسة الانكليز بعد الحرب – السلاح والمال – السياسة الجديدة ، لا مشاهرات ، ولا دسائس ، ولا تجسس ، ولا ارهاب – الامتيازات الاقتصادية – البحث في المعاهدة – نقطة خلاف تختص بالانكليز – حجة السيد وحجتي – رغبتي في خدمة الملك حسين – نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلًا ان يوالي الغني ويستنصر في اموره القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه وبيئته هو غالباً اقوى منها في غير مكانها وبيئتها . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلاً متساوياً ، وهو لا يكون كذلك الا اذا كان في الفريقين شيء من الوجدان ، فالولاء بينهما امر طبيعي . اما اذا اختل التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة ، اجنبية كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء والاغتصاب والظلم والاستبداد . فالقوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يضمه اليه فيبتلعه او يستعبده . والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يخادع القوي وينافق فيكسب بعض القوة التي يسيء استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعاً يذكر ولا ينفع احداً من الناس . هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما تماثلها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهريين ، اولهما

انه قوي في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء هم اعداؤه . بديهي اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قوياً يروم الولاء والاه واستنصره على الاعداء . وكذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك — ايطاليا ثم بريطانيا — والمرء في ايام الحرب ابعد عن المخاتلة والخداع منه في ايام السلم ، فنفع الادريسي وانتفع به . ها هنا قوة وضعت فيها حكمة ووجدان ، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل .

اما بعد الحرب فانقلبت الحال وساءت الاعمال . امست حليفة السيد ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ تمده الى مقامات السيادة ، لغرض مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبذل شيئاً مما كانت تبذله اثناء الحرب . زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ، وليس لها الآن غير اعداء سياسيين . فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الامير علناً وتفاوض عدوه سراً حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها .

وبودي ان يعود الفريقان ، البريطانيون واصدقاؤهم العرب ، الى شيء طبيعي عادل في العلائق السياسية والولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية . الا ان ذلك لا يكون الا بالسياسة العربية القومية الصريحة من قبل الانكليز ، وبالصدق والنزاهة والاقبال على الحسن من التمدن الاوروبي من قبل العرب . كانت بريطانيا تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر بوساطتها على الرجال ، فانتفعت منفعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال من العرب غير المقت والاحتقار . ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة . فقد افسدت اموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا

تزال تسعى في نفوذها وتثبيت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة . وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال . فالسيد الادريسي نفسه لم يذعن لمثلها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها ويسلح العشائر بسلاحها . وكثيراً ما كان يردهم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي ، انا رقّصت الانكليز » . سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل بريطانيا السياسي صديقي محمد فضل الدين . ومهما كان من زعمه فلا احد ينكر ان السيد كان عربياً حراً صميماً يأبى التسيطر الاجنبي كما يأباه غيره من ملوك العرب الكبار ، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاة اجنبي ينتفع به . اما الانتفاع اثناء الحرب فعرفناه . فماذا عسى ان يكون في ايام السلم ؟

حبذا دوام العلائق الودية بين امراء العرب وبريطانيا . ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة . لا ولاء متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس ، والدسائس والارهاب . ان الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها . واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن الـ « لا » والـ « نعم » معاً ، وعن الختل والخداع .

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قوية الى الولاء الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم . اننا نتاجر معكم ، ونمنحكم الامتيازات ، ونأذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية ، ونؤمّن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها ، فتمدونا في مقابل ذلك بالمساعدات

الثقافية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها ، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمندوب تستبدلون القناصل بهم، فتستقيم العلائق بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد [1] .

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام ، وقد كان السيد الادريسي من رأيي فلما وصلنا ونحن نبحث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال : ولا بأس من ذكر بريطانيا في المعاهدة ، بل يجب ذكرها . فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل بريطانيا على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين . ولم اكتم السبب في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً الجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو تآلف ملوك العرب وتحالفهم في سبيلها . فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذ على بريطانيا ، وكان الامام يحيى حرباً عليها، وانا ابغي عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي، فكيف السبيل الى ذلك وأحد الثلاثة يقيد نفسه ببريطانيا ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية . فقلت مصراً :

خير لكم يا مولاي ولبريطانيا ان لا نذكرها في المعاهدة . واني

---

(١) في معاهدة جدة التي عقدت في ٢٠ ايار سنة ١٩٢٧ بين ملك بريطانيا وملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية البريطانية وتتساوى فيها الحقوق والواجبات .

لا ارى ما يوجب ذكرها هنـا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر .

كنت أفكر بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمـــة تقرب امراء العرب منه وتوبطهم بالمعاهدات واياه ، خدمة تفيـــده اكثر من ارساله الوفود الى لندن وجنيف . وكانت هذه الرغبة تشير عما افعل واقول . ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوناً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها . فخفت ان يفسده ذكر بريطانيا ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها وينكر الامام كذلك مساعي الملـك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي . لذلك دافعت عن نظريتي بحجة ويقين . ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الانكليز. فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال : قد نلت من السيد ما لم ينله احد قبلك .

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر لبريطانيا ولا كلمة تشير اليهـا . وكان البريطانيون مع ذلك راضين بها . مما دل على ان بريطانيا لا تعارض في عقد معاهدات ودية اقتصادية — دفاعية كذلك — بين امراء العرب اذا وُفق الامراء الى من يسعى في هذا السبيل سعياً فيه نزاهة ووطنية حقة ، ثم شيء من الاعتدال والانصاف .

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيي .

التمهيد واحد في المعاهدتين .

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلاميـــة لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة

الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائهـــا وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها . وانما المطلوب اجتماع الكلمة القوميـــة [1] وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير تدخل اجنبي يخل باستقلال البلاد العربية [2] على ما سيعرف من المواد الآتية .

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك للسيد الامام الادريسي بالامامة ويعترف سيادة الامام لجلالة الملك بالملك [3] .

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . ويختص سيادة الامام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية . وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في ما يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يغير شيئاً جارياً من طرف صاحب ادارتها ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة [4] الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما . واذا

---

(١) قبل السيد محمد بالنص الذي قدمته وهو : وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية ، راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام يحيى .

(٢) راجع الشرح في معاهدة الامام يحيى .

(٣) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هـــذه المادة لان المادة الثالثة تفي بالغرض المطلوب فقبل السيد اعتراضه . ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة هـذه الرسالة: بعد اهدائكم التحية الزاهرة . صدرت نسختان احداهما بدون مـــادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لاننا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً . وفي الاخرى تلك المادة فلكم الخيار في اية النسختين اردتم .

(٤) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقنعتهما باضافة الجملة الشرعية

فعل احدهما شيئاً من ذلك او عند مقاولة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه . وليس لاحدهما نقض مقاولة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الآخر في ما يتعلق بخاصية عاقدها وبلاده ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تمّ الاتفاق على ذلك . ويلزم على هذه المـــادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهة التي اليه ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين [1] ولو كانت جرت المذاكرات بالوفاق مثل ما جرت الآن قبل سنة تقريباً لتمكن الجميع من اجتياز الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه . حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينهما . اما الان بالنسبه للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين بعدم الاعتراض في مسئلة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية [2] او ارضائه بجزء لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار . وهذا يقتضي ان نقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبد العزيز

تابع شرح صفحة ٣٥٨

بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى آخر الجملة اي «فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والغرض منها تقييدهم في ما يمهد السبيل الى الوحدة العربية .

(١) ما يلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى آخر المـــادة ، اضافها السيد محمد . فارتأيت ان تضمَّن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها جملة شرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأيي وأمر ان تكون جزءاً من هـذه المادة . وفي ذلك دليل آخر على سلامة نية السيد وتساهله رحمه الله .

(٢) يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينـة ابها التي كانت قاعدة لواء عسير في الماضي.

ابن سعود [1] لاجل تمييز حدود معتدلة بين الأطراف الثلاثة .

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين. وهذا حق المسلم على المسلم . والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما أمكن من الاصلاح سواء كان مما يرجع الى الخارج أو المعارض في الداخل . فاذا لم يكن إلا مجرد الاعتداء والبغي فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه . ويلزم الامداد بقدر ما أمكن من مال أو رجال أو سلاح أو معدات حربية وعلى طالب المدد ان يقوم بلوازم المطلوبين [٢] .

المادة الخامسة : اذا وقع تشاجر بين رعايا الفريقين يرد الى حكم الشرع فينصب قاضيان من الجهتين او قاض من احداهما حسب التراضي لفصل المادة .

المادة السادسة : الاتفاق في العمل الذي يحفظ القطرين من أي تدخل أجنبي . فاذا حدثت مسئلة مهمة كالعقود والمعاهدات يلزم كل من الطرفين أخذ رأي الطرف الاخر حتى يؤمن من الالتباس في الموضوع ويكون العمل بقوله تعالى : وأمرهم شورى بينهم . وقوله عز وجل : شاورهم في الامر .

المادة السابعة : تبادل المنافع التجارية من الطرفين مع تسهيل أمور الصادر

---

(١) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء .

(٢) في هذه المادة الدفاعية نقض مادة الهجوم اي المادة السادسة من معاهدة الامام يحيى والقصد منها كف يد حكام الشطر الغربي من الجزيرة بعضهم عن بعض .

والوارد والمحافظة على اطمئنانها .

المادة الثامنة : التي تختص بصندوق توفير من مال الزكاة هي مثل المادة العاشرة في معاهدة الامام يحيى والمادة التاسعة التي تختص بتعيين مندوبين من قبل الفريقين هي مثل المادة الثامنة والمادة العاشرة اي الاخيرة هي مثل المادة الاخيرة كذلك في معاهدة الامام .

جوار وسادات

نائب ابليس في عاصمة ابن ادريس – اخبار العاصمة – الجارية المجرومة والسيد العادل والقاضي الذي نبتت في قلبه ريحانة الرحمة – ابو فراخ – الدنقليات الحسان – وفد ابن سعود – المناقشة بين الوهابيين وعلماء شنقيط – « لا تشعلوها يا ابناء نجد » – السيد الحضرمي – فصل الشحاذة عند السادة – الاتراك يعتقون الجواري والعبيد – السيارة تسير – شجر الشورى – مظهر من مظاهر المد – سيد من الاماجد – ميدي – سوق الرقيق – « يلزمنا جارية للاستاذ » – سنبوك الجواري المنتظر – سيد من غير الاماجد – ضللنا الطريق في الليل – اللجنة – السراب – الصليف – معادن الملح – القطن – اخر غرقاتنا في الرمل – السائق اصيب بدوار – السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة – النجدة من القرية – بنت الجن .

وقف الحاجب في الباب يقول : الحاج محمد . فنهض فضل الدين واستوى جالساً على الديوان . ومن هو الحاج محمد ؟ هو في عاصمة ابن ادريس نائب ابليس . درويش وجريدة اخبار وحجـام ، وطبيب يطبب العيون ، ويتاجر بالدر المكنون ، ويمارس كل الفنون . هو من مراكش ، جاء مثل كثيرين من اخوانه الى بلاد السيد حاجاً ، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في ظله المغذي الروح والجسد معاً والحاج محمد جبار يكسّر بيده الحجارة. صافحته مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتفي بالسلام من بعد عشرة اقدام . اعجب بتلك اليد ، يد ولا مخالب البهبوت ، كل اصبع منها نبوت ، وهي مع ذلك يد ساحر ، يمدها الى أدق اعضاء الجسم البشري الى العـين فيشفيها – بشهادة الدكتور فضل الدين – من الالام . يقبض السكين ، وبغيرها وغير الله

لا يستعين . وما فشل مرة في عملية من العمليات ، ولا عصته العيون والحدقات .

لكن ذلك لا يؤهـــله لاكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل غيره في النهار . دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فجلس على الارض ، طوى نفسه على السجادة امامنا ، وبدأ باسم الله .

— سار الـ « مَوْتر » الى صبيا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه والحمد لله . وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله . وقد وفق بين السيد .... وجارية من جواربه جاءت تشكوه الى مولانا ولدت هذه الجارية ابنة فلم تعش يومــــاً كاملاً . فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت معتصمة بالشرع والحق في جانبها لانهـــا ، وقد ولدت له ولداً ، اصبحت زوجة شرعية . ولكن السيد يقول : هي جارية نحس ، جارية جانية . لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تجيئني بالاموات . جانية تستحق فوق البيع الذبح . ولكني ارحمها وابيعها فقط . فقال القاضي ، وقد نبتت في قلبه ريحانة الرحمة : بمثلك وانت من اهل البيت يليق العدل ويليق الحنـان . فقد قال صلى الله عليه وسلم . قال . نسيت يا دقتور الحديث . ولكن القاضي اقنع السيد فدخلت التقوى والحنان الى قلبه . فقاطعه فضل الدين قائلاً نار الجحيم في قلبه . فقال الحاج : ولكنه رحمها يا دقتور . قال لها : سأشرفك ببذرتي مرة اخرى فاذا جئتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدين . والا اتبعتك بابنتك . فقبّلي يد القاضي ، وركبته ، ورجله ، واشكري الله على مجيئه . وجيزان تشكر الله على عودته سالماً في الـ « موْتر » .

رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه ثم

طوى نفسه ثلاث طيات — اليتيه على كعبيه وصدره على ركبتيه—ومد عنقه نحو فضل الدين وهمس قائلاً سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى. ابو فراخ يبغي شراء فرخة سوداء وراح امس يستأذن صهره. وراحت المسكينة الى الامام تبكي وتستغيث . فقال الامام الى عمه الشائب : لا اسمح لك بها الا اذا كتبت كتابك عليها . اخذتُ ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احلّ لك ما لا أحله لنفسي . فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل هذه الليلة على الفرخة الدنقلية .. لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجمل ما جاء من وراء البحر . درة سوداء.

ورفع الحاج رأسه وصعّد الزفرات ثم قال: والسيد .... عافاه الله وحجب عليه. جاءته احدى جواريه بولد . . . ابعد الله الدنقليات عن بيت سادتنا . فرخة سوداء، رأس البلاء، في كنف ادريس . الادارسة يا دقتور يذبحون انفسهم ولا يذبحون سود الفراخ .

ضحك الدكتور وأمر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من جبينه ووجهه واستأنف الحديث :

— سيرجع غداً وفد ابن سعود . اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً وكسوة . وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناقشوا وعلماء شنقيط في التوحيد والاولياء. خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين . تذكر الرجل الذي ذبح ابنه في ابها لانه افترى على زوجة ابيه وفرّ هارباً الى صبيا ، فقبض عليه فيها وسجن بأمر من الامام . جاء كتاب من عامل ابها يقول فيه :ارسلوا الجاني الينا . انتم لا تحسنون القصاص . شرائعكم لا تنفع . عندكم محاكم وتأجيلات وتعويضات ورشوات . أحيلوه علينا عندنا السيف . وامس قال احد هؤلاء الوهابيين : لا يطهر الاسلام من الشرك الا السيف . وهو حجتهم

الوحيدة . من يصلي الى العظام في القبور ويستغيث بالاشجار والحجارة يشرك بالله ، يكفر بالله ، والكافر يقتل . فرد عليه احد علمائنا بقوله : وانتم تستغيثون بالنبي ، انتم كذلك مشركون . فقال الوهابي : نذكر النبي اجلالاً ولا نستغيث به ابداً . فقال عالمنـــا : الذكر والاجلال يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمناً النداء ، وفي النداء الاستغاثة . فقال الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد من الكفر الصريح. دامت المناقشة ساعتين فدخل اذ ذاك مولانا فقال :لا تشعلوها يا ابناء نجد . وجادلهم بالتي هي احسن . ثم قال والانكليز مشركون ليس علينا ان نهديكم الى الدين الحنيف ... من آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم (الآية) ونحن اصدقاء الانكليز . نخلص لهم ما داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيهة وقد عمد الى طرف قميصه فأمرّها اولاً وثانيــــاً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوار يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه اليّ وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسيت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يثبت ما قاله فضل الدين ــ قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يمدحه فيها فأمر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في الـ « موتر » الى الحديدة .

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لأشاهد ما شاهد في ذاك الحـــين فرأيت في الرواق الخادم أبكر ــ السيد أبكر ــ وحوله بعض ابناء قريته جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه ــ هذا سيد . ولكنه خادم مخلص لا بأس اذا قبّل يده ابناء بلده . ولكن في السادة الشحاذ واللص والزاني

والقاتل والمتاجر بالرقيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوغة[1] مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً السلة فيملأها مما يحتاج اليه من خضر وحبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرشاً واحداً . ولا احد يقول: لا ، ولا احد يجرأ ان يمنع رزقه عن السادات . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون ، هذا فصل الشحاذة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتك الاقربين ، فمن ينذرها اليوم ? عادات وقباحات يبرأ منها الاسلام . اذا تزوج السيد بنتاً من غير آل البيت وولدت له ابنا فمن الواجب عليها ان تقبل يده وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحتقرها ، ينظر اليها نظر السيد الى العبد . مثل آخر: سيد عنده جارية وخادم متزوج بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحتقر جارية السيد ولا تحترمها ولو صارت اماً وزوجةً شرعية . وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية الى خادمه ويكرهه على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير الجحيم ... من فضل الاتراك انهم كانوا يعتقون الجواري والعبيد ويعطونهم شهادات العتق . وكان السادة يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات . اما الآن فلا قيمة لها ... ولا تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات اليمن . هذا واحد منهم عرفناه رفيقاً وسيرافقنا مرة اخرى اعوذ برب الفلق .

ولكننا علمنا بعدئذٍ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقنا من هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية . ركبنا السيارة صباحاً يصحبنا جندي من جنود الامام ، وهو سيد من سادات

(١) مراوغة على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدة .

اليمن الاعلى يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والفم واليدين ، حليق الشارب ، ابيض اللحية ، بهي الطلعة ، لطيف المحيا . جلس بعد ان سلم الى جنب السائق ، وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلًا من جيزان . وكان السهل الذي رحنا « نموتر » فيه كبلاد حرب كله درب . مررنا بملاحة هي للحكومة قرب قرية تدعى مضايه . ولم يكن في الارض حولنا ما يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد اميالاً الى جانب الشاطىء كأنها جدار اخضر قائم بين البحر والسهل . اما عود هـذا الشجر فابيض والمتكسر منه شبيه بالعظام يجمعه العرب حطباً . واما الورق الشبيه بورق الغار فيرعاه الغزلان . كنا نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غريب . ان مياه البحر تجري تحت الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتتسرب الى مسافة خمسة اميال في بعض الاماكن ، وتظهر فوراً في السهل بحيرات مالحة ، تجف في الصيف مياهها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علقت السيارة فيها استحال على غير الجمال جرّها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سألته سؤالاً فأدار بوجهه واجاب بصوت لطيف ولغة فصيحة انه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان جبال حاشد هي كالحلقة حولهم . نعم ، هو زيدي ولكنه منذ عشر سنين « في خدمة الامام » اي الادريسي . بعد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . اعجبني من الرجل محاسن ثلاث فيه ظاهرة — حسن طلعته ، وحسن منطقه ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي بل هو سيد من الاماجد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول

الانكليز . وفيه برهان جلي على ان في التعميم ضلالاً . اجل ، ان في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال ، الشريف طبعاً ، والشريف وراثة ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جيزان قبل ان يشتد حر الشمس ، فاقمنا فيها يوماً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . اما الاسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرمية ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين يزدحمون في اسواق تباريهم فيها الروائح والاقذار .

ولكن للاشغال ، للصناعة والتجارة ، اثراً باهراً فيها لا تجد مثله حتى في الحديدة . ذلك لان ميدي اليوم هي كجيزان في اثناء الحرب العظمى ، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطىء البحر الاحمر الغربي المفتوحة للبواخر والتجارة فتسير منها الى العقبة ، عقبة اليمن ، فجبال عسير ، وفي السهول شمالاً الى جدة . اما تجارة ميدي فاكثرها بالسلاح وبالرقيق وبالتهريب . اذا احتاج امام صنعاء مثلاً الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمرك يستجلبها الى ميدي ، ومنها براً الى جدة . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسناء يجيء الى ميدي فلا تضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تديرها الجمال ، والبنيّات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح .

ان الدكتور فضل الدين بصفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين بالرقيق وعدوهم الالد ، اخبره الحاج محمد المغربي بان سنبوكاً

عن الجواري يصل قريباً الى ميدي فباشر عند وصوله البحث والاستقراء . جاء احد « اصدقائه » من تجار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ؟ فقال : واقفة يا حكيم .

– يلزمنا جارية للاستاذ .

– غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا والله ولا واحدة .

– ولا عند اصحابك ؟

– لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنبوك واحد منذ شهرين .

– غرض الاستاذ عزيز لدينا . فتش ولو على دنقلية . والثمن يرضيك .

– سنبذل الجهد . غرضكم ياحكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .

راح ولم يرجع . وجاء آخر فكانت اجوبته تومىء الى ريب في نفسه بحسن نية الوكيل . فانكر بتاتاً .

– لا جواري في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم .لا والنبي ولا احد يشتري .

– وها من يشتري ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

– توكل على الله غرض الحكيم نشتريه بعيوننا .

– وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ، اجش الصوت ، جاحظ العين. فسلم سلام الاحباب وتربع على الديوان .

– سترى قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم

وخدمة مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي. نظفنا البلد . والتجار كلهم يلعنوننا . لا يهم والله اذا كنتم راضين . اول سنبوك يدخل ميدي نحن ورجالنا نحجزه باسم مولانا ونعلمكم بذلك.

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهامة . له قصر كبير بين ميدي واللحيّة يستخدمه لتهريب الجواري والسلاح . والرجل عالم بقصد الحكيم ويظن انه يخادعه . على انه ينجح احياناً في ما يحتال به . فاذا حجز سنبوكاً مرة في السنة وسلم من فيه الى الحكومة يشتريهن بعدئذ بوساطة احد رجاله ويأخذهن الى القصر .

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل . صاحبه سافر البارح الى جيبوتي عيننا عليه ، كن مطمئن البال .

وقد يكون « صاحبه » احد رجاله . عرفنا بعدئذ انه كان صادقا في بعض ما قال. ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي. ان في هذا الخبر بداءة حادثة يجيء ذكرها في حينه .

نزلنا الساعة الثانية بعد منتصف الليل الى الساحة لنركب السيارة فلقينا هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي ينتظرنا .

وضع الخادم أبكر امتعة سيده في السيارة عند ارجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه . ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق فأبى وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم .

فضل الدين : يد الاستاذ تؤلمه وهو يحتاج الى شيء يسندها اليه . تفضل اجلس قدامنا .

السيد مثلي لا يجلس جنب السائق .

فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحوقل ، ثم : اجلس او نمشي . فهز السيد رأسه ، فأمر فضل الدين السائق بالسير ، فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة . فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم .

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن «انعم الله عليهم». او ان السيد هو سيدُ برج النحوس فجذبنا كلنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواه . بل اعمانا فبتنا لا نعرف في السماء نجماً نهتدي بـه . ضللنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد . بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من ميدي ، فمن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم . ثم ضللنا ثانية وثالثة قبل ان نصل الى حبْل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بالرقيق ، وعدنا اتفاقاً او الهاماً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويخفى في نور القمر الضئيل .

وصلنا الى اللحيّة عند شروق الشمس ، فالفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الايطالية والبريطانية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى الاولى. الا انها لا تزال على شيء من العمران في ابنيتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والاقذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال . هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض ارجائها ولا سيما في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ، منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضراً ليلة الوليمة والرقص التي احياها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها . ومما قال : وكنا ساعة الفجر لا نزال نرقص

حول النار . هذا اجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن .

واما سكان اللحية ، وفيهم السوداني والصومالي والمولّد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب . وفيها ثكنة مهجورة وقلعة متهدمة ، واخربة كما قلت كثيرة . فقد كانت في آخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط بريطاني كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حلق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدهم . فتجيئهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية . وما عتم ان تغلب الاسطول البريطاني فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها . وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبر الهدنة فأرخه الانكليز هكذا : ١١ — ١١ — ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من سنة ١٩١٨ . كان السيد مصطفى يومئذ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طبيباً في الجيش الادريسي . فنزل بعض الضباط البريطانيين الى البر يعيدون معهما للخبر السعيد . احتفلوا بالنصر وبانتهاء الحرب في بلاد لم تنته ِ وأسفاه فيها الحروب .

استأنفنا السير صباح ذلك اليوم فمررنا ونحن قريبون من الشاطىء بالتُمْنية وهي قرية صيادين ، وكذلك بالخوْبَة التي لم يكن فيها ساعتئذٍ غير الاولاد . فخرجوا جميعاً يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة . وظل بعضهم وهم يثبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق ، فتقهقروا الا واحداً ظلّ في ثباته وعدوه . ثم سمعناه يقول للسائق : دَله دَله ، اي على مهل . كأنه اراد ان يرافقنا بل يسابقنا الى الحديدة

سمعت السموات والأرض طلبة الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تماماً. غرقت دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كلنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء الولد يساعدنا فدفعناها الى الامام . اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا الى مجالسنا وفضل الدين يقول: والحمدلله يا سيد. فاجاب بلا خجل ولا اعتذار : والحمدلله .

دع السيد يا دكتور واستقبل السراب . هوذا السراب ، وقد تراءى لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المالحة التي تتسرب اليها مياه البحر ، او لسانا من البر امتد اليه . وكانت اكواخ القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار – ظلال في المياه ، ولا مياه ولا ظلال . اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر . لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه السماء . ولما دنونا منها بدت اكواخا لا ريب فيها ، وكانت المياه اي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً عن الابصار .

بعد ان اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ، والسيد في مكانه لا يتزحزح . فرجوناه ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف علينا المصيبة ، ففعل متردداً ، وما كادت رجله الشريفة تطأ الارض حتى تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراءها وهو يظن انها ستستمر جارية .

وصلنا الى الصّليف المشهورة بملحها . وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة بريطانية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضها . انها لقرية جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر والهلال ذيل ضلع اي جبل يمتد شرقاً الى الزيدّية في سفح جبال اليمن . خطر لي ونحن

نجتاز هذا الجبل الضيق الطويل ، هذا الضلع في الارض ، خاطر قد ء‌م البريطانيين والاماميين فيما يريدون من تحقيق الصلح . ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة بين اليمن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان فتكون الزيدية وما دونها جنوباً للزيود ، وتكون الصليف وما دونها شمالا للادارسة . والجبل فاصل بين الاثنين .

تغيرت التربة دون ذاك الجبل جنوباً فقلت فيها السبخة وكثرت الرمال . وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء القراح . فهناك السلم والالب والعشر والنخيل . وهناك دلائل الاجتهاد في بقعة من القطن شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه . تبارك الماء العذب ولكن الرمال ... كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسمياً .

انتصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابناء البلاد ، فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوّها الرمل نحس بالنار تخترق نعالنا فتحرق ارجلنا . وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوكٍ يغيظ حتى الاولياء .

فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق : يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والا تبقى هنا . فنزل هذه المرة السيد ولبس نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد تسييرها باللمس والصلاة . فازدادت السيارة تمرداً ، وفضل الدين غيظاً ، فقال : سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .

كنا ساعتئذٍ في اشد حالنا أُصيب السائق بدوار فوقع مغمى عليه ،

وكدت انا اقع كذلك من شدة الغيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج السيارة ويستعيذ بالله من برج النحوس . فارسلنا السيد الصالح أبكر الى تربة اقرب قرية منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقوياء من العرب والسود يرأسهم قزم جبارسلم علينا فاضحكنا، وحرك السيارة فادهشنا وملأ قلوبنا ابتهاجاً .

— السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيرها او تسييرها . اذا تبتم الى الله نكسرها وننزلكم عندنا وتركبون غداً الهجين مثل المؤمنين .

خلصونا مما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخشيش فتقاسمه ورجاله وودعنا قائلًا . احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقطعوا الحمد ما دمتم في بنت الجن هائمين .

ما كدنا ننتهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة وكان السائق لا يزال متأثراً مما اصابه فغاصت السيارة للمرة العاشرة وعلقت الدواليب و — قم يا سيد .

فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا انزل حتى نصل الى الحديدة . فقلت ، وكانت شعلة الغيظ قد اضطرمت فيّ ايضاً : ستنزل هنا وتبقى هنا : ان من يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ، يا لضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكتاً حتى وصلنا الى الحديدة فودعنا هناك واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق والتجار الحضارمة يمشون وراءه بعيدين عنه ، وهو يمشي ويهز كتفيه كأنه حاكم البلد .

ثم علمت انه من كبار سادات تَصيوون ومقامه هناك شبيه بمقام اسقف عندنا . فمثلت لنفسي اسقفاً رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق ، ونستعينه على جرها من الرمل ، ونقول له فوق ذلك . انت مثل السراب . بل السراب احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخرى لاكفر عن ذنب كان فيه ، سامحه وسامحنا الله شريكاً كريماً . (١)

---

(١) جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احدالحضارمة هناك يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخرالسادة العلماء، ويطعن علي طعناً عجيباً ، كسف الغيظ فيه كل اقمار العلم والادب في صيوون . ولكن الكاتب لم يتصد لنفي شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المحترم .

تجارة الرقيق

المراقبة في البحر الاحمر – الحكومة الانكليزية في عدن – الحكومة الفرنسية في جيبوتي – سلطان تاجورا – بلاد الحبشة – مصدر التجارة – رئيسها الاكبر – حديث مع الوكيل في عدن – الشريعة تقيد الوجدان – في الحجاز يحللون النخاسة – الحكومة الحجازية تقاومها ظاهراً – حادثة الحديدة – الوكيل يحاول توقيف السنبوك وتخليص الارقاء – الحكومة تأذن بنزولهم الى المدينة – كتاب الى عامل الحديدة – الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي – آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتاق – التبعة على السادة والاشراف .

ايما رجل كانت له جارية فأدبها
واعتقها وتزوجها فله اجران .

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فجئت هذه البلاد ورأيتها بعيني . كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعا في هذا الزمان فخاب في البلاد العربية ظني . كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة للامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة واأسفاه او متناومة ، او عاجزة . بل وجدت الحكومة احيانا حليفة الرعاع .

اما الحكومة البريطانية بعدن فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرُها الحربية احيانا من السنابيك حاملة

الرقيق . ولكنها لا تكمل عملها . فهي بعد ان تحجز السنبوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معاً . او بالحري تعيد العبيد اذا شاؤوا الى بلادهم وتبعث الناخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم الحكومة الفرنسية .

والحكومة الفرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في المنطقة اي سلطان تاجورا (١). اما هذا السلطان الدنقلي المستقل الذي لم اتشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحمونه . هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احرازه حرفتان غير « التسلطن » واحدة شريفة وهي السكافة – ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله – والاخرى .... تباركت ثمرة بطنك ايتها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تنفد الجواري ولا تكسد سوقهن .

ان لسموه في الحبشة رجالاً يجيئونه دائماً بمن يبتاعون او يخطفون او يستغوون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم الى تجـار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي يجيء تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويفتح له الكيس ، فيملأه التاجر ذهبا وفضة ويعود بسنبوك الى بلاد العرب ملؤه الجواري والعبيد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الفرنسية تقاسم السلطان الدنقلي ارباحه في هـذه التجارة المستنكرة . ومما لا ريب فيه انهـا تحسن معاملته وتكرمه وتجامله . دعاه مرة الحاكم الفرنسي لينزل بضعة ايام ضيفاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

(١) تاجورا مقاطعـة شرقي جيبوتي ذات استقلال داخلي شبيهة بالنواحي المحمية حول عدن .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر فخم جيء بفرشه ورياشه من باريس . فحدثت السلطان نفسه ان هؤلاء الفرنسيين تجار مثله ويربحون من بلاده ارباحا كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم؟ اغتنم السلطان هذه الفرصة الثمينة فدعا تجار المدينة الى القصر وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في كيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

ان تاجورا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية الفرنسية ، سلطان تلك التجارة . أفتعجب بعد ذلك من فساد المدنية الغربية في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيل المعتمد في عدن بالامر فقال ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاقبة النخاسين لانهم غالبا من بلاد لا سيادة لهم اي للانكليز فيها. فقلت :ومن وجهة خلقية ، ومن وجهة دينية ، ومن وجهة محض انسانية ،اذا جردنا المدنية الغربية من الخلق والتهذيب والحب الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها لسيادة الشرق يوماً .واذا المعتمد مثل بنخاس من تهامة او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن أيظن ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ملوك العرب كلهم اتظن ايها القارىء ان العالم المتمدن ينصرهم في هذا الامر على البريطانيين مهما كان حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه يأمرهم باعتاق الرقيق؟ اني انصر كل من يسعى في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها او يتغاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يحللون ويحبذون النخاسة ومنهم من يأسف انها غير مستمرة ويلعن المراقبة البريطانية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها وينهى عنها . لا ريب ان جلالة الملك حسين يستنكر

العبوديه وهو أعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرقيق والاعتاق . ولكن حكومته وأسفاه هي يوما نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في ما تفرضه ضريبة على كل رقيق يدخل جدة .

حدث انها حجرت ذات يوم أحد سنابيك الاثم والعار بما فيه من جوارٍ وعبيد فآوتهم واحسنت معاملتهم ثم - ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جدة وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذا اذنت ببيعهم على حساب اصحابهم ، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالا على كل رقيق ... يجيء النخاسون بالعبيد اما بحراً في السنابيك واما براً من ميدي . وقد اطلعت القارىء على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة وما قاله بعض النخاسين وهم يخادعون البريطانيين والحكومه الادريسية . على ان احـــد السادة قال لي واثبت قوله بعض الموظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد . بالمرصاد ؟

اعود الى يوميتي فانقل منها ما يلي :

الحديدة في ٢ تموز ١٩٢٢ — ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور الميناء يقول : سنبوك جوارٍ رسا في الميناءَ وناخوذاه ورجاله دخلوا البلد . وقد علمنا ايضا انهم سائرون الى ميدي وانهم لم يرسوا في الحديدة الا ليبتاعوا بعض الزاد .

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالا .

بعد عشر دقائق حضر المدير .

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجواري الذي في الميناء ؟

المدير : نعم .

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة .

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه . فاحضرهم بعد نصف ساعة وكان يتقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأه ، حاد النظر ، دخل المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصافحه مصافحة الاقران وجلس على الديوان . مَن الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدة خصوصاً ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره .

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ، وان صاحب « المال » — البضاعه — سبقهم الى ميدي . وما هم الا مأجورون مأمورون . اما اذن الحكومة فها هو المحافظ بنفسه .

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طبيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوذاه ان يحضر الارقاء ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجيء بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدة اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بوساطة سنبوك الى جزيرة قمران ، اي ست ساعات في الريح الموالية ، ومنها باللاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنبوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوذاه بوعده . على انه جاء في المساء يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوء والريح

من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد – « والله بالله » واشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدة الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدة اليوم سنبوكاً يحمل عدداً من الجواري والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجـــار الرقيق بهم من الشاطىء الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة الادريسية اباحت لهـــم ذلك ، الامر الذي استغربته جداً ، فجئت الفت اليه نظر سيادتكم وأعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مذمومـــة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، وفضلاً عن ان الدول المتمدنة وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعاً باتـــاً ، فهي تشين الاسم الادريسي وتضر بالحكومة الادريسية ادبياً وسياسياً ضرراً جسيماً . واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهـــتمام افصح عن عقيدتي وعواطفي كمسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امثلها . اما السنبوك المذكور فأملي ان تتخذ الحكومـــة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاقبة ناخوذاه وبحريته وتجار الرقيق فيه ، ثم تعتق اولئك البنات والصبيان من الاسر . فان في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً وعدلها عدلاً ، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ احكامهـــا المبنية على الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معتمد بريطانيا السياسي

جاء الجواب ، فلم يكن مرضيا ، على ما فيه من عـــذر ووعـد وتأكيد ، اما الجواب الفعلي الحقيقي فاليكه من يوميتي :

في ٣ تموز ـ ٤ ذي العقدة

جاء مأمور الميناء هذا الصباح وفي وجهه خبر مفجع . ثم جاء مدير الشرطة وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم انزلوا الجواري والعبيد ليلاً خارج المدينة وجاء ... « احد موظفي الحكومة في الحديدة» فاختار من الجواري واحدة واشتراها . ثم ساقوا الباقين وهم حفاة عراة براً الى ميدي .

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهـل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم يا سيدي السياط .

امش ـ امشوا . وهم يمشون حفاة عراة من الحديدة الى ميدي ، مئتي ميل في شمس تهامة وقيظها . وانك اذا وقفت دقيقة فيتلك الطريق في النهار تخترق النار نعلك وتحرق رجليك .

رحماكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انـتم حياة التجارة بالرقيق ، انتم امل النخـــاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون ، انتم الراغبون في الاستعباد. فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقرأوا ، عفا الله عنكم ، ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتاق الجزئي المتدرج ، ثم في سورة البلد وسورة التوبة وفيهما الامر بالاعتاق التام .

قال الرسول :

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها واعتقها وتزوجهافله اجران ـ حديث شريف .

ولا يقل احدكم عبدي امتي وليقل فتاتي وفتاي ـ حديث شريف .

فهل من يأمر بالاعتاق التام يقر دوام العبودية ؟ وهل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدّعو البر والاحسان ، وتفاخروا بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ،ولا ما يحلله او يجيزه لا خلقاً ولا شرعاً ولا ديناً . واذا اتخذتم الآية ـ وما ملكت أيديكم ـ حجة وسلاحاً فانكم تحتجون وتتسلحون بالحرف على المعنى ، وبالعرض على الجوهر ، وبالحال ، وقد زال ، على الحقيقة . تتسلحون بظاهر الامور وكل ما فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على جهل فيكم ، او على علم افسده حب الذات .

اجل ان اكثر الذين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان ، فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد محق العبودية تماماًبالطرق الممكنة في زمانه. فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم . بل امر باعتاقهم .

هلا ذكرتم ، وانتم تفاخرون بانكم من السليلة النبوية المباركة ، ما جاء في الكتاب . هلا انصتم الى الحديث الشريف ، هلا اقتديتم ولو في هذه بالنبي . اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله .

دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني. فقالت عائشة : نعم . فقالت الجارية : ولكن لا يبيعونني حتى يشترطوا ولائي .

فرفضت عائشة . ولما علم النبي بذلك غضب وجاء الى عائشة يقول : اشتريها واعتقيها ودعيهم يشترطون ما شاؤوا .

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة ؟ ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة نفسه . اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فتمحقها لاذل في عين الله ممن لا يعرفون الله ، واحط في نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الانسان .

خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين – والامر شورى بينهم –اصلاح ذات البين – – حسن نية الادريسي – تميز الحدود بين الحجاز وعسير واليمن – بريطانيا العظمى – المداخلة الاجنبية – الخطوة الاولى الى الوحدة – – كتاب الى وزير الخارجية – الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة – توحيد النظـــام العسكري والسياسة الخارجية – التلغرافات اللاسلكية – العهود القومية – صندوق التوفير من مال الزكاة –لماذا لم يوقع الملك حسين على المعاهدة .

ودّعت الحديدة بعد حادثة الرقيق التي ذكرت . بل ودعت تهامة آسفاً لما كان من ختام رحلتي فيها . على انه لو حدثت قبل سفري الى جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اظنني كنت فزت بما ابغيه من عقد معاهدة بين السيد والملك. وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل هذه المآثم التي تقترف تحت عـين الحكومة ، تثير السخط والغيظ ، وتضعف فوق ذلك العزم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرانها .

بيد ان لنا فيمن يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املاً بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها . اقرب السبل الى ذلك انما هو العزم في الحكومة ، والوجدان في السادة والاعيان . ثم اتفاق بين الملوك والامراء الحاكمين على المؤازرة في مكافحتها. ولكنت سعيت في اضافة مادة في هذا الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به . فعسى ان ما فاتني لا يفوت غيري ممن سيقتفون الاثر ويسعون في انجاح العمل .

قبل سفري من الحديدة ارسلت المعاهدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله .

حيّا الله مولاي الملك بالخير والسعادة . اما بعد ، قد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي فعسى ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتكم . والآن ، وقد عدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها وتم الاتفاق عليها .

ان في سيادة السيد الادريسي قلبا كبيراً ، وله نظر في الامور غالباً ثاقب ، وعنده لجلالتكم من الاخلاص ما لا غبار عليه . من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قريبة سهلة ...... وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيد لمعاهدة كان النظر فيهما سابقاً مع السيد السقاف . فاضفنا بعض ما جاء فيهما الى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته . ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة وما جاء في المادة الرابعة ابتداءً بـ « وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما امكن من الاصلاح » الى حد « مجرد الاعتداء والبغي » وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداءً بـ « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى آخرها . وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العداء ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التعهد من جلالتكم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يتم بينكم « تمييز حدود

معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك . فاني اعتقد ان لحضرة الامام يحيي رغبة بالتسوية ايضاً اللهم اذا جئناه من باب يأمن أليه . وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتكم الآن . اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو الا الاساس للعمل .

بقيت مسألة اخرى . كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانيا العظمى وحاجة امراء العرب الى موالاتها وصداقتها . فبحثت وسيادته في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمن في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تخل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولاء والاعتماد من الامور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم يصحبها كتاب من سيادة الامام وآخر من السيد السنوسي . فعسى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . لست ارى غير هذه الطريقة الى تحقيق آمالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاقين. وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولاء بين الاقران والاكفاء ، يتبعها خطوات فيها ما ننشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الامر

ذوي الآراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا شك انكم ستسعون ، وسيكلل سعيكم بالنجـاح ، في اصلاح ذات البين بـين السيد الادريسي والامام يحيى ، كما انه سيسعى هو في الاصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً. ايدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبتُ الى صاحب الاقبال وزير الخارجية الشيخ فؤاد الخطيب ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد .

السلام عليك،عسى ان تكون بخير، وان يكون وصلك كتابي السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين . وها انا ذا اكتب اليك الآن بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها . وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة يشفع بها علمي واخلاصي . لا بد من الصراحة في الامر. ان الاتفاق بين امراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية. والاتفاق لايكون الا اذا تنازل كل امير عن بعض خصوصياته. انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن نبغيها والامراء الذين حدثتهم يبغونها. ولكنهم حراصٌ على استقلالهم ، وهم يخشون نفوذاً يظنونه سرى اليكم وتمكن منكم . قد ازلت هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك . اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية الاميركية بعدن .

بقي ان اقول هذه الكلمة . لا تطالبوا الان بتوحيد العلم وتوحيد النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الخارجية . لا . ولا بالاعتراف بان جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر . وقد يفسد ما هو ألزم في البداءة . ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي السياسي ، ولا بد ان تصلوا اليها وتصعدوها . الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه . عليك اذن وعلى الامير زيد ان تنعما النظر في المسئلة وتبذلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبته اليه .

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا اعتبرناه مقدمة لخطير الاعمال . ومن الزم الاشياء التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية . فقد تباحثت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقوموا بنفقات آلة تُركب في جيزان او في صبيا . اني افضل صبيا . وستبحثون ملياً في الامر عندما تؤمون جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكلترا فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، راغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فمتى تمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم تتوفقون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السياسي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص بادّخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشاءات العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا

عمل بها بداءة الاستقلال الاقتصادي الذي بدونه لا يتم استقلال سياسي في هذا الزمان . واني رسول هذه الفكرة ابثها في ديوان كل امير وكل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا استقلال العرب ومفتاحه اذ كانوا يفقهون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلاً في مد سكة حديد بين الحجاز وعسير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائيين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشترون ما يحتاجون من مواد وأدوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هـذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الآن خيراً ونفعاً للجميع ، وقعوها اذن . وفقكم الله واطال بقاءكم .   صديقكم المخلص

ها هنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير .

رغبت في خدمـة الامام بتقريب قضيته من فهم البريطانيين ومصلحتهم ، وبتقريب البريطانيين من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون ويتفقون ، فابى حضرته لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها . ان الامام طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي لا يعترف به للملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز بكل من اليمن وعسير في البداءة ولو بخيط من حرير ، لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منهما ولا اظنـه

استحسنهما لاسباب ادركها ولا سبيل الى تداركها . لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بان الملك حسين هو ملك العرب [1] ولكنهما مدا اليه يد الولاء والمؤازرة فرفضها .

(١) كأن مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابسن : كل شيء او لا شيء . وقد كانت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية : لا شيء — الا الغم له ولآله ولكل مريديه . اني متيقن — واظن ان كل من له شيء من العلم في الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين — انه لو وقع الحسين هاتين المعاهدتين لما نكب تلك النكبة في خريف سنة ١٩٢٤ . راجع تاريخ نجد وملحقاته .



سمو السلطان عبد الكريم فضل

سلاطين ومشايخ لحج

والنواحي المحمية

لحج والنواحي المحمية

حدودها : جنوباً ساحل البحر العربي، من باب المندب الى بَلحاف بالقرب من التقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي . شرقاً حضرموت. غرباً البحر الاحمر. شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيي . وقد قلقلت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية .

مساحتها : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع

سكانها : نحو ثلاثمئة الف نفس .

اهم قبائلها : العَبادِلة واليوافِع وآل فضل والعوالق والحواشب والصُبَّيحَة .

اهم مدنها : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي . ولحج وأبين وأنصاب ومُسيمير وحُبان .

مذاهبها : السنّة ، شوافع وحنفيون . الشيعة ، جعفريون واسماعيليون وزيديون . وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى . وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام .

الثالوث المادي في عدن

المبدأ المرن في السياسة الانكليزية – درجات المرونة في البلاد العربية – ربقة تسر وربقة تخنق وربقة لا تضر – المعاهدات والمشاهرات والتدخلات – « انت تبغي الاستقلال، انت مستقل ، ونحن ندفع لك المال لتحافظ على استقلالك » – النياشين ومدافع الترحيب – بعثة فرنسية تزور عدن سنة ١٧٠٩ – عدن كما شاهدها المسيو لاروك – عدن اليوم – شعوب واديان – التواهي اي القسم الاوروبي – الثالوث المادي – البرق والنور والبخار – الاستعمار والاستثمار – الاوروبيون اعداء بعضهم لبعض – الدفاع عن عدن – المبدأ التجاري في الدفاع – المال ارخص من الرجال – من هو الكاسب، من يدفع المشاهرات ام من يقبضها .

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية . لا تكن قاسياً فتكسر . ولكننا نظلم الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدؤهم في البلدان التي يحكمونها خارج الجزائر الانكليزية . اما في البلاد العربية فلا ريب ان المرونة هي غالباً روح سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في الاقل مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذٍ الى مجاريها الملتوية المائعة .

ان من يمعن النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافية والسياسية والدينية ، وفي تشتت امورها واختلاف نزعاتها ، يرى بعض الحكمة في خطة سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعتريها شيء من الضعف . مدها ، مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء رقيقة لطيفة ، مطها من الكويت فتصل الى ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن

فتصل الى الجوف ، فتداعب اطرافها الوهابية وتتعلق بانامل ابن سعود . مطها من الحديدة فتنعقد في صبيا ، ومن جدة فتلتوي وتدق ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة . ولكل مطة خطة ، ولكل يد تمط اسلوب خاص بصاحبها . في اللين ربقات لكل الرؤوس ، والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع في دار الأعتماد بعدن من الربقات السياسية . هذه ربقة تسر ، وهذه ربقة تخنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ، توجبها احوال اليمن الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . وكيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبسه وفرش بيته واخلاقه وتهذيبه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهمه من الامر غير الحكم والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، في المشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين او يسافر منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم وبمصلحة بريطانيا . نعم ، ما من امير او سلطان او شيخ قبيلة الا يبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات وبهدية كل عام . هذه

لعمري بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون للامير العربي: انت تبغي الاستقلال . انت مستقل نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغي الا ما تبغيه وهذا عهد الولاء والحماية . ولكن في هذا العهد الربقة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان او الامير ان يتعاهد واحد زملائه او يبيع او ان يؤجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد امراء العرب اوالاجانب او يمنح امتيازاً دون ان يستشير ويستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق [1] وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك . فالانكليز وهـم سادة عـدن ونواحيهـا لا يبغون غيرهم من الاوروبيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآية ، فيحمي العربُ الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل

---

(١) كانت سياسة حاكم عـدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة : فرّق تسد . لان الحكومة او بالحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تمده بما يحتاج من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدى القبائل كان الحاكم يثير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانيا » ...

« وانه وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تفيد الانكليز في عدن لانها توسع الثلمة بين القبائل » . هذا ما كتبته ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه الانكليزي« ملوك العرب »

المشاهرات . ومنهم « اصدقاؤنا المخلصون المحبون » الذين حازوا من ملك انكلترا وامبراطور الهند لقباً [١] او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديعاً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي التسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق . وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة ستراها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من املاك الدولة العثمانية اسما وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قبل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدن بمجدها والاساكل البحرية بتجارتها . فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة فرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ، يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة [٢] . فعرّفنا هذا الاجنبي بعدن العربية في ذاك الزمان ، وبحاكمها الكريم الاخلاق الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات .

اقام الفرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح اليوم . قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل

---

(١) النياشين البريطانيـــة التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق تنحصر برتبتـين K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India

(٢) Voyage dans l'Arabie Heureuse par la Roque

عدن الشرق الصميم ، الرقيق الجانب ، الكريم الخلق ، العزيز الشأن . والفضل لكاتب تلك البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً تثبت جله صورة حفرها على النحاس رسام هولندي في ذاك الزمان . رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين ارميا ينثر الاشعار في ندب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة يا عدن ؟ واين قصورك تفوق قصور ابن ذي جدن ؟ واين حماماتك الجميلة المرصوفة بانواع الرخام ، المزدانة ببقية من عهد الاصنام ؟ واين مساجدك ذات القباب البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء ؟ واين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك ؟ بل اين تلك اللغة اليوم من رطانات وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليهـا ؟ بل اين تلك الروح روح قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذاك المظهر الشريف النقي مظهر الوحدة القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية .

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا اريد بالتوحيد الدين فقط بل القومية واللغة ايضاً . اما الوحدة القومية فكان قد تخللها شيء من خليط الهنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان احتلها الانكليز . وكان البنيان[1] في عدن يوم جاءتها البعثة الفرنسية ، والمسيو لاروك يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصيارفة فيها . وكان العربي اليماني الزيدي يكرمهم ويتخذ له منهم الاخدان ، ويحسن اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناءه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب .

(١) بنيا في لغتهم صاحب حانوت والبنيان فينيقيو الهندكثيرو الاسفار والاتجار .

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيـــد . مدينة عمومية لا عربية ولا شرقية ولا اوروبية ، مدينة التجـــارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز استيراد وتوزيع مهم في البحر العربي ومن الوجهة البحرية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك مستودع رئيسي للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزر البريطانية والهنـــد . لا يفوقها سوى جبل طارق والسويس .

أن المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب اي المعسكر . في الاولى وهي على الشاطىء دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضبـــاط والموظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيهـــا بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم البركان ، او ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب الارض والاديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والبارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُنْيا الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحبُ صاحبِ الزمان ، واليهودي مسبّح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون امواتهم ومن يحرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي ام هندية ام اوروبية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون

ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات . قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدناً لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبُنيان . اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في فم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه التقية ، ويعززه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحري لا يهمه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن البريطانية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها الثكنات وقسماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحماء يكلل قننها حصون قديمة مهجورة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الآثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء[1] تلك الاسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين ، بناءً متيناً محكماً ، محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلىء في السد تحته ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة اسداد الى الخزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا تمتلىء لقلة الامطار الا مرة او مرتين كل بضع سنوات .

....

(١) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فمن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسمائة سنة قبل المسيح . ومما لا يختلف في امرها انها كانت مردومة عند الاحتلال البريطاني فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ وانها تسع ثمانين مليون غالون من الماء .

وفي التواهي اي عدن السياسة ، دائرة اشغال هي اهم من كل ما ذكر هناك . وبين تلك الربى المكللة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بوساطة الانفاق، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب اوبالسياسة . رابية عامرة نيرة منيرة ، بيوتهـا كلها حديثة هندسة وبناءً ، ومهنةُ سكانها اهم من المهن الرسمية كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيهـا المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها . واليها ومنها تمتـد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استراليا والفيليبين ، من افريقيـا واوروبا ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسـلاك العلم والعمل . فتهمهم وتطن تحت الماء في اعماق البحار ، وتبرق على صدر اليبس ، ونورها كامن في السلك ، والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في الحديد . هي انباء العـالم ، انباء التجارة والاجتماع والسياسة ، يحملها البرق تحت الامواج فتصل الى عدن ، تلك الربوة المهمة فيها ، الى مركز البرق هناك . ثم تتوزع منـه كما تتموج اليه امواجاً . فتربط الامم الشرقية بالغربيـة ، وتقضي على المسافات في المعاملات والمراسلات ، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الرابيـة شرقاً وجنوباً ، والنصف الآخر غرباً وشمالاً . وهذا السلك هو قوام الاتصال بين الشرق والغرب ، بل هو قوام التجارة وأحد اركان المدنية والعمران .

لا شك ان في العالم مراكز برق اكبر من تلك التي في عدن . ولكن ليس في العالم على ما اظن اهم منها . اقطع ذاك السلك ، اوقف العمل على تلك الرابية ، اسكت المئة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم واستبدادها في المسافات ، وتمسي قارات

العالم القديم كلها ، آسيا واوروبا وافريقيا واستراليا ، وكل منهـا في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها الرسول او البخار .

اجل، ان شركة التلغراف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران. وهناك في تلك الاهرام والركام ، على شاطىء البحر يدٌ سوداء ولكنها في العمران بيضاء ، هي يد الفحم والبخار . وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينـــير الميناء ليلا ويدير حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة . هوذا ثالوث عدن المادي . عرش البرق على هـــذه الرابية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطىء فوق ركام الفحم العالية . ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريهـــا باطناً الشرقيون . وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجـــارة والبحارة ! ليطفأ نور تلك المنارة ، منارة عدن ، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر . لتقفل ابواب شركات الفحم فتقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، وتنقطع اذ ذاك هذه الصلة الحديثة بين القارات كلها .

لا بد اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يد تديرهـــا وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم بريطانية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهمنا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان فيَّ ذرة من اليقين ان الامام يحيى يستطيع ان يقوم مقام البريطانيين لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليـــه . اني آسف ان الروح العربية تقلصت في عدن واضمحلت، وانه ليحزنني ويحزنك ايها القارىء العربي ، وقـــد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان نراها في يد

الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا الزمان الاكبر .

لنعدل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا . ان عدناً محطة في طريق العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . مهما استأثر الانكليز اذن فهم ولا ريب قائمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر مما يشاهده السائح في اليوم الاول من اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم . نبغي منهم الانصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني . نبغي منهم الاهتمام لما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم — المحافظة على شيء من الروح العربية — مدارس تعلم الناشئة لغتهم وآداب بلادهم — ماءً يصلح للشرب(١) . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون سنة وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرش الاسواق .

قلت الانصاف ، وهاك مثالاً واحداً من آفاته . في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والنقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع لمصرف الهند — البريطاني — المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح يجر من بئر في الشيخ عثمان ويوزع ببراميل تجرها الجمال . والطرق وهي دائماً في حاجة الى الاصلاح والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال .

هارولد جاكوب في كتابه « ملوك العرب »

ويضعف اسبابها . قد شكا كثيرون منهم الامر الى القناصل على مصرفاً اميركياً او فرنسياً او ايطالياً يفتح له فرعاً هناك فيخفف بالمناظرة استبداد واستئثار مصرف الهند . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، وللحكومة عدن ولا ريب يد فيها .

اني لا ارى عذراً لمثل هذا الاستئثار الذي يعد صغارة في الاستعمار. بيد ان من العدل الا افرد الانكليز بالذنب واخصهم دون سواهم بالتثريب . فالفرنسيون في جيبوتي مثلاً والايطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزياً او ايطالياً في جيبوتي فكيف بمصرف غير فرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً فرنسياً او انكليزياً في مصوع فكيف بمصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستئثار والاحتكار ، لمن اول اسباب الانحطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحماً ، اذا كنت تضن عليه بفرصة يغتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل؟ وباي حق ، والحال هذه ، تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لـــك ايها الاخ الاوروبي في ما اقول . قد يطيعك الشرقي ويخدمك ، ويكون لك جاسوساً على اخيــه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول الملوم . عد الى نفسك ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغي لك ولابن الشرق خيراً في بلاده مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المنصفين من الامتين . كأني اسمعك تقول : جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمرناها وليس لغيرنا الحق

ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب وهي الروح التي تفسد على الشرقي اهم مظـــاهر الحكم الغربي اي الادارة والنظام فحبذا الحكمة في اطماعهم تلطفها ، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة . لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون . ولكني اهاب على الأوروبيين من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل – ينهض نهضة واحدة على المدنية الاوروبية كلها ، بحذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودي قبـــل ان تأزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد من الآخر .

قلت ان الأمن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان البريطانيين قد بذلوا في سبيلهما قسطاً من القوة جسيماً ومثله من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس اكرم منهم فيها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلاءهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والخداع .

قد علموا عند احتلالهم عدن بأنه يجب لحمايتها جيش كبير يقيم فيها . ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الخطة التي تقدم الكلام عليها . ثم عندما تسلمت الحكومة البريطانية زمـام الامور في الهند ، استخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن ، ورأت انها تحتاج الى قوات بحرية وبرية ترابط فيها . وقـد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا

لم يكن لعدن منطقة كالدرع تصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من جهات ثلاث من الشرق والغرب والشمال ، ويجاربون كالقرود ، ويعتصمون بالجبال . فاتخذت لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وباشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة . فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من الغدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العُمُد بحراً . ثم اقامت في هذه المنطقة البريطانية الاستحكامات العسكرية ، ونقلت اليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها ، من الصُّبَيْحة والحواشب واليوافع وغيرهم .

فما العمل اذن ؟ قد يكلفنا الدفاع عن عدن الاف الجنيهات يومياً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيها دائماً عشرة آلاف جندي . وقد يكلفنا الدفاع عن المنطقة التي ظننّاها درعاً منيعاً الاف اخر . ولكني اقف عند حدٍ في النفقات لا يتجاوز الا القليل من هذه القيمة ، كل يوم ، وافترض ان الحكومة البريطانية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهم فتدخلها في منطقة الاحتلال . ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتتضاعف النفقات ، لتدفع عن هذه المقاطعات غارات عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً شمالاً . النتيجة : اننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والاخطار . فالولاء اذن خير من العداء . على ان لا بد لنا من قوة نرهب بها اولاً من نبغي ولاءه . فاذا كسرنا هذا الامير ، ونكلنا بذاك الشيخ ، ثم صافحنا والينا وبذلنا المال مشاهرات ، كان لنا من الصداقة والاذعان

ما نريد .

وكذلك كان . مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكلترا بكثير من المال والرجال . حاربت القبائل ثم عاهدت امراءهم واحداً واحداً . ضربتهم ، وفرقتهم ، واقامت الحدود بينهم ، ورفعتهم الى مقام السلاطين ، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية . وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الاخر . في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات او سلطنات . فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روبية كل شهر وهي اكبر المشاهرات ، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج ، وان في كل امارة زعماء ، رجال الامير او اعداءه ، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة ، فيبلغ ما تدفعه عن ولاء الامراء التسعة ورجالهم سبعة او ثمانية آلاف روبية كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية . واذا فرضنا ان في الافتراضين ، اي حساب الجيش وحساب الامراء ، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها . ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير . عشرون الف جندي للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين . هذه هي النسبة الاساسية . مَن الكاسب اذن ؟ أمَن يدفع المشاهرات أم من يقبضها ؟

انها من الانكليز سياسة العزم ، تتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال . فهم لا مراء تجار لا يبارون ، كما انهم ساسة محنكون . فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو . انها ، اذا اعتبرنا

مصلحة بريطانيا اولاً ثم العالم الذي تهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية ، لكانت النتيجة صفقة غانمة . اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الاسف والغم لانهم الخاسرون في كل حال ،الخاسرون وان تضاعفت الاموال .

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية – انكلترا تدافع عن الدولة العلية – خوفها من محمد علي باشا – معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ – اخراج ابراهيم باشا من سوريا ومن اليمن – شركة الهند مستودع الفحم – عدن – احتلالها سنة ١٨٣٩ – معاهدة الانكليز مع سلطان لحج – بنودها – المبدأ المرن – « انت صاحب الامر ونحن نتولى تنفيذه عنك » – توسيع حدود عدن – كيف اشتروا الشيخ عثمان – طريقة لا يحللها الانكليز في بلادهم – والشيخ عثمان لا تكفي – توسيع المنطقة المحتلة – كيد وقيد ومشاهرة .

لا يزال اولو العلم يذكرون ، برغم عاديات الحرب الكبرى وذاريات مؤتمر لوزان، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبا والشرق الادنى التي تعثر في اذيالها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأفسدت في ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة الى مـــا افادت به من الشرف والوجدان . الا وهي المسئلة الشرقية . ولا يزال اولو العلم والانصاف يذكرون كذلك ، برغم انقلابات كان للدهر فيهـا اليد الكبرى – قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجـــال والامم – وبرغم صيحات الهند التي اختلطت فيهـا اصوات « الخلافة » باصوات الـ « صَوارَج » [1] وبرغم تهاليل في انقره والاستانة ، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر الديك « الغالي » فيهـــا الاسد البريطاني ، ان

(٢) صوارج كلمة هندية يراد بها الاستقلال الداخلي او ما يدعى بالانكليزية Home Rule .

بريطانيا في مقدمة الدول واحياناً وحدها كانت تدافع دائماً عن سلامة الدولة العثمانية . ولم يكن دفاعها لينحصر في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف والمدفع والاموال . بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله .

ليس القصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسئلة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل عُقَدها مؤتمر لوزان . وانما قصدي ان اعود بالقارىء الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة تتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقية ، وبدفاع بريطانيا عن الدولة العثمانية .

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة وبريطانيا في تلك الايام ان محمد علي باشا بوساطة ابنه ابراهيم كان قد استولى على سوريا واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن . فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح . ورأت بريطانيا ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم مع مصالحها ، ولا سيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامتشقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحابهم من اليمن .

ثم عقد مؤتمر لندن فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، أعيدت بموجبها سوريا الى الدولة العلية واثبت محمد علي في ولاية مصر . ولكان قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذاك المؤتمر السياسة الفرنسية التي كانت تخشى مقاصد الانكليز الخفية . لم تكن تلك المقاصد

يومئذ غيرها اليوم، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث . فها قد انفتحت طريق البر من مصر الى سوريا ، فالعراق ، فالهند .

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر . وقد كانت بريطانيا في تلك الايام ، ايام البخار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر او البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للفحم لتموين البواخر في طريقها الى الهند ومنها . فرأى رجال شركة الهند الشرقية ان عدن اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق قلاعها العلم البريطاني . وكان ابراهيم باشا وهو في تهامة يبغيها كذلك ويخابر سلطان لحج بخصوصها. أوجس الانكليز خوفاً من ابراهيم فاقترنت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين .

كتب رئيس الوزارة البريطانية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا سنة ١٨٣٨ يقول ان لا حق له في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده منها . ثم عقد معاهدة مع الدولة تخول الانكليز الاتجار في الممالك العثمانية، وطلب منها عدن لتكون لهم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء . على انهم كانوا يبغونها مستودعاً للفحم كما قلت . وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، اين هي عدن ؟ وراء ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد الوف الاميال عن الاستانة ، ولا سيادة حقيقية للدولة فيها .

منح السلطان عبد المجيد الفرمان . ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان الفرمان وحده لا يكفي . فينبغي للاحتلال حادث يتذرعون به . كانت

المراكب البريطانية تمر في تلك الايام بعدن للمتاجرة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب ونهبوه فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس على مركب حربي في ثلاثمئة من الجنود يطلب التعويض ، فجـــاء الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان لحج ، الذي كان مقيماً فيهـــا ، فأبى سموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان العربي غيظاً . ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك ٢ سنة ١٨٣٩ فأمر السلطان الحامية بالدفاع ، فحدث قتـــال لم يدم طويلا . سلم العرب ، ولكن سلطان لحج في ازدرائه الخط الهمايوني ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانهة ، كانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة الف روبية .

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى التواهي ولم تكن يومئـذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها الستمائة نفساً . وظل السلطان مقيماً فيهـــا مدة قصيرة ، ثم تراخت العلائق بين السلطان ووكيل بريطانيا ، فحدث قتـــال ثان كان للانكليز رغبة فيه — يقول عرب عدن : كاد الانكليز كيدهم المعروف — فانتصروا على العبادلة اي قبيلة السلطان واخرجوهم من التواهي واستولوا على عدن استيلاء تاماً . منذ ذاك الحين لم يأذنوا لسلطانهم ان يكون له في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

* ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .

* ان تكون البلاد مستقلة فى داخلها استقلالاً تاماً .

* ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين » .

* ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .

* ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من الاجانب) (١) .

* ان يكون له راية خاصة وجنـــد وحق بمنح الالقاب والرتب .

* ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما بعدها بما فيها بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة لحج .

* ان لا يجوز لاجنبي التملك في لحج او الدخول اليها بدون اذن من السلطان **تعطيه الحكومة البريطانية** .

الخط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ترى ان فيها مثالاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز : بدون اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحـــال ، لانهم يتحاشوا ان يمسوا كرامة السلطان . فمطوا البند ليبرر السيادتين ويرضي الفريقين . انت يا صاحب السمو صاحب الامر . ولكننا نحن خدامك نتولى امره ، نتوكل عنك في اعطاء الاذن .

---

(١) قد تدرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة أعم ، فصار الامـــير العربي لا يستطيع ان يعقد مع امير عربي آخر معاهدة دون ان يستشير ويستأذن حكومة « جلالة الملك » .

وهو للآن كذلك . اذا وصل السائح الى عدن وشاء زيارة سلطان لحج يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة والثاني ان يطلب الاذن من دار الاعتماد . فـاذا كان هناك من مانع يعلمون سمـوه بذلك ويرفضون الاذن عنـه . والا فيمنحونه ويحددون مداه ومدته ، فلا يتجاوز حامله حدود لحج ولا يقيم فيها غير ايام معدودة .

اشرت في الفصل السابق الى صعوبة الدفـاع عن عدن اذا كانت وحدها البلدة المحتلة ما لم تخصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات واذ ذاك تضطرها الحاجة الى مكان يقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فتطلعوا الى بضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ عثمان ، فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قـالوا : نشتريها ، فقال : لا .

لجأت اذ ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحللها الحكومة البريطانية في بلادها . كان للسلطان شقيق يحب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا العبدلي يد في ادارة امور السلطنـة ، معززة بثقة اخيـه . فتقرب الانكليز منـه وتم سنة ١٨٨٢ الاتفـاق بينهم وبينه سراً على التنازل عن الشيخ عثمان مقابـل مبلغ قدره عشرون الف ريال ، (اربعون الف روبية) اي الفان وخمسمئة ذهب انكليزي . فامضى صك البيـع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فعده الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه حقوقه في الاسرة المالكة . ولكن ذلك لم يؤثر في خطـة الانكليز وسياستهم . دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيهـا حامية قوية لم

يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان يقاوموها. ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعاً ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين لحج والحكومة المحتلة .

ومنذ ذاك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الامير .

اما الشيخ عثمان فقداصبحت بلدة عامرةبالعساكر الهندية والحانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات . وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنياء عدن ، وجنينة حيوانات سكانها غزال وقنفذة وسعدان .

سلاطين ومشايخ لحج والنواحي المحمية

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج – اصل العبادلة – السلطان محسن بن فضل العبدلي – المعاهدة بينه وبين الانكليز – السلطان فضل بن علي محسن – اركان الملك الاربعة – السلطان احمد بن فضل – اتفاقه وامام صنعاء على الاتراك – المفاوضات السرية بينه وبين الادريسي – الملك حسين نصير الاتراك – السلطان احمد اول من سعى في سبيل الوحدة العربية – سفره إلى مصر – الزراعة في لحج – السلطان علي بن محسن بن فضل – ابن عمه المحسن المصلح محسن بن فضل – السلطان الحالي – تحسين علائقه مع الانكليز – المفاوضات بخصوص معاهدة جديدة – مطامع العبادلة في النواحي المحمية – طريقة الوراثة وتدخل الانكليز – المقال وانتخاب السلطان .

في سنة ١٧٠٩ ، عندما جاءت البعثة الفرنسية الى اليمن ، كان حاكم عدن مستقلاً عن امام صنعاء . وبعد ست وعشرين سنة من ذاك الحين استولى على عدن اول سلطان من سلاطين لحج . كان هذا الرجل قائداً من قواد الزيود طامعاً بالسيادة والمجد ، متساهلاً على ما يظهر في الامور الدينية . اقامه امام صنعاء عاملاً على اليمن الاسفل فتوسع بالاجازة الامامية واقام نفسه حاكماً مطلقاً مستقلاً ، بل اقام نفسه سلطانا . وبما ان عرب البلاد التي استولى عليها من الشوافع ، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه ، نبذ من اجلهم وفي سبيل مطامعه مذهب اجداده ، واتخذ المذهب الشافعي صراطاً الى النجاح قويماً . وهو مؤسس سلطنة لحج .

ثم خلفه في الحكم امراء من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة والعدالة ، وبحبهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة

وموضوع اهتمام سلاطينها . والعبادلة من اليمن الاعلى ، زيديو الاصل كما تبين يمتون بنسبهم الى عرب حمدان .

من سلاطين لحج اربعة مشهورون ، اولهم محسن بن فضل الذي احتل الانكليز عدن في عهده . وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعيـــة الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطـان محسن . ولكنه غُلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد واياهم معاهدة عندما احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق . ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا نرى لهما غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولهما : ان لا يحق للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى لحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من البريطانيين او من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها .

قبـــل الانكليز في البداءة بهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع سيطرتهم شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك العبارة الاعتمادية ، فقالوا : لا يحق لاجنبي ان يدخل الى لحج بدون اذن سلطانها **والاذن يطلب من دار الاعتماد بعدن** . وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب .

كان السلطان محسن غيوراً على استقلاله ، تواقاً الى السيادة الواسعة النطاق ، محسنا الى العشائر ، محباً للعلم والعلماء . ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يترقب الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً في مقاصد الانكليز . غلبوه اولا وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا التواهي ، وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها . فدارت عليه

الدوائر وكان هو من الظاعنين . اخرجوه من عـــدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذ بيت فيها . ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه .

ولكن خلف السلطان محسن لم يناوىء الانكليز ولا همّه ظاهراً امرهم ، بل ولى وجهه الشمال والغرب فسعى ان يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها . هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي . وقد كان مقداماً حكيماً ، يقرن البطش باصالة الرأي ، ويرى ، وهو امي ، ان لا عز للملك بغير الثروة ، ولا ثروة بغير الزراعة ، ولا زراعة بغير الامن والعدل . فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً . امتشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها ، فاستولى على الحواشب ، ومكن نفوذ العبادلة في العشائر ، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم . ولكنهم غلبوه بسياسة اللين ، بالقاعدة المرنة ، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين ، فاستحكمت بعدئذٍ العلائق بينه وبين عدن والمسيمير[1]. حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلاً حكيماً ، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية تتعلق بالزراعة ، وبادارة الاوقاف ، وبتسهيل صلات العشائر بعضها ببعض .

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن قرين السلطان محسن في الذكاء وحب العلم والعلماء ، فقد كان اشد حنكة ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثلهم كريماً احترمه البريطانيون ظاهراً وتعمدوا في معاملته ما كان من خلقه اي التكتم والمواربة .

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام يحيى صلة ولاء ادت الى اتفاق سري بينهما ، من شأنه مقاومة الترك والنزعة

(١) المسيمير هي عاصمة سلطنة الحواشب .

التركية في اليمن . ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوأته الاتراك ، بل مد يد الولاء والعون الى السيد الادريسي فكان سراً عضداً له في عسير ، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذٍ امير مكة دعوة للانضمام اليهم ، او الكف في الاقل عن مساعدة الاتراك على امام صبيا وجيزان[1].

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها. ولكنه ، بعد ان ارسل منشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب لانه تغير في سياسته وفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيراً سريعاً مفاجئاً .

كلما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادريسي وثباته في مبدئه وجهاده . فقد كان الامام يحيى عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كأنه لم يسعَ سراً وجهراً في تقويض السيادة التركية

---

(١) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدداً بمؤامرة تركية شريفية زيدية . فسعى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي فلم يفز بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فانجده بحملة يقودها نجلاه الاميران عبدالله وفيصل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسعى في سبيل الصلح بينها وبين الامام يحيى . ولكن سياسة السلطان احمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

في البلاد العربية . وقد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، وعاد من القاهرة يحمل وساماً من اوسمة الدولة، ويحمل غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوسمة ، فصك منها باسمه وشرع يمنحها الناس من عرب وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجمرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا مرية في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذا همة قعساء ، وذكاء ودهاء . هو السلطان الزراع السياسي ، محب الابهة والاشجار الغريبة . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومىء الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً تقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهتم لادارة الملك فاتكل في ذلك على ابن عمه محسن بن فضل شقيق السلطان الحالي .

كان السلطان محسن [1] اديباً ذكي الفؤاد ، عصرياً في ارائه واعماله ، محباً للاصلاح والعمران ، عالي الهمة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت العزم والارادة . فباشر في ايامه القصيرة اصلاحات

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلاطين ، وهم يدعون السلطان الاكبر « الوالد المالك والسلطان المعان » .

كثيرة في الجندية والمالية والمعارف ، ولكن الاقدار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعاً . ان مثله من امراء العرب الشديدي النزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق اماهم الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب . وقد وقف السلطان محسن ثروته على انشاء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فتأسست المدرسة وسيتم قريباً بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي .

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروبية . اما ملامحه العربية فمثل اخلاقه وحديثه لا غبار عليها . هو نحيل الجسم ، مستطيل الوجه ، دقيق الانف ، غائر العين ، عصبي المزاج وفي الخامسة والاربعين من العمر . لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما قاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان . وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعياً هادئاً سلمياً في مقاومته وتقويضه . ولا عجب اذا كان من مساعيه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها من خلفه .

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطموحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه . فهو والحق يقال اقرب الى الادب والزراعة منه الى السياسة والادارة . له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحسان العزف على البيانو ، وله رغبة في المطالعة فيهتم خصوصاً بتاريخ العرب والاسلام . وهو مثل السلطان احمد شغف بالزراعة يقضي ساعات من يومه في بساتينه . لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة . وقد يتخلل عزمه ، وهو عصبي المزاج ،

فترات يسيء الناس فهم اسبابها ونتائجها .

ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحرية الفكرية في الناس . اما علاقته مع البريطانيين فالمداراة اظهر ما فيها . على ان له في دار الاعتماد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولوا الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية .

ان في لحج نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم معنوياً وسياسياً ايضاً . فان ام السلطان عبد الكريم من اليوافع ، وبينه وبين العوالق ولاء وثيق العرى ، وله على الصُبيحة والحواشب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما .

اما الامارة في لحج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية . لذلك تقدم السلطان عبد الكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل . ولكن الانتخاب اي المبايعة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم العقال [1] اي حكام النواحي الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الاسرة المالكة .

ان ولي العهد وهو ينتخب في عهد السلطان الحاكم ، يصبح منذ ذاك الحين مقيداً بالسياستين ، سياسة لحج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة المعتمد وارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائرة مثل الاولى . هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها . لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها للتدخل في

---

(١) حاكم الولاية يدعى في اليمن عاملاً وفي نجد اميراً وفي هذه النواحي عاقلا .

شؤون البلاد .

حبذا لو ساعدوا في تغيير هذه الطريقة فيكتسبوا حب الناشئة العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد. ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او نفوذ فهو يضربهم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة البليغة الرائعة التي يجب ان تتدبرهـا اليوم وزارة المستعمرات بلندن هي هذه : كلما قل تدخل بريطانيا في شؤون الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزها لديهم . او بالاحرى كلما امتنعوا ، حكمةً ونزاهةً ، عن مد يدهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود . ولا اظنهم يبغون اكثر من ذلك .

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد – ضربها واحتـلالها – احتجاج الامام يحيى – زحف الاتراك على عدن – الجنود الانكليزية تتقدم الى الشيخ عثمان – تأخير النجدة الانكليزية – الامير لواء علي سعيد باشا يفاوض سلطان لحج – وقعة الدُكيم – تدمير لحج – وصول النجدة الانكليزية في الليل – اطلاق النار خطأً على السلطان ورجاله – الاسرة المالكة في عدن – لحج وعدن تتهادنان وتتسالمان – تركي كريم النجار – وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المندب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامـــام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر [١] قريباً منها في حِمى مدافع السفن الحربية ،

---

(١) قد اغضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه ، فكتب اليه الكرنـــل

فتقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة تُربه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، وبعدها أعادوا الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماويه الى لحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة البريطانية فيها قد احتاطت للامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين اخرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش البريطاني وصلت مع ذلك الى محجتها في ذاك اليوم ونازلت الاتراك خارج لحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على البريطانيين ، فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها ، وظلت شرذمات منهم في ام العُمُد والوَهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منهما فلم يتمكنوا الا بعد ان انجدتهم عشائر العرب

تابع شرح صفحة ٤٢٧

جاكوب المعاون الاول يومئذ في دار الاعتماد يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاءهم قريباً عن تلك الناحية يثبت ما يقول . — ملوك العرب لجاكوب .

التي استنجدوها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من لحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمة عن نكبة لحج وعما حل بالاسرة المالكة وبسلطانها حليف بريطانيا . فجئت اروي الخبر كما سمعته وتحققته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثين طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوريين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا الجركسي الذي سعى ان يضيف اليه قوة من العربان . كان علي سعيد باشا كريم الاخلاق جواداً ، فاحبه العرب وانضم الى جيشه بضعة آلاف من الحواشب واليوافع والصبيحة [١] فعول على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال البريطانيين هناك . وبما ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة بعث الى سلطانها يستأذنه بالمرور ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه . فأبى السلطان علي لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . ما اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبلجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش علي سعيد باشا من ماوية وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاوره فانجدوه ، وخرجوا

(١) وقد كتب الى الامام يحيى يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام طلبه . بل ان الامام ، كما قال علي سعيد باشا عندما سلم الى الانكليز ،كان يعارض رأيه في الزحف على عدن .

وهم بضعة آلاف يلاقون الاتراك وهم ضعفاهم عدداً واضعافهم عدة. فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهزم اللحجيون. ولذلك اسباب ثلاثة – لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . لم يكونوا على شيء من النظام . لم تصلهم النجده من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير القيظ وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهندية عصوا يومئذٍ ضباطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاد ثم انهزموا .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي واسرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم ، فاضطروا ان يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تخترقها القنابل ،فبادروا في الغسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين ، فالتقوا بالسلطان واسرته تحت جنح الظلام ،فظنوهم من كشافة العدو ،فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي برصاصة في رجله، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك [1] .

دخل الاتراك الى لحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر الى عدن من سلم من الاسرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف السلطان عبد الكريم السلطان علياً كان من

(١) « اننا في اهمالنا مسؤولون عن وفاة السلطان علي المبتسرة » . هارولد حاكوب في كتابه ملوك العرب .

اول اعماله انه احتج احتجاجاً شديداً على بريطانيا لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين اجداده ، فقبلت حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .

اقام السلطان والاسرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يتمتعون بها وبخيراتها . حتى اصبح هؤلاء في غنى عن الامداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن . بل كانوا بعد ان استقر امرهم في لحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان يُستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط يسمعون ولا شك بويلات تلك الايام واهوالها ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات . فلما امن الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا لحج للاتراك . ولما امن الاتراك على لحج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . قنع كل بما ملكت يده ، وكُللت القناعة بكرم الاخلاق .

اجل، بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وتملأ الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلون المعروف والاحسان وكان للقائد الجركسي علي سعيد باشا الفضل الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون يذكرونه اليوم بالفخر والاعجاب .

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لان الاهالي

والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون ، فازدهت تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعي وادي دُبن بالاخضرار والثمار . اما عدن وهي في فم البركان فلا ترى فيها ولا في جوارها عشبة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : — هذه بقولاتنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين : وهذا الارز والسكر لكم منهما ما تبغون . وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : عاش الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، او بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج ؛ قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

التمدن الحديث في لحج

اثر من الآثار في تاريخ البخار – بين عدن ولحج – وفد المرحبين – ملابس اللحجيين الزاهية – سمو السلطان – ردهة الاستقبال – صحيح البخاري والفونوغراف – وزير السلطان السيد علوي الجفري يفوه بكلمة – المستر كروس قنصل اميركا يلقي خطاباً بعشرين كلمة وكلمة – سلطان متمدن – الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الاميركي – مائدة السلطان – غرفة « البليادرو » – في البساتين مع شاعر وسلطان – اشجار لحج – شاعر لحج وفيلسوفها – ولي العهد الصامت – المدرسة الفضلية – المدافع والالقاب – عرب الحجور – خناجر لحج – البخاري والمسواك وعائشة – البخاري وصندوق الزجاج – ثالوث الحرية .

كتبت بعد وصولي الى عدن في طريقي الى صنعاء كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبد الكريم بن فضل ارغب اليه في التشرف بزيارته . وكتبت بوساطة قنصل اميركا الى دار الاعتماد استأذن بذلك . فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم جاءني بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن آخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقنا .

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق ، وعرباته قديمة ، جيء به من الهند ، وقاطراته اثر من الآثار في تاريخ البخار . فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح مستخرج منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها . ومنها الى دار الامير اي الحدود بين عدن

ولحج ، ثم صُبر ، فجلاجل ، فنوبة الهراني ، فالحوطة . وكلها ماعدا العاصمة ودار الامير اسماء لاكواخ من القش واللبن وسط شيء من شجر الاسل واميال من القفر الذي تهب فيــــه رياح البادية تحمل السموم والموت من الربع الخالي . ويمتد خط الحديد من الحوطة الى مكان يبعد ستة اميال عنها يدعى الُحداد .

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتزناها بساعتين — حتى البخار يتباطىء، يستشرق في الشرق — ووصلنا الى العاصمة بخير وسلامة ، فرحب بنا في المحطة ولي العهد وأخو السلطان وغيرهما من القصر ، وهم في ملابس تدهشك منهــا لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم شكلها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . وما اشبه اللحجي في فوطته المخططة التي تصل الى الركبة وعمامتــه الطويلة الذؤابة بالاسكتلندي اذا لبس ثوب عشــيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش .

ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيــه السلطان المالك عبد الكريم ، الا ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيته اول مرة في بنطلون ابيض ضيق حول الساق ، وفوقــــه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ، الا انه من الحرير الازرق المخطط ، يشطره زنار وافر مشدود الى وسط نحيل ، وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة صفراء حمراء زرقاء ملفوفة في شكل هرمي — هي الموضة ، عند اعيان لحج — وطي اضلعه ماينافض كل ذلك اي روح" عصرية" حتى الكفر . سنعود الى السلطان احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر فخف الى استقبالنا

عند الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فوق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور الشمس في جلباب من التقوى يُلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ — كأنه من كنيسة مسيحية — وتلطّفه السُجُف البيضاء المخرمة كأنها من قصر انكليزي ، ان في هذه القاعة مجلسين افرنجياً وعربياً ، فرش الاول غربيّ الشكل الا انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلة الفونوغراف ، وفرش الثاني دواوين عربية تُقطّعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذاك السفر الجليل المدهش ، الفريد في بابه ، الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرحُ شرحِ الشرح . ولا يجوز ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسْطلاني على صحيح البخاري ، والخزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الخزرجي .

— وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس قنصل اميركا في عدن .

فرحب سموه به واجلسنا ، اكراماً له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي يستقبل فيه ضيوفه الافرنج . ثم تعطف فاجلسنا كلنا محل الاهل والاحباب على الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف وتقربنا من البخاري .

— كان قنصل اميركا السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين . ولكم كان له عندنا من الحب والاكرام . قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان فسررت بالقنصل لانه قليل الكلام . شكر

سموّه وسكت . فاستلمت اطراف الحديث شاكراً ، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظـــاهر سياحتنا ، فاوقفتني عند هذا الحد كلمةٌ من السيد علـَوي شوّقت الي حديثه ، وهو لطيف الابتسامة ، برّاق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جليسه من مجرّد النظر اليـه . ولكني عرفت انه الوزير الاكبر وانه أهل لذا المقام العـــالي لانه مثل القنصل الامريكي قال كلمته وسكت .

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها .

فاضاف السلطان عبد الكريم الى ذلـــك كلمةً اخرى لطيفة : وسيزيدنا الاستاذ معرفة ان شاء الله . زيارة مثـله لا تنقضي في جلسة واحدة . ثم سألنا عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطـطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ، ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر . ثم مال سموه الى القنصل فقال : يجب ان تغض النظر يا حضرة القنصل . ليس عندنا ما يليق بكم ويشرفنا في نظر الامـــة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا .

ترجمت الى اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيهـــا جميل التواضع واللطف فادهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لا فض فوه : سأنقل كلام سموكم الى حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية .

هنأته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه . ومن ادرى باخواني الاميركيين مني ؟ لقد كنت اخشى منـــه سكوتاً يسيء او كلمة توجب الشرح والتفسير . وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في

ما يفعل اكثر منه في ما يقول :

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى ، الى المجلس العربي قائلاً : هذا بيتكم . ربما انتم تعبون . وراح تتبعه حاشيته الى داخل القصر . فجلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء يأبى الكتمان .

– سلطان عربي في ثياب هندية افرنجية .

– سلطان كريم حكيم .

وقال المستر كروس : سلطان متمدن .

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة . هذه مجلة عربية من مصر ، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاستانة . وهذه في ألواح الفونوغراف اغانٍ مصرية واناشيد انكليزية ، وهوذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي تسمعكه جوقة لحج العسكرية ! سررنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجمل آيات الترحيب والاكرام . والحق يقال ان ما من احد يزور لحج الا ويعجب بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، و كتبه . انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعة غير متنافرة في قصور لحج .

نمنا في الاسرة ضمن الكلل ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوعت الوانها ، فكأن الطاهي شرقي خدم في مطبخ فندقٍ اوروبي ، وشربنا التنبك في المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام واللي (١) وركبنا السيارة يصحبنا ولي العهد واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد نشرف على بساتينها الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة « البلياردو » وفيها طاولة انكليزية كبيرة اعدت عليها

(١) المداعة ، الارجيلة – واللي ، النربيش .

ذكرى ايام كنت بهذه اللعبة هائماً مبرزاً .

اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرها في قصور الامراء والبساتين ، وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين انك لتجد الشرق والغرب مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العمْب الهندي . ولكن الزراعة ، على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها ، لا تزال في طور النشوء . مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكان اول ما اوقف النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وثمود . فما المانع من استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمال ان لم تكن اقل : ان ارض لحج صالحة للآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي دُبن تحتاج الى هذه الآبار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا النقص في الزراعة ، فان ارض لحج خصبة جداً ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلًا منه في البساتين اذا بني سدٌ في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُبنْ تصب مياهه في الصيف فيسقي الارض المزروعة كلها .

– اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَمْب ناتجاً عن امرين : عدم التلقيح وقلة الماء .

– ولكن عمبنا في لحج على صغره اطيب من عمب الهند .

والعمب والخثاء [1] من الاشجار التي لا ترى في غير المناطق الحارة . مشينا في ظلالها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع في البساتين .

(١) العمب هو الـ Mango والخثاء هو الـ Papaya

ـ هذا السمُر الذي يذكره الشعراء .

فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :

كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمُرات الحي ناقف حنظل

ومنه الشوكي العربي واللاشوكي الهندي .

ـ وهذه شجرة تعطي قطناً افخر من القطن ودود الحرير نسميها شجرة « القطن الحريري » . هي تشابه في طولها ونحولها شجر الحور .

وهذا العُشْر الذي يستخرجون منه البارود .

فقال الامير صالح : وكان عود الكبريت عند الاقدمين .

وهذا الأسل صديق الابل .

قلت : وهو شبيه السَلم .

فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بذي َسلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ولكن شاعر لحج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للبشر ، انما هو السلطان احمد بن فضل . قال لي ذات ليلة طال فيهـــا السمر وما ذوى غصنه :

ـ وما التعصب وما المذاهب كلهـــا ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان . لو كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم ها هنا لا ها هنـا (واشار الى رأسه ثم الى قلبه)، نعم، ان العقل ـ وانت ياحضرة الاستاذ ادرى بما قاله شاعر العرب الكبير ابو العلاء المعري ـ ان العقل مصباح الحقيقة، والحقيقة اساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً. اما القلب فغالباً ضال ، هذا الزيدي يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه ان النيل يقيه البرد . والظن يصبح بالممارسة عقيدة . والعقيـدة يثبتها الوهم . انا جرّبت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع عني البرد . ولو حكّم

كل امرىء عقله في الامور لبان الضلالُ في كثير منها مثل النيل ، ولما رأيتَ هؤلاء الجهال المتنيلين عندنا . وستراهم، سترى خيرات (كثيراً) منهم غداً عند الزيود . قد قيل لي ان الزيود ينيلون اجسامهم وثيابهم حداداً على الحسين . لا يزالون الى اليوم يحدّون على الحسين! والاجدر بنا يا استاذ ان نحدّ على العقل في بلادنا وعلى العلم .

اما السلطان احمد وهو الجندي الفيلسوف ، حاد المزاج ، شديد اللهجة والبأس ، فيحدّ في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل الينا ضمة من الورد فينعش النفس منا ، كما كانت الوان ملابسه تنعش البصر ، وكما كان حديثه ينعش العقل والآمال . وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان نزيل القاهرة . وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى ، فيحسن العزف على كثير من آلات الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسمعتنا النشيد الاميركي . ولكن مهنه المتعددة لا تبعده عن الحقل والبستان ، فهو مثل اخيه مزارع كبير يحب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدنية الغربية فهو على شديد نزعته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة ؟ اذا كانت قيمتي فيهذه العمامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العمامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكهربائي في لحج . وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتاً لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدنية

واللحجية ، الانكليزية والعبدلية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلاً الى مدرسة في سوريا او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .

— ولكننا سنحضر إلى لحج ان شاء الله اساتذة من مصر وسوريا يعلمون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنئه بعيد الاضحى . وقد هنأه يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما القوه من القصائد والخطب قديمة الاسلوب عقيمة المعنى . اما كتب التدريس التي أمر المعلمين بان يطلعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة . فاستبشرت في ذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان لحج زاوية اليمن المباركة، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن . هذا اذا أتم ما يقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سوريا او من مصر .

وحبذا الانكليز عوناً له في هذا السبيل . حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة . ليتهم يهتمون بالتعليم ربع اهتمامهم بالسياسة وبكل ما يعزز جانبهم فيها . فقد ساعدوا في تنظيم جيش لحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونه اكراماً كبيراً . ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه في ١٩ ك ١ ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان لحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعاً . وفي سنة ١٩٠٣ منحت سموه لقب ورتبة « فارس في نجم الهند » . وهم، في رسائلهم،

يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقدوة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السير عبد الكريم فضل بن علي العبدلي ، كاي . سي . آي . إي . « K.C.I.E » [1] وهو يبادلهم هذا الاكرام والتبجيل فيرده اليهم كلمة كلمة . لو تُرجمت « عمدة الامراء الكرام وقدوة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي تتقدم اسم موظف انكليزي ، لكانت تفكه وزارة المستعمرات . ولكنها تظل مخزونة في رؤوس الكتّاب والمترجمين في دار الاعتماد .

اما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها . فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم ، السلطان المعان او الوالد المالك. واهالي لحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العُزيبي واهل البان واهل سلاّم . وفيهم الحُجور من ناحية في حضرموت تدعى حجْر قرب مكلا ، سمرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً . هؤلاء الحجور [2] يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة . في الحقول تجدهم وفي القصور ، يحرثون ويخدمون ويحسنون العمل .

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساعداً من اللحجي ، على ان وجه هذا أدق ملامح من ذاك ، وفيه من سيماء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط الباسل . اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة . وقلما تجد لحجياً اياً كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج . ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين . ما رأيت في كل

(١) راجع الهامش في صفحة ٣٩٩

(٢) جمع حجري .

من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسمرتهم الى السواد من هو اشد بأساً ، وأرهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة ، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب . انه مع ذلك لتقي .

كنت وسمو السلطان في احد بساتينه خارج المدينة فرأيت الحجري يحرث الارض ، ورأيته يصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد . عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء ، فآذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه يصلي صلاة المغرب ، ان ذلك لجميل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله ليذكر الله لأجمل .

بيد ان بعد ساعة رأيت الوجه الآخر من ذا الجمال . عند رجوعنا ذاك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحيح البخاري وفتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح . أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي وعما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة : فخلتني اقرأ مذكرات احدى الخواتين الفرنسيات .

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي في البخاري فقال : لو قرأته كله كما نقرأه نحن في شهر رجب لكان حظك احسن . ثم قال . البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يجيئنا من اوروبا . صندوق كبير ، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة ، مدفونة ، في قنطار من القش . هذا هو البخاري .

لست اذكر الآن اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ

علي رضا السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة اللحجية . كلاهما عريق في الحكمة وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت لا يحب الظهور . وقلما يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطمئنان . كان من حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولابن اخيه عبد الغني الرافعي فضلاً عليّ ببعض المعلومات عن ماضي لحج .

النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية – المعاهدات الولائية – البندان او القيدان – دور الولاء والعطاء . ولا بأس بالعداء – دور الحماية . ولا بأس بالنكاية – « لنا يد على فلان في منصبه » – الصيحة – آل الفضل او الفضلي – العوالق – قوم لا دين لهم – الواحدي – عرب يعرفون القرآن ولا النبي – العوازل – اليوافع دولتان مستقلتان – سلطان اليوافع السفلى يبغي من الانكليز زيادة في المشاهرة ولقباً ونيشاناً – سلطان اليوافع العليا لا يبغي من الانكليز غير البعد والهجران – العلوي – القطبي – الحواشب – العقارب – اقدم السلطنات واصغرها – الضالع – سياسة الامام يحيى – الشيخ الاخرم يهتدي – الزيود يطلبون المدافع ترحيباً به – الامام يقتدي بالانكليز – الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء .

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهوداً بسيطة تضمن لهم الهدنة في الاقل ريثما تجيئهم النجدات . وتدعى هذه العهود عهود صداقة وولاء . اول من عاهدهم من العرب عشيرة العُزّيبي التي هي اليوم من عشائر لحج . والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز . فبعد ذكر اسماء الفريقين تقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والعزّيبي . نحن الآن اصدقاء ونتعهد بالسلم والولاء . قلوبنا وبغياتنا واحدة . الامان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرنا او اخذنا احداً من الانكليز فلا يؤذى المأسور او يهان .

وبعد قليل عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليوافع من المنطقة السفلى من بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة . الولاء ثم العطاء ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المعاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات الطويلة ، وفيها كلها تجد اليوم المواد المهمة التي تقيد الامير او السلطان او الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض دولة اخرى، او يعاهدها، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة بريطانيا واجازتها . كما لا يحق له ان يبيع او يؤجر او يهب او يرهن شيئاً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية . وعليه ان يراعي موجبات السياسة البريطانية .

واذا اخلّ باحدى هذه المواد يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذاك الحين يخصون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداءة تتراوح بين العشرة ريالات والمئة ريالاً في السنة الى كل امير ، ثم اخذت تزداد مع المصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روبية كل شهر . اما سلطان لحج ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فمشاهرته تزيد على ثلاثة آلاف روبية .

هذا دور الولاء والعطاء . ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحايين في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار . فيستمرون مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عداء احد المتخاصمين . يقيمون الحدود بين الفريقين ، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجيء من لا يرضى بتدخلهم ظاناً نفسه مغبوناً فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح ،

صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاتله ، ويستنصر عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال والرجال ايضاً ليعززوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم . فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصدهم الاولى . ولكنك تذكر ايها القارىء ماكتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتمد البريطاني الاول في عدن [1] . هوذا الجسم السياسي الحي الذي يساعد في نموه الزمان .

انتقلنا من دور الولاء الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء صديقهم الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامة ملكه . قد تطول مدة النشؤ كما في تاريخ اليوافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة ، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بموجبها تحت حمايتهم الا بعد خمس وستين سنة . وكأن النمو السياسي يوجب على الساسة اكثر مما يتعمدونه في البداءة ويرمون اليه ، فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح ذات البين بين امير وآخر . بل تجاوزوه الى التحزب السياسي الذي اشرت اليه . خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من اسرته ينازعه الامارة » .

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات وسلطنات وبسطوا الحماية البريطانية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجنوبية من اليمن الاسفل. وهاك

(١) راجع الهامش في صفحة ٣٩٩ ل

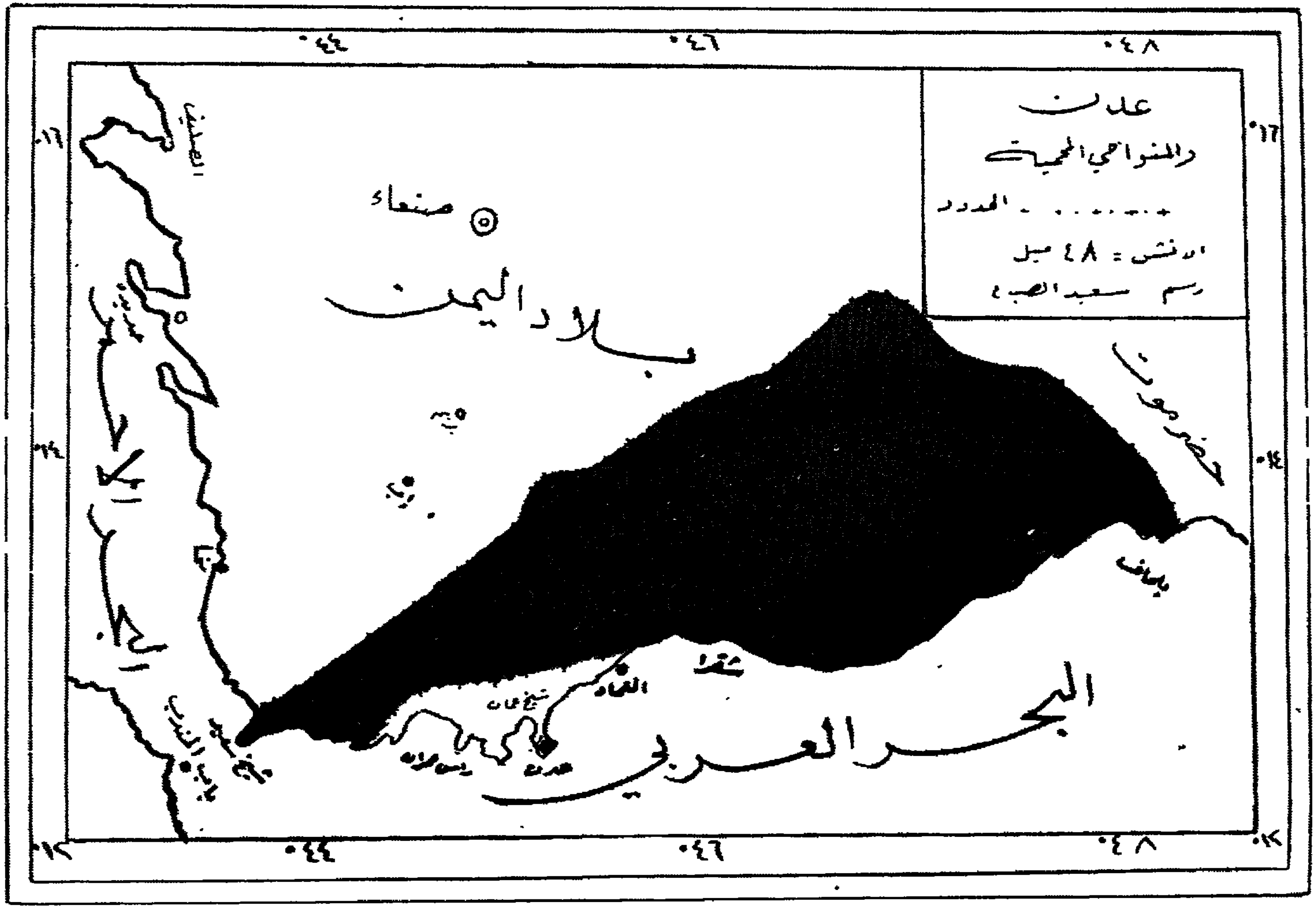
اسماءها وبعض ما علمته من الثقات عنها .

الصبيحة

نحن الان في عدن . فاذا نظرنا غرباً منها نرى قسماً من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المندب . والصبيحة عشائر متعددة منها العَطيفي والبرْيمي يحكمها الشيوخ والعقال حكماً بدوياً . وهم مشهورون بالغزو والغدر ، يُقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين الفاً . على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس لمشايخهم وعقالهم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة اشهر مرة او يرسلون اقاربهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمئة روبية ، وبعضهم يتناولها بوساطة سلطان لحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا امامنا مئة ميل من الارض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام العُمُد الى حدود العوالق الغربية في المقاطن — والبلدتان على البحر — نحيط بملك آل فضل ، الذين هم اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لسلطانهم عبد القادر بن حسين الفضلي عسكراً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين الفاً يحملون السلاح . اما عرب الفضلي فمن البدو ، وهم ذوو بأس ومروؤة ، يسارعون الى


عدن
والنواحي المحمية
الحدود
الانش = ٤٨ ميل
صنعاء
بلاد اليمن
حضرموت
البحر العربي
البحر الاحمر
الصليف
باب المندب
الشيخ عثمان
عدن
شقرا
٤٤°
٤٦°
٤٨°
١٢°
١٤°
١٦°

النجدة ويرغبون دائماً في القتال ويظهر ان السلطان عبد القادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم متوترة في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربعمئة روبية ، ولا يزالون يرحبون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العوالق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيف شرقاً ومثلها شمالا . وهي تقسم الى قسمين العوالق العليا والعوالق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العَولقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخ يعادل بل يفوق السلطان صالحاً قوة ونفوذاً ومركزه يشْبوم . وهناك بلدة اسمها العِرْقة وميناء هو الحَوْره يحكمهما شيخان مستقلان الواحد عن الآخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ يشبوم وسلطان الانصاب .

في العوالق العليا اثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلماء يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولاء عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العوالق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولاء على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقيا

الى بلاده ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ، بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يروع من الوحشية . وفيهم قبائل لا يعرفون الاسلام ولم يسمعوا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات ابائهم ، ولا يصومون ولا يصلون سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تهمك حياتك

ان لسلطان العوالق السفلى الحالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المئة روبية . اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة آلاف

الواحدي

هم جيران العوالق شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حَبان وميناؤها المعروف بَلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العوالق وامرائهم ، ينفرون من الانكليز ويحاولون التفلت من ربقة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين . والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حُبان ، وهي بلدة قديمة ذات ماض موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ، لا تبعدان خمسين ميلاً عن العوالق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا يعرفون القران والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي

السادة والاشراف مكانة عالية فيها . ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي فيأخذ منهم النذور ، ويحكم بينهم ، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

اذا عدنا من بلاد الواحدي غرباً فاجتزنا بلاد العوالق عند الخط الرابع عشر شمالاً من خط الاستواء نصل الى الدُّثينه بلاد العوازل البدو ، وهي في ملتقى الاودية الثلاثة رُفوح وذُرى ومروان ، تربتها خصبة ، ورجالها اشداء . كانت الدثينة في الماضي عاصمة التمرد و « ديرة » العصيان ، فقد رفض العوازل الحماية الانكليزية ، وحاربوا الجنود الذين صعدوا من عدن اليهم فهزموهم وردوهم خاسرين . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبي لان جيرانهم العوالق اصدقاء الانكليز وانصارهم . قيل لي ان يوم خرجوا على السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجلوهم عنها بالسياط .

اليوافع

اذا واصلنا السير غرباً عند الخط الرابع عشر من العرض وقطعنا وادي الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء وهي بلاد خصبة فيها بضعة انهار واهلها موالون للانكليز . ثم ندخل في بلاد اليوافع وفيها كما يقال سبعون الف مقاتل وعدة « شيخات » ، مشيخات مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى . اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم

منذ سنة ١٨٣٩ اصدقاء الانكليز مخلصون لهم . ويظهر ان اليوافع ثابتون في العداء ثباتهم في الولاء فقد كان بينهم وبين جيرانهم ال فضل عداء منذ ١٨٧٣ استمر اكثر من عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العداء القديم اوكادت . ولكن سلطان اليوافع السفلى محسن بن علي ناقم على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من الزيادة في المشاهرة . وهو يبغي فوق ذلك لقباً يصحبه نيشان ومدافع ترحيب مثل الزملاء والجيران .

اما سلطان اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يبغي منهم غير البعد والهجران . هؤلاء اليوافع مثل العبادلة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وتمدناً ، فيهم من التجار من تتصل تجارتهم بالهند وبالجزائر في المحيط الهندي . وبينهم وبين العبادلة نسب وقرابة . واهل اليوافع العليا يفاخرون اقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجنبي الى بلادنا . اما حكومة عدن فكانت قد عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك براتب شهري قدره سبعة ريالات .

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحميين . فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنها كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بوساطة جارهم الى الغرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة

شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاء او الصداقة فلا تزال اسمية .

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق. ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب المشاهرات ولكنهم ابو الحماية ، ودار الاعتماد لا تركن اليهم . اما شيخهم الحالي الشيخ محمد صالح الاخرم ،شيخ بلاد القطيب والاجعود ،فقد قاوم الزيود عندما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبغون الاستيلاء عليها كلها .ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى فخسره الانكليز . وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين .

الحواشب

جيران القطيبي ولحج والصبيحة ،فهم والعزيبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويحاربون مع من « يملأ كفهم قروش »[1] عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم
عندهم من الخمسة الى العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم
محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسيمير .

---

(١) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلغتهم : « لانا قبيلة حد ولا حد دولتي ، سلطاني من ملا كفي قروش »

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً اعرف القارىء باقدم السلطنات المستقلة واصغرها ، اي سلطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب فخذ من العبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عداً ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم ، يجمعون شتاتهم وكلمتهم في بير احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم جمعاء ، فيقيمون فيها مطمئنين . وما اشبههم بين الانكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لوكسمبورغ بين المانيا وفرنسا والبلجيك .

الضالع

ينقلنا البحث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لان الزيود كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها ، ولا عجب اذا استعاد الامام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيود بلاد القطيب والاجعود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ، فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون حبائل السياسة والاستيلاء شرقاً وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من وقع في حبالهم ، اول من اتبع الهدى .

دعاه الزيود الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيود من اجله ، اقتداء بحكومة عدن ، اربعة مدافع ترحيباً واكراماً ، فترنح الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ، فعينه الامام امير الجيش في القطيب والاجعود ، واختصه براتب شهري ، وبربع العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من الذرة ، وباربعمئة جندي من الزيود الاشاوس ليكتسح النواحي العاصية ويدخلها في طاعة الامام . ولم يكن الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير مئة روبية كل شهر .

ان حضرة الامام ، اذا ثابر على هذه الخطة ، لمن الفائزين بما يبغيه من الانكليز . فهو يقتدي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي هي عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاكرام ، فيرفع الى المناصب العالية المشايخ والعقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة . اي دهاة الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين باخواننا المسلمين ، ابناء اتباعنا الاقدمين .

لائحة

بالمشاهرات وجيوش النواحي المحمية

الراتب الشهري روبية	ما يستطيع ان يحشده من الجنود		
٣٢٨٠	٢٠٠٠	السلطان عبد الكريم فضل بن علي سلطان لحج	
٣٦٠	١٠٠٠	« عبد القادر بن حسين الفضلي سلطان شقره	
٢٥٠		« صالح بن عبدالله العولقي سلطان العوالق العليا	
٣٥٠	٣٠٠٠	الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ « «	
١٥٠		« محسن بن رويس « « « «	
١٦٠	١٠٠٠	السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان العوالق السفلى	
٢٠٠		السلطان محسن بن علي سلطان بني فاسد	بلاد يافع
٨٠		« صالح بن عمر « « ضُبي	بلاد يافع
٨٠	٣٠٠٠	الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي	بلاد يافع
١٠٠		« ابو بكر علي شيخ الموسطة	بلاد يافع
٥٠		« محمد علي محسن « «	بلاد يافع
٨٠		« عبدالرحمن المفلحي شيخ المفلحي	بلاد يافع
٤٠٠	١٠٠٠	السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب	
٣٠٠	١٠٠٠	الامير نصر بن شايف امير الضالع	
١	٥٠٠	الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطايب	
١٠	٥٠٠	« عبد النبي العلوي « « صهيب	
٦٠٤٠	١٣٠٠٠		

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً: يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة، وبعضهم كل سنة، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روبية. وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصهم عدن بمشاهرات واكراميات صغيرة.

اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلا في حضرموت فيستطيع ان يحشد الفي جندي، ولكن مشاهرته اسمية، وهي ستون روبية لا غير، لان آل القُعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند.

فهرس الاعلام

ملوك العرب ـــ الجزء الاول

ملاحظـــة

« ـــ » تدل على وجوب تعـــداد الارقام ما بين الرقمين ، مثلا ١ ـــ ٥ يعني ١ ٢ ٣ ٤ ٥ أي ان الكلمـــة المذكورة تجاه الرقم واردة في اكثـــر الصفحات الواردة بين هذين الرقمين .

حرف الالف

فهرس الأعلام

فهرس الاعلام

حرف البـــاء

حرف التـاء

فهرس الاعلام

حرف الجيم

حرف الحاء

فهرس الأعلام

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

فهرس الاعلام

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

فهرس الاعلام

حرف الشين

حرف الصاد

فهرس الاعلام

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

فهرس الأعلام

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

فهرس الاعلام

حرف النون

فهرس الاعلام

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الاعلام

أمين الريحاني

ملوك العرب

الجزء الثاني

نجد - الكويت - عربستان - البحرين - العراق



المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل فيصل آل سعود

السلطان عبدالعزيز آل فيصل آل سعود

سلطنة نجد وملحقاتها (١)

حدودها : شرقاً خليج فارس من الجافورة وقطر الى رأس المشعاب ثم منطقة الحياد بـ نجد والكويت من رأس المشعاب الى رأس القليّة .

جنوباً خط يمتد من أبْها في عسير الى ملتقى الخطين الثامن عشر من العرض الشمالي والسادس والاربعين من الطول الشرقي ، ثم يدور شمالا الى السليّل ومنها حول الربع الخالي شرقاً الى الاحقاف فحدود قطر فالجافورة حتى الخليج .

شمالاً منطقة الحياد بين نجد والعراق ، وهي في شكل قطعة بقلاوة بين الخطوط ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من العرض الشمالي والخطوط ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ من الطول الشرقي ، ثم خط يمتد من قرب شعب الاعوج شمالاً الى بير ليفه ، ثم شمالاً بغرب الى بير مُنْشيا فجديده فجبل عنيز الكائن بين الخطين ٣٢ و٣٣ من العرض الشمالي والخطين ٣٩ و ٤٠ من الطول الشرقي .

اما غرباً فمن جبل عنيز الى شرقي الاردن ومن شرقي

---

(١) محافظة على التاريخ ابقيت اسم سلطنة نجد وحدودها كما كانت يوم رحلتي سنة ١٩٢٢ اما تطور البلاد النجدية واتساع حدودها ومبايعة سلطانها ملكاً بعد ذلك فقد دونت اخبارها في كتابي « تاريخ نجد وملحقاته » .

الاردن الى آخر الحجاز الجنوبي الغربي فلا تزال الحدود مختلفاً عليها . الا ان الجوف وحرّة خيبر هما اليوم في حوزة سلطان نجد .

عدد سكانها : نحو مليوني نفس[1]

مساحتها : نحو خمسمئة الف ميل مربع .

اهم قبائلها : مطَير وحرْب وعتَيبة وسبيع والدّواسر والعجمان والعَوازم والسهول وبنو مرة وقحطان .

اهم مدنها : الرياض وبرَيده وعنيزه وحايل وثرمده وشقرا والمجمَعه وحريلة والهفوف والقطيف .

مذاهبها : الوهابية والشيعة وبعض السنة .

(١) اما اليوم سنة ١٩٦٧ فيبلغ عدد سكان المملكة نحو سبع ملايين نفس
الناشر

شئنا حريملا فشاء الله ضرُمى (١)

العقبات الثلاث بيني وبين ابن السعود — في فم البركان بعدن — الحمى والجدري والانكليز — قلت نجد ، فقالوا : العراق — جاء الاذن بالسفر — الشرطة تستقبلني في بمباي — السفر الى العراق — مغبوط عزون — الامر الذي يتعلق بسفري — وكيل ابن السعود يصل الى بمباي — « مولانا السلطان يرحب بكم» — والانكليز لا يأذنون— كتاب من كاتب اسرار الحاكم العـــام في الامور السياسية الى مدير الشرطة في بمباي .

كنت في لحج يوم كتبت الى السلطان عبد العزيز اطلعه على الغرض من رحلتي في البلاد العربية واستأذنه بزيارته والسياحة في بلاده . وكان بيني وبينه بحر الهند ثم النفود ثم الدهناء ثم الانكليز . اما العقبـات الثلاث الاولى فقد كانت والحق يقال سهلة بالنظر الى الاخيرة . كتبت كتابي قبل ان سافرت الى صنعاء وارسلته بوساطة تاجر معروف في عدن ليرسله الى وكيل ابن سعود في البحرين ، وفي الكتاب رجوت من عظمة السلطان الاسراع في الجواب عن يد وكيله القصيبي حتى اذا مررت بالبحرين في سفري الى العراق اتشرف بعلم تتوقف عليه خطتي في الرحيل . وكان في نيتي اذا جاء الجواب بالايجاب ان اسوح في نجد قبل ان ازور العراق .

عدت بعد ثلاثة اشهر من صنعاء الى عدن واقمت فيهـــا تحت سرادق القيظ ، في فم البركان ، بين اشباح الجـــدري والحمى ، ستة

---

(١) مثل من امثال نجد يضرب بمعاكسات الزمان ، وحريملا وضرُمى بلدان في العارض هم يُسكنون فاء الاسم«اضرُمى».

اسابيع انتظر من اصحابي الانكليز اذناً بالسفر الى — الى نجد ؟ كلا . بل الى العراق . فان ابن سعود عند هؤلاء الاماجد شخص مقدس لا يدنو منه غير المقربين من قدس الاقداس على شاطىء التيمس . وانك اذا جهرت لاحد الوكلاء او المندوبين السياسيين في السواحل العربية برغبتك تجد الرجل واحداً من ثلاثة : فاما انه يرجىء ويسوف سياسة" ، او يبتسم هزءاً ، او يرفض بتاتاً . وقد لقيت الثلاثة في اولياء الامر بعدن . قلت : نجد ، فقالوا : العراق . قلت : ابن سعود ، فابتسموا ثم رفضوا : لا علاقة لنا بالرجل واموره . ثم جاءني كتاب من الحاكم يقول فيه : قد وصلنا نبأ برقي من المندوب السامي في العراق يأذن لك فيه بالسفر الى بغداد . ومن كتاب آخر تلاه علمت ان لا بأس بمروري بالبحرين ، واني بعد مقابلة اولياء الامر في بغداد اسافر الى نجد اذا كان جواب ابن سعود يأذن بذلك .

كان قد مر" اربعة اشهر ونيف على كتابي الى السلطان عبد العزيز ، فسافرت من عدن الى بمباي قاصداً من هناك البصرة ، وفي قلبي تشوق الى الجواب شديد . ولا اكتم القارىء ان رغبتي بزيارة رجل نجد الكبير كانت تزداد شدة كلما تعددت وحالت دونها العقبات .

وصلت الى بمباي فوجدت ان امري موكل برجال الشرطة هناك . ولكنهم اكرموا وفادتي فزرت الدائرة ولم يكلفوني زيارة السجن . وقد اظهر المدير رغبته في التعرف الى هذا السائح العربي الاميركي الذي تفتح له ابواب قفلت مراراً دون سواه ، اذ ان السفر في تلك الايام حتى الى العراق كان محظوراً على غير البريطانيين . وقد علمت

ان بعض التجار الاميركيين انتظروا شهرين في بمباي ليجيئهم الاذن بالسفر الى العراق ، وكانوا بعـــد ذلك من الخائبين . فلا عجب اذا أكبر امري . وقد ظهر لي ، بعد ان اقمت اسبوعا في بمباي وتحدثت وبعض رجالهـــا من تجار وكتاب وسياسيين ، اني من المغبوطين في سفري الى بغداد . ولكن ذلك لم يسرني كثيراً .

شئنا حريملا فشاء الله ضرمى . قال المدير: أُمرنا بان نسهل طريقك الى العراق . واظنهم اي « اولياء الامر » في ما كتبوا الينا يقولون ان لم يصلهم الجواب من ابن سعود . سأبحث عـــن الجواب وارسل نسخة اليك اذا شئت . شكرت المدير هذا التلطف وعدت الى الفندق فاذا بعض التجار والادباء من المسلمين ينتظروني هناك . وقد اخبرني احدهم – وما كان حديثي في تلك الايام ليخلو من سؤال عن نجـــد وسلطان نجد – ان عبدالله القصيبي وكيل ابن سعود في البحرين وصل صباح ذلك اليوم الى بمباي فبادرت في اليوم التالي اليه يصحبني الحاج علي رضا زَينل احد كبار التجار في الهند وفي الحجاز .

وكان موضوع الحديث السلطان عبد العزيز وكتابي اليه . قال الوكيل : نعم وصلنا كتابكم بوقته وارسلناه الى حضرة الامام ، فجاء الجواب مرحباً بكم وقد أمرنا باعداد كل ما يلزم من اسباب السفر والراحة عند وصولـكم الى البحرين . ثم قال : ونحن من زمـــان ننتظركم . ابطأتم في السفر او انـكم غيرتم في الخطـــة التي كتبتم الى حضرة الامام عنها . قلت ، لا التغيير ولا الابطاء بيدي . فقال : بل بيد الله . فقلت مستفهماً : واصحابنا الانكليز ؟ فضحك الوكيل وسكت وبعد رجوعي الى الفندق استلمت كتاباً من معاون مـــدير الشرطة ضمنه نسخة الامر المتعلق بسفري ، وهذه ترجمته الحرفية :

الدائرة السياسية مكتب كاتب الاسرار . بمباي في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ من آي . ف . كيندرز لي كاتب اسرار حاكم بمبـــاي في الامور السياسية الى مدير الشرطة .

الموضوع سفر المستر امين ريحاني الى البحرين ونجد .

سيدي .

جواباً على كتابكم رقم ف ـــ ٢٠٧١ المؤرخ ٢١ آب سنة١٩٢٢ اقول ان قد أمرني الحاكم ان اخبركم لـكي تبلغوا المستر امين ريحاني ان الاذن بسفره الى نجد لم يصلنا حتى الان ولكنه منتظر في البحرين . اما سفره الى العراق فلا اعتراض عليه . وفي كل حال يجب ان يسافر اولاً الى بغداد . اتشرف يا سيدي بان اكون .

خادمكم المطيع

عن كاتب الاسرار السياسية

دجاي . اراتون

اما التناقض بين كلام الوكيل ، وكيل ابن سعود في البحرين ، وامر الحكومة ، حكومة بريطانيا في الهند ، فسوف تنجلي الحقيقة فيه .

في بغداد

حقيقتان جوهريتان – مفتاح نجد – انكليزية عراقية – ولا تزال امرأة – التقارير السرية – الملك فيصل – صراحة بحدود – سكوت يشف عن الريب – وما الغرض الحقيقي من رحلتي ؟ – «جزيت على ابتسام بابتسام » – المندوب السامي – حادث العيد في القصر – زيارة ابن السعود – أشد العقبات – « ولتغبن الانكليز » – الحفلات الادبية – اما السياسة فالبيداء دونها – تباركت المرأة – الباب ينفتح – تعللني بالوعود – « سأبقى في بغداد الى ان يجيئني الاذن بالسفر الى نجد » – صوت في الهاتف يقول : « ستسافر مع المندوب السامي » – ما قضت به الحكمة .

لم يُؤذن لي بالسفر الى البحرين .

شئنا حُريمله فشاء الله صَرْمَه . وصلت الى العراق وقلبي يحدثني بنجد ، وفكري يبعدني عن حسن الظن بالانكليز . وقد وجدتهم في بغداد، كما هم في بمباي، السادة المطاعين برغم النهضات الوطنية والحركات السياسية . ثم بدت لي حقيقتان جوهريتان استنرت بهما قولاً وعملاً في عاصمة العباسيين . الحقيقة الاولى هي ان مفتاح نجد للاجانب الذين يبغون الدخول الى تلك البلاد من الجهة الشرقية انما هو بيد المندوب السامي . اما الثانية فهي ان الباب قلما يفتح لغير الانكليز ، بل لاولئك القلائل منهم المنتدبين لامور سياسية او المقربين من النظارة الخارجية . وقد رفض الوكيل السياسي في خليج العجم غير مرة ان يأذن لبعض الاطباء الاميركيين في البحرين بالسفر الى نجد . هذه هي الحقائق الراهنة التي جُبهت بها في الدوائر السياسية وغير السياسية . بسموا

لجسارتي بل لجهالتي في الحديدة ، واحالوني في عدن على المندوب السامي ، وسوّفوني في بمباي . فما عسى ان يكون من امرهم في بغـداد ؟

بعد ان زرت جلالة الملك فيصل على شاطىء دجلة الشرقي جئت الى دار الوكالة في الشاطىء الغربي، لاقابل السيدة جرترود بلّ كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية . والعراقيون يدعونها الخاتون . الا انها في قوامها ونحولها وتيقظها انكليزية لا غبار عليهـــا . كانت المقابلة الاولى في مكتبها . وكانت ، وهي القابضة على زمام الحديث ، تدخن السيكارة تلو السيكارة ، ثم تنهض عن المقعـد فتتخطر في القاعة ، ثم تجلس وترفع رجلاً على رجل وهي تتكلم ثم تتكلم بدون انقطاع . فقلت في نفسي : لا تزال الخاتون امرأة والحمد لله . عرضت امـــامي عقلها في الجلسة الاولى فاعجبت به ، وكشفت الحجاب عن زاوية من قلبها فدهشت . بل كادت ترفع الستار السياسي كله لتريني انها اخلصت العمل لفيصل وللعراقيين ، وان الانكليز لا يزالون اصدقاء العرب واقرب الناس اليهم . ثم قالت : لا شك انك تيقنت ذلك في رحلتك يا امين افندي .

كنت شاكراً لانها لم تقف لتسمع جوابي ، بل استمرت في الحديث .

واطلعتني على امور تتعلق برحلتي لم استغرب علمها بها ، لاني اعلم ان وكلاء انكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادلون التقارير السرية من حين الى حين . ومنهم من يكتب تقريره كل اسبوع فيرسل نسخاً منه لزملائه في مصر والسودان والعراق والهند .

عادت السيدة جرترود الى الملك فيصل الذي كان في تلـك الايام

غاضباً على المندوب السامي وعليها ، فلا يوقع المعاهدة المشهورة بين الانكليز والعراق فقالت : قد سعيت سعياً متواصلاً من اجل الملك فيصل ، فاقنعت رؤساء العشائر واستملتهم اليه . كانوا يقولون لي يا امين افندي : هذا حجازي اجنبي ، وكنت أقول لهم: انا اكفله ، انا الكفيل. صدقني يا امين افندي اني احب العراق اكثر من حبي بلادي. انا عراقية .

تفكهت في مجلس الخاتون وتفكهت. على ان اعجابي بها وهي امرأة كان اقل من ارتيابي بشأنها وهي ولية الامر او ولية العشائر في العراق. ولا يظنن القارىء ان كاتبة المندوب السامي باحت بكل اسرارها العربية في الجلسة الاولى . لا ، ولا في الجلسات العديدة التالية .

ما جئت على ذكر السيدة جرترود هنا الا لانها كانت في عهد السر برسي كوكس تقبض على مفاتيح الامور السياسية في العراق ، وفي البلدان العربية والعجمية على الخليج ، يتولى المندوب السامي البت في شؤونها . ومفتاح نجد من هاته المفاتيح ، فهل تأذن به يا ترى ؟

سألتها سؤالاً دون ان اكشف عما جال في صدري من الريب بحسن نية زملائها ، ودون ان اشير الى التناقض في ما قاله لي وكيل ابن سعود وما كتبه حاكم بمباي ، فتغيرت عندئذ لهجتها وتغير اسلوبها، فلم تجبني بالصراحة التي عرضت امامي مثالاً منها في حديثها عن العراق. ذلك لانها كانت لا تزال في ريب مما قد يكون من امري وسلوكي في بغداد . أجئت مبشراً بالوحدة العربية ، ام جئت اضرم نار الثورة على الانكليز ؟ أجئت انصر الحزب الوطني او الحزب الحر او اصحاب الانتداب ، ام جئت من اميركا رسولاً سرياً لشركة من شركات النفط ؟

هي بعض الاشاعات التي انتشرت في بغداد وحامت على مكتب الخاتون ، ولكنها لم تتنازل ان تسألني سؤالاً واحداً صريحاً بخصوصها. بل كانت في حديثها تشير اشارة الى ما فيه الحجة الراهنة — بحسب ظنها — على علمها الوافر الشامل بكل ما يختص بالسياسة البريطانية في البلاد العربية . اظنها اتخذت سكوتي دليلاً على الاقتناع ، او انها قرأت فيه شيئاً من الميل الى التصديق . واللوم او بعضه عليّ . فقد كنت حتى في ابتسامي اول مرة قابلت الخاتون غير الرجل الذي اعرفه ويعرفه الناس . وما ذلك الا لخوفي ان تحول دون رغبتي ، فداريتها في دارها . على اني لم اخاتل ، ولم اداج ولا جمجمت الكلام في كل ما القيته من الخطب في بغداد . خرجت من مكتب المس بلّ ونفسي يتنازعها الريب والامل . هي الحاملة المفتاح ، مفتاح نجد ، فهل تفتح لي الباب ؟

بعد ذلك قابلت المندوب السامي السر برسي كوكس ، فكان نقيض كاتبة اسراره الخاتون في انه اولى جليسه اولاً الحديث . سألني سؤالات تتعلق برحلتي فاجبته عليها بصراحة زمامها التحفظ . ثم ذكر حادثة القصر عندما راح يهنىء الملك بعيد جلوسه ، فتكلم بما يبرىء نفسه من العسف والاستبداد في نفيه زعماء الحزب الوطني واقفال جرائده وناديه . ثم انتقلنا في الحديث ، فاخبرني ان في نيته زيارة السلطان عبد العزيز قريباً ، علّه يتوفق الى رتق الامر بينه وبين العراق وهناك معاهدة يريد استئناف المفاوضات بخصوصها .

قلت : زيارتكم اذن في سبيل السلم والولاء بين اثنين من ملوك العرب . فقال : بل اكثر من اثنين، وان اقصى تمنياتي ان امهد سبيل الاتفاق والولاء ما استطعت . فقلت : هو كذلك قصدي وسعيي .

خذني معك الى ابن سعود فأخدمك في ما تأذن بـــه ولا اتقاضاك والحكومة البريطانية اجرة على ذلك . فضحك وفاه بكلمة لم اسمعها ، لان الخادم دخل يقول : الغداء حاضر . فاستأذنت وانصرفت

خرجت من مكتب المندوب كما خرجت من مكتب الخاتون متيقناً ان محجتي لا تزال بعيدة ، بل ان العقبة الاخيرة بيني وبين نجد هي كما قلت في اول الفصل اشد العقبات كلها . وليس الذنب في ذلك ذنب ابن سعود . فقد اجاب على كتابي كما تقدم بالايجاب والترحاب بيد ان للانكليزي في سياسته عوامل يتساهل احياناً بالعرضي منها ليتمكن من مقاومة ما هو جوهري خطير .

جلست اسأل نفسي واناقشها : هل يمنعونك وانت تحمل الجنسية الاميركية ؟ قــد منعوا غيرك من هذه التبعة ، وهم يكرهونها في العراق . الا يستطيع قنصل اميركا السعي من اجلك كما فعل زميله في عدن ؟ هو لا يعترف بالعجز ولا يتيقن الفوز اذا سعى . ألا يقدرون خدماتك في اليمن وعسير فيجازوك عليها ولو باجازة سفر الى نجد ؟ الانكليز لا يعترفون رسمياً بخدمات تقدم لهم مجاناً . قد يشكرون وبعد ذلك لا يذكرون . واذا رغب ابن سعود بزيارتك له ورغبوا هم عنهـا فاية رغبــة تحقق يا ترى ؟ لا رغبتك ولا رغبــة ابن سعود . فسلطان نجد صديق الانكليز كما اعلم ويرعى العهود .

هذا ما كنت اعتقده بسياسة ابن سعود في تلك الايام . ولا ازال على شيء من الظن انها الخطة المثلى — وان كانت عــليّ فلست ألوم — في ما لا يضر بمصلحته ولا يجحف بحقوقه . فهــل يعقل ان يعادي سلطان نجد الانكليز من اجل الريحاني عييت عن الجواب ولكني لم افقــد الامل ولا يئست . بل سررت جــداً برغم

معقولي عندما قال المندوب السامي: سأزور قريباً ابن سعود . فرأيت نفسي – وما الفائدة من الخيال ومن الاحلام اذا كانت لا تشركك بنعيمها ؟ – رأيت نفسي مسافراً واياه الى الحسا . ولم يهمني اني في عملي هذا اثبت التهمة على نفسي. فيقول المخدوعون من الاصدقاء والاعداء: الا ترونه مسافراً والمندوب السامي ؟ فكيف لا يكون في خدمة الانكليز ؟ كنت اعود ، ساعة يستحوذ عليّ اليأس ، الى هذه الرؤيا فانعش بها املا بزيارة نجد كاد يتلاشى ، فينعشني الامل واسمع همس صوت يقول : ولتغلبن الانكليز .

اقيمت الحفلات الادبية في بغداد ، الاولى والثانية ... والعاشرة ، وكانت الحكومة ، حكومة الانتداب ، تبعث من يسمع فيخبرها او يخبر بالاحرى المس بل بما اقول . واظنني هدمت جانباً من معقل الريب في اول خطبة فهت بها . تباركت في مثل هذه المواقف المرأة ، فانها اسرع الى التصديق وحسن الظن من الرجل . دعتني المس بل الى بيتها بعد ذلك مراراً . واقامت في مكتبة السلام التي هي رئيستها حفلة دعت اليها كبار العراقيين والبريطانيين وافتتحت هي الحفلة بخطبة ما اثّر فيّ ثناءٌ مثل الثناء فيها ، ليس لانه من امرأة عالمة فهيمة ، بل لانه من نفس احسنت بعد ان اساءت الظن ،واخلصت بعد ان اظهرت الوداد .

ومع ذلك كنت عندما اقول : نجد . تقول هي : العراق . وعندما اقول . ابن سعود ، تعللني بالوعود . وولّى الشهر الاول وتلاه اسبوعان من الشهر الثاني في بغداد وانا رهين مكارم الادباء العراقيين ومعهم كما اشرت بعض افاضل البريطانيين . وقد تسنى لي ان ازور اثناء ذلك الاماكن التاريخية والآثار القديمة في العراق .

متى اتخم السائح من بلادٍ ما ، تقفل ابواب عقله دون الاستفادة منها مهما كان من اسبابها ومظاهرها ، شبعت من العراق ، وسئمت الاقامة خصوصاً في بغداد لاني مرضت فيها ثلاث مرات بالحمى . زد على ذلك اني كنت مشتاقاً الى بلادي واهلي ، فحدثتني نفسي مراراً بالسفر الى لبنان . الا اني كتمت ذلك عن المندوب وعن الخاتون ، وما اظهرت غير تلك الرغبة الشديدة في زيارة ابن سعود . بل أشعت في مجالس رسمية اني لن اتحرك من بغداد حتى يجيئني الاذن بالسفر الى نجد . الحرب خدعة وحرب الارادات لا تخلو من الخداع . اني على يقين ان لو علم المندوب السامي آنئذ بما جال في خاطري ، لو علم اني سئمت الاقامة في بغداد وكنت على وشك السفر الى لبنان ، لسوفني اسبوعاً آخر ولأفلحت سياسة الملاطفة والتأجيل . فاكون قد حرمت علم اهم ما في البلاد العربية اليوم .

ولكن المس بل اخذت الامر بناصيته عندما حان وقت السفر للمندوب السامي والتني معروفاً اسجله لها ، شاكراً سعيها وحسن ظنها . كلمتني يوماً بالهاتف وقالت : ستسافر مع المندوب السامي . بيد ان سقوط وزارة لويد جورج في ذاك الحين اضطر المندوب الى تأجيل سفره . وبما اني كنت وعدت ادباء البصرة بزيارة سافرت من بغداد قبله ، وفي نيتي حسب الاتفاق ان انتظره هناك ، فنترافق الى البحرين ثم الى العقير .

اشرت فيما تقدم الى مظهر في سلوكي هو ثمرة الاسفار في البلاد العربية ، بل ثمرة الحكمة العملية فلولا تلك الحكمة كنت فشلت في اولى المراحل وعدت خائب الامل . اجل ، قد داريت في بعض الامور ، واكثرها سطحية ، لأفوز بكل ما اروم من العلوم والاخبار .

او بالاحرى كنت صريحاً على عادتي عندما كانت الصراحة تفيد . وقد كنت اشد تحفظاً واتقاء في الاسفار حباً بالرجوع سالماً اولاً الى اهلي وثانياً الى مهنتي . اذ ما الفائدة لمثلي من رحلة عربية اذا كنت لا اسلم فيها لأخبر عنها ولو في كتاب واحد ؟

كانت الحكمة العملية شرعتي اذن ودليلي . فهي التي حملتني على السفر وحدي الى ابن سعود. واظنها أوحت للسر برسي كوكس كذلك في الموضوع فانتصح مثلي بنصيحتها ، فابرق يخبرني بانه سيتأخر اسبوعا ثانياً وان لي ان اسافر قبله اذا شئت . حسناً فعل المندوب السامي وحسناً فعلت انا كما سترى في سياق هذا الكتاب .

في البحرين

نجدي يحذرني من السياحة في نجد – رسول اليقين والخير – « عظمة السلطان ينتظركم في الحسا » – من سراديب بغداد الى قصور البحرين – في ضيافة وكيل السلطان – الشوق يهمد والفكر يشتغل – من هو ابن سعود ؟ – ما سمعته في الحجاز وفي العراق – رأي الانكليز – رأي اديب نجدي – كتاب من السلطان – ما تخبئه الصحراء .

وقد حاول بعض اصحابي في البصرة ان يحوّلوني عن عزمي وقصدي. قالوا اني لا اقوى على مشقات الاسفار في البلاد النجدية ، في تلك البلاد الغنية بالمفاوز والرمال . جسموا في عيني المخاطر في ركوب البعير ، وفي الدهناء ، وفي بلاد البدو والاخوان . كنت ذات ليلة اضيف حضرة الفاضل احمد الصانع متصرف البصرة ، وهو نجدي لا يزال يلبس العباءة والعقال ، فقلت خلال الحديث عن اليمن : عندما دخلت الى صنعاء احسست اني رجعت بغتة الى الجيل العاشر . فقال احمد باشا : وسترجع الى الجيل الخامس في نجد . ما لك وهذه السياحة وكلها مشقات واخطار ! يمكنك ان تزور ابن سعود في الحسا وترجع . هوذا نجدي يحذرني من السياحة في نجد . فهلا انتصحت وارعويت . لا انكر انه اعتراني آنئذ شيء من الخوف .

على انه زارني في اليوم التالي اديب من الادباء،شاءت الاقدار ان يكون بعدئذ رفيقي في السفر وعشيري في الرياض . فعرفت فيه العربي الحر ابن القفار والبحار الذي يسرك ويسيء اليك عفواً دون تكلف في احد الامرين . وسيجتمع القارىء، من حين الى حين ، بالسيد هاشم

ابن السيد احمد الرفاعي من الكويت. كان يومئذ فيخدمة سلطان نجد كاتباً من كتاب ديوانه ، قد جاء البصرة في مهمة رسمية ، فزارني يوم كنت والحق يقال في حاجة شديدة الى زيارة مثله . حدثني السيد هاشم فأزال ما كان يخامرني من الخوف في السفر الى نجد ، ومن الريب برغبة ابن سعود الحقيقية في زيارتي ، ثم قال: عظمة السلطان يعرفكم مما يطالعه عنكم في الجرائد التي تصل اليه كل اسبوع ، وهو متشوق الى مشاهدتكم وينتظركم في الحسا . . . نعم ، السلطان عبد العزيز يحب الاجتماع بكل اديب عربي مخلص لبلاده . وقعت هذه الكلمات في اذني وقع الانغام المطربة . ولكنت قبّلت السيد هاشم بين عينيه لو ان الرسميات التي الفتها في البلاد العربية تسمح بذلك . الا ان القلب رقص طرباً دون ان يشين ادبي او يحط من كرامتي امام الزائر الكريم . سافرت وانا في هذه الحال الى البحرين . ومن حسن الاتفاق ان السيد هاشم كان رفيقي في الباخرة .

البحرين ، جزيرة اللؤلؤ ، هي بعد الكويت اهم محطة في الجهة الغربية من خليج العجم لبواخر الهند وللتجارة بين الهند ونجد . وهي كذلك درجة امام الباب — باب نجد الشرقي — لا بد للمسافر ان يقف عندها فيستبدل فيها بالبخار الشراع اذا كانت وجهته العقير او القطيف . وفي البحرين وكالة لابن سعود يرئسها عبدالله القصيبي احد اعضاء البيت التجاري المشهور هناك .

نزلنا من الباخرة بعيدين عن الجزيرة وسرنا في شراع فوق منازل اللؤلؤ الراقد تحت الامواج ، والبحر ساعتئذ رهوٌ ، والهواء عليل ، وشمس الصباح تتهادى على الاثنين . فبدت المنامة خلالها مشرقة بيضاء كأنها ابراج شيدت من اللؤلؤ . بل هي اميرة اللآلىء وقد صعدت من

اماكن الغوص واستوت على عرش الخليج . وكان الشراع يهمس سلاماً كلما مرَّ بشراع آخر ، وكلها مثل اجنحة الحمام تميس وتتهادى على بساط من الزمرد ، كأنها تتلو القصائد في مديح ربة الدُر ودُرة البحـــار .

وما ساءنا ان وصلنا اليها لانها عن كثب وعن بعـد سواء ، فمن الرصيف سرنا الى بيت على البحر جميل أعده القصيبي لضيوفه وضيوف سلطان نجد . وكنت انا والسيد هاشم في اليوم الاول سيدَي تلك الغرف الفسيحة المشرفة كلهـا على الخليج ، وذاك الايوان الواسـع الطويل المحيط بها من الجهات الاربـع . ثم انفردت في اليوم الثـــاني بالسيادة فأنساني هذا القصر سراديب في بغداد كنا نأوي اليها في النهار ، وسطوحاً نلجأ اليها في الليل . ليست البحرين من بلاد نجد . على ان ضيافة ابن سعود ومكارمه تبادر الزائر اليهـــا لترحب به وتحييه باسم سيد العرب في بلاد العرب . جاءني القصيبي بكسوة وبخياط يوم وصلت فاصبحت في اليوم الثاني وانا عربي نجـــدي في ما تحت وما فوق الزبون [1] وزرت في المُحرّق الشيوخ ، شيوخ آل خليفة فعلمت ، آسفاً اني اخطأت فيما سبق من امري فلم انزل ضيفـاً عليهم . ولكني قمت ببعض الواجب وكان عملي على ما اظن مرضياً .

عند دخولي البحرين فقـــدت حريتي فيّ ما يتعلق بالاسفار او بالاحرى تنازلت للسيد هاشم عنها . وكان من فضل الرجل انه وقف نفسه على خدمتي قبل ان ينتدبه السلطان لذلك . فمنذ اليوم الاول في الجزيرة الى آخر يوم في الرياض تواصلنا وتآخينا في ما يشمل العقبات وشيئاً من الروحيات . بيد انه لا بد في مثل هـذه الحال من فترات

(١) الزبون في العراق وفي نجد هو القباء او ما يسمى في سوريا القنباز .

تنقبض فيها النفس فتضيق الطريق ، ويسيء الرفيق الى الرفيق .

سافر السيد هاشم وحده الى الحسا ليجيب عن المهمة التي انتدب لها في البصرة ، فأرسلت معه كتاباً الى عظمة السلطان اخبره بوصولي الى البحرين ، وعدت بعد ان خلوت بنفسي الى النظر في ما اجتمع لدي من الآراء المتضاربة بابن سعود . عندما قربت منه سكن الشوق قليلاً واستيقظ الفكر وما يلازمه من الهواجس والظنون . فقد كان شوقي قبل وصولي الى البحرين كنار الغضا تأججاً ، فاصبح وقد قربت محجتي ، وزالت – وذُلّلت – العقبات الكبرى ، كلهيب العرفج صامتاً هادئاً .

ذكرت ما قيل في الحجاز وفي العراق: ابن سعود بدوي جاهل . ابن سعود جلف ، لا قلب ولا دين له . هو من الخوارج ، بل من الذين يخدعون وينافقون باسم الدين . والاخوان رجاله ذئاب تعصب ضارية يذبحون ويحمدون الله . يسلبون وينهبون ، ويكفرون من لا يقتدي بهم . يشنعون بالقتلى في الحرب ويرتكبون من الفظائع ما تقشعر منه الابدان ... ان دعوة ابن سعود مذهبيـة لذلك لا تنجح خارج نجد . لا أمن في الجزيرة ولا راحة للعرب ومطامع ابن سعود تزداد يوماً فيوماً . هذا ما يسمعه الناس دائماً في الحجاز وفي العراق ، وقد رددت الشام ومصر صدى القطرين .

وذكرت ما قيل لي في الحديدة وفي عدن وفي دار الوكالة البريطانية ببغداد : ابن سعود رجل كبير . هو نابغة بلاده ، هو السياسي المحنك ، والقائد الباسل ، والحاكم العادل . هو اكبر امراء العرب اليوم واقواهم ... رجل عظيم رجل نجد . هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حين الى حين كبار الرجال . فيظهرون فجأة ويسودون الناس بالعقل

قبل ان يسودوهم بالسيف . هذا ما كان يقوله الانكليز وبعض العرب خارج الحجاز والعراق .

اما الرأي الاول فمصدره مكة والاشراف . بل هو ثمرة ذاك العداء القديم الذي لا يزال مستحكماً بينهم وبين الوهابيين . ومصدر الرأي الثاني هو المشاهدة والمنقول عمن شاهدوا . وقد يكون مصدره السياسة او المصلحة السياسية . كنت اعجب عندما اغربل هذه الآراء المتناقضة في سلطان نجد لما تبقى في الغربال فاقول : وشهادة الصديق مثل شهادة العدو ، اساسها الميل والغرض . فلا تصدق الاشراف ولا تصدق الانكليز . الرجل حليف هؤلاء وصديقهم ، وهو عدو اولئك الاكبر .

ثم اجتمعت في البحرين برجل يرى غير ما يراه الفريقان ، وهو اديب نجدي وهابي معجب بابن سعود ، الا انه قليل الكلام فيه . سألته رأيه فقال : انت ذاهب اليه والراغب مثلك في الحقيقة يصم اذنيه ويفتح عينيه . ثم قال ، اسألك يا حضرة الاستاذ بل ارجو منك ان تشير على عبد العزيز وتلح عليه ان يفتح المدارس في بلاده . رسخت هذه الكلمة في ذهني لان قائلها مجرد عن الاهواء السياسية والمذهبية . هي مصباح بيد صديق لابن سعود اضاء موطناً من مواطن الضعف في بلاده ، وقد ذكرتني بكلمة متصرف البصرة : ستنتقل وانت في نجد الى القرن الخامس .

كان في البحرين يومئذٍ رجل آخر معجب بابن سعود ، راغب في تحسين حال من احوال نجد ، هو الميجر دكسون وكيل المندوب السامي او بالاحرى مأمور الارتباط بين المندوب السامي في العراق والسلطان عبد العزيز . ذلك لان السلطان طلب من الانكليز ان يكون

اتصاله بحكومة لندن رأساً بوساطة مندوبها في بغداد لا بحكومة الهند (١) والميجر دكسون انكليزي وُلد في سوريا وله شغف بالعرب وبلادهم . حدثني ذات يوم قال : ابن سعود رجل عظيم وقد يكون نظري فيه نظر من يؤله الابطال . هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم . عنده السيف ، وله القلب الكبير ، ولكن يلزمه ادارة في ملكه . ويلزمه زيادة في الخراج . اني اود من صميم قلبي ان يكون القطيف ميناءً كبيراً لنجد ترسو فيه البواخر فتتحول اليه التجارة من البحرين ومن الكويت . على ان ذلك يستوجب ان يكون في القطيف قنصل بريطاني . والسلطان عبد العزيز لا يقبل قناصل في بلاده . حدثه في الموضوع عندما تقابله .

هاك من انكليزي معجب بابن سعود نوراً يضيء موطناً آخر من مواطن الضعف فيه . ولكن هل هو من مواطن الضعف ؟ كأني باهل نجد يقولون نحن نخشى الاجانب ولا نريدهم في بلادنا . الرجل الاولى تجر وراءها الالوف . انه لعذر مقبول ، ولكن ما العذر في الجهل ؟ أيكره التعليم غير البدو ؟ أبدوي اذن سلطان نجد ؟ وهل للبدوي اخلاق سامية وشعور لطيف ، ومطامع في الدنيا مقرونة بالحكمة والاعتدال ؟ ها اني قربت من ابن سعود فقربت من الحقيقة فيه ، وبت انتظر جوابه لأصل اليها واتيقنها بنفسي . وهاك الجواب الذي جاءني بعد اسبوع من سفر السيد هاشم :

---

(١) الفرق بين الاثنين كالفرق بين طريق العربات في الجبال وطريق الرجل اي المقربة ، ان لحكومة الهند مثلاً وكيلاً في البحرين ، ولها دوائر سياسية ونظارة خاصة في لندن لا يهم ابن سعود شيء منها . لان علاقته هي مع نظارة الخارجية . وما حكومة الهند غير عقبة ، بل هي مثل الدهناء بينه وبينها .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود الى حضرة الوطني الغيور والمصلح الكبير امين افندي الريحاني المحترم دامت افضاله امين .

سلاماً وشوقاً وبعد فبأشرف طالع وردني كتابكم الكريم المنبيء بوصولكم الى البحرين وانكم مزمعون التوجه الى طرفنا . اهلاً وسهلاً على الرحب والسعة . بالله لقد سررت جداً بذلك فطالما كنت مشتاقاً للقياكم . وقد حققت الايام شوقي والحمد لله . الا انه لا يسعني الا ان اظهر شديد أسفي لعدم اشعاركم لنا تلغرافياً في حين توجهكم من البصرة ذلك الامر الذي اوجب فتوراً قليلاً في اخبارنا وكيلنا في البحرين لملاقاتكم لاني سألت الخبيرين بمعرفة اوقات وصول المراكب الى البحرين وعلمت منهم ان المركب القادم من البصرة ربما يتأخر ولهذا وحده حصل تأخير منا فارجوكم المسامحة . نحن بانتظاركم وقد أمرنا وكيلنا القصيبي ان يهيء لكم سفينة تقلكم الى العقير وبوصولكم اليها تجدون السيد هاشم بانتظاركم وبالختام تفضلوا بقبول الاحترام ودمتم .

في ٢٧ ربيع اول ١٣٤١ الختم

هذا اول كتاب جاءني من السلطان عبد العزيز، نشرته لتظهر حقيقة فيه اثبت الخبرُ خبرها. فيظهر ان الرجل لا يتكلف اللطف والتواضع، لانهما من خلاله الفطرية . ولكان اللطف والتواضع اجمل ما في الكتاب لولا درة الاخلاص . ومع ذلك فلا بد من التحليل والتعليل توصلاً الى الحقيقة كلها . قد تقترن عفواً رقة الشعور بالشدة حتى في البدوي ،

فهو اذ ذاك رجل كبير الخلق . وقد تقترن كرهاً اي صناعة ، فهو اذ ذاك سياسي يحسن التلبيس والمجاملة . وقـــد لا تقترن قطعاً ، فهو أسواء كان شديد البأس ام دمث الاخلاق ، رجل عادي له من يومه ما لعامة الناس . فهل الرجل الذي انا زائره ممن ُطبعوا على شيمة اللطف والرقة وكانت القوة فيهم او في اعمـالهم بنت الحوادث والاحوال ؟ ام هو سياسي محنك يغلب خصومه بالمكارم ويسود امته بالدهاء ؟ هل ابن سعود من اولئك الافراد القليل عددهم في البلاد العربية بل في العالم اجمع ، اولئك الذين يبقون على شيء من الفطرة مهما عظموا او تعاظمت شؤونهم، اولئك الذين يسيرون الى محجتهم في الصراط المستقيم فيأخذون الحكمة من لوح الوجود لا من الكتب ، ينبغون ولا يتفوقون ، ويكرهون ولا يخاتلون ، ويحبون ولا يملقون ، ويسودون ولا يظلمون ، ويعدلون ولا يخافون غير الله ؟ اننا في الطريق وستنكشف لنا الحقيقة التي تخبئها الصحراء دون ذلك الافق اللازوردي وراء تلك الاكام الذهبية .

في ظل الشراع

حسنات السفر البطيء – السفينة والقطار – منكرات البخار – في ظل الشراع الجلبوت – سكنت الريح – طرد في القبة – الامر يرفع الشراع – «شلنا وتوكلنا على الله» – الرياح تسبق البخار – الصلاة في ظل الشراع – الامير والقصر – ما هيا في نجد ؟–العقير – موانيء السلطان الثلاثة–الطريق الشرقية الى نجد– سفن اليم وسفن الصحراء تتبادل احمالها .

من حسنات الاسفار تنوع اسبابها وطرقها . وان البطء في القديم منها أحب الى السائح من البطء في الحديث الذي اخترع ليطارد الريح فينهب كما يقال المسافات . ما الفائدة من بخار لا يحسن النهب ؟ ابحرت من عدن ووجهتي ابن سعود فاجتزت اولاً بحر الهند في باخرة كبيرة فخمة الرياش معتدلة في سيرهـا . ثم خليج العجم ، فصغرت الباخرة وبخست العدة ، وطالت علينا المسافة والايام . ثم قطعت فيافي العراق بين البصرة وبغداد في قطار مخلع مرجرج – هو اثر من آثار الحرب – لا شك ان قطار الشحن في اميركا اسرع منـــه ثم عدت من بغداد في مركب من مراكب دجلة وقد آليت على نفسي الا أكون غير شرقي كسول فلا اعدُّ الساعات ولا احاسب البخـــار والآلات . فكانت السفرة لذلك جميلة ، قصرت وان تعددت ايامهـا . ثم في رجوعي من البصرة الى جزيرة البحرين خبرت في البواخر ابطأها سيراً فقلت : تباركت الاقدار في الاسفار . هي تبدّل في الاسباب التي تزداد بطئاً كلما قربنا من محجتنا ، فنتمرن اثنـاء ذلك على الصـبر وعلى التأمل والتفكير . وسنصل الى تلـك المحجة برغم طول المسافات وبطء المطايا البخـارية

والحيوانية ، اللهم اذا ثبتنا في السير والترحال .

قد كان سروري في خروجي من البحرين مثل سروري في الوصول اليها . وكيف لا وكل خطوة الان تدنيني من البغية القصوى ، فقد ذللت من العقبات البحر والانكليز ولم يبق امامي غير زاوية من الخليج تأبى البخار ، وارض لا تلين لغير الابل . ان الساحل في تلك الزاوية ، جنوباً بغرب من البحرين ، على مسافة اربعين ميلاً من المنامة ، هو اول ما نشاهده من ملك ابن السعود . هنـاك العقير [1] وشاطىء الاحساء الذي يُرى من مكان في آخر الجزيرة يدعى رأس البر . اما المسافة بين البلدين فهي رهن الشراع ، والشراع رهن الرياح . فاذا لانت كان حظك من السفر على طريقة الاجداد ست ساعات فقط . واذا عارضت تفوز بالثلاثين . وقد تتجاوز الثلاثين اذا كنت الى « نبتون » من المقربين .

احبني إله البحر فاستبقاني في مجلسي بالجلبوت [2] نهاراً واحداً وليلتين ، بعـد ابحارنا من ميـاه المنـامة مساء سكنت الريح ولم تتحرك بما يرضي الله والشراع حتى انتصاف الليلة الثانية . وكنت اثناء ذلك اذكر القصيبي بالخير واشكره خصوصاً على كرسي جعلته سريري وعلى طاهٍ انعشني بشيء من المرق . وبينما انا نائم في الليلة الثانية ، او بالاحرى مرميٌ كطرد في القبة وقد برد الدم مني وتعقدت الاعصاب ،

(١) القاف في بعض الكلمات تلفظ جيماً في نجد فيقولون العجير .

(٢) الجلبوت مركب شراعي صدره ، وهو للبضـاعة ، مرتفع مستطيل وفي مؤخره قبة او علية للمسافرين يسميها الملاحون عرشة . وهو اذا كان كبيراً شبيه بالمهيلة في العراق وبالسنبوك في البحر الاحمر ، واذا كان صغيراً فلا يكون له عرشة فيشبه البلم . اما اسمه جلبوت ، ولا يسمى كذلك الا في البحرين ، فهو على ما اظن تحريف jolly boat في الانكليزية اي مركب للنزهة .

سمعت صوت الناخوذاه يصدر الاوامر برفع الشراع ، وسمعت الملاحين يرددون انشاداً : «شلنا وتوكلنا علالله» . شلنا وتوكلنا علالله . فتحركتُ في معقلي الصغير وقـد انعشني الهواء كما انعش من الجلبوت الشراع . وشكرت مسكّن الرياح ومثيرها ، فقلت : لا شَيل يقينا لولاه ، ولا توكل على سواه — شلنا وتوكلنا على الله .

كنا في الهجيع الثاني من الليل قريبين من برٍ ظننته الاحساء فما صدق الظن . وشد ما كانت دهشتي وخيبتي لما علمت اننا لا نزال عند بر الجزيرة . على ان الرياح تجاري اذا شاءت البخـار ، وتسبق الحديد الدوار . ولا اظنك اذا كنت ملاحاً تماريني في ذلك . اجل ، عندمـا ينتفض فيمتلىء الشراع ، فقل للمسافات : الوداع . ان هي الا ساعة حتى اجتزنا رأس البر وكان الهواء قد اثقل جفني فنمت قليـلًا ، ثم ايقظني صوت الملاحين يشتغلون في قلب الشراع طوعـــاً للريح ويرددون : صلّ على النبي ، « صلّ عالا النابي ! » مـــا سمعت في انغـام الليل على الميـــاه اطرب منهـا . الا ان يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر . ليس في صلوات الامم كلها ادعى منه الى الورع والخشوع ، وقلّ فيها ما هو اجمل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع .

صلى اخواني الفجر ، عندما دخلنا ميناء العقير ، ورفعوا العلم ، علم ابن سعود ، وهو اخضر ذي حاشية بيضاء مكتوب عليه : لا إله الا الله . وقد كان ينتظرنا هناك على الرصيف السيد هاشم وامير القصر ، فمشينا معهما الى البيت المعد للضيوف ، وفيـه سرير ابهجني مرآه . واعجبت كذلك بذوق رفيقي الذي علم السبب في ابطاء السفينة وقرأ في وجهي قصة الليلتين ، فتركني والسرير وانصرف .

ذكرت الامير والقصر . فلا يظنن القارىء ان القصر قصر وان الامير امير . بل هي اسماء اصطلح اهل نجد عليها . فهم لا يرغبون في الالقاب بل يزدرونها ، ولا يرون غير المساواة وقد ساوى بينهم دين التوحيد شرعاً وسنة . اما اذا شاء امامهم ان يسمي عمـــاله امراء . فهم لا يعترضون . واذا شاء النجدي ان يسمي خربة له في الصحراء قصراً فلا الامام يعترض ولا الرعية . اما الامـير الحقيقي عندهم فهو من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به احداً ، ولا يخـــاف ولا يرتجي سواه . واما القصر الحقيقي فهو المسجد .

ليست العُقير بمدينة او قرية ولا هي حتى مضرباً من مضارب البدو . انما العقير اسم لقصر من القصور التي ذكرت ، ولجمرك من جمارك نجد في الاحساء على ساحل الخليج . العقير هي احد موانىء السلطان الثلاثة يتبعها القطيف والجُبَيل شمالا منهـا . ولكنها موانىء قلما يُرى فيهـا غير المراكب الشراعية . ومن العقير تبدأ الطريق الشرقية الى نجد .

اما القصر فهو بناء كبير مستطيل يقيم في جناح منه الامير والضيوف ويستخدم الجنـاح الآخر للجمرك وللحامية التي لا تتجـــاوز العشرة الانفار . وامام القصر على الساحل ساحة كبيرة تمرح فيها الابل وتُنزل اليها البضاعة ، فتتبادل سفن الصحراء وسفن اليم احمالها . الخام والارز والسكر من بمباي والنفط من عبّادان — احملهـــا يا بعير الى ما وراء الدهناء . والتمر من الحسا والجلود والصوف من سدير والوشم والسمن من الخرج والافلاج — خذها يا جلبوت الى البحرين لتُنقَل من هنـاك الى ما وراء الخليج والبحار .

الملتقى في النفود

قدوم المندوب من العراق – خروج السلطان من الحسا – اول يوم على الذلول – الغزالتان – النفود – ام الذر – الجمّار الجان – المراح والمناخ – الشيوخ – الارض الذهبية – السادة والخدم يلعبون – حلم تحققه الايام – « مَن الربع » « السلطان قادم اليكم » – التأهب لاستقباله – سجادة ورجل ونار مشبوبة – «يا سعيد» الليل والنفود – « ضج المكان بموكب السلطان » – السلطان يزورنا في الخيمة – ما قيل له وما قاله بخصوص الريحاني – امراء العرب والوحدة العربية – « حنا (نحن) العرب » – اول من دعا الامراء الى الاجتماع والائتلاف – رجل يثق بالله وبنفسه .

يوم سفري من البحرين اخبرني الميجر دكسون بان المندوب السامي السر برسي كوكس يسافر من بغداد في القريب العاجل وقد يصل الى الجزيرة بعد بضعة ايام . وعندما وصلت الى العقير اخبرني السيد هاشم بان عظمة السلطان يخرج قريباً من «الحسا» ليلاقي المندوب السامي في المكان الذي نحن فيه . فاخرجت خارطتي وقست المسافة بين الحسا والعقير – ٤٠ ميلًا – وقابلت بين اثنتي عشرة ساعة على الذلول ذهاباً ومثلها اياباً ، اذ لا بد من الرجوع مع السلطان ، وبين يوم على الشاطىء استعيد فيه قواي واستعد ، اتمرن على ركوب البعير ، للسفر في البادية ، فكان الحكم والحكمة في جانب الثاني . وكتبت الى السلطان اطلعه على حقيقة حالي واستشيره في الامر . – اذا امرتم بالقدوم اليكم او بانتظاركم في العقير فسمعاً وطاعة في الحالين .

حمل كتابي نجاب الامير صباح الثلاثاء، وعاد صباح الاربعاء بجواب فيه ما تناهى من لطف الاسلوب ورقة الشعور . الامر راجع لرغبة

حضرتكم وتبعاً لراحتكم . وقد اخبرني السلطان انهم سيخرجون يوم الخميس من الحسا ويسيرون الهوينا ليصلوا صباح السبت الى العقـــير . كنت قد عزمت على ملاقاته في منتصف الطريق اذا قويت على ذلك ، وعندما علمت من السيد هاشم بان سموه قد يرغب في الاجتماع بي قبل ان يجتمع بالمندوب السامي شددت حقوي وقلت : الى البادية .

اعدّت لنا الركائب فسرحنا – سافرنا – صباح الخميس انا ورفيقي الاديب يصحبنا خمسة من الخدم . وكان اول عهـــدي بالذلول (١) وبالنفود (٢) فابهجتني هذه وازعجني ذاك . بل كنت في كل حركة احس بشيء تحتي او حول رجلي وجنبي لا يجوز في نظري ان يكون هناك . والغزالتان (٣) بليتان ، تدق الواحدة صدري والاخرى ظهري

---

(١) الذلول الهجين المعد للركوب ، من ذلل « للركوب » . ولا يكون الذلول غالباً الا ناقة وما سمعت له جمعاً فهم عندما يريدون الجمع يقولون الركائب .

(٢) النفود بادية رمل بين ساحل الخليج والاحساء تمتـد من القطيف شمالاً الى رأس الجافورة جنوباً وعرضها من حيث تقطعها الى الحساء ٢٥ ميلاً . اما الاسم فقد يكون مشتقاً من نفد اي نفدت الارض من المـــاء والكلاء . والنفود تختلف عن الدهناء في تكوين تلالها الرملية وعلوها . فهي في بعض الاماكن شبيهة بالجبـال وليس فيها مفال اي مراع والدهناء في بلاد العرب واحدة ، والنفود كثيرة .

(٣) الغزالتان خشبتان مرتفعتان مستقيمتان في الكور ، واحدة الى الامـــام والاخرى الى الوراء تقيان الراكب من السقوط ، وتستخدمان في التحميل لشد الحبال وتعليق الاحمال . وهما في شكلهما وفي وضعهما انواع . فالغزالتان في نجد مثل الخطين المستقيمين في الهندسة ، او مثل الشمعتين في شمعدان واحد . وفي بعض الاكوار تراهما مائلتين الواحـدة نحو الاخرى وترى الراكب بينهما كأنه فحمة في ملقط . ولكن النجدي على الذلول اقوم من الغزالة واثبت . اما في الشمال اي في بادية الشام فالغزالة توضع في شكل زاوية منفرجة : الواحدة الى الوراء والاخرى الى الامام ، فيصبح مكان الجلوس في الكور منفرجاً والراكب مهما حدا في مأمن من الدق والاحتكاك. اما اهل عمان فهم يستغنون عن الغزالة ، والكور عندهم مثل السرج الانكليزي .

كلما حدوت الى الامام والى الوراء . والكور ، اكاد اطيح منه . هو مائل الى الامام ، مائل الى اليمين ، مائل الى اليسار ! والشداد – الرحل – ان فيه ما يحتك بالجنب ، وما يقرص الرجل ، وما يسيء – يسيء الادب ! يا سيد هاشم ! ... فاجابني بقوله : ابشر ابشر .

بارك الله فيه ما كان ألطفه في تلك الايام واكرمه . أنخنا الركائب ، وجاء احد الخدم يقول سم [1] فعدل الرحل واصلحه . ثم ركبنا وتوكلنا على الله ، فاجتزنا الاول والثاني من افاق النفود الذهبية ، ووصلنا الى مكان يدعى ام الذرّ [2] ، أنخنا فيه وكنت انا اسرع الى ذلك من سواي . لان «سم» الخادم لم تصلح الرحل ولا ألانت قلب الغزالة . عندما أنخنا طفق الربع ينكتون الرمل بايديهم فيظهر الماء تحت قدم او قدمين منها . ان ام الذرّ مورد القوافل الوحيد في هذه الطريق من النفود .

ملأنا القرب واستأنفنا السير . وكان معنا حمّار مجّان ، كثير الاسفار والهذيان ، يحمل حماره بعض المواعين والحطب ، وهو يعدو وراءه كالسعدان ، فيرقص رجليه ويديه ، ويسمعنا نكات اهل الامصار – البصرة والبحرين والكويت – ويمثل لنا رقص البطن ، ويردد كلمات ما سمعتها لا في الشرق ولا في الغرب . حمّار مجّان ! ما رأيت اصقع منه حينما كان يجثو على ركبتيه كل مرة يظن نفسه أجاد ، وما أجاد بغير البذاءة لفظاً وايماء . على انه انساني بعض ما كنت اقاسي من ركوب الذلول . وكانت ضحكتي تضيع في قهقهة الربع ، وكلمتي تتلاشى عند امواج ثرثرتهم .

(١) سم مختصر بسم الله في اصطلاح اهل نجد .
(٢) ام الذر من شجر حول المكان يدعى الذر وهو شبيه بالعشر .

- اسمع ياهويدي تصغير عبد الهادي — جاوب الاستاذ . هو يسألك أيشو الـ « مَوتَر »[1] ؟

— الموتر يا افنـــدي تجري ، وتغزل ، وتدور . الله ، الله ! الدمشوقة ، الخفيفة ، السريعة الحركة هي الموتر .

قال هـــذا وهو يهز كتفيه وعطفيه . مهما كان من بذاءة الرجل فقد أحسن الحيّ في يومي الاول في البادية ، فخفف مشقة عشرين ميلاً اجتزناها في ذاك اليوم . ثم مرحنا[2] العصر في مكان يدعى العلاة[3] وعلمنا من بعض الذين كانوا قادمين من الحسا بان الشيوخ[4] مارحون في الجشة على مسافة عشرة اميال منا . فارسل السيد هاشم رسولاً يعلمهم بمكان مراحنا ، واننا سنقف لهم هناك في الطريق صباح الغد واظنه رغبة في راحتي ، أباح للرسول بما كنت احاول كتمانه . قل للامام : ذبح[5] الذلول الاستاذ .

ولكن التعب والالم لا يدومان طويلاً في فسح الرمال وسكينة النفود فبعد ان نصبنا الخيمة وشببنا النار وتقهونا[6] تهافتت حسنات

---

(١) على ساحل الخليج وفي العراق يسمون السيارة «موتر» من اسمها الانكليزي Motor ويطلقون في البصرة اسم الموتر على الراقصة التي تجيد الرقص .

(٢) مرح القوم اي أناخوا للمبيت وسرحوا اي خرجوا من مراحهم . ويسمى المكان المراح . اما الاناخة فلا تكون الا للراحة ولشرب القهوة أثناء الرحيل .

(٣) العلاة من علو المكان على ما اظن وهو لا يعلو أكثر من ثلاثمئة قدم فوق سطح البحر .

(٤) يطلق لفظ « الشيوخ » في الاصل على الامام وحاشيته من اقاربه وخدمه اذا كانوا مجتمعين . ولكن اهل نجد يخرجون عن القاعدة الاصلية فيقولون الشيوخ وهم يريدون السلطان او الامام بعينه .

(٥) انهكه واضناه في اصطلاحهم .

(٦) شربنا القهوة .

المكان عليّ . وملكني من السرور ما كان قد هجرني راكباً ، ورحت اتغنى بمدح ارضٍ يحلو هواؤها ، يحلو شكلها وفسحاتها ، ويحلو لونها وسكونها . يحلو وطؤها ، تحلو مجسّتها . وبعد العشاء تبارينا برمي الجريد ، وتسابقنا حفاة في العدو ، ووقف ماجد على يديـــه ليبرهن لرجحان ان رجليه أعلى من رأسه (اي رأس رجحان) وانـــه مستقيم وان كان ابدُوي — بدوياً — كيفما وقف او مشى ، وانه قوي يغلبه بكل شيء : بالصراع ، بالعدو ، بالقنص ، بالركوب ، وبالـ ... أوقفناهما عند هذا الحد في المفاخرة ، فاستعاضوا عنها بالغناء و « اللعب » اي الرقص .

دخلت الخيمة والخدم لا يزالون في السمر ، فاستلقيت على السرير وانا في بهجة مَن حققت الايام حلماً من احلامه . فها هي الصحراء ، وهوذا الهجين ، وهؤلاء العبيد عبيدي ، وها انا ذا جار لأمـــير من امراء العرب ، لسلطان نجد . ما كاد هذا الحلم الذهبي يغمض جفني حتى سمعت صوتاً يسأل : من الربع ؟ ثق أناخ عند نارنا رجلان عرفهما السيد هاشم ، رجلان من رجال السلطان ، جاءا ينبئاننا بان رسولنا وصل وان سموه — نهض السيد هاشم مدهوشاً وبادر إليّ يقول : قم يا استاذ ، قم حالاً . السلطان قادم الينا .

نهضت مسرعاً فارتديت ثيابي—وما احسن الثياب العربية خصوصاً في مثل هذه الحال . حسبك عباءة تغطي بها قميص النوم ثم كوفية وعقال ثم — حي الله الجاي ، مرحبا بالضيف .

راح الربع يجمعون الحطب للنار وفرشنا انا والسيد هاشم البيت ! مددنا السجادة ثم وضعنا الكور في الصدر مسنداً على عادة العرب — وهذا كل ما هنالك تأهباً لاستقبال مليك من ملوك العرب .

وكان الليل صافي الجبين ، رقيق الجلباب ، شأنه في البادية . تدنو النجوم في سمائه من الارض بريقاً ، وتُسمع فيـــه الاصوات ، كأنها على طول المسافات، الابواق في الغابات، لها دوي لطيف ينجد ويغور وصدى يتموج كالنور ، وما ارهب وما اجمل صوتاً سمعناه آنئذٍ وراء الاكام في مروج الليل ينادي : يا سُعَيِّـد يَسْعَايِـد ! مبشراً بقدوم السلطان او بمروره في ذاك المكان،ان المنادي ليتقدم الموكب السلطاني حتى اذا سمعه احد من البادية او الحضر يروم من سيد البلاد امراً ، او يحمل اليه شكاية ، او يبغي الركوب في موكبه ، فهو يقصد مسرعاً الى مكان الصوت فيفوز ببغيته يا سُعَيِّـد — يَسْعَايِـد ! [1]

وبعد هنيهة ضج المكان ، بموكب السلطان ، فاناخ عندنا ، على اكمتنا ، حول شراعنا الصغير ، مئتان من الركائب ، وهي تزبد وترغي إخ — إخ - وصوت الخيزران على رقاب البعارين كصوت المطر على النخيل ، ثم نُصبت الخيام ، وشبت عشرات من النيران، وسُمعت على الفور المداق في الاجران

خرجنا نبادر الى استقبال الزائر الكبير ، واذا هو قد خف الينا ، وفي معيته اثنان فقط من حاشيته ، قلت الزائر وهو الذي شاء تلطفا وتنازلاً ان يعكس الآية ، وكانت المشاهدة الاولى على الرمل ، تحت السماء والنجوم ، وفي نور النيران المتقدة حولنا ، الفيته رجلاً لا يمتاز

---

(١) سُعيد تصغير التصغير الشائع كثيراً في نجد وسعيد نداء ابن سعود يدل على تواضع في امراء هذا البيت جيل . كأن الامير يقول لكل واحد من رعيته : ان السعادة الكبرى من الله . واما الصغير الصغير منها فقد يجيئكم من الامير . ولاكثر امراء العرب منادون وكلمة نداء خاصة بهم ينادي بها كذلك يوم يخرج الامير الى الحرب او الى الغزو . في الحجاز مثلاً كان نداء الملك حسين : يا فرحان . وفي جبل شمر كان نداء ابن الرشيد : يا مرزوق .

ظاهراً بغير طوله ، وكان يلبس ثوباً ابيض ، وعباءة بنية ، وعقالا مقصباً فوق كوفية من القطن حمراء .

اين أبهة الملك وفخفخة السلطنة ؟ انك لا تجدها في نجد وسلطانها وان اول ما يملكك منه ابتسامة هي مغنطيس القلوب. لست ادري كيف حييته وانا في دهشة وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة . ولكني اذكر انه حياني باسماً بالسلام عليكم وظل قابضاً على يدي حتى دخلنا الخيمة فجلس والكور الى يمينه يستند اليه ، والنار قبالته تنير وجهه. ثم عرّفني بمن كان في معيته ، وهما الدكتور عبدالله الموصلي (١) وعبداللطيف باشا المنديل (٢) فجلسنا كلنا في صف امامه .

وما أضعنا وقتاً في تبادل المألوف من السلام والتحية. اعتذرت عن الابطاء في الوصول اليه وقلت ان سأطلعه على حقيقة الامر فيعلم ان الذنب ليس ذنبي ، فقال : علمنا بذلك واستغربناه ، اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب ، وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب ؟ قالوا لنا انك اميركي وجئت تبشر الدين المسيحي في البلاد العربية ، وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات ، وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك ، فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف

---

(١) الدكتور عبدالله الدملوجي الموصلي هو طبيب السلطان . وكاتب سره في الامور الخارجية ، ورسوله وترجمانه ووكيله في ما يختص بالاجانب سواء أكانوا من رجال الحكومة أم من رحال العلم السائحين ، والدكتور عبدالله درس في الاستانة ، وخبر الطبابة في الحروب وخبر الحياة في عواصم اوروبا ، فطاف وشاف وعاف ، عافاه الله ، ثم رسا في نجد .

(٢) عبد اللطيف باشا المنديل ، صديق السلطان الحميم ووكيله في العراق ، هو نجدي الاصل ، عراقي الاقامة ولا يزال للبداوة اثر في حديثه وفي سلوكه الحر .

نتقيه . واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع . ونحن اعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك . بارك الله فيك .

فاستأذنت ان اخبره بالمقاصد الثلاثة في رحلتي فقلت : وقد تم الاول بمشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله في ما شاهدت اما الثالث فلا يتم الا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق إلا باجتماع امراء العرب كلهم للتعارف اولاً والتفاهم ، فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم ، ولا يعرف الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية .

فاجابني بكلمة صريحة رددتها بمثلها دون ان ادرك انها تلمس فيه وتراً حساساً . فقد تكلمت في حضرته عن امراء العرب كما تكلمت في حضرة سواه ولكنه ، وهو يعرف انه كبيرهم ويظن انهم في غير بلادهم لا يُعتد كثيراً بهم ، لم يسكت عما قلت . فما كدت انتهي من كلمتي ان امراء العرب في عزلة بعضهم عن بعض حتى قال : ومن هم العرب ، حنّا العرب [1] قال ذلك وضرب السجادة بقضيب يحمله من الخيزران .

من غريب الامور اننا في الجلسة الاولى تناقشنا في الموضوع . وما كان ذلك نقصاً في تأدبي . فلم اكن لاقدم على مساجلته في تلك الساعة لو لم يتقدمني بصراحة علمت بعدئذ انها من سجاياه الكبيرة ، وانه قلما يقف فيها عند حد من التحفظ . اجل ، قد هدم السلطان بكلمة من كلماته حواجز الرسميات ، فجعل نفسه تنازلاً في مقام الصنو والرفيق .

— لك الحرية يا حضرة الاستاذ ان تتكلم معي بكل حرية . ولا اقبل منك غير ذلك . وانا أكلمك بكل حرية . ولا تتوقع مني غير ذلك . انت تقول امراء العرب . اسمع انا اعلّمْكْ . انا اعرفهم ، وقد

(١) حنا اي نحن .

خبرتهم ، وعجنت عودهم ، العرب يا حضرة الاستاذ لا يعرفون الا مصلحتهم ، وغالباً لا يعرفونها فنعلمهم بها ونكرههم عليها. وقد قاسينا كثيراً في سبيلهم ، وكانت الخيانة في اقرب الناس منهم الينا .

دخل عبد من العبيد يحمل بيـــده اليسرى ابريق القهوة وباليمين الفناجين . فصب للسلطان اولا ثم لي ثم للحضور .

ـ أتعرف يا استاذ اننـا اول من دعا امراء العرب الى الاجتماع والائتلاف ؟ وسنطلعك ان شاء الله على ما يثبت ذلك . فتتأكد اننا اقربهم الى الالفة والاتحاد . حنّا اهل نجـــد لا نبغي المحافظة الا على امرين : ديننا وشرفنا . . . ثم قال : ولا نثقل عليك الليلة وفيك تعب يدعو الى النوم .

قمنا نشيع السلطان ، وكان قد انتصف الليــل فخيم على المضارب السكون ، ولم يبق حولها غير بصيص من النـار . وعندما عدت الى الخيمة التي كانت منذ حين مجلس سلطان اقل ما يقال فيه انه عربي حرّ كريم لم يكن « فيّ » لا تعب ولا نوم ، فجلست استعرض احاديثي معه ثم اشعلت الشمعة وكتبت في مذكراتي بضع صفحات انقل منها ما يلي:

« ها قد قابلت امراء العرب كلهم فما وجدت فيهم اكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً او مبالغاً في ما اقول . فهو حقاً كبير: كبير في مصافحته ، وفي ابتسامته ، وفي كلامه ، وفي نظراته ، وفي ضربه الارض بعصاه . يفصح في اول جلسة عن فكره ولا يخشى احداً من الناس . بل يفشي سره ، وما اشرف السر ، سر رجل يعرف نفسه ، ويثق بعد الله بنفسه . « حنّا العرب» ان الرجل فيه اكبر من السلطان . وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم

لا بالالقاب . ، . ! جئت ابن سعود والقلب فارغ من البغض ومن الحب كما قلت له . فلا رأي الانكليز ، ولا رأي الحجاز ، ولا الثناء ، ولا المطاعن أثّرت في . وها قد ملأ القلب ، ملأه حباً في اول جلسة جلسناها على ان الحب قد لا يكون مقروناً دائماً بالاعجاب . سنرى . قد عاهدته على ان اكلمه بصراحة وحرية . وسأكون في ما اكتب كذلك حراً صريحاً . . . ولكنني احسن شيئاً من الفراسة ، وصرت اركن الى ما تشعر به النفس في المقابلة الاولى . فضلاً عما عندي الآن من اخبار الملوك للمقابلة والتفضيل . . . اني سعيد لاني زرت ابن سعود بعد ان زرتهم كلهم . هو حقاً مسك الختـام » .

كانت الساعة الاولى بعد منتصف الليل عندما نمت والساعة الرابعة عندما ايقظني رفيقي السيد هاشم قائلاً : قام السلطان . وكانت ضجة التأهب للرحيل . سمعت الابل ترغو وتعج وقد بادر العبيد والخدم اليها بالرحال والاحمال . ورأيت النار تشب في كل جانب ، وسمعت المداق في الاجران تدق البن ، ثم صوتاً يؤذن الفجر : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم ! لا إله الا الله ، لا إله الا الله ! وما هي الا فترة حتى صلى السلطان ورجـــاله وشربوا القهوة وارتحلوا . رفع العرب الخيام كما يقول الشاعر ، وسرحوا ساكتين .

في موكب السلطان

السفر في نجد – غُلبتُ في الابكار – مهارة تجيئني فجأة كالوحي – في موكب السلطان – من أعلى السنام في النفود – حديث في السياسة اميركا والرئيس ولسون – اوروبا باب من حديد لا شيء داخله – المضحى – الاستقبال على الرمل – « افخر الطنافس في مجلس الله » المراح – ساعة مع السلطان – الذباب في البادية – الصلاة – السلطان يغضب – فهد الهذال والانكليز – لا نبغي غير الحق ولا نخاف غير الله .

من عادات العرب في السفر ، خصوصاً عرب نجد ، انهم يتنادون ويسرون باكراً . والسلطان عبد العزيز ابكر المبكرين دائماً واعجلهم تأهباً للرحيل . حتى انه ليصلي الفجر احياناً اول وقت الصلاة كي لا يضطر الى الاناخة بعد ذلك قبل الضحى . هو نظام عسكري يتمشى عليه ، ولا بدع فالرجل قوي البنية ، شديد العصب ، يكفيه من النوم ساعتان ، ثم ربع ساعة للرحيل .

وها هنا غُلبتُ . قد يكفيني ما يكفيه من النوم ، ولكني في يومي الثاني في البادية لا استطيع ما يستطيعه لا في التأهب ولا في الركوب . الا ان اعجوبة حدثت صباح ذاك اليوم فكان قد سبقنا الموكب الكبير ، موكب السلطان ، وسرت انا والسيد هاشم في موكبنا الصغير نحث الركائب حتى لحقنا به بعد ساعة . وكان الشفق يتموج وردياً وعصفريا على الآكام ، وعقال سلطان نجد الذهبي بادياً في رأس الموكب فوق كل الرؤوس . فاخترقت الصفوف ، احث ذلولي ، وانا معجب بمهارة

في الركوب جاءتني دفعة واحدة ، فجأة ، كما يجيء الوحي الشعراء [1] فاعتزلت ربعي وسرت مستقلاً ابغي الى جانب السلطان مكاناً وفزت به فقال اذ رآني : ما ظنناك تنهض باكراً .

صبّحت ابن سعود اول مرة من عُلى السنام في النفود . وسرت واياه نحدو في وجه الشمس بصف يتراوح عدده بين الخمس والخمس عشرة من الركائب يتبعه خمسة صفوف او خمسة عشر آخر دون نظام في مثل هذه الحال . اننا في الطريق لا الى الغزو ايها القارىء بل الى مؤتمر سلم يُعقد في البادية . لذلك كنت ترى البنادق [1] معلقة بالرحال من الوراء، والسيوف في اغمادها ثم في بيوت من الجلد تتمايل حولها اللفائف الحمر والشراريب الطويلة . وكل في رحله ملتف بعباءة السكينة والاطمئنان انه لموكب بهيج مهيب . و كنت افضل السير في مؤخره لاملأ النظر منه لولا رغبة اشد ، وواجب احبّ اليّ .

السلطان عبد العزيز فصيح اللسان،سريع الخاطر،لطيف الجواب. وهو مثل امراء العرب كلهم يقـــدم السياسة في الحديث وتهمه على الخصوص منها سياسة اوروبا في الشرق الادنى . على انه شاء صبـاح ذاك اليوم ان يكون الموضوع اميركا وسياستها مع الاحلاف .

— سألني السبب في سقوط الرئيس ولسون فاعلمته بطرق الانتخابات هناك وبما للاحزاب السياسية من السيطرة على الحكومة وعلى البلاد .

— عجيب الا يسوقهم الشقاق الى الحروب ؟

— يحلون مشاكلهم السياسية بالاقتراع .

---

(١) قد يكون الفضل في ذلك للذلول لا لي. وقد علمت بعدئذ انها من العمانيات اي نجائب الابل التي تأبى السير الا في مقدمة الجيش .

(٢) العرب يختصرون لفظة بندقية فيقولون بندق جمعها بنادق .

ـ زين . وكم حزباً عندهم ؟
ـ الرئيسية اثنان والثانوية كثيرة .
ـ زين . وكيف يُرضي الحزب المنتصر بقية الاحزاب ؟
ـ الاقلية تخضع يا مولاي لحكم الاكثرية .
ـ وكيف سقط ولسون اذن وهو الحاكم والاكثرية مع الحاكم .
ـ لم تكن معه في الانتخاب الاخير فقد هجره من انصاره كثيرون انقلبوا واقترعوا عليه .

فهز السلطان عصاه يربت بها رقبة الذلول وقال: لا اظنهم احسنوا لان ولسون رجل عظيم ، وله الفضل الاكبر في تنبيه الشعوب الصغيرة المظلومة . استنهضهم ولسون الى الحرية والاستقلال . وهو ايضا عرّفنا باميركا . ما كنا نعرفها قبل ولسون . اما اليوم وقد تكلم بلسانها فله فضل عليها كما ان فضلها على العالم . . . انا احترم اميركا ، يا حضرة الاستاذ ، وان كانت سياستها الآن مع الاحلاف غير سياسة ولسون. . . اميركا ام الشعوب الضعيفة . ونحن العرب منهم . والعاقل يكفيه التنبيه والاشارة . . . انا احسن اليك ـ ومال بوجهه الى من كان في الجانب الآخر منه ـ أفتبغي كذلك ان اطعمك بيدي ، ان اضع اللقمة في فمك ؟ يكفي ما عملته اميركا ، ما قالته للشعوب الصغيرة المظلومة ، ما قاله ولسون عنها . والعاقل من سعى وانتفع .

اما اوروبا فللسلطان عبد العزيز رأي فيها أفصح عنه بكلمة بليغة وجيزة اذ قال : اشبه اوروبا اليوم بباب حديد كبير ولكن لا شي داخل الباب . وهو لذلك لا يلوم اميركا على اعتزالها الاحلاف وانسحابها من السياسة الاوروبية . ثم قال مخاطباً احد رجاله : ان مشاركة اميركا واوروبا اليوم مثل مشاركتي انا ابن سعود وبادية الشام . ترى

الصحيح .

فهز الرجل رأسه استحساناً .

صعدنا الى اكمة فسيحة مستديرة بين العلاة وام الذر اختارها السلطان مناخاً فانخنا وتفرقنا ارهاطاً كل رهط جلس في حلقة على الرمل . وكان وقت الضحى (٢) اي ساعة الفطور فطاف الخدم بجفان مما كان قد طبخ الليلة البارحة من الارز واللحم ، ثم قدموا التمر وصبوا اللبن من القرب لمن اراد ، فاكلنا وغسلنا ايدينا ، وكان السلطان قد انتهى كذلك من طعامه فسمعناه ينادي من مكانه : أنجيئكم او تجيئوننا ؟ فبادرنا اليه فتصافحنا ثم عرفني ببعض حاشيته اذكر منهم اخاه محمداً وعبدالله بن متعب امير حايل وعمه فيصل بن الرشيد ، فوقفوا صفاً امامي بعد المصافحة والتسليم دون ان يفوه احدهم بكلمة . ثم باشارة من السلطان انصرفوا . فجلس اذ ذاك سموه على الرمل وقال : تفضل يا استاذ ، هذه احسن سجادة عندنا .

يقيناً هي كذلك . فأي فرش انعم من رمل النفود وانظف ? واية سجادة اجمل لوناً واعجب صنعاً ? جلسنا متربعين على افخر الطنافس في مجلس الله . وكان السلطان فينا اجملنا اتضاعاً وافصحنا في لغة الحكمة والورع لساناً : « حنّا » اهل نجد نبغي المحافظة قبل كل شيء على امرين : ديننا وشرفنا .

استأنفنا السير وانخنا بعد ساعتين عند ام الذر التي كانت مراحنا ذاك اليوم . فسرحت الابل ، ونصبت الخيام ، فكان فسطاط السلطان على رأس الاكمة والمضارب حوله متفرقة متنوعة ، منها الخيم الاوربية ومنها بيوت من الشعر كبيرة وصغيرة . ثم حفرت الحفر وشبت فيها

(١) قبل الظهر بساعتين والمكان الذي ينيخون فيه للفطور يسمى المضحى .

النار ، وأخرجت المعاميل [1] ، وبعد قليل شرع السقاة يطوفون بالاباريق والفناجين. جاء عبد يدعوني الى مجلس السلطان فشربت القهوة هناك وبقيت وسموه ساعة كان الانكليز فيها موضوع الحديث .

عدت الى خيمتي وبي شيء من التعب والنعاس ، فوجدت فيها جيشاً من الذباب استحال عليّ طرده والتغلب عليه . ما رأيت حياتي اثقل واقبح من الذباب في البادية ، في صحراء الرمل ، في تلك الجنة التي جردها الله من كل شيء سوى السكينة والهواء الطيب ، فجاء الذباب يفسدهما عليك ومن اين يجيء ؟ هو يركب الذلول واياك . على ظهرها ، وعلى ظهرك ، وعلى رأسك ، يرافقك مؤاخياً ، فيسبقك الى الخيمة ويذبح فيك ما تبقى من أمل في الحياة .

ثم يُحيي الله سبحانه الامل عند الغروب . فيخرج الناس من الخيام ملبين دعوة المؤذن ويصطفون وراء الامام ، والسلطان وسط الجماعة وأحد الحجاب وراءه يحمل السيف ولا يشترك في الصلاة [2] . وكانت اول مرة سمعت الوهابيين يصلون وهم يرنمون بعد تلاوة الفاتحة : آمين ! فتجيء شبيهة بصلاة المسيحيين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . اذ ذاك يصعد من الصفوف صوت مئتين من المصلين يرنم ترنيماً : آمين ! فيتراجع الصوت في الفضاء المهيب كصوت الاجراس في الجبال ساعة الغروب . ما اجمل اصوات المصلين في تلك الساعة التي تبشر بقدوم الليل وبركاته . اصوات المصلين وهم يذكرون الله رب العالمين - اهدنا

(١) المعاميل في اصطلاحهم هي ادوات القهوة اي مقلاة التحميص والجرن والاباريق والفناجين .

(٢) قتل الامام تركي بن سعود في وقت الصلاة فجرت العادة منذ ذاك الحين في استخدام حاجب يحرس الامير ساعة يصلي في الجماعة .

الصراط المستقيم ! فمن ذا الذي لا يردد هذه الصلاة خصوصاً في البادية انها لطلبة تصح حقيقة كما صحت مجازاً في تلك الفيافي والمفازات . اي والله . ان كل من سار حادياً في بحر من الرمال ، وفي ارض تهب فوقها الرياح فتمحو بنظرة كل اثر من اثار البشر والحيوان ، ليبغي الصراط المستقيم . واننا لنهلك يقيناً اذا ضللناه .

في صباح اليوم التالي جاء نجاب من العقير يحمل البريد الذي يتبع السلطان الى حيث يكون ، وفيــه خبر من البحرين بسفر المندوب السامي اليها . فدفع الكتاب الى اخيـه ثم الى بعض حاشيته فتناوبوا قراءته وكل يهمس ان الخبر اغضب السلطان .

سار الموكب والسكوت يظلله والمهـابة تماشيه ، فما كنت تسمع غير صرير الرحال وطق الخيزران على رقاب الركائب . ثم رفع احد الركب صوته يتلو شيئاً من القرآن ، وكلنا نحدو في وجـــه الشمس ساكتين خاشعين ، وتحدو تحتنا الابل على نغم الآيات . وبعد قليل ساد السكوت ثانية وقد تجسم فيه غضب الشيوخ . ثم تكلم فاعلمنا بما اغضبه صباح ذاك اليوم .

ان المندوب السامي على ما يظهر قد اصطحب رجلاً غير مرغوب فيه ، رجـلاً من العرب الناقم عليهم ابن سعود . وهو فهـد الهذال [1] شيخ العمارات في الشمال ، والعمارات فخـذ من عنزى [2] . ولم يكن

(١) فهد بك الهذال انتخب بعدئذ عضواً في المجلس التأسيسي في العراق . وقد اصطحبه يومئذ المندوب السامي لانه كما قيل خبير بالحدود بين العراق ونجد . والحقيقة ان السياسة الانكليزية كانت ترجح اعطاءه بعض الاستقلال في ناحيته او تؤسس مشيخة مستقلة من العمارات بين العراق ونجد على طريقتهم حول عدن .

(٢) العرب يسكنون فاء الاسم فيقولون اُعنزي .

لفهد دخل في المشاكل التي سيعقد مؤتمر العقير من اجلهـــا . بيـد ان للانكليز قصداً باصطحابه كما ظن السلطان وقد جاءوا يحققون هذا القصد على حساب ابن سعود . وقد يكون لفهد الهذال كذلك قصدٌ جاء يحققه على حساب الانكليز .

فرفع رجل نجد صوته في تلك الارجاء الرملية ، وهو على ذلوله ، والخيزران بيده ، يسير في رأس الموكب ، بين اثنين من رجاله :

ــ لا لا هذا ما يصير . لا نتنـازل عن شيء من حقوق اجدادنا . اما اذا قال الانكليز نبغي هـذا منك وجاؤوني بأمر محتوم فانا ابن سعود اسلّم لهم : ولكن في اول فرصة تسنح اسعى لاسترجاع حقوقي المهضومة . ترى الصحيح . وماذا يبغون لابن الهذال ؟ وماذا يبغي ابن الهذال منا ؟ دعهم يغزلون فاننـا لا نتحول عن جادة الحق ، ولا انعمل عملاً فيه ظلمة او غموض . ووجه هذا الضحى ، لا نعمل عملاً ولا نقول كلمة فيها ظلمة او غموض .ولا نطلب غير حقوقنـا ولانخاف غير الله . . . ومن هو ابن الهذال ليجرأ علينا ؟ ابن الهذال الغزال، ليغزل وعشائره ما شاؤوا وليغزل... «الانكلايز» . . . من اجلهم.قال ذلك وهو يرفق الاستعارة بحركة من سبابته لطيفـــة . انا ابن السعود لا اعرف غير الجادة القويمة ولا اقول غير الحق . لست من الغزّالين . اما « الانكلايز» فهم اصدقائي وانا صديقهم . اذا قالوا : نبغي هذا منك، قلت : لكم ما تشاؤون . ولكن ــ ولكن الصبر له حدود . ويظهر اننا قربنا منها ذا الحين . ترى الصحيح .

عبد العزيز آل سعود

السلطان عبد العزيز

يتنعل ويتطيب – عيناه وعصاه – الورد والنصل في شفتيه – ساعة الغضب – سرعة خاطره – تهكمه – نكتة من نكاته – الربع الخالي – مدينة العقير – السلطان في الفسطاط – عرشه وفراشه – ساعته و ناظوره – « علينا الكبيرة والصغيرة » – حافظته تيقظه – مع الانكليز على مائدة متمدنة – مع السلطان على الرمل – « نحتسي اللي لنا و اللي علينا » ،

السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد ، شديد العصب ، متناسق الاعضاء ، اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقصبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون وله في التاريخ – تاريخ نجد الحديث – مجد اذا قيس بالاعوام تجاوز السبع و الاربعين والمئة . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء وفي الشتاء « قنابيز » من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو يتنعل ، ويتطيب ، ويحمل عصاً من الشوحط [1] طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه – على تشكيل كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة . وله عينان عسليتان تنيران اماكن العطف واللطف ساعة الرضى ، وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا . وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحديد . يتقلص فيشتد ، فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء .

اجل ان ابن سعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير . فيذهب العطف

(١) الشوحط شجر تتخذ منه القسي شبيه بالشربان ينبت في نجد الغربية .

من ناظريه ، ولون الورد من شفتيه . ثم في افتراره يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك رهيب . سألني لما كان يصب غضبه على العذال والغزالين : وما رأيك يا استاذ ؟ وكان بيني وبينه بضع مطايا ولا رأي لي اصيح به في تلك الساعة ، فأجبته بكلمة مألوفة : ان الله مع الصابرين يا مولاي . فردد الكلمة ووكز كتف ذلوله برجله ، فراح يُدَرْهِم وتبعناه كلنا مُدرهمين (١)

لا اكتم القارىء انه اعتراني شيء من الانقباض اول مرة شاهدت ابن سعود غضباً . وكنت عندما يقاطعني الحديث قائلاً : اسمع انا اعلّمك احس اني في مجلس رجل غير الرجل الذي زارني في خيمتي بالنفود (٢) بيد انه سريع الغضب سريع الرضى. فهو اذا ضرب الارض بعصاه مرة يلمس القلب منك عشر مرات . وقد يتسرع في الكلام احياناً ثم يتنبّه لذلك فينتزع من خصمه السلاح . أُحضر امامه رجل ليجيب عن ذنب اقترفه ، فقال بعد ان سمع قصته : الحق عليّ لاني لم احذرك ، فلا اقاصك هذه المرة .

ان في الرجل ضميراً حياً كحلمه وسرعة خاطر تقارن التيقظ في ذهنه يبدد بكلمة غيوم الانقباض في مجلسه ، ويجلو افقاً قد يكون الاضطراب فيه من كلامه . وهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، لطيف التهكم . كان يحضر مجلسه احد الثقلاء المتعجرفين وهو من بيت معروف في نجد فقال السلطان يصفه يوماً : هو رُبع الدنيا ، ثم اردف كلمته بـ «الخالي» —

(١) الدرهام ، درهم يدرهم ، نوع من الخبب واللفظة من اصطلاح عرب نجد والحجاز وهو ثلاث درجات : درهام خفيف . ودرهام «صقلاوي» نسبة الى الخيل الصقلاوية ، ودرهام يقرب من الغارة .

(٢) النفود ، اي صحراء النفود التي تقع بين ساحل الخليج العربي والاحساء.

وقد اشار بذلك الى الربع الخالي في بلاد العرب — الخالي من كل شيء غير الرمال

عندما نصبت الخيام للمؤتمر في العقير كان نصفهـا معداً للمندوب السامي ووفد العراق، وهي من الخيام الكبيرة الجميلة، وكانت في معزل عن خيامنا ، بيننا وبينها قرب مئة باع ، وفيهـا فسطاط للاستقبال وآخر للاكل تناولنا فيه الشاي يوم وصولنا . فقال سموه : هذا شاي متمدن - وكان قد صُب مع الحليب في فناجين كبيرة بدل ان يكون صرفاً في الاقداح كما هي العادة في نجد والحجاز — شاي متمدن !

وسلطان يتهكم ويسر . كان عندما ينتقل من الجهة العربية الى تلك الجهة الاوروبية يقول لي : تعال يا استاذ نسافر الى البـلاد المتمدنة . لا تظننا بعيدين كثيراً عنها ، عشر خطوات فقط . . . وها نحن في المدنية — مدنية العقير — هات الشاي يا غلام ! ثم يجلس على الكرسي قائلاً : لنتمدن قليلاً . تفضل يا استاذ شاركنا في التمـدن . وهو يشير الى كرسي آخر

نصبت خيام تلك المدنية وخيامنا على تل مشرف على الخليج وفي معزل عن القصر . وكانت خيمتنا ، انا والسيد هاشم ، عند رأس التل قرب الفسطاط السلطاني الكبير ذي الابواب الاربعة التي يُفتح ويُقفل بعضها وفقاً لمهب الريح ولرغبة سموه في الهواء . كان الفسطاط مفروشاً بالطنافس وفي الصدر فراش فوقه سجـادة فخمـة ورَحْلٌ يقسمه الى مجلسين ، مجلس السلطان — عرشه — ومجلس آخر لمن يُكرم اكراماً خاصاً من الضيوف .

لكل عربي ، من هذا القبيل ، بيتـه وعرشه ، اي المِضْرَب ، والسجادة ، والرَحْل . والسلطان عبد العزيز مثل كل اعرابي ينـام على

الفراش والسجادة في الليل ، ويضعهما تحته على الكور في السفر . وهو لا يحمل شيئاً في جيبه ، لا ساعة ، ولا قلما ولا ذهباً ، ولا فضة . ربما لا يكون في ثيابه جيوب البتة . الا انه يحمل ساعة في خرج عند السفر ويضعها تحت الوسادة عندما يقيم في مكان . يحملها في الصندوق المخملي الذي جاءت فيه من المعمل . ويحمل كذلك ناظوراً كبيراً لا غنى له عنه . فهو دائماً يراقب من مجلسه حركات رجاله وخدامه حتى انه لا تمر غيمة في الافق الا رفع اليها الناظور متيقناً متثبتاً . — امرنا مُشكِل يا حضرة الاستاذ .علينا الكبيرة والصغيرة . فاذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا ... العبد والامير ، عيننا على الاثنين حتى ننصف دائماً الاثنين ونعدل بينهما .

كان اذ ذاك يراقب قافلة اناخت عند خيمة المونة تحمل الينا الخضر والمـاء من الاحساء . فأمر ان يحضُر قيّمها ، فسأله سؤالاً بخصوص جمل من الجمال،فقال القيم :هو حرون يا طويل العمر . فاجابه السلطان : اتركه يرعى مع الجيش [1] لا ترجعه معك .

ثم عاد الى حيث وقف في الحديث فاستأنفه قائلاً : العدل عنـدنا يبدأ بالبل — الابل — ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الاستـاذ لا ينصف الناس .

كثيراً ما يقف السلطان عبد العزيز في حديث مهم لينظر في أمر ظاهره طفيف ، ثم يدخل عليه احد الخـدم او الكتّاب فيقطع عليه الحديث ثانية فينظر في الامر الآخر ، ثم يعود— وهذا ما كان يدهشني — الى الكلمة الاخيرة من حديثه الاول دون ان يسأل كما هي العادة في مثل هـذه الحال عنـد اكثر الناس : ماذا كنت اقول ؟ لا . ما

(١) الجيش تطلق على مجموع الابل من ركائب ومحملات .

سمعته مرة، وكانت احاديثنا معرضة دائماً للتقطيع ، يسأل هذا السؤال. فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائما . عليه الصغيرة والكبيرة يقيناً . وله اليد الصالحة المصلحة في الاثنتين

اقمنا في العقير ثلاثة ايام قبل وصول المندوب السامي وكان الخدم في اثنائها — البدو — يشتغلون في تشييد المدنية الجديدة، مدنية العقير! نصبوا الخيام ، وفرشوها بالطنافس ، والكراسي ، والمنضدات وأواني الشرب، والغسل، ومعدات الكتابة . لم ينقص حتى في فسطاط المائدة شيء من اسباب المدنية ونوافلها . فقد جيء لاخواننا المتمدنين بالماء ليس من وراء الحسا بل من وراء البحار — من اوروبا في القناني المختومة. وما فات الانكليز شيء مما الفوه . اما نحن في مضارب البدو فما كان فينا على ما اظن من يحسدهم على ذلك .

اعجب لهؤلاء الانكليز الذين لا يتنازلون عن شيء من «انكليزياتهم» حتى في البادية . رأيت احدهم في رحلتي يسير وفي قافلته حمار يحمل صندوقين كبيرين من قناني الصودا . واظن ان الوسكي كانت مخبأة في الاحمال الاخرى. ولما دعيت الى تناول الطعام على مائدة المندوب السامي كان سعادته وسعادة حاشيته وصاحب الاقبال مندوب العراق في الثياب الرسمية السموكنغ بالعقير ! وانا مع السلطان في الثياب العربية. فسر سموه بذلك . ولكنه لم ينتقد « الانكليز » حتى ولا مندوب العراق العربي الذي لم يتنازل فيلبس العباءة والعقال .

— اكلنا تلك الليلة بالاسباب ، اي الشوكة والملعقة والسكين ، وشربنا من ماء « بزبير » المبارك ، وقدم لنا الطعام بانتظام وترتيب ، وكانت الحلويات تزيد على ما تعودناه، وفوق ذلك الثمار من موز وتفاح وبرتقال . ولكننا لم نشعر في تلك الليلة بان سعادتنا قد تمت على الارض

وكللت في زاوية من الجنة تدعى العقير .

خرجنا من فسطاط المائدة الى فسطاط الاستقبال فودعنا المتمدنين عند الباب ، وسرت والسلطان عبد العزيز ، وقد نزعنا نعالنا ، نتمشى ويدي في يده ، حفاة على الرمل – على الرمل البـــارد المنعش ، تحت النجوم القريبة البريق، الدافئة الضياء . فاحسست اذ ذاك بان مايقربني من هذا الرجل ويقربه مني ليتجاوز القيـــافة والاشتراك ذوقاً ببعض العادات . هو هو السر الذي يقرب منا النجوم ويبرد تحت ارجلنـــا رمال البادية . اليك ايها القارىء كلمة اخرى من مذكراتي :

« مهما قيل في ابن سعود فهو رجل قبل كل شيء . رجل كبير القلب والنفس والوجدان . عربي تجسمت فيــه فضائل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم شعرنا وتاريخنا، وتجسمت فيــه كذلك من آفاتهم ما لا يحاول ان يخفيــه رجل صافي الذهن والوجدان خلو من الادعاء والتصلف ، خلو من التظاهر الكاذب . قص علينا ليلة امس قصة حرب من حروبه وبيت الرشيد وختم قصته العجيبة بهــذه الكلمات : لا اخذناهم في تلــك الوقعــة ولا كسرونا . ترى الصحيح. نحتسي اللي لنا واللي علينا [1]. نفخ بعد ذلك في يده وقد رفعها في شكل بوق الى فمه كأنه يقول : ننثرها كالهواء لمن يريدها ولا نخاف غير الله .

(١) نحكي الذي لنا والذي علينا . عرب العراق والشام يلفظون الكاف تش وعرب نجد يخففونها فيلفظونها تس لحتسي – نحكي .

بين العراق والحجاز

مؤتمر المحمرة — المعاهدات بين نجد والعراق — العمارات والضفير — هم أبناء عمنا — وعنده حجج ثلاث غيرها — رعايا اجدادنا — العمارات والروله فخذان من عنزى — نوري الشعلان وفهد الهذال — ابن سعود والانكليز — الشريف واولاده — جريدة القبلة — كتاب من الملك حسين — حاوي خير — مصالح الانكليز في الخليج العجمي — ابن سعود حامي بريطانيا العظمى — لا يساعدون الامراء في عقد مؤتمر عربي عام ولا يتركون الامراء وشأنهم — كيف يحسمون الخلاف بين اميرين متخاصمين ،

اول مرة قابلت المندوب السامي في بغداد قال لي ، كما يذكر القارىء ، ان القصد من زيارته لابن سعود هو ابرام المعاهدة بين نجد والعراق ، تلك المعاهدة التي عقدت في مؤتمر المحمّرة ولم يوقعها السلطان عبد العزيز لان مندوبه تساهل يومئذ في امر القبيلتين ، العمارات والضفير ، اللتين يدّعيهما وتدّعيهما كذلك حكومة العراق . وقد قال لي الملك فيصل آنئذ ان خير حل لهذه القضية هو ان تعين لجنة من الخبراء بالعشائر والحدود للنظر فيها ، وان تقبل الحكومتان حكمها . فجاء السر برسي كوكس الى العقير ليقنع صديقه ابن سعود في وجوب عقد المعاهدة وقبول حكم الخبراء في العمارات والضفير .

ولكن السلطان عبد العزيز جاء الى الحسا ثم الى العقير لغير هذه الغاية ، ولم يكن يخطر في باله ان المندوب السامي وحكومة العراق يبغيان تجديد النظر في معاهدة المحمرة . فلما علم صباح ذاك اليوم بقدوم المندوبين غضب تلك الغضبة الشديدة وهو راكب في موكبه يجتاز

النفود . ومما قاله لي انه هو الذي طلب الاجتماع بالمندوب السامي ، فدعاه الى الحسا ، وجاء من اجل ذلك يلاقيه الى العقير . اما العمارات والضفير فما كان ليكلف نفسه الخروج من الرياض من اجلهما . وقد كان اعد لمندوبه في مؤتمر المحمرة دفاعاً عن حقوقه فيهما هذه خلاصته :

* : عندما سقطت دولة آل سعود ، انقسمت الى قسمين كان احدهما بيد الترك والآخر بيد ابن الرشيد . ثم ظهر السلطان الحالي ، الذي احيا تلك الدولة واستعاد ملك آبائه واجداده . فاستولى على نجد ، واخذ القصيم من يد ابن الرشيد ، وهزم الترك وطردهم من الاحساء والقطيف . وهو لا يزال يطالب بما تبقى من امـــلاك اجداده وعشائرهم شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً .

* : ان عشيرة الضفير التي تقطن اليـوم الشامية « بالعراق » كانت في الماضي من رعايا آل سعود . اما العمارات والرولا فهما فخذان من افخاذ عنزى ، وكانوا يسكنون نجداً خصوصاً القصيم ، ومشايخهم بنو الهذال وبنو الشعلان هم ابناء عم آل سعود ومن رعاياهم .

* : ان الانكليز عندما احتلوا العراق احترموا فيـه حدوده السابقة التي كانت تحترمها الحكومة العثمانية . كالحدود الشرقية بين حكومة ايران والعراق مثلاً ، والجنوبية بين العراق والكويت . وقـد اعترفوا ايضاً بالاحوال الجارية والقواعد المرعية بين الترك قبلهم وحكام العرب المجاورين لهم ، وفي مقدمتهم امارة بيت الرشيد . وبما ان سلطان نجد الحالي استولى على امارة الرشيد وادخل في ملكه وحوزته جميع ما كان لتلك الامـــارة المتفرقة من بادية وحضر ، فـــله الحق بمن تشرد او تسرب منهم ، اي العمارات والضفير ، الى العراق .

كثيراً ما سمعت السلطان يقول : هم رعايا آبائنا واجدادنا ، بل هم ابناء عمنا . وهذه الكلمة الاخيرة كانت غالباً تسبق كل حجة في كلامه عن الخلاف بينه وبين امراء العشائر — هم ابناء عمنا. اضحكتني مراراً منه هذه الكلمة، بل شغلت بالي. فقد تخيلت فيما لو وصلت دعواه الى سوريا والسوريين فماذا كان يحدث يا ترى ! الا ان قوله ان ابن الهذال وابن الشعلان من ابناء عمه مبني على كونهما شيخي العمارات والرولا . وهاتان القبيلتان فخذان من عنزى ، وعنزى كما هو مدون في كتب الانساب، اخو وائل من ربيعة ، ونسب ابن سعود السلطان عبد العزيز يتصل ببكر ابن وائل . فقبيلة عنزى اذن هي كلها جمعاء ابنة عمه وله عليها حق الرعاية . واذا كان نوري[1] لا يحسن سياسة عشائرهـا وفهد لا يستطيع ان يؤدب بدوها ، فالشوحط بيـد ابن سعود يلبي الطلب . وما الشوحط الا خشبة ، اذا كان لا يسارع به الى الشمال فيحمي ذمار ابنة عمـه عنزى المشرّدة الضاربة في بوادي العراق والشام ، شمالي جبل عنيزة شرقاً وغرباً ، ويعلمهـا حسن السلوك ، ليطمئن بالك يا فهد ، وليطمئن بالك يا نوري ، وليطمئن بال صديقتيكما انكلترا وفرنسا . ان لشوحط ابن سعود ما يشغله عنكم الآن . ولكن من يكفل المشاهرات والانتدابات الى الابد ؟

كان السلطان عبـد العزيز هو الذي دعا السر برسي كوكس اليه ، وجاء يلاقيه في العقير . اما القصد من هـذه الدعوة فمزدوج . حدثني سموه قال : « يظن الناس اننا نقبض من الانكليز مبالغ كبيرة من المال. والحقيقة انهم لم يدفعوا لنا الا اليسير مما تستحقه الاعمال التي قمنا بهـا اثناء الحرب وبعدها . ونحن لا نختلف معهم قبل ان يخلفوا معنا . بيننا

(١) نوري الشعلان زعيم الرولا .

وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا في انفسنا ومصالحنا . . . الانكليز مديونون لنا ، ترى الصحيح يا استاذ ، ونحن لا نطالبهم ، من العار ان نطالبهم . ولكن ما هي سياستهم الآن ، نراهم يغزلون ويغزلون . تراهم يدسون الدسائس عليّ – عليّ انا صديقهم ابن سعود – احاطوني بالاعداء . اقاموا دويلات حولي ، ونصبوا من اعدائي ملوكاً ، وهم يمدونهم دائماً بالمساعدات المالية والسياسية . الشريف في الحجاز ، وابنه عبدالله في شرق الاردن ، وابنه فيصل في العراق . . . ما القصد من هذه الاعمال ؟ وما الداعي اليهـا ؟ انا ابن سعود صديق الانكليز وهم في سياستهم الشريفية يعاملونني معاملة العـدو . . . ومن هو ابن سعود في نظر الشريف واولاده ؟ هو الجلف الكافر الخارجي . ترى الصحيح يا حضرة الاستاذ . قد قالوا ذلك . بل قالوا اكثر من ذلك . وهم مع ذلك يطلبون مني ان احمل على الفرنسويين في سوريا لاخرجهم منها . ترى الصحيح » .

ونادى اذ ذاك احد كتاب ديوانه ، فأمره ان يحضر بعض اعداد من جريدة القبلة ، فاطلعني فيها على قصيدة تثبت كلامه الاخير . قصيدة لشاعر حجـازي يستنجد سلطان نجد على الفرنسيس في سوريا . وفي عدد آخر مقالات كلها مطاعن في ابن سعود الجلف الخارجي . فقلت : الصحافة يا مولاي واحدة ، ان كانت في ظل الحرمين او في ظل برج ايفل . والرجل الكبير لا يكترث لاقوالها . فقال السلطان وكان قد احتدم غيظاً ، فذهب القرمز من شفتيه ، ونور العطف من ناظريه : اسمع . انا أُعلِّمْك (١) . هـذا قول الشريف لا قول احد الكتاب

(١) كانت تغيظني هذه الكلمة « انا اعلمك » حتى سمعتها من البدو ومن احـد خدامنا فقلت لصديقي السيد هاشم وقـد طفح الكيل : أيعلمني حتى الخدم والبدو

المسترزقين، وسأطلعك على ضده، بخط يده ... هات آخر كتاب جاءنا من مكة .

خرج الكاتب .

— هات اقهوَه .

من عادات السلطان انه حين يحتدم غيظاً يطلب القهوة . فنادي العبد في الباب . اقهوَه . وكرر الصدى خارجاً عند النار .

— لا نسلم بذرّة من حقوقنا ، ولكننا لا نقول في اعدائنا ما يقولون فينا ، ولا نطلب غير ما كان لآبائنا واجدادنا قبلنا . ليعلم ذلك اصحابنا الانكليز . وضرب بالشوحط السجادة عند قدميه .

جاء الخادم بالقهوة فوقف امامه وقفة جندي الماني وسلم ثم انتظر الى ان ينتهي من كلامه .

— وليعلم ذلك الشريف واولاده . قالها بلهجة اشد من الاولى ومكنها بضربة اخرى ، ثم مد يده ، فصب الخادم القهوة ، ثم صب لي ثم للحضور . دخل الكاتب يحمل كتاباً تناوله السلطان ، وبعد ان شرب ثلاثاً دفعه الي . قرأته وانا مدهوش — بعد ان قرأت مقالة القبلة — مما جاء فيه من كلمات التودد والاكرام والتبجيل . اسلوب الديوان الهاشمي لا يتغير . ثم دفع اليّ ملحقاً خطه غير خط الكتاب وفيه الخبر اليقين، حاوي خير، فحواه : ان الملك حسيناً يدعو السلطان الى الصلح والى الاتفاق ، ويعرض عليه ذلك مقيداً بشروط منها ان

تابع شرح صفحة ٥٨

في بلادكم وهم لا يتعلمون شيئاً منا ، ولا أحد يتنازل ان يخبرنا او يتلطف بافادتنا؟ فاجابني السيد : اليك ذلك.فان نجد يعلمك وهو لا يريد بذلك غير الخير. اعلمك هو اصطلاحهم في اخبرك . أو ما سمعتهم يقولون : : هات علومك أي أخبارك ؟ فلا يثقل التعليم على طبعك يا استاذ .

تعاد تربه والخرمه [1] الى الحجاز ، وان يعاد الى ابن الرشيد ملكه في حائل وسيادته في جبل شمر .

– تسلام (كلام) ولا ندري أنصدق الكتاب ام الجريدة .

ثم سألني رأيي وكانت قد تغيرت لهجته وسكنت فيه ثورة الغضب .

– ما رأيك يا حضرة الاستاذ ؟ لا تقل لي ان لا دخل لك بالسياسة ، وان سياحتك في بلادنا سياحة علمية فقط . « حنا » نفهم . ومرّ يده على لحيته وهو يبسم بسمته الخلابة . لا تخدعنا يا استاذ . لا تغزل عندنا في المقاصد والكلام . اصدقنا الخبر . فقد قابلت الشريف وحدثته وقابلت الامام يحيي والادريسي والملك فيصل وحدثتهم كلهم . فاعطني الآن رأيك . ابغي نصيحتك . تكلم ويكفي ان تقول رأيي تسدا (كذا) ولا جزم فنقبله منك . ولكني كلمتك بالحرية وابغي منك مثلها . المندوب السامي يصل غداً . « حنا » دعوناه للنظر في هذا الامر ، امر الشريف واولاده . فما رأيك يا صديقي الاستاذ ؟ وماذا ينبغي ان اقول للانكليز غداً ؟ اراك ساكتا .

كنت قد افصحت عن رأيي فيما يختص بالموضوع وفروعه في احاديث سابقة . ولكني وجدت ان من المستحيل ان نخطو خطوة واحدة بدون ان نتعثر بشيء للانكليز او من الانكليز في كل مكان ، خصوصاً في الخليج العجمي وفي سواحل البلاد العربية على الخليج . فالانكليز يحتكرون الخليج وهم يعززون هذا الاحتكار بنشر سيادتهم على ضفتيه الشرقية والغربية . ان لهم ها هنا ولا شك ما لهم في عدن من مصالح وامتيازات قديمة لا يتنازلون عنها . وهم يأبون ان يكون لسواهم من الاوروبيين او الاميركيين يد او رجل او شراع في تلك

(١) راجع الفصل الخاص بالملك حسين بن علي .

البقعة من الارض . اما في الخليج وفي الجهة العجمية منه فهم آمنون . على انهم في السواحل العربية لا يطمئنون كل الاطمئنان رغم ما عقدوه من المعاهدات مع امراء العرب ولولا ابن سعود وهو اول المتعاهدين واكبرهم لما أمنوا التعديات البرية والبحرية . لست مبالغاً اذا قلت قد يكون ابن سعود حامي بريطانيا في الخليج ، لانه يستطيع اذا شاء ان يخرج وكلاءها من الاساكل ويقضي على سياستها في السواحل العربية الشرقية فيستولي عليها . ما ضره اذن لو قال لانكلترا في سبيل مصلحته خصوصاً ومصلحة العرب عموماً كلمة حق صريحة ؟

قلت مجيباً على سؤاله : قل للانكليز يا مولاي ان قد حان الوقت لواحد من امرين . اما ان يساعدوا امراء العرب مساعدة حقيقية فيحملوهم على عقد اجتماع عربي عام للنظر في الوحدة العربية او في تأسيس حلف عربي ، واما ان يرفعوا يدهم من التدخلات كلها فينهض امراء العرب انفسهم لهذا الامر ويجتمعون دون وساطة اجنبية .

فأكد لي السلطان ان الانكليز لا يعملون لا هذا ولا ذاك . ولو سعوا سعياً" اكيداً ليجمعوا امراء العرب ويوفقوا بين المتعادين منهم لا يفلحون ، بل يزيدون الخرق اتساعاً" . ثم ضرب مثلاً على ذلك فأطلعني على طريقتهم : لنفرض ان شيخين من مشايخ العرب مختلفان على الحدود بينهما . والخلاف بسيط يمكن حسمه بوساطة شخص ثالث من البلاد . فان الانكليز يتدخلون في الامر فيعقده مأمورهم او وكيلهم السياسي فيصبح السلم بين المتخاصمين مستحيلاً . اما الحق في ذلك فليس على المأمور الانكليزي وحده . كلا ، العرب انفسهم يشاركون في الذنب . كل من الشيخين المتخاصمين يقول في نفسه : لا بد ان يتحزب المأمور الانكليزي اما لي واما عليّ" . وهذا أكيد . هي عادة الانكليز في

تدخلاتهم كلها . فيضاعف العربي مطالبه عشرة اضعاف ، ولسان حاله يقول : اذا كان الانكليز معي فيعطوني حقي وزيادة ، واذا كانوا عليّ فيعطوني في الاقل بعض ما اطلبه ، ولا بد ان يكون فيه شيء من حقي .

ثم قال السلطان : هذه طريقة العرب يا حضرة الاستاذ ، وهذه طريقة « الانكليز » . عسى ان الله يعلمنا فنعقل ويؤدبهم فيعدلوا ... هات اقهوة .

عبد العزيز آل سعود

مؤتمر العقير

بلاد الغربة – خباء الكآبة والغم – الرفيق الحزين – الاستاذ المزين – الشوق والحنين في الفسطاط – الشوق والحنين في المضارب – السمر – اشعار نبطية – « الله يغربل الانكليز » – وصول المندوب السامي – اول جلسة من جلسات مؤتمر العقير – قنبلة السلطان ونكتته – الحكومة والعشائر – الحكومة الضعيفة تسترضيهم والحكومة القوية تضربهم – اغمدوا السيف فيطغون، اشهروا السيف فيرتدعون – رجال الاقتصاد في المؤتمر – النقابة العمومية الشرقية – شركة عبادان – امتياز الحسا – الميجر فرنك هومس – فهد الهذال – مندوب حكومة العراق – السر برسي كوكس يوكل بي السلطان .

مللنا الاقامة في العقير ونحن ننتظر المندوب السامي . وما العقير غير حوش من الخليج والنفود ، شمسها في شهر كانون محرقة، ورطوبة هوائها تنهك حتى الابل . ولها مزية اخرى يعدها العرب من الآفات ، العرب الذين لا يقيمون زمناً في مكان وهم يستأنسون كثيراً بالاسفار . فقد قالوا ان العقير هي الغربة بعينها ، تبعدهم عن الاوطان، عن الاهل والعيال ، ساد في المضارب روح السآمة والكآبة فكان اشد وطأة من الرطوبة في الهواء .

سمعت حتى العبيد يشكون . وكانت خيمتي ، وانا الوحيد بين هؤلاء الناس البعيد حقاً عن الاوطان، البعيد عن الاهل والخلان واحق منهم لذلك بالشكوى – كانت خيمتي خباء الكآبة والغم . فسألت رفيقي الاديب السيد هاشم عن السبب في بؤس حاله :

– هل هناك غير الهواء والوحشة والانكليز ؟

– لا شيء من ذلك يا استاذ .

— وهل هو مما يستطاع مقاومته ؟ هل يمكنني ان اقوم بشيء يخفف وطأته عليك ؟

— لو كنت ياعزيزي الاستاذ مزيناً ، وكان عندك مقص وكنت ترغب في خدمتي لفعلت .

ففتحت حقيبتي وقلت : ها المقص وها انا ذا . اتبغي ان اقص شعرك ؟

— لا يا استاذ . بل هذه اللحية التي تطاولت عليّ ، أفسدت عيشي ، سودت ايامي .

ولكننا لم نفز بتبييض شيء منها ، اي من ايامه . فبعد ان شذبت لحيته وجعلتها لحية نجدية قصـيرة مستديرة ، قال السيد الحزين : الله يا استاذ ما اضعف الانسان وما اسخف آراءه ساعة يستولي الحزن عليه . حاولت ان اخفي حزني في لحيتي فما نجحت . اضحكتني يامزين — زين الله حالك — ولكنك لم تفرج غمي . لله در من قال : لا تخف ما فعلت بك الاشواق . وكأنه لمس وتراً فيّ ، شدته الى حد الأنين يد الهجر والنوى ، فأنّ ولسان حالي يقول : واشرح هواك فكلنا عشاق .

— كان لي امرأة يا حضرة الاستاذ بارعة جميـلة ، حسنة الخلق ، لطيفة الذوق ، شديدة الهيام ، وكانت وحيـدة قلبي وبيتي . متعني الزمان بها سنتين ثم جاء القواد الموت اختطفها من بين يدي . فهجرت الكويت وجئت نجد ابغي علاجاً في البعد والنسيان . ولكن العقير تعيد اليّ ألم الذكرى . ادنتني العقير من الكويت والاحزان . . . لله ما اضعف الانسان ... يا هويدي [1] هات القهوة [2] .

(١) هويدي تصغير عبد الهادي .

(٢) في نجد يسكنون فاء الاسم ويحركون العين اذا كانت ساكنة ، او بالحري

ولما كنا ذات ليلة في مجلس السلطان جاء النجاب بالبريـــد ،وفيه كتب لرجال في معيته فوزعت عليهم . ثم شرع عظمته يقرأ كتبه والكاتب جالس عند قدميه فيطرحها اليه سئماً ،حتى وصل الى كتاب عرفه قبل ان يفضه ، فاربدّ جبينه وهو يطالعه . ثم مال وجهه الي وقال . هو من الاهل ، وهم يشكون البعد والهجر . منذ اربعة اشهر « حنّا » في الحسا ، وفينا مثلما فيهم من الشوق والحنين ... ما كنا نبطيء بالرجوع لولا المندوب السامي وهو صديقنا . انا احب السر برسي كوكس واحترمه ، ولكنه ابطأ ، ابطأ جداً . وهذا الهواء الردي ، هواء العقير ، وهذه الوحشة التي لولا انسك يا استاذ لما كانت تطاق . « حنّا » اهل العارض لا نتحمل هواء الساحل ، سئمنا الاقامة هنا ، مرضنا . وسنرجع اذا كان لا يصل السر برسي كوكس غداً ، اي بالله نرجع ثم كلم الحاجب في الباب : هات اقهوه . فردد الحاجب : اقهُوَه . واجاب راعي المعاميل عند النار : اي والله اقهوه .

بينا كنا عائدين تلك الليلة الى الخباء مررنا بحلقة من حلقات الربع حول نار مشبوبة يؤمها كل من يبغي القهوة من الخدم والسادة. فكانت حافلة عامرة تباري النار تأججاً واللهيب حنيناً ،فافسحوا لنا مكاناً وهم يواصلون قص القصص ويروون من الاشعار ما يفصح عما فيهـــم من الشوق والحنين ، فيردد الجلوس اخر كلمة من كل بيت وفيهم طرب يمازجه الغم :

تابع شرح صفحة ٦٤

ينقلون حركة الفاء الى العين ، فلا يقولون قهوة او شجرة او الدهناء بل اقهُوَه واشجرَه والدَهنا .

يا ليتني حرته[1] احمل ذهابه وماه . الجلوس : وماه
يا ليتني مهرته وزّبنه [2]عن عداه . » : عداه
يا ليتني محبسَه واكل معه من عشاه. » : عشاه
يا ليتني نعلته واطا معه ما وطاه . » : وطاه

– زين بالله زين !

ولكنها ابيات قيلت في مدح ابن رشيد . فقال راويها : ولكنها لسان حال صديق لي بالمنفوحه .

يا جالي الحب ما تجلاه تجلي الموده وتفطن لي [3].الجلوس :تفطن لي
طواني الحب طوي اللحا [4] عجَزتْ عراويه تنحلّي.الجلوس تنحلي

– زين بالله زين .

– صب يا دْحَيم .

فقال دحيم وهو يصب القهوة: حنّا العرب لا نصبر على البعد والجفاء فقال اخر شارحاً مفصحاً : يقول دحيم ، اننا لا نصبر على البعد عن الحريم . نبغي النساء أبَدْ ، دائماً . والشيوخ اشدنا شوقاً اليوم . الله يغربل الانكليز [5] .

وقد استجاب الله سبحانه طلبة الاعرابي فغربل فريقاً منهم في اليوم

---

(١) حرته اي ناقته الحرة النجيبة .

(٢) زبنه في اصطلاحهم أبعده او حماه .

(٣) يا مبعد الحب والمودة الا تفطن لي وتبعدني اي تدنيني منهما .

(٤) اللحا قشر شجرة الطلح . ولكي يستقيم الوزن والقافية يجب ان تلفظ اللحا على القاعدة النجدية بتسكين اللامين اي الْلْحا . وهذه الابيات من الشعر النبطي الذي يتغنى به اهل نجد .

(٥) قلما يسبون في نجد ولكن اذا اغتاظوا من احد، يقولون : الله يغربله، اي يغربل الشر منه ، واذا اشتد غيظهم وسخطهم يقولون : سلط الله عليه .

التالي وقذف ما في الغربال الى شاطىء العقير . اجل وصل المندوب وحاشيته مساء، فبادر الخدم اليهم بالخيل ولاقاهم السلطان على الرصيف عند القصر . ثم عادوا كلهم راكبين ، فترجلوا عند فسطاط الاستقبال وكان قد انير بنور قنديل « اللوكس » ويدعى هناك بالكهرباء .

جلس المندوب السامي الى شمال السلطان [1] والى جانبه كاتب سره والوكيل السياسي في الكويت والميجر دكسون مأمور الارتباط في البحرين وجلس الشيخ فهد الهذال بيني وبين عظمته الى اليمين .

اعتذر المندوب السامي لانه ابطأ ، فقبل السلطان العذر ، وشرع يفصح عما كان يتقد في صدره وهو ينظر اليه غير مكترث بسواه . فجاءت الكلمة الاولى قنبلة زعزعت المكان . — انا لا اخشى الا الرجل الذي لا شرف له ولا دين .

ثم قال لا ندري يا حضرة المندوب ما خفي من المقاصد ولكننا نرجو منها الخير ومهما نعلمه علم اليقين ان العشائر ، خصوصا عشائر العراق ، لا ترتاح الى حكومة قوية شديدة الساعد ، بل لا تبغيها .لان الحكومة اذا كانت قوية تضربهم ،تؤدبهم ، فيتأدبون . اما اذا كانت ضعيفة فتسترضيهم كما هي الحال اليوم ... العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون الا بالسيف . والا فهم يركبون على ظهر الحكومة ويسوقونها والبلاد الى مهاوي الخراب ... اشهروا السيف يرتدعوا ، يتأدبوا . اغمدوا السيف يقتتلوا وينهبوا . ويتقاضوكم مع ذلك الخوّة.

فاه عظمته بهذه الكلمات مولياً وجهه المندوب السامي وظهر فهد الهذال . وكان الشوحط الطويل بيده يساعد بالافصاح والتمكين ،

---

(١) كان المندوب اول من دخل الى الفسطاط واظنه اختار المكان تأدباً ، اما الشيخ فهد فلا اظن ان عظمة السلطان اجلسه الى اليمين .

فرابني بــــل راعني منه هذا التصريح ، فقلت في نفسي : سامح الله عبد العزيز . قد اخطأ في استرساله الى غضبه . ولكنه وهو السياسي المحنّك اراد ان يفهم ابن الهذال بانه صريح مع الانكليز كما هو صريح مع العرب ، وانه في الحق لا يهاب بشراً . على ان المجلس ادلهمّ هنيهة من كلامه فجاء هو على عادته ، كما قلت سابقاً ، يجلوه بكلمة لطيفة فأزال الانقباض الذي استولى على النفوس . لانه في غمزة قناة الهذال اهانة حكومة الانتداب التي تدفع له مشاهرة ليحفظ الامن في البادية بين العراق والشام .

— اغمدوا السيف يقتتلو وينهبوا .

ثم مال بوجهه الى الشيخ فهد وقال مبتسماً : اليس كذلك يافهد. « حنّا » نعرف بعضنا . فضحك كل من كان في المجلس سوى شيخ العمارات الذي كان يحدق نظره في السجادة ، ثم يرفعه خلسة الى المندوب السامي كأنه يقول : لا بارك الله بساعة جئت فيها معك .

هذه اول جلسة وان كانت غير رسمية في مؤتمر العقير ، تبعتهـــــا جلسات سرية بين السلطان والمندوب ، وجلسات عمومية حضرها رئيس وفد العراق ووكيل بريطانيا السياسي في الكويت والشيخ فهد الهذال. وكان الكتّاب والمترجمون — الميجر دكسون من الجهة الانكليزية والدكتور عبدالله من الجهة العربية . والاخصائيون ايضاً من البـدو الخبراء بارض الشمال وحدودها واماكن الماء فيها ، يؤمون من حين الى حين خيمتي الصغيرة . فرأيت ان رغبة الفريقين بالسلم رغبة حقيقية ، وان السعي مع ما تخلله من وعيد وتهديد ظل متواصلاً حتى النهاية ، فكللت في اليوم الخامس اعمال المؤتمر بالنجاح [1] .

(١) راجع تفاصيل مؤتمر العقير في تاريخ نجد الحديث .

ولم يُحرم مؤتمر العقير غير ممثلي الصحافة . اما رجال الاقتصاد وطالبوا الامتيازات ، الذين يحومون على كل مؤتمر يعقد في اوروبا في هذه الايام ، فقد شرف بعضهم العقير وكان البعض ، وهم على الشاطىء العجمي من الخليج ، يتقربون من ذوي الامر فيه باسم الصداقة للعرب — والبترول . فقد علمت ان السير آرنلد ولسون رئيس شركة الزيت الانكليزية الفارسية في عبّادان كتب الى صديق له في المؤتمر يسأله مفاوضة السلطان عبد العزيز بخصوص امتياز في الحسا .

ولكن الذي كان قد باشر المفاوضة فجاء بنفسه ونصب خيمته بالقرب من فسطاط السلطان هو الميجر فرانك هومس وكيل النقابة العمومية الشرقية بلندن . كنت قد سمعت بالميجر في عدن وعسير ، فما استغربت امره عندما اجتمعت به على رمل العقير . هو في العقد الخامس من العمر ، وفي طور الشباب همة ونشاطاً . فقد ساح في تهامة وفي الاحساء بالرغم عن انه لا يعرف كلمة من اللغة العربية ، وهو يبحث عن الزيت وينشد مثل شركة عبادان الامتيازات .

على ان الفرق بينه وبين تلك الشركة هو ان حكومة بريطانيا تعضدها لانها تملك سبعين بالمئة من اسهمها ، وتقاوم كل شركة سواها تبغي امتيازاً في الشطر الشرقي من البلاد العربية . قال لي الميجر هومس ذات يوم في العقير : لا خصم لنا غير حكومتنا. ولكن لا دخل لنا في السياسة ، نحن تجار ننفع وننتفع .

لذلك منحه السلطان عبد العزيز امتياز الحسا ، بالرغم عن مقاومة الحكومة البريطانية التي كانت تفضل ان تمنحه لشركة عبادان . ثم شدّ الميجر اطنابه في الكويت وفي البحرين حتى وفي العراق ، فاذا جاء فوزه مقابلاً لجزء من سعيه ، وكانت شركته بعيدة دائماً عن

السياسة ، قد يصبح اشهر من نالوا امتيازات في البلاد العربية واحبهم الى العرب .

وقف في صباح اليوم السادس مندوبو المؤتمر للمصورين فينا وقفة الرضى والامتنان . وكان الميجر هومس مع الفريقين ، مَن تصوروا ومن صوروا . ثم انتثر العقد ورددت كلمات الوداع . فعاد كل في سبيله يثني على رجل المؤتمر ، بل رجل نجد الكبير السلطان عبد العزيز. حتى ان الشيخ فهداً كان صباح ذاك اليوم من الراضين ، المسرورين ، المادحين. سأله السلطان عند الوداع : هل من حاجة نقضيها لكم، فاجاب: نعم يلزمنا بعض العمانيات [1] . فقال عظمته : ارسل احد رجالك معنا نرسلها اليك من الحسا . ففعل . ثم جاءني يعتذر ، والرضى ابو العطف والاتضاع ، لانه لم يرد زيارتي فقال : ان اشغال المؤتمر حالت دون ذلك ، وامر كاتب سره ان يدون اسمي في دفتره ، دفتر المقربين المغبوطين. ثم دعاني بورك فيه الى ديرته في الشمال قائلًا : سنقوم هناك بواجبكم ان شاء الله .

اما مندوب حكومة العراق فامره يحزن . كان قد مرض في الطريق الى العُقير فوصل الينا ورديفته الحمى . وكان اثناء المؤتمر يشكو كل شيء ــ ثُقل الهواء ، وملوحة الماء ، ووحشة البيداء ، وظلم السماء ،ويقبّل مع ذلك يد السلطان عبد العزيز . اظنه كان يجهل ان اهل نجد لا يقبلون يد السلطان ، وان تقبيل الايدي هو مستنكر عندهم. سألني عند الوداع قائلًا : أصحيح انك مسافر مع السلطان الى نجد ؟ فقلت : نعم ، تعال معنا . فقال : وان اعطيتني ثقل رمال البادية ذهباً لا اخطو خطوة اليها . ها هنا ــ واشار الى البحر ــ خلاصي.

---

(١) النوق العمانيات من عُمان وهي انجب الابل واعزها .

البحر يوصلني الى بغداد . وكان في كلماته وفي تنهداتـه يمثل العاشق المشتاق ، البعيد عن جزر الواق الواق . مسكين المتمدن الذي لا يستطيع ان يستغني عن المدنية ولو يوماً واحداً .

اما الانكليز في المؤتمر فما سمعتهم مرة يشكون ، شأنهم في كل مكان. فهم يقتبلون كل حال حسنت او ساءت ، عاملين عملهم جادين ، راضين بقسمتهم الوقتية ساكتين صابرين . ودّعوني ولسان حال كل منهم يقول : هنيئاً لك ، يا ليتني مسافر معك !

ولكن المندوب السامي السر برسي كوكس قال لي ساعة الوداع : وهلا سافرت الى الربع الخالي . فقلت ضاحكاً : كأنك تبغي هلاكي . ثم فاه وهو يودع السلطان بكلمة انستني الاولى لان فيها منحت ضمناً حق الحماية الانكليزية . قال باللغة العربية مخاطباً السلطان ومشيراً الي: هو بذمتك . فاجاب السلطان بكلمة ألطف منها واجمل . قال ويده على كتفي : الاستاذ نجدي الآن ، هو منا .

العدل اساس الملك

عدل ابن سعود – الشرع – البسط في المذهب الوهابي– عرب البادية – الحطاب – « لولا الشيوخ والله لادبته » – الامن في نجد – من القطيف الى ابها ومن وادي الدواسر الى وادي السرحان لا يسأل المسافر من اين والى اين ؟– طريق الحسا في عهد الاتراك – «الخوة» كل خمسة اميال – عبدالله بن جلوي – عمر الاحساء يؤدب ابنه – « اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا » – لصوص بني مرة – ثمانية رؤوس تقطع في ساحة الهفوف –التدخين في نجد– الصلاة – من يبسطون ممن يدخنون وممن لا يصلون في المسجد .

العدل اساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهريه في بلاد نجد ما لم اشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلاداً تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل اساس الملك » ذاك التمثل الصحيح الشامل ، ذاك التمثل المعجب المخيف معاً . عدل ابن سعود ! كلمة تسمعها في البحر وفي البر وفي طريقك الى نجد قبل ان تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الجوف .

وما عدل ابن سعود غير الشرع – غير عدل النبي . اضف اليه قسوة في بعض الاحكام الاجتماعية اشتهر بها المذهب الوهابي . فمن يدخن مثلاً يُبسط [1] وكذلك من لا يصلي . اما احكام الشرع فمعروفة الا انها تنفذ في نجد بلا تردد ولا محاباة ، ولا مرافعات لو لبيات

(١) البسط عندهم هو ان يطرح الرجل الى الارض ويضرب بالرطب من عسيب النخل .

طويلات . حكم ابن سعود لا يعرف في سبيل العدل كبيراً او غنياً . كل الاعمال الاثيمة عند الحاكم سواء ، وكل الرؤوس سواء عند السياف . وكم من يمين في اول عهد هذا السلطان الكبير قطعت لسرقة صغيرة . وكم من رؤوس طاحت الى الارض لذنب يخففه في غير ذلك الحال وذلك المكان عذر وندامة . ان مثل هذا العدل ليثير خواطر المتمدنين ويغضب من عاشوا في ظل الاحكام المدنية التي لا تخلو من الرأفة والحنان ، وان كان العدل لا يسلم دائماً فيها .

شاهدت بسط رجل في الرياض لاغتصابه فتاة صغيرة . بسطه العبيد على بطنه وامسك عبدان منهم يديه ورجليه وسقط العبدان الآخران بالعسيب الاخضر على ظهره يعدون الضربات الى ان عدوا الخمسين او الستين . نفرت من ذا المشهد نفسي ، وسئمت العيش بعد ذلك اياماً . ولكن من يعرف عرب البادية ويقيم بينهم ويخبرهم يرى وجوب مثل هذه القسوة في تأديبهم وضبط امورهم .

اما المظهر الجميل في عدل ابن سعود فاليك مثلاً صغيراً منه . كنا في العقير نحتاج الى الكثير من الحطب ، وكان يجيء البدو باحمال منه يبيعونها الى رؤساء الخدم باسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان ولعلمهم بحاجة الشيوخ وضيوفه الانكليز اليه .

وقف يوماً احد هؤلاء الحطابين ومعه اربعة جمال محملة . ساومه قيم السلطان عليها ، فطلب الجمال روبيتين ثمن كل حمل ، وسعره الاعتيادي نصف روبية . نزل الجمال الى روبية ونصف . رفض القيم شراءها . ساق الجمال جماله . ناداه القيم ودفع له روبية فأبى . فقال القيم وكان الجمال قد ولى باجماله : بَدْوِي قواد . لولا الشيوخ والله لأدبته .

ولو كنا في معسكر تركي او اوروبي وكان الجيش بحاجة الى الحطب فهل تظن انهم كانوا يعاملون هذا الحطاب مثل هذه المعاملة ؟ بل كانوا يكرهونه على البيع بما يريدون ثم يسخرونه . لولا الشيوخ لفعل الخدامون بالبدو الحطابين مثل هذه الفعلات . ولكن حق البدو يعطي لهم — وحقهم ان يبيعوا ما يملكون بما يشاؤون ويستطيعون . اما حق ابن سعود فيؤخذ منهم بالعدل ، وان اقتضى الامر بسيف العدل البتار .

اذا كان العدل اساس الملك فالامن اول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الامن ما لا تجده في بلادنا او في اي بلاد متمدنة . لا يظنني القارىء مبالغاً بما اقول . ولست على ما اقول مستشهداً بنفسي ، مع ان رحلتي النجدية استمرت خمسة اشهر ، قطعت في اثنائها الدهناء مرتين ، جنوبـــاً في طريقي من الحسا الى الرياض ، وشمالاً في طريقي من القصيم الى الكويت ، وكانت حقائبي وفيها مالي مكسرة الاقفال مفتوحة وهي مع الحملة بعيدة مني النهار كله ، وكان في خدمتي اناس من البدو ، فلم افقد مع ذلك شيئاً من حوائجي ولا ورقـــة من اوراقي . الا اني لا اقدم نفسي حجة لاثبات ما اقول عن الامن في نجد لاني كنت اسافر بطريقة ممتازة مصحوباً بعشرة الى خمسة عشر رجلاً من رجال السلطان .

ولكن الامن في نجد لا يحتاج الى رحلتي مثالاً واثباتـــاً . ان له اكبر دليل واقطع حجة في اهل البلاد انفسهم ، المسافرين من قطر الى قطر ، وفي القوافل التي تسير اربعين يوماً في ملك ابن سعود من طرف الى طرف ، من القطيف مثلاً الى ابهـــا ، او من وادي الدواسر الى وادي السرحان ، دون ان يتعرض لها احد من البدو او الحضر ، دون

ان تسأل من اين والى اين .

قدمت مثلاً صغيراً على العدل . وهاك مثلاً صغيراً على الامن في نجد اليوم . كانت الطرق في الاحساء في عهد الاتراك لا تعبر الا بقوة عسكرية ، او بدفع « الخوة » . وكانت الطريق بين العُقير والحسا ، وهي طريق التجارة الى نجد الاسفل ، اكثرها واشدها اخطاراً . فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول الى الهفوف — مسافة اربعين ميلاً — يضطر ان يدفع « الخوة » كلما اجتاز خمسة او عشرة اميال من هذه الطريق المخيفة ، طريق التجار والاموال . جاءها العجمان من الجنوب ، وبنو مرّة من الربع الخالي ، والمناصير من قَطَر ومادونها ، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت ، وجاء من داخل البلاد ، من وراء الدهناء ، الدواسر الاشاوس ، فحاموا كلهم على هذه الطريق وربطوها ، وقطعوها ، وتقاسموا اموال قوافلها .

كان يجيء التاجر من البحرين مثلاً فيدفع قبل ان يطأ برجله العقير « خوة » للعجمان . ومن العقير الى النخل خمسة اميال وخمسون ريالاً « خوة » للمناصير . ومن النخل الى ام الذر خمسة اميال وخمسون ريالا « خوة » لبني مرة ومن ام الذر الى العلاة خمسون ريالا « خوة » لبني هاجر . ومن العلاة الى ... الخ واذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه ، فمن المؤكد ان احماله لا تصل كلها الى الحسا . وكان اذا خرج عسكر الترك لتأديب احد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ، ويأخذون خيلهم وثيابهم ، ويرجعونهم الى الحسا حفاة عراة . ثم يجيء البدوي منهم راكباً حصان الجندي التركي ليبيطره على مرأى من السلطة المدنية .

هذه هي حال الاحساء قبل ان سقطت في يد ابن سعود . اما

اليوم — فقد مررنا في النفود بجمل بارك ، رازح تحت حمله . فسألت عن صاحبه فقيل لي انه سار في طريقه وسيرجع بعد ان يصل الى البلد بجمل اخر يحمل البضاعة. وقد يموت الجمل الرازح ويبقى حمله على قارعة الطريق عشرة ايام فيعود صاحبه فيجده ، وما مسته يد بشرية ، كما تركه في مكانه . كيف تمكن ابن سعود من اقامـــة مثل هذا الامن وتوطيده في بلاده ؟ بامرين : اولهما الشرع وثانيهما تنفيذ احكام الشرع تنفيذاً لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا الرأفة .

ليس السلطان وحده في هذا الامر الخطير . فان امراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الامراء رجل مشهور يحكم الحسا . هو اكبرهم همة ، واشدهـم تعصباً للعدل ، يجلس في كرسي القضاء وحده . فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معـه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب وقسوته قسوة البدو . يأمر بالقطع وبالنطع ولا يبالي . هو عبدالله بن جُلوي [١] امير الحسا وابن عم السلطان عبد العزيز . ان اسم عبدالله ليرعب الناس اليوم ويروع منهم المجرمين . ان له صدى يقوم مقام الشرع في كل الاحساء ، من اطراف القطيف شمالا الى وادي جبرين جنوباً. انه ليخيف اكبر البدو ، واكثرهم استهتاراً. بل هو اسم تخوف الامهات به اطفالها .

ان لعدل عبدالله بن جلوي عيناً واحدة لا ترى غير المذنب ولا ترى في ذنبه غير ما يستوجب التأديب في الحال . وهو اسرع في تنفيذ احكامه واشد من ابن عمه السلطان عبد العزيز . ان ساحـــة الهفوف لساحة الدم ، ساحة القطع والنطع . خذوه الى الساحة ! وبعد هنيهة

(١) اصله جلوي من جـــلا يجلو ولكنهم في نجد يسكنون فاء الاسم ومن ذلك ايضاً قولهم : ابدُوي اي بدوي .

يلمع سيف السياف في شمس الضحى فتقع اليد او الرجل او الرأس في حجر القضاء ويهز العدل رأسه استحساناً .

جاء عبدالله ذات يوم رجل يشكو ولداً ضربه وشتمه . فسأل عبدالله : من الولد ؟ فقال الرجل : لا اعرف اسمه .فقال عبدالله: وهل تعرفه اذا عاينته؟ فاجاب الرجل بالايجاب . فامر الاميران تجمع عنده اولاد ذاك الحي من البلد . فاحضروهم كلهم وجاء الشاكي فنظر اليهم واشار الى غريمه ، فهمس احد الحضور في اذنه : هو ابن الامير . فجمجم الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والعدول ، فرده الامير ، وسأل الولد فأقر بذنبه . فأمر العبيد ان يبسطوه امامه وان يقدموا للشاكي عسيباً اخضر من النخل . فتردد العبيد واحجم الرجل. فاخذ الامير القضيب بيده وشرع يضرب ابنه ويقول : اذا كنا لا نبدأ بانفسنا فكيف نعدل في غيرنا .

جاء ذات يوم الى القصر في الرياض بضعة رجال من بني مرة ، اشد القبائل في الجنوب توحشاً يطلبون عيشاً وكسوة . فكان لهم من السلطان ما يبغون : ثم ارتحلوا شرقاً الى الحسا فمروا في طريقهم ببعض الاباعر ترعى فساقوها امامهم فشكاهم اصحابها الى السلطان في الرياض ، فبعث السلطان بنجاب يحمل الخبر الى الامير عبدالله في الحسا وصل النجاب قبل ان يصل عربان بني مرة ، فتحركت اسباب العدل عند الامير بالسرعة التي اشتهر بها . ركب اربعمئة من رجاله وراحوا منقسمين اربعة اقسام ، شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، يفتشون عن عربان بني مرة اللصوص ، وما مر اربع وعشرون ساعة حتى جاءوا بهم وبالبعارين المسروقة الى الهفوف ، فاوقفوهم امام ذاك العربي الروماني ، العربي شرفاً الروماني عدلا ، وكان سؤال ، وكان

جواب ، وكانت الكلمة : الى الساحة !

هناك امام الامير والجمع المحتشد يشتغل السياف ويشتغل معاونه والطريقة في الاعدام بسيطة سريعة مدهشة. فيها دقة نظر وفيها مهارة. انهم يركعون المذنب على ركبتيه ، ثم يرقص امامه المعاون ليلهيه عن السيف الآخر المرفوع فوق رأسه ، فيكزه اولاً السيّاف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ ، فيتحرك الرأس الى الامام ، فيتقلص عصب الرقبة ، فيضربها اذ ذاك ضربة — ضربة واحدة ؟ — يطيح منها الرأس الى الارض . دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالنطع ، فيتحدث بها الركبان في نواحي البلاد كلها .

وفي ذاك اليوم الرهيب لمع سيف السياف لمعات ثمانياً في ساحة الهفوف ، وفي شمس الضحى ، رقصت على الارض ثمانية رؤوس من بني مرة ... يا راعي البعارين ، ضاع لنا بعير فهل عاينته في الطريق ...؟ هوذا يا خويي البعير تعال خذه . العدل اساس الملك وسياجه . فان القلاع التي بناها الترك في الطريق الى الحسا هي اليوم مهجورة متهدمة ، والقوافل تسير ثمانمئة ميل شرقاً وغرباً وثمانمئة ميل جنوباً وشمالا في ملك ابن سعود وهي تدعو له بطول العمر وتشكر الله .

قلت انهم يبسطون من يدخن في نجد ، ويبسطون كذلك من لا يصلّي . وللكلمتين شرح توجبه الحقيقة والانصاف ، لان الناس في ما يسمعون من عجيب الامور ومنكرها يبالغون ، ولا يهمهم من الحقيقة غير ما يثبت منها المبالغات .

التدخين ممنوع في نجد بل في ملك ابن سعود كله ، ولا احد يدخن علناً او في الاسواق، لا في الحسا ولا في العارض ولا في القصيم.

ولكنهم في الحسا وفي القصيم يدخنون في بيوتهم، والمشايخ يتساهلون وقد رأيت في الرياض من يدخن سراً حتى في حضور اقرب الناس الى السلطان. ذلك لانهم لا يرون في الدخان ما يراه المتعصبون من العلماء. اما السلطان فهو يحب الروائح الطيبة ويشمئز من رائحة الدخان. وما كان ليزورني كل ليلة على مـا اظن لو كنت ادخن يوم كنت ضيفه في القصر بالرياض .

حدثنا المستر فلبي في كتابه «قلب البلاد العربية» قال : كنت انا ورفيقي ندخن ذات ليلة (وكانا مثلي ضيفين في القصر) اذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ . وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان، فخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها . الا انه عندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال منتشراً في الغرفة . فجلس متجاهلاً ، وكان لطيفاً على عادته. ولكن احد العبيد جاء تواً بالجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه ودار علينا بها مراراً ثم تركها على السجادة وسط القاعة تطهيراً للهواء .

تجاهل السلطان مع ان دخان الغلايين اكره شيء لديه ، وكان لطيفاً على عادته . ولكنها كانت اول زيارة منه لضيوفه في منزلهم ، وآخر زيارة. هناك مثلاً اخر من تلطفه وتساهله. في الرياض حي يسكنه العلماء. وللعلماء حاسة شم تخترق الجدران فتعرف ما وراءها من دخان، وتميز بين الحلال منه والحرام . لذلك لا يجرأ احد في ذاك الحي ان يشعل سيكارة لا سراً ولا في غرفة مظلمة تحت الارض . واذا خاطر بنفسه واستهتر، فاكتشف امره ،يحاكم امام الشيخ ،وعند اثبات الجرم، بعد استماع الشهود يبسط في الحال لا محالة ، و « يطقه » — يجلده — العبيد من اربعين الى ثمانين جلدة حسب خطورة الذنب فيه، وقد سمعت

السلطان عبد العزيز يقول لرجل من اخصائه كان يبحث يومئذ عن بيت لينقل اليه : في محلة الشيخ (اي في حي العلماء المذكور) بيت كبير ولكنك تعلم انهم هناك يواظبون على الصلاة ويشددون في الاحكام فتضطر ان تصلي في المسجد .

ان في كل مسجد بالرياض كما قيل لي جريدة باسماء الذين يصلون فيه ، يقرأها الشيخ كل يوم صباح مساء . فاذا كان احد غائباً يزوره وفد من الاخوان في بيته . قد يكون مريضاً فيعودونه ويؤاسون ، وقد يكون مستغرقـــا في النوم فينبهونه وينصحون ، وقد يكون كسولاً فيحذرون . اما اذا تغيب عن الصلاة ثانية بلا سبب فيعظونه ويوبخون ، واذا كرر فعلته فيبسطونه لا محالة ، ويعملون في ظهره النخل او الخيزران .

هي حقيقة الوهابية في العارض ، بل في الرياض ، بل في حي خاص من احياء الرياض . وكلما بعدت من ذاك الحي ومن تلك المدينــة ، وكلما بعدت من العارض شمالا او شرقاً ، تبعد من الغلو في الدين — دين التوحيد — ومن التعصب في تنفيذ احكامه الاجتماعية .

الاخوان

رسل الهول ورسل التوحيد — جنود ابن سعود — غلو من يدين بدين جديد — « انا خيّال التوحيد اخو من طاع الله » — الحروب النبوية — تساهل الفاتحين المسلمين — شجاعة الاخوان — هوستهم : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ — آتون الايمان — نوار مثال من الاخوان — الزكرت — التدخين والغناء — اوار لا يصلي من اجل المريض الكافر — اهدده بالذبح — « الله يجيرنا واياكم من النار » — الاخوان ثلاثة اصناف : المجنون والمتعصب والمتساهل — فلاسفة في الشدة والفقر — قوة هائلة ينقصها ادارة ونظام — خطبة السلطان عبد العزيز وهو ينذر الاخوان .

من هم الاخوان ؟ من هم اولئك الوهابيون الذين يردد الناس في كل قطر من الاقطار العربية اسمهم مستعيذين بالله ؟ وقل من يعرف حقيقة حالهم ، ويدرك سر اشتهارهم . أهم رسل الهول والموت ، ام رسل دين لا يعرف غير الله والكتاب والسنة ، دين النبي محمد والصحابة ؟ اقول نعم جواباً على السؤالين .

الاخوان هم الفئة المحاربة ، الفئة المتعصبة ، الفئة المدّينة [1] جديداً في الوهابية . الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالامس من العرب الرحل ، من البدو الجاهلين ، فديّنوا اي دانوا بدين التوحيد فصاروا مسلمين . وهم في غلوهم يعتقدون ان من كان خارجاً عن مذهبهم ليس بمسلم ، فيشيرون الى ذلك في سلامهم بعضهم على

(١) دّين اي تمذهب بمذهب الوهابية في اصطلاح اهل نجد.

بعض . — السلام عليكم يا لاخوان [1] حيا الله المسلمين . واذا سلم عليهم سني او شيعي فلا يردون السلام .

من الحقائق الناصعة في الاديان ونشأتها ان كل من دان بدين جديد او كان جديداً في الدين ، يأخذ منه الغلو مأخذاً يلتوي عنده العقل ، فيسترسل في ما يظنه فضيلة ولا يطيب له عيش الا بالتبشير والجهاد . قد كان كذلك المسيحيون الاولون ثم البروتستانتيون ، بل قد كانت شيع الاسلام كلها في بداءتها نازعة الى السيف معتقدة ان الدين كل الدين في نشره في الناس حرباً او سلماً ، كرهاً او اقناعاً .

وها ان الاخوان في هذا الزمان يحملون البنادق والبيارق باسم الله ، فيحملون او كانوا يحملون على كل من لا يدّين من العرب وكأني بهم لا يرون خيراً في حياة لا اكراه فيها على التوحيد ، فينادي الاخ منهم ممتشقاً حسامه او رافعاً بندقيته : انا خيّال التوحيد اخو من طاع الله ، بيّن رأسك يا عدو الله ! انهم من هـذا القبيل مثل رجال البروتستانت الاولين الذين حاربوا تشارلس ملك الانكليز. والسلطان عبد العزيز اشبه برجل تلك الثورة الكبير كرَموَيل .

على اننا لا نحتاج الى الامثال والمقارنات من تاريخ الغربيين وعندنا في تاريخ الاسلام مثل الوهابية الاعلى . أجل ان مثال « خيال التوحيد » انما هو النبي ، وان حروب الوهابية اليوم شبيهة من وجه خاص بالحروب النبوية . عودوا الى الله ايها المشركون ، عودوا الى النبي والسنة ، عودوا الى دين التوحيد . واذا كنتم لا تعودون فتكفرون بالطاغوت ولا تشركون احداً مع الله ، نحن الاخوان

---

(١) اهل نجد يدخلون في المناداة ال التعريف على الاسم فلا يقولون يا اخوان ويا امير مثلاً بل يا لاخوان ويا لامير .

عليكم . ان سيفنا بتار ويومنا عصيب [1] .

قد برهنوا على ذلك في مواقع عديدة واثبتوا جوابي على السؤال الاول ، فكانوا رسل الهول ورسل الموت في كل مكان سُمعت فيه « هوستهم » المشهورة : هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ فلا الحجاز ينساهم ، ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا الجوف ولا الجبل ولا القصيم يكبر في ساعة الوغى سواهم؛ ويردد خوفاً واعجاباً غير اسمهم . الاخوان ، زرعوا الهول في كل مكان . الاخوان يحاربون مستبسلين مستشهدين . روى الناس الموالون منهم والمعادون اخبار الشجاعة والبطولة التي اشتهروا بها . قالوا انهم شياطين الدين ، وقالوا انهم ابطال المسلمين . وما كانت البطولة بغير الايمان الحي والثبات في الجهاد . لولا ذلك ما كان الاخوان ، وما كان ملك ابن سعود . هبت هبوب الجنة ، اين انت يا باغيها ؟ وكل يبغيها . لذلك يحاربون وقلما ينهزمون . الجنة امامكم والنار وراءكم . فمن منهم يتقهقر ، ومن منهم يولي مدبراً ؟ هم شوكة ابن سعود ايام الحرب ، وهم ايام السلم الشوك في غصن الدين . يحملون سلم التوحيد بالعرض ويزعجون احيـــاناً حتى سلطانهم العزيز . حدثت كثيرين منهم فما وجدت وراء اللسان غير قلب فيه اتون من الايمان ، فلا يهاب صاحبه الموت ولا يخاف غير الله . ولكنك تسألني : أمن روح هناك فيها شيء من الحنان ؟ ام من عقل فيه ذرة من البرهان .

هوذا نوّار اقدمه مثـلًا قوياً كريماً . وما نوّار غير راعي بعير

---

(١) بعد حروب النبي التي كان بعضها دفاعياً وبعضها تعزيزاً لدين التوحيد صار الفاتحون المسلمون يرضون من الامم التي يتغلبون عليها الخضوع لسلطتهم دون ان تغير دينها . وفي القرآن : لا اكراه في الدين.

اكتراه منه شاب كان في خدمة السلطان ليسافر الى القصيم . كنا يومئذ على أهبة الرحيل فأراد الشاب ان يواخينا فقبلنا ، فخرج راكباً معنا من الرياض ، ونوار صاحب الذلول يمشي امامه او وراءه . وكان في بعض الاحايين عندما يتعب ، يثب الى الرحل رديفـــاً ، ثم يترجل مستعيذاً بالله . ذلك لان الشاب الذي اكراه نوار بعـــيره هو « ازكرت »[1] يدخن ويغني والغناء في نجد اليوم محظور وفي بعض مدن العارض والقرى الجديدة ، الهجَر ، محرم مثل الدخان . اما الزكرت فكان يرفع عقيرته كلما خرجنا من قرية وصرنا في الفلاة ، فيتلو اذ ذاك نوار التعويذتين . وعندما رآه لاول مرة يشعل السبيل كاد يجن . كان ذلوله ماشياً الى جنب ذلولي وكان نوار وقتئذ رديفه فوثب فجأة الى الارض كأن ناراً اشعلت تحته وهو يردد بصوت عال : اعوذ برب الفلق من شر ما خلق ... اجرنا اللهم من النار ... اجرنا اللهم من النار والزكرت اثناء ذلك والربع كلهم يضحكون .

كان الاخ نوار مع ذلك لطيفاً وذا مروءة تشكر . فيعاون الخدم ، ويرعى الركائب عند المراح ، ويجمع الحطب ويشب النار ، ولا يأكل الا قليلاً . رافقنا هذا البشر الغريب ، آخانا كرهاً ، عشرة ايام وما من مرة سلم عليّ او كلمني او رد سلامي . مرضت اثناء السفر بالحمى فكنت ذات يوم على الفراش في خيمتي ونوار واقف اتفاقاً في الباب . فقلت مازحاً ، بل كنت اضايقه عمداً : يا نوار انا « مصخن » —

---

(١) ازكرت لفظة فارسية معناها من لا اهل له ولا عيال ، وتطلق في نجد على من يقضي ايامه في قصر السلطان او الامير او خادماً حول القصر ينتظر قسمة ربه. والزكرت كثير الأسفار عادة وكثير الأخبار ، مرن العقل والخلق، يحسن الخدمة ويحسن كذلك التهكم على الاخوان .

(مريض) اليوم . فمال بوجهه اليّ هاتفاً : والحمد لله ! كانت عصاي طوع يدي قرب السرير فرميته بها لما ظننته منه وقاحة بل وحشية ، فأصابت منه الرأس ولكنها لم تحرك اللسان بكلمة واحدة .

نهضت بعد ذلك وخاطبته وهو واقف عند النار : انت يا نوار رجل تقي ورع صدّيق وانا رفيقك في السفر - مريض - « خوياك مصخن » اليوم ، ونبغي الرحيل ولا رحيل مع مرض . فهلا ذكرتني في صلاتك وسألت الله لي الشفاء العاجل . فلم يجبني بكلمة . فقلت : أفلا تصلي من اجلي يا نوار ! ظل معرضاً عني ساكتاً . فقلت مصراً : انا « خوياك » ابغي منك ان تذكرني في صلاتك . هز الرجل رأسه متأففاً وبعد عني فتبعته وامسكته بعباءته ، واظنني كنت محموماً فزادني هذا الصدّ منه حرارة وغيظاً ، فقلت ولا مزاح : اسمع يا نوار انا اعلمك انت واحد و«حنا» خمسة عشر وكلنا ندخن ونغني ، فاذا كنت لا تصلي من اجلي وتسأل الله لي الشفاء ، نذبحك والله مثلما ذبح مسفر هذه الشاة . اظن ان تهديدي راعه فحرك شفتيه بهذه الكلمات : الله يجيرنا واياك من النار . وهذا منتهى التساهل منه . لم يطلب لي الشفاء ، كلا ، بل اشركني من فضله بالاستجارة من النار ، نار الجحيم . كل الاخوان المديّنين جديداً هذا الرجل ، كلهم نوار .

على ان هناك فريقاً آخر منهم ، قد مر على تدينهم او تدين ابائهم حقب من الزمان ، فلطف فيهم سورة الايمان . هؤلاء يسلمون على غير الموحدين ، ومنهم من يدخن سراً ويغني اذ سار في الفلاة [1] ولا يلوم

---

(١) لا اظن احداً من العرب موحداً كان او مشركاً يستطيع ان يقاوم ما تحركه الفلوات في نفسه من حب الغناء او الحداء . كنا ذات ليلة حول النار نبحث في هذا الموضوع فروى احد الربع قصة عن السلطان عبد العزيز قال : خرجنا يوماً من الحسا مع الشيوخ وكنا عشرين من خاصة رجاله . فلما وصلنا الى الدهناء رفع

ابن سعود على تساهله مع الكفار الانكليز .

وهناك فريق ثالث اكثرهم من جبل شمر ، ديّنوا بعد سقوط حائل او قبله اما خوفاً واما ارتزاقاً . فهم يتساهلون تساهل السنى ، ولكن الاخ الجديد الاكيد يقول : انهم مدغلون .

قد كان في رجالي الذين عشت واياهم شهرين في السفر من العارض الى القصيم والكويت من الثلاثة الاخوان ، الاخ المجنون ، والاخ المتعصب تعصباً نسبياً معقولاً ، والاخ المتساهل . وكان في الصنف الاخير رجل ظريف ذكي الفؤاد يحسن النكتة والجواب ، يدخن دائماً ولا يستأثر بالسبيل بل كان يقدمه عند كل « تعميرة » الى رفقائه ، صارخاً بصوته العريض : دخنوا يا اخوان . بارك الله فيهم قد كانوا طيلة الطريق موضوع التهكم والضحك . اجل ، قد اضحكونا وفكهونا في ساعات الضجر الطويلة .

ويقسم الاخوان ايضاً الى ثلاثة اقسام : المطاوعة [1] والعلماء والمتعلمين المبتدئين . اما المطاوعة فهم في كل نجد يُعرفون من قيافتهم النسكية ، بل من خلق اطمارهم . اما العمامة البيضاء الشبيهة بالضمادة فان هي الا نصف ذراع من الخام يلفه المطوع فوق الغطرة على رأسه ويشكر الله . ثم يحمل عصا من الشوحط اذا كان كبيراً ، والا فقضيباً من الخيزران ويجوب البلاد في سبيل التوحيد . المطاوعة يعلّمون الناس الدين ، والعلماء يعلمون المطاوعة ، وكلهم يوم الجهاد « خيال

تابع شرح صفحة ٨٥

عبد العزيز العقال والغطرة – الكوفية – عن رأسه ووضعهما في الخرج وقال باسماً : لا اخوان معنا . من كان عنده حس فليسمعنا الان ، فرحنا نغني والله حتى قطعنا الدهناء وعبد العزيز مسرور طروب .

(١) جمع مطوّع اي المطوع في خدمة الله واصله متطوع فادغم.

التوحيد اخو من طاع الله » . وكلهم في ايام السلم فلاسفة في التقشف والقناعة ، في الشدة والصبر ، في التفقر والتقوى . ترى الاخ في الطريق حافياً لا يحمل غير عصاه ، ينفخ الهواء في اطماره فيكشف عراه ، وقد يكون مشى يومين او ثلاثة دون ان يذوق الخبز والتمر فتسأله بعد السلام : « وتسايف انت » (كيف انت) ؟ فيجيبك بصوت عريض، وقلب وطيد كأنه يمثل دوراً في رواية : بخير ونعمة والحمد لله ! انما هذه فضيلة الاخوان بل فضيلة النجديين الكبرى . فهم على فقرهم وسوء حالهم في الدنيا قانعون راضون ، وقلما تسمع كلمة منهم فيها شيء من اليأس او الشكوى .

والسلطان عبد العزيز امامهم في كل شيء . فهو يعرف الشجاع فيهم والتقي والصبور والعاقل والمجنون ، ويحسن سياسة الجميع ، فيستخدمهم في سبيل الله وملك ابن سعود . اجل ان عنده لكل من الاخوان وظيفة ومقاماً : المعتدل للخدمة ، والمتساهل للتجارة والسياسة ، والمجنون للقتال . اما امر الصنف الاخير ، اخوان نوّار ، فقد يستفحل عليه في بعض الاحايين ، وقد يعجز عن ضبطهم دائماً ، لان المسافات في نجد بعيدة والمواصلات كلها اولية . الاخوان قوة هائلة ينقصها نظام وادارة ، والا فتتفلت من يد سيدها وتكون عليه وعلى سواه وخيمة العاقبة . مثال ذلك ما حدث في الشامية بالعراق يوم هجم الدويش باهل الارطاوية على ابن سعدون وعشائر العراق فهزموهم شر هزمة واذاقوهم من هول الاخوان ما لا ينسونه حياتهم .

ولنا في ما حدث في الجوف السنة الماضية مثال آخر . غير ان عذر اخوان الجوف كان واهياً فلم يقبله السلطان عبد العزيز . بل أمر بالقبض على رؤساء تلك الغزوة وباحضارهم مقيدين الى الرياض حيث

سجنوا ثلاثة اشهر .

كنت في عاصمة نجد يوم اطلق سراحهم فاحضروا امـام السلطان فخاطبهم قائلاً : لا تظنوا يا اخوان ان لـكم قيمة كبيرة عندنا . لا تظنوا انكم ساعدتمونا واننا نحتاج اليكم . قيمتكم يا اخوان في طاعة الله ثم طاعتنا . فاذا تجاوزتم ذلك كنتم من المغضوب عليهم . اي بالله ، ولا تنسوا ان ما من رجل منكم الا وذبحنا اباه او اخاه او ابن عمه . وما ملكناكم الا بالسيف . ترى الصحيح . والسيف لا يزال بيدنا اذا كنتم يا اخوان لا ترعون حقوق الناس . لا والله ، لا قيمة لكم عندنا في تجاوزكم . انتم عندنا مثل التراب ... اما اذا اعدلتم وعقلتم فحقكم بشرع الله خذوه من هذا الخشم — وضرب بالسبابة انفه — وحقي آخذه منكم دائماً باذن الله ... انتم ما دخلتم في طاعتنا رغبة بل قهراً واني والله احمل بكم السيف اذا تجاوزتم حدود الله .

في القصر بالرياض

الشعر في نجد – بيت يشرح التاريخ – خيـــانات الاقربين – ولاء الاباعد – ما قاساه السلطان عبد العزيز – السياسة فوق الجنسيات والمذاهب – بيتان من الشعر فوق باب المجلس – سجايا اهل نجد – يلبون النفير وقلما يكلفون السلطان شيئاً من النفقات – «هم يعطوننا في ايام الحرب ونحن نعطيهم في ايام السلم» – معرض العطاء – مثل من الجريدة اليومية – ابراهيم بن جميعة رئيس التشريفات والمستر فلبي – امراء العرب يجيئون الى الرياض مسلمين – حلم السلطان مثل كرمه – شلهوب وزير المالية والتموين – «الذي يجيء نقيده والذي يروح نقيده والنتيجة لا شيء» – جيش من الكسالى – فقر وقناعة – مئات يأكلون في القصر مرتين كل يوم .

لا يزال للشعر مقام في نجد وان رثت حواشيه وتفاقم اللحن فيه ، فكثيراً ما تجد على حيطان القصور اثراً من حكمة القدماء ونفائس الشعراء ينبئك بما يتمثل به الامراء والعربان ، او بما كان من حادثات الزمان . وفي القصر بالرياض فوق الابواب في رواق المجلس العام ، كُتبت على الحائط بالحبر الاسود بخط رديء ابيات من الشعر منها :

اذا خانك الادنى الذي انت حزبه   فواعجباً ان سالمتك الاباعد

ان اللبيب العالم بتاريخ نجد الحديث ليقرأ في هذا البيت الوحيد فصلاً في الخيانات والدسائس التي كان السلطان عبد العزيز هدفاً لها وسيفاً لامعاً عليها . الخيانات في اقرب الناس اليه ، وفي البدو ايضاً والاخوان . اما الاباعد الذين سالموه بل والوه ، وكانوا له عوناً على اعدائه اثناء الحرب العظمى ، فهم حقاً من الاباعد ، الاباعد قوماً ، الاباعد ديناً ، الاباعد مزاراً . وما كان ليربط آل سعود بهم غير

السياسة والمصلحة . ليس قصدي ان افيض الآن في الكلام عن تلك الرابطة واسبابها ونتائجها ، وانما القصد ان اشير الى ما في حياة ابن سعود من شدة قاساها ، وغم يكمه ، فيبدو في بعض الاحايين يابساً كالجرح القديم في وجه الجندي .

ان السلطان عبد العزيز ، وان كان قد ذلل العقبات ، وفلّ حد النكبات ، واصبح ، اذا صح الحكم على الرجل من حديثه ومحضره ، آمناً مطمئناً ، انه ليفصح في هذا البيت من الشعر عن حقيقة لا يزال يؤلمه ذكرها وقد يكون أمر بكتابته فوق باب مجلسه ليذكر ايضاً به اولئك الذين كانوا بالامس حرباً عليه واصبحوا اليوم من خاصة رجاله . اما ولاء الاباعد فالعجب فيه يتجاوز ظاهر امره . العجب كل العجب من مصالح تنتصر حتى في نجد ، حتى في الحجاز ، على رابطتي القومية والدين . فعبثاً يكبر الناس الواحدة ويقدسون الاخرى . ان عرى الاثنتين لتنحل وتتقطع ، كأنها حبال شمس الضحى ، عندما يمسنا منها الضر او يستحثنا عليها غرض مادي او معنوي .

وهناك ابيات اخرى من الشعر تفصح عن خلة حميدة مجيدة ، ليس في السلطان وحده او في آل سعود او في الاخوان ، بل في اهل نجد كافة . ولكنت اقول انها تعبر عما في قلب كل عربي من الاباء والنخوة والشجاعة لولا اني رأيت من العرب في غير نجد من لا اثر في انفسهم لتلك السجايا الشريفة . اما في نجد ، في البادية والحضر ، فلا غرو اذا تمثل الناس بقول الشاعر الذي رفعه السلطان عبد العزيز الى ارفع مقام عنده ، فأمر بكتابة كلماته فوق بابه :

فاما حياة لا تذم حميـــدة يحدث عنها من اغار وانجدا
تنال المنى فيها ، واما منية تريح فؤاداً خار من علة الصدا

هم يجيئون من كل حدب وصوب في ايام الغزو او الحرب وهـذا لسان حالهم . اجل ان امراً يصدر من الرياض فيحمله النجابون الى اقاصي البـلاد ، ليجمع على احد الآبار او في احد الشعـاب في اليوم المضروب الوفاً من اهل نجد ، بادية وحضر ، وقد جاء كل على ذلوله مسلحاً ببندقيته ، وممنطقاً بذخيرته ، وحاملاً بعض التمر والمـاء ، ان أمراً كهذا مطاع ولا مردّ له . فهم اثناء الغزو او الحرب لا يبغون من سلطانهم شيئاً . هم يعطوننا — الكلام للسلطان عبد العزيز — ولا يأخذون منا . ونحن في ايام السلم نعطيهم ولا نأخذ منهم .

لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض ، بل كنت اشاهده كل يوم مدة اقامتي هناك ، واعجب جداً لا لكرم هذا الرجل بل لايمانه وثقته بالله ، مصدر الخير غير المتناهي وولي النعم التي لا تزول . والا فكيف يؤمل بدوام حال تمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة دائمة ؟ [1] هنالك حكومة فردية اوتوقراطية وديموقراطية معاً تبرأ من قواعد الادارة والنظام كلها ، وبلاد ثلاثة ارباع ارضها بادية قفراء ليس فيها من موارد الثروة غير الانعام ، ورعية ثلثاها من البدو واكثرهم حتى اليوم لا يحسنون صناعة ما ، واقليم قيظه يحرق ويبيد وشتاؤه لا يصدق ولا يحسن الوفاء ، فتجيء السنون المجدبة فتعقم المفالي ويعم البـــلاء .

ومع ذلك ترى نجد اليوم عزيزة بعبد العزيز ، تستمتع بأمن منقطع النظير في كل البـــلاد العربية ، وبعدل كبير شامل يحمل السيف والقسطاس ، وبخير فوق ذلك لا تنفد موارده .

— هذه يا طويل العمر جريدة بمن نوّخوا اليوم .

(١) كان ذلك قبل اكتشاف البترول . الناشر

يقدمها ابراهيم [١] رئيس التشريفات فيقرأها السلطان ويكتب الى جانب كل اسم ما يجب ان يُعطى صاحبه يوم ارتحاله . استأذنت عظمته باحدى تلك الجرائد وفيها اكثر من مئة اسم ، ونقلت من رأسها ووسطها وآخرها ثلاثة اسماء لأطلاع القارىء على احوال ابن سعود كلها .

بخط رئيس التشريفات : حمود بن صويّط معه فرسان وذلول (بعض الزائرين يجيئون بالهدايا من خيل وابل) .

بخط السلطان : الفان روبية وبشت وبْر معلّم (اي عباءة مقصبة) وزبون (قنباز) جوخ وسيف مذهب .

---

(١) ابراهيم بن جميعة من حايل كان من اعداء ابن سعود في احترابه وابن الرشيد وهو اليوم من اقدر رجال السلطان واكثرهم اخلاصاً له . قــد رافق المستر فلبي – كان امير حملته – الى وادي الدواسر . فسألت ابراهيم ان ينص عليّ قصة اهـل الوادي و « النصراني الكافر » التي رواها فلبي في كتابه . فقصها عليّ وكان صادقاً ولا شك اذ ما وجدت فرقاً بين الروايتين . ولكن الفرق كل الفرق انما هو بين الانكليزي العالم والعربي الذي يكاد يكون امياً . الفرق بين اخلاق الاثنين يستحق هـذه الحاشية . يظهر ان المستر فلبي ، وهو صعب المراس ، اختلف مراراً وامـير حملته . فلم يدرك مقامه في القصر على ما اظن ، وفاته ان عظمـة السلطان اكرمـه اكراماً ممتازاً حـين وكل امر رحلتـه الى رئيس التشريفات . اختلف الاثنـان في الطريق وتنافرا ، فقص المستر فلبي القصة في كتابه وحمل على ابن جميعة بلغة لا يفهمها – طعنه في ظهره . ولعمري ان ما قاله لا يليق بشهم انكليزي ولا يجوز ان ينشر في كتاب علمي نفيس . اما ابن جميعة فماذا قال في المستر فلبي ؟ سألته مراراً ان يقص عليّ القصة كلها فأبى وتردد . وكل ما قاله مما يشتم منه النفور : فلبي غضوب . طبعه ما هو زين . ولكنه كريم ، اعطى كل واحد من الربع من الاربع الى العشر ليرات . حبذا اخلاق العربي وحبذا معها العلم والتمدن .

بخط رئيس التشريفات : سليمان بن علي من اهل حايل .
بخط السلطان : اربعمئة روبية وبشت وزبون .
بخط رئيس التشريفات : هذاع بن سلطان بن زايد راعي (حاكم) عمار معه عشر ركائب (نوق) عمانيات (هدية) .
بخط السلطان : ثمانية الاف روبية وسبعون ليرة وعشرون بندقية وفرّسان .
ثم الى رجاله الخمسة والعشرين كل واحد كسوة وكيس فيه من المئة الى الخمسمئة روبية حسب مقامه .

هؤلاء ثلاثة من المئات الذين ينحرون[1] الرياض مستعطين ولي النعم فيها . ومنهم من يعود الى اهـــله ومعه فوق الكسوة والمال حمل او حملان من التمر والسمن والتمّن (الارز) والسكر والبن .

ان في الجريدة اسماء اناس من غير رعايا ابن سعود ، جاءوا زائرين مسلمين . منهم ابن صويط من مشايخ الضفير في العراق ، وابن مجلاد من مشايخ عنزى في الشمال ، وابن نايف من بني علي في المدينة المنورة ، وابن سلطان بن زايد من عمان ، وابن الدخيل من قبل نوري الشعلان . كلهم يؤمون الرياض لعلمهم ان فيها رجـــلاً من كبار رجال العرب اليوم بل اكبرهم ، يؤمونها اما حباً واجلالاً ، واما خوفاً واستعطافاً ، واما ابتغاء مساعدة مادية او سياسية . وقلما يعود احد من عاصمة نجد خائب الامل .

والرجل في حلمه مثله في كرمه . جاءه ذات يوم شيخ قبيلة حاربته

---

(١) نحر البلد او الديرة اي قصدها سلماً او غزواً .

بضع سنين ثم دانت له ، فاقام الشيخ اياماً في الرياض وقال للسلطان عند الوداع : قالوا لي انك سحار يا عبد العزيز . صدقوا والله فقد سحرتني . ان اخبـار حلمه لادعى الى الدهشة والاعجاب من اخبـار كرمه .

ليس من ينيخون في باب السلطان كل يوم الشاهد الوحيد على جوده ، وليس من يجيئون ممن كانوا بالامس اعداء ، الشاهد الفرد على حلمه واقتداره . فان في الخرج والافلاج [١] وفي القصيم ، وفي ظلال أجا وسلمى [٢] مئات ممن يحمدون الله ثم ابن سعود على حياتهم وعلى ما هم فيه من خير ونعمة . وفي الرياض جيش من السباهلة والفقراء يتراوح عددهم بين الالف والالفين يأكلون في القصر مرتين كل يوم الظهر والمساء . وفيها ايضاً مئة اسرة او ما يزيد ، منها أسر بيت الرشيد ، لا يكلفهم الله على مـــا يظهر اقل سعي في سبيل رزقهم . فالبيوت والخيل والابل والثياب والمؤونة والجواري والعبيد ، كلها من الشيوخ، من السلطان .

— ادفع يا شلهوب . وزع يا شلهوب [٣]

---

(١) الخرج والافلاج من مقاطعات نجد الجنوبية وهي جنوبي العارض .

(٢) اجا وسلمى من جبال بني طي قديماً ، وجبال شمر اليوم وفيها حايل .

(٣) هو محمد بن صالح الشلهوب وزير المالية ووزير التموين عند السلطان عبدالعزيز وما الوزارة هنـــاك غير صدى الارادة السلطانية وآلة من آلات احكامها . الا ان الشلهوب هو صليب الشيوخ فيه عذاب وفيه خلاص – وفيه اخلاص لا ريب فيه . مهماته متعددة تشمل الكبيرة والصغيرة . من المدفع الى عود الكبريت . فهو يتولى أمر التوزيع العام الشامل . يوزع الحطب ، ويوزع السمن ، ويوزع السلاح ،ويوزع المال . طريقته في الادارة اولية بدوية ، وحساباته قروية . قال لا فض فوه : الذي يجيء نقيده ، والذي يروح نقيده ، والنتيجة لا شيء . وليس في طريقتـــه محاباة وتفضيل . طوّف بي ذات يوم مخازنه فدهشت لما في ذمتـه من الاموال ، وفي

رأيت العربان والاخوان ينتظرون في الرواق وشلهوب جالس وراء منضدته يعد الروبيـــات ، واعوانه في المخازن حوله يوزعون الثياب . وكنت ارى كل يوم عنـــد غروب الشمس صفاً طويلا من العبيد ، ساسة الخيل ، كل يحمل وعاءه وينتظر عنـــد باب من ابواب شلهوب ليملأه شعيراً . ان لشلهوب منازل كثيرة ومهمات متعددة . هو مثل يوسف في مصر الفراعنة . وملكناه ... وجعلنـــاه على خزائن الارض . وهو مع ذلك القيم الاول في المطبخ السلطاني والمطبخ العام اللذين لا يختلفان في غير التمّن اي الارز. فالصنف الذي يطبخ للسلطان ورجاله احسن من ذاك الذي يطبخ للعربان والاخوان .

يوم وصلت الى الرياض هالني عندما انخنا امر اولئك العربان من بدو وحضر واخوان . رأيتهم جالسين خارج القصر وداخل القصر في الاروقة على مجالس من الطين ، رجال وصبية ، وبايديهم العصي ينكتون بها الارض ، او يرفعون رؤوسها الى شفاههم يداعبونهـا مثل اماجد الانكليز . وكل واحد منهم رب أمره ملتف برداء العظمة والسكينة ، كأنه أمير خطير لا ينظر الى جاره ولا يكترث به . مئات من « الامراء » جالسون صامتون — يتفرجون ؟ سألت رفيقي : هـــل جاؤا يتفرجون علينا ؟ فقال: لا . انما الآن وقت الغداء وهم ينتظرون الامر بالدخول ، الامر من وليّه شلهوب . ولكنهم في دعـــائهم

تابع شرح صفحة ٩٤

ذاكرته من الاشياء . هذا مخزن السلاح والذخيرة ، وهـذا بيت التموين ، وهـذه الخوابي صنع الهنـد للسمن ، وهذا التمن مئـات من الاكياس مرصوصة بعضهـا فوق بعض . ثم أدخلني غرفة ذكرتني بمخازن الرهون بلندن وبنيويورك . كل ما فيها مهمل مجهول ومكدس بعضه فوق بعض سألت الشلهوب عنهـا فقال : غنمناها في احـدى المواقع ولا ادري ما فيها .

لعبدالعزيز بطول العمر لا يذكرون شلهوباً بغير الذم . ولماذا ؟ــ التمّن ما هو زين . الله يغربلك يا شلهوب .

وكنت أرى كل يوم قبل غروب الشمس ليس في ساحة القصر بل وراءه عند باب المطبخ جمعاً آخر محتشداً هناك ، جمعاً كبيراً من فقراء البدو المخيمين خارج المدينة ، نساء يحملن اطفالهن ، وصبياناً عراة ، وبعض الرجال في اطمار ممزقة بالية . جمعاً تأكله القذارة وتنتشر منه الروائح الكريهة . وكلهم جاؤوا في هذه الساعة وبايديهم اوان من الخشب او النحاس او الفخار ينتظرون شيئاً من الطبيخ ، ينتظرون فضلات المائدة العامة .

ما رأيت في الفقر مشهداً اشد وبالاً وابلغ فصاحة في ما يثير التسخط والاحزان مثل هذا المشهد الهائل. انه لفقر وجوع في قذارة، وقذارة في ذل ، وذل في قناعة .

لو كان مثل هذا الفقر في مدن نجد كلها لكان يخشى منه على ملك ابن سعود . ولكن العاصمة تمتاز عن سائر المدن بمن يحوم على موارد الرزق والخير التي لسيد البلاد . ومع ذلك فان مثل هذا البؤس في قلب نجد ليحط في عين الاجانب وفي عين الحضر من العرب ايضاً من كرامة ولي الامر والنعم . فحبذا العمل باقتراح اقترحته على عظمة السلطان ، وهو ان يشغل السباهلة المعطلين بدلاً من ان يتصدق عليهم . ليشغلهم في الاشغال العامة ايام السلم ، كاصلاح آبار المياه في البلاد واكثرها في حاجة الى اصلاح وترميم ، وتعبيد الطرق للسيارات التي بدأت اليوم « تطوي البيد طي » فيأكلون اذ ذاك خبزهم بعرق جبينهم وينفعون وينتفعون .

عبد العزيز آل سعود

ونفعل فوق ما فعلوا

بيت من الشعر فيه حكمة وفيه خطل – الشرقيون والمسلمون – العصامية في العرب – الاقتداء بالاجداد – «ونفعل فوق ما فعلوا» – ما يثبت هذا القول في اعمال السلطان عبدالعزيز – المشايخ والعلماء – تساهل السلطان – موقفه في الدعوة المذهبية – يُجيب على سؤالين – الدين والسياسة والحروب – الحكم اللامركزي – رأيه في الوحدة العربية – المقابلة بينه وبين الملك حسين .

نقلت في الفصل السابق شيئاً من الشعر المكتوب على الحائط في رواق المجلس العام ، وفيه تصوير لاخلاق النجديين وقواعد في الحياة يتمشون عليها . بل فيه ينعكس بعض ما يخالج السلطان عبدالعزيز من أليم الذكرى ومن شريف المقاصد والآمال . وهناك بيتان آخران فيهما مزيج من الحكمة ومن الخطل الذي ألفه الشرقيون . عفواً ايها القارىء . اننا نجني على الشرقيين في التعميم ، لان اليابان والهند حتى الصين نبذت ذاك المزيج او قامت تصلح ما افسده الزمان في التقاليد والاحكام . يجب ان اقول اذن : ذاك المزيج من الحكمة والخطل الذي ألفه المسلمون فخدر منهم العقل والروح والقلب كذلك . خدر العقل فقلما ينشط الى فكر جديد ينعشه ويحييه ، وخدر الروح فلا تكترث بما فيه صحتها ، وخدر القلب فلا يحس بالبلية المشتركة احساساً مدنياً قومياً يحمله على نبذ ما ألفه من قديم العادات ، وما يقيده من ذميم التقاليد والخزعبلات . قرأت مرة في حضرة السلطان ما كتب فوق بابه :

لسنا وان كرمت اوائلنا يوماً على الانساب نتكل

جاء مغلوطاً مبنى [1] لا معنى ، فقلت ، والمعنى ما يهم : ليس اشرف منه مبدأ يا مولاي ولا اجمل منهـا حكمة . واني اجلكم واحترم اهل نجد لانهم يعملون بها ، ولان السيادة والمجد في بيت آل سعود نشأا عنها . انتم عصاميون ديموقراطيون ، ونحن في زمن يُرفع العصامي الديموقراطي فيـه الى اعلى المقامات . ولكن البيت الثاني يا مولاي :

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

ها هنـا الخطل . ها هنـا المستنقع الذي تنتشر منـه جراثيم امراضنا الاجتماعية والسياسية والدينيـة . وانا اذا تساهلنا في تحليل البيت وتفسيره نسلم بنصفه الذي لا شك ينفع الشرقيين العمل به . اذ لا اظن اننا نستطيع نبذ الماضي كله بجذافيره . فلا بأس ان نبني كما كانت تبني اوائلنا – ان تكون حكومتنا ملكية مثـلًا . . . فقاطعني عظمته قائلًا : نحن نبني يا حضرة الاستاذ كما كانت تبني اوائلنا . ولكننا نفعل فوق ما فعلوا . فقلت : احسنت يا طويل العمر احسنت . اصلحوا البيت اذن حتى اذا قرأ كل من تشرف المثول لديكم .

نبني كما كانت اوائلنـا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

تحتدم فيه شعلة الحياة الجديدة ، فيسعى وهو يحترم الاجداد في ما يؤهله لاحترامهم . كذلك علينا ان نسعى لنفوق ما قاموا به من خطير الاعمال ومجيدها في زمان حرم من اسباب الرقي والعمران التي

(١) هو للمتوكل الليثي وصحته :

لسنا وان احسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتكل

يمتاز بها زماننا . والحق يقال ان السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الاول ، دور الفتوحات ، ملك اجداده ، وعزز هذا الملك بالعدل والامن، وبالدين الذي هو في نجد مصدر الاثنين ، فلا يخطيء او يموه اذا قال نبني كما كانت تبني اوائلنا . ولكنه في تحضيره البدو ، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى التي تدعى الهجر[1] وفي استخدامه من يحسن الخدمة مهما كان مذهبه ، وفي اعطاء امتياز الحسا لشركة اجنبية . وفي ارساله فتياناً من نجد الى مصر ليتلقنوا فيها العلوم الحديثة ، وفي استحضاره الى الرياض السيارات وبعض الاطباء والمهندسين ، في كل هذا ما يثبت قوله انه يفعل فوق ما فعل اجداده .

ولا يبالي اذا كان المشايخ والعلماء لا يرضون دائماً عن هذه الخطة العمرانية ، اذ ليس لهم ان يعترضوه بشيء في سياسته الداخلية والخارجية التي لا تمس الدين . وهو ، وان قيل انه شديد التعصب لمذهبه ، يحسن المداراة فيتجاهل في ما لا يضر ، ويتساهل في ما هو مفيد لبلاده . قد يفوه احد العلماء احياناً بكلمة فيها بعض ما يكنه من الوجد والاسى فيقول مثلاً : في ايام اجدادكم يا طويل العمر كانت الدنيا مستريحة من هذه المشاكل الجديدة كلها . فيسمع عبد العزيز ويبتسم ثم يسير في سبيله ليتمم مقاصده .

وقلما يكترث مما يشيعه عنه الاعداء وفيهم من الادباء من يجهلون نجد الحديث . لذلك تضاربت الآراء في كثير من الشؤون التي تتعلق

(١) الهجر جمع هجرة . وكل مدينة او قرية جديدة في نجد بناها البدو الذين ديّنوا وتحضروا فهجروا اليها من الجهالة الى الدين ومن االبداوة الى الحضر هي هجرة .

به وببلاده خصوصاً في موقفه الحقيقي تجاه الوهابية وانصارها الاولين المتعصبين ، العلماء والاخوان . فقد بددتُ بعض الظلمات على ما اظن في تصويري الرجل للقارىء تصويراً صادقاً حقيقياً . وجئت الان اشعل مصباحاً في زوايا السياسة المذهبية التي كان يخامرني منها بعض الريب .

سألت ذات يوم احد رجال السلطان الاذكياء أن يصدقني الخبر او يجهر لي برأيه الخاص، فقلت : لا انكر ولا ينكر احد صدق عقيدة الشيوخ الدينية ، فهو امام الموحدين . ولكني حائر يا صديقي في امره والاخوان . فهل تظنه يعتقد ان على الامام ان يحارب المشركين في كل مكان ، ان يجاهدهم حتى يدينوا ؟ في نيتي ان اسأل عظمته هذا السؤال . فقال صديقي : لا تفعل . والذي أراه ان السلطان يعتقد ذلك من الواجب . لم يرضني جواب الرجل . فتطرقت ذات ليلة الى الموضوع . ومما قلت للسلطان على ما اذكر اني في حيرة لا يزيلها سواه ، واذا سافرت من الرياض احملها ساكتاً لا اكون راضياً عن نفسي ، وقد اسيء اليه في ما اكتب . فقال عظمته : اسألني كل ما تبغي وانا اجيبك عليه . ولا اسامحك اذا سافرت من عندنا وفي نفسك حاجة نقضيها او مسألة نجلي غامضها . فقلت : هل ترون ان من الواجب الديني محاربة المشركين حتى يدخلوا في دين التوحيد ؟

فاجاب على الفور : لا ، لا . وضرب الارض ضربتين بعصاه ثم قال : هذا الحسا ، عندنا هناك اكثر من ثلاثين الفاً من اهل الشيعة وهم يعيشون آمنين لا يتعرض لهم احد . الا انا نسألهم الا يكثروا من المظاهرات في احتفالاتهم . . . كن مطمئن البال يا استاذ . لسنا كما يرانا بعض الناس . فقلت اسمحوا لي بسؤال آخر . وكان يجب ان يكون سؤالي الاول : هل ترون من الواجب الديني . . . وهل ترون من الواجب السياسي

ان تحاربوا المشركين حتى يدينوا ؟ فاجابني قائلًا: السياسة غير الدين. ولكننا أهل نجد لا نبغي شيئاً لا يحلله الدين . فاذا حلل الدين ما نبغيه فالسياسة التي نتخذها لتحقيقه محللة . واذا عجزت السياسة فالحرب ، وكل شيء في الحرب يجوز .

في الستة اسابيع التي اقمتها في الرياض كان السلطان يزورني في منزلي كل ليلة فنتباحث في مواضيع شتى ، نجدية وعربية وعامة ، وهو دائماً في حديثه فصيح صريح . ليت شعري اية صراحة أبهر مما تقدم ومما سأذكر ؟ ان السلطان عبد العزيز مثل كل رجل كبير لا يخشى ان يقال فيه ان عمله اليوم يناقض عمله بالامس ، وانه في السياسة غيره في الدين . فهو في حكمه البلدان التي امتلكها والعشائر التي تغلب عليها يراعي شؤون اهلها الخاصة من مذهبية ومحلية . ويندر ان يؤمر فيها من هو من غير اهلها .

قبل ان اختم هذا الفصل اطلع القارىء على رأي السلطان في الموضوع الذي يشغل افكار ملوك العرب اليوم وقلوبهم ، في الموضوع الذي شغل الصحافة العربية في كل مكان ، فكانت اخبارها وآراؤها فيه مزيجاً من الحقيقة الناقصة والغرض الاعمى ، في الموضوع الذي شغل كذلك ساسة الانكليز وصحافتهم فساروا فيه على عادتهم سير صاحب المصلحة الذي يعد كل يوم اصحابه واعداءه ، ويغير كل يوم من آرائه ما توحيه الاحوال .

كانت الوحدة العربية حديثنا في جلسات عديدة . ولكن السلطان ، عندما دنا يوم الرحيل ، افاض في الموضوع فدونت خلاصة حديثه تلك الليلة وعرضتها عليه في الليلة التالية ، فقرأها واصلح خطأي فيها . وهاكها في الحالين :

رأي السلطان عبد العزيز في الوحدة العربية

من حديث له ليلة ٣ جمادي الاخرة سنة ١٣٤١ في منزلي بالقصر

— هو يبغي الوحدة العربيـة ويساعد من سعى باخلاص في تحقيقها . فيحضر اجتماعاً يعقد لهذه الغاية ، ويقبل الزعامة والبيعة ملكاً على البلاد العربية كلها لاعتقاده انه اهل لهـــا ويستطيع تعزيزها .

— واذا بايع العرب غيره فهو يقبل ذلك ولا يتحول عن فكرته ، بل يستمر في خدمة القضية العربية بما يستطيـع .

— واذا لم تتحقق الوحدة وكان ائتلاف او حلف عربي بين امراء العرب لتعزيز شؤونهم معنوياً وسياسياً ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم اليه .

— واذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها .

— في كل حال هو رجل في سلم بلاده لا يبغي الاعتداء على احد ، ولكنه يأبى ان يعتدي احد عليه .

كتبت خلاصة الحديث تلك الليلة كما هو اعلاه واطلعت السلطان عليها لأتحقق صحة الرواية . فقرأ ما كتبت فقرة فقرة ثم اخذ القلم وضرب على الفقرة الثانية قائلاً : اسأت فهمنا فيها . نحن لا نقول كلمة ينقلها عنا الاستاذ الريحاني ولا نثبت عليها . ولكن هذا لا يكون. اشار وهو يتكلم الى الفقرة الثانية ثم قال : نحن نعرف انفسنا ولا نقبل الرئاسة في غيرنا .

أيذكر القارىء ما قاله لي الملك حسين ساعة الوداع ؟ — انا لا ابغيها — اي الزعامة — واساعد في تحقيقها — اي الوحدة — تابعاً كنت

او متبوعاً . أو لا يذكر كذلك انه رفض ان يوقع المعاهدتين مع الامام يحيى والادريسي لانهما لم يعترفا له بالزعامة العـــامة ، لم يلقباه بملك العرب .

فاذا قابل القارىء بين القولين ، قول الملك وقول السلطان ، ليعجب وان كان شريفياً بصراحة ابن سعود .

الوشم

كم مرة خفت في رحلتي – الحمى والغربة – السلطان المواسي – الموت الذي يزعج – السيد هاشم يصلح عقاله امام المرآة – ما معنى الى الكويت – أكتب وصيتي – أهب السيد هاشم حصتي في الجنة – « وقد جملتك وارث مرآتي ايضاً » – لا ماء الا في الحفر – مكارم عبد العزيز – القافلة تخرج من الرياض – الدرعية – وادي حنيفة – خرائب العيينة – تعدد القلبان ولا ماء – اخوان يسلمون ويستردون سلامهم – الربع يغنون ويدرهمون – احسن الرياضات الجسدية – الحبسية والحطب – الوشم – ثرمدا وشقرا – قحطان وتميم – « دين يا امين فنزوجك بنت من بناتنا وتقيم عندنا » – غزرة الماء في الوشم – قصور الوشم – « ديرة » امرىء القيس – بلد الشاعر جرير – وادي السر .

قد غشيني الرعب ثلاث مرات في رحلتي العربية ، قد خفت كما يخاف الناس ثلاث مرات ، ولا تفلسف ولا اعتذار . قبض الخوف على قلبي وحملق بي هنيهة وهنيهتين ، ويوماً ويومين ، فزعزع مني الارادة والايمان ، فعرفت يومئذ عـــدو الانسان الاكبر ، وعرفت معنى السلامة والاطمئنان .

اول مرة خفت على حياتي عندما لحق بنا عساكر الحواشب واطلقوا النار ليوقفونا من اجل الفطور . وخفت ثانية على حريتي في الاقـــل ، خفت ان اعتقل في قلعة مظلمة عندما سئلت في ماوية : أحسني انت ام حسيني ؟ وثالث مرة يئست فيها من رحمة الله عندما دهمتني الحمى في القصر بالرياض ، فكنت أسيرها اياماً ودرجـة الحرارة تهمس في اذني تلك الكلمة التي فيها خاتمة كل شيء .

نعم خفت مرة في الرياض وأحسست لاول مرة في رحلتي اني في الغربة ، بعيد عن بلادي واهلي ، بعيد عن اسباب الصحة والشفاء ، وعن الاطباء . بيد اني في تلك المحنة كنت اتعزى بما عاضني الله من صداقة رجل نجد الاكبر سيد البـــلاد والمكارم . فكان يعودني كل يوم ويجيء كل مرة بشيء يخفف سورة الحمى . — هل اكلت الكنكينا يا صديقي الاستاذ ؟ هذا شراب يبرد الدم . خذ منه الآن . ولكنني في العقاقير كلها والمرطبات ما وجدت ما ينعشني مثل ابتسامة السلطان ومصافحته وكلماته .

قد كنت مع ذلك بائساً مكتئباً وخائفاً على حيـــاتي . اقول . يا حضرة النجيب ، خائفاً على حياتي . وما هي، وحياتك ، بشيء ثمين لولا ما سخر له صاحبها كما يقول الاولياء . خفت الموت لا لان الموت يخيفني — اقول ذلك اتضاعاً لا فخراً — بل لانه يزعجني ، يقطع علي عملي وانا في مبهجة منه، يوقفني في نصف رحلتي . وكنت اسمع صوتا فيه ارتعاش اذ كانت درجة الحرارة على حدود الاربع بعدالمئة، وهي درجة يغتفر عندها الهذيان ، كنت اسمع صوتاً يقول ويردد : الوشم ، وادي السر ، عنـيزة ، بريده ، الكويت . . . الى الكويت . هات الخريطة يا دحيم .

وكان دحيم (مختصر عبد الرحمن) وهو السلحفاة في سيره وعمـله يروح ويجيء في قميصه البيضاء القذرة كأنه طيف الموت بعينه . — ابشر يا استاذ ابشر . ولكنني ، قبل ان يجيء بالخارطة ، اكون قد سافرت على ظهر الحمى الى الكويت عشر مرات . وكان لدي خرائط كبيرة وجدتها في القصر جسمت في نظري المسافات وضاعفت المشقات . اما رفيقي السيد هاشم فكان قد تصلب من طول الصحبة، او عاد الى

صلابته ، فصار لا يرثي لحالي . لا انساه حياتي وهو واقف عند النافذة والمرآة بيده يحكم وضع عقـــاله ، ويصف لي مشقات الطريق الى الكويت . وكان كل مرة يرى الخارطة بيدي يتناول تلـــك المرآة ليزين روحه ، فيزينها وهو يقول : لا ماء الا في الحفر ، فيريني الحياة كلها مفازات ، ويسمعني فوق ذلك : كلها مفازات . ألا فاسقني غماً وقل لي هو الغمّ .

الى الكويت ! ليس في العبارة ، اذا كنت في غير قلب البـلاد العربية ، ما يدعو الى الخوف والاضطراب . هب انك في بمبـــاي ومحجتك الكويت فالسلامة ترافقك في مركب بخاري تعددت فيـه اسباب الراحة والاطمئنان . ولو كنت في العراق وقلت : الكويت ، للبنّاك كذلك البخار ، فيحملك على العجلات من بغـداد الى البصرة ويكلك هناك الى باخرة تريك ، وهي تجري في شط العرب ، شيئاً من الجنة على ضفتيه ، وتنزلك من جون من الخليج حفرته يد الزمـــان ، فاطمأن اليه البحر والانسان .

ولكن تلك العبـارة : الى الكويت ، وانت في الرياض ، وراءك الدهناء وامامك الدهناء والنفود ، ولست يا رجل من الدواسر او من بني مره ، وليس لديك من السيارات والطائرات غير « البل »—الابل— انما هي المحنة التي تفاخرك باخويها الشقاء والموت . ومع ذلك فالسيد هاشم كان يحبب اليّ الاخت والاسرة جمعـــاء اكراماً للشيـخ احمد آل صباح والكويت . ولعـــله اكثر من عشرتي وفلسفتي فاستحجر قلبه .

— الشيـخ احمد رجل زين ، يا استاذ ، متعلم متأدب ، سافر الى اوروبا ، وهو يتأنق بملابسه ومآ كله . والكويت مدينـة تنسيك

الرياض . هي باريس البلاد العربية . فيها دخان ، وفيها وسكي ، وفيها المباح من النساء، وفيها طبيب ومستشفى. نعم فيها طبيب ومستشفى.. ثم يبادر الى المرآة فيحكم وضع عقاله ويقول : لا ماء إلا في الحقَر .

ـــ وقد اموت يا سيد هاشم قبل ان اصل الى الكويت .

ـــ حياة الفلاسفة طويلة يا استاذ . وهب انك مت فقد شاهدت الرياض والاخوان ، فيؤذن لك بالدخول الى الجنة .

ـــ الجنة لكم لا لي . . . هات الخارطة يا دحيم . . . واعطني الماء . سأشرب ما يكفيني الى الكويت .

السيد هاشم بعد ان عدل عقاله ووضع المرآة تحت السند :

ـــ الا تعتقد بالجنة يا استاذ

ـــ لا اعتقد لا بها ولا بك .

ـــ ولكن الجنة كائنة بشهادة الكتاب الكريم والنبي .

ـــ جنة البله كما قال الغزالي . هي لك بخشيش مني .

ـــ انت تمزح .

ـــ انا أجدّ .

ـــ اتهبني حصتك فيها .

ـــ وهبتكها كلها .

ـــ أوَتكتب لي حجة بذلك ؟

ـــ يا دَحيم هات الورق والحبر .

فبادر اليَّ بهما السيد هاشم فكتبت ما يلي : على فرض ان الجنة موجودة فاني اهب السيد هاشم ابن السيد احمد الكويتي السني الشافعي الرفاعي حصتي فيها . ووقعت الصك ودفعته اليه ، فأعاده قائلاً : بالله

يا استاذ امضه بالانكليزية ايضاً . فقلت ، وقد دونت اسمي باللغتين : أتظن ان لرضوان مستشاراً انكليزياً او ان الانكليز اصحاب الانتداب في الجنة ؟ فقال : الله اعلم ، وعاد الى المرآة يعدل عقـاله . كنت قد ادركت ما للمرآة من الاهمية في حياة صديقي فقلت والموت يداعبني : وقد جعلتك وارث مرآتي ايضاً . فسُرَّ بالهبتين ونادى :

يا دحيم هات افشُوَه .

يا دحيم هات الخارطة . هـذه هي الرياض وهـذا الوشم — مئة ميل — وهاك وادي السر فشقرا فعنيزة فبريدة — مئة وخمسون ميلاً — ومن بريده الى الحفر — مئة وخمسون ميلاً .

السيد هاشم : لا ماء الا في الحفَر .

— توكلنا على الله . ومن الحفر الى الكويت مثلها — الجملة خمسمئة وخمسون ميـلاً ، مسيرة عشرين ساعة في السيارة وخمس ساعات في الطائرة طير « الهوَن » (١) ولكننا في بلاد لا نريد ان نطير فيها ولا فوقها . فقد طابت لنا حتى في مفازاتها ، واحببنا ، اهلها واحببنا بعارينهم ، فوددنا السير فيها على طريقة دحيم كالسلحفاة لنزداد بهم وبها علماً وتزداد حباً .

قال لي احد الموظفين الانكليز عندما كنا في العقير : احسنت في سفرك من هنا فستتعود تدريجاً على ركوب الذلول فتصل الى القصيم وقد تصلبت فتقوى اذ ذاك على السفر من القصيم الى الكويت .

انها والحق يقال اوعر الطرق في نجد . ومهما صحبني من مكارم عظمة السلطان عبد العزيز من اسباب الراحة والامن وخفض العيش فقد كانت هذه الرحلة عليَّ اشد الرحلات مشقة وتعباً وهماً . خرجنا من

(١) يقول اهل نجد في السير البطيء « سير الهون » .

الرياض اثني عشر راكباً وفينا الرفيق والحارس والخادم والطاهي والقهوجي وراعي البعارين ، وهو يسوق قطيعاً من الغنم للذبح ، ومعنا في الحملة الخيام ، وفي مواعين المؤونة حتى العسل من عسير والبسكوت من لندن .

على انه كان معنا ضيف ثقيل خبيث ما رآه احد من الربع ولا علم به امير الحملة هذلول – هذلول الذي كان يرى ما وراءه كأنه امامه فلا يخفى عليه شيء يختص بالحملة او بمن جهزت من اجله ، لم يرَ ذاك الضيف الثقيل ولا علم به . فقد رافقنا من الرياض رديفاً ، رديفي انا بل رفيقي الاول ، شبحُ الحمى ! وكان يشهر حرباً عليّ من حين الى حين ليثبت وجوده وينفي وجودي فيحمل عليّ بالنـــار فاحمل عليه بالكينا . دامت الحرب شهراً ويزيد ، اثناء الرحلة كلها ، دون ان يفوز احد منا . فكان يتبع كل وقعة هدنة وكل هدنة وقعـــة . ولم يكتب لي النصر المبين الا بعـد وصولي الى الفريكة واستنجادي بهواء لبنان .

اين نحن الآن من لبنان . اننا لا نزال ايها القارىء العزيز تحت سماء العارض وفي ظلال بساتين الرياض التي تمتـــد جنوباً الى المنفوحة بلد الاعشى احد رجال المعلقات . صعدنا قليـلاً في جبل طويق ، وعاصمة نجد التي هي عند سفح الجبل وراءنا والمنفوحة تحتها . ثم اطللنا ، بعد سير ثلاث ساعات شمالاً ، على برج مهـــدوم اشار اليه هذلول قائلًا : هناك نصب ابراهيم المصري مدافعه واطلقها على الدرعية .

وبينما كان يقص علينا قصة تلك الحرب بدت بعـد نصف ساعة الاطلال تحتها ، وقبالتها شرقاً بشمال بساتين من النخيل والاثل اختبأت فيها القرية التي هي اليوم الدرعية الجديدة . نزلنا في شعب من وادي حنيفة

الذي يفضي الى اليمامة ، وسرنا بين الدرعتين قليلاً ، ثم انخنا في عقيق السيل بين ظلي الاطلال والنخيل . وبعد ان امر هذلول بنصب الخيام واعداد العشاء أرسل الى امير البلدة رسولاً يطلب الحطب للنار والعلف للركائب ، ثم مشى يرافقني الى عاصمة الوهابية التي دمرتها مدافع المصريين منذ مئة سنة ونيف .

صعدنا الى الجانب الغربي من السيل القائمة على حاشيته بقايا قصور آل سعود ، فاذا نحن في اسواق مدينة كبيرة كانت تشرف شمالاً على جبل طويق وجنوباً على اليمامة التي هي اليوم بقعة صغيرة في مقاطعة الخرج ، فمشينا بين جدران تداعت ، وفي ساحات لم يبق من عمرانها غير الرسوم العافية ، ووقفنا على جسور متهدمة بين القصور ، ونزلنا في درجات مبرية الى آبار ردمها الزمان .

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة   للجن بالليل في حاناتها زجل

كانت الدرعية منذ مئة سنة اكبر مدينة في الجزيرة . سرنا في اليوم الثاني ساعة في وادي حنيفة ونحن لا نزال في ظلال طولها الدوارس . فلا عجب اذا كانت في ايام مجدها ، في عهد عبد العزيز الاول وسعود الاكبر ، قطب البلاد العربية بعد الحرمين ، يؤمها العرب من كل قطر قصي للاستنجاد بامرائها وللاتجار . من عمان ومسقط وحضرموت كانوا يجيئون الى الدرعية ، ومن العراق والكويت والبحرين ، ومن اليمن وعسير والحجاز .

هذه هي عاصمة نجد في وادي حنيفة وقد دمرها العدو الاجنبي . وهذه هي جُبيلة قريبة منها وقد جعلها آل سعود في حروبهم الاهلية مثل الدرعية . وها نحن في « بلد الشيخ » على مسيرة نصف ساعة من جبيلة . هي « بلد الشيخ » ، مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب ،

العُيَيْنَة المشهورة ، وقد اخنى عليها الذي اخنى على لُبَد . كانت طريقنا بين خرائبها ورسومها ، فسرنا ساعة فيهـــا ، فادهشنا عدد القلبان [١] التي كنا نراها الى اليمين والى اليسار ، وهي عميقة ومحكمة البناء ، وكلها ، يا من اخنى على لبد ، جافة مردومة .

كانت العيينة قائمة وسط سهل فسيح ، سطحه يابس جاف ، غير ان تحته ولا شك مجاري من الميـــاه كثيرة . فما معنى القلبان المتعددة لولا ذلك ؟

اما اليوم فلا ماء في العُيينة ، لا في عيونها ولا في قلبها . هجرتها السواقي الخفية ، فهجرها الانس ، فنبت البَهَق [٢] في دورها ، والحرمل [٣] في حماها ، دُكّ تحتها ضلع من الارض ، فتحولت الميـــاه عن مجاريها ، فنضبت القلبان ، ودكت فوقها المنازل والقصور . ولو ان في جوارها اليوم بعض الماء لقامت عندها عُيينة جديدة مثل الدرعية الجديدة . قد شاهدت في نجد غيرها من البلدان التي هجرت او نُقلت لتحوُّل مجاري المياه تحتها .

كانت العيينة من مدن نجد العامرة يوم فرّ هارباً منها محمد بن عبد الوهاب ولجأ الى الامير سعود بن مقرن في الدرعية . بل كان هذا الوادي وادي حنيفة عامراً في ايام الصحابة بالبلدان والقرى التي كانت يتصل بعضها ببعض من الدرعية الى العيينة . اما اليوم فقبور الصحابة فيـــه و « ديرة » مُسَيلِمة ، مسقط رأس الشيخ بن عبد الوهاب هي كلها

---

(١) قلبان جمع قليب (تلفظ في نجد جليب) اي بئر ماء وساقية .

(٢) بهق الحجر نبات يعلو الصخور شبيه بالطحلب .

(٣) الحرمل نبات مثل الطيون لا تأكله المواشي . قيل ان حبـــه يخرج البلغم والسودا اسهالاً ويصفي الدم .

مثل القلبان تحت الارض واحدة في الخراب والهجران . بل قد هجر وادي حنيفة حتى الاطيار والازهار ، ولم يبق من الشجر غير الشوكي كالطلح والسلم . كأنها مخالب الزمان في كبد العمران او اكاليل من الشوك للطلول الدوارس .

ومثل الطلح والسلم في الاخربة هؤلاء الاخوان في الدين . هناك ثلاثة ذاهبون الى الرياض « ليقروا » — ليتعلموا القرآن والحديث . سلموا علينا فرددنا السلام . وراح هذلول يحدثهم ليستطلع « علومهم » (اخبارهم) ثم سمعنا واحداً منهم يقول : ردوا لنا سلامنا . وسمعنا هذلولاً وقد ادبر بذلوله يصيح : سلامكم رد لكم . ثم اشعل السبيل فسألته الخبر فقال وهو يضحك ويدخن : بدو جهال ، سلموا علينا ثم ندموا على السلام . سألوني عنك فقلت : سوري جاء يتاجر بالبُل ، فلما صدقوا ، وقال احدهم : هو انكليزي كافر . ردوا لنا سلامنا . فرددتهم وسلامهم الى الجحيم .

فضحك العجماني بدّاح ضحكته العريضة الفضفاضة ، وراح يدرهم ويغني :

يا راكب اللي هجيجا زين (يا راكب الناقة التي عدوها حسن)
ما ضيّجت صدر راعيها (ما ضيقت صدر صاحبها)
اسرع من رماشتك بالعين (رمش العين)
ورماشة العين تلهيها (اي الغمز بالعين)
ممشى العشر تأخذه بيومين
تجيك ما ملّ راعيها

وكأنه كان يتغنى بمديح كل ذلول من ركائبنا الا ناقة سوداء شعراء حرون ، سميتها الحيزبون ، كانت تأبى السير الا غارة ، فتضطر

راعيها سالم القهوجي ان يتخلف عن الربع من حين الى حين ، ثم يطلق لها العنان فتجيء كأنها « جلمود صخر حطه السيل من علِ »وهي تهدر كالرعد والبحر الهائج معاً ، والمعاميل — مواعين القهوة— المعلقة بالرحل تصفق لها استحساناً . ولم تكد تلحق بنا حتى تسري منها الى ركائبنا الكهرباء ، فينزق كل ذلول لمباراتها، فيبادر الركب الى الارسنة وقد كانت على الغوارب ملقاة ، والى الخيزران يهولون بها فوق الرقاب ، وينادي هذلول بدّاحاً وبدّاح يحمس هذلولا ، حي هلا ، حي هلا ! جاب الحيزبون ، شنها سالم المجنون .

اسرع من رماشتك بالعين ورماشة العين تلهيها .

كنت في بداءة امري بالغارات احس ان شيئاً في صدري يذوب فيحدث فراغاً يصعب عنده التنفس. وكنت اتصور الرحل يعلوا ويهبط كأنه موجة تحتي مائجة ، بيد اني بالممارسة ملكت النفس والعنان، وصرت اهوّل بالخيزران كأني من الدواسر او العجمان . حتى اذا ما دنت مني الحيزبون كنت أسرع الربع الى النخوة والاعتزاز — خيال التوحيد اخو من طاع الله ! وقرينهم في الغارات .

ان في ركوب الهجين خير الرياضات الجسدية . وهو يلذ ولا يتعب اذا بدل الراكب السير هونا بالدرهام ، والدرهام بالغارة من حين الى حين . اي اذا سار يمشي الهون عشر دقائق مثلاً ، ثم مثلها درهاماً ،ثم بضع دقائق غارة ، وكذلك في المسير كله ، فلا هو يتعب ولا تتعب الذلول . بل في هذا السير المختلط صحة الراكب والمركوب وسرور الاثنين معاً . ولم يكن هذلول ليسمح باكثر من ساعة من السير البطيء فيقول اذ ذاك : هوّوا الركائب ، فننشأ ندرهم جميعاً .

قد يخفى على القارىء المتمدن من لا يعرف من اخبار البل— الابل—

غير « سائق الاظعان يطوي البيد طي » وغيرها في الدواوين مـــا في الكلمة « هووا الركائب » من الحقيقة ، وما في العمل بها من الرحمة بالحيوان . ليعلم اذن ان سنام البعير هو من اعضائه الطرية الحساسة وان قل عددها، وان الكور في شكله يحوق بالسنام ولا يضغط عليه فيبدو السنام معــه للهواء كأنه قبة من الشحم في اطار من خشب ، فيستأنس البعير بذلك . وليعلم القارىء كذلك ان الجمل المحمّل مهما ثقل حمله هو اوفر حظاً من الذلول لان الجمل يضغط على جنبيه وظهره اكثر من ضغطه على السنام . اما الذلول فحملها الاول الكور . ثم الفرش — وسادة وسجادة وخرج وجلد غنم — فوق السنام يمنع عنه الهواء ، ثم الراكب وهو على السنام يضغط عليه فيزيد بكربة صاحبته ، ولا سيما اذا سار الهون فلا يتحرك الا ترجحاً اي حركة افقية ، فتزداد بالفرك الحرارة ، ويمسي السنام كقطعة لحم مشوية امـــا اذا درهم فتتغير الحركة ، تصير عمودية ، فيدخل ، وانت تنتفض في الرحل ، شيء من الهواء الى السنام فتنتعش الذلول المسكينة .

وحبذا اعتناء اهل نجد بالاشجار اعتناءهم بالابل . مررنا في وادي حنيفة ببقعة تدعى الحيسية فيها غاب من الطلح والسلم هو اول مـــا شاهدت في نجد. ولكن الاشجار متفرقة متكسرة ، قليلة الاخضرار ، ضئيلة الظل ، تسطو على اصولها وجديدها الانعام ، ويفتك بفروعهـــا فأس الحطاب . في الحيسية تحتطب الرياض . ولكن اهـــل العاصمة في غفلة عما يحدثه جهل الرعاة وجهل الحطابين . فهؤلاء يقتلون الشجرة واولئك يجهزون عليها، ولا احد يشكو ويلوم . ما رأيت ولا سمعت ان احداً اهتم لغرس الجديد من الطلح والسلم . فلا يمر والحال هذه عقدان من الزمن حتى يضطر اهل الرياض ان ينشدوا الحطب كما ينشد

الرعاة في سنة الجدب الحيا (المرعى) في الاراضي القصية وقد لا يجدونه .

بعد خروجنا من الحيسية نطل على اول بلد في الوشم ، ذاك القاع الكائن بين وادي حنيفة ووادي السر ، الذي يمتد غرباً من سفح جبل طويق . ان الوشم مشهور بقصوره ومزارعه وتاريخه وتقاليده . هذه البرّة كأنها في قصرها ونخيلها واقفة عند الباب وبيدها المفتاح الى وادي حنيفة في تلك الناحية . هي قرية لا يتجاوز عدد سكانها الخمسمئة نفس اكثرهم من عرب مطير وفيهم مئتان من الاخوان المجاهدين .

اما ثرمدا بعدها ، ثرمدا الكثيرة القلبان ، فان الماء المالح والماء القراح يجريان فيها جنباً الى جنب تحت النخيل . سكانها من بني تميم واميرها العنقري الذي اضافنا وحدثنا عن العصامي والعظامي من الرجال هو من بني سعد وهم اطيب جذوع تميم في الزمان الاول . قال لي هذا العنقري التميمي العصامي واكد قوله ان عندهم في ثرمدا ثلاثمئة قليب وثلاثة الاف مجاهد . ولكن امير شقرا الذي قرأ بعدئذ العددين في مذكراتي اسقط صفراً واحداً من كليهما .

ـ هذا الصحيح . ثلاثون جليباً ثلاثمئة مجاهد . او لم يعلّمك بطباع نساء ثرمدا ؟ هن يكرهن الاقامة فيها . رجال ثرمدا لا يعدلون في النساء ... لا يستطيعون . لذلك ترى نساءهم ، والحبل على الغارب ، في كل مكان .

لم اتمكن من الرجوع الى ثرمدا لاسمع ما يقولون هناك عن نساء شقرا ، ولكن الامير القحطاني اكد لي ان نساء بلدهم مقصورات الطرف لا يبغين خارج السور بديلًا . ثم قال : اذا ديّنت يا امين نعرسك ببنت من بناتنا فتقيم عندنا وتتحقق قولنا . ونعطيك مع البنيّة

بيتاً وذلولا ، ونعلمك الغزو وضرب السيف .

ان شقرا لاجل بلدان الوشم واكبرها ، نخيلها مثل نسائها ، داخل السور يزين البيوت ويحجبها بعضها عن بعض . عددسكانها خمسة الاف فيهم قليل من تميم . اما الاغلبية فهي لبني زيد وهم كما يدعون من قحطان . وبنو خالد من عنزى فعدنان . على ان الجميع في شقرا متآلفون متحابون . ومــع ان الناس في نجد يسخرون بالقحطاني ويتهكمون عليه ، فيرمونـه بالبخل ، فقد وجدته في شقراء مثله في اليمن عربياً كريماً . لست انسى الامير ووكيل المال والشاعر فيها . ولا انسى ضيافة حالت دونها ودوني الحمى . وهم على كرمهم ودماثة اخلاقهم متضعون . ينحرون لك ، ويمدون سماطاً ملكياً ،ثم يقولون: ما عندنا في نجد غير فاكهتين الماء البارد في القيظ والنار في الشتاء .

ان شقراء مشهورة كذلك بمائها ، ذاك الماء الذي ادهش البدوي عندما شرب منـه لاول مرة ، فصاح قائلًا : اقمح يا مطر . وعندهم داخل السور ثمانون قليباً والف من الاخوان المجاهدين يحرثون في ايام السلم الارض ويتعاطون التجارة . اما عمال ابن سعود فليس فيهم من لم يخرج ولو يوماً واحداً الى الجهاد ، فادى شهادة التوحيد وحمل على المشركين . وانه ليدهشك ما يقوم به العامل الواحد من الاعمـال . فلا دوائر هناك ولا كتاب ، ولا كراسي تجلس فيها الالقاب، وتأخذ من مال الامة بلا حساب .

كنا في شقرا ضيوف وكيل المال عبد الرحمن السبيعي ،وهو رجل صغير نحيل عليل ، يحمــل في جيبه مفتاح من الخشب يفتح عشرين باباً في داره ، ويتولى الجباية في الوشم كله ، ان بيت السبيعي مفتوح وان ناره مشبوبة على الدوام . السبيعي لحية غانمة كما يقولون هناك . اي انه ذو

يسر وفضل وحمية . ومع ذلك فهو لا يوكل احداً بعمل يستطيـع ان يعمله بنفسه . ــ نباشر امرنا بيدنا . الكاتب متيسر ولكن مـــا كل واحد نأمنه على الاسرار . فنصبر على المشقة ولا نشكو غير ضعف في البدن . لو كان لنا ما للبدو من الصحة والعافية . ثم طفق يشكو البدو . ــ هم على صحتهم كسالى ، خاملون ، ويجب علينا مع ذلك ان نلاطفهم عندما ينيخون علينا . ونجاملهم « ونحبهم » (نقبّلهم) بين عيونهم ونحمل لهم الاكل بيدنا . والا راحوا يسبوننا ويقولون اننا كفار ... البدوي اذا شاف الخير تدلى : واذا شاف الشر تعلى . ثم انشد يقول :

من لا يجينا والديار مخيفـة

لا مرحباً به والبلاد عوافي

شكرت الحمى بعدئذ واشكرها الآن على يومين في بيت عبدالرحمن السبيعي تداويت فيهما بطيبتين لبَنه وحديثه .

ذكرت ما في ثرمدا وشقرا من تعدد القلبان مما يدل على غزارة الماء في الوشم . فان مياه جبل طويق تصب غرباً بجنوب تحت هذا القاع ، فتصل الى الخرج والافلاج ، فتتكون هناك بحيرات شتى ، كما تصب شرقاً بجنوب تحت الدهناء والصمان فتظهر في الاحساء . والشاهد على غزارة الماء في الوشم تعدد القلبان في القرى وخارجها في القصور . قد اشرت فيما سبق الى القصور في نجد فازيد القارىء علماً بهـــا ، او بالحري بتلك التي في البر مثل قصور الوشم . فالقصر هناك سور مربع في كل زاوية منه مفتول او برج ، وداخله بيوت للسكن وللانعام ، وقليب ومقهاية ومسجد . هو اذن جامع بين المزرعة والقلعة فيستخدم في ايام الحرب للدفاع . وهذه القصور بعيدة بعضها عن بعض ، حول

كل قصر منطقة خضراء مزروعة ، وبين كل منطقة واختها قفر قاحل كالصمّان .

فلو عاد تميم ووائل وقحطان اليوم الى تاريخ اجدادهم في الاندلس مثلًا لعلموا بما كان لهم على الارض من الايادي البيض ، لعلموا بما كان اولئك الاجداد يبنون من السدود والقني للري ، فيساوون بين كل بقعة صالحة للزرع ويستثمرونها كلهـــا . اني على يقين من ان الابار الارتوازية في الوشم ، وبنـــاء السدود والقني ، واستخدام الالات البخـــارية للرفع والدفع تمكن اهله من زرع كل باع فيه فتزداد غلاله عشرة اضعاف . وما يصح في الوشم يصح في القصيم .

دع عنك الزراعة الآن . فها نحن في الطريق التي اكلت قديماً نعال الشعراء ، في « الديرة » التي زانها يوماً من قال : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . لست ادري اذا كان سقط اللوى هـــا هنا او في ذا الجوار ، واذا كانت حومَل والدخول بـين ثرمدا والنفود . ولكن هذلولاً وهو شاعر يقول ان الى يسارنا على مسيرة نصف ساعـــة بلدة تدعى أثيثيهُ هي مسقط رأس الشاعر جرير ، وان بين ثرمدا واثيثية مرّاه بلد امرىء القيس .

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ولكن الوشم اليوم أصيب بادبه كما اصيب بارضه . فيا له من مجد عفت رسومه ، ومن بلد عفنت علومه ، فصار حتى الدوسري يزدري ابن الوشم ، والسديري يسخر بقراريشه اي حمّاريه .

لا تحسبني من قراريش الوشوم من ثرمدا والمشيقر والاَمرّات

ان اقدم بلدان الوشم هذين البلدين ثرمدا والمشيقر ، وان اكبرها شقرا الكائنة في الطرف الشمالي ، وليس بينها وبين الطرف الجنوبي من

القصيم غير وادي السر . على ان هناك بين الوشم والوادي ، النفود[١] التي قطعناها بثماني ساعات . وبكلمة اصح ان هناك نفدين اثنين ، الصغير الذي يدعى البُترة وهو مسير ساعتين ، والكبير الذي يدعى اعزم وهو مسير ست ساعات . وان بين النفدين حاجزاً من الارض الحصوية الجدبة التي تُستغرب في شكلها ومكانها ، هي دائرة بيضاء بين تلك الكثُب الذهبية ، وفي احد اطراف الدائرة حجارة بركانية سوداء منها متبعثرة ومنها مرصوفة بعضها فوق بعض . اعجب بها من ارض يبهجك تكوينها الرملي ، ويدهشك ظاهرها البركاني . بعد ان نصعد خمسمئة قدم في النفد الكبير ، وننزل مثلها ، نشرف على وادي السر ، فنجوز العيون هناك ، ونسير في الوادي الى المذنب اول بلدان القصيم .

---

(١) النفود جمع نفد وهي مشتقة من نفد نفاداً اي ذهب وفني وهلك .

القصيم

الهواء والاخلاق – القاع في العوسجية – نهر متجمد من الملح – اهل العوسجية ملح الارض – الاشراف على عنيزة – باريس نجد – سحر النفود والنخيل – خطر النفود – سوق عنيزة – اسر عنيزة القديمة – اكرامهم للغريب – القهوة والشاي والطيب – قاعة الاستقبال – النقش على الجدران – هندسة عربية – آل سليم – آل بسام – التساهل في عنيزة – لو جاءها « خليل النصراني » اليوم لاكرمه اهلها – وادي الومّه – الفرق بين عنيزه وبريده وبين اهل المدينتين – القصر في بريده – سويلم بن سويلم وكيل الامير – التهذيب العربي في اجل مظاهره .

القصيم يعلو زهاء الف قدم عن العارض ويبعد مئتي ميل عن الغلو في الدين ، فيتغير الهواء والنبات ، وتتغير كذلك اخلاق الناس . سرنا في وادي السر الى جانب النفود وهي الى يميننا قافلة من الكثب تدنو وتبعد منا ، فيتقلص ظلها ويمتد ، ثم يختفي معها فلا نرى منها غير الاسنمة والرؤوس الذهبية . وبعد مسير عشر ساعات في واد يكثر طلحه وشنانه اشرفنا على العوسجية وعلى ما يشبه النهر شرقاً منها . فسألت هذلولا : اسراب هذا ? فقال هذلول : هذا القاع . وسألت سالماً فاجاب : القاع . وسألت بداحاً فقال : هو القاع بعينه .

وما هو القاع ? في اليمن يطلقون الاسم على السهل فيقولون قاع يريم مثلاً وقاع الحقل ، فيكون القاع اما اخضر واما اسود او احمر اذا لم يكن مزروعاً . بيد ان هذا القاع ابيض كالثلج ولم يتغير في قربنا منه ، ولا بدا على وجهه تموج يدل على الماء . فعندما وصلنا الى العوسجية بعد الظهر تركنا الخدم ينصبون الخيام ويعدون

الطعام وسددنا خطواتنا انا ورفاقي الى القاع شرقـــا من القرية . فاجتزنا بستاناً من النخيل ، وغيضة من الطرفاء ، وادغالا من نبات طويل لزج يدعى النهر "طميل"، فاذا نحن بعد ذلك في ارض سبخة موحلة واذا بالنهر او القاع قيد ابواع منا . أنهر في نجد ؟ اي نعم نهر من الملح المتجمد ، من فصفات السودا ، عرضه نصف ميل ، وطوله من الخمسة الى السبعة اميال .

خضنا الارض الموحلة الى الصفحة البيضاء فالفيناها جامدة مصقولة كالجليد ، صلبة كالجلمود ، ناشفة كالرمل ، ولا باردة هي ولا حارة . جلست هناك وتربعت وشكرت الله على ذا المظهر الغريب العجيب في الكائنات . هوذا نهر ماؤه جامد جاف ، وهي ذي بحيرة حـــار جليدهـــا . سألت رفاقي ان يجلسوا فترددوا خائفين . هي اول مرة جاءوا الى القاع وخبروا حقيقته . دقوا ما تحت ارجلهم بخشب البنادق ليتحققوا صلابته وجلسوا وهم يضحكون ، ثم قـــال بدّاح : والله يا هذلول بلاد نجد عجيبة . فاجابه هذلول : واعجب منها يا بدّاح نحن الذين لا نعرف ما فيها .

قطعنا صفيحة من هذا الملح فاذا سمكها اربع اصابع ويتخلله شيء من التراب والقش . امـــا اذا دنوت من وسط القاع فيزداد السمك ويصفو الملح فيقل فيه التراب . على اننا لم نر في اسواق عنيزة وبريدة ملحاً نظيفاً . فهم يجلبونه من هـــذا المكان ويبيعونه صفائح كبيرة وصغيرة كما يقطعونها .

العَوْسجية قرية صغيرة حقيرة فقيرة لان تربتها بسبب هذا القاع جلها سبخة لا يصلح زرع او غرس فيها . ولكن اهلها ملح الارض . جاءنا وجيههم يدعونا للقهوة — تفضلوا نقهويكم — فقبلنا شاكرين ،

وكانت اول ضيافة من مثلها في القصيم . جلسنا حول الموقد على الوسئد ورب البيت يحدثنا بينما هو يعمل القهوة . ثم اشعل السبيل ودخن وقدمه لهذلول فاداره على الربع. ثم جاءنا بخبيص يدعونه عبيطاً يعملونه من التمر والسمن استلذذته واستعدته . فضحك العوسجي الكريم واثنى على حريتي قائلًا : كأنكم من القصيم . جاء هذا العربي الفاضل في المساء يرد الزيارة ويشرب القهوة فازددت اعجاباً به وبكرم اخلاقه اذ قدم للربع شيئاً من التبغ واعتذر قائلًا : لولا قلته والله زودناكم منه .

وكانت ضيافة العوسجي فاتحة الضيافات في الايام التالية بعنيزة مليكة القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال ابناء الامصار. عنيزة قطب الذوق والادب ،باريس نجد . وهي اجمل من باريس اذا اشرفت عليها من الصفرا [1] لان ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود . بل هي اجمل من باريس حين اشرافك عليها لانها صغيرة وديعة خلابة بالوانها ، كأنها صورة صورها مانه [2] لقصة من قصص الف ليلة وليلة ، وكأنها لؤلؤة في صحن من الذهب مطوق باللازورد . بل قل انها السكينة مجسدة وقد بنت لها معبداً بين النخيل،زانته بافريز من ذهب الرمال ، وكللته باكليل من الاثل . فهي في مجوف من الارض يحيط بها غاب من هذه الاشجار ليرد عنها رمال النفود التي تهددها من الجهات الثلاث ، من الشمال والغرب والجنوب . قلت مرة لاهلها : انتم والنفود قوم [3] فاعجبوا بالكلمة وتناقلوها . انها الحقيقة

(١) الصفرا مثل الصمان ، ارض حصوية مجدبة شرقي عنيزة وتعلوها مئتي قدم .

(٢) كلود مانه Claude Manet المصور الفرنسي .

(٣) قوم اي اعداء في اصلاح العرب .

ولا مبالغة . فالنفود تحاربهم بالرمال تدفعها الرياح من كل جانب فتسفّيها على المدينة، وهم يحاربونها بالاثل يزرعونه غياضاً فوق الكُثُب خارج السور .

قد تصغر عنيزة دون اهلها ، وهم زهاء ثلاثين الفاً ، لان النفود تقيدها فلا تستطيع التبسط والامتداد . فهي لذلك مزدحمة بالسكان واكثر اسواقها كالسراديب لانهم يبنون فوقها الجسور وفوق الجسور البيوت . ولكن هناك سوقاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الاشكال والالوان . فتذكرك باميركا وبلاد الانكليز ، وتنقلك الى الهند واليابان ، وتسمعك اللغات الانكليزية والفرنسية والهندوستانية ، ولهجات من العربية متعددة .

وفي عنيزة أُسر قديمة عريقة بالنسب والفضل [1] وقد ساح آباؤها في البلدان القصية والامصار شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة لطفاً واتضاعاً، فرفعوا الضيافة الى مقام تنفتح عنده ابواب البيوت والقلوب معاً . اجل ، ان الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريباً ، فسواء اكان مسلماً ام كافراً ، موحداً ام مشركاً ، فهو يشعر ها هنا انه بين اناس الفوا مثله والفوا فوق ذلك اكرام الضيف اياً كان. فيستأنس ايما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً .

— تفضل نقهويك .هي دعوة شبيهة بدعوة الانكليز للشاي . وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل ، فيهما ميل الى الحديث والتعارف ، ورغبة في الالفة والوداد . على ان ضيافة العربي العنيزي تمتاز عن ضيافة الانكليزي في ان رب البيت يخدمك بنفسه من حين

(١) مثل آل سليم وآل بسام وآل ذكير وآل غماص وآل قاضي .

الاستقبال الى حين الوداع. وما اجمل ذاك الكرم وتلك الوداعة ولاسيما ان الفضيلتين نشأتا في عزة نفس لا تحتاج الى الابهة لتؤيدها .

ان قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة . وهي عادة طويلة فسيحة عالية سقفها ، وقد سقف بخشب الاثل ، قائم على اعمدة من الحجر مطلية بالجص ، لها نوافذ مزدوجة ، النافذة فوق الاخرى ، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق ارضية من الطين، فتبدو في لونيها الابيض والحنطي كأنها خرج فرنسي على قميص عربية . وفي الصدر مجوف مستطيل لا يزيد اذا كبر على الثلاثة الاذرع هو الموقد يجلس عنده رب البيت ويجلس الى جنبه ابنه او اخوه او احد من اهله ، فينشىء الواحد يعمل القهوة والآخر يدق البن في جرن الحجر كبير شبيه بجرن الكبة في لبنان ، الا ان قطر ثقبه لا يزيد كثيراً عن قطر الهاون . وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب والاخرى للمواعين هما قيد يد الجالس هناك فلا يضطر ان يقف ليتناول شيئاً منهما . واهم من كل ما ذكر الاباريق ، وهي محور الدعوة وركن الضيافة المادي ، اباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق ، وقد صفت امام المضيف صفاً متناسقاً من الاول الصغير الذي يكفي ضيفين الى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد . هـذه هي القهوه عندهم وهي في شكلها ورسومها ولون جدرانها . وسقفها العالي ونورها اللطيف الذي قلما يمازجه نور الشمس ، تعيد الى ذهنك صورة معبد من معابد الاقدمين فتحدثك بجلال العتق والقدم .

قال هنري دَوْطي في كلامه عن عبدالله البسام : « وكان لجرنه صوت شجي كأنه جرس الضيافة يدعو الناس للقهوة » . الا انهم لا

يقفون في الضيافة عندها، فهم يقدمون بعدها ، في كؤوس من الزجاج، شيئاً من الشاي جزآه الاكبران الحليب والسكر . في بعض الاقطار العربية يسمى هـذا الشاي القهوة الحلوة ويقدم للضيف دائماً بعد القهوة المرة . وهم في الضيافة لا يسرعون ولا يلحون ، اللهم اذا كانت الدعوة للقهوة فقط . اما اذا دعيت للغداء او العشاء فبعد الاكل الاية : واذا طُعمتم فانتشروا . ولا استثناء . لذلك كنت افضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث ، وما اكثر الفوائد والدهشات فيه .

هذا سيدي عبد العزيز بن عبدالله آل سليم وقد اضافنا مرات بين الصلاتين وبعدها اصيلاً ومساء ، لا ليسمعنا حديثه ، وما احلاه ، بـل ليسمع حديثنا . وكنت من باب حب الذات والاستفادة اباريـه في السؤالات ، فننتقل من الجغرافية الى الزراعة ، ومن «أمريكة» ، كما كان يلفظها ، الى بلاد طي ، ومن الاطبـاء الى الشعراء . كان يكثر ، عافاه الله ، من ذكر الاطباء ، خصوصاً « طبيب السنون » ، ويشكو خلو عنيزة منهم . — قيل لنا يا افندي ان امهر اطباء الاسنان هم في أمريكه . أصحيح هذا ؟ قد نسافر الى أمريكه فنشاهد بناياتها العالية ونصلح اسناننا .

وهذا عبدالله بن خالد آل سليم امير عنيزة وقـد انزلنا في القصر الجديد الذي شُيد حديثاً لعظمة السلطان عبد العزيز ، ومد لنا في بيته سماطاً ازدحمت فيه الالوان ، وانارته من شيم الاماجد البشاشة والوقار . ثم ادهشنا صباح يوم السفر بأكلة جمعت بـين الحبيص [1] والعبيط ، ...

(١) الحبيص في نجد هو غير العبيط. الحبيص يعمل من الطحين والماء والسكر. ضع الطحين في القدر وحركه فوق النار حتى تفوح رائحته، ثم ضع الماء والسمن والسكر فوقه وحركه حتى تفوح رائحته ثانية ، فصب عليه السمن وحركه حتى

جيء بها في جفنة كبيرة على كانون من النار لتؤكل حامية. هي الحُنَيْنَة بنت الخبيص والعبيط ، وقد عُملت قرصاً كقرص العيد وغُمست بالسمن والسكر .

والامير عبدالله مثل عمه عبد العزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه . غير انه مثل كل عربي لا يزال ، على شغفه بالزراعة ، اسير تقاليدها القديمة .سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري ،ثم قال : سمعنا ان السلطان عبد العزيز يبغي استخدامها في الحسا . فمتى فعل نتبعه ان شاء الله . الناس على دين ملوكهم – وعلى طريقتهم في الزراعة ايضاً .

وهذا عبدالله بن محمد آل بسام يثبت ما اقول. فهو على علمه وادبه وروحه العصرية في كثير من امور الحياة ، لا يتقدم طويل العمر في الرياض . لعبدالله ارض خارج المدينة حفر فيها قليباً عمقه ثمانون قدماً وعرضه خمسة وعشرون بعشرين ، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء . كلفه اربعمئة ليرة انكليزية ، ويكلفه رفع المياه يومياً ليرة واحدة في الاقل . اما ثمن الآلة البخارية فلا يزيد على نصف كلف القليب، وثمن البترول اقل من اجرة الجمال . وعبدالله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك ما في الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل ، ولكنه عربي . والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم واجدادهم .

اما في التساهل الديني فبين اهل عنيزة اليوم واجدادهم بون

تابع شرح صفحة ١٢٥

تفوح الرائحة الثالثة .فارفعه اذ ذاك عن النار ودعه يبرد ويشتد ، ثم مد يدك باسم الله الى القدر ولا تكن جشعا .اما العبيط فهو من التمر والسمن كما تقدم .

شاسع . ليس في عنيزة اليـوم من يضرب بالعصا من لا يصلي ، فيسوق الى المسجد كالانعام من لا يلبون دعوة المؤذن . وليس في القصيم كله من اولئك الوهابيين ، امثـــال الاخوان اليوم ، الذين اضطهدوا « النصراني الكافر » هنري دَوْطي وطردوه من البلدة . لم يجد الرحالة الانكليزي يومئذ غير بضعة رجال والوه ، واضافوه ، وساعدوه في محنته ، اهمهم ثلاثة هم امير عنيزة يومئـــذ وعبدالله القنيني وعبدالله البسّام . وقد ذكرهم دَوْطي في كتابه بالخير . نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً .

حدثني صديقه عبدالله قال : كنت شاباً يوم جاءَ « خليل» الى عنيزة وكان القنيني اكبر اصدقائـه ومساعديه . فاغضب سكان المدينـــة فسبوه وتجنبوه . قالوا انـه كافر مثل الانكليزي وهـا قد مر خمس واربعون سنة وانا اشاهد التطور عندنا . نعم الفرق كبير . ثلاثـة يومئذ والوا الغريب علناً واكرموه ، ثلاثة فقط . اما اليوم فلو عاد «خليل» الينا لما وجد ثلاثة يسيئون اليه فعلاً او قولاً . اهل عنيزة اليوم يغضبون لأقل اساءة تلحق بالغريب في بلدهم .

بين عنيزة وبريدة الوادي ، وادي الرُّمه ، والنفود . ولكن بين سكان المدينتين فرقاً يكاد يكون ابعـد من الفرق بين البدو والحضر . انما بريدة مدينة تجارية وليس لاهلها وقت لغير الاتجار والصلاة . هي محط رحال البدو من مطير وهتيم وعتيبة وحرب وغيرهم ، يجيئونهـا للبيع والشراء . هي بدوية مادية لا تهتم للادب ولا تسرف في تليد العقل والفؤاد ، فلا تكرم الغريب ولا تسيء اليه . على انه قلما يسمع فيها تلك الكلمـــة الطيبة ، تفضل نقهويك ، التي هي صلة التعارف والولاء . لذلك تسمى عنيزة باريس ، مع ان بريـــدة اوفر حظـاً

منها في النزول على النفود . ان الرمـــال تفسح لها ولا تناوئها . فلو كانت المدن في انبساطها وانقباضها تؤثر في الاخلاق لكانت بريدة في الضيافة ، في بسط يدهـا وقلبها الى الغريب ، المدينة الاولى في القصيم .

وهي لا تبعد عن عنيزة اكثر من عشرين ميـــلا . مسير النفود بينها ساعتين ، فنشرف ونحن في اخر ضعس منها على الخبوب التي تطوق بريدة كالقلادة – قلادة من الزمرد في خيط من الذهب لبدوية القصيم . ان الارض لتتضع امامها ، فتخضع لها ، وتقف بعيدة عنهـــا مبسوطة اليدين .لا كُثُب حول بريدة قريبة ، ولا واحات عاليات الجبين – حولها الخبوب . والخب منخفض من الارض فيه ماء واثل ونخيل ومضارب واكواخ . الخبوب خنادق احتلتها قوى السلام اي المياه والايدي الزارعة .

اقمنا في بريدة اسبوعاً نجدد ما وهن من القوى وما نفد من الزاد . فقد اجتزنا في رحلتنا قسماً من بلاد نجد تعددت فيه القرى والمدن وطابت المياه ، وبقي امامنا القسم الاكبر والأوعر ثلاثمئة ميل بـــين بريدة والكويت ، لا مدن فيها ولا قرى ، ولا مـــاء الا في نصف الطريق . وهناك النفود الكبرى ، والدهناء ، ووادي الرمه ، والدبدبه ، كلها اقفار يضيـــع فيها حتى ابناء القفار .

نزلنا في القصر الذي اسسه ابن مهنّا وبنى جناحاً منه ابن الرشيد وآخر ابن سعود . هو قصر كبير ذو ابراج متعددة ، وأفنية رحبة ، وقلاع للدفاع الواحدة دون الاخرى . وفيه بيوت للضيافة ومـــاء ومسجد ، وليس فيه في هذه الايام ، في عهد السلطان عبد العزيز العادل ، غير حامية صغيرة لا يتجاوز عددها المئة جندياً .

كان سُوَيْلم بن سوَيْلم رئيس القصر وحاكم البلدة في غياب الامير ابن مساعد جلوي[1] . وسويلم من الرياض ولكنه ليس من « محلة الشيخ » فيها ، فلا اثر للتعصب الديني لا في اقواله ولا في اعماله . قد انتدبه عظمة السلطان مراراً لمهمات خارج نجد ، فسافر الى سوريا ومصر والاستانة ، وكان في اسفاره من الكاسبين . على ان الامطار لا تنفع غير الارض الطيبة . ما اجتمعت بعامل من عمال السلطان انعم صوتاً ، وألطف حديثاً ، واجمل صبراً من ابن سويلم . كنت احضر مجلسه ساعة يقضي في الناس فيجيئه البدو ، واصواتهم كالاجراس ، غاضبين شاكين ، فيسمع ابن سويلم شكواهم هادئاً ، صابراً ، ويحكم فيهم ذاك الحكم العادل الشديد الذي امتاز به اكثر عمال ابن سعود . على اني لم اسمعه مرة ينتهر البدو او يغلظ لهم الكلام . ولا سمعته مرة رفع صوته في الحديث او في التوبيخ . كأنه صيني لا عربي .

— سرق البعير يا لامير . ابْدوي لص ! والله عاينته بعيني . ابْدوي قواد !

فيسكته الامير قائلا : اقصر الله يعافيك . فان لم يسكت يعيد الكلمة ولا يغير صوته او لهجته . بل يضرب الارض بعصاه مثل السلطان عبد العزيز ويقول : اقصر الله يعافيك . ما اجملها كلمة تسكت بها الصيّاح الشتام . ولكنها قلما تفيد اذا لم يكن عند صاحبها شيء من تلك القوة المعنوية الروحية التي تجعل كلماته الناعمة اشد وقعاً على البدو من السيف .

---

(١) هو عبد العزيز بن مساعد آل جلوي عينه السلطان بعدئذ اميراً في حايل وجعل المنطقة الشمالية كلها بما فيها القصيم والجوف وخيبر تحت امرته .

الدهناء

الدليل واركان حربه – عين ثميد – الاسياح–لا ماء الا في الحفر – النفود الكبرى– جمال الضعوس في الشروق والغروب – الحمى والنفود والذلول الجموح – الدهناء – «كبّر يا بدّاح» . – سكة زبيده – البريتسه – بقعة خضراء – نرعى مع الابل – الفرق بين الدهناء والنفود – بعض النبات في الدهناء – مسفر ابو العجايب – دميم كريم – عبّه دكان – مرآة ومسواك وعود الطيب – مسفر يبر بوعده – ليلة راقصة – « حنّا اهل العوجة » – هومة الاخوان – لى لى لى لى لى لى لى ؟ فصل الحكايات – حدثنا هذلول - بداح يقص قصته – حكاية حمود – سالم والسند الذي معه على الملك حسين – ساعة من النوم ثم صوت هذلول : قوموا : قوموا صلوا – هذلول يعلم بداحاً اصول التوحيد واركان الدين– بداح يعلم هذلولاً اية العيون - شروط الصلاة – نواقض الوضوء - الحياء شعبة من الايمان — مسفر وبداح يتشاءمان .

ما احتجنا الى دليل في الطريق من الرياض الى بريدة مع اننا عبرنا ثلاثة ابحر من النفود . ولكنها بحيرات رمل اذا قسمناها بالعروض التي لا يجتازها حتى العرب بدون دليل خبير : واذا كان هذا الدليل زكرتاً فله بعد امير الحملة المقام الاول ولا يمشي الا ومعه اركان حربه. نفعنا الله بهم وبه . فقد اصحبنا سويلم بن سويلم برجل من مطير ساح في الامصار ، ورافق الكبار والصغار ، وحارب مع الترك في الحرب العظمى ، ثم مع الشريف ، ثم مع ابن سعود . رجل رهيب له صوت يرجف حتى البدو ، وخطوة كانت تذكرني ببيت المتنبيء :

يطأ الثرى مترفقاً في تيهه فكأنه آس يجس عليلا

اما اركان حربه جُعَيثن[1] ومبارك وابراهيم فمن العربان الشجعان ابناء الفرّ والطعـان . على اني خشيت المنافسة بين الدليل والامير . ولولا حكمة هذلول واتضاعه ، ورغبته في راحتي قبل كل شيء ، لما استقام الامر يوماً واحداً .

كان يضحكني المطيري ، وشر البلية ما يضحك ، عندمـــا ننيخ للمراح . فيقف اذ ذاك جانباً وقد التف بعباءته ، وطرح احد طرفيها على كتفه ، كأنه يمثل على المسرح دور امير خطير . ثم يصدر اوامره :

— يا مبارك ساعد مسفر في الذبيحة : يا جعيثن هات الاوتاد . رح يا حمود ارعى الركايب . وانت يا حمد ساعد في نصب الخيمة . القرّب يا بدّاح . الحطب يا ابراهيم ...

وكنت ارى هذلولا ، بارك الله فيه ، يشتغل وسالم في رفع الشراع ويساعد الجميع دون ان يصدر امراً واحداً . بذا يمتاز الرجال بعضهم عن بعض ، وبذا يفلح العاملون ، ويفشل ، بالرغم عن الخبر والاقتدار ، اولو العجب والادعاء .

كانت طريقنا من العارض الى القصيم شمالا بغرب ، فاستقبلنا الشمس في بريدة وسرنا منها مشرقين الى الكويت . ولا ماء الا في الحفر . ما ما ادركت خطر الطريق ووعورة المسلك الا بعد التأهب في بريدة ؛ اذ خرجت القافلة منها وقد ازدادت رجالا وركائب . فضلاً عن اهتمام

---

(١) جُعيثن تصغير جعثن وجعثن في محيط المحيط اصول الصليان . والصليان بقلة واحدتها صليانة . ولكن جعيثننا يخطىء القاموس . فقد اخبرنا ان امه ولدته عند جذع اثلة ، وان جذع الاثل يدعى جعثن ، وهو قوي سوي ، فسمي تيمناً به جُعيثن .

ابن السويلم وقد رافقنا الى خارج السور فأوصى الدليل وألحّ على الامير بارسال كلمة اطمئنان بعد ان نجتاز الدهناء .

ملأنا القرب وبعض الاروية [1] من ماء عين ثميد خارج المدينة ثم ملأناها ثانية كلها في اليوم الثالث من عين فهيد في الاسياح واطللنا من الاسياح على العروض ، اي النفود الكبرى بين القصيم والكويت ، ووراءها الدهناء ، ودون الدهناء المفازات . وكلها على اتساعها اجف من الاسفنج في دكان العطار . لا ماء الا في الحفر ! حجب الله عليك يا سيد هاشم كم ذكرناك في العروض وغبطناك وانت في العارض . لا ماء الا في الحفر . ودوننا ودون الحفر جبال وبحار من الرمال ، بيد دونها بيد ، وسبعة ايام من السير ، والحمى تعود يوماً بعد يوم !

ان العروض اي النفود الكبرى بين الاسياح وقبَاء [2] هي عدة جبال من الرمل تمتد طولاً من الشمال الى الجنوب وعرضاً من الغرب الى الشرق . وهي تدعى دعوصاً ، علو الدعص بين الخمسمئة والسبعمئة قدم ، وبين

---

(١) القربة وطب من الجذع اي جلد البهائم الصغيرة سناً يحملها الراكب معلقة بالرحل . ولكل راكب قربة . والاروية جمع روي في القاموس الشرب التام . والرواء الماء الكثير المروي . اما في نجد فالروي هو الوطب الكبير من جلد الابل او البقر يسع مقدار خمس قرب من الماء . وهم يحملون في الاروية غالباً ماء الطبخ والغسيل وكل رويتين حمل حمل .

(٢) قبَاء القاف تلفظ جيماً وفاء الاسم تسكن في نجد فيقولون أجباء . فيسمعها الرحالة الاوروبي فيكتبها كما يسمعها ، فينقلها الكاتب العربي عن الكاتب الاوروبي فتجيء مكتوبة جبه او جابه او جيبه . ومثلها الدهناء تلفظ ادهَنا فكُتبت في الخرائط الاوروبية دهانا Dahana وغيرها من الاغلاط في كتابة الاسماء باللغات الاجنبية ثم في نقلها عنهم الى اللغة العربية .

كل دعص وآخر نحو اربعة اميـال نزولاً وصعوداً . احد عشر دعصاً هي ، بل احدى عشرة كربة ، كل واحدة اشد من الاخرى . هاك افقاً امامنا يعلوه افقان او رأسا دعصين بعيدين . وفي كل افق رسول من الذهب الوهاج يدعونا لنعيم الخيال بل لخيال النعيم .

ما اجمل ذهب النفود في الشروق وفي الغروب ، بل مـــا اجمل ارجوانه اذا مال الظل وتعرج في الاصيل . وما ابهج ليل النفود وقد افترشت رملًا ناعماً كالحرير ، وآخيت نجماً دانياً في نوره منك ، كأنه يهمس في اذنك كلمات السكينة والحب والسلام . وما اروع اشكال الرمال وقد كونت اهراماً وقباباً وفيها امثلة الصراط وقـد شحذتها الرياح فامست كحد السيف .

ما اجمل — ولكن — كانت ذلولي من العـــارض الى القصيم سهلة المراس ، لطيفة المزاج ، قصيرة الخطى ، خفيفة التوجح ، فيرتاح فوق سنامها من لم يألف ركوب الجمال . ولكنها انقلبت عليَّ قبل ان تصل الى بريدة ، فشرس خلقها ، وثقلت خطواتها ، او انهـــا كانت خبيرة بطريق الكويت ففضلت الرجوع الى الرياض .

اما الذلول التي ابتاعها ابن السويلم في سوق الابل ببريدة ، وهي اكبر سوق لبيع البعارين بالمزاد في البلاد العربية ، ووسمها بالنار على رقبتها بوسم ابن سعود ∴ وقدمها لي قائلًا : احسن ما في السوق ، فقد كانت حادة المزاج ، صعبة المراس ، طويلة الخطى ، سريعة السير . فيضطر الراكب ان يعالجها دائماً بالرسن والخيزران ، فلا يذهل هنيهة عنها حتى في منتصف النهار ، في تلك الساعة ، ساعة الهاجرة ، حين يتسلل النعاس الى الجفون فتلقى الارسان على الغوارب ويستسلم الركب الى النوم . اما هذه العمانية فلا تؤمن اذا قيل لها : حبلك على غاربك .

لم يكن ذلك ليروعني وقد تمرنت وتصلبت لولا امران . فما همني طول خطواتها في الارض المنبسطة اليابسة ، وما همني مزاجها في الايام التي انفردتُ فيها بالرحل فكنت راكباً وحدي .

ولكن الحمى والنفود — لا اظن ان الاثنين يجتمعان لكثير من الناس حتى في الجزيرة العربية . ومتى جاءت الحمى في الدرجة الرابعة من الخطر ، وكانت النفودُ العروضَ ، وكانت الذلول عمانية جموحاً ، فماذا ينفع الرسن باليد او على الغارب ، وماذا ينفع الخيزران . ان اصعب السير على الركب والركائب هو السير في العروض ، ولا اثر البتة لطريق فيها ، ولا مهرب من امواج رمالهـــا . تصعد الذلول في الدعص الى رأسه وهي تربخ فتغوص حتى الرسغ ، فتجيء الخطوة الواحدة وفيها قد بذل جهد عشر خطوات ، فتئن حتى الرحالُ من شدة الحال . اما في النزول ، فتنتقم من الدعص الذلول فتروع هاوية غاوية ، وهي تغوص في الرمل حتى الركاب ، فتجيء الخطوة مقدار خمس خطوات ، وفي كل منها للراكب خمس نكبات . زد على ذلك ان الدليل المطيري كان يعبر المنحدر في خط مستقيم دائماً ، فلا يهمه الرفيق المحموم ، فتتبعه الركائب غائرة متدهورة اذا لم يكبح جماحهـــا . وكيف يقوى على كبح جماح ذاوله من كبحت جماحه الحمى ؟

لم تنفعني قوة الارادة في تلك الايام ، ولا ما كنت اتدرع به من الكينا صباح مساء . فقد رميت بنفسي على الرمل مرتين في العروض وانا انتفض من البرد ، فانتظر مجيء الحمى ، التي كانت تتبـع البرد ، لنستأنف السير . نعم ، لنستأنف السير . فهل نقف لنجـامل الحمى ورفيقنا الاكبر شبح الموت ؟

ليس في ما اكتب الآن شيء من تأثير تلك الايام . انما الحقيقة

كل الحقيقة في ما اقول . الماء معنا لا يكفي الا اياماً معدودة . فاذا انخنا كل مرة شرفتنا الحمى لنجاملها حتى تزول ، ينفد ماؤنا قبل ان نجتاز نصف الطريق . ولا مـــاء الا في الحفر ! اركب يا رجل وتوكل على الله . لا اظنني توكلت في تلك المحنة الفريدة على غير الله . بل كنت احس ، استغفرك ربي ، انك وان كانت الحمى رديفي ، راكب امامي قابض على زمام الذلول وزمامي .

يا ذلولي حجيّله ذلول ابن عيد قربتي قطرت والمعشى[1] بعيد

وما كان ابعده في ايام النفود ، في ذاك البحر الرملي الذي تعالت امواجه جبالاً وهبطت جباله امواجاً ، فضاق في اجتيازه حتى صدر الدليل المطيري . ما كنت اظن ونحن نخوض عبابه أن له نهاية تنتهي عندها الشدة والعذاب . ولكن الدليل عندما اطللنا على الافق الاعلى، فاه بكلمة كانت منه الكلمة الوحيدة التي ابهجتني : هناك ظهر العروض ومنه نعاين الدهناء .

ظهر العروض ، آخر ضلع من ضـــلوع الاسياح ، آخر دعص من النفود ، آخر درجة من سلم التعذيب — شكرنا الله ثم شكرنا الله . وعندما اطللنا على الدهنـاء تنفس الربع كلهم الصعداء وأمر هذلول بالتكبير : كبّر يا بدّاح . فراح بدّاح يدرهم ويصيح : الله اكبر ! الله اكبر ! وكانت ساعة الغروب فانخنا فوق السهل الذي يمتـد بين العروض والدهناء . وكنا قد عثرنا في ذاك النهار على اثر من طريق قديمة هي سكة زبيدة ، اي الطريق التي أمرت بفتحها وتعبيدهـــا للحجاج زبيدة امرأة هارون الرشيد ، فتيمّنا بها وكانت فاتحة الخير الى يومين .

(١) المعشى مكان المراح للمشي .

اكرم الله مثواك يا ستي زبيدة وجعلك من المقربين ـــ اذا كان لم يفعل حتى الآن . ويا ليت في المسلمين اليوم اختاً لك صغيرة تجدد في الاقل الطريق التي شُرفتْ باسمك . فالبرك العديدة التي بنيت في الصحراء في سبيل البر والتقوى ، لتروي الانسان والحيوان يرجع اليك فضل بنائها .

لم افهم من مبارك قوله هذه البريْتْسَه [1] حتى وصلنا اليها ، فالفيتها بركة لماء المطر بل صهريجاً متهدماً مردوماً . واذا صح فيه التصغير اليوم فلا يصح ذلك في ما نبت هنالك من الاعشاب ومن شجر الطلح والسلم .

ان ابهج ما يشاهد الانسان في الصحراء بقعة ارض خضراء . ولكن الحيوان ، ذا السنام كان او ذا القرون ، يشارك الانسان في ذا الابتهاج . وقد تبارينا كلنا حول البريْتْسَه التي يدوم اخضرارها طيلة السنة . ان احسانك يا ستي زبيده خالد البركات ولو في زاوية من القفر ، خالد هو ما دامت الارض خالدة . انخنا الركائب لترعى في ظلال احسانك . وكنت انا الحيوان الناطق المفكر اول من فاه باسمك شكراً واعجاباً . فلقد لقيتُ في ذلك المرعى كما لقيتْ ذلولي ما ألفته العين والمعدة .

جاءني مبارك وهو نباتي الحملة ببضع وريقات خضر يقول : هـذا الخنْبصيص . هي عشبة صغيرة فيها حموضة يأكلها اهل نجد ويجعلونها في الاقط . وكنت قد سئمت اللحم لانه في الثلاثة الاشهر التي مضت كان يصبحني ويمسيني كل يوم دون سواه ، فجعلني احن الى ورقة خضراء حنين البعير الى العرفج والارطى . ثم جاءني مبارك ، بارك الله فيه ، بعشبة اخرى سال لمرآها اللعاب ، وهاج في القلب ذكر الوطن

(١) تصغير بركة والكاف تلفظ تس .

والاحباب . فيا ما احيلاها نبتة تزرع في لبنان حول البيوت، وتسيج من غزوات الدجاج بالشوك . الرشاد ! جاءني مبارك بالرشاد . وهو في بادية نجد نفسه في لبنان ، لا يتغير اسماً ولا طعماً .

تبعت مبارك الى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت ارعى فيها كالبعير ، بل رحت أدبّ على الاربع مثل نبوكدنصر، آكل الحشيش، واشكر الله ثم الست زبيدة ، فانتعشتُ وابتهجت حواسي كلها ، فصرت اظن ان الرشاد والخنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت دونه الكينا. على انني، في رجوعي الى الاصل ولو ساعة ، اصلحت ليومين ما افسده الوقوف على الاثنتين .

وها كم الدهناء تبسط لنا النمارق البيضاء وترحب بنا فينبغي للقارىء ان يعرف بعض الشيء عنها قبل ان نصل اليها . تختلف الدهناء عن النفود باشياء — بطولها وهي تمتد من الشمال الغربي فتنساب كالحية او تتعرج كالنهر شرقاً بجنوب حتى تصل الى الربع الخالي — بلون رمالها وهو ابيض الا في اطرافها — بقلة كثُبها وتجوفاتها فلا يتجاوز اعلى كثيب فيها المئة قدماً — بتنوع اعشابها وغزارة المرعى فيها . زد على ذلك انها قليلة العرض جداً بالنسبة الى طولها ، والعرب لا يقطعونها الا في الاماكن التي هي اقل عرضاً من سواها . لذلك هي اسهل سيراً وايئس مشهداً من النفود .

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويخرجن من دارين بجر الحقائب

مررنا بها خفاف القلوب في الاقل فقطعناها من الغرب شرقاً الى الكويت بعد ان قطعنا من الشرق غرباً الى الرياض . وكان يومئذٍ بدّاح رفيقنا ودليلنا فصاح ثانية يمثل البدو عندما يصلون اليها

طالبين الحيا[1] وابيك حنّا برأس الدّهَنا ! واطلق مبارك صوته ببيته المحبوب :

يا موفقين الخير يا اهل الأشدّة   معكم وزين (عديل) الروح الله يردّه

سرنا في سكة زبيدة سير الهون اكراماً للركائب . وكيف لا نكرمها والارطى في هذا المكان من الدهناء اخضر جديد . اشرأبت اليه الاعناق ، ووقفت عند كل شجرة منه تتفكه به بعد ان كادت تتخم من العرفج والعُلقة والشّمام [2] . ثلاث ساعات كل ساعة منها عيد لذوي الاربع وذوي الاثنتين معاً . انخنا فصلى الربع المغرب ومدوا السماط للعشاء ، ثم جلسنا في حلقة حول النار وطالبنا مسفراً بما وعدنا به مراراً .

ومن هو مسفر وما هو وعده؟ هاك الخبر ولا اظنك تأبى التعرف الى الرجل وقد تشاركني في حبه . مسفر هو مدير الحملة [3] ، ورئيس

(١) الحيا اي المرعى . وفي القاموس الخصب والمطر . والعرب تسمي النبات حيا لانه يتسبب عن المطر .

(٢) الأرطى شجر ثمره كالعناب ويسمى ايضاً في نجد عَبَلاً لان ورقه كورق الصنوبر مفتول غير منبسط . وهم يستخرجون منه ومن قشره صباغاً اصفر . العُلقة شجرة غصنها ابيض وورقها دقيق تبقى في الشتاء فيعلف بها الابل حتى تدرك الربيع . الشمام نبت ضعيف ورقه شبيه بورق النخل . ومن نبات الدهناء العَرْفج وهو للابل كالباقية للخيل وقبل هو القتاد لشوك فيه .

(٣) تقسم القافلة الى قسمين الحملة وهي الجمال التي تحمل الحقائب والزاد والركائب التي تحمل المسافرين . وغالباً تسير الحملة قدام الركائب فتسبقها بساعة او اكثر لانه لا يؤذن لاصحابها بالدرهام خوف التكسير في ما يحملون ، فنلحق بها ونجتمع كلنا في المضحى وفي المراح .

الخدم ، والعين الكالئة للزاد ، واليد الذابحة العاملة في سبيل البقاء . مسفر هو النفاخ الطباخ ، راعي الفأس والفراخ ، حامل الخنـــاجر والسياخ . وهـو في شكله نكتة مضحكة قـد لا تليـق في مجالس المتمدنين وفي وجهه اقرب الى الرباح منـه الى يوسف الحسن . وجه مسفر هو مـا يصفون في نجد بالعَفِين وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء انفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول الى اذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد اليه ؟

اما في لبسه فهو آية في البلاغة والابداع لا يعرف أنجدي هو ام حجازي ، أيماني ام عراقي . بل لم يكن عربياً في غير الغطرة والعقال . اضف الى ذلك حِذاء مرقعاً تخض رجله فيه ، وسروالاً كان ابيض ، لا نظنه غُسل في عهده او في عهد ابيه ، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركي ، وفوق المعطف زنار تلمع فيــه الخناجر والسياخ . الا انه عندما يركب على بعيره الاسود : فوق احماله ، يبدو ككيس من الاكياس .

هاك الرجل في ظاهره . اما في باطنه فسبحان رب الكائنــات ، النافخ من روحه حتى في عجائب مخلوقاته . ان في ذاك الوجه العفن مبسماً ولا مبسم الحسان في جاذبه ، مبسماً يوقفك ويغريك ، ويضحكك ويلهيك ، مبسماً ينسيك الفم منــه والانف والجبين ، بل ينسيك الرباح ، وضلوع الاسياخ .

اي بالله . ما كان في رجالنا ، وقلما تجد في الرجال ، من هو اخف روحاً . وادمث خلقاً وألطف ذوقاً ، وأرق شعوراً ، واسرع الى الخدمة يداً من هذا الدميم الكريم . فقل : تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ،

فهو اذا مسخ الانسان قرداً يهبه من الجمال الروحي والُخلقي ما يندر في يوسف الحسن وزين العابدين .

ان للمعطف الذي كان يلبسه مسفر جيوباً هي دكان بما حوت . أتبغي خيطاً وابرة وزراً ؟ أتبغي ملحاً او بهاراً او شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغي رقعة تمسح بها فنجاناً او تضمد بها جرحاً ؟ أتبغي قلماً وورقاً للكتابة ؟ أتبغي مسواكاً من الاراك او شيئاً من الكحل ؟ سمعاً وطاعة . لم يدهشني عندما رأيته اول مرة يكتحل لان اكثر رجال العرب يكتحلون وقاية للعيون . ولكنه ادهشني ذات يوم اذ كنا حول النار نشرب القهوة ، فتناول مسفر حجراً وضع عليه بضع جمرات ، ثم مد يده الى كيس في « دكانه » فاخرج علبة صغيرة ، ففتحها واخذ منها باطراف اناملة ، ورشه على النار . البخور ، عود الند ، الطيب ؟ هو وحده كان يحمل هذه النفيسة من نفائس الحياة ونوافلها ، فيطيبنا دائماً بعد الطعام .

على اني دهشت الدهشة الكبرى ولم اتمالك ان ضحكت عندما اشار بالسبابة الى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم اخرج من عبه مرآة صغيرة قدمها لي لأرى وجهي وازين – احكم وضع – عقالي قبل الرحيل . هوذا حقاً اقبح خلق الله صورة واجملهم نفساً وذوقاً . ولا اظن انه كان يحرص على شيء في كل ما يحمله حرصه على المرآة ، فكان يتسلى بها وهو راكب فيتأمل طويلاً ذاك الوجه الذي وصفت .

ما السر في ذلك ؟ هل يرى في وجهه ما يراه الناس ام ما يراه الله وقد تساوت في نظره المخلوقات جمعاء ؟ أو هل الرباح ، ذاك المخلوق الاولي فيه ، وقد اعجب بهذا الشيء الذي يعكس

وجهه فكان مسحوراً ! ما قول سادتنا العلماء ، علماء الجسد والروح ؟ أفلا يأخذهم العجب من الرجل الدميم ، الدميم الى حد يضحك ويبكي معاً ، الذي يحمل السكاكين والخناجر ولا يضع واحدة منها في قلبه عندما يرى وجهه في المرآة ؟ ولكنه على ما اظن حب الذات يقينا ويقيه شر النفس اذا ما رأت العين منكرات التكوين الظاهرة . أجل، لولا حب الذات ، ذاك الغرس المبارك الذي غرسه الله في كل حيوان صامت وناطق ، لكان الانتحار بسبب التشويه الخلقي وحده اكثر شيوعاً من لعب القمار .

استغفرك ايها القارىء فقد اسهبت . ولكن غيري ألفوا روايات ابطالها اشخاص مثل مسفر اختلقوها : ولا اظن ان « كاليبان » و « غونيبلاين » يتسابقان الى الصدر اذا جمعتهما ومسفراً المجالس . بيد ان « كاليبان » واخاه خيالان من خيالات شكسبير وهوغو . اما مسفر فحقيقة هو من حقائق هذه الرحلة ، كان يطبخ لنا دجاجة كل يوم ، ويطيبنا بعود الند بعد الطعام ، ويحدثنا عن امرأته وعياله في سدوس [1] هاك الرجل ، وهاكه مبرأ بوعده . وما الوعد ؟

عندما كنا في شقرا رحنا ذات ليلة نتفقد مسفراً و « خوياه » في منزلهم ، فسمعنا ونحن داخلون الى البيت صوتاً شجياً ينشد نشيد الاخوان ، فأطللنا من الشباك فاذا مسفر داخل والسيف بيده يصحب « الهوسة » برقصة رائعة . سألناه بعدئذ مراراً ان يرقص ويغني فأبى واعتذر . وعندما خرجنا من بريدة كنا نعيد سؤالنا كل يوم فيتذرع بالشغل او بالتقاليد التي تحرّم الغناء في نجد . على انه وعدنا برقصة

(١) سدوس قرية قديمة من قرى العارض بنجد . سميت سدوس نسبة الى قبيلة من بني حنيفه كان يقال لهم بني سدوس

الاخوان عندما نصل الى الدهناء . — وها قد اجتزنا الدهناء والحمد لله ، وكان الحبور رفيقنا طيلة النهار . فهلا استهويته يا مسفر بصوتك وسيفك ، فيظل معنا ليحل محل القمر في ذا السمر .

كنا حلقة حول النار امام الشراع ، وكانت الركائب باركة في حلقة اخرى حولنا تجتر قانعة مطمئنة ، وكانت السماء سافرة صافية الجبين فتلألأت كواكبها سروراً لتغيّب سيدها القمر ، فزاد الكلام كذلك في نور نهارنا . — الحطب يا ابراهيم . وكان ابراهيم معاون مسفر الاول في النفخ والطبخ جالساً عند ركمة من حطب العرفج والارطى ، فيمد يده وراءه ثم يبسطها فوق النار ، فتقهقه طرباً وتزداد تأججاً . وكان حمد العبد وهو يقلب في حضنه مقلاة البن ، وهذلول الذي اتخذ صحناً من النحاس دفاً ، وبداح وقد صفق كفاً على كف ينادون مسفراً ويحرضونه . — قم يا مسفر . اسفر يا مسَيْفر . وكان كوكب السمر قد دخل الخيمة فخرج منها والسيف يلمع بيمينه والخنجر بيسراه . فوثب وثبة ثم اخرى الى وسط الحلقة ، وطفق ينشد نشيد اهل العوجا اي اهل الرياض ، وهو ينتقل نقلة خفيفة بطيئة ، ويتلوى من وسطه الى اليمين والى اليسار كالثعبان .

تَارَا تَتَآتَه تتمُ تُم — تَارَا تَتَآتَه تَتمُ تُم
حنا اهل العوجا مروية السنين (نروي سنان الرماح)
عاداتنا سهَج العدو بنحورنا (ان نهجم على العدو ليلاً)

كان يقف عند كل بيت بينا حمد وهذلول يردان عليه بالنحاس ، وهو يهز السيف والخنجر هزة بطيئة خفيفة ، فيها ربَض الهول كأنه يتأهب للوثوب . ثم عند البيت الاخير يثب فوق النار وهو يصيح : لي لي لي لي لي لي ! فيجيب الربع حي على ! حي على ! وحمد وهذلول

يدقان على النحاس :

تَارَا َتتَآته َتتمُ ُتم — تَارَا َتتَا َته َتتمُ ُتم

وما هذا كله الا التمهيد لهوسة الاخوان : هبت هبوب الجنة اين انت يا باغيها .غيّر مسفر نقلة رجله زنة وسرعة،ورمي السيف والخنجر في الهواء ، فتناول الاول باليسرى والثاني باليمين . — حطب يا ابراهيم. كفّ يا اخوان .

هبت هبوب الجنه
تَارَا تَتَا َته تا ُتم ُتمْ
اين انت يا باغيها
َتارَا َتاتَه تا ُتم ُتمْ

لعب الهوس بالرجال ، ووثب الهول من النصال . — هبت هبوب الجنة ! فتغير الوزن من السريع الخفيف الى الاخف والاسرع حتى امسى كرقص الدراويش. فاغمد مسفر اذ ذاك الخنجر ونزع الغطرة والعقال عن رأسه ، فرمى بهما في النار ، فصاح الجميع : اين انت يا باغيها !

ثم اعتزوا مرددين : اهل التوحيد ، اهل التوحيد ! حتى خمدت النار ، وقد ذهل ابراهيم في هوسه عن وظيفته ، فكان الختام الدخان والظلام .

حطب يا ابراهيم . وكان الفصل الثاني فصل حكايات ، فقص هذلول خبر وقعة كانت له مع الجن في وادي الدواسر، فقتل منهم اثنين وجرح كثيرين . وقص مداح قصة غرام هو بطلها، وهو الفاسق الاكبر بشهادة نفسه ، فاخبرنا كيف اخبأته الحبيبة في الصندوق عندما عاد زوجها الى البيت وكان قد خامره منها الريب فسبها ، فسبته ،

فطلقها ، فشكرت الله ونادت الخادم حالاً ليحمل صندوقها وهي تبغي العزوبة — « فحمله وانا فيه ، والله بالله ، وهي وراءنا تضحك . » — وبعد ذلك يا بداح ؟ — لا تسل يا هذلول .

وحدثنا حمّود قال: كنت حاملاً كتاباً من الشيوخ الى امير عنيزة فنوخت في شعيب بوادي حنيفة لأتعشى . كنت وحدي وكانت الليلة مظلمة . عقلت الذلول، وجمعت الحطب ، وشببت النار، فسمعت في الحال صوت امرأة تولول وتصيح : احجب علينا حجب الله عليك فتلفت فعاينت تحت الشجرة وجهاً كالشمس ، وحياة الله ، وشعرها طويل واسود كالليل . ظهر الوجه في النور لمحة بصر واختفى . فعدت الى النار اشبها ، فعادت تصيح : لا تشب النار الله يجيرك من النار . احجب علينا استرنا . هي عروس الجن ، وقد كانت لطيفة كريمة ، فدنت من حمود وقبلته وهي ترجوه ان يسير في سبيله ويتركها وشأنها في ظلمات الليل . فاستجاب حمود طلبتها واسرى تلك الليلة كلها وهو يشكو من حرق في وجهه . — والله بالله يا استاذ حبتني (قبلتني) هنا وكان فمها كالجمرة . وحياة الله اقول الصدق .

ثم حدثنا مسفر فقص خبر غزوة من الغزوات التي كان فيها وختمها قائلا : والله ذبحت اربعة عشر منهم ابن طواله حي موجود . فضحك الربع وكانت ضحكة بداح طويلة مستنكرة وقرت في نفس مسفر ، فصاح وقد استل سكيناً من سكاكينه ! اسكت او اذبحك بالله . فقال بداح وهو لا يزال يضحك : مثلما ذبحت ابن طواله . فوثب مسفر فوق النار يبغي دم العجماني ، فصده هذلول وسكن روعه ثم أمر بداحاً ان يقدم له بيده فنجان القهوة .

جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم ، سالم الرزين السكوت ،

وليد حايل وربيب الامصار ، سالم الطواف الذي طاف في الحرب العظمى البلاد العربية كلها من اقصى الاقطار الى اقصاها ، من اليمن الى شرق الاردن ومن البصرة الى الشام . – هات حكايتك يا سالم .

والله يا استاذ ما عندي حكايات . عندي كمبيالة على الملك حسين بمئة وخمسين ليرة انكليزية ابيعك اياها بعشر روبيات .

– وكيف تقول ما عندك حكايات ؟ هـــات حكاية الكمبيالة .

فاخبرنا سالم انه كان جمّالاً في جيش الامير عبدالله يحمل الماء عندمـــا زحف بعد الهدنة من المدينة على ترَبة . وعندما وصلوا اليها ودخلهـا الامير صباح ذاك اليوم منتصراً ، سأل سالم سموه ان يأمر بالاجازة والحساب لانه يبغي الرجوع الى بيته وعياله . فاعطاه الامير حوالة على جلالة الملك ابيه بحسابه اي بمئة وخمسين ليرة فأخذ الحوالة سالم وراح ينحر الطائف ليزور صاحباً له فيها. فاعترضه بداح يصلح الكلمة فأنثها. هي صويحبة يا استاذ . انا اعرفهـا . لم يأبه له سالم فاستمر في قصته • اقام بضعة ايام في الطائف ثم نزل الى مكة. وكان ان الاخوان انتصروا على الامير ليلة يوم النصر ، وافنوا جيشه كما هو معلوم ، وحمل النجاب خبر النكبة الى جلالة الملك. فلما وصل سالم يحمل الحوالة قال له صاحب الجلالة : الله يعوض عليك وعلينا يا ابني ، خسرنا كل شيء .

انتصف الليل ونحن لا نزال في فصل الحكايات ، والابل حولنـا لا تزال تجتر قانعة مطمئنة ، وسالم يعمل القهوة ثم الشاي ، الابريق تلو الابريق ، فأرقنا وما مللنا ، ولا كنا من القانتين . ثم نهضنا باكراً قبل الفجر الكاذب وكنت اول من سمع هذلولاً ينادي على عادته . قوموا – قوموا صلوا . بدّاح ، سالم ، حمود ، مبارك ، جعيثن ، قوموا قوموا صلوا ... اذّن يا مِسْفِر •

ــ الله اكبر . الله اكبر ... حيوا على الصلاة ... الصلاة خير من النوم .

ثم تقهوننا وسرنا في سحر برده شديد يخرق العظم ، فانخنا بعد ساعة لنشب النار وندفىء ارجلنا ، وكنت انا في جزمتي اسرع منهم ، وهم في النعال شبه حفاة الى ذلك. لا اظن في البلاد العربية من قوم اصبر على الشدة واثبت في المشقات من اهل نجد .

استأنفنا السير وهذلول اميرنا وامامنا يعلمنا دين التوحيد . ــ يجب على كل مسلم ان يكون عالمـــاً بثلاثة اصول . اولاً : ان الله خلقنا ورزقنا وهدانا برسول ارسله الينا . فمن اطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار . واستدل على ذلك بقوله تعـــالى ــ وذكر الآية . ثانياً : ان الله لا يرضى ان نشرك معه في عبادته احداً لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى ــ ذكر الآية . ثالثـاً : ان من اطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له مـوالاة من حـادّ الله ورسوله . وذكر الاية دليلاً على ذلك . فاذا قيل لك ما الاصول الثلاثة ؟ فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم . واذا قيـل لك من ربك؟ فقل ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين وهو معبودي ليس لي معبود سواه . واذا قيـل لك بمَ عرفت ربك ؟ فقل بآياته ومخلوقاته . ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . ثم سأل بداحاً . ما هي اركان الاسلام ؟ فاجاب بدّاح البجاح : اني اعرفها يا هذلول . اذكرها انت فارددها . فقال هـذلول الطيب القلب الورع التقي : اركان الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله . فنشأ بداح يعد فقال : واحد . واقامة الصلاة . ــ اثنين وايفاء الزكاة . ــ ثلاثة . وصوم رمضان ــ اربعة . وحج بيت الله الحرام . ــ تمام ،

تعرفها والله .

ثم قال بداح : وانا اسألك اتعرف آية العيون ? فاجابه الامير : وما هي ? فنطق بداح بالاية التي كنت قد سمعتها مراراً من فيه ولا اظنه يعرف سواها . ـ كل عين باكية يوم الحشر الا ثلاثـــاً . عيناً صدت عن محارم الله ،وعيناً دمعت من خشية الله ، وعيناً باتت تحرس في سبيل الله .

ـ علمتني يا عجماني . جزاك الله خيراً . وما هي شروط الصلاة ?

ـ اعرفها . اولها الاسلام .

ـ الاسلام . وثانيها ?

كملها يا لأمام فاجاب هذلول : الاسلام والعقل والتمييز ـ وكان بداح يرددها وراءه ـ ورفع الحدث ، وازالة النجاسة ، وستر العورة، ودخول الوقت ، واستقبال القبلة ، والنية . فشكره بداح ثم قـال : وما هي شروط الوضوء ?

ـ غسل الوجه ومنـه المضمضة والاستنشاق ، وغسل اليدين الى المرفقين ، وغسل الرجلين الى الكعبين ... الخ . ثم قـال : وما هي نواقص الوضوء ? فاجـــاب العجماني : انا اعرفهـا . علمها للربع يا لأمام . فنشأ هذلول يعددها . هي ثمانيـة : الخارج من السبيلين ، والخارج الفاحش النجس من الجسد ، وزوال العقـــل ، ومس المرأة بشهوة ، ومس الفرج باليد ، واكل لحـم الجزور ، وتغسيل الميت ، والردة عن الاسلام اعاذنا الله منها . ـ والله يا هذلول الشرط الرابـع ينقض وضوئي دائماً . قل لنا ما هي اركان الايمان ?

ـ اركان الايمان يا بداح ستة . ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . والايمان يا بداح هو

بضع وسبعون شعبة ، اعلاها قول لا إله الا الله وادناهـا اماطـة الاذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان .

هذه الشعبة من الايمان لا يعرفها بداح . الحياء عدو له .

الصوت الذي نطق بهذه الكلمة صوت مسفر .

فقال بداح : صدقت يا مسيفر السدوسي . ولكن عنـدي اول الايمان واخره ، اعلاه وادناه . ولولا حرمة الاستاذ لبرهنت لك اني مؤمن فازيلك ، يا شر الاذى ، عن الطريق .

– بر ر ر ر والله بالله ! واستـل مسفر خنجره وساق بعيره على بداح . فوكز هذلول ذلوله وكرّ فاستوى بين الاثنين .

– وهل هذا من الايمان ؟ الله يغربلك يا مسفر . سلط الله عليك يا بداح .

– ومتى كان ابن العجمان يشتم ابن الدواسر ؟

– انا اؤدب العجماني . دونك والحملة . امش . فراح مسفر يبربر ويسب العجمان . فخاطبني بداح قائلًا : مسفر لا يحب النكتة . وحنّا نحب نغيظه لنسليك .

الحَفَر

الباطن — « ديرة » بني هلال — الحفر وآباره حروب القبائل — من يحمي الماء — سائح يرقص عند وصوله الى الحفر وسائح يبكي — الرياح الاربع تحترب في الحفر — جاء مسفر بقدر من الماء يقول : تبغي تسبح ؟ — التراب في الماء وفي الطبخ — هربنا من الحفر فلحقت بنا الرياح — زهرة تبشر برجوع الحياة — والورقاء والخطاف لا يكذبان — قصة ام سالم والاعرابي — البدو يستطلعون « علومنا » — « وايش لون خد الشعيب ؟» — الدبدبة — اربعة ايام طيبة ثم الحمى —نشرف على البحر — الجهرة — ريح الشمال وهبوب الجنة—العاصفة— الصلاة والعشاء في الخيمة — الادلاج في ضوء القمر — الربع يلبسون ثيابهم الجديدة —شيء شمر هذلول ـ الوداع ؟

بعد ان خرجنا من الدهناء دخلنا في الباطن وهو القسم الشرقي الشمالي من وادي الرمة ،وفيه كما يقول اهل نجد ديرة بني هـلال . ها هنا كانت قديماً منازلهم ، وهـا هنا اماكن حروبهم . ولكنه لم يبق من المنازل حتى ما شبهه الشاعر ببـاقي الوشم في ظاهر اليد . لم يبق ظل من الديرة فوق الارض . اما تحتها فالاباار العميقة ، المطويـة بالحجارة ،والمحفورة في الصخور ، تـــدل على همة في اولئك الاقوام عالية . ولا يزال في هذه القلبان ما لم يقوَ عليه من الاقدار غير غضب الامطار . فقد تحولت من الوادي المياه ،وجفت منذ قرون قلبان بني هلال ، فكانت الطبيعة عوناً لهم اذا اجهزت على من تبقى منهم وهم يتفانون في الحروب . حتى النبات هجر المكان فقلما تجد في الارض التي رويت بدمائهم غير تلك الدالية التي تدب وتنساب كالحية وتثمر ثمراً شبيهاً بالليمون . هو الحنظل بمثل ُمرْ القضاء في « ديرة » الفناء .

في الباطن بعض الرمث ايضاً وهـو – في القاموس – مرعى للابل من الحمض . غير ان الابل لا تدنو منه الا اذا كانت في ارض فيها ماء لانه يولد الظمأ ، وهي لا ترعاه الا قليلاً . قال بداح : الرمث للبُل مثل السكر للانسان – يطلب الماء ولكنه للنار زين. ومع ذلك فان ناقة المتنبي فضلت دخان العنبر على دخانه .

تركتُ دخان الرمث في اوطانها طلباً لقوم يوقدون العنبرا

ترى الباطن يضيق في اماكن فلا يتجاوز خمسة عشر ذراعاً ، والى جانبيه جدار عالٍ من الطبقتين الرملية والكلسية . هـوذا عقيق للنهر الذي كان يجري في وادي الرُّمـة . وقيل انه لا يزال يجري ويفيض مرة واحدة كل اربعين او خمسين سنة .

عندمـا نصل الى مكان يدعى ام الهشيم يأخـذ الوادي بالاتساع فتزول تدريجاً جوانبه ، فلا يبقى حولنا وامامنا غير رحب القفر ومـا في فراغه وامتداده من دواعي الغم ،بل من الهول . ان النفس لتنقبض من عقمه العميم ، فتنقلب العين عنه خاسئة . هو القفر السبسب بالذات، لا حد له ولا ظل فيه . وليس في هذه الكلمات ظل من المبالغة .

ان فيه مع ذلك النعيم المنتظر. هو القفر المختبيء في تضاعيفه ، ووراء آفاقه ، الحفر – الحفر ، الماء ، النعيم ! وكنا نعيد انفسنا بواحة مع الماء ورياحين ، بنخيل وظلال طيبة . فوا اسفـاه ! ان الحفَر حفرة دفنت فيها كل امالنا واحلامنا . هو القفر السبسب يقيناً ، تربة رملية ولكنها سوداء ، لا ظل فيها ولا ورقة عشب خضراء او يابسة . وانه ليحزن الفلاح خصوصاً اذا علم بان هذه الارض حول الابار على مسير ساعة في الجهات الاربع هي سوداء من السماد فيها لكثرة ورود المواشي على مائها. الماء والسماد والتربة الطيبة ، ولا وريقة خضراء فيها .لمَ ذلك ؟ ان

الحفَر ايها القارىء العزيز ميدانٌ اقتتلت وتفانت فيه القبائل . فكان يوماً في يد الضفير ، ويوماً في يد شمّر ، وتارة في حوزة ابن الصباح ، وطوراً تحت امرة ابن الرشيد . كم وقعة ها هنا ، حول هذا المـــاء ، روت التربة الطيبة بدم ربيعة ومضر، روّتها بدم ابنائك يا عدنان ، فلا تنبت اليوم حتى الحنظل ، ولا تظلل حتى الجندب .

في الحفر ثماني ابار كلها متهدمة الجوانب . ولا عدة لرفع المـاء الا فوق اثنتين منها فمن يرد الماء وليس معه حبل ولا اناء يعود منه ظمآن، الا اذا وجد هناك من يعيره حبلاً وقربة . قـــد تكون الحروب في الماضي اوجبت هذا الاهمال بل هذا الظلم . الماء لي اليوم وقـد يكون غداً لعدوي ، فلا اصلحه واجهزه بمـا قد يكون فيه هلاكي وهلاك عشيرتي . انما هي عاطفة البدو وقاعدتهم في الحياة . وهم لا يدركون من سر التعاون والتضامن غير الغزو ثم الغنائم .

اما اليوم وسيادة سلطان نجد تمتد الى الحفر وما دونه شرقاً وشمالاً ؛ والامن والسلام سائدان فيبلاده كلها، والبدو بعنايته الابوية آخذون بالتحضر ، والارطاوية اكبر الهُجَر واهمها هي على يومين جنوباً من هذا المكان،ومَطيرفيها تستطيع حماية الماءوالمحافظة عليه،فمن العار اذن ان يبقى الحفر كما كان ايام الضفير وشمّر ، في حروب القبائل والامراء.

قال بداح : المستر فلبي [١] عندما وصلنا الى الحفر راح يرقص من شدة الفرح .

ولا عجب اذا كان كل من سافر في هذه الطريق من القصيم الى الكويت ، فقطع النفود والدهناء ، يبتهج ويرقص عندما يصل الى هذا

«١» هو جان فلبي مؤلف كتاب « قلب البـــلاد العربية » ومستشار حكومة شرقي الاردن سابقاً .

الماء . لا عجب اذا كان الرحالة على الخصوص اجنبياً لا ناقة له في البلاد ولا جمل . ومع اني احق من المستر فلبي بالرقص ، اذ قد نجوت من خطرين ، خطر الطريق وخطر الحمى في الطريق ، فقد كاد قلبي يتفطر من شدة الحزن عندما انخنا في الحفر .

احتللناه يوماً واحداً فشاركتنا في الاحتلال الرياح الاربع . وقد قيل لي ان اثنتين منها في الاقل وكلها غالباً تحتل هذا المكان على الدوام . ذلك لان آفاقه مكشوفة مبسوطة كآفاق البحر . فتجيئه الشمال مدرهمة ، والجنوب غائرة ، والشرقية صافرة ، والغربية مصفقة مولولة ، فتلتقي كلها وتحترب في ذا المكان . دخلت خيمتي ، واقفلت الباب وجلست استمع دوي المعركة ، فاحسست غير مرة ان بيت يومي واقع لا محالة على رأسي .

جاءني مسفر بعد الظهر يسألني اذا كنت ابغي ان اسبح . فظننته يمزح وقلت ضاحكا : نعم . ثم انتبهت الى الجد في امره لانهم في نجد يعبرون عن الحمام بالسباحة . فجاء بعد ساعة بالمرجل الذي يطبخ فيه وقد ملأه ماءً حاراً . فقلت : بارك الله فيك يا مسفر . سنسبح في القدر . فقال مستدركا وهو جاد في كل امره . قد غسلته بالرمل ثم بالماء الحار .

ثم بعد نصف ساعة عاد يحمل في صحن من النحاس الجمر وعود الند وهو يقول : تطيب . ثم مد يده الى عبه واخرج كنزه الاكبر المرآة . وساعدني في لبس الجزمة ، واحكام العقال ، وخرج من الخيمة يقول للربع : باركوا للاستاذ بالسباحة . فقال هذلول فرددت كلماته : نعيم دائم ان شاءالله . وقالت الرياح : ستأكل عشاك مطبوخاً بالتراب .

صدقت الرياح . فكيف يستطيع مسفر او غيره من الطهاة العظام ان يرد عن القدر التراب ما دامت الاربعـــة الاهوية تثيره وتغريه على

الدوام ؟ وكيف يستطيع بداح ومبارك وجعيثن او غيرهم من العربان الاقوياء الاخفاء ان يرفعوا المـــاء ليملأوا القرب والاروية دون ان تعترضهم الرياح فتبعدهم مراراً عن القليب وتخلط حتى بمائنا التراب ؟ ولكن ماء الحفر، وان كان ذا لون ، فـلا رائحة ولا طعم له . حمدنا الله على ذلك وسرحنا باكراً كما مرحنا تحت قسطل من العجاج وبـين امـواج من دوي الاهوية تصم . اني اذكر الآن اننا كنا وقتئذ في اخر شهر شباط ، فيما يسمى بلبنان المستقرضات .

قلت سرحنا ولو كان في الامكان لرحنا غارة من ذاك المكان نبغي السكينة والاطمئنان في الشعبان ولكن الركائب نفسها كانت تمشي كأنها مصعدة في النفود ، فتلوي الرقاب وتصك الركاب ، من شدة صدمات العدو المحيق بنا . وعندما انخنا للمضحّى كانت لا تزال سرياته تعج حولنا وتثج ، فاخذ كل منا شيئاً من الخبز والطعام بيده، وجلس على الرمل فرفع العباءة على رأسه كالخيمة وشد اطرافها تحت رجليه .

كذلك جلست . وكان الرمل مع ذلـــك يسبق اللقمة الى فمي . وجاءت الحمى في ذاك اليوم العصيب تجهز علي لولا رحمـة الله . على ان الرياح هدأت في اليوم التالي وكنا قد بعدنا عن الحفر.عن القفر اليباب والموت ، فلاح في الارض حولنا شيء من الحياة . هي ذي الرَوْثة ، روثة العام المـاضي وهي شبيهة بالرمث الا ان الحموضة قليلة فيها فتقبل عليها الابل. وهوذا نبت اخضر ، من طلائع الحيا في هذا العام ، ولكنه ليس من الحيا بشيء ، لان الانعام لا تدنو منه . اما مرآه فقرت بـه العين وانتعش منه الفؤاد. قيل لي انه يدعى بُعيثرَان وهو شبيه بالشمّر ، زهره اصفر ، ورائحته قارصة .

وهاك في الجو جناحاً صغيراً يسف فيؤنس ، ويزلج امام الهواء

كأنه ورقة خضراء سوداء، جناحاً اسود فيه اخضرار يرفرف حولنا فيبشرنا بالحياة، ثم ينسل في وهج من خيوط الشمس. هو الخطّاف الذى يسميه اهل نجد الرقَيْعي. وجاءت معه الورقاء — أم سالم — تتيّم زهر البعيثران وتجر تيهاً ذيلها، ذنبها الطويل على الرمل. قال الاعرابي وقد عرّفه رفيقه الى ام سالم: اي بالله واين هو ابو سالم؟ فاشار الرفيق الى الخطاف فقال: وابيك حتى في الطيور تهوى البيض العبيد. وايش قولك ياسالم؟ اولاد العبيد منا كيد.

وكان الخد، كما يقال في نجد، اي وجه الارض، يتغير كلما بعدنا عن الحفر، فتكثر المفالي[1] ويكثر البدو، وقد خرجوا بمواشيهم ينتجعون فيلاقوننا ليستطلعوا اخبارنا ويسألوا عن المرعى في الارض التي مررنا بها. كان الاعرابي يرانا، وهو على مسير نصف ساعة منا فيركض حتى يلحق بنا. واذا تعب يوميء بردنه او بطرف قميصه ان قفوا فنقف امتثالا لامر هذلول.

— السلام عليكم يالاخوان حي الله المسلمين. وتسايف انت؟ وتسايف حالك؟ الله يزين حالك... وابو تركي[2] تسايف حاله؟.. وايش علومكم (اخباركم)؟ وايش لون خد الشعيب (اي ما هو لون المرعى في الشعب الذي مررتم به)؟

في اليوم الثاني بعد سفرنا من الحفر خرجنا من الباطن اي وادي

(١) الارض التي فيها مرعى. ومن كلمات البدو اذا نزل المطر: اللهم اجعلها في مفالي ارتسابنا ولا تبل ثيابنا. اي اجعل المطر في الاماكن التي هي مرعى لركائبنا ولا تجعله علينا فتبل ثيابنا. والبدو مثل السياسيين يبغون النعمة دائماً صافية ومقيدة بشروط.

(٢) تركي بكر السلطان عبد العزيز وقد توفي في الوافدة الاسبنيولية بعيدالحرب.

الرِّمة عند مكان يدعى الرقعي ، وسرنا جنوباً بشرق نازلين الى الدِبْدِبّة ، فوصلنا اليها بعد ان اجتزنا بضعة تلال او شعبان ضل فيها الدليل المطيري . وقد كان في ضلاله مشكوراً لانه اقصر بدل ان يطيل الطريق .

الدبدبة سهل فسيح لا يقل عن العشرين الف ميل مربع ، يمتد شرقاً بجنوب وشمال من وادي الرمة ، فيحده غرباً الحفر وشرقاً الشق وتشطره الدرجة الثانية والعشرون من العرض الشمالي . قد كانت الدبدبة ولا تزال تابعة لمن يملك الحفر الا ان قسماً صغيراً منها دخل اليوم في حدود العراق .

والدبدبة كثيرة المفالي ، مخضرة الجوانب ، رقيقة الاديم ، منبسطة الارجاء . تمحي غالباً اثر الطريق فيها فيسير من كان ناحراً الكويت وظله امامه او وراءه ، واذا اسرى فبرج الجدي الدليل الذي لا يضل . وفي الدبدبة من القنص الحبارى والقطا والأرانب والغزلان . على ان الماء قليل ، وهو غير موجود في الطريقين من الحفر الى الكويت . اي الطريق الشرقية في خط مستقيم الى خبرة الدويش وطولها مئة ميل والطريق التي اتخذناها الى الجهرة شمالاً وهي مئة واربعون ميلاً .

ومع ذلك فقد ظفرنا في الدبدبة باربعة ايام طيبة سرنا فيها سير الهون اكراماً للركائب ولانفسنا . وقد كان لنا ما كان لها من الخير واللذة في تغيير الهواء والمناظر والمرعى ! فالابل تستلذ العرفج والارطي الخضراء وكانت في الدبدبة وافرة من نعمة الله . ونحن نستلذ الحبارى والكمأ ، وكان مبارك وجعيثن يقنصان بينما ابراهيم ومسفر وحمود يبحثون في الارض فيجيئوننا كلهم في المساء

بخضار تنـدر حتى في باريس ولندن ، الا اذا بُـذل في سبيلها كثير من المال . لا اظن ان في الشمال كمأة تفوق خصباً ولذة كمأة الدبدبة اربعة ايام طيبة ، ثم الحمى !

لله ما ابلدك وما احمقك ، ايتها العجوز البصرية ، اذا كنت تظنين انك تجيئين في اليوم الخامس لتفسدي علينـــا هذه الاربعة المباركة فتنسينا حسنات الدبدبة كلها . جئتِ لا اكرم الله مسواك ، ونزلت ضيفاً علينا ، فأكلت ما تبقى عندي من الكينا وملح الاثمار ، وعدت بخفي حنين . العفو ، يا حنين . هي اول مرة في حياتي الجأ الى خفيك لاطرد بهما عجوزاً شمطـاء . ولو لم تكن عربية الاصل ومن البصرة ، هذه الحمى ، ولو لم اكن الآن في البلاد العربية لما ازعجتك يـا حنين ، ولما اتخذت لغرضي نعلك القديم الجليل .

راحت المسكينة تعرج ، ونهضنا في اليوم السادس بعد نصف الليل منشطين ، فأسرينا في ضوء القمر لنصل الى الجهره صباحاً . وما ابهجها ساعة اطللنا فيها على البحر ! البحر بعد اربعة اشهر في قلب البلاد العربية ، ما اجمله وجهاً وما اكرمه يداً . وما ابلغه رمزاً . القفار ابعدتني عن العالم والبحر يعيدني اليـــه . القفار قربتني من الله ، والبحر يقربني من الاهل والخلان . وانه ليلذ لي ، وانا من الناس ، ما يلذ لعامة الناس . فلا اكتم القارىء ان العشرة الالهية الدائمة تضايق من لم ينتصر ولا حاول مرة ان ينتصر على الجسد . انني اعجب بالقديسين انطونيوس الكبير وسمعان العمودي . ولكني بعد اشهر اقمتها في ظله تعالى ، واحسست مرة ان الظل تجسم قدامي على ظهر الذلول ليساعدني على الحمى ، بعـد هذه الاشهر المباركة ابغي الرجوع الى ما فيه شيء من الحب البسيط الفاني ، ابغي الرجوع الى توافه المدنية ومبتذلات الحياة البشرية .

الجهرة بلدة عند جبل الزور على ساعد من الخليج يمتد غربـــاً من الجون وراء مدينة الكويت ، والمسافة بينهما وبين العاصمة لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً . وهي مشهورة بكثرة ابارهـــا ، وبقصر فيها لشيخ الكويت ، وبتلك الوقعة بين اهلها والاخوان التي سيجيء ذكرها .

انخنا خارج السور على كثيب من الرمل وارسلنا بداحاً بكتاب الى سمو الشيخ احمد الجابر ال الصباح نعلمه بوصولنا ونستأذنه بالدخول الى المدينة . كنت قد كتبت اليه من الرياض وجاءني منه الجواب مرحباً بي . ولكن هذلولاً ، وهو ولي الامر ، حريص على الرسميـــات فلا يدخل مدينة قبل ان يسبق منه علم بذلك الى اميرها .

ما كدنا ننصب الخيام حتى جاء بعض افاضل الجهرة وفي مقدمتهم امير القصر يزوروننا ويدعوننا للقهوة في بيوتهم . فذكرونا باهل القصيم في ترحيبهم بالغريب . قضينا بضع ساعات من ذلك اليوم نشرب القهوة والشاي ونسمع ما يتسرب من العاصمة الى هذه القرية من اخبار العالم . على ان اهلها يهتمون لما في البـــادية ، على ما ظهر لي ، ولأخبار نجد والاخوان اكثر من سواها . اخبروني ان الجهرة مجلبة للرياح مثل الحفر ، وان الهبوب التي مهبها الشمال مسلطة عليها . على انهم لا يخافونها بقدر ما يخافون « هبوب الجنة » التي مهبّها الجنوب .

وانا اكره الهبوب سواء أكانت جنوبية ام شمالية ، فشكرت الله ان مسرحها في الجهرة يوم نزلنـــا فيها كان خالياً هادئاً . شكرت الله . وبينا كنت عـــائداً من البلدة رددت اية الحمد فسمعني هذلول فقال : الحمدلله في كل حال ولكن هذا المهب [1] .

لم أرَ له اثراً حيث كنا ، غير انه كان يجمع جيوشه فوق جبل

(١) هم يعبرون عن الهبوب او الريح المثيرة للغبار بالمهب .

الزور ودونه في الافق الغربي . وكانت طلائعه كالغيوم السود الماطرة وحركتها ظاهراً بطيئة .

اسرعنا الى المناخ فالفينا الربع حول نار سالم يشربون القهوة ويتحادثون وهم لاهون عما هو حادث هناك . فصاح بهم هذلول وامرهم بان يرفعوا الشراع ويطووه ويوطدوا اوتاد الخيمة خيمتي . فما كادوا يتممون العمل حتى وصلت الينا سريات هبوب الشمال .

امر الامير الخدم بان يرزموا العفش ويتأهبوا للرحيل . ولكن سريات من الغرب والجنوب احاطت بهم فاوقفتهم ، وشتتتهم ،وكادت تذهب بقمصانهم . لجأوا الى الجهة الشرقية من الخيمة فهوت وكادت تقع عليهم .

– اقضبوا [1] الحبال حمود وحمد وجعثين اقضبوا الحبال ولا تبرحوا الخيمة . مكانكم .

فتمسك الثلاثة بحبالها والرياح من النواحي الثلاث تذري الرمال عليها وعليهم .

وكانت ساعة المغرب والعشاء والصلاة . الصلاة اولاً . وكيف يصلون ، وهم اذا استقبلوا القبلة يستقبلون الهبوب – هبوباً ولا « هبوب الجنة » .

دعوتهم الى الخيمة فدخلوا كلهم الا الثلاثة القابضين على الاطناب فاذّن مسفر ثم صلوا ، وصليت معهم وانا جالس على السرير . أوّلا يخلق بي ، وهي اخر ليلة مع « خوياي » ان اشاركهم في الصلاة وفي العشاء .

جاء مسفر وابراهيم يحملان المرجل الكبير الى الخيمة فرفعا الغطاء،

(١) قضب لغة نجد في قبض .

فاذا على وجهه قطيفة من الرمل ، فكشطها مسفر بالمغرفة وصب ما فيه من الارز واللحم . فحرنا الزاد ونحن جـالسون القرفصاء . ولكن الرياح وهي تصفر وتنفخ من خلال فرَج الخيمة ومن تحتها كانت تسابقنا اليه ، فيجيء الرمل ، في كل سفة من الارز كالبذر في الصبير . وما كنت تسمع مقطعاً او حرفاً واحداً من الشكوى الا اذا كانت باطناً مني . بيد اني كظمت وتجلدت خجلاً من ابطال نجد ، وشكرت الله معهم على عشاء من الارز والرمل .

بتنا كلنا في الخيمة نقص القصص ، والرجال يتناوبون حراستها ، والرياح تولول حولها وتحاول عبثاً اقتلاعها . كنت قد سألت هذلولاً غير مرة ان يملي علي شيئاً من شعره فأبى اتضاعاً ، فألححت عليه — هي آخر ليالينا يا هذلول — فاكرَمني .

وكان قد انتصف الليل فطلع القمر وسكنت الرياح . فقمنا نتأهب للرحيل . أسرينا من الجهرة مكرهين ، وبعد ساعتين انخنا ليتم الربع عملاً لا بد منه . يجب ان يغيروا ثياب السفر قبل ان يدخلوا الكويت .

شببنا النار وفرشنا بعض الفرش فحاولت ان انام ساعة بينـا « خوياي » يلبسون اثوابهم الرسمية ويزينون انفسهم . ولكني وجدت شرب القهوة ورعي النجوم اسهل من النوم .

لبس كل من الربع الكسوة الجديدة التي انعم بهـا السلطان عبد العزيز قبل السفر من الرياض . ولبس هذلول ورجاله النجاد بالجلد فوقها وتمنطقوا بمناطق الفشق ، واخرجوا البنادق من بيوتها ، والغطرات الجديـــدة من الاخراج . وكانت مرآة مسفر الصغيرة تقوم فضل القمر بواجبها ، فتداولتها الايدي وبسمت لها الوجوه .

وكنت انا ، ويا للعجب من امري ، اسيرَ اكتئابٍ حاولت ان

اظهر عليه او اخفيه . قد ادركت وتيقنت اننا في المرحلة الاخيرة بل في الساعة الاخيرة من رحلتنا . وكم مرة وددت النهاية وتقت وحننت اليها . على انه في تلك الساعة ، وانا مــــدرك ان القمر لا يطلع مرة اخرى علينا ، علي وعلى هؤلاء الاخـوان الحقيقيين المحبين المخلصين ، في تلك الساعة ، ساعة الفراق اعتراني الغم وددت من الزمان يوماً اخر نسير فيه الى واحة من الواحات ، وليلة اخرى نسمر فيها حول نار سالم ، فيرقص مسفر رقصة الاخوان ، ويطعم ابراهيم النار الى ان يتخلل دخانها خيوط الشمس الذهبية .

« حنّا اهل العوجا – مروية السنين »

ولكن شعر هذلول النبطي الذي املاه علي منذ ساعة — وستظل بالرغم من الايام والليالي منذ ساعة ـ لا يزال يرن في الاذن والفؤاد . وما احسن اختيارك ايها الدوسري الكريم ، وما اجمل العاطفة في تلك الابيات التي بعثت بها الى احد خلانك فهي تنطق بلسان حالي اذا ما ذكرتك وذكرت « خويانا » كلهم اجمعين .

يا علي يوم السبت ونـّيت ونـّه (انّ وحن)
يوم ارتحلتوا فوق عوص النجايب (الهجن الحرة)
يا ليتني معكم على كوارهنّ (اكوارهن)
مع ربعي اللي هرجهم لي عجايب (حديثهم)
بالله يا خلاق نارٍ وجنه
نسألك يا منشيء صفوف السحايب (الغيوم التي تجود بالامطار)
تسيّر يمام الدين لديارهن
حتى نشوف صويحبي والحبايب
صويحبي اللي مني وانا كنت منـّه

عبد العزيز آل سعود

منساه (لا انساه) لو رزّت علي النصايب (حجارة القبر)

ادلجنا من ذاك المكان . وما هي الا ساعة حتى انبلج الفجر وبانت من وراء حجابه الفضي الشفاف مدينة الكويت .

احمد الجابر آل الصباح



سمو الشيخ احمد الجابر آل الصباح

الـكويت

حدودها : شرقاً خليج العجم . شمالاً وغرباً وجنوباً خط يبتدىء عند ملتقى الخطين الثلاثين من العرض الشمالي والثامن والاربعين من الطول الشرقي فيمتد في شكـــل نصف دائرة ويمر بالشق غرباً والشُقيق جنوباً وبين جبلي بُرقان والقَرين الى رأس القَليّة على الخليج . اما منطقة الحياد بين الكويت ونجد فهي من رأس القلية الى خـــبرة الدويش ومنها في خط يمتد جنوباً بشرق الى قرب الخط الثامن والاربعين من الطول الشرقي ومن هذه النقطـة الى عين العبد فرأس المشعاب على الخليج .

مساحتها : اربعة الاف ميل مربع .

عدد سكانها: نحو مئة وعشرين الف نفس منهم ثمانون الفاً في مدينـة الكويت والباقي من العشائر خارجها .

اهم مدنها : الجهرة وجزيرة فيلكه والدمنه والغنطاس وابو حليفـة والشعَيبة . وفي برها اماكن باسماء معروفة كالوَبرة عند الحدود الشمالية والصبَيْحيّة في الجنوب وخـــبرة وام الرؤوس وغيرها . وهذه كلها اماكن مياه يرتادهـا عرب العشائر .

مذاهبها : اهمها السنة ثم الشيعة ، وقليـــل من الفرس والمسيحيين واليهود .

في الكويت

القافلة في البادية ـ اهمية الانسان في القفار ـ وهم لذيذ ـ دهشة الذ ـ العود الى البصرة ـ الصالحية جنة ـ السماط والسف ـ الكمال غاية الحياة القصوى ـ فشلت في الفحص ـ عدت من نجد استاذاً ـ سور الكويت ـ المقابلة الملكية في الفلاة ـ سمو الشيخ احمد الصباح ـ القصر والنتنة فيه ـ مفاجآت الترف ـ البقولات ـ بندورة الكويت ـ الاجادة لدى السماط والشهادة ـ كرسي فيه الكفر بالله ـ جحيم يتبع النعيم ـ الهواء الاصفر ـ طبيب من بيروت ـ خبر الشيخ خزعل والعافية .

كنت قد عاهدت « خوياي » ان ادخل واياهم الى الكويت راكباً الذلول ، ولكننا قبل ان نصل الى المدينة رأينا سيارة قادمة منها فوقفت اذ دنت منا ، فقال هذلول يخاطبني : من الشيخ احمد . نوخ ، نوخ .

أنخت آسفاً لاني ادركت في الحال ان لا بد من ركوب السيارة فأخلف بوعدي ، وأحرم لذة كنت أعلل النفس بها . ليست القافلة في البادية غير قافلة مهما كان عددها ، وليس الراكب فيها اياً كان غير واحد من المسافرين . لا اهمية للانسان والحيوان في القفار . او ان لاثنين واحد في فسيح مهالكها .

ولكن القافلة ساعة تدنو من العمران ، من الحضارة ، تتغير في نفسيتها فيعظم شأنها ، فتدخل بوابة السور وقد اختلط في قلبها الكِبر والسرور ، وتسير في اسواق المدينة كأنها موكب من مواكب

النصر والفخار ، و كأن كل واحد من الركب امير على عرشه العـــالي او قائد عائد من ساحة الوغى . هو وهم في عجب ولا مراء . ولكنه وهم جميل كان يستوقف العقل مني كل مرة نصل الى مدينة كما تستوقف العين صورة جميــلة . بل كان يلذ لي ولا غرو اكثر من سواي لاني حديث العهد به .

لذلك اسفت عندما انخت ذلولي خارج الكويت . ولكني دهشت وسررت ، فنسيت ما كنت اعلل به النفس ، اذ رأيت صديقي القديم يوسف السالم جلبي آل بدر ومعه الشيخ عبدالله خليفه آل الصباح ، و قد جاءا من قبل سمو الشيخ احمد يحملان اليّ كتاب السلام والترحيب .

كان آخر عهدي بيوسف جلبي في البصرة عنــد صديقنا الاديب الفاضل الشيخ محمد امين عالي باش اعيان العباسي يوم أدب لنـا مأدبة فاخرة في بيته « الصالحية » على نهر الصالحية هنـــاك . فقلت متصرفاً بالبيت المأثور :

والصـــالحية جنـــة والصالحون اليها أمّوا [1]

كنا يومئذ عشرين ونيفاً من الصالحين ــ الصالحين للنزال والطعان وكان يوسف قد شحذ سلاحــه جالساً الى جنبي يسفُّ الارز سفـاً عجيباً . وانا الطالب في هذه الطريقة اعجب به واتمنى ان يكون لي جزء مما له من المهارة والاقتدار . سألته عما اذا كنت استحق الشهادة في السف البسيط وهو ان تأخـذ شيئاً من الارز فتعجنه بين اصابعك وتدفعه بالابهام الى فمك . فاستعرض سفّي ثم قال : لا يزال ينقصك شيء من العلم والاتقان . عينك . قال هذا ومد يده الى الارز فادارها

(١) – استغفرك يا سيدي الاستاذ اني اعلم ان أم تتعدى بذاتها ولكن النكتة الشعرية تعتذر « اليها » .

فيه . كأنه يحـــدد دائرة هي ملكه ، وقبض على كتلة منـــه كبيرة قد ملكها ، ثم رفعها وجعلها ، وهو يعصر منهـــا السمن ، اكرة متماسكة شديدة فقذف بها اذ ذاك الى فمه دون ان يسقط منها او يتبقى بين انامله حبة واحدة فقلت : سبحان الله الذي جعل الكمال غاية الحياة القصوى . فلا شيء اجمل في الحياة من كمال في صناعة او في فن .

قلت ليوسف جلبي ، بعد ان شاهدت منه هذه البراعة ، اني مسافر الى نجد فاتمرن هنـاك ، وسأعود ان شاء الله اليه ليعطيني الشهـادة . وما كان في الحسبان ان ستجمعنا التقادير ثانية ، فتصير النكتة بعد اربعة اشهر حقيقة مضحكة . قال يوسف ونحن سائرون في السيارة نعيد تلك الذكرى : سنفحصك اليوم في القصر ونعطيـك الشهـادة باذن الله .

اول ما يسترعي النظر في الكويت اذ يصل المسافر من البر اليها ذلك السور الكبير الذي بناه اهلها بعد وقعة الجهْرة ليصدوا هجمات الاخوان . وهو سور يحيط بالمدينة من جهات البر كلها ، طوله خمسة اميال وعلوه نحو اربعة امتار وسمكه في بعض الاماكن متر" ويزيد ، فيه المعاقل والكوى للرمي والدفاع ، وله بوابات ثلاث يقيم الحرس عندها ، وتقفل في الليل . لم تنفق الحكومة روبيـة واحدة على بناء هذا السور ، فقد تبرع اهل الكويت كل" بما يستطيع من عمل او مال واتموا البناء في مدة شهرين . انه لمن الاعمال المدنية العامة الرائعة خصوصاً في البلاد العربية .

دخلنا المدينة في الساعة الاولى من ذاك النهار ، فوقفت السيارة في الساحة الكبرى ، فترجلنا ومشينا تجاه صف من الناس جالسين في الفلاة على مجالس من الحجارة والطين الى حائط بيت ٍ صغير . فوقف اذ

وصلنا من كان جالساً في الوسط ووقف على اثره الجميع . هو سمو الشيخ احمد الجابر آل صباح حاكم الكويت . خرج من قصره بحاشيته وبعض اسرته يستقبلنا في المكان الذي يجلس فيه الناس . ليس احب الى السائح وليس اقرب الى الديموقراطية الحقة والمساواة من هذه المقابلات الملكية في الفلاة .

الشيخ احمد في العقد الرابع من العمر ، ربع القامة ، دقيق الملامح ، حسن الخلق والبزة ، لطيف الاشارة والحديث وهو اقرب في هيأته الى الشكل الآري منه الى السامي . فلو كان في غير النعل والثياب العربية لظننته هندياً من البنجاب او اوروبياً من بلاد الاسبان .

هنأني بوصولي واعرب عن دهشته لسفري في البلاد العربية هذه السفرة الطويلة . ثم قال : العرب انفسهم يكبرون هـذه الطريق ويخافونها . ومنهم من لا يقوى على تحمل مشقاتهـا . وكيف تحملتم ركوب الذلول كل هذه الايام ؟ نهنئكم يا استاذ ونرحب بكم . ولم يشأ ان يطيل الجلسة الاولى رغبة في راحتي . فبعد ان تناولنا القهوة أمر من لاقوني ان يرافقوني الى القصر .

وكانت هناك الفتنة الكبرى . لا اريد الفتنة ما فيه نسوة او دين او سياسة ، وقد كنت بعيداً عنها كلهـا . ولكني فتنت . اجل ، فُتنت بمفاجآت الترف والرفاهيـة ، انا الذي اقمت عشرين سنـة في نيويورك ، في تلك المدينة التي تزدحم وتتبذل في نُزُلها نوافل العيش ونفائس الصناعة والفنون ، تلك التي كانت تنحصر في الماضي خصوصاً باوروبا في قصور الاشراف والاعيان ، وقد اصبحت اليوم في نيويورك في متناول كل من يستطيع ان يبذل بعض المال .

تالله ما تفعل البيداء وخشونة العيش . دخلت القصر في الكويت كأني بدوي لم يرَ في حياته قصراً جميــلا ، تزينه الاعمدة والقناطر ، ولم يجلس مرة في قاعة مفروشة بالفاخر من الرياش. وعندما جاء الخدم الواحد بعد الآخر يحملون الاطباق ، فوضعوها على السجادة وجلست انا ورفيقي اليها فُتنت بما احاط صحفة الارز من الالوان المطبوخة بالبقولات .

البقولات ! بعد الارز والرمل واللحم والتراب التي كان يطبخهـا لنا مسفر ومعاوناته الرياح ، انها من النعم التي يغتفر فيهـا الابتهاج والاسراف . نحرت الالوان نحر العاشق المشتاق، وخصصت بالاسراف بندورة الكويت التي يشحنون منهــا الى البصرة ، وهي صغـيرة مدملكة ، يطبخونهـا بقشرها دون ان تمسها السكين . ثم سمك الكويت المشهور الذي يشبه سمك المشط في طبرية ، ولكنه أرق وادسم . ثم اصناف الحلوى ، وما اشد حلوها واكثر سمنها واسرارها. وعندما نهضنا نغسل ايدينا وقف امامي يوسف السالم آل بدر ، وهو كما اشرت من رجال السماط المشهورين في البصرة والكويت ، فصافحني وقال : اهنئك بما احرزت . فقد صرت منا ليس في سف الارز فقط بل في سف السماط .

وبعد ان ودعني في تلك الليلة خرجت الى الايوان ذي العمد ، المشرف على الخليج ، فأخذت بمشهد البحر والسفن المسربلة بضوء القمر، وظللت حتى منتصف الليل جالساً في كرسي هنـدي [1] ، وانا في

(١) اذا كنت تبغي كرسياً تستريح فيه ، وتنام فيه ، وتسيء الادب فيه ، فليس اصلح من ذاك الكرسي الهندي وقد . مل لظهره درجات فتبسطه قدر ما تشاء ، ولجانبيه عضاضتان ترفع عليهما ساقيك ، فتنسى انك انساناً وتكفر بالله .

في ثوب النوم ، جلسة اميركية — وما اخلق ذاك الكرسي بها — رافعاً للقمر رجلي ، مطلقاً العنان للذيذ الاحلام . فما احسست بهواء البحر البارد الرطب الا بعد ساعة ، فدخلت وانا ارتعش الى غرفة النوم .

نمت قليلاً واستفقت ائن من شدة الالم . عاد السماط في بطني ناراً ، واستحال النعيم جحيماً . فكنت منذ تلك الساعة حتى الفجر احس بشيء يتعقد فيّ ثم ينحل ، ثم يتقطع ، ثم يذوب ، فاذوب معه وأكاد من شدة الوجع اموت . بل عاينت الموت في تلك الهيضة التي تندر في غير الوباء . الله ! يا رب المسرفين والمقترين ، يا ارحم الراحمين ، أفي الهواء الاصفر نهاية هذه الرحلة ونهايتي . او انها بندورة الكويت تفعل ما لا تفعله الادوية والاملاح .

جاءني في الصباح يوسف السالم جلبي فحزن لحالي وبادر الى الطبيب . وجاء بعد ساعة الطبيب فاثبت الجرم على البندورة وقال : ان لها شريكة هي الحمى . — وللاثنين عدوة هاكها . غير ان الطبيب نفسه نفعني اكثر من عقاقيره . فقد استأنست به ايما استئناس لانه من لبنان واسمه شبيه باسمي . هو الدكتور ريحان من دير القمر . وما الذي قذف به الى الكويت؟ اخبرني انه في معية السردار اقدس الشيخ خزعل خان الذي جاء يقضي بعض الشتاء في قصره خارج المدينة . فكان الخبر هذا كالوردة الحمراء في ضمة من الريحان ، لاني كنت عازماً على زيارة الشيخ خزعل في المحمّرة فسررت جداً بقربه مني ، وعادت في ذاك النهار العافية مثلما ولّت ، وهي تحمل باحدى يديها ادوات العمل وبالاخرى مصباح الامل .

آل الصباح [1]

اقسام العرب – ربيعة وعنيزة آل صباح – تاريخ الكويت – اول من حكمها من آل صباح سنة ١١٩٠ هـ – أولاد صباح – حكم عبدالله – حكم محمد – شقاق في بيت آل سعود – تدخل الدولة – فتح الحساء – مساعدة آل صباح للدولة – الشيخ مبارك– الفرق بينه وبين أخويه – الخلاف – الفاجعة – ذبحة محمد وجراح – التجاء اولاد المقتولين الى والي البصرة – التجاء مبارك الى والي بغداد – تدخل الحكومة البريطانية – قيام يوسف آل ابراهيم على مبارك – هجومه على الكويت – سفره الى الحجاز – ما عرضته الدولة على مبارك – رفضه والتجاؤه الى الانكليز – مدرعة من ابي شهر – انتصار مبارك – يوسف آل ابراهيم في جبل شمر – الحرب بين مبارك وبين ابن الرشيد – وقعة الطرفية – ظهور ابن سعود – وفاة ابن الرشيد – وابن آل ابراهيم – الجو ينجلي– مبارك الحاكم بامره اتفاقه مع الانكليز – حكم الشيخ جابر – حكم الشيخ سالم – اخلاقه – سوء سياسته – وقعة الجهرة – طريقة انتخاب الحاكم .

تقسم العرب كلها الى قسمين ، قحطان وهم العرب العرباء وعدنان وهم العرب المتعربة ، وتقسم عدنان الى فرعين مضر وربيعة . اما مضر فسكنت الحجاز وكانت لهـا الرئاسة في مكة ، واما ربيعة فكانت منازلها في نجد اي بين اليامة والبحرين والعراق .

وهي اي ربيعة تقسم الى عمارتين ، بني كلب وبني اسد ، ويتفرع بنو اسد الى بطنين هما جديلة وعنزى . وعنزى أخو وائل الذي تنتسب

[1] للشيخ يوسف آل عيسى وللسيد عبد الرحمن النقيب من الكويت الفضل علي ببعض المعلومات في هذا الفصل والفصل الذي يليه .

اليه البيوت الثلاثة الحاكمة اليوم في نجد والبحرين والكويت ، اي آل سعود وآل خليفة وآل الصباح .

كانت عنزى تقطن اولاً عين التمر في بر العراق على مسيرة ثلاثة ايام من الانبار . ثم انتقلت الى نواحي خيبر فاقامت هناك ومعها احياء من طي ، فصارت تنتجع وتشتي معهم في نجد . انها من اكبر قبائل العرب وهي تقسم الى افخاذ منها جميلة ، وتقسم جميلة الى فروع منها الشيملان ، وتقسم الشيملان الى عشائر اكبرها واشهرها آل الصباح .

اما الكويت فتاريخها القديم غامض مجهول . وقد لا يكون لها ما يهم منه قبل ان هجر اليها آل الصباح قادمين من خيبر منذ نحو مئتين واربعين سنة . والكويت تصغير كوت والكوت في اصطلاح اهل تلك النواحي هو بيت محاط ببيوت صغيرة . كانت هذه الناحية يومئذ لبني خالد يجمعون فيها زادهم اذا ربعوا في الحجرة ، فجاء آل الصباح ، وسكنوها باذن منهم .

ثم انتُخب الصباح حاكماً على العشائر فيها وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة ، لان المرجح هو انه توفي سنة ١١٩٠ فخلفه ابنه عبدالله الذي توفي سنة ١٢٢٩ هـ .

كان الشيخ عبدالله الصباح اول من حكم الكويت من هذا البيت . حكمها نحو اربعين سنة ، فاتسعت في عهده وشاع ذكرها في الخليج . ثم خلفه ابنه جابر عام ١٢٢٩ هـ وخلف جابراً ابنه الصباح عام ١٢٧٦ هـ

اما نوع الحكم فقد كان قبل الصباح الثاني ابن جابر شورياً يشترك فيه رؤساء العشائر ، فلا يقدم الحاكم على أمر مهم قبل ان يستشيرهم

وهم يستشيرون الجماعات . ولكن هذه الشورى بدأت تضعف في عهد الصباح الثاني حتى تقلص ظلها تماماً في ايام ابنه مبارك الذي حكم بامره، وخصوصاً في العقد الثاني من حكمه .

من اولاد الصباح الثاني ثلاثة تولوا الحكم بعده. الاول عبدالله الثاني الذي حكم ستاً وعشرين سنة ، ثم محمد الذي حكم اربع سنوات ، ثم مبارك الذي استمر حكمه احدى وعشرين سنة . ولكن مباركاً ، وهو على عسفه وشذوذه حاكم الكويت الاكبر ، حاز قبل ان تولى الحكم شهرة في القيادة تقدمت شهرته السياسية .

ففي سنة ١٢٨٧ هـ — ١٨٧٠ م حدث شقاق بين ابني فيصل آل سعود عمّي السلطان عبد العزيز ففاوض احدهما الدولة العثمانية بوساطة واليها في بغداد يومئذ مدحت باشا ، فاغتنم مدحت الفرصة وارسل جيشاً الى القطيف ففتحها ، ثم الى الاحساء فحاصرها واستولى بعدئذٍ عليها .

وقد كان لمشايخ الكويت الفضل الاكبر في فتح الاحساء . فقاد الشيخ مبارك الذي كان يومئذ في ريعان الشباب جيشاً كبيراً من العشائر في طريق البر ، مرافقاً القائد العثماني بحراً . وفي ذاك الحين الى حين الفاجعة التي اولت مباركاً الحكم كانت العلائق بين حكام الكويت والدولة العثمانية شبيهة بغيرها مع العشائر الموالية لها . فقبلت بان يكون لها سيادة اسمية في الكويت وان يعترف آل الصباح بهذه السيادة .

بعد وفاة الشيخ عبدالله تولى الحكم اخوه محمد وكان مباركاً واخوه جراح طامعين به ، على ان جرّاحاً والى محمداً وكان فعلاً لا اسماً شريكه في الحكم . فاشتدت المنافسة بين مبارك واخويه وكان

لها من غير السياسة اسباب اخرى . اما مبارك فقد كان ولا شك ابعد الاخوين طموحاً ، واشدهما عزماً ، واحدّهما طبعاً ، وامضاهما بأساً . بيد انه كان متهوساً متسرعاً في اعماله . وكان جراح صاحب النفوذ الاكبر في الحكم يحب المال بقدر ما يحب مبارك المجد والشهرة . بل كان الاول بخيلاً والثاني مبذراً . الا ان النفوذ الاكبر في العشائر كان لمبارك ، فنزع الى الغزوات ، فغدا في حاجة الى المال دائمة . وكان اخواه محمد وجراح ينعيان عليه دائماً اراءه واعماله ، ويسيئان معاملته ، واحياناً يمسكان عنه ما تقتضيه نفقاته الخصوصية . فصبر مبارك بضع سنين على هذه المعاملة وابى ان يصبر على الدوام . وكان يرى فوق ذلك ان اخويه هما عثرة في سبيل المجد الذي يبغيه لآل الصباح وللكويت . فعندما فرغت كأس الصبر ، وامتلأت كأس التغيظ والنقمة ، عزم على ان يريح نفسه وآل الصباح والكويت من ذينك الاخوين ، فنهض ذات ليلة للامر ونهض معه ابنه ، وكل منهما يحمل بندقيته ، فقتل مبارك اخاه محمداً وقتل ابن مبارك عمه جرّاحاً . وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ .

ضجت الكويت لهذه الفاجعة ثم اذعنت للشيخ مبارك صاحب الحكم فيها . اذعنت الكويت الا ابناء القتيلين واشياعهم ورجلاً اخر سيجيء ذكره . فرّ ابناء جراح ومحمد هاربين الى البصرة فشكوا امرهم الى واليها الفريق حمدي باشا . وكان يومئذ رجب باشا والي بغداد فسبق مبارك ابناء اخويه الى ذاك المقام الاعلى . فتمكن بوساطة بعض رجاله من استمالته اليه ، فكتب رجب الى الاستانة يقول ان الحدث هو من الحوادث العادية المألوفة بين البدو ، وخير للدولة ان لا تتدخل في الامر لان ذلك يؤدي الى تدخل الانكليز .

ولكن الانكليز لم ينتظروا احداً ليتقدمهم في عمل هم دائماً متأهبون له . فكان ان ابناء جرّاح ومحمد قد لجأوا ايضاً الى قنصل بريطانيا في البصرة فنصرهم على مبــارك ، وسعى في سبيلهم وسبيل السياسة الانكليزية في الخليج سعياً ملحاحاً اثمر ذاك الامر النهائي الذي اصدرته الدولة العلية ، فخُيِّر ابن صباح الكبير بواحد من ثلاثة امور : اما ان يحضر الى الاستانة فيعينه المابين عضواً في مجلس شوري الدولة ، واما ان يسافر الى البلد الذي يريده فتخصه الحكومة بمعاش دائم ، واما القوة فتستخدمها عليه اذا رفض ان يعمل باحد الامرين . مما لا ريب فيه ان الدولة العلية اصدرت هذا الحكم ارضاء لبريطانيا . ومما هو في دائرة اليقين ايضاً ان الشيخ مبارك كان قد بدأ يفاوض رئيس الخليج الوكيــل السياسي لبريطانيـــا في بوشهر ، فسمع هذا قصته وشكواه متجاهلاً ما كان من زميله في البصرة .

انها لرواية محزنة مضحكة معاً . لجأ اولاد القتيلين اولاً الى حمدي باشا والي البصرة ، فلجأ القاتل إلى رجب باشا والي بغداد . ثم لجأ طالبو الثار الى قنصل بريطانيا في البصرة : فلجأ مبارك الى وكيلهـا السياسي على شاطيء العجم . وكانت بريطانيا تمثل بوساطة ممثليها دورين معاً ، دور المدعي العمومي ودور محامي الدفاع .

ضغطت الدولة العثمانية على مبارك فطلب الحماية البريطانية دفاعاً عن نفسه ، فلبت بريطانيا طلبه حباً وكرامة . لا تدع يسراك تعلم بما تفعله يمناك . عندما وصل المركب الحربي العثماني الى الكويت يقل نقيب البصرة وبعض موظفي الدولة وهم يحملون الى الشيخ مبارك امرها العالي ويبغون تنفيذه ، جاء مركب حربي اخر ينقذ الشيخ مبارك ويطرد المركب العثماني من مياه الكويت .

اقف عند هذا الحد في المأساة لاعود الى اولها . قلت ان رجلاً آخر غير ابناء القتيلين خرج على الشيخ مبارك وقام ينصر اولادهما . هذا الرجل هو الشيخ يوسف آل ابراهيم من كبار تجار الكويت . قد كان يوسف بنفسه ثورةً ، ودولةً ، وحرباً على مبارك ، استمرت عشر سنين . فوقف ثروته ، ووقته ، وحياته للاخذ بالثأر . اجل ، قد كان هو الباذل للمال ، وهو القائد للرجال ، وهو رسول قضيته الى الدولة العلية والى امراء العرب .

اول ما باشره حرباً هو انـــه جهز اسطولاً من السفن المشحونة بالرجال المسلحين وتولى قيادته في الهجوم بغتة على الكويت . ولكن ليلة دنا من الاسكلة رآه احـــد النوتيين ، فحمل الخبر الى الشيـخ مبارك ، فاستعد لملاقاته وكانت المدينة معه . فلما علم يوسف بان المدينة مستعدة كذلك لمحاربته قفل راجعاً ، ولجأ بعد ذلـــك الى الخدعة .

جاء ببعض قاطعي الطرق واوعز اليهم ان يأخذوا سفينة من اسطوله ويدخلوا بها الكويت ، فيظنهم الشيخ مبارك من اعداء يوسف آل ابراهيم ، فيقربهم منه فيقتلوه . تمت المؤامرة على هذا الوجه ودخل المتآمرون الكويت بسفينة من سفن يوسف آل ابراهيم يدعون انهم غنموها بالمحاربة ، فانطلت الحيلة على الشيخ مبارك ، فقرب الرجال منه وجعلهم من حرسه الخاص . لكن واحداً منهم تاب الى ربـه وراح يطلع الشيخ مبارك على الدسيسة . فامر الشيـخ بالقبض على هـؤلاء الرجال وبنفيهم من البلاد .

لجأ بعد ذلـــك يوسف آل ابراهيم الى الدولة العلية فسافر الى الحجاز يستعين بشريف مكة ، وكان في مساعيه السياسية عوناً لسياسة

انكلترا في المسئلة ، او بالاحرى كانت سياسة انكلترا عوناً له . فصدر ذاك الامر الذي حمل الشيخ مبارك على ان يطلب الحماية البريطانية ، فأسقط في يد ابن آل ابراهيم للمرة الثالثة .

ولكن الفشل وان تعدد لم يكن ليثنية عن قصده ومرامه . فقد سعى لدى امير الجبل الامير عبد العزيز بن الرشيد فاغراه بعدوه في الكويت ، فشن ابن الرشيد الغارة على عشائرها ، فبادر الشيخ مبارك الى الدفاع بما عنده من قوة . وكانت هذه فاتحة الخير لآل سعود الذين كانوا مقيمين يومئذ في الكويت ، فتطوعوا في حرب اعدائهم بيت الرشيد . جهز الشيخ مبارك جيشاً اولاً لعبد العزيز سلطان نجد الحالي ، ثم جيشاً آخر بقيادة اخيه حمود بن الصباح ، ثم خرج مبارك بنفسه يقود الجيش الثالث ومعه الامام عبد الرحمن آل فيصل والد السلطان عبد العزيز . فالتقى الفريقان واحتربا احتراباً شديداً في اخر ذي العقدة سنة ١٣١٨ ه (١٩٠٠م) في مكان يسمى الصريف ، فقتل خلق كثير من الفريقين وكان النصر لابن الرشيد .

بعد وقعة الصريف خرج ابن سعود عبد العزيز في نفر قليل من الرجال يبغي استرجاع الرياض عاصمة اجداده التي كانت يومئذ في حوزة ابن الرشيد فذبح عامله فيها واستولى عليها . وكانت هذه الغزوة فاتحة غزوات وحروب ادهشت العرب في شبه الجزيرة وخارجها ، فاعجب العدو والصديق بنبوغ ابن سعود ، بشجاعته واقدامه ، وبحكمته وحلمه .

وعندما بُشر مبارك بفتح الرياض خاف ان يعيد ابن الرشيد الكرة عليه فبعث بنجدة الى عبد العزيز الذي كان قد فاز ايضاً بنصرة

هل الرياض ، فخرج منها بجيش كبير ، وشرع يحارب ليسترجع ملك اجداده . فقُتل الامـــير عبد العزيز الرشيد في وقعة « روضة مهنّا » في سنة ١٣٢٤ هـ [١] . وكان قد توفي في السنة السابقة اي سنة ١٣٢٣ هـ الشيخ يوسف آل ابراهيم فاستراح مبارك من عدويه ، واخـذ نفوذه يمتد بعد ذلك الى البادية ونجد .

كان الشيخ مبارك في سياسته مثله في حروبه موفقـــاً منتصراً . فامتد نفوذه الى البصرة والمحمرة وكانت كلمته مسموعة في ابي شهر . على انه مع تلك السياسة وذاك النفوذ لم يكن في اعمـــاله شيء يذكر من النفع العام . فقد بنى مسجداً واحداً وقصوراً عديدة ، ولكنه لم يهتم بالتعليم ولا ساعد في بناء مدرسة . اضف الى ذلك انه كان يرهق بالضرائب الرعية والتجار .

اما اتفاقه مع بريطانيا فخلاصته ان الشيخ مبارك تعهـــد بان لا يكون للكويت علائق مع حكومة اجنبية غيرهـا اية كانت ، وهي تعهدت ان تحمي الكويت من كل اعتداء خارجي من البحر وليس من البر فلا تتدخل في شؤون العشائر ورؤسائها :

وقد تبع هذا الاتفاق في آب ١٩١٣ م اتفـــاق بين الدولتين البريطانية والعثمانية بخصوص الكويت وقطر والبحرين ومسقط وعمان. فتنازلت الدولة العثمانية عن حقوقها في هذه الاساكل كلها ، واخذت الدولة البريطانية على عاتقها انارة الخليج وخفارته . اما الكويت فظلت علائقها مع انكلترا على حالها حتى سنة ١٩٢٥ عندما تقرر ان يُحاكم الاجانب فيها في دار الوكالة البريطانية .

توفي الشيخ مبـارك في محرم سنة ١٣٣٤ هـ . (١٩١٥) .

(١) راجع تفاصيل هذه الوقعات في تاريخ نجد الحديث .

فخلفه ابنه جابر الذي لم يحكم غير سنة وشهرين . وكان جابر كريم السجايا يحبه الناس . فقد الغى من ضرائب ابيه المتعددة ، التي يستغرب مثلها حتى في ايام الحرب في تركيا ، ما يتعلق منها بالاملاك . اذ ان مباركاً كان قد فرض ضريبتين باهظتين الواحدة عن كل عقار يباع وهو ثلث الثمن ، والثانية عن كل عقار يؤجر وهي ثلث الاجرة . وكانت تكرر الضريبتان على العقار كل مرة يكون الايجار او البيع .

اما سالم الذي تولى الحكم بعد وفاة اخيه سنة ١٣٣٥ ه وحكم مدة الحرب العظمى كلها فقد اشتهرت ولايته بامرين هما اتساع تجارة الكويت ونكبة الجهرة . فجاء في الاول البرهان على مقدرته التجارية ، وجاء في الثاني الدليل على ضعفه في السياسة .

اما التجارة فقد كان الشيخ سالم رغم الاتفاق بين انكلترا والكويت ، يسمح بدخول البضائع التي كانت تصدر من بلاده الى الاتراك في العراق وفي سوريا . فاتسعت لذلك التجارة برغم ارادة مأمور الحصار الذى عينته الحكومة البريطانية للمراقبة في الكويت ، وبرغم المال الذي كانت تدفعه لرؤساء العشائر مثل ضاري بن طواله وغيره ليصادروا القوافل في البادية .

كان الشيخ سالم خشن البادرة ، صعب المراس ، متصلب الرأي ، فلا ينتصح ولا يعتدل . وكان فوق ذلك سديد النزعة في الدين اي انه كان يكره الوهابيين والاخوان ولا يتقي . فأدت هذه الخصال فيه الى خلاف بينه وبين سلطان نجد أدى الى النكبة التي أشرت اليها . ذلك ان بضعة الاف من الاخوان هجموا على الجهرة ، فذبحوا مئات من اهلها وقتل منهم مئات ، وحاصروا الشيخ سالماً فيقصره هناك فلم ينجُ

الا بحيلة احتال عليهم بها .

تدخل الانكليز فردوا الاخوان عن الكويت . ثم تدخل الشيخ خزعل فارسل احد انجاله مع الشيخ احمد الجابر الذي انتدب ليفاوض السلطان عبد العزيز بالصلح فساعدتهم بالمفاوضات الاقدار ، اذ بينما كانوا في الرياض في شتاء ١٣٣٩ هـ ١٩٢١ توفي الشيخ سالم وانتخب الشيخ احمد الجابر خلفاً له .

ان الوراثة او الانتخـاب في آل الصباح يكون غالباً باتفاق بين الاسرة والحكومة البريطانية . على ان مباركاً رشح ابنه جابراً لولاية العهد دون ان يستشير الانكليز . ثم تولى سالم الحكم لانه يلي جابراً في السن ، ولم يخلُ انتخابه من تدخل الوكيل السياسي ولو في سبيل التحقيق . فقـــد سأل اعضاء الاسرة والمتوجهين من الاهالي اذا كانوا راضين بالشيخ سالم فاجابوا بالايجاب .

اما اذا كان تدخل الوكيل السياسي في الكويت لا يتجـــاوز المراقبة والاستشارة فهو في غيره من الاقطار العربية ، كما سترى ايها القارىء في البحرين ، يتجاوزها ، اذا اقتضت المصلحة ، الى ما فيـه الامر والارهاب .

امراء الكويت من آل الصباح

١ ــ الصباح الاول . حكم في القرن الثاني عشر للهجرة والمرجح انه توفي سنة ١١٩٠ .

٢ ــ عبدالله الاول	توفي سنة ١٢٢٩ هـ .
٣ ــ جابر بن عبدالله (جابر الاول)	تولى الحكم سنة ١٢٢٩ هـ .
٤ ــ الصباح بن جابر (الصباح الثاني)	» » سنة ١٢٧٦ هـ .
٥ ــ عبدالله بن الصباح (عبدالله الثاني)	» » سنة ١٢٨٣ هـ .
٦ ــ محمد بن الصباح	» » سنة ١٣٠٩ هـ .
٧ ــ مبارك بن الصباح	» » سنة ١٣١٣ هـ .
٨ ــ جابر بن مبارك (جابر الثاني)	» » سنة ١٣٣٤ هـ .
٩ ــ سالم بن مبارك	» » سنة ١٣٣٥ هـ .
١٠ ــ احمد بن جابر الحاكم الحالي	» » سنة ١٣٣٩ هـ . (١)

(١) اي ١٩٢١ م.

مشكل الكويت

معمل الشراع – مصنع السفن – العمال والنوتيون يشتغلون – سفن التجارة والغوص – اللؤلؤ – مدينة تجارية – المسابلة – اهل نجد – التجار والبدو – امانة الاعرابي – المسابلة في نظر السلطان عبدالعزيز – جمارك نجد – أهل نجد يمتنعون عن المسابلة – المسابلة في نظر المسابلين – طلب سلطان نجد يرفضه حاكم الكويت – الحق مع الكويت – كتاب الى السلطان عبد العزيز اقترح فيه طريقة التسوية – وفد الكويت في الرياض – كتاب من السلطان : « مسئلة الكويت تحل قريباً حسب رغائب الجميع » .

من رواق القصر نشرف من مشهد على مشاهد العمل في الكويت . فان في ساحته الفسيحة المرتكز بها العلم الاحمر وقد كتب عليه « الكويت » تجد دائماً عدداً من الناس جالسين على الارض حول شراع مبسوط . وغالباً تجد ثلاثة او اربعة اشرعة كبيرة والى كل منها عشرة ونيف من النوتيين يشتغلون فيها ، يخيطون جديداً او يصلحون قديماً منها . هوذا معمل الشراع الذي يعيش في ظله اكثر ابناء الكويت .

ووراء الساحة اذا ما سرحنا النظر في السيف امامنا نرى السفن والادقال وقد اكتظ واشتبك بعضها ببعض ، وفيها العمال يصلحون قويماً او يدقون [1] سفينة جديدة . هناك مصنع السفن التي تبحر في الخليج وتوصل حبل التجارة بين الهند والعراق ، وبين الاساكل العربية والفارسية ، فترسو حيث لا تستطيع المراكب البخارية ،

(١) دق السفينة بناها في اصطلاحهم او استأجر من يبنيها .

وتحمل الصادرات والواردات من شاطىء الى آخر باجور لا يستطيع البخار ان يجاري الشراع بها .

ان سفن الكويت مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعها . وهي على انواع ، منها للعبور والتنزه ، ومنها للحمولة ، ومنها للغوص . الكبيرة مثل البوم والجلبوت تصنع بالخشب المقَلْفط [١] المطلي بالقار ، ثم تغشى بالواح من الساج ، وتنقش عرشتها من الخارج نقشاً انيقاً لطيفاً . اما البوم التي تدعى ايضاً البغلة فهي اكبر السفن واجملها وابعدها ابحاراً ، فلا يقل طولها عن الثلاثين ذراعاً وعرضها الاعلى يتراوح بين الثمانية والعشرة الاذرع وحمولها مئتا طن ، وهي تصل في اسفارها حتى الى جزائر مدغسكر وزنجبار .

بيد ان اكثر السفن والمراكب التي نراها في الكويت تستخدم لاستخراج اللؤلؤ في موسم الغوص ، وللتجارة بين الهند والعراق . فتخرج من الكويت غالباً فارغة وتعود ملأى اليها . ذلك لان الكويت مدينة من مدن اللؤلؤ على الخليج ، وقلما يقرن اللؤلؤ بمصدر آخر من مصادر الثروة . هذا مالها تشتري به ما يلزمها من ضرورات المعيشة ونوافلها . ليس في بر الكويت غير المفالي ، وليس فيها او في جوارها شيء يذكر من النخيل ، فهي تضطر ان تجلب حتى التمر من البصرة و من القطيف .

ولكن عندها كما قلت اللؤلؤ الذي تزيد قيمته على قيمة ما تحتاج اليه من مأكول وملبوس ، فتشتري بالزيادة للاتجار وعندها السفن تحمل الى تجارها ما يشاؤون من البنادر القصية ، فضلاً عن البواخر التي

(١) قلفط السفينة او جلفطها هو ان يدخل بين مسامير الالواح وخروزها مشاقة الكتان وقد غُمست بالزيت والقار .

تجيئهم بالاحمال الكبيرة من الهند .

الكويت اذن مدينة تجارية . بل هي مثل جيزان او ميدي على البحر الاحمر ، وان كانت تزيد عليها في عدد السكان عشرة اضعاف ، اذ لا تقوم تجارتها او تنمو بمن فيها فقط . فلو اتكلت الكويت على سكانها وعلى العشائر في باديتها لما كانت تجارتها ربع ما هي او بالحري ربع ما كانت اما السبب في سوء حالها في السنتين الاخيرتين [١] فاذا سألت عنه التجار هناك يجيبونك بكلمة واحدة : المسابلة .

وما هي المُسابلة ? سأكفيك مؤونة التفتيش في القاموس فقد لا تجدها فيه . المُسابلة هي ان يجيء العرب الى المدينة فيسابلون تجارها اي يشترون منهم نسيئة ما يحتاجون اليه من ملبوس ومأكول . وغالباً يجيئون في الصيف فيشترون ما يلزمهم في فصل الشتاء كله ، ويدفعون ثمنه بعد ان « يصلحوا » مواشيهم اي يربعوها ويستثمروها في اواخر الربيع .

اكثر من يجيئون الكويت للمسابلة هم من نجد من رعايا ابن سعود . يجيئونها ويفضلونها على البصرة والزُبير لاسباب اولاً لانها اقرب . ثانياً لانهم يجدون في اسواقها دائماً ما يحتاجون اليه . ثالثاً لان تجارها يتساهلون معهم فلا يتقاضونهم دفع ما عليهم ولو مرّ على الدين سنتان وثلاث . وهم مع ذلك قلما يخسرون .

واية ضمانة يقدمها البدوي للتاجر ? قسمة بالله . فهو اذا غاب عشر سنين وعاد الى الكويت ، وليس معه غير جمله ، يجيء به الى التاجر

....

(١) كانت الواردات والصادرات في السنين الماضية تتراوح بين الخمسمئة والستمئة الف روبية كل سنة . اما في السنتين الاخيرتين فهي تقدر بثلاثمئة الف روبية سنوياً.

قائلًا : هذا حلالك . واذا مات الاعرابي قبل ان يفي ما عليه ، وكان قد نما ماله اي مواشيه ، يجيء احد ابنائه او انسبائه بما يكفي منها لتسديد الدين او بعضه ، فيقدمه للتاجر قائلًا : هذا حلالك من فلان . ترحّم عليه. هي ذمة الاعرابي !

ان رغبة تجار الكويت في المسابلة اذن لمثل رغبة اهل نجد . وهم يستطيعون ان يتساهلوا بدفع المال اكثر من سواهم لان رأسمالهم اكبر بسبب مدخول الكويت الآخر من تجارة اللؤلؤ .

هذه هي احدى وجهات المسابلة . وهناك اخرى هي وجهة السلطان عبد العزيز . ان لسلطنة نجد جمارك ثلاثة في العُقير والقطيف والجُبيل، فهو لذلك يفضل ان يجلب اهل نجد بضائعهم من احدى هذه الاساكل النجدية في الاحساء او ان يسابلوا فيها خصوصاً في القطيف . على انه ليس في القطيف تجار ذوو يسار فيستطيعون ان يعاملوا النجدي كما يعامله تاجر الكويت . والسلطان عبد العزيز يدرك ذلك .

ومع ذلك فقد نهى رعاياه منذ سنتين عن المسابلة في الكويت فانتهوا ، فتأثر التجار من ذلك وشرع الشيخ احمد يفاوض في القضية الرياض . اما موقف عظمة السلطان فهو ان رعاياه يشترون من الكويت ويعودون بما يشترون الى نجد دون ان يدفعوا عليه رسماً . فكأنهم بهذه الطريقة يهربون البضائع ليتخلصوا من دفع الرسوم الجمركية . وبما انه لا يستطيع ان يؤسس الجمارك في البادية على حدود نجد والكويت المترامية الاطراف ، وبما ان لسلطنة نجد موانيء فيها جمارك فقد اصدر أمره ان تكون المسابلة في احداها .

ولكن هناك وجهة اخرى لهذه القضية وهي وجهة اهل نجد

وخصوصاً البدو الذين لا يستطيعون ان يدفعوا نقداً ثمن ما يشترون كما هي الحال غالباً اذا جاؤوا القطيف المسابلة. فهم مثل التجار متأثرون، وبما ان السلطان عبد العزيز يهتم بشؤون البدو اهتماماً خاصاً ويكره الجور والارهاق فقد اقترح اكراما للفريقين المسابلين ، النجديين والكويتيين ، ان يعين في الكويت وكلاء له يجمعون رسماً على كل ما يشتريه اهل نجد فيدفعوه قبل ان يخرجوا البضائع من المدينة . وطلب ان يكون هذا الرسم سبعة بالمئة . فرفض الشيخ احمد الطلب محتجاً بحق السيادة لقطر الكويت المستقل ، فمثل هذا العمل مجحف بها ، ولا يكون الا اذا أكرِهت الكويت عليه فيُعدُّ اذ ذاك ضرباً من الاحتلال. هو مصيب في احتجاجه ولحسن الحظ ان السلطان عبدالعزيز والشيخ احمد متحابان فلا يتخذ الواحد منهما خطة تؤدي الى تراخي العلائق الودية وانقطاعها .

لذلك بعث السلطان الى الشيخ يقول : نحن لا نقيم احداً من قبلنا عندكم ولكنا نوكلكم في الامر ، فتعينون من قبلكم من يجمع الرسم المطلوب من اهل نجد المسابلين ، فترسلونه الينا كل ثلاثة اشهر او كل ستة اشهر او كل سنة كما تشاؤون . ولكن الاكثرية في آل صباح لا يقبلون حتى بمثل هذه التسوية لانهم كما قال احدهم ليسوا جباة خراج لسلطان نجد .

كانت المفاوضات قد وصلت الى هذا الحد عندما وصلت الى الكويت ، وكان الشيخ احمد على شيء من القلق لتعقد القضية ثانية بينما هو يعالجها بالتؤدة والحكمة . فخطر لي بعد ان مررت بقسم من الارض في تلك النواحي وعرفت الحقيقة الاولى التي تتعلق بالاسفار هناك ، وبعد ان درست المسئلة ورأيت ان ما يطلبه السلطان عبدالعزيز

من حكومة الكويت هو في الحقيقة مجحف باستقلالها ، ان اكتب اليه كتاباً اقترح فيه حلاً للمشكل قد يرضي الطرفين .

اما الحقيقة التي تتعلق بالاسفار والتي لا ينكرهـــا العارفون بتلك البلاد فهي ان القوافل الخارجة من الكويت لا تســـير الا في طريق معلومة ، غرباً كانت ام جنوباً ، فتمر بماء معلوم لتستقي قبل ان تدخل المفازات . فاما ان تسير عن طريق الجهرة مثلاً اذا كانت مسافرة الى القصيم ، واما عن طريق الصُبيحية اذا كانت وجهتها الحسا . وهناك طريق اخرى تمر بخبرة الدويش . ان حدود الكويت ونجد تنتهي الى هذه الاماكن الثلاثة او في جوارها .

فكتبت الى السلطان افصح عن رأيي في المسألة واقترحت عليــه ، حباً بحفظ الصداقة بينه وبين آل الصباح ، ان يقيم ثلاث نقط جمركية في الاماكن المذكورة اعلاه فيتمكن من تحصيل الرسوم على البضاعة التي تدخل من الكويت الى سلطنة نجد . ان هذا العمل لا يكلف غير الخيام ورواتب ستة موظفين وبعض النجابة .

ويظهر ان المسألة دخلت بعدئذ في طور جديــد لان الشيخ احمد باتفاق مع الاهالي بعث ابن عمه الشيخ عبدالله السالم الى السلطان عبد العزيز يحمل منه كتاباً يفصح عن خالص الولاء والاكرام ومعه هدايا كبيرة من الارز والسكر والبن . فخرج السلطان بحاشيته لاستقبال الشيخ عبدالله خارج الرياض واركبه معه في السيارة وانزله في القصر ضيفا كريماً مبجلاً . فاقام هناك بضعة ايام وعاد الى الكويت مسروراً جداً ، يحمل الهدايا الثمينة وشيئاً مما اشتهر به عظمة السلطان من تلك الصراحة المقرونة باللطف والاكرام .

وقد جاءني من عظمته كتاب يقول فيه جواباً على اقتراحي : اما مسألتنا مع الكويت فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع وعلى احسن ما يكون ان شاء الله .

الشيخ احمد الجابر آل الصباح

الرجل المسالم – القوة المدخرة في اللين – الشيخ احمد في انكلترا – اعجابه بالمدنية الغربية . اما رجال حكومتها. – مداراته للانكليز – استشارة لا امتثال – امتياز البترول – الشركة التي يفضلها – يحترم رأي الغير – حكمة كل يوم – الكويت بين شاقوفين – أصحاب الدسائس – الحاكم الحكيم – خطة اللين والمسالمة – ثروة الكويت الحقيقية – المدارس – النهضة الادبية – أدباء الكويت وسفنها – رسل العلم والتهذيب .

الشيخ احمد رجل مسالم لين الجانب ، دمث الخلق ولكنه في لينه بل في المعروف والحسنى يصل الى حد يُساء في الحاكم فهمه . فهو اذا مال الى السلم والولاء ، او الى المهاودة والوفاق ، لا يشفع ميله بتلك الكلمة التي فيها العزم الرابض او القوة المدّخرة . وقد يألف العزم الربوض فيتعثر انهاضه ، وقد تهن القوة من الادخار الدائم . الحكيم من مرّن قواه كلها حتى الحيوانية المحضة واستخدمها من حين الى حين .

الشيخ احمد مثل الشيخ خزعل ومثل الملك فيصل معجب بالمدنية الغربية وبرجالها . وهو من امراء العرب الذين لبوا دعوة الملك جورج الخامس بعد الحرب العظمى ليزوروا انكلترا ، فنزل ضيفاً على الحكومة ، وساح في تلك البلاد ، وشاهد من مظاهر الرقي والعمران المادية والمعنوية ، من مناجم الفحم الى المتحف البريطاني ، ما لا يزال يلهج بذكره ويود لو كان للعرب جزء يسير منه . ولو

لم يكن حاكم الكويت وكانت تلك الرحلة دليله الوحيد الى المدنية الغربية لاخذ منه الاعجاب كل مأخذ فتغيب عنه الحقيقة كلها او القسم الاهم فيها .

ولكنه ، وهو حاكم عربي ، يشاهد احياناً في رجال تلك المدنية ، خصوصاً رجال الحكومة منهم ، ما لا تجيزه احكامها ولا تبرره دائماً مبادئها . فالوكيل السياسي البريطاني مثلاً صاحب مصلحة مثل غيره من الناس شرقيين كانوا او غربيين . هو لا يختلف عنهم بغير الواسطة ، والاسلوب ، والعدة العقلية او المادية . ومتى كان قريباً من امير عربي ، وله بالدنو منه ومن شؤونه بعض الحق ، يود الامير احياناً لو لم يكن الرجل متمدناً او من امة متمدنة فيعامله اذ ذاك كما يعامل البدو ، بالحسنى اولاً والا فبالصميل .

الشيخ احمد الجابر آل الصباح يداري الانكليز ولا يمكّنهم منه يلين لوكيل بريطانيا في الكويت ولا ينكسر . قد يستشيره ويقبل رأيه في ما يراه نافعاً لبلاده او معززاً لسياسته ، ولكنه لا يأتمر بأمره . مثال ذلك ان حكومة بريطانيا رغبت الى الشيخ احمد ان يمنح شركة الزيت في عبّادان امتيازاً في الكويت فأبى ذلك لانه يفضل ان يمنح الامتياز شركة اخرى بريطانية مستقلة عن الحكومة ولا دخل لها بالسياسة ، وشروطها احسن من شروط شركة عبّادان .

وهو في سلوكه مع رعاياه واسرته مثله في سلوكه مع الانكليز ، يستشيرهم ويتفاوض معهم ، ولا يتبع دائما الرأي العام . ولكنه لا يزيف ما لا يريد ولا ينعي على الناس اراءهم . لكل كلام مقام ، اي ان حكمة كل يوم هي حكمته . وكثيراً ما يكون الرجل

العادي في كرسي الحكم انفع لأمته وبلاده من الرجل الشاذ الشديد المراس .

لا ينتظر من الشيخ احمد وخصوصاً في هـــذه الايام ان يخرج بعشائره فيحارب مثل جده مبارك امراء العرب ويدخل البــلدان فاتحاً منصوراً . واليك الاسباب ، اولاً : لان الشيخ احمد وان كان يحمل السيف هو أميل الى اليراع وأحب شيء اليه السلم والاداب . ثانيا : لان عشائره وهي قليلة لا تمكنه لو قال السيف من ان يقول كذلك النصر . قد تلبيه فتُغلب فتنقلب عليه . ثالثا : لان الاحوال اليوم هي غيرها منذ خمس عشرة سنة ، فالكويت التي لعبت بولاة لدولة في الشمال ، وحاربت امراء العرب ومشايخ القبائل في القصيم والاحساء ، اصبحت اليوم بين امتين متحدتين ، وقوتين قاهرتين ، وحكومتين طامعتين بالاستيلاء . ان الكويت بين نجد والعراق لمثل فتاة بين عاشقين ، وكلاهما يبغيها .

حدثني احد رجال الحكومة في بغداد قال : الكويت جزء من العراق واهلها يفضلون الانضمام الينا . اراد بذلك ان الكويت تفضل العراق على نجد اذا كان من ضم وانضمام . وان لم يكن الشيخ احمد كما وصفت ، لكان ظفر اصحـــاب الدسائس بما يبغون ، لان الذين يغرون العشائر خارج هذا القطر فيهجمون عليه او على عشائره ، لا يرومون من ذلك غير ذاك الحادث الذي قد يكون فيه خاتمة استقلال الكويت الاداري .

والشيخ احمد مدرك ذلك ، فلا يذهب مع التيار ولا يستسلم الى الهياج العـــام . فهو اذا هجمت عربان نجد او العراق على عشيرة من عشائر الكويت او على المدينة ، وقام الاهالي يستنفرون بعضهم

بعضاً ، تسلح بالحكمة والعزم في وجههم فيصدهم ويسكن روعهم مثال ذلك هجوم ابن حثلين شيخ مشايخ العجمان في هذه السنة. فبادر اهل الكويت الى السـلاح فصدهم الشيخ احمد وردعهم قائلًا : لنفاوض اولاً ابن سعود ، صديقنا . والذي اظنه انه غـير راض عن هذا الاعتداء . فاذعن الناس له وفاوض السلطان عبد العزيز فجاء منـه الجواب يقول انه متأسف جداً لما حدث وانه مستعد ان يعوض على الكويت كل ضرر .

قد يختلف الناس في هـذه الخطة السياسية ، خطة اللين والمسالمة . وفي الكويت مَن لا يستحسنها . بيد انهم يتيقنون اذا مـا ذكروا سياسة سلف الشيخ احمد ونكبة الجهرة ، ان في دار الحكم اليوم رجلًا اقل مـا يقال فيـه انه محافظ على سلامـة الكويت واستقلالها .

ومهما كان من امر الكويت ومشاكلها التجارية والسياسية فان فيها غير التجارة ثروة وغير اللؤلؤ كنزاً. فيهـا ذكاءٌ وجرأة وأدب شاهدت منه نماذج جميلة في الحفلات التي اقيمت هناك وفي المجالس .

ومهما كان من منزلة الشيخ احمد في السياسة فانه في المساعي الثقافية مذكور وان لم يكن من الجميع مشكوراً . وسيعرف عهـده بعهد النهضة الثقافية التي تشرف العاملين في سبيلها . أجل ان في الكويت نهضة لها ركنان ، المكتبة الاهلية هناك والمدارس النهارية والليلية ؛ وهي تتغذى فوق ذلك بما تثمر العـلوم والآداب العصرية في سوريا ومصر . ثم تبث روحها في الربوع التي لا تصل اليها الجريدة والمجلة ، ولا ينفع فيها الكتاب لان ليس فيها اليوم مدارس .

أجل ، كما ان سفن الكويت الشراعية تصل الى الاماكن التي

احمد الجابر آل الصباح

لا تدنو منها البواخر الكبيرة ، فكذلك ادباء الكويت في اختلاطهم مع البدو واسفارهم في داخل البلاد العربية يستطيعون ان ينشروا روح العلم والتهذيب ، وروح القومية السليمة ، في العشائر والبوادي وفي لمدن الكبيرة وراء الدهناء والنفود .



سمو السردار اقدس الشيخ خزعل خان

الشيخ خزعل خان

عربستان

مقاطعة في ايران

حدودها : غرباً المملكة العراقية وشط العرب ، شمالاً مقاطعة بوروجيرد وغولبكيان ، شرقاً الحدود الاصفهانية ، وجنوباً الخليج العربي .

عدد سكانها : نحو من نصف مليون نفس نصفهم عرب والنصف الآخر فارسي .

اهم قبائلها : الحاسي الكعبي المحيسني والعامري – والعوامر يدّعون انهم من نجد .

اهم بلدانها : عبّدان والمحمّره .

مذاهبها : الشيعة .

الشيخ خزعل

قل من لا يعرفه – قل من يعرفه – ثروته وكرمه وأدبه – ذوقه الشامل – الغواني – الشعراء – الاحبار – اجمل ازاهر الكرم فيه – الكنيسة ومحفل الماسون والراقصة – التساهل في غير القبيح الذميم – ولا يأنف من اللعب – ولا يروعه تعدد النساء في الحريم – «من هي امك ياوليد» – الزواج السياسي – جاء في الكامل للمبرد – نياشين من الملوك – ومن بابا رومه – ومن الفيلسوف أبيكوروس والصوفي ابن العربي – لماذا ترددت في زيارته – كتابي اليه – جوابه – اجتماعنا – حديث عن اطباء الاسنان – وعن الاخوان – القهوة في مجالس آل صباح – بلية العالم – الرجوع الى الارض بعد الموت – متى يجب ان يرجع الشيخ خزعل .

هو سمو السردار اقدس ، معز السلطنة ، الشيخ خزعل خان بن نصرت الملك الحاج جابر خان الحاسبي المحيسني الكعبي العامري ، امير نويان وسردار عربستان ، ومؤلف كتاب الرياض الخزعلية في السياسة الانسانية . قل مَن لا يعرفه من قراء الصحف العربية باسمه ولقبه الاولين في الاقل . فهو من امراء العرب وان كانت امارته داخلة في سيادة الدولة الايرانية . بل هو اكبرهم بعد الملك حسين سناً ، واسبقهم الى الشهرة ، ومن اعظمهم في الكرم . هذا ما يعرفه اكثر العارفين بالبلاد العربية .

اما ما يجهله اكثر الناس خارج الكويت والبصرة فهو ان هذا الامير العربي من طراز الامراء عهد العباسيين . اعني بذلك انه غني حكيم كريم معاً . فهو برمكي في كرمه ، وفي ذوقه ، وفي أدبه . يحب اللهو والغناء حبه الادب والشعراء . بل يميل الى كل ما فيه شيء

من اسباب السرور كلها ، العقلية والاجتماعية والجسدية . وان كلمة قالها معاوية : الدنيا بجذافيرها ، الخفض والدعة . لتصح ان تكون من كلماته .

أجل ، ان للشيخ خزعل ذوقاً انسانياً شاملاً فلا ينفر من غير القبيح والذميم في الحياة ، ولا يعرف في مكارمه التفضيل والتمييز تجيء المغنية من حلب او من دمشق الى المحمرة وهي لا تملك غير خلخالها فتقيم عدة اشهر في القصر وتعود غنيــة مثقلة بالحلي . ويجيء الشعراء وفي جيوبهم قصائد المديح فيعودون من المحمرة وفي جيوبهم اكياس من المــال . ويجيء حبر من احبــار المسيحيين فينزل على سمو السردار ضيفاً كريماً محترماً ويعود مصحوباً بالهدايا الثمينة . ثم يجيء المبشر بالماسونية فيحل محل الاسقف في القصر الخزعلي ويعود بعد اقامة سعيدة كما عاد المحترم قبله .

ان من اجمل ازاهر الكرم في هذا العربي تساهله وهو شيعي المذهب . فهو يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان ، ويساعد في تأسيس محفل للماسون ويفتح خزانته لراقصة او مغنيــة كما يفتحها لاولي البر والاحسان من الطوائف كلها جمعاء . وهو على مقامه بل بالرغم من مقامه يميل دائماً الى ما فيه لهو او تسلية او فــكاهة . فاذا ما انتابه الضجر في القصر ، وكان قصر الضيافة فارغــاً ، ولم يكن ليرغب في زيارة البصرة ليشرف طاولة « البوكر » فيها ، ينادي اولاده قائلاً : يا ولد الخير تعــالوا . الا تلعبون . فيجيء السردار ارفع او السردار اجل او السردار جاسم او نصرت الملك او كلهم اجمعون ، فيجلسون مع عظمة الوالد الى تلك الطاولة الخضراء العزيزة الشأن حتى في المحمرة والبصرة .

الشيخ خزعل

والشيخ خزعل من امراء العرب المحافظين على تقاليد الاجداد في التعريس ، ولا سيا ان شريعة المتعة عند الشيعة تساعده في ذلك . فقد قيل لي ان له اكثر من ستين امرأة وانه قلما يعرف اولادهن . كثيراً ما يجيئه احد اولئك الصغار فيسأله قائلاً : ومن هي امك يا وليد ؟ ثم اذا ناوأه احد مشايخ القبائل وهمّ بالخروج عليه ، وكانت له بنت صالحة للنكاح ، يزوره السردار اقدس ويشرفه بالمصاهرة ، فتخمد فيه في الحال جذوة التمرد والعصيـــان . سألت عن سمو الشيخ وانا في البصرة فقيل لي هو متغيب اليوم . فقلت : واين هو ؟ فقال محدثي : راح يتزوج وهو لا يزال على سنه التي تتجاوز الستين اهلاً لمثل هـذه المهـــمات .

جاء في الكامل للمبرد ان انعم الناس عيشاً من عاش غيره في عيشه. ولا اظن الشيخ خزعل يحتاج الى شهادة المبرّد وشهادتي في انه يعتقد هذه الحكمة ويعمل بها . فهو اذا لبس ثوبه الرسمي يحمل على صدره شهادات من ملوك الارض وفيها وسام القديس غريغوريوس من البابا بناديكتوس الخامس عشر وبـــين تلك الاوسمة والنياشين كلها وسامين لا يراهما كل الناس بل لا يراهما غير من نظر الى هذا الرجل بعين الشعر والفلسفة . فهو في صفته الانسانية يحمل وساماً من الفيلسوف الاغريقي ابيقور وآخر مـــن الحكيم الالهي الصوفي محيي الدين ابن العربي .

أدين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني (١)

(١) جاء خطأ في الطبعة الاولى ان هذا البيت للشريف الرضي ، وكنت قد اثلت في الجزء الاول بيتاً مغلوطاً فيه فصحح العالم النجفي البيتين باللهجة التي صحح بها مـــا كتبته عن صاحب الزمان. (راجع الجزء الاول صفحة ١٤١) قال نفعنا بعلمه وتسخطه

هوذا الامير العربي الذي كنت متردداً في زيارته بالمحمرة . وقد ترددت لسببين ، اولهما لان المتأدبين يؤمون تلك السدة الشريفة وفي جيوبهم قصائد المديح الطنانة ، ولست لسوء الحظ ممن يحسنون النظم ولا المديح الرسمي وثانيهما انه حاكم بلادٍ اطلق عليها العرب في الماضي اسم الاهواز وهي اليوم عربستان من اعمال فارس . على ان رغبتي في الاجتماع بامير عرفته من اخباره انه فيلسوف الامراء ، بل فيلسوف الحياة العملية ، كادت تتغلب على اسباب التردد كلها ، فوطنت النفس على ان اعرج على المحمرة في عودتي الى البصرة . ولكن تقادير الخير امرضتني فجمعتني بالدكتور ريحان الذي بشرني بوجود سمو الشيخ في الكويت [1] .

بادرت الى القلم والورق اكتب اليه كلمة استأذنه بالزيارة ، فوقف القلم في رأس الصفحة البيضاء جامحاً . كيف احيي هذا الامير ...

تابع شرح صفحة ١٩٩

« لعل السائح العربي لما احس بجنايته على الشريف الرضي ما رضي الا ان يتداركها فنسب اليه في مقام آخر شعراً ليس هو من شعره ، فصارت الجناية باثنتين والسيئة سيئة بسيئتين » .

فهل تظن ان الشريف الرضي يرضى . من الوجهة البيانية ، بان تجيء السيئة بعد الجناية . وهلا تظنه يعفو ، من الوجهة الاخلاقية ، عن الجاني عليه اذا كان ذلك في سبيل الحب . واني في هذا السبيل كذلك اشكر للعالم النجفي اهتمامه بكتاب«الملوك» وبصاحبه .

(١) كان الشيخ مبارك آل الصباح والشيخ خزعل صديقين حميمين يتزاوران دائماً فتوفقا الى فكرة جميلة يخلدان بها تلك الصداقة الجميلة . فبنى الشيخ خزعل للشيخ مبارك قصراً في المحمرة وبنى الشيخ مبارك للشيخ خزعل قصراً في الكويت . ولكنه كان الى جانب قصره في المدينة فبنى بعدئذ الشيخ خزعل قصراً خارج السور يقيم فيه بعض اشهر الشتاء . وهنالك اليوم قصر الشيخ احمد آل الصباح مجهز بالكهرباء والتلفون ومفروش بالفاخر من الرياش .

وهو كثير الالقاب والرتب والاوسمة ؟ بل كيف احيي من يتحدث الناس من عرب وعجم وافرنج عن مكارم اخلاقه وغرر اياديه ؟ هل احذو حذو الادباء فانظم الاسجاع ، في من كرمه كالمسك ضواع ، ومتفق عليه بالاجماع ؟ قد يظنها قصيدة مدح مني فيعاملني بما يوجبه شرع المحمرة . لذلك طرحت الرسميات جانباً وكتبت الى مولاي الشيخ خزعل كلمة سلام مقرون بالاجلال والاكرام ، فجاءني منه الجواب الآتي :

اسعد الله اوقاتك

ايها الفيلسوف المكرم ، حياك الله وابقاك ، وحفظك ونجاك ، واني مشتاق الى لقياك . فيجب ان ازورك قبل ان تزورني لان لكل قادم حق الزيارة وقد سبقتني بالجميل في كتابك الكريم ، فاشكر ذاك الذوق السليم واني صباحاً ان شاء الله ازورك في محل الجميع واحظى بنور تلك الطلعة واختم كتابي بالدعاء لكم بالتوفيق والسلام عليكم .

المحب لكم

خزعل

وكان اجتماعنا الاول في « محل الجميع » اي عند سمو الشيخ احمد في الجناح الجنوبي من القصر في القاعة المفروشة بالفرش الاوروبي .

الشيخ خزعل في العقد السادس من العمر وهو ، بالرغم عن الطبيبين في معيته ، على جانب متين من الصحة والعافية . الا انه كان يشكو يومئذ من اسنانه ومن الطبيبين معاً .

— سمعت الناس يشكرون اطباء الاسنان في اميركا . وقد قال لنا احد افاضل الاميركيين ان اطباء الاسنان هناك وباعة الخيل

وسماسرة البورص من طبقة واحدة . فلم نفهم كلامه فهل لك ان تشرحه لنا .

فقلت : اما باعة الخيل فالمشهور من امرهم هو انهم مثـــل من يبيعون المعاليق في حمـــاه فينفخونها قبـــل ان يزنوها . اما سماسرة البورص فلهم في اميركا اسم آخر اظن فيـــه الشرح الذي تبغيه . فهم كما يدعونهم هناك اصحاب الدلو الفارغ . اي انهم يتاجرون بلا شيء ، بالهواء . فيبيعون زبائنهم ما لا يملكون من الاسهم . وكذلك الزبائن يبيعون ويشترون . هو ضرب من لعب القمار ، يكثر فيه ما هو محض سر من الاسرار .

– واين وجه الشبه بينهم وبين طبيب الاسنان .

– وجه الشبه في المبدأ يا مولاي–المبدأ واحد هو الوهم والاحتراف به هو الهواء في المعاليق ، وهو الدلو الفارغ او الهواء في الدلو . فاذا رحت الى طبيب اسنان تشكو من وجع في ضرس واحد يقول لك بعد الفحص انك جبار لانك لا تشكو الا من ضرس واحد ، وان بقيـة اضراسك في حالة مفجعة ، فيقنعك بما أوتي من علم ان معالجتها كلها لازمة ولو اقتضى ذلك شهراً من العمل . والا فتمسي بعد اشهر وليس في فمك سن واحدة .

فقال الشيخ خزعل : قد اخطأ الاميركيون اذاً . فلو كان هـذا الرجل عندنا لعددناه من النشالين ؟ فضحك الشيخ احمد وقال : ينشل ما في الفم وما في الكيس . فقال الشيخ خزعل : والحمد لله ان اطباءنا سوريون .

قد كان في معية سمو الشيخ طبيب آخر سوري هو الدكتور رامي . ولكن الطبيبين على ما علمت قلما يصفان من العقاقير غير

المنادمة . وهما الصيدليان كذلك، فيمزجونها لسيدهم في السمر وحول الغطاء الاخضر المشهور .

جاء الخادم بالقهوة . فعلمت ان مجلس حاكم الكويت الرسمي يختلف عن مجلسه العــــام بامرين . الاول ان المجلس الرسمي المفروش بالرياش الفاخر لا يحضره غــير افراد من حاشيته واسرته . والمجلس العام المفروش بالوسائد والمساند يحضره من يشاء من الناس ، فيجلس في المكان الذي يليق به ولا يتعداه . اما الفرق الآخر فهو في تقديم القهوة . في المجلس الرسمي لا يصيح الخدم ويردد بعضهم صدى بعض وفي المجلس العام بل في مجالس آل الصباح اجمالا اذا مــــا أمر الشيخ بالقهوة يصيح الخادم في الباب : أقهُوة . فيهتف الخادم الواقف في الفناء: اي والله اقهوة ! فيسمعه اخادم الجالس عند باب المطبخ فيصيح كذلك : اقهوة ! فيؤمن راعي المعاميل على الصياحين اجمعين مردداً كلمة السر : اي والله اقهوة . فتجيء القهوة في الحال، وان كان المطبخ على نصف ساعة من المجلس .

انتقلنا في الحديث من الاسنان الى الاخوان فقــال الشيخ احمد : التعصب بلية العرب .

وقال الشيــخ خزعل : بل بلية العالم . ولو كان لي ان ارجع بعد الموت الى هذه الارض لما احببت ان يكون ذلك الا عندما تصبح ولا اثر فيها للتعصب الديني . الانسان اخو الانسان أحب ام كره.[1]

(١) اسلفت القول ان المحمرة وما يليها اي عربستان هي من اعمال فارس . كان الشيخ خزعل يحكمها حكماً مستقلا وقلما كان يؤدي الى الحكومة الايرانية المركزية حساباً . اما بعد الانقلاب ، او بالحري عندما كان رضا خان مسيطراً على الجيش وقبل ان تُوّج شاهاً، تصدت الحكومة الجديدة للشيخ خزعل فقوضت استقلال هذه الامارة العربية وساقت الشيخ خزعل الى طهران حيث ما لبث ان مات حزيناً مقهوراً .



سمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وابنه

ال خليفة

البحرين

حدودها : البحرين جزر في خليج العرب اهمها جزيرة مستطيلة وبضع جزر صغيرة منها واحدة الى الشرق هي المحُرّق واخرى الى الغرب هي البدِيّع . وهذه الجزر قريبة من الخط الواحد والخمسين من العرض الشرقي ويشطرها الخط السادس والعشرون من الطول الشمالي .

مساحتها : اربعمئة وخمسون ميلا مربعاً .

عدد سكانها : مئتا الف نفس .

اهم مدنها : المَنامَة والمحرّق والوفاع والحد والبديّع .

مذاهبها : السنة من المذاهب الاربعة ، والشيعة من الجعفريين والاسماعيليين ، ثم الوهابية . وفيها عدد كبير من الهندوس والفرس وبعض النصارى واليهود .

سلسلة من المدهشات

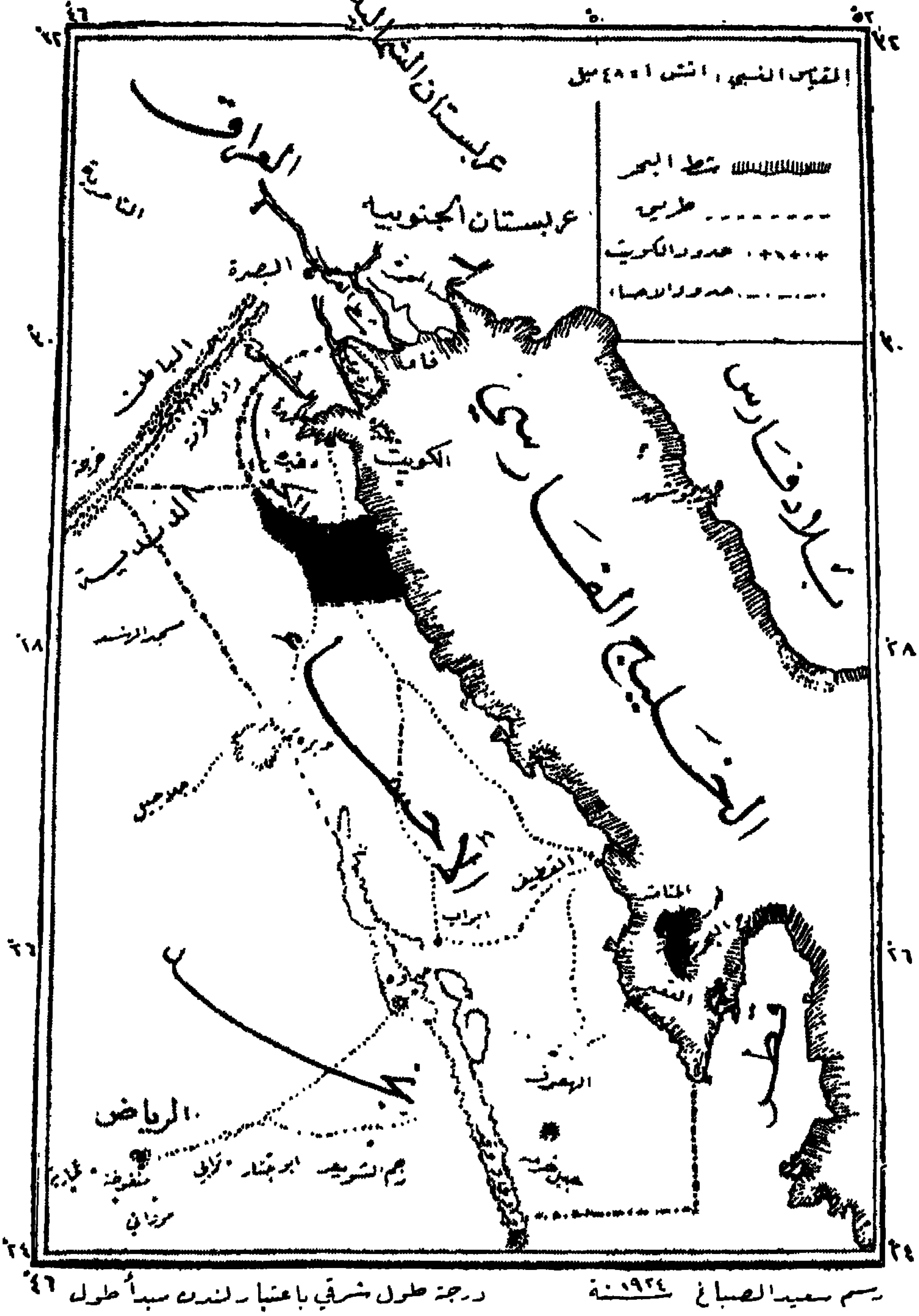
جهلي البحرين – قصور المنامة – الاشرعة والالوان– أسواق المنامة تجارها وتجارتها – النهضة الادبية – الرسالة الاميركية – المستشفى الاميركي – التبشير لا يفيد–حمير الحسا وأُتن البحرين – « ما السبب في جمالها ؟ . نطعمها السمك والتمر » – دبابة المستر فورد لا تستطيع ان تباري الحمير – ساعة الزجر هي ساعة التشمير – في مجلس الشيخ عيسى في المحرق – ذنبي في تناول القهوة – ذنبي في الحديث – في بيت الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة شيخ الادباء والشعراء في البحرين – حدثنا الشيخ ابراهيم عن جمال الدين الافغاني ومجلة سركيس والمقتطف – اداب السلوك عند العرب – المأدبة والحفلة – كتاب من الشيخ ابراهيم – بعض اقوال الادباء – نهضة البحرين السياسية .

ما اخطأت الظن مرة ببلاد عربيـة مثل خطأي بالبحرين . وما دهشت في قطر من الاقطار التي زرتها دهشتي اول يوم في هذه الجزيرة ولا غرو فالجهل يجسم الدهشات . قال احد الاصدقاء في الحجاز ، وهو يصف لي الطريق الى نجد : ستسافر من بمباي الى البحرين ومنهـا في مركب شراعي الى العقير . فظننت البحرين جزيرة صغيرة حقيرة يأوي اليها الصيادون ، وظننت شيوخها من البدو الذين يسكنون الخيـام . بل كنت عند وصولي اظنها معبراً الى الاحساء . وماذا ينفع التظاهر بالعلم اذا فضحتك اول كلمة منك بعد السلام ؟ اما واني امقت الادعاء فلا احاول اخفاء جهلي وهو جهل عام يكاد يشمل كل ادباء العرب . اني اعترف عني وعنهم .

اول ما يستلفت نظر الغريب عند وصوله الى البحرين، خصوصاً اذا كان قادماً من البحر الاحمر ، عمرانُ مدينة المنامة وقصورها المشرفة على البحر ثم المراكب الشراعية « الجلابيت » التي تشق من مياه الخليج ازرقاق لا صفاء بعد صفائه . ولا حفيف ألطف من حفيف هواء الخليج وهو يداعب الشراع ويهمس في اذن الصباح كلمات الامان والترحيب. انه لينطبع في تلك الاونة من اللونين، لون الشراع ولون الماء، صورة في الذهن هي كلوحة السينما في تغيرها المستمر وحركتها الدائمة . ذلك لان مياه البحرين قلما تخلو من « الجلابيت » السارحة المارحة فيها على الدوام . اما البواخر فهي ترسو على اربعة او خمسة اميال من البر .

واذا ما السائح وطىء ارض الجزيرة وجال في اسواقها يستلفت نظره كذلك حركة تجارية لا ينبىء حتى ظاهرها بكل ما هنـاك . فهو يشاهد في المخازن من الملبوس والمأكول والمشروب ومن اسباب الزينة والترف ما يندر الا في المدن الكبيرة مثل بمباي والقاهرة . اما اذا دخل احد بيوتات التجارة فيستوقف نظره لاول وهلة الدفاتر الضخمة والكتاب . ها هنـا ادارة ونظـام ، ودواوين يجلس عليهـا الزائرون لا الزبائن ، فيشربون القهوة ويدخنون . هو الشرق في مظهريه القديم والحديث . وفي هـذه البيوتات التجـارية صناديق من حديد ، واكياس من النقود ، ذهباً وفضـة ، وبريد تراعى اوقات سفره وقدومه ، وحسابات ومراسلات، وليس فيها شيء من البضاعة، وقلما يشاهد فيها غير حركة الكتاب وحركة الزائرين . اما السبب في ذلك فهو بعد ان تعلمه بسيط .

ان البحرين مثل الكويت محطة للتجارة بين الشرق والشطر الشرقي من شبه الجزيرة . ويصح ان يقال فيها من هذا القبيل انها سوق من



رسم سعيد الصباغ سنة ١٩٢٤ — درجة طول شرقي باعتبار لندن مبدأ طول ٤٦

مقاطعة الاحساء

اسواق نجد ، لان قسماً كبيراً مما يدخل اليها من الهند وايران والعراق ومن اوروبا واميركا عن طريق الهند يباع في نجد . وانك لترى منه ايضاً في اسواق بريدة وعنيزة وحايل . بل يصل منه حتى الى اليمن وعسير والحجاز لان القوافل من تلك الاقطار العربية تجيء عن طرق نجران وقلعة بيشه والخرمه الى الرياض والاحساء . تجيء بين اليمن وحبوبه وتعود حاملة من البضائع مـــا يدخل الى نجد عن طريـق البحرين والكويت .

ولا نزال في سلسلة المدهشات . فـان في البحرين اذا كنت ممن يهمهم الادب والشعر ، نهضة ادبية اجتماعية مباركة . اجل ، ان في هذه الجزيرة من الادباء والشعراء عدداً ليس بقليل ، وذكاءً ليس بضئيل . ان فيها نهضة تقارن اخواتها في الكويت وفي العراق ، وتقارن روحاً وطموحاً على الاقـل اخواتها في سوريا ومصر . فهذا ناديهـــا الادبي وفيه المجلات العربية اكثرها واحسنها ، وهذه غرف القراءة وفيها من الكتب الحديثة والقديمة انفسها ، وهذه المدرسة الابتدائية وفيها يُعلم بعض العلوم التي لا تزال تُعد في اليمن مثـلًا من بواعث الكفر والضلال وفيهـا من المعلمين المصري والعراقي والنجدي . ان البحرين ليست سوى معبراً الى نجد ! حبذا المعبر وما فيه من مدهشات الثقافة والعمران .

واليك بمزيد منها . است كما قد يعلم القارىء ممن يعجبون بالمرسلين ويستحسنون التبشير بالاديان . ولكن في البحرين معهداً اميركياً ديني الاصل طبي وتهذيبي العمل [1] وهو مؤلف من كنيسة يخدمها قسيس ،

(١) هو الرسالة العربية(The Arabian Mission)التابعة للكنيسة البروتستانية الهولندية في اميركا

ومدرسة كانت يوم زرت الجزيرة مقفلة ، ومستشفى وصيدلية يديرهما طبيب فـاضل وبعض السيدات اللواتي يساعدنه ويبثثن عملاً لا قولاً روح التهذيب والارتقاء في زيارتهن اسيرات الحجاب والحريم .

ولكن هـــذه الرسالة الاميركية المؤسسة في البحرين والكويت والبصرة تستطيع ان تضاعف خيرها وتعممه لو اقلعت عن التبشير وحصرت مــا لديها من اسباب البر في الطبابة وفي التعليم المجرد من حب الهداية الروحية ذلك لان المسلمين وخصوصاً العرب منهم راضون رضى عجيباً بدينهم ولا يرغبون في سواه بديلاً . واكثرهم لذلك يبتعدون عن المدارس التي يديرها المرسلون فـلو فرضنا ان في مدرسة الكويت او البحرين،وهي تجعل من دروسها الكتاب المقدس، عشرين تلميذاً فان هذا العدد يزداد اضعافاً اذا الغي التعليم الديني او قرىء الكتاب المقدس في المدرسة كما يقرأ التاريخ . ان المرسلـــين انفسهم ليعلمون ذلك ، وهم في مدة خمسين سنة لم يتمكنوا من هـداية خمسة من المسلمين فما الفائدة من التبشير اذن؟ حبذا مدارس اميركية لا مفزعات دينية فيها تهرّب المسلمين .

ومما ادهشني في اليوم الاول من اقامتي في البحرين — وليس فيما اقول غير الجد والاعجاب — تلك الاتن البيض التي تفوق حسناً ونشاطاً حمير الحساء . ومعلوم — ان حمير الحسا ملوك الحمير . واتُن البحرين اميرات الاتن . اما السبب في حسنها وسمنها وتدملك ربلاتها ، وفي نشاطها المقرون بالحكمة ، فهو ان اهل البحرين يطعمونها السمك ثم يفكّهونها بالتمر . وهوذا مخزن السمك . لا تبادر الى التصليح ، ايها الاستاذ ، فالساحه لا تفيد المعنى . انما المخزن بعينه اريد وكأنـه

مخزن قمح او شعير ، ترى فيه السمك الصغير الذي يصنعون منه السردين في اوروبا مركوماً كركام الرمل . فهم يجففونه ويبيعونه مثل القمح او الشعير بالاكياس .

اما « دبابة » المستر فورد الاميركاني التي تزعج السياح حتى في البادية وفي اقصى زوايا الارض الموحشة ، فهي اليوم من الكمالات في البحرين . ولكنها غداً تصبح من المبتذلات المجلجلات شأنها في كل مكان . فيلحق شرها بتلك الاتن الطاهرة الجميلة . الا ان في البحرين صعوبات في السفر لا يصلح لها آلة او انسان . جاءني ذات يوم بعض الادباء يدعونني لزيارة الشيوخ في المحرّق (١) وكانت ساعة الجزر فلم نستطع الوصول الى الجلبوت الذي كان في البحر الا اذا اخترقنا السبخة حفاة وخضنا المياه حتى الركاب . فركبنا الاتن الى الجلبوت وشكرنا الله ان في هذا المضمار لا تباري « الدبابة » الحمار .

ليس كل من يبحرون من المنامة والمحرق او اليهما يركبون الاتن ساعة الزجر ، بل ان اكثرهم رجالاً ونساء ، وقد شمروا عن السيقان وعما فوقها في بعض الاحيان ، يخوضون المياه بين الشاطىء والجلابيت وهم يمزحون ويضحكون كأنهم يسبحون ويلعبون . لا اظن ان مشهداً من مشاهد الرقص في باريس او من مشاهد السباحة في مياه بيارتز في الصيف يضاهي في العري والبهاء هذا المشهد البحراني وقد رُفع ستاره للشمس والسماء . بيد ان مسرحه مسرح الفطرة والسذاجة ، فلا سبيل للهمس ، ولا باب لما ساء من الفكر والايماء . واغرب ما فيه ان النساء المحجبات يشمرن كالرجال . لم اتمالك

(١) في البحرين والكويت كما في نجد يطلقون اللفظة بالجمع على الحاكم .

مرة ان اظهرت دهشتي ، وبيدي آلة التصوير ، اذ رأيت احدى النسوة تنزل من الجلبوت الى المياه وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقي : شيء مألوف . خذ صورتها ولا بأس، فصورت آية النشور ، اما الوجه فمحذور .

نزلنا في المحرّق وسرنا الى قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى ابن علي آل خليفة ، فاذا في الزقاق الى اصل الحائط بعض الاعراب عاقدون الحبْوة ، واذا في الفناء الكبير جمهور آخر لا يقل عن المئة جالسون في مجالس من اللبن والحجر كل يحمل سيفه او عصاه، وقد خيم عليهم السكوت كأنهم الاصنام . مشيت في الفناء لا ادري أفي مجلس الحاكم انا ام في معبر آخر اليه . ولما وصلت الى وسط تلك الساحة الرهيبة وقف احد الجالسين في الصدر ، وهو شيخ صغير القامة ، قصير اللحية ، طاعن في السن ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ، فاجلسني في مجلس من الحجر الى يمينه . هو الشيخ عيسى بعينه . رحب بي ولامني لاني نزلت في المنامة ولم انزل في المحرّق ضيفاً عليه .

ثم امر بالقهوة فجاءت في ابريق من النحاس كبير جميل ، يحمله رجل اسود عمليق لابس معطفاً احمر مزركشاً بالقصب ، يتبعه ولد في ثوب رسمي كذلك يحمل الفناجين . وقف الاثنان امام سمو الشيخ وقوف الجندي امام القائد العام فسلما واليد على الرأس ، ثم اخذ صاحب الابريق فنجاناً من الولد فصب فيه وقدمه لمولاه ، ثم صب ثانية وقدم الفنجان للضيف فتناولته باليد اليسرى دون ان ادرك وقتئذٍ خطأي . لست ادري ما حل بي تلك الساعة فكنت في حديثي كما كنت في عملي متعثراً قل هي سلسلة من المدهشات ، وقد كنت هذه

المرة مصدرها لا موضوع تأثيرها .

دُهش الشيخ عيسى ولا ريب من فعلتي الاولى . وعندما شرعت احدثه امام ذاك الجمع الصامت الساكن في موضوع رحلتي نظر الي وفيه شيء اشد من الدهش . وما كدت اذكر امراء العرب وحاجتهم الى التعارف والتفاهم حتى وثب من المجلس ، فوقف الحضور كلهم مثله بغتة ، وتقدم مني يشير ان اتبعه . مشيت وراءه يصحبنا بعض حاشيته وانا بينهم مثل مذنب يساق الى السجن . على ان سمو الشيخ ، عندما صرنا في الشارع ، التفت اليّ وقال : « هؤلاء العُربان لا يفهمون ، ونحن لا نتكلم في السياسة امامهم . نمشي الى البيت فنتحدث هناك » .

مشينا الى بيته الخاص فصعدنا الى غرفة فيه على السطح لا يدنو منها « العربان » ولا يصل اليها من الرقباء اذن او عين . وكان معنا حفيده الشيخ محمد بن عبدالله واخوان من الاسرة الشريفة . جلسنا وانا لا ازال الوم نفسي على ما بدا مني فقال سموه دون ان يُقصر اللطف في لهجته : تكلم الآن . فجمعت شتات الفكر وافضت في الموضوع وهو منصت يهز برأسه . ثم قال : العرب لا يتحدون . فقلت : وهل تلبون دعوة الملك حسين الى اجتماع يعقد في مكة من اجل البحث في شؤون العرب والاسلام ؟ فاجاب قائلا : اذا لبى سلطان نجد الدعوة فنحن نلبيها .

وقفنا عند هذا الحد في السياسة ورحنا بعد ان ودعنا سموه نزور ابن عمه الشيخ ابراهيم بن محمد المشهور الذي حكم الجزيرة عدة سنين وكان له والانكليز مواقع سياسية انتهت بنفيه وبوفاته في المنفى . اما ابنه الشيخ ابراهيم فهو اشد ميلًا الى الادب والشعر منه

الى السياسة . بل هو شيخ الادباء والشعراء في البحرين ، ومن خيرة رجالها . تلقى العلم في الحجاز من كبار العلماء وله المام بجُل الفنون . هو رجل عصري في آرائه واحكامه ، يطالع المجلات العربية ، ويتبع الحركة الفكرية والثقافية في العالم ، ويسعى ، وهو الرئيس الثاني لمجلس المدارس ، في تمهيد السبيل في البحرين الى بعض خيرها .

حدثنا الشيخ ابراهيم في مجلســـه عن جمال الدين الافغاني الذي عرج مرة على البحرين قال : لم يكن في تلك الايام من يعرف لجمال الدين مقاماً ولا من يكترث به . حتى انه لم يجد في هذا البلد من يضيفه . هذا منذ ثلاثين سنة . اما اليوم فترانا نرحب بالعلم ورجاله . وان ادباء البحرين يفتخرون بزيارة الاديب اللبناني الذي قال فيه سركيس ...

ثم انتقل محدثي من مجلة سركيس الى مجلتي المقتطف والهلال ، فسرني ثناؤه على اصدقائي البعيدين كما سرني ما خصني به لانه خلو من المبالغة والمجاملة . وما كدت اقول لنفسي ما احلاه حتى جاءت القهوة وجــاءت معها كلمة استفهام طيها التأنيب . قـــال الشيخ ابراهيم وانا امد يدي الى الساقي: وما السبب في تناولك فنجان القهوة في مجلس الشيوخ باليد اليسرى ؟ قد انتقدوا عليك ذلك . فقلت وانا صادق في عذري : ان في اليمنى وجعاً عصبياً يضطرني في بعض الاحيان الى استعمال اليسرى . فقال فضيلة الشيخ : عذر مقبول وسننشره في البلد دفاعاً عنك فقلت وعسى ان يُعلن العذر بسرعة اعلان الذنب . فضحك فضيلته ومن في المجلس .

قد يستغرب القارىء اهتمام عالم لمثل هذه الامور التافهة . ولكنها ليست بتافهة عند العرب ، فانهم على اختلاف طبقاتهم يواظبون على

آداب الجلوس في المجالس ، وعلى المائدة او الى السماط ، مواظبة الطبقة العالية من الاوروبيين . فترى البدوي في مضربه مثل الامير في قصره يحافظ على المقامات ويرعى حقوقها ، وعلى العادات والتقاليد ويحسن التمييز في ادق خصائصها .

اما امتناع الشيخ ابراهيم عن مشاركة ادباء البحرين في الحفلة التي اقاموها للاديب اللبناني فلا اظنه من هذا الباب . فلو كان المقام السبب في الاحجام لما ترأس الحفلة الشيخ محمد حفيد الشيخ عيسى ولما حضرها غيره من الاسرة الشريفة . انما الحقيقة هي ان الشبان الذين اقاموا الحفلة ارادوا ان تنحصر بهم فلم يدعوا لها الشيخ . وكنا قد اجتمعنا حلقة حول السماط في دار الشيخ ابراهيم العامرة كان هو فكرها اللامع ، فحدثنا في احوال البحرين وتاريخها حديثاً فيه لذة وفائدة . ثم شرفني بكلمة تفصح عن وطنية جلبابها الحكمة وتاجها العلم انقلها الى القارىء مثالا من نثره وفضله :

حضرة الاستاذ الكريم .

دعاني لكتابة هذه السطور ، والدواعي جمة ، ما يدعو المشتاق لبث اشواق ، والرفيق للتحدث مع رفاق . ومجال القول في الشؤون الانسانية واسع كل يأخذ فيه بحسب امياله ، ومقتضى حاله . واهم ما يتحدث به الاخوان وان تناءت بينهم الاوطان ، وهو ما يتواصون به من رفع شأن امتهم بين الامم وتنبيه اذهان خاصتهم الى مطالب عصرهم . واذا نظرنا الى ذلك بعين الاستحسان من وجه عام فلا شك اننا ننظر اليه بعين الوجوب من وجه خاص على من رزق من الاقتدار على الكتابة حظاً وافراً ، وتفرغ لها بعد ان خاض البحار والقفار ، وفاز بصحبته الكبار والصغار ، وحاز مزية الاختيار . وقدر له قبل

ذلك ان يعيش في العالمين القديم والحديث ، ويرى مظاهر الحياة من الفريقين . فلا ريب ان يكون لكلامه التأثير التام في بني امته . فعسى ان لا يحرم ابناء الامة العربية من اخيهم الامين ما يقوي نهضتهم من اختبارا ته الثمينة ونصائحه المفيدة . فالرائد لا يكذب اهله ، والفاضل لا يمنع فضله .

من المخلص

ابراهيم بن محمد آل خليفة

الرائد لا يكذب اهله . ما اجملها كلمة من شيخ ادباء البحرين . وقد ردد صداها الشبان نثرا ونظماً واضافوا اليها كلمات فيها من الحماسة والصراحة ما يجدر بالشباب . اني لا ازال اذكر من كلام الشيخ محمد رئيس النادي الادبي قوله : احمل سلامنا الى جميع اخواننا الناطقين بالضاد وبلغهم اننا قد اخذنا على عاتقنا السعي في تحقيق امنيتنا وهو رفع شأن امتنا عن طريق العلم .. واننا مستعدون لمصافحة كل من يمد يده الينا للتعارف والتواد والتعاون والتعاضد .

والشيخ محمد هو ابن الشيخ عبدالله كبير انجال امير البحرين ، كبيرهم عقلا ووطنية وعزماً ، فلا يخلو كلامه من اشارة سياسية .

ان بين ادباء تلك الجزيرة العربية الجميلة شاباً ورد ادبه بوساطة المجلات العربية في الغرب والشرق فاستقى من الموردين ، فصفت روحه واشتدت لهجته . هو عبدالله بن علي آل زايد ، سلك الكهرباء بين الادباء . وكأني به يكمل كلام الرئيس في خطبته تلك الليلة اذ قال :

— قل للغربيين انك زرت مصر والحجاز واليمن والعراق ونجد والبحرين فرأيت في هاته الامصار شعوباً نفضت عنها غبار الكسل

واستعدت للعمل ، شعوباً تتوق الى مصافحتكم وانتم الاصدقاء والى مصادقتكم وانتم الزملاء . ولكنهـــا لا ترضى بحال من الاحوال ان تكونوا لها بمثابة السادة ... قل لهم ان الشعب العربي هو استاذكـم الاول ، ومعلمكم القديم ، فـــلا تقابـلوا الاحسان بالاساءة وتجعلوا ثواب ارشاده اطالة استعباده ... قوموا لهم بمقام الناصح المحرر ، لا الجبار المسيطر . دعوا الزمان الذي كيفكم يكيفهم والعوامـل التي اعدتكم تعدهم ..

هذا من عبدالله بن علي نثر فيه صراحة ، فيه حقيقة ، وقد عم ذلك كله بقصيدة جاء فيها وهو يصف اهل الشرق :

غنيهـم بخيل والمداوي عليل والاجانب اولياء

نعم غنيهم بخيل في المشاريع العامة الثقافية والصحيـة ، والمداوي عليل بما في خرجه من عقاقير الخزعبلات والتقاليد السقيمة . فاذا مـا اصبح الغني في ما ذكرت كريمـــا ، والمداوي سليماً من سموم الخرافات ، فتيقن يا اخي عبدالله بن علي بان الاجانب يصبحون اصدقاء وزملاء .

في البحرين كما رأيت نهضة سياسية هي قرينة النهضة الادبية . اجل ، ان في البحرين من ينشدون الوحدة العربيـة ، وفي نادي البحرين من يرفعون النهضتين الى مستوى الفلسفة العالي ، ومستوى الانسانيـــة الاعلى . فقد سمعت ايضاً تلك الليلة اديب من ادباء الفرس ، والفرس مهد الفلسفة والحرية الروحية ، يذكر الشاعرين الصنوين عمر الخيام وابي العلاء المعري . قـــال محمد صالح الخـانجي ، اني احب المعري والخيام واني شغف باشعارهما . وقد سرني بنوع خاص مـا بلغني من ميلك اليهما وغرامك بافكارهمـــا ... ان البشر لم يزالوا كما كانوا

ما سلف من الزمان وكما وصفهم المعري والخيام ... ان الاديان الحنيفة روحها واحد وانما تختلف الشرائع التي تتضمن احكام المرافعات وفصل الخصومات ... فالاديان بروحها ومغزاها تدعو للاجتماع والاتحاد ... الشرقيون كلهم عائلة واحدة ... خلاصهم وسعادتهم في ان يسود النظام بينهم والوفاق والتضامن .

مرحى ، مرحى .

ها قد اطلعت القارىء بالقرائن والامثال على بعض ما سمعت في البحرين – ولهذه اسباب تاريخية وطبيعية سيجيء ذكرها – وسأعرض كذلك لاسباب الشكوى والانين في اصوات الادب والشعر .

آل خليفة شيوخ البحرين

مهد الحضارة والشراع

اصل الفينيقيين – شهادة التاريخ – مدافن البحرين – آثار فينيقية– قائــد من قواد الاسكندر يزور بلداً فينقياً في خليج العجم – صور وجبيل هناك – العرب والفينيقيون من اصل واحد – « عشاق اليم واسياد الشراع » – التجارة الجديدة – لؤلؤ البحرين – كمية ما يستخرج من الخليج – ما هي اللؤلؤة – كيف تنشأ في المحار– رأي العلماء ورأي القزويني – الغوص والغيص – اصطلاحات هذه الحرفة كيف يقسم مجموع اللؤلؤ بعد الغوص – تجار اللوءلوء – اخطار الغوص – الدول – السبب في حسن لؤلؤ البحرين – عجائب الطبيعة وعجائب القزويني – الماء العذب تحت الماء المالح – تحدر الارض من نجد الى الاحساء – اهل البحرين يشربون من مياه العارض واليامة .

قال بعض المؤرخين ان خليج العجم هو مهد الحضارة بل مهد الجنس البشري وان سكانه الاقدمين اي سكان الجزر فيه هم اول من رفعوا شراعاً في البحار ، واقتحموا اخطار الاسفار ، فمارسوا الملاحة واتقنوا علمها ، وكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب . وقال آخر من ان الفينيقيين هم من هـذه الديار العربية . فقد جـــاء في بعض كتابات المصريين القديمة ذكر البُنْط Pount وهم اسم الفينيقيين قبل ان يحتلوا بلاد الشام . « والظاهر انهم من اصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة انهم ظعنوا من الديار المجـاورة لخليج فـــارس الى سواحل البحر المتوسط » (١)

وجاء في التاريخ القديم تأليف رولنسون الانكليزي الذي يسند كلامه إلى اصح الثقات مثل هيرودوط واسترابون : ان اقدم الدول

---

(١) لغة العرب الجزء الثاني

الاسيوية تأسست عند فم الخليج [١] فضلاً عن الاثريين الذين يقولون ان القرنة اي البلدة الكائنة عند ملتقى دجلة والفرات اليوم هي المكان السعيد العالي الذي سقط منه الابوان الكريمان — هي جنة عدن ، او كانت . ولا تزال شجرة الخير والشر قائمة فيها — ومثمرة — حتى اليوم .

ان علماء التاريخ وعلماء الآثار اذن متفقون مع الانبياء . على نه مهما كان امر الاساطير ومداها من الحقائق الطبيعية والتاريخية ، فمن المعقول ان الفينيقيين ، وهم من الشعوب الشرقية السامية ومن رجال البحار الاولين ، نشأوا في جوار الخليج او فيه ، وكانت اسفارهم في البداءة بين الهند والشام ومصر ، ثم ظعنوا الى سواحل سوريا وخاضوا البحر المتوسط ، فوصلوا الى قادش وبلاد الغال ، واصبحوا في تلك الايام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الاقصى .

ومما قاله رولنسون انهم كانوا يسافرون من ارواد ببلوس براً الى الخليج العجمي فيبحرون منه الى الهند وسيلان ، ثم يعودون وهم يحملون الذهب من اوفير [٢] كأنهم بعد ظعنهم غرباً الى سوريا كانوا يعودون الى بلاد هي بلادهم وقد توارثوا علومها مع علم الملاحة بعضهم عن بعض . ولا عجب اذا كان الخليج وجواره منشأ الفينيقيين ومطلع انوار المدنية الاولى ، فان ابناء هذه الربوع هم الذين مصروا

---

(١) موجز التاريخ القديم تأليف جورج رولنسون Ancient History by George Rawlinson

(٢) اوفير هي البلاد الشرقية التي اشتهرت قديماً بكثرة نضارها . وقد اختلف المؤرخون في موقعها فمنهم من قال انها كانت على الشاطيء الهندي قبال عمان ومنهم من قال انها في افريقية الشرقية .

ارض الكلدانيين وشيدوا قصور بابل وآشور .

من المؤرخين من يقول ان الصينيين كذلك نشأوا في جوار الخليج وظعنوا شرقاً الى البلاد التي هي اليوم بلادهم . ولكننا وان عدنا مع علماء التاريخ خمسة آلاف سنة فلا يلزم ، وموضوعنا البحرين ، ان نعود الى الاساطير قبل ذاك العهد او بعده . ان في جزيرة البحرين نفسها ما يثبت رأي رولنسون ، وهرودوط واسترابون ، في اصل الفينيقيين . ان في الجزيرة اثراً تاريخياً لم يُكشف بعد كل سره .

ركبنا ذات يوم السيارة وسرنا من المنامة جنوباً فمررنا بارض ظليل نخيلها ظليل ومياهها الجارية في القُنى غزيرة ، ثم بخرائب قديمة عربية ، ثم بغابات وآكام افضت بنا الى ارض تقفر تارة وطوراً تزدهي اخضراراً ، حتى اذا اجتزنا بضعة اميال وصلنا الى قرية علي . فانكشف امامنا مشهد غريب خصوصاً وهو في جزيرة صغيرة مجهولة كالبحرين تلال او اطلال تظنها لاول وهلة آثار مدينة قديمة . ولكنها آكام هرمية اصطناعية قائمة في سهل فسيح بل في قفر سبسب بين المنامة والرفاع يدعى المراقيب .

هي مدافن البحرين وقد نبت فيها العوسج والقيصوم . هي مدينة الاموات في كف الزمان ، وفيها احياء كالمدينة متفرقة متعددة . وفي كل حي مئات من القبور . مدينة دارسة لا يعرف لها تاريخ . كأن سكانها خلقوا وماتوا قبل ان يستكشف الانسان للقراءة سلماً وللكتابة مسماراً .

صعدنا الى رأس اكمة علوها زُهاء خمسين قدماً ثم نزلنا الى جهة منها فيها اثر البناء — باب كبير وعضادة ونصف عضادة وعتبة امست أسكفة تحت الاقدام . دخلنا فاذا نحن في بيت فيه غرفتان بنيتا

بالحجارة الضخمة الواحدة فوق الاخرى . ويظهر ان الاموات كانوا يدفنون في هذه الغرف واقفين او جالسين . او ان هذه القبور العالية كانت لامراء الجزيرة واعيانها . هي تختلف علواً ولكنها لا تنقص عن الثلاثين قدماً . ولا تزيد على الخمسين . ولكن شكل الغرف والمعابر فيها واحد لا يتغير وكلها في جوار قرية علي . اما المقبرة الفسيحة الارجاء ، المقبرة العامة على ما اظن ، فهي تمتد بعيداً في جهتي الشرق والجنوب ، وفيها ما يزيد على الستة الاف قبر يراوح علوها بين الخمس الاقدام والعشر . هي من اكبر مدافن الشرق ولا يبعد ان تكون أقدمها عهداً .

ومع ذلك لم يهتم بها علماء الاثار والتاريخ اهتمامهم بغيرها . وقد يكون السبب في ذلك خمول ذكر الجزيرة عند عامة الناس وبعدها عن جادات السياح المألوفة بيد ان رجلاً انكليزياً اسمه دوران (١) جاء الى البحرين سنة ١٨٧٩ م وكان اول من فتح مدفناً من تلك المدافن على ما اعلم وباشر الحفر والتنقيب ، فوجد هناك مع عظام الانسان قطعاً من عظام الخيل ، وشقفاً من الفخار ، وآنية من العاج ، وسُجُفاً وستائر بالية ، واخشاباً ناخرة من السوس والديدان . الا انه لم يذكر انه عثر على كتابة او صورة محفورة في تلك القبور .

ثم جاء في سنة ١٨٨٩ سائح انكليزي اخر هو تيودور بنت (٢) وامعن في التحري والتنقيب ، فعثر على اثار صناعية بعث بشيء منها الى المتحف البريطاني ، فدرستها لجنة المتحف وقالت انها فينيقية الاصل فاثبتت في ذلك رأي المؤرخ رولنسون الذي مرّ ذكره ، واثبتت ضمناً ان هذه القبور قديمة جداً لان هجرة الفينيقيين من هذه الجزيرة الى

(١) Capt. Durand (٢) Theodore Bent

آل خليفة شيوخ البحرين

البحر المتوسط هو منذ خمسة الاف سنة كما يرتئي المؤرخ رولنسون ان هناك دليلًا اخر على قدم عهد هذه المدافن وهو ان لا اثر فيها ،على اهميتها ، للكتابة او للتصوير الرمزي .

ان في التاريخ القديم اشارة اخرى الى فينيقية البحرين . فقد كتب احد القواد المقدونيين عندما جاء الى خليج العجم من قبل الاسكندر مستقصياً طريق الهند انه زار مدينة فينيقية على الساحل الغربي من الخليج ، ثم جزيرة تدعى نيرين ، وهي على مـا يظهر دارين العرب ، ولا تزال قربها اليوم اسكلة بحرية تدعى الجبيل . فضلًا عن ذلـك ان على شاطىء عُمان الشرقي بلدة كبـيرة اسمها صور ، سكانها عشرة آلاف واكثرهم نوتيون ، لديهم مئة سفينة كبيرة والفان من السفن الصغيرة تسافر الى الهند والبصرة وبورت سعيد . وصور هـذه من المدن القديمة ، وقد كانت في المـاضي ، مثل صور الشهيرة على البحر المتوسط ، محطة تجارية بين الهند وبلاد بابل .

هاك ادلة التاريـخ والاثار والديار التي لا تزال عامرة على ان الفينيقيين ظعنوا من خليج العجم .بل من بلاد العرب الشرقيـة الى البحر المتوسط . واذا كان يريب القارىء شيء من ذلك فلا مجال على ما اظن للريب في احد امرين : امـا ان الفينيقيين من اصل عربي ، وهم مثل العرب ساميون ، واما ان العرب من اصـل فينيقي . فاذا صحت روايـة رولنسون رجحت القضية الاولى واذا صحت رواية قائد الاسكندر رجحت الثانية . اما اذا كان لا ريب في الروايتين فمنشأ الفينيقيين ومعاهدهم كلاهما في هذه الجزر وهذا الساحل العربي من الخليج .

ولا فرق عندي في كل حـال اذا كان العرب الاصل او الفرع .

فاذا كانوا الاصل فمرحباً بالفينيقيين ابنائهم ، واذا كانوا الفرع فمرحباً بالمتحدرين من الفينيقيين . لست من الذين يتلذذون بتعليل النور ، وتحليل روائح البخور وان ما اتيقنه هو ان بين الشعبين العربي والفينيقي صلة جوهرية قد لا ترى ولكنها لا تنكر . بل هي ترى في سنة الوراثة وادلة الحياة في الحال . اليها اذن اعود بالقارىء .

ان اهل البحرين مثل اهل الكويت بل مثل كل العرب الساكنين على سواحل الخليج لا يزالون من عشاق اليم وسادة الشراع بل هم اليوم الملاحون السائدون في الخليج وفي البحر الاحمر ، هذا اذا استثنينا السفن البخارية . اجل ، ان العرب اليوم مثل الفينيقيين قديماً قابضون اعلى زمام الملاحة ، رافعون فوق ساري الجد علم الشجاعة والاقدام . لا انهم اكتشفوا من مصادر الرزق والثروة غير نقل البضائع والمتاجرة في الامصار البعيدة . فقد اعتاضوا عن التنك والزجاج بالخفيف النفيس ، باثمن ما يستخرج من أعماق البحار .

لا اعرف من تاريخ اللؤلؤ غير شيء من حياته الطبيعية . اما اكتشافه وأول من تاجر به من الرجال ، وأول من خدع به امرأة ، وأول من تحلى به من النساء فتلك امور أجهلها . وقد يكون فاتني ما قاله الاثريون والمؤرخون والروائيون في اول من فتح صدفة واستخرج الدرة منها ، واول من صاغها واستغوى الغواني بها . قد جاء في التاريخ القديم ذكر ذهب اوفير ولم يُذكر على حد علمي لؤلؤ خليج العجم الذي هو مهد الحضارة والشراع ومهد تلك الصدفة التي يكمن فيها المال والجمال .

ان اللؤلؤ مصدر الثروة في البحرين واشهر ما اشتهرت به الجزيرة فقد قدر ما يخرج منها سنوياً بثلاثين مليون روبية اي مليونين

ليرة انكليزيه[1] وقد اجمع الاخصائيون ان مغاص البحرين هو اكبر مغاص في العالم مثلما اجمع الصاغة ان لؤلؤ البحرين يفوق صفاءً وحسناً سائر اللآلي . ولا بأس ، ونحن في الموضوع ، من الالمام بسيرة هذه المخلوقة العزيزة الغالية. وان ما اورده الآن هو من كتب العلم والخبراء لا من دواوين الشعر والشعراء .

اللؤلؤة بنت المحار ، بيتها الصدفة ، وبيت الصدفة البحر على الدوام لولا يد الانسان . اما المحار فعرب البحر الاحمر يقسمونه الى قسمين الصدف وهو الكبير الذي يندر اللؤلؤ فيه والبَلبْيل اي صغير الصدف منبت اللآلي . فاذا ما استخرجوا الدرة من البلبيل يرمون بصدفتها ولكنهم يحتفظون بالصدف الكبير فيتجرون به . وقد قيل لي ان قيمة ما يصدّر من الصدف واللؤلؤ من البحر الاحمر لا يتجاوز المليون روبية لان مغاص اللؤلؤ فيه قليلة صغيرة .

اما قصة الصدفة فها كها بالايجاز . هي في يوم الولادة تلقي بيضها الاصفر على وجه الارض في قعر البحر ، وهو مثل حب الخشخاش يتجمعُ حفناً فيتلوّن منه القعر . ثم تنشأ البيضة فتغدو كحبة العدس ، فينبت لها عروق خضراء براقة مائلة الى الازرقاق . تنمو حتى تصير كالانامل طولاً وهي دقيقة كالشعر ، شديدة كحبل من مسَد وترسب عروق الصدفة فتثبت في مكان صلب من القعر . ومنها ما يطفو فيتحرك

---

(١) وقدّر ما يخرج من الكويت بقيمة ثمانية ملايين روبية ، ومن القطيف باربعة ملايين ، ومن الجبيل بستمئة الف روبية ، ومن عمان بخمسة عشر مليون ، ومن جزيرتي لنجه وقيس وهما قرب الساحل العجمي بمليون ونصف. قد يكون في هذه الارقام بعض المبالغة ولكنها لا تقل عن ثلاثة ارباع القيمة المذكورة . وقد اخبرني العارفون بان مغاص اللؤلؤ يمتد من دُبي في عمان الى رأس المشعاب جنوبي الكويت وكله في الجانب الغربي اي العربي — من الخليج .

بحركة البحر ويتفرق بعضها عن بعض ، بل يظل يتدحرج حتى يلقى صخرة او شجرة او مكاناً صلباً من القعر تدق اوتادها فيه ، تمكن عروقها منه ، وهي لا تأخذ بالنمو الا بعد ان تنتهي من الدوران ، وتثبت في مكان . فتفتح اذ ذاك فمها اي صدفتها للغذاء وجله من الطين .

كأني بالقارىء يقول : وعدتنا بترجمة اللؤلؤة فجئتنا بقصة المحار على اني قلت ان اللؤلؤة بنت المحار ، وفي القول من الشعر اكثر ما فيه من العلم ، اما الحقيقة العارية الباردة المؤلمة فهي ان اللؤلؤة بنت مرض يصيب المحار ، او بالحري نتيجة خلل يعتري نظام الافراز فيه والذي يظنه علماء الحيوان هو ان حبة رمل او بيضة او حشرة تدخل مع الغذاء فتتهيج منها اغشية المحارة فينتج عن ذلك افراز غير طبيعي يتكون منه كتلة كلسية لماعة هي اللؤلؤة [1] . فاذا جاءت الكتلة هذه متوسطة في اللحم كانت نفيسة ، واذا لامست او قاربت الصدف كانت رديئة .

وفي سبيل هذه الكتلة الكلسية يفادي الكثيرون من رجال الغوص بصحتهم وبارواحهم . فاكثرهم يرعفون حينما يُرفعون الى وجه البحر ، ومنهم من يصابون بداء الرئة . ذلك لان الغوص يلزمه مع الجرأة والخفة نفس طويل . والنفس اذا طال تعبت الرئتان ، واذا طال

(١) اما رأي علماء العرب فقد قال القزويني في الجزء الاول من كتابه عجائب المخلوقات : ان الرياح وقت الربيع تحمل الى بحر فارس رشاشات من بحر اوقاس وفيه ماء شبيه بالزئبق لزج مثل الغراء فيتولد منه الدّر بان تقع تلك الرشاشات في محل الصدف فيلقمه الصدف كما يلقم الرحم المني . فربما وقعت فيه قطرة كبيرة فتنعقد دراً كبيراً ، وربما تقع رشاشات فتنعقد منها اجزاء صغار كما ترى في اكثر الاصداف . هذا رأي القزويني وليس فيه شيء من العلم .

تحت المـــاء جاء فوق الامساك ضغط تتفجر منـه في بعض الناس الشرايين .

اما موسم الغوص فهو « من اول برج الثور الى اوائل برج الميزان »(١) كما يقول الشيخ النبهاني (٢) الذي يعود الى الافلاك مثل كل اعرابي ليحدد الازمنة . وقد اخبرنا في كتابه انه « اورد صفة الغوص » وان كانت معلومة لانه اطلع على رحلة ابن بطوطة فرآه يصف مغاص الجواهر بخلاف ما يشاهد في هذا الزمان .

السفن التي تستخدم اليـوم للغوص هي على نوعـــين السنبوك والجلبوت . امـــا في الماضي فقد كانت على شتى منها البغلة والبقّارة وكلها شراعية . واهل الغوص يعبرون عن مجموع السفن بالخشب ويسمون ابتداء الموسم الركبة وانتهاءه القفّال وهم يـــدعون اللؤلؤ قماشاً والجواهر دانات .

في البحرين يباشر صغار الغاصة العمل قبل ابتداء الموسم فيجيئون في فصل الشتاء الى ساحل البحر ويغوصون في عمق ذراع او يزيـد يلتقطون ما يجدونه من الصدف . وهؤلاء يُسمّون « المَجنّى » . فاذا ابحروا وغابوا يومين او ثلاثة يسمون « العزاب » لعزوبهم اي بعدهم عن المدينة وهناك صنف اخر هم « الخانجية » اي الذين يتجهزون لغيبة اسبوعين في الغوص أو ثلاثـــة اسابيع . ثم يتأهب اهل البحرين للغوص العـــام اذا مضى النصف الاول من برج الثور ، ويقفلون

(١) برج الثور وبرج المـيزان يشتملان في دورتيهمـــا على الاشهر التي تعرف عندنا باشهر الربيع والصيف ، اي من الشهر الخامس حتى التاسع – من ايار الى ايلول .

(٢) قد قرأت في وصف الغوص مـا كتبه الشيخ خليفة بن محمد النبهان وهـو ينطبق على ما سمعته من الثقات فلخصت بعضه .

راجعين اذا دخل برج الميزان ، فيبيعون ما يغنمون من البحر ويتقاسمون .

لكل من يشتغل في الغوص اسم يعرف به . فيدعى كبير السفينة « ناخوذاه » والذي يغوص « الغَيص » والذي يجر حبال الغَيْص « السيْب » والمساعد لهم « الرّظيف » ثم الخادم التلميذ هو « التبّاب ». هؤلاء والبحرية يخرجون في جلبوت مزود بالزاد والماء الى مكان من امكنة الغوص المعروفة التي يبعد ابعدها ثلاثين ميلاً عن البر ، ويتراوح العمق الذي يغوصون فيه بين ثلاثة ابواع واربعة عشر باعاً . يسيرون الى موارد الخطر والثروة وهم يغنون او يرددون بعض الايات انغاماً ساحرة . يسيرون في ظل الشراع مطمئنين ، واذا اشتدت الريح فيجاهدونها في سبيل الدر والحياة . — توكلنا على الله ... صلّ على النبي ...

ها هم في مكان الغوص ، وقد طوي الشراع ورسا الجلبوت . هات الحبال يا سيب . هات الحديد [1] يا رظيف . هات الدّيّين [2] يا تَباب . وهوذا الغيص وقد وضع الفطام [3] في انفه ، والحديد في رجله ، والدّيين في عنقه ، ثم يمسك نفَسه وقد حجب وجهه بكفيه ويطيح . توكلنا على الله ؟ صوت موجة تتقلقل فتتكون حلقات ، فتكبر ، فتتفكك ، فتتلاشى . راح تحتها الغَيص يبغي الجواهر في

(١) وقد يكون حجراً او رصاصاً يتراوح وزنه بين الاثني عشر والخمسة عشر رطلاً يجعله الغيص في احدى رجليه ليسرع به الى قعر البحر .

(٢) الديّين زنبيل من حبال الليف مشبكاً مثل الغربال الا انه واسع الخروق .

(٣) الفطام مثل الملقط مصنوع من قرن الوعل او من عظم السلحفاة يجعله الغيص في انفه ليمنع النفس .

المحار .

وهو حالما يصل إلى القعر يفتح عينيه و ينزع من رجله الحديد او الحجر فيرفعه السَّيب بالزّيبل [١] إلى السفينة . ومنهم من يلبس قفازاً من جلد ثم يشرع يمشي على يديه : ورجلاه مرفوعتان والجدا [٢] بين ابهاميها ، وهو يلتقط الصدف ويضعها في الزنبيل . فاذا ضاق ذرعه او امتلأ زنبيله جذب الجدا اي حبل الزنبيل فيصيح السيْب : نَبَر [٣] بينا هو يسحب الحبل والغيص متمسك به . فاذا صار على وجه الماء نزع الفطام من انفه وتنفس ، ويأخذ السيْب الزنبيل فيفرغه في وسط السفينة ويدفعه اليه فيعود الى الغوص . وهكذا الى ان ينتهي النهار . وهم يسمون المرة الواحدة من النزول والصعود « تبّه » وهي لا تقل عن الدقيقة ولا تزيد على الثلاث الدقائق اي مقدار ما يستطيع ان يستمر الغيص تحت المياه . بعد انتهاء الغوص كل يوم عند الغروب أو قبله يفلقون الصدف ويخرجون ما يجدونه من اللؤلؤ فيها . اما اذا فرغ زادهم او ماؤهم فيأتون الى البر ليتزودوا ويعودون الى العمل حتى انتهاء فصل الصيف .

الناخوذاه هو مدير العمل فيجمع اللؤلؤ كله ويتولى بيعه ، فيأخذ من مجموع قيمته الخمس ويقسم الباقي بين رجاله بعد ان يحسم من قسمة كل واحد قيمة زاده ، فيعطي الغيص نصف قيمة الاربعة الاخماس ، والرظيف ثلثي الباقي ، والسيْب الثلث الاخر . اما التيّاب فليس

---

(١) الزّيبل حبل مربوط به الحجر ومتصل بالسفينة .

(٢) الجدا حبل اخر مربوط به الزنبيل . والاثنان يتولاهما السيب .

(٣) « نَبَر » كلمة يرددونها عندما يجذب الغيص الحبل برجله طالباً من رفاقه بهذه الاشارة ان يرجعوه الى وجه الماء .

له غير اكله وفائدة التمرين على الغوص . هؤلاء هم الغاصة اي الذين يستخرجون اللؤلؤ بانفسهم وعلى حسابهم .

اما الذين يغوصون لحساب غيرهم فهم يستأجرون السفن ومنهم من يستدين المال . والذي يكري السفن ويقرض المال يأخذ خمسي قيمة اللؤلؤ الذي يجمعونه . وهم اي الغاصة يتقاسمون الثلاثة اخماس الباقية بحسب القاعدة التي مر ذكرها . اما اولئك الذين يكترون السفن فقط فلا يدفعون غير نصف خمس اللؤلؤ اجرة السفينة . الا ان الغالب في الطريقتين الاولى اي التي ينال بها صاحب السفن والمال خمسي قيمة اللؤلؤ المجموع .

وهناك تجار اللؤلؤ في البحرين . فهم يبيعون ما لديهم منه في الجزيرة الى تجار اوروبيين والى البنيان الذين يجيئونها في الموسم لهذه الغاية . او انهم يسافرون به الى بمباي فيبيعونه هناك . ومن هؤلاء التجار من يسمون « بالطواويش » وهم الذين يخرجون الى محل الغوص ويشترون من النواخذة بعض الجواهر ، فيدفعون ثمنها اما نقداً واما تمراً وزاداً . والنواخذة يفضلون الزاد في بعض الاحايين لانه يكفيهم مؤونة الرجوع الى البر للتموين .

قلت ان من الغواصين من يصابون بداء الرئتين واكثرهم حينما يخرجون من الغوص يرعفون . وقلما يهمهم ذلك . فهم لا يخافون الا من الدوْل عدوهم الاكبر . وما هو الدول ؟ عدت الى الدميري والقزويني فلم اعثر في بحر علومهما على الدول . ولا جاء ذكره عرضاً حتى في الكلام على اعجب المخلوقات . في كل حال اني ، وان ذكرت ما قاله القزويني في الصدف وتكوين الدر ، اميل الى سواه من الثقات وخصوصاً اذا كانوا من هذا الزمان . لذلك افسح للشيخ خليفة بن

محمد النبهاني الذي خبر الغوص بنفسه ورأى بأم عينه الدّول . قال وقاه الله شره :

الدول حيوان هلامي لا يهتدي في سيره لجهة ، وانما تقذفه الامواج على وجه البحر . هو بقدر الكف فاصغر ، مدور له خيوط طوال نحو ذراع فاطول ، كأنه حرير مشتبك . فاذا لامس هذا الحيوان جسم ابن آدم احرقه حرقاً مبرحاً . وربما اعاب الموضع الذي لامسه . ولو رفع هذا الحيوان من الماء واصابته حرارة الشمس مقدار خمس دقائق لذاب وتحلل ماءً ولم يبق له اثر ...

اهل الغوص يلبسون ثياباً ضيقة ملامسة للجسم اتقاء شره . ويوجد كذلك نوع اخر يسمى اللوَيْتي ، وهو مثل الدّول هلامي . ولكنه احمر اللون وضرره اخف من ذاك فاذا لامس الجسم احرقه بدون تبريح فيرم اللحم فيبقى اثره والمه نحو ساعتين . اما اذا سخن الجسم الملذوع على النار فالالم يزول منه .(١)

بقي ان اذكر السبب في تفوق لؤلؤ البحرين وهو من عجائب الطبيعة في هذه الجزيرة . قد اجمع العارفون بان الماء العذب يحسن اللؤلؤ ، فاستُنتج من ذلك ان المطر هو سبب ذاك الحسن ، وان الصدف يصعد الى وجه البحر ليشرب من ماء السماء . غير ان الحقيقة العلمية في التصاق المحار بالصخور قبل نموه تفسد هذا القول . ولو صح ان المطر هو سبب الحسن لكان لؤلؤ جزيرة سيلان ، لكثرة الامطار فيها ، أحسن ما في العالم . وقد فاتت هذه الحقيقة القزويني الذي نقل عن البحرانيين كلمة نصفها صحيح ونصفها خطأ . قال : ان صدف الدر لا يوجد الا في بحر تصب فيه الانهار العذبة . والحقيقة هي خلاف

(١) تاريخ البحرين .

ذلك . فلو قال ان احسن صدف الدر الخ لجاء بالصواب .

الماء العذب يحسن الدر ولكنه اذا صب في البحر فقد صفاته .
اما الانهار فليس منها في البحرين ، وانما هناك ينابيع من المياه العذبة هي من عجائب الطبيعة : ينابيع وسط البحر تحت المياه المالحة . ومنها ما هو قريب من السواحل .

في البحرين نحو خمسة وعشرين نبعاً مشهوراً يبعد بعضها عشرين ميلاً عن البر ويعلوها البحر من الثلاثة الى السبعة ابواع . مياه عذبة تحت المياه المالحة تفور من الارض على الدوام . وتلك التي تقرب من الساحل تظهر ساعة الزجر للعيان فيستقي اهل المحلة منها . على ان البحارنة يغوصون للبعيدة العميقة كأنها اللؤلؤ فيملأون منها القرب بأن يجعلوا القربة أو الاناء فوق الفوارة الى ان يمتلىء . ومن هذه الينابيع التي يشرب منها أكثر أهل البحرين القريبين من السواحل تشرب كذلك المحار ، فتتحسن فيه تلك الكتلة الكلسية البراقة . هي السبب ولا مراء في جمال لؤلؤ الجزيرة ذاك الجمال الممتاز .

وأغرب من كل ذلك أن تلك المياه العذبة تصل الى سواحل القطيف والاحساء وتجيء البحرين من مرتفعات نجد ، من وراء الدهناء. فقد تتبع علماء الجغرافية الذين ساحوا في البلاد مجاري مياهها ومصب انهرها الغائرة . من المعلوم مثلاً ان الرياض تعلو عن البحر الف وثمانمئة قدم وإن جبال العارض هي فوق الرياض وهي كلسية تمتص جل ما يتبخر من المياه فيجري تحت الارض ويصب في وادي حنيفة . بل ان مياه العارض ووادي حنيفة تجتاز الدهناء والنفودفتصل الى الخليج .

آل خليفة شيوخ البحرين

قال المستر هوغارس [1] : لا شك ان قسماً من هـذه المياه (اي مياه العارض واليمامة) عملاً بتحدر الارض ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحـل فتسقي واحات الاحساء والقطيف ، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين .

(١) في كتابه « التوغل في البلاد العربية» D . G . Hogarth , Penetration of Arabia .

البحرين

البحرين في قديم الزمان – بلاد عربية لم يبق منها غير الاسم – جزيرة صغيرة كبيرة – جوهرة في جيب الخليج – مركز للتجارة والحرب – سكان البحرين وسكان نجد – اربعمئة وخمسون نفساً في كل ميل مربع – مدن البحرين – المنامة ميناء الجزيرة – الرفاع مدينة الامراء – الصُخير حمى الصحة والسكينة – جبل الدخان ولا دخان فيه – البديع عقر الدواسر – جو وكان فيها قصور شاهقة الى الجو – المحرق عاصمة البحرين – الحد وفيها السادة العلويون – غزارة المياه والابار – طريقة عبد الملك بن مروان في الاستيلاء والاستعمار – عليّ وعليهم يا رب – دواليب الهواء – البابان تحذو حذو المحار .

ان البلاد الواقعة على الساحل العربي الشرقي كله ، من البصرة الى عمان ، كانت تدعى في قديم الزمان البحرين ، وقد اطلق العرب الاسم عليها لانها على ما اظن على شاطئ البحرين ، بحر عمان وبحر فارس ، وجعلوا عاصمتها هَجَر ، ثم خص هذا الاسم بقسم منها بين القطر والقطيف وهو الاحساء لان الطامعين بالسيادة من امراء العرب تنازعوها فتقاسموها ، فاستمرت تتجزأ وتصغر حتى كاد الاسم يمسي بلا مسمى . ولكن الذين نزحوا الى اقرب الجزر الكبيرة من الساحل الشرقي ، او بالحري هربوا من الجور طالبين الاستقلال والاطمئنان احتفظوا بالاسم فاطلقوه عليها .

كانت قبلئذ تدعى أوال ، ذكرها ياقوت في معجم البلدان قال : انها جزيرة يحيط بها البحر في ناحية البحرين . وأُوال صنم لبكر بن وائل واخيه تغلب ، فسميت الجزيرة باسمه لان بني وائل مع عبد

قيس كانوا يسكنونها في ذلك الزمان .

وموضوعي الآن الجزيرة نفسهـا الحاملة اسم تلك المقاطعة التي تكبرها مئة ضعف . هي جزيرة صغيرة ومـع ذلك كبيرة . صغيرة في مساحتها التي لا تتجاوز الاربعمئة والخمسين ميلاً مربعاً ، كبيرة في غرائب تاريخها الطبيعي والسياسي . وهي على صغرهـا عامرة بمئتي الف من العرب والاعاجم من الشرق والغرب . بيد انهـا لا تزال عربية الاصل والحكم ، عربية اللغة والروح ، لان اكثر سكانهـا من العرب الاصليين ، عرب نجد ، وفيهم من المذاهب الاسلامية المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي والجعفري . امـا الجعفريون فهم مثل الهنود يُعدون من الاجانب لانهـم ايرانيون او ايرانيو التبعة .

ليس بين مسقط والبصرة اجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس اصلح منه للتجارة او للحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه ، كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف . او كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة . بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة كبيرة في جيب الخليج . فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الامم ذوات الصولة والعرفان . وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونهـا من الهند وفارس ، ومحط رحال الطامعين بالسيادة على خليج العجم .

ان البحرين لمثل مدينة كبيرة في ازدحام سكانها . ولولا مـوارد الثروة من اللؤلؤ فيها ، ولو لم يكن مجال التجارة فيها متسعاً ، لانتزح عنها نصف سكانها . اذ قلما تجد في العالم خارج المدن بقعة من الارض معدل سكانها اربعمئة وخمسون نفساً في كل ميل مربع . قابل بين البحرين

ونجد مثلاً فيظهر لك فارق بعيد بين الاثنين . في مملكة ابن سعود اليوم مليونان ونصف مليون من العرب على الاكثر [1] يعيشون في ارض مساحتها اربعمئة الف ميل مربع في الاقل[2]. فيكون معدل سكان الميل الواحد المربع ستة انفس لا غـــير . ولكن نصف هؤلاء من البدو ، اي الرعاة واصحاب المواشي ، ونصف ارضهم من الرمـال والمفاوز التي لا ماء فيها ولا كلأ . فالميل المربع قليـــل على اعرابي واحد مع عياله وانعامه ، كما ان الميل المربـع في البحرين ، على كثرة مياهها وخصب تربتها ، قليل جداً على اربعمئة وخمسين من عبـاد الله لولا اللؤلؤ كما قلت ولولا اسواق نجد والحسا .

جاء في التاريخ ان هذه الجزيرة كانت عامرة بالسكان في قـديم الزمان . فقد كان فيها ثلاثون مدينة ومعها ثلاثمئة من القرى . ولكنها، وهي دائماً مطمح الفاتحين والمستعمرين ، ابتُليت بما يتقدمهم ويرافقهم ويتبعهم من الفتن والحروب ، فتداعى قسم من عمرانها واضمحل ، ولم يبق فيها اليوم سوى ثماني مدن وبعض القرى التابعة لها . اما سكانها الذين لا يغوصون ولا يركبون لرزقهم البحار ، فهم يزرعون الارض. والذين لا يزرعون يتاجرون .

اكبر مدن البحرين المنامة [3] وهي على الطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة الكبيرة ، عدد سكانها اربعون الفاً من العرب والايرانيـين والهنود والاوروبيين ، وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي والفارسي والهندوسي. هي الميناء العام للبحرين ومركز احد قسمي حكومتها المزدوجة ، القسم البريطاني ؛ ومحور التجارة ، فيها بيت البريد والبرق

(١) كان ذلك سنة ١٩٢٢ اما سنة ١٩٦٧ فالمملكة تعد سبع ملايين .

(٢) اصبحت المملكة اليوم ١٧٠٠٠٠٠ كيلو متراً مربعاً .

(٣) كانت تسمى المنعة فحرفها الاعاجم الذين استولوا عليها . ومن قائل انه كان فيها قصر لمنام احد ملوكها السابقين فسميت به .

والحجر الصحي ، ومرفأ ومخازن كبيرة للجمرك امر ببنائها الشيخ عيسى آل خليفة . وفيها ايضاً « قلعة الديوان » التي بناها احد ملوك فارس ، وكثير من البيوت الفخمة الهندسة والبناء : الا ان ارضها سبخة يفسد منها الهواء فتكثر فيها الحميات . وعلى مسافة نصف ساعة من المنامة غرباً بجنوب اثر تاريخي قائم في ساحة تدعى سوق الخميس لان هناك تقام كل اسبوع سوق للبيع والشراء . ذاك الاثر التاريخي هو من عهد عمر بن عبد العزيز الاموي ، وهو بقية مسجد قديم ومنارتين متقابلتين طول الواحدة نحو خمسين ذراعاً . وهناك بالقرب منه عين تسمى ابا زيدان وفي جوارها ما هو اهم من الاثار القديمة اي اثر ينابيع من البترول .

اذا سرنا شرقاً بجنوب من هذا المكان واجتزنا المراقيب : حيث مدافن البحرين القديمة التي مر ذكرها ، نصل بعد ساعة الى الرفاع ، مدينة الامراء السابقين من آل خليفة ، وفيها بقية قلعة قديمة تبدو في اساس القلعة الجديدة التي شيدها الشيخ سليمان بن احمد . وحول الرفاع رياض مشهورة اهمها الصُخير تكثر فيها العيون والآبار والنخيل وتقع على ربوة الى جانب الرفاع الغربي اسسها الشيخ حمد الحاكم الحالي ، وهي لطيفة الهواء ، عذبة الماء ، فسيحة الفناء . الصُخير هي حمى الشيخ حمد ، وحمى الصحة والسكينة .

من الصخير نشرف على جبل الدخان ، ولا دخان فيه اليوم لا لبركان ولا لانسان . هو جبل مستطيل : فيه غار كبير ، داخله بيت بقبقاب منحوتة كأنه من بناء الانسان ، وفي رأس الجبل برج قديم متهدم . واذا استمر السائح شرقاً من الرفاع يصل الى ُسترة او كما يقول البحارنة « حالة سترة ». هم يسمون « حالة » كل قرية يحيط بها

الماء فيجعلها شبه جزيرة وهي مقيظ الشيخ خالد اخي الشيخ حمد بن عيسى ، وفيها وفي القرى التابعة لها عيون كثيرة ونخيل وبساتين .

هذه من المدن والقرى في الجهة الشرقية . اما في الغربية فالبديّع قبالة الرفاع وعلى ساعتين من المنامة هي مسكن الدواسر وغيرهم من العرب الاشاوس . ومن قراها قرية جَوْ نزلها في قديم الزمان احد مشايخ العرب المشهورين بالهمة والاقدام يدعى الشيخ احمد رزق فعمرها وبنى فيها المساجد والبرك الكبيرة لحفظ المياه ، فقال احد المؤرخين فيه : سكن الشيخ رزق بلدة الجو ، وبنى قصوراً شامخة الى الجو . ثم ظعن ونزل الزُبارة في راس بر قطر . وكان في نيته ان يفصل هذه البلدة عن قطر بخليج يحفره بينها وبين البر طوله ثلاثون ميلاً . ولكن قومه ، وهم من اهل البادية ، لم يرضوا بذلك لاحتياجهم الى المفالي في بر قطر يجعلونها مرعى لانعامهم .

اما عاصمة البحرين الرسمية العربية اي المدينة التى يسكنها الشيوخ فهي المحرّق الكائنة في جزيرة صغيرة شرقي المنامة على مسافة نصف ساعة منها في الجلبوت . وهي تفضل المنامة بطيب هوائها لبعدها كما يزعم العرب هناك عن النخيل . فهم يظنون ان الاوبئة تكمن في ظلاله . والاصح انها تكمن في المستنقعات التي يسببها نقص او اهمال في ري النخيل . المحرق مركز النهضة الثقافية اليوم وفيها المدارس والنادي الادبي والشبان الغواة بالادب والعلم . وفي جزيرة المحرّق مدينة اخرى اسمها الحدّ يسكنها السادة العلويون وبعض آل ابن علي المشهورين في تاريخ البحرين . ويتبع كل من هاتين المدينتين خمس قرى يشرب اهلها من ينابيع البحر العذبة .

ان الماء القراح غزير في البحرين لو انهم يحفرون له الابار والقني فيجمعونه في عيون يستقي منها الجميع . اما اليوم فالينابيع كلها هي قرب البحر لذلك يقصدها سكان المدن في الصيف فيقيمون حولها بيوتاً من جريد النخل موقتة يتفننون في بنائها لتقيهم حر الشمس ولا تمنع عنهم الهواء . وقد قيل ان مياه هذه الجزيرة معما ردم من ابارها تزيد على ما يلزم ارضها ويحتاج اليه سكانها .

نعم ، قد ردم في الماضي كثير من ابارها . والقصة كما يرويها العارفون من اهل البحرين وبعض المؤرخين هي ان عبد الملك بن مروان الاموي لما رأى من اهل الجزيرة بطراً في غنماهم وتمرداً على خلفاء بني امية ، امر بردم العيون ليقل زرعهم واموالهم فيفتقروا ويخضعوا للامراء . هو مثال مما دونه التاريخ من اساليب الحماقة في الحكم . وان من يقارن بينه وبين سياسة الامويين في الاندلس ، وما أوجدوه واتقنوه من اسباب الزراعة هناك ، يستغرب جداً هذا الامر ويكاد ينكره . على اني شاهدت في رحلتي ما يثبت ان العرب في احقادهم وثاراتهم وحروبهم ينكلون مثل هذا التنكيل بأعدائهم وبأنفسهم . قد رايت عيوناً في نجد كانت سبب الشقاق بين القبائل ، فلما استولت عليها قبيلة دمرتها وردمتها لكي لا يشرب منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزتها . عليّ وعليهم يا رب .

ومع ذلك فالجزيرة لا تزال غزيرة المياه كثيرة النخيل والبساتين . فيها من انواع التمر مئة نوع ويزيد . وقد شاهدت في الجزيرة عدداً من دواليب الهواء مجلوبة من الولايات المتحدة ، فتضاعفت مياه البساتين التي يكثر فيها انواع الثمار كالليمون والموز والخوخ والكمثري

والعنب والرمان .

كأني بأهل البحرين ، وقد ادركوا الضرر الذي سيلحق بتجارة اللؤلؤ من الاختراع الياباني اي توليد اللؤلؤ بالطريقة الصناعية ، بادروا الى اميركا يستنجدونها بما عندها من أسباب الزراعة والري الحديثة . فاذا كانت اليابان تباري المحارة فتحط من قدرها ، فالبحارنة يشمرون عن ساعد الجد ليضاعفوا في الجزيرة مواردها الزراعية .

آل خليفة شيوخ البحرين

البحرين في التاريخ الاسلامي (١)

مستعمرة فارسية حاكمها وسكانها من العرب – النبي يبعث العلاء الحضرمي ليدعوهم للاسلام – عبد قيس ووائل وتميم يسلمون – الردّة – رجوع العلاء – خالد بن الوليد – تأديب اهل البحرين – فتح قطر وبلاد فارس – البحرين في حكم الامويين – في حكم العباسيين – صاحب الزنج – القرامطة – ابو طاهر في الكعبة – الاماره العيونية في البحرين – جنكيزخان وتيمورلنك – فسكو دي غاما والفونسو البوكركه – البرتقاليون في البحرين – الاتراك يخرجون البرتقاليين من البلاد العربية – الانكليز يساعدون الاتراك – الفرس في البحرين – مستعمرة فارسية – فساد الحكم الفارسي وتلاشيه – آخر عامل من عمال الشاه .

كانت البحرين ، اي البلاد التي على الساحل من البصرة الى عمان ، مستعمرة فارسية قبل الاسلام وفي السنين الاولى من البعثة النبوية . ولكن عمالها كانوا غالباً من امراء العرب ، وكان سكانها من المجوس واليهود والنصارى ومن عرب نجد واكثر هولاء من عبد قيس ووائل وتميم . وفي السنة الثامنة للهجرة ارسل النبي احد الصحابة العلاء الحضرمي ليدعو اهل هذه البلاد للاسلام او للجزية . كان المنذر ابن ساوي التميمي يحكمها يومئذٍ من قبل ملك الفرس ، فلم يتردد في الاختيار بين دين التوحيد والوثنية بل بين حكم قريش وحكم الاعاجم .

(١) قد اعتمدت في كتابة هذا الفصل والفصل الذي يليه على تاريخ البحرين تأليف الشيخ خليفة بن محمد النبهان المطبوع في مطبعة الاداب ببغداد سنة ١٣٣٢هـ .

جاء العلاء الحضرمي ، وقد كان من رجال الصحابة وصاحب كرامات ، يدعو المنذر واهل البحرين للاسلام ، ولكنه لم يتمكن من هدايتهم كلهم. قبل المنذر وعربانه الدعوة حباً بالجنة ورجاء التخلص من ملوك الفرس ، ورفضها الآخرون . فتركهم العلاء في ضلالهم يعمهون بشرط ان يقاسموه غلاتهم من الحب والتمر . فقبلوا بذلك . وعاد الصحابي الحضرمي الى مكة يحمل الى النبي بشرى النصر المبين وكثيراً من الغنائم والاموال .

بيد ان اهل البحرين بعد موت النبي ارتدوا قائلين : لو كان نبياً لما مات . فجاءهم العلاء ثانية ومعه جيش من المسلمين ، فادّب اهل الردة وقتل كثيرين منهم ، ولكنه لم ينتصر كل النصر . فكتب الى ابي بكر يستمده ، فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد ، وهو يومئذ في اليمامة ، ليتوجه الى البحرين ينجد فيها العلاء . جاء خالد فزعاً ، كما يقول العرب حتى اليوم ، وكان قد فرّ كثيرون من اهل الردّة الى الجزيرة وتحصنوا فيها فأمر العلاء رجاله بالزحف عليها .

كان هذا الصحابي كما قلت صاحب كرامات مُجاب الدعوة . وهاك منها اثنتين . بينما كان رجاله يجتازون مفازة لا ماء فيها خلصهم من الموت عطشاً بان صلى ركعتين ثم قال : ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم اسقنا . فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وامطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركائب . ثم جاؤوا السواحل فوصلوا الى الخليج فلم يجدوا سفناً فيه ، وكان المرتدون قد احرقوها ، فصلى العلاء ركعتين ثم قال: ياحليم ياعليم ياعلي ياعظيم أجزنا . واخذ بعنان فرسه وهو يقول : جوزوا باسم الله فمشى ومشى وراءه جيش عدده اربعة

الاف ، فلم يبتل لهم قدم ولا خف ولا حافر [١] .

بعد ان ادّب العلاء اهل البحرين وردهم الى الصراط المستقيم حمل على الزُبارة في قطَر وقتل فيها المكَعْبِر عامل كسرى ، ثم عاد الى البحرين فأمّر عليها، اجابة لطلب اهلها. ثم خاض عباب الخليج فوصل الى الشاطيء العجمي ودخل بلاد فارس فاتحاً. وبعد ذلك ولاه الخليفة عمر على البصرة بدلاً من عتبة بن غزوان ، وولى على البحرين عثمان ابن ابي العاص ثم الربيع بن زياد الحارثي . سافر العــلاء صاحب الكرامات والفتوحات الى البصرة ، ولكن الله لم يشأ ان يصل اليها ، فاستدعاه اليه في الطريق وهو قريب منهــا . فلبى العلاء الدعوة ولا يزال قبره معروفاً هناك .

دالت البحرين للخلفاء الراشدين ثم لبني امية الى زمان عبدالملك بن مروان ، ذاك الذي امر بردم عيون الجزيرة ليفقر اهلهــا فيلينوا للامراء . ولكن عبد الملك لم يكن من المفلحين : فقد سبقه الى استثمار الفقر رجل يدعى ابا فُديك الخارجي ، فاستولى على الجزيرة سنة كاملة وكانت جنود ابن مروان قادمة اليها فدخلتها منتصرة وقتلت ابافديك وستة الاف من رجاله الخوارج ، فعادت اذ ذاك السيادة الى بني امية في الشاطئين العربي والعجمي من الخليج .

ولكنها لم تخلص من الاغتصابات . ففي سنة ١٠٥ هـ خرج على

(١) في رواية اخرى انهم اجتازوا الى دارين لا الى أوال . وكانت يومئذ دارين جزيرة عامرة يؤمها عرب نجد للمسابلة .

ودارين لا تبعد كثيراً عن بر القطيف حتى انه يستطيع الناس ساعة الجزر ان يمشوا من البر اليها. فالرواية الصحيحة اذن وان كانت تنفي كرامة العلاء الحضرمي، هي انهم اجتازوا الى دارين لا الى اوال .

العامل الاموي في البحرين مسعود بن ابي زبيبة العبدي فتغلب عليه ونصّب الاشعث بن عبدالله الجارودي مكانه ، فحكم الجارودي الجزيرة تسع عشرة سنة . ثم عاد الامويون الكرة عليها ، فتم لهم الاستيلاء الذي لم يدم بعد ذلك طويـــلاً ، لان دولتهم كانت قد بدأت تتقلص وتضمحل ، فصار العباسيون يحلون محلهـــم في البلدان والامصار ، فاحتل عقبة بن سليم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور ، وظل عمال الخلفاء ببغداد يحكمون في الجزيرة والاحساء حتى سنة ٢٤٩ هـ عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج [1] احد الانبياء الكاذبين .

كان صاحب الزنج شويعراً في بغداد يحوم مستجديـــاً على مجلس المنتصر بن المتوكل وحول حاشيته . ثم جاء البحرين وهو يدعي انه من السادة العلويين فدعا القوم لطاعته فتبعه اناس وخالفه آخرون ، فأدى الخلاف الى التحزب فالقتال . وكان اصحاب البحرين اول من آمنوا به ، فرفعوه الى مقام النبوءة ، وجمعوا له الخراج ، وقاتلوا من اجله الاعداء ، وقد قضى صاحب الزنج فترة في البادية اقتداء بالانبياء يستنزل على نفسه الوحي ، فأوتي في تلك الايام — وهو الشاهد على ذلك — آيات من ايات النبوءة ظاهرة ، فطفق يسب الخلفاء الراشدين ومعهم عائشة والزبير . كأن النبوءة تبدأ بالمسبات !

قـــال ابن الاثير وابن خلدون ان صاحب الزنج كان يرى رأي الخوارج . وقد دُعي بهذا الاسم لانه في بادىء امره كان يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون في نواحي البصرة فيعدِهم بالعتق في الدنيا وبالجنة في الآخرة . بل كان يستغويهم بشيء من الجنة سلفاً . قيل انه كان يأمر بالقبض على النساء من ولد الحسن والحسين والعباس ويبيعهن

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس .

في عسكره بيع الاماء والامتعة بدرهمين وثلاثة ، فيشتري الزنجي عدداً من الشريفات ببضعة دراهم .

لا عجب اذن في تلبيتهم دعوتـــه للجهاد ، فطفق يشن الغارات الواحدة تلو الاخرى وله في اكثرها الغلبة والغنائم . وفي سنة ٢٥٥ ه ادعى صاحب الزنج النبوءة وكتب على رايته الاية : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ، وراح وزنوجه يسلبون وينهبون باسم الله . ان الغريب في حكم اولئك العباسيين ان مثل هذا الطاغية يثبت اربع عشرة سنة في طغيانــه ، فحكم في هجر اليوم وفي البصرة غداً وتارة في الاحساء وطوراً في البحرين : فاراً ، كاراً ، صائلا طائلا ، قبل ان يتمكنوا منه فيقتلوه .

قال احد المؤرخين ، وهم يبالغون في الكلام على حروب صاحب الزنج ، انه قتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمئة الف شخص ا ولم يقتل في اكبر مواقع الحرب العظمى هـــذا العدد او نصفه من الناس .

كأنه كتب لاهل البحرين مثلما كتب للعباسيين ان لا يدوم السلم والامن طويلًا في ملكهم السعيد . قُتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ ه فتنفست بغداد الصعداء . ثم ظهر في سنة ٢٧٨ ه ابو سعيد القرمطي . ويا لهول القرامطة .

جاء ابو سعيد حمدان من خوزستان الى العراق فنزل في الكوفة فمرض ذات يوم فساعده رجل يدعى كرميتة لحمرة في عينه (اللفظة نبطية ومعناها حمرة العين) فلما شفي من مرضه سمي باسم ذلك الرجل ، فخُفف الاسم بعدئذ فقيل قرمطة . وكان ابو سعيد قرمطة من الزاهدين المتقشفين ومن تلامذة عبدالله القداح الاهوازي والاسماعيلي الذي اسس

في يومه جمعية سرية باطنية من مقاصدها الظاهرة التوفيق بين العرب والعجم والتأليف بين الاديان كلها . اما مقاصدها السرية ، السياسية والدينية ، فقد ظهرت على يد القرامطة بافظع مظاهرها .

دعا ابو سعيد وهو في العراق الى امام من اهل البيت قيل انه محمد ابن اسمعيل بن جعفر الصادق ، وقيـــل انه محمد بن الحنفية . كان القرامطة بعدئذ يدعون تارة لهذا وطوراً لذاك ، وفي كلتا الدعوتين فتنة على العباسيين . بـــل ان حركة القرامطة ، اصلا وفعلاً ، هي حركة ايرانية دينية سياسية ضد الخلافة والعرب . وان مـا ارتكبه الخلفاء العباسيون من المظالم وما اعترى ملكهم من الضعف والفساد ، خصوصاً عهـــد المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر — القاب مملكة ! — ، كان ينفّر منهم الناس ويساعد كل من قام عليهم من الاعداء .

لذلك اجتمع على ابي سعيد خلق كثير وجلهم من البادية لانه خفف عنهم اثقال العبادة ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحاً ومساء ، واعفاهم من صوم رمضان . فأحب البدو ابا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامام المنتظر بعينه . فنشأ مذهبه ينتشر انتشاراً عجيباً ، فاشفقت دار السلام على اربابها منه ، فجندت عليه الجنود ، فصدهـا بعربانه وحاربها في اماكن عديدة وهزمها . ثم راح السيف ينشر في البلدان الدنية والقصية ما تأصل في قلوب القرامطة من عقيدة فيها نفي العقائد كلها . فاشتدت حروبهم على الخلفاء وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين . امـا شمالاً فان جيوشهم اجتازت البادية والحماد فوصلت الى بعلبك ، ومنهم من غزا الحجاز واليمن .

وقد نظم الشاعر ابن مقرب العيوني تاريخهم فأشار في قصيدته الى ما كان من امرهم اولاً ودمارهم آخراً على يد جدوده . قال :

سل القرامط من شظّى جماجمهم
فلقاً وغادرهم بعد العُلى خدما
من بعد ان جل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
ارض العراق وتغشى تارة أوما [1]
وحرقوا عبد قيس في منازلهم
وصيروا الغُرّ من ساداتها حُمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصّوا [2] منهم صُنما
وما بنو مسجداً لله نعرفه
بل كلما ادركوه قائماً هدما

وقال المؤرخ الانكليزي غبن : ان القرامطة هم من اهم العوامل في سقوط الدولة العباسية . قد استمرت فتنتهم ستين سنة وتزيد وبلغ القتال بينهم وبين جيوش الخلفاء اشده في السنوات الوسطى منها اي منذ سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م) الى ان دخلوا مكة بقيادة زعيمهم ابي طاهر سنة ٣١٧ هـ (٩٣٠) فكان في ذلك الفتح ختمة المجد وختمة الفظائع والهول .

(١) اسم بلدة من بلدان عمان .
(٢) اي نصبوا صنماً .

دخل ابو طاهر سليمان بن حسن القرمطي الى مكة بجيوشه راكبين خيلهم وأعملوا السيف بالحجاج ، فقتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين الف رجـــل والوفاً من النساء . ووقف ابو طاهر عند الكعبة وسيفه بيده وصفر لفرسه فبالت هنـاك ، ثم صعد على باب الكعبة وشرع يقول ، بينما كان رجاله يرمون رؤوس الشهداء في بئر زمزم :

أنا لله ولله أنا يخلق الخلق وافنيهم أنا

بعد ذلـــك امر بقلع الحجر الاسود من محله فحمله القرامطة الى الحساء ، ولكنهم بعد اثنتين وعشرين سنة اعادوه الى مكة . اما ان الحجر الذي اعادوه هو ذاك الحجر بعينه فالله اعلم .

دخلت البحرين في حوزة القرامطة عهد المكتفي بن المعتضد وظلت في حوزتهم الى ان ضعف امرهم وبدات سيادتهـم تتلاشى . فقام لقتالهم عندئذ ثلاثة من العرب هم الامير عبدالله بن علي العيوني في الاحساء ، ويحيى بن العياش في القطيف ، وابو البهلول محمدالزجّاج في البحرين . ثم اقتتل هؤلاء على مـــا غنموا . وقد كان ابو البهلول ضامناً لخراج الجزيرة فعصى فيها فجهز عليه القرامطة جيشاً من عرب عبد قيس ، فبرز لهم بجيش من البحارنة فكسرهم في اول وقعة وطرد عمالهم من الجزيرة . ثم خطب له فيها بالامارة فـــاستقام امره بضع سنين ثم ظهر عليه زكريا بن العياش الذي استولى ابوه يحيى على القطيف .

وما عتم ان استولى زكريا على البحرين بعد ان كسر البهلول في وقعة شديدة ، فطمع بضم الاحساء ايضاً الى ملكه ، فخرج اليهـــا من القطيف فلاقاه في الطريق اميرها عبدالله بن علي آل ابراهيم العيوني

بجيش جرار فكسره في الوقعة الاولى وقتله في الثانية ، ثم استولى على القطيف والبحرين . وفي ذلك قال شاعرهم ابن مقرب .

وصار ملك ابن عياش وملك ابي ال

بهلول مع ملكنا عقداً لنا نظما

تم النصر للامير عبدالله فأسس الامارة العيونية التي استمر حكمها في البحرين نحو مئتين وخمسين سنة . ثم انتزع العجم الحكم ثانية من العرب . وذلك ان احد ملوك فارس الزنجيين (١) الذين استولوا على المملكة بعد انقراض الدولة السلجوقيـــة ، وهو ابو بكر بن سعد الزنجي ، حمل على العرب في جزيرة قيس فهزمهم واحتلها ، ثم اجتاز بجنوده البحر الى جزيرة البحرين ، فاخذهـــا ، واستولى بعدها على الاحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج . واستمر حكم الزنجيين حتى بعد انظهر جنكيزخان فشابه القرامطة بمدة دولته — ستين سنة — وباهوالها .

وبعد مئة سنة من عهد المغول الاول جادت الليالي ، ليالي الدمار والبلاء ، بابنها الثاني تيمورلنك فكمل اعمال جده جنكيزخان الفظيعة واستولى على البحرين في ما استولى عليه من البلدان قبل دخوله بغداد . ثم خرجت الجزيرة بعد موتـــه من حـكم المغول ودخلت في حوزة شعب جاء من الغرب هذه المرة لا من الشرق ، شعب ينشد ولا شك التجارة ولكنه يسعى في طلبها سعي المعمّر لا المدمر .

فبينا كان المغول في الشرق حاملين على كل مظهر من مظـــاهر الحضارة والعمران ، يفتحون البلدان ويدمرونها ، ويذبحون العباد ، ويزرعون الويل والاحزان في كل مكان ، بينا كانت هـــذه الغيمة

(١) لا علاقة لهؤلاء بصاحب الزنج .

السوداء الكثيفة مخيمة على الشرق الادنى ، تحجب عنه النور ، وتفسد كل ما في الحياة من عوامل النشوء والبر ، كان قد راش الفكر البشري في اوروبا فشرع يجول في سماء العلم والبحث والاكتشاف . وكانت الملاحة التي هي يد التجارة اليمنى اول ما انتفع بثمار الفكر والعلم فراحت ترفع علم الجد والاقدام وراء الاوقيانوس في البلدان القصية .

جاء زمن ابطال البحار . ومن اولئك الكشافين الربان البرتغالي فسكو دي غاما [1] الذي ابحر حول « رأس الرجاء الصالح » ومخر عباب الاوقيانوس الهندي فوصل الى سواحل تلك البلاد العجيبة الهند ، ضالة الامم الغربية ، وكان اول من اسس لدولته مُلكاً في الشرق وجاء بعده زميله الفونسو دالبوكركه [2] فرفع علم دولته في مسقط ودخل المضيق ، مضيق هرموز ، فاستولى عليه وحصنه تحصيناً ، وتقدم في الخليج متفقداً الجزر والاساكل فيه وهو يبغي الوصول الى البصرة ، ليفتح طريقاً لمستعمرة بلاده في الهند وقد حاول سنة ١٥١٣ ان يحتل عدن فلم ينجح لكنه تقدم في اسطوله في البحر الاحمر واحتل جزيرة كمران قرب الحديدة ثم استولى البرتغاليون على جزيرة البحرين وعلى القطيف فحصنوهما كما حصنوا هرموز ومسقط الا انهم لم يستولوا على الاحساء لان العثمانيين كانوا قد سبقوهم اليها ، وبسطوا سيادتهم عليها ، فعدوها يومئذ جزءاً من اليمن الذي كانوا قد احتلوا بعض نواحيه .

---

(١) فسكو دي غاما Vasco de Gama ولد سنة ١٤٥٠ وتوفي سنة ١٥٢٤

(٢) الفونسو دالبوكركه Alfonso d'Albuquerque ولد سنة (١٤٥٣ وتوفي سنة ١٥١٥) .

آل خليفة شيوخ البحرين

كان خليج العجم في قديم الزمان كما هو اليوم مفتاح الطريـــق للتجارة بين الشرق والغرب . ولا تطمئن دولة غربيـة في الهند ولا يستقر امرها اذا لم تكن هي القابضة بيدها على هذا المفتاح . اما ان الخليج اسهل واصلح الطرق لتجارة الهند فغني عن البيان . هو اقـــل اخطاراً من البحر الهندي ، واقرب خطاً واسهل ، لانه في مأمن من العواصف والرياح . هو حصن اذا شئت وبابـــه مضيق هرموز حيث تكاد بلاد ايران تتصل ببلاد العرب . فضلًا عمـا في هذه الطريق من البلدان العامرة ، فمن سواحل الهند الى جزائر الخليـج الى البصرة فبغداد فسوريا فمصر فاوروبا — هي طريق الكنوز .

ادرك ذلك اهل البرتقال قبل ان يدركه الانكليز . ولكن ابناء الجزر وان كانوا قد جاؤوا الى الهند بعد مئة سنة من مجيء فسكودي غاما ، فقد تغلبوا على البرتقاليين بعد جهاد طويل مستمر ، تخلله الجم من الحيف والتعسف ، فاخرجوهم كما اخرجوا الفرنسيس بعدهم من تلك البلاد .

اما حكم البرتقاليين في البحرين فلم يـدم اكثر من اربعين سنة . يستدل على ذلك من كتابة على صخر في جزيرة صغيرة غربي المنامة تدعى جدا [1] اخذ البحارنة حجارة منها لتجديد قلعة عجاج التي كان قد شيدها البرتقاليون . وهذه القلعة جُددت بعد ان جلا البرتقاليون عن البحرين .

(١) هذه صورة الكتابة التي على حجارة جبل جدا : نقل من هـذه الجزيرة مئة الف حجر لتجديد قلعة البحرين على يد العبد فيروز في زمن وزارة جلال الدين شاه في شعبان سنة ٩٦٩ هـ و ١٨٦٨ م — تاريخ البحرين للشيخ خليفة ابن النبهان .

قال المؤرخ : شكا حاكم دلهي وهي عاصمة الهند الى العثمانيين ظلم البرتقال للمسلمين وطلب منهم المساعدة فجهز لهم السلطان سليمان القانوني اسطولاً جاء به الى الهند فتحاربوا مع البرتقال حتى اخرجوهم منها ... ثم جاء الاسطول العثماني الى مسقط والبحرين واخرج من كان فيهما من البرتقال كذلك (١)

وقد كانت للانكليز في اخراجهم نهائياً من الهند يد قوية عاملة ، عاملة في سبيل شركة الهند الشرقية لا في سبيل العثمانيين .

اما جلاء البرتقاليين عن البحرين فالمؤلف يزيدنا علماً بذلك . قال حصل اختلاف شديد بين امراء جزيرة البحرين وكان اكثرهم من الشيعة فرفعوا شكواهم الى الشاه عباس الاول الصفوي وطلبوا منه الحماية لقربه منهم موضعاً ومذهباً .

فاجاب الشاه عباس طلبتهم وخلصهم من السيادة الغربية ولكنه بسط عليهم حمايته الشاهانية ، فعادت البحرين الى حوزة من حكموها مراراً في سالف الزمان والاوان ، عادت مستعمرة فارسية كما كانت يوم جاءها الصحابي العلاء الحضرمي يدعو اهلها للاسلام .

ولكن الحكم الفارسي في البحرين ، وقد تسرب اليه ما كان قد اعترى الملك في بلاد فارس من الخلل والفساد ، تخلله فترات من حكم

. . ..

(١) بعد ان تغلب السلطان سليم على المماليك سنة ١٥١٧ م فكر في احتلال عدن ليجعلها مركزاً لحملة على البرتقاليين في الهند فجاء ابنه سليمان في سنة ١٥٣٨ باسطول كبير يحقق رغبة ابيه فاحتل عدن واقام حامية فيها . ولكن العرب قاموا بعدئذ على الترك فذبحوا حاميتها وسلموا البلد الى البرتقاليين ، فجاء الاسطول العثماني ثانية الى عدن فاخرج البرتقاليين منها واعاد الحكم العثماني فيها ، ثم استأنف السير الى الهند ليتم حملته على اهل البرتقال هناك .

العرب ، حتى ان آخر عامل عربي من عمالهم وهو الشيخ نصر آل مذكور استنجد حكومة ايران في حملته على آل خليفة في الزبارة فلم تنجده . وكانت الوقعة بينه وبينهم (سنة ١١٩٧ ﻫ ١٧٨٢ م) السبب في فراره الى بوشهر وفي دخولهم الى البحرين منتصرين .

آل خليفة

من الافلاج الى الكويت الى الزبارة – تجارة اللؤلؤ – آل خليفة في الزبارة – فتح البحرين – ظهور ابن سعود عبد العزيز الاول – سلطان مسقط – البحرين بين الاثنين – سلطان مسقط يستولي على البحرين – رجوع آل خليفة الى الزبارة ومفاوضتهم لابن سعود – النجدة من نجد – ابن عفيصان ينتصر ويؤمر نفسه – آل خليفة عند ابن سعود وآل خليفة عند سلطان مسقط – الرجوع الى البحرين واخراج ابن عفيصان منها – العدو في قطر – ابن عفيصان وأرْحَمَه حليفان – الحرب بين اسطول الحليفين واسطول البحرين – ارحمه وابن عفيصان ينجوان على لوحة من خشب – ارحمه وسلطان مسقط حليفان – الهجوم على البحرين – ارحمه ينكسر ثانية – ارحمه يعيد الكرة على البحرين – البطل الضرير – « بيدي لا بيد عمرو » الفتنة في بيت آل خليفة – حزبا آل عبدالله وحزب آل سلمان – الشيخ محمد آل سلمان – آل عبدالله يستنجدون ابن سعود – الشيخ محمد ينتصر على اعدائه – اسطول البحرين وتدخل الانكليز – « احرقوا اسطولكم ونحن نحميكم » – النزاع بين الشيخ محمد واخيه علي – الفتنة – المدرعات الانكليزية في البحرين – نفي الاخوين – الشيخ عيسى بن علي .

كانت الزبارة[1] في الماضي من البلدان العربية العامرة ، تجارتها الكبرى اللؤلؤ ، وسكانها من آل ابن علي والجلاهمة ، وهم من عرب العتوب اي بني عتبة ، وهؤلاء فصيلة من جمَيْلة ، وجميلة فخذ من عنزى . وكان آل خليفة ،وهم من اكبر عشائر بني عتبة ، يسكنون بارض الهدّار من بلدان الافلاج بنجد . فنزح الشيخ خليفة

(١) بلدة على شاطىء قطر قبالة جزيرة البحرين .

واهله الى الكويت في اواخر القرن الحادي عشر للهجرة . وبعد وفاته هجر ابنه الشيخ محمد الكويت وجاء باهله الى الزبارة فنزلوا على ابناء عمهم الجلاهمة وآل ابن علي .

كان الشيخ محمد بن خليفة ورعاً تقياً ، حصيفاً حكيماً . جاء من الكويت مغلوباً على امره وظاهر قصــــده شراء اللؤلؤ . جاء يبغي التجارة لا السيادة فكان حظه من الاثنين وافراً . احبه اهل الزبارة لورعه وكرمه واصالة رأيه ، فرغبوا اليه والى قومه ان يقيموا بينهم ثم امّروه عليهم .

وعندما توفي الشيخ محمد تاجر اللؤلؤ السياسي خلفه ابنه الشيـخ خليفة الذي لم يرث من ابيه غير شيء من التقوى مزجـه بشيء من الشعر . وقد حج سنة ١١٩٧ هـ . وتوفي في مكة ، فخلفه في الحكم اخوه الشيخ احمد . وهو يدعى الفاتح — احمد الفاتح الذي احترب واخر عامل من عمال الفرس في البحرين اي الشيخ نصر آل مذكور ، فغلبه واستولى على الجزيرة .

لما استقر حكم آل خليفة في الزبارة ، عـــاد اهلها الى الاتجار ، فكانوا يقصدون الى البحرين لشراء اللؤلؤ الذي كانوا يبيعونه في الهند . وكان البحارنة من اهل الشيعة وهم يومئذ يكرهون اهـــل السنة ويضمرون لهم العداء . فحدث ذات يوم خلاف بين الفريقـين افضى الى قتال قُتل فيه احد خدم آل خليفة ، فثأر له اهل الزبارة ، وحملوا على البحارنة فاستغاث هؤلاء بحاكمهم الشيخ نصر ، فاعد لهم اسطولاً من السفن مجهزة بالجنود وتولى بنفسه القيادة . ولما دنوا من الزبارة خرج عليهم اهلها بالسفن فحاربوهم وكسروهم شر كسرة ، فأقلعوا هاربين الى بوشهر . امـــا البحرين فكانت قد خلت من

الحامية ، فسار اليها الشيخ احمد بقومه واستولى عليهـا سنة ١١٩٧ هـ . ١٧٨٢ م وهي السنة التي توفي فيها اخوه الشاعر الورع في مكة . كانت تجارة اللؤلؤ من عوامل الفتح الاحمدي كما كانت سابقـاً من دواعي الفلاح في امارة ابيه الشيخ محمد على الزبارة .

اقام الشيخ احمد عاملاً من قبله على البحرين ، وعاد الى عاصمته في قطر . على انه لم يستمتع وقومه بثمار النصر غير بضع سنين . لان ابنه الشيخ سلمان الذي خلفه كان خواراً ضعيف الرأي والارادة . وكان قد نبغ في تلك الايام رجل في نجد فراح يكتسح البلدان والامصار ويستولي على القبائل الدانية والقاصية . هذا الرجل هو الامير عبد العزيز آل سعود امام الوهابيـــة الذي كان قد وصل بجيوشه الى الاحساء ،فخاف عرب الزبارةان يستولي عليهم، فظعنوا يتقدمهم الشيخ سلمان الى البحرين .

هربوا من الوهابية القاهرة ، من خطر البر ، فوقعوا في خطر ادهى واشد جاءهم من البحر يقوده ويدفعه السيد سلطان حاكم مسقط . وكأن السيد سلطان ادرك اعوجاجاً في حكم البحرين الجديد فجاء يقوّمه باسطوله وسيفه . فبادر اليه الشيخ سلمان موالياً لا معاديـاً ، لانه لم يرغب باكراه البحارنة على القتال . وكان قد اطلع ، كما يقول المؤرخ ، على بعض مكاتباتهم الى حاكم مسقط يرغّبونه في الاستيلاء على بلادهم . هذا من الشيخ سلمان انصاف في الحكم وعدل في الرعيـــة . الارادة للشعب ! ولكن الصلح الذي عقده والسيد سلطان والذي بموجبه قدم احد اخوانه رهينة الى حاكم مسقط الظافر ، لا يُعَد في عين عنزى وربيعة من شيم الرجال . وولّى السيد سلطان ابنه السيد سعيداً على البحرين وعاد بالرهينة والغنائم الى مسقط .

اما العتوب فعادوا الى الزبارة بذلهم وهم لا يزالون موكلين امرهم الى الشيخ سلمان . ولكنهم نهضوا لاسترجاع البحرين ، بعد ان توفي اخوه الرهينة في مسقط ، وشرعوا يفاوضون امير نجد بذلك . طلبوا منه المساعدة فاجاب طلبهم حباً وكرامة . ولم يدركوا ما كان قد ظهر وشاع من مقاصد الرجل القومية والدينية ، مع انه كان قـــد استولى يومئذ على الحرمين .

ابشروا يا عتبوب ! هذا ابراهيم بن عفَيْصان احد قواد ابن سعود الاباسل جاء بجيوشه يسترجع ملككم — يسترجعه يابني عِتْبة ليضمه الى ملك اهل التوحيد وابن سعود . وكذلك كان . دخلت قوات الزبارة ونجد الى البحرين فضربوا السيد سعيداً فهزموه واخرجوه من الجزيرة .

وكان الكلام لابن عفيصان : البحارنـــة مشركون ولا يصلح المشركين الا اهل التوحيد . امـــا آل خليفة فاعفاهم القائد النجدي من الاصلاح ، فاعـــلًا او مفعولاً ، واذن لهم بالرجوع الى الزبارة . فعادوا ثانية مدحورين مغبونين ، وشرعوا يفكرون برفـع امرهم الى حضرة الامام في الدرعية عله يرسل من قبله من يؤدب ابن عفيصان ، او علّه في الاقل يأذن لهم بالرجوع الى البحرين وبينا هم يفكرون والشيخ سلمان صدْرهم يفكر اكثر من الجميـع ، اذ اقبلت عليهم سرية من سريات الفاتـح الكبير فاستولت على الزبارة وامرت آل خليفة بالسفر الى نجد . وكان الامير سعود قـد خلف وقتئذ اباه عبد العزيز .

سافر في سنة ١٢٢٤ ه ثلاثة من آل خليفة ليقابلوا امام الوهابيـة في الدرعية . فلما وصلوا اليها اكرم الامير سعود وفادتهم ولم يـــأذن

لغير اعيان الزبارة بالرجوع . اما آل خليفة فأنزلهم في القصر ضيوفاً عليه ، واسراء بين يديه .

فلا يستغرب رجوعهم الى السيد سعيد بن سلطان الرجل الذي اخرجوه من البحرين ، يستنجدونه هذه المرة ليخرجوا ابن عفيصان منها . وكان الشيخ عبد الرحمن بن راشد آل فضل رسول اخواله آل خليفة الى حاكم مسقط . ولكنه ، على عزمه ودهائه ، لم يظفر من السيد سعيد بغير المال عوناً . اخذ الشيخ عبد الرحمن المال وسافر الى بلاد فارس او بالحري الى قَرْس المقاطعة الجنوبية وفيها مستعمرة عربية من عرب النصور فألف منهم جيشاً — بالمال تقوم الحروب — وارسل الى اخواله يخبرهم بذلك ويطلب منهم ان يتأهبوا للهجوم . فجاء آل خليفة برجالهم من الزبارة واتحدوا مع ابن اختهم عبد الرحمن وجنوده فتواقعوا مع جيش ابن عفيصان وكسروه واخرجوه من الجزيرة . اقلع النجدي هارباً الى قطر ونزل هناك على رجل يدعى ارحمة بن جابر الجلاهمة .

بعد ان استولى عبد الرحمن آل فضل على البحرين ونقل آل خليفة اليها تبعهم قوم من العرب كثيرون ولما علم الامام سعود بخروج ابن عفيصان مهزوماً حاول استرجاع الجزيرة من الشيخ عبد الرحمن بوساطة احد اخواله الاسراء في الدرعية . فأرسل الشيخ عبدالله ابن احمد منهم يصحبه بعض رجاله ليستطلعوا خبر عبد الرحمن ويروا ما اذا كان استولى على البحرين لنفسه او ليعيد اليها سيادة آل خليفة . هي السذاجة في النوابغ وفي من لا يزالون على الفطرة الاولى .

لا نعلم ما اوصى به الامام سعود رجاله ، ولكن المؤرخ يقول انهم جاؤوا الى الشيخ عبد الرحمن بالخشن من الكلام . — كيف يجرأ

العيال ان يستولوا على البحرين وآباؤهم في قبضة الامام ؟ فقال الشيخ عبد الرحمن : دونكم العيال ، فانهم حاضرون فتقدم اذ ذاك الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان وقال : نحن اخذنا البحرين لانفسنا ولا حاجة لنا بآبائنا . وقد يئسنا منهم وسمينا باسمائهم [1] .

كفّر الولد الشجاع عن ضعف ابيـــه فاغضب رجال نجد ، فقالوا يهددون الشيخ عبد الرحمن : لو كان يمكن للخف والحـافر ان يطـأ البحرين لنثرناها حصاة حصاة . فاجابهم قائـلا : لو كان يمكن لقُبيّت الجابري [2] ان يطل على الدرعية لجعلنا عاليها اسفلها .

ولكن الاقدار بعثت على الدرعيّة بغير «قُبيت الجابري» ليهدّمها. ففي تلك السنة او بعدها بقليل جاء ابراهيم باشا المصري يحارب اهل نجد فشغل الامام ابن سعود عن الاجزاء الصغيرة مثل قطر والبحرين في ملكه المترامي الاطراف ، فاطلق سراح بني خليفة وتركهم وشأنهم ، فعادوا الى الجزيرة يتولون فيها زمام الاحكام .

لم يصفُ لهم الجو مع ذلك ، لان قطَر قريبة من البحرين ، وفي قطر ارحمة ، وعنده ابنُ عفيصان . وكان ارحمة بن جابر الجلاهمة عزيزاً في قومه جباراً عنيداً . فلم يدُنْ لآل خليفة ، بل كان يباريهم في السيادة ويسعى في انتزاع الامارة من ايديهم . ثم جاء ابن عفيصان يزيده غلاً ونفوراً فوُحدت النزعتان والثأران ، وكان يُنتظر من رجلَي قطَر مباشرة القتال . ولكن آل خليفة ، عندمـا استقر امرهم في البحرين ، جهزوا اسطولاً من السفن الشراعيـة وابحروا الى قطر . توكلنا على الله ! نحرقها ان شاء الله ! وكان ارحمة وابن عفيصان قد

---

(١) يقول العرب عندما يفقدون احداً من اهلهم : سمينا باسمه .

(٢) القبيت انف السفينة والجابري اسم سفينة عبد الرحمن .

علما بذلك فتأهبا للحرب . توكلنا على الله ! هي لنا ان شاء الله !

خيم الليل فاوقف الخليفيون سفنهم امام المكان المقيم فيه ارحمة وابن عفيصان وهو يدعى الحوَيِر . وكان ارحمة ملاّحاً ماهراً وقائداً خبيراً فلم تسره مناورة اسطول العدو اذ رأى انواره . — تعبئة هذه السفن يا ابراهيم تنبيء بوجود الشيخ عبدالله بن احمد فيها . فقال ابراهيم متهكماً : والشيخ عبدالله من المحبوسين في الدرعية. هات الدليل على نبوءتك يا ارحمة .

— تعبئتها تعبئة قائد خبير ، ولا يمكن ان يكون غير الشيخ عبدالله . ثم استدعى زورقاً واشعل فيه سراجاً وامر احد رجاله ان يقف به وراء السفن ، فلما رأى قائد الاسطول ذلك خشي ان يكون النور نور سفن ارحمة ، فأمر سفنه ان تقف وراءه دفعاً لهجوم يجعله محصوراً بين العدو والبلد. فلما رأى ارحمة ذلك تيقن ان الشيخ عبدالله قائد الاسطول واعجب بدهائه وبمقدرته الحربية .

لا تسرني هذه الحركة يا ابراهيم . هيا بنا الى البحر .

خرجوا بالسفن الى البحر ، وعند انبلاج الفجر تقابل الفريقان فادرك ارحمة ان من الحزم الا يقاتل القوم لان قوته لم تكن كافية . فاغتاظ ابن عفيصان عندما قال له ذلك وظنها جبانة منه ، فاوعز الى احد رجاله ان « يحورب »(١) .

لا خير في رجل يجر جريرته   واذا تضايق دربه خلاها(٢)

فغضب ارحمة واعتزى قائلاً : لا بالله ما نخليها . ثم امر بنشر الشراع وبرز للقتال .

(١) حورب اي هزج وهي من اصطلاح اللبنانيين وعرب نجد .

(٢) هذا من الشعر الذي يدعى في نجد بالنبطي اي العامي .

اشتبكت السفن بعضهـــا ببعض ، فتلاطمت الاشرعة ، وأنّت الاخشاب من الصدمات ، ولصقت سفينة ارحمة بسفينة راشد بن عبدالله فجاء ابوه يدعمه بسفينة من الجنب الآخر كيما يمنعه ساعة الخطر الاشد من الفرار . وكأني بارحمة وقد عاين الشيخ عبدالله يقول لابن عفيصان : اتبغي الدليل على نبؤتي ؟ خذه يا ابراهيم .

حمى الوطيس بين الجمعين ، فدوت البنادق بالرصاص ، وابرقت خلال الدخان السيوف ، وسالت الدماء من المراكب فخضبت الامواج ، واشتعلت النيران في الخشب والاشرعة ، فتطايرت منهـــا الشهب وتساقطت الشظايا الملتهبة . — تبغي الدليل على نبوءتي ؟ خذه يا ابن عفيصان . راحت القتلى تسابق الرصاص الى قعر البحر ، وفيهم راشد بن الشيخ عبدالله . ثم حجبت النيران والدخان سفينة أرحمة ، وقهقهت فوق عرشتها زبد الموج المخضب بدم الابطال ، فنجا سيد الجلاهمة وحليفه ابن عفيصان على لوحة من خشب . — هل رأيت حرب العتوب يا ابراهيم ؟ ولكن الهول أصمّ ابراهيم وعقل منه اللسان .

اما ارحمة فلم يكن ممن تسكتهم الهزيمة وتصمتهم الاهوال . لم يوفق في شركته وابن عفيصان الى مراده ، فسافر بعد تلك الوقعة الى مسقط يخطب ود حاكمها سعيد بن سلطان .

— آل خليفة اعداؤك يا سعيد واعدائي . كسروك مرة وكسروني ولست يا سعيد ممن ينامون على الضيم . لا بالله .

وحلف أرحمة بعز العُتوب ، وحلف سعيد برأس ابيه .

ثم ناصب صاحبُ مسقط الخليفيين العداء وذلك انـــه قبض ذات يوم على تجار من البحارنـــة كانوا يقصدون الهند ، وفيهم الشيخ عبد الرحمن آل فضل عدوه الاكبر ، فعرجـوا على مسقط فاعتقلهم في

برج القلعة . وكتب الى اهل البحرين يطلب منهم الطاعة والخراج . فأجابه الحاكم الشيخ سلمان ، وكانت منه حيلة من حيل السياسة والحرب : اننا بغنى عن هؤلاء وقد نسيناهم وسمينا باسمائهم .

أما السيد سعيد فكان قد تأهب للحرب فجاء باسطوله الى البحرين يصحبه أرحمة الجلاهمة، فنزلوا في سِترة على شاطىء الجزيرة ، واقاموا هناك ثلاثة ايام فلم تظهر طلائع البحارنة . فتهكم سعيدقائلًا : عتوبك غابوا — اي ماتوا — فغضب ارحمة لانه عتوبي ، وعندما ظهرت اعلامهم خلال النخيل في صباح اليوم التالي صاح قائلا : هم عتوبي ظهروا يا سعيد . توكل على الله .

ولم تكن ساعة بعد التحام الجيشين حتى اسفرت الوقعة عن هزيمة اهل مسقط وفرارهم الى البحر . فلما رجع السيد سعيد الى بلاده همّ بقتل تجار البحرين المعتقلين عنده . ولكن اخته موزة نهته عن ذلك وانبته قائلة : هم في جوارنا واسرى بيدك فأي فخر في قتلهم . دوّل على البحرين وخذ بثأر اخيك . اي جهز عليها مرة ثانية . واخوه كان قد قتل في وقعة سِترة .

اثرت في سعيد شهامة اخته موزة تأثيراً حسناً فعاد الى البحرين . ولكنه سالم اهلها هذه المرة فعقد معاهدة مع اميرهم الشيخ سلمان الذي سلم الجزيرة سابقاً الى ابي سعيد دون قتال ، ومن شروطها ان يدفع اهل البحرين قسماً من الخراج الى حاكم مسقط فيطلق سراح المعتقلين عنده .

وبعد وفاة الشيخ سلمان الرجل المسالم تولى الحكم اخوه الشيخ عبدالله ،وهو الحاكم الثالث من آل خليفة في البحرين . وكان أرحمة لا

يزال حياً يرزق وخصماً لا يموت الا قتالا . لكن الزمان والكروب أوهت منه العظم وذهبت بالبصر . اما القلب الذي تعشق الاخطار في سبيل المجد فلم يعتره وهي" او نصب ، ولم يخمد فيه ذاك النور الذي لا يرى شرفاً في غير الشجاعة والثبات . قام أرحمة ومعه بعض قومه يعيد الكرة على البحرين ، ارحمة وحده هذه المرة لا حليف ولا شريك له . فدخل القطيف راكباً سفينته المشهورة «غطروشة » فجرّد عليه الشيخ عبدالله السفن وقد شحنها بالرجال وخرج يقودها بنفسه .

احاطوا بارحمة البطل الضرير في ميناء القطيف ، فأمر بنشر الشراع وطلب ميداناً متسعاً للقتال . فاجيب الى طلبه . أفسحوا لغطروشة فخرجت الى عرض البحر ، ثم انقضوا عليها من كل جانب . وكان ارحمه وهو جالس عند خزانة السفينة ومعه ابن له صغير الى جنبه وعبده طرّار واقف فوق رأسه يسأل عن السفن الهاجمة عليه وعن قوادها فيخبرونه فيقول : هذا لا يجرأ على مقابلتنا — هذه لا تلحقنا . ثم يصدر الاوامر للنوتية بينما رجاله يبادلون العدو اطلاق الرصاص . وعندما دنت سفينة الشيخ احمد بن سلمان من « غطروشة » اخبروه بها فقال : هذا يطابقنا لا محالة ، لان جنبه لا يلامس ناعمات الابدان . اي انه لم يتزوج .

بعد قتال بالرصاص شديد تلاصقت السفينتان ، فتجالد الفريقان ، واشتد الضرب بينهما والطعان ، بينما ارحمة الضرير يحارب بلسانه وجنانه ، فيحرض رجاله ، ويصدر اوامره ، ويسأل تارة ابنه ، وطوراً يستخبر عبده طراراً .

— اين صاروا يا ولَيْد .

– عند الدقل (١)

– جنّبوا . جنّبوا ... والآن اين صاروا ؟

– صعدوا النّيم (٢)

سكت ارحمة سكوته الابدي ، اذ قرن كلمته الاخيرة بالعمل ، فاخذ ابنه ووضعه في حجره ، وعمد الى نار فالقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته . « بيـدي لا بيد عمرو » . فدوى دويٌ غرقت فيـه اصوات البنادق كلها وضحك الزبد المخضب بالدمـاء فوق عرشة الغطروشة .

تسمى هذه الوقعة في تاريخ البحرين « ذبحة أرحمة الجلاهمة » . قل هي مجده وتخليده . رحم الله كل من مـات بطلًا في ساحة الوغى .

كان لارحمة ابن اخر اسمه بشر حاول الاخذ بثأر ابيه فراح الى صاحب مسقط السيد سعيد يستنجده على آل خليفة . وبما انهم كانوا قد امتنعوا عن دفع الخراج جاء سعيد ، اكراماً لبشر ابن أرحمة ، يعلمهم حفظ العهود . فخرج له الشيخ عبدالله بجيشه وكسره في اول وقعـة وقتل من رجاله ثلاثة الاف .

عجايب يا بني عتبه عجايب ثلاثة الاف ما فيهم شايب

وقد حارب في هذه الوقعة مع آل خليفه مزيد بن هذال وبعض قومه العمارات (٣) .

(١) الدقل : الصاري .

(٢) النيم سطح مؤخر السفينة .

(٣) لا يزال بنو هذال وشيخهم اليوم فهدبك مؤمرين على هذا الفخذ من عنزى

اخذت نشوة النصر مأخذاً من الشيخ عبدالله فحببت اليه الفتح والاستعمار . وكان قد تجدد بينه وبين امير نجد الخلاف فجهز جيشاً بحرياً وسار به الى دارين ففتحها ، ثم الى تاروت فاستولى عليها ، ثم الى سيهات في القطيف فحاصرها . فجاءت جيوش نجد توقفه في فتوحاته ، وقامت تساعدهم الفتنة في بيته . بل افقدته تلك الفتنة ما كان قد استولى عليه في القطيف .

ان السبب في مثل هذه الفتن المألوفة في بيوت امراء العرب هو غالباً تعدد الزوجات الذي ينشأ عنه ضغائن بين الاشقاء ، ومنافسات بين الامهات خصوصاً اذا كن من قبائل مختلفة .

كان للشيخ عبدالله عشرة اولاد منهم ثلاثة امهم من آل بني علي ، العشيرة التي مرّ ذكرها في الكلام على اهل الزبارة . فخرجوا على ابيهم يطالبون بالامارة وقصدوا الى الحوَيلة [1] يستنجدون اخوالهم فيها . فارسل الاب عليهم جيشاً بقيادة حفيد اخيه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان فهاجمهم في الحوّيلة وهزمهم في الوقعة الاولى ، فتابوا وقالوا لابيهم ، اننا من الطائعين ، فعفا عنهم واذن لهم بالرجوع الى البحرين .

ولكن روح الفتنة التي خرجت منهم حلت بالرجل الذي حمل عليهم باسم ابيهم وظهرت قرونها بعد ثماني سنوات من وقعة الحوّيلة ذلك ان الشيخ محمد ، حفيد الرجل المسالم الشيخ سلمان ، قام على الشيخ

تابع شرح صفحة ٢٦٦

الذي يسمى العمارات . وهم من عشائر الشمال يقيمون في ارض عند وادي حوران بين سوريا والعراق .

(١) الحويلة قرية في الطرف الشمالي من قطر .

عبدالله كأن يتقاضاه اجرة تأديب اولاده ، فحاصره في المحرّق . وكان ابنا اخيه سلمان الساكنان يومئذ في الرفاع يميلان الى عمهما وهو يثق بهما . فاستنصرهما على ابن اخيهما الثائر عليه ، وجهز لكل منهما جيشاً كبيراً . فاحتربوا في وقعتين فاندحر في الثانية الشيخ محمد بن خليفة وبعد ان وكل اخاه الشيخ علياً بان يرعى الفتنة سراً راح يستنجد الاعداء على الاقرباء .

سافر اولاً الى نجد فصده اميرها ، فعاد الى قطر وارسل الى آل ابراهيم الذين كانوا يومئذ في جزيرة قيس من اعمـــال فارس يدعوهم لقتال اعدائهم السابقين حكام البحرين . فلبوا الدعوة مسرعين ومعهم الجلاهمة يرئسهم بشر بن أرحمة. وكان الشيخ محمد في قطر والشيخ علي في البحرين يتعاونان في اضرام نار الفتنة وتجهيز الجيوش لها .

أزف يـــوم القتال ، فخرج الشيخ علي بجيش على الشيخ عبدالله فكسره وتقدم الى الرفاع فاستولى عليها . ثم جاء الشيخ محمد بجيشه فزحف على المنامة ودخلها منتصراً. وكان الشيخ عبدالله في المحرّق فعبر اليها ووقع بينه وبين الثائرين قتال كان عليه وبالاً . فلجأ وبعض رجاله الى القلعة فتحصنوا فيها ، وما كان الحصن حصيناً . فرّ الشيخ عبدالله من القلعة هارباً الى بلاد فارس ، ومنهـــا جاء الى الكويت يستنجد حاكمها فلم ينجده : فسار منها الى نجد وكان نصيبه هناك الفشل ايضاً ، فسافر بعدئذ الى مسقط فمرض فيها ، ومات بعد ايام حزيناً طريداً .

حكم الشيخ عبدالله بن احمد بن محمد بن خليفة في البحرين اثنتين وعشرين سنة ، قضى جلها في قمع الفتن ، وفي ما عقم من الحروب . وخلفه محمد الثائر ، الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان ، الذي كان السبب

في انقسام آل خليفة الى حزبين حزب آل عبدالله وحزب آل سلمان . وهذا الشقاق بما نشأ عنه من الفتن والحروب أدى الى تدخل الانكليز فتح الثلمة التي يتعشقها « سفين » السياسة . سأقص قصة الانكليز في حينها ومكانها .

اما الآن فالحلقة التي نحن فيها من هذا التاريخ تتعلق بالشيخ محمد ابن خليفة آل سلمان . وقد علم القارىء مما تقدم من سيرته انه كان شجاعاً عزوماً مقداماً ، ولكنه لم يعلم بانه كان ذا بداهة عجيبة تدنو من الرؤيا فتمكنه من تفسير الاحلام ، والتنبؤ بما تخبئه الايام . اما في السياسة فقد كانت الحرباء مثاله الاعلى . ولا غرو ، فالدولة العثمانية كانت قد بدأت ترمق الكويت والاحساء والبحرين بنظر الام الرؤوم ، وكانت الدولة الايرانيـــة لا تزال تحلم برجوع ابنتها الضالة فترأم حبل سيادتها في الخليج ، وكان الانكليز ، بعد ان ثبتت قدمهم في بوشهر ، يسيرون في المضيق بين الدولتين الى مقاصدهم الكريمـــة . فهل يلام الشيخ محمد اذا قـــام بينهم كالبهلول يدهشهم تارة ، وطوراً يضحكهم ، ولا يرضي باطناً احداً منهم . قيل انه كان ينشر في القلعة علمين ، علماً عثمانياً فوق البرج الغربي منها وعلماً ايرانياً فوق البرج الشرقي ، حتى اذا حاولت احدى الدولتين التحكم باموره ادعى النسبة الى الاخرى . ولكن الانكليز ادركوا سر هذه السياسة وعلموا ان في العرب انفسهم من لا يسره نجاحها .

تولى الشيخ محمد الحكم سنة ١٢٥٨ هـ ١٨٤٢ م فحكم مطمئن البال ست سنوات لم يخرج عليه اثناءها احد من اعدائه . لكن يظهر ان ابناء سلفه الشيخ عبدالله الذين هربوا بعد سقوط ابيهم الى الدمام في القطيف كانوا يتأهبون لذلك . فقـــد كان في القطيف يومئذ آل ابن

علي وزعيمهم عيسى بن طريف الطـــامع بملك البحرين . فاتحد وآل عبدالله وجاؤوا الى قطر يشهرون الحرب على الشيـخ محمد . فبعث اخاه علياً على رأس جيش كبير نازلهم في أم سوية فقُتل في الوقعـــة عيسى بن طريف وقفل الشيخ مبارك بن عبدالله واخوانه هاربين الى الدمّام ... – يلزمنـــا يا اولاد بو ربي حليف اخر ... – دونك يا مبارك وابن سعود .

وكان امير نجد يومئذ فيصل بن تركي الذي نهض للحرب يسترجع ملك اجداده . فأجاب طلبتهم بأن بعث يمدهم بجيش في البحر وسار يقود بنفسه جيشا برياً . وعندما ابحر آل عبدالله وانصارهم الى البحرين كان الشيخ محمد قد حشد الجيوش براً وبحراً لمقاومتهم . فغلبهم ثانية في وقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك وابن عدو آل خليفة الالد بشر ابن أرحمة. ثم حاول آل عبدالله ثالثة ان يأخذوا بثار ابيهم فلم يفلحوا فبعد ان حاصرهم الشيخ علي اخو الشيخ محمد في الدمّـــام احدعشر شهراً واضعف شوكتهم لجأوا الى ابن سعود ليكون هذه المرة وساطة الصلح بينهم وبين ابن عمهم ، فقام الامير فيصل بهذه المهمة المبرورة وكان من المفلحين . فعاد آل عبدالله الى البحرين فعفا الشيخ محمد عنهم واكرمهم غاية الاكرام .

ومع ذلك لم يصف الجو للشيخ محمد . فلم يكد يخمد نار الفتنة في القطيف حتى اشتعلت في قطر التي كانت يومئذ تابعة للبحرين ، فقـام اهلها وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن ثاني يخلعون نير الطاعة ويهددون آل خليفة بابن سعود .

فارسل الشيخ محمد اخاه علياً ليؤدب العصاة . فوصل الشيخ علي بجيشه الى الدَّوحة عاصمة قطر ، ودخلها بغتة ، فاعمل في اهلها السيف

ثم دمرها تدميراً. جاء بعد ذلك الشيخ قاسم الى البحرين يلتمس العفو فالقاه الشيخ محمد في السجن ، فهاجت لذلك قبائل قطر باسرهـــا وفي مقدمتهم عرب النّعيم وجاؤوا باسطول من السفن يهاجمون البحرين فلما وصلوا اليها وجدوا جيشاً في البحر مستعداً للقتال ، فحدث في مكان اسمه دامسَة معركة شديدة ، تلاصقت فيها السفن فشبُكت بكلاليب الحديد، وتجالد الفريقان فاحمر وجه الماء من دم القتلى وكان الفوز للبحارنة.

وكانت وقعة دامسة هذه (١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م) السبب في تدخل الانكليز بشؤون البحرين.

لست ممـــن يشكّون في ان الانكليز يبغون السلم ويسعون في توطيد الامن في الخليج العجمي . بـــل هم يبغون السلم ويسعون في توطيده في كل مكان يتخذونه طريقاً لتجارتهم وسبيلاً لتأييد سياستهم في الهند . وقد بان للقارىء في ما سردته من تاريخ البحرين ان الخليج، وهو اهم هذه الطرق ، كان دائماً مسرحاً للفتن والحروب التي يسببهـا حب السيادة والاستعمار . جـــاء الانكليز بعد اهل البرتقال وقصدهم الاستيلاء عليه ، والمحافظة فيه على الامن والسلامة . فبسطوا شيئاً من سيادتهم ونفوذهم على بعض الجزر والاساكل على الساحل العجمي ، منها بوشهر التي هي اليوم [1] مركز الحاكم العام .

وراحوا ينشدون الامن والسلام — والسيادة طبعاً — في الجهـة العربية منه . نريد الخليج طريقاً آمنة للتجارة ايام السلم ، ونريده ايام الحرب وهو مفتاح الهند بيدنا وحدنا انما هذه هي غاية الانكليز الاولى والاخيرة . ولا ريب بذلك . اما الوسائل التي اتخذوها لتحقيق هذه الغاية والسياسة التي انتهجوها لتعزيز سيادتهم في الخليـج ، فتلك قصة

(١) سنة ١٩٢٢ .

اخرى لا احرم القارىء طرفاً منها .

قلت ان الشيخ محمد بن خليفة كان شاذاً في بداهته الى درجة تصبح البداهة فيها ضرباً من الرؤيا . ولكنه لم ير شيئاً واأسفاه مما كنَّته الاقدار في تقرب الانكليز منه . جاءه الوكيل السياسي من بوشهر يخطب وده ويدعوه لعقد معاهدة تضمن له سلامة بلاده ومساعدة بريطانيا (١) فمن يرفض هاتين النعمتين؟ وكان الشيخ محمد كما اوضحت محاطاً دائماً بالاعداء من القبائل ومن آل بيته ، تزعزع حكمه الفتن والحروب . فرأى الحكمة والمصلحة في عقد المعاهدة ، وان كان من شروطها ان يتنازل حاكم البحرين عن حقوقه في تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية . فقد تعهدت بريطانيا في مقابلة ذلك ان ترد عن البحرين كل غارة بحرية . هذه خلاصة المعاهدة او الاتفاق .

فلما ثار اهل قطر على حكومة البحرين وجاؤوا يهجمون على الجزيرة خشي الشيخ محمد من استيلائهم عليها بينا هو يفاوض الوكيل السياسي

(١) حدثني احد افاضل البحرين قال : كان للبحرين اسطول شراعي كبير مسلح بالمدافع والذخيرة استفحل امره . فاستولى حكام الجزيرة على قطر والقطيف فخشي الانكليز عاقبة ذلك لان مصلحتهم تقضي بان تبقى بلدان الخليج متنافرة متشاقة لكل منها امير مستقل فاخطروا امراء البحرين بان القتال في البحر ممنوع وان لبريطانيا حقاً بمنعه تعترف لها به الدول الكبرى . فلا يجوز ان يخرج اسطولكم الى عرض البحر واذا خرج فالاسطول الانكليزي يقوم بواجبه . فاحتج الشيوخ الامراء ان بلادهم جزر مفتوحة ثغورها لا حصن لها الا الاسطول . فان لم ندفع به الاعداء ملكوا بلادنا ورقابنا . واذا لم نهاجم هوجمنا . فاجاب الانكليز اذا كان الامر كذلك فان حكومة بريطانيا ، اذا امتنعتم عن الهجوم البحري ، تتعهد برد الاعداء عن بلادكم .

في بوشهر [1] وينتظر النجدة منه . فكانت وقعة دامسة وكانت فاتحة المحنة .

وكب الوكيل السياسي مركباً حربياً وجاء يحتج على الشيخ محمد بانه خرق المعاهدة بينه وبين بريطانيا . ولكن الشيخ محمداً وكل اخاه علياً بالامر وسافر الى قطر قبل ان يصل الوكيل الى البحرين . فعد الوكيل ذلك اعترافاً منه بنكث العهد وفراراً من التبعة والجزاء فامر باطلاق مدافع البارجة على القلعة التي كانت تزدهي بعلمي تركيا وايران . ثم طلب من الشيخ علي ان يتولى الحكم بدل اخيه الذي سقطت امارته بخرقه المعاهدة. قبل الشيخ علي وكان من قبوله الشقاق بينه وبين اخيه. فقد اشار الى ذلك ابن اخيه شاعر البحرين الشيخ ابراهيم في القصيدة التي يرثي بها والده حيث قال :

فنازعك الشقيق وكان قدماً حسامك والامور لها انتزاع
واغري الدهر بينكما وهاجت على الافساد بينكما الرعاع

كان الشقيقان متحابين يخلص احدهما للآخر ، ولم يبد في خلال ثلاثين سنة التي فيها حاربا وادارا الشؤون معاً اقل ميل في علي الى منازعة محمد الحكم والسيادة . كانا والحق يقال مثال الوداد والوفاء حتى مجيء الوكيل السياسي من بوشهر . فكان الاخلق به ان يكتفي بما فرضه على البحرين من المال ، اي مئة الف روبية ، تعويضاً وتأديباً ، ولا يزرع في سياسة البلاد الداخلية تلك البذرة التي تأصلت في البيت المالك ولا تزال تنتج الفتنة والشقاق .

بعد ان تولى الشيخ علي الحكم سافر اخوه الشيخ محمد الى

(١) بوشهر هي على الشاطىء الفارسي وتبعد نحو مئة وخمسين ميلا عن البحرين شرقاً بشمال .

الكويت فتدخل ال الصباح يصلحون بين الشقيقين . فكتب الحاكم يومئذ الشيخ عبدالله الى الشيخ علي يسأله ان يرجع الامر الى ما كان عليه ، فقبل الشيخ علي بذلك . فجاء الشيخ محمد يصحبه حاكم الكويت واخوه الى البحرين ولكنهم علموا قبل ان ينزلوا الى الجزيرة بان الشيخ علياً عدل عن رأيه واصرّ على امره. ولا شك ان اليد التي كانت تؤيده هي اليد التي اقامته حاكماً .

لا يحكم الصياد اشباكه الا اذا عكر بطن الغدير

عاد الشيخ محمد، الذي لم يُقهر مرة في حياته ، الى ما فيه من قوة ودهاء فنزل في دارين وشرع يتأهب هناك للقتال . فحشد جيشاً من بني هاجر واعلن الحرب على اخيه ، فخرج له الشيخ علي بجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً ذُبح فيه الشيخ علي وتفرق جيشه . فعاد الشيخ محمد الى الحكم الذي ما زالت الفتنة تشتد فيه والمحن تزداد يوماً فيوماً .

كان ابناء الشيخ عبدالله من الذين نصروا الشيخ محمد على اخيه ، وهم مسرورون بما حدث بين الاخوين المغتصبين الحكم من ابيهم . ثم بادروا الى الانتفاع بما اسلفوه من مساعدة فادعوا انهم كانوا السبب في انتصار الشيخ محمد وقاموا يناهضونه . ثم قبضوا عليه فسجنوه في القلعة التي كان يرفع فوقها العلمين التركي والايراني . وقد قال لهم الشيخ محمد عندما اعتقلوه وكان في نبوءته صادقاً لن يطول حكمكم اكثر من ثلاثة اشهر .

وكان الامر كذلك ، اذ قبل ان يتم الشهر الثالث جاء الوكيل السياسي من بوشهر في مركبه الحربي وتولى امور البحرين المضطربة . « فاستشار » الاهالي ، بعد ان اطلق بضعة مدافع على سراي المنامة ،

في من يختارون حاكماً عليهم فاجمع رأيهم على الشيخ عيسى بن الشيخ علي الذي قتل في الحرب الاخيرة . ثم طرد من البحرين بني هاجر وهم اتباع آل عبدالله ، وأخرج الشيخ محمد بن خليفة من القلعة فاصطحبه ومحمداً بن عبدالله في البارجة ، فانزلا في جزيرة ثم نقل محمد بن خليفة من تلك الجزيرة الى بمباي ، ثم الى عدن ، فاقام فيها عدة سنين اسيراً . بعد ذلك شفع فيه السلطان عبد الحميد الى الحكومة البريطانية فاذنت له بالسفر الى مكة ولكنه لم ينعم فيها ، فقد مات هناك سنة ١٣٠٧ هـ كما مات الشيخ عبدالله في مسقط حزيناً طريداً .

الشيخ عيسى والانكليز

الطريقة المثلى في التاريخ – الشيخ عيسى في نظر السجاع – في نظر المؤرخ – سجاياه – كرمه – وفاؤه – اخلاصه للانكليز – محافظته على القديم – مقاصد الانكليز الخفية – ثبات الشيخ عيسى على العهود مدحت باشا والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة – اعتراف الانكليز باستقلال البحرين – مساعي الانكليز في تقويض الاستقلال – الحوادث عدوة العهود – ثلاث حوادث خطيرة – وكالة سياسية بريطانية في البحرين – حرق الاسطول – عزل الشيخ عيسى .

عندما قُتل الشيخ علي آل سلمان آل خليفة ، كما ذكر في الفصل السابق ، سافر ابنه الشاب الشيخ عيسى مع اخوته وبني عمه الى قطَر فنزلوا على قبيلة النعيم فيها. وعندما استفتى الوكيل السياسي البريطاني اهل البحرين بعدئذ في حاكمها اجمع رأيهم على الشيخ عيسى[1] فكتب اليه الوكيل يخبره بذلك ويسأله ان يعود . فعاد بمن كان معه من عشيرته وقبيلة النعيّم ونزلوا في المحرق . ثم نُصب حاكماً على البحرين في آخر شعبان سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) وهو في الواحد والعشرين من سنه [2] فعاد الحكم الى آل سلمان وكانت فيه خاتمة الفتن والحروب ...

(١) هو عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن احمد الفاتح بن محمد ، تاجر اللؤلؤ ، ابن خليفة الذي نزح من الافلاج بنجد ونزل في الكويت . وآل خليفة من بني عتبة وهي فصيلة من جميلة وجميلة فخذ من عنزى تمت الى بني اسد فربيعة فعدنان.

(٢) ولد الشيخ عيسى في محرم سنة ١٢٦٥ هـ وامه ابنة عيسى بن طريف آل ابن علي الذي خرج على الشيخ محمد عم الشيخ عيسى لما كان حاكماً .

الاهلية .

قد انتهجت في كتابة هذه النبذة ما قد يكون الطريقة المثلى في التاريخ. فغربلت الحوادث ، واخترت منها الاعم الاهم ، وعلقت عليها في بعض المواضع بالايجاز الذي يوجبه المقام ، وافضت ببعض المواقع تتميماً للصورة الذهنية ، صورة الزمان والمكان والاحوال ، واجتنبت اولا واخراً الاطراء والاطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه اعمالهم على المؤرخ .

ولو اني تمشيت على اسلوب التاريخ الذي بين يدي لكان ينبغي لي في الكلام على الشيخ عيسى بن علي ان اقول انه « استلم زمام الملك بيد الحزم والتدابير ، فدانت له القبائل والعربان ، ونشر رايات العدل والامان ، وقمع بسيفه البغاة والعدوان ، وشاد بعلمه وحلمه وتقواه ركن الدين ، واظل باغصان فضله الارامل والمساكين ، فالقى السعد عصا تسياره بقصره ، وخصه بين الانام بنصره . » الخ .

ولكن التاريخ هو غير السجع . يجب ان يكون للتاريخ عينان وعقل ووجدان . ولا بأس اذا كان له شيء من البداهة والتصور . اما القلب فلا حاجة له فيه ، ولا يجوز . ان التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له . وهو الآن يشهد ويقول ان للبارجة البريطانية التي كانت في ثغر البحرين يوم استُفتي البحارنة ، يداً قوية في ذلك السعد الذي « القى عصا تسياره » في قصر الشيخ عيسى . ويقول ايضاً ان ملكه الذي استمر خمساً وخمسين سنة كان اكثر عدلاً وسلماً واصلاحاً من ملك من تقدمه من اجداده . ولذلك اسباب منها ما يتعلق بشخصه الكريم ، ومنها ما يتعلق بالانكليز ، ومنها ما هو ناشيء عن روح

الزمان في المدنية والعمران .

كان الشيخ عيسى كريماً جواداً ، فقد انعم على القبائل التي كانت معه في قطَر بمبالغ جسيمة من الاموال يوم تقلد الامــارة . واعطى في جلسة واحدة اربعين رأساً من الخيل الاصائل ، ووصل بني عمــه بالطرف النفيسة والجواهر والبساتين . هي السجية الاولى التي كان يسترسل اليها ويعتمد على ما فيها من قوة البرهان والاقناع .حتى انه لم يكن ليرى غـــير الكرم في بعض الاحايين سبيلاً الى توطيد الحكم وتعزيزه . وقلما استبقى من واردات البلاد شيئاً لنفسه . بل كان ينفقها كلها ، منذ كانت تعد بالالوف الى ان صارت تعــد بالملايين ، على وفود العرب ، وافراد عشيرته ، ثم في الاصلاحات العامة .

اعتمد الشيخ عيسى على الكرم وقلمـــا اعتمد على غيره من مزايا النفس اريد بذلك انه لم يكن ليثق كثيراً بنفسه او يعتمد عليها . بل كان في جل اموره وكلاً . فاذا جرب انساناً ولو تجربة طفيفة اعتمد عليه ووثق به على الدوام ، فيصم اذنه عن كل ما فيه ذكر مساوئه او الاشارة اليها . وقد نشأ من هذا الضعف خلل في الاحكام وفي جباية الخراج .

اما العدل فقد كان غالباً معززاً في عهده . والحق يقال ان الشيخ عيسى نفسه لم يظلم انساناً ، عرضاً او عمداً ، في مدة حكم زاد عن نصف قرن . فقد كان دائماً يتحرى العدل والانصاف . ولكن ذلك لا ينفي ما كان يحدث من المظالم في دوائر احكام البحرين ، وان سدل عليها استار من التمويه ، لان الرجل كما قلت كان وكلاً فلا ينتبه الا بعد حين الى اعمال معتمديه .

ولم يكن الشيخ عيسى يميل الى الجديد والتجدد ، بـل كان منذ حداثته محافظاً كل المحافظة على القديم ، فلا يغير شيئاً مما درج عليه ، ولا يرغب بشيء فيه بعض الخروج عن المألوف ، وظل كذلك حتى اصابه في آخر ايامه سهمٌ من روح الزمان وحاقت بـه سنن الرقي والعمران، فقام يساعد في انشاء المدارس ويأمر ببناء المحاجر والمرافق العامة في بلاده . وقد وضع اول حجر في اول مدرسة بيده ، وخصها براتب شهري بعـد ان افتتح جريدة الاكتتاب بمبلغ وافر من المال .

ومن سجاياه الممتازة فضلاً عن الكرم وحب العدل انه كان صادقاً في ولائه وفياً. فقد احسن الظن بالسياسة البريطانية لاعتقاده ان بريطانيا لا تريد الا نشر تجارتها وتعزيزهـا . ولكنه جهل كما يجهل الكثيرون حتى من البريطانيين انفسهم ما كان منطوياً من مقاصد تلك السياسة [1] ، فأمن مناوأتها . اجل ان اخلاص الشيخ عيسى للانكليز خمساً وخمسين سنة ، للانكليز الذين ساعدوا في اقامته حاكماً ، ثم اذلوه وامتهنوا حرمـة ملكه مراراً ، ثم اسقطوه عن العرش الذي رفعوه اليه — ان اخلاصه لهم ، وحسن ظنه بهم ، لمن الفضائل التي قلما نجدها في غير العرب من الشعوب الشرقية. وما كان ذلك الا لانهم ساعدوه في بداءة امره، ولانه عاهدهم على اشياء منها الاعتراف بالاتفاق السابق بينهم وبين عمه الشيخ محمد ، ذلك الاتفاق الذي قضى عـلى

(١) حدثني موظف سابق في الوكالة السياسية البريطانية بالبحرين قـال : كان يجيئنا ويخرج من عندنا كثير من الرسائل والبلاغات السرية . ان في دار الوكالة منها ما يملأ بضعة صناديق ويدهش فحواها كثيرين حتى من رجال الحكومة بلندن .

اسطول البحرين وجعل البلاد متكلة على بريطانيـا في الدفاع عن نفسها .

ومع ذلك لم يحنث الشيـخ عيسى بعهده ، ولا عقد اتفاقاً سرياً مع دولة اخرى من الدول . كتب اليه مدحت باشا عندمـا كان والي بغداد يعرض عليه مساعدة الدولة بعد اتفاق ودي بينه وبينها ، فدفع الكتاب الى اصدقائه البريطانيين وكتب الى مدحت يقول : حسبي بريطانيا صديقة وحليفة . وقد فاوضته كذلك الحكومة الالمانيـة بوساطة معتمدها التجاري في البحرين فكان جوابه : لا اقدم على بريطانيا احداً ، ولا اعاون عليها عدواً . كثيراً ما اعترض رجاله على هـذه الثقة المطلقة ، وفيها التغاضي عن المساوىء فكان الشيخ يقول : ان بريطانيا اثبت الامم الاوروبية في المعاهـدات ، فقد اعترفت باستقلال بـلادي وحرية حكومتي ولا اريد اكثر من ذلك .

فهل قام الانكليز بما توجبه عليهم الصداقة بل العهود بينهم وبين شيوخ البحرين ؟ قد اعترفت انكلترا باستقلالهم فهل احترمت هذا الاستقلال ؟ سأتخذ من تاريخ البحرين عهد الشيخ عيسى بن علي ثلاث حوادث فيها الجواب على هذا السؤال وسأرويها بما يجيزه التدقيق من الايجاز .

اما اول هذه الحوادث فهو ضرب الزبارة سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣) التي كانت اول ما حكم آل خليفة في قطر عندمـــا جاؤوها من الكويت. وبعد ان نقلوا منها الى البحرين غدت عشاً للفتن والثورات. ذلك لان فيها الجلاهمة وآل ابن علي وبني هاجر النازعين دائماً الى الفتن طمعاً بالسيادة والحكم . فقاموا سنة ١٣١١ هـ ينفخون في نار الفتنة

فاضرمت في الزبارة ونواحيها ، وتأهب الثائرون للهجوم على الخليفيين في البحرين . فرأت الحكومة وجوب اخمـــاد الفتنة ولم ترالى ذلك وسيلة غير الاسطول الذي كان لا يزال عندهـا قسم منه . فتشاور الشيوخ واقروا ذلـــك ، ثم بعثوا يعرضون الامر على الوكيل السياسي لبريطانيا في بوشهر ويستأذنـوه . فحذرهم الوكيل من نقض الاتفاق . فطلبوا منه الدفاع عن البـلاد ، ذلك الدفاع الذي يوجبه الاتفاق . فتعلل الوكيل اولاً ، ثم اشترط في مقابلة الدفـاع شروطاً جديدة منها ان يكون لبريطانيا وكالة في البحرين ، ويكون للوكالة الحق بالمشارفة على قضايا الرعايا البريطانيين ، فـــماذا يفعل شيوخ آل خليفة في مثل هـذا الموقف الحرج ؟ ويلهم من الثائرين الزاحفين على بلادهم ، وويلهم من البوارج البريطانية الراسية في الخليج اذا هم دافعوا عن البلاد . قبلوا بالشروط الجديدة ، فابحرت اذ ذاك البوارج الى الزبارة وفرقت بقنابلها الثائرين .

والحادثة الثانية حدثت بعد عشر سنين (سنة ١٩٠٣) وهي بنفسها طفيفة ، ولكنهـــا خطيرة في نتائجها . خادم الماني اهان ابن اخي الشيخ عيسى فضربه ، فشكاه الخـــادم الى رئيسه ، فرفع الرئيس الدعوى الى الوكيل السياسي البريطاني [١] والى حكومـــة المانيا .

. . . .

(١) ليس لبريطانيا قناصل في الخليج العجمي لان وظيفة القنصل تجاريـــة ، ومصالحها في الخليج تقتضي ان يكون لهـــا هناك ممثلون سياسيون . وهؤلاء في المنصب اثنـان الموظف السياسي Political Officer والوكيل السياسي Political Agent وفي الخليج وكيل سياسي اول مركزه في بوشهر يرجع اليه الوكلاء والموظفون السياسيون في الكويت والبحرين ولنجه وغيرها في الاساكل والجزر . اما مرجع الوكيل السياسي في بوشهر فهو حكومة الهند . وبما ان في البحرين

وبعد ايام اتفقت الحكومة المحلية والرئيس الالماني فاعتذرت عما فرط من ابن اخي الحاكم ، ودفعت الى الخادم ثلاثة الاف روبية . على ان هذه التسوية لم ترضِ ، على ما يظهر ، الوكيل السياسي في بوشهر وكان يومئذ السر برسي كوكس ، فجاء بمراكبه الحربية فرست في مياه البحرين وانزلت بعض جنودها الى البر . ثم عرض الوكيل لائحة بما تطلبه الحكومة البريطانية جزاء ضرب الالماني ، فنفذت مادة مادة . حُرق ما تبقى من سفن البحرين الحربية ، وحكم على ابن اخي الشيخ عيسى بالنفي خمس سنين قضاها في الهند وأُحيل الى الوكالة البريطانية بالبحرين النظر في دعاوي الاجانب كلها .

اما الحادث الثالث في سياسة الاستيلاء التدريجي فقد حدث في شهر ايار من سنة ١٩٢٣ . ولا بد قبل ان ارويه من تمهيد . في البحرين من التجار والعمال النجدي والايراني ، وقد علم القارىء ان الاثنين بموجب الاتفاق الاخير بين حكومة البحرين وحكومة بريطانيا به يعد ان من الاجانب ، فيجب ان تسمع دعاويهما في دار البليوس اي الوكيل السياسي البريطاني بالمنامة .

وهذا البليوس، ابتغاء حزب له من الايرانيين : سعى في عزل رئيس بلدية المنامة ونصب مكانه احد تجارهم محمد شريف خان بهدور الذي اشتهر بكرهه للعرب . وقد كان لهذا الرئيس صنيعة البليوس نفوذ في الاحكام يدنو من نفوذ الحكومة الوطنية ويتجاوزه في بعض الاحايين

....

تابع شرح صفحة ٢٨١

كثيرين من الهنود فقد اطلقوا على الوكيل السياسي فيها لقباً هندياً فهو يدعى هناك بليوس .

هذا هو التمهيد .

اما الحادث فهو انه في اوائل ايار من تلك السنة ُسرقت ساعة من بيت تاجر نجدي ، فأتهم بالسرقة رجل فارسي فقام بعض اهل بلاده يدافعون عنه ، فأدى ذلك الى خلاف بينهم وبين النجديين فتحزب الفريقان واشتعلت في القلوب الاحقاد الكامنة ، فافضى النزاع الى القتال . وكان محمد شريف رئيس البلدية يغري العجم في هذه الفتنة بقتل العرب .

ولما كان المتقاتلون كلهم من الاجانب فقد اكتفت الحكومة بحفظ الامن ما استطاعت. ولا اظن مما شاهدته في البحرين يوم كنت هناك انها كانت تستطيع كثيراً .

أبرق البليوس خبر الفتنة الى الوكيل السياسي في بوشهر فجاء مسرعاً تصحبه بارجتان . وكان اول ما طلبه من الحكومة ان يعتزل الشيخ عيسى الحكم. فأبى الشيخ ، فأصر الوكيل ،وجمع فريقاً من الناس فاعلن فيهم عزل الشيخ عيسى وتولية ابنه الشيخ حمد مكانه . وهذه البوارج في الثغر تلفت اليها نظر الوطنيين المشاغبين .

ثم تبع العزل والنصب سلسلة من الاجراءات السياسية . فقد الغيت المحاكم الوطنية ، وعينت من وارادت الجمارك وغيرها ، التي تحولت الى بنك بريطاني في المنامة ، رواتب شهرية للشيخ حمد ومن دونه من افراد الاسرة الحاكمة . وقد تأسس ديوان يدعى مركز الحكومة ليقوم مقام المحاكم الوطنية يحضره الشيخ حمد والبَليوس فينظران معاً في شؤون البلاد الداخلية .

هذه هي قصة البحرين والانكليز عهد الشيخ عيسى بن علي.

من حكومة مستقلة ذات اسطول حربي ، الى حكومة ولا اسطول ، الى حكومة يراقبها وكيل سياسي بريطـاني ، الى حكومة تشارك في ادارة شؤونها الداخلية والاجنبية حكومة بريطانيـا بوساطـة بليوسها ووكيلها في الخليج ، الى ـ والليالي بالحادثات حبالى ! .

النهضة الوطنية

شكل الحكومة الماضية – انقلاب ايار – احتجاج سلطان نجد – عزل رئيس البلدية – حكومة مزدوجة – نكبة النهضة الوطنية – من المسؤول؟ – حقيقتان جوهريتان في تاريخ البحرين – عبرة لامراء العرب – عبرة للانكليز والاوروبيين – حكومة انكلترا لاتعلم بكل مايجري على يد وكلائها – الوكيل المضر بالموكل والموكل من اجله – اولئك الذين لا يفهمون العرب ولا يحبونهم – حكومة الخليج وسلسلة الاحالات فيها – اوامر الحكومة في لندن وتنفيذها – مطالب اهل البحرين الوطنية – القوة لا تحترم غير القوة – الوكيل ينذر البحارنة – ما جنى على العرب غير انفسهم .

لم يكن للوكيل السياسي في البحرين قبل انقلاب ايار سنة ١٩٢٣ غير حق النظر في قضايا الاجانب . ولكنه كان يتدخل بشؤون البلاد على قدر ما تسمح به الاحوال وتمكنه منه السياسة التي تستمد قوتها من مصالح التبعات الاجنبية ومشاكلها ، ومن البوارج الراسية في الخليج . وكان هذا التدخل ينعم ويخشن ملمساً بالنسبة الى البَلْيُوس ، اي الوكيل ، وصفاته الشخصية . اذ ليس بين بريطانيا وحكومة البحرين معاهدة مسجلة ، بل هناك اتفاقات كما اسلفت ، تضمن للانكليز ما حازوه تدريجاً من نفوذ في البلاد ، وتضمن للبلاد حريتها واستقلالها .

سألت عن شكل الحكومة عندما كنت هناك فعلمت انها ثلاثة اشكال ، وطنية واجنبية ومختلطة . وكان سمو الشيخ عيسى يومئذ يدير الاولى ، والبليوس يدير الثانية ، ورئيس البلدية العجمي صاحب

الكلمة النافذة في الثالثة . وقد انشأت هذه الحكومة المثلثة الزوايا اربعة انواع من المحاكم : الاهليـــة ، اي الشرعية وهي التي تنظر وحدها في دعاوي الوطنين ، والاجنبية اي دار الوكالة البريطانية ، وهي تنظر وحدها في دعاوي الاجانب كلهم . والمختلطة اي التي كان رئيس البلدية يومئذ عضواً من اعضائها للنظر في الدعاوي بين الوطنيين والاجانب . ثم محكمة الغوص ولها قانون خاص يتساوى به الاجانب والوطنيون .

ولكن انقلاب ايار ذهب بالشكل والشعار . فعزل الشيخ عيسى كما قلت ، والغيت المحاكم الوطنية ، ثم عزل محمد شريـــف رئيس البلدية اجابة لطلب ابن سعود . اذ عندما وصلت اخبار الفتنة الى القصر بالرياض ، وعلم السلطان عبد العزيز بما كان لهذا الرجل في اثارتهـــا واغراء قومه بعرب نجد ، طلب من البريطانيين عزله فعزلوه حالا . ثم ادغمت المحاكم على انواعها بالمجلس الذي يشترك في رئاسته الشيخ حمد بن عيسى والبليوس ، فامست الحكومة المثلثة حكومة مزدوجة ، وامسى الحاكم الوطني شريكاً للحاكم البريطاني .

ها قد وصلت الى معظم او كل الاسباب في ما سمعته من الشكوى والانين هناك واشرت اليه في مطلع هذا القسم . قلت ان في البحرين نهضة وطنية ، ولكنها سياسياً مقيدة . كانت قبل ايار قانطة فأمست بعده منكوبة . وكان السبب في القنوط السبب نفسه في النكبة ، لا يختلف الا في درجتي الشدة والمـــدى . ومن المسؤول ؟ اذا سألت البحارنة يجيبون : الانكليز واذا سألت الانكليز يجيبون : البحارنة .

هناك حقيقتان في تاريخ البحرين وسياستها الخارجية لا اظن احداً

من الفريقين ينكرهما. الحقيقة الاولى التي الفت اليها نظر البحارنة هي ان البحرين ، عندما كان لها اسطول حربي قبل عهد الشيخ عيسى بن علي ، كانت وجيرانها في احتراب دائم . وقد علمت مما شاهدته وتحققته في البلاد العربية كلها ان بلية العرب الاولى ــ كانت ولا تزال ــ هي النزوع في كل قبيلة ، بل في كل عشيرة ، الى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدأ التضامن غير ما توجبه القبيلة ، او يدعو اليه في بعض الاقطار المذهب الديني . لا يخضع العرب بعضهم لبعض الا كرهاً ، ثم ينزعون الى السيادة المستقلة اذا وجدوا الى ذلك سبيلاً . الجهل هو عدو التضامن ، والجهل المسلح هو عدو الرقي والعمران . فالسلاح بيد العرب اليوم ، اللهم اذا كانوا لا يخرجون على روح البداوة فيهم اولاً فيجمعون شملهم تحت علم واحد ، هو مضرٌ بهم ، مضرٌ جداً . لا يزال اكثر الامراء جاهلين ، او انهم من المحافظين على القديم البالي ، المقاومين لمبدأ الرقي والتجدد . فما الفائدة من القوة بايديهم ؟ ما الفائدة من اسطول يمكننا من الاستيلاء على قطر والقطيف والاحساء اذا كنا لا نوسع في الملك غير القوة الغاشمة ، الجاهلة ما في روح الزمان من اسباب الرقي والعمران ؟ يلزم البلاد العربية في هذا الزمان عشرون سنة في الاقل من السلم الدائم المستمر ، فتؤسس المدارس اثناءها تُفتح على الدوام ــ وتنفتح لابنائها الاذكياء ابواب العمل في الصناعة والزراعة وفي علوم الاقتصاد والادارة . هذي هي الحقيقة الاولى التي لا يجهلها ادباء وعقلاء البحرين .

اما الحقيقة الثانية التي الفت اليها نظر الانكليز فهي ان السياسة العربية التي تمشوا عليها في الماضي لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب .

هي تضر بمصالح بريطانيا ليس في البلاد العربيـة فقط بل في الشرق اجمع ، وتضر بالاسم البريطاني وكل مـا يرمز اليه من علم وكرم اخلاق وثقافة . السياسة الانكليزية في البلاد العربية تخبطت في مضيق جانب منه مظلم ، وجانب براق فيه وشل من الماء خدع المحبين ، يخفيه سراب خدع الاعداء . مثّل ذلك في البحرين ووعدُها الشيوخ بالدفاع عن البلاد اذا هم دمروا اسطولهم الحربي . على ان كل دفعة من ذاك الدفاع افقد البحرين كما بينت شيئاً من حريتها واستقلالها فقد كان الدفاع درجات الى الاستيلاء . فمن يثق بعد ذلـــك بوعود الانكليز وعهودهم ؟ اما اذا كانوا يبغون رفع العلم البريطاني فوق دار الحكم في الجزيرة فليس اسهل من ذلك . ان دولة من الدول الصغيرة التي لا تبلغ قوة اسطولها جزء صغير من قوة الاسطول البريطاني لتستطيع ذلك في يوم واحد . ولعمري ان مثل هذا الاحتلال خير من تلك السياسة التي هي كالبركان او الزلزال ، لا يظهر شيء من قصدها الحقيقي الا مرة كل خمس او عشر سنوات .

حدثني احد ادباء البحرين قال : اذا كان هناك فرق بين الاستعمار الانكليزي واستعمار الدول الاخرى فهو ان هذا كالجزار الذي يقتل شاته دفعة واحدة وذاك كمن يعذب الشاة وخزاً بالابر حتى الموت .

ولو لم اكن شاهدت وسمعت ثم تحققت مـا شاهدت وسمعت ، لكنت اقول ان محدثي يبالغ في ما يتكلم . ولكنها ويا للاسف الحقيقة بعينها لا مبالغة فيها .

اما ان سياسة بريطانيا في البحرين هي غير سياستها في الاقطار العربية الاخرى فمما لا شك فيه . وقد اوضحت مبدأها المرن في معالجـة

شؤونها الخارجية بحسب اختلاف المكان والزمان ، وشرحت ذاك المبدأ في سياستها العربية في كلامي على لحج والنواحي المحمية . وبما ان بريطانيا تدير هذه السياسة بوساطة وزارة الهند بلندن ، ثم بوساطة حكومة الهند في دَلهي ، فلا اظن انها عالمة كل العلم بما يحدثه من المشاكل وكلاؤها السياسيون في البلاد العربية ولا سيما في خليج فارس . فضلاً عن ان الوكيل يموه في بعض الاحايين دفاعاً عن عمله وحفظاً لمركزه . قد توخيت الصراحة التامة في ما اكتبه بهذا الشأن غيرة على الاسم البريطاني وحباً بتحسين وتعزيز العلائق الودية بين بريطانيا والبلاد العربية . ومما ينبغي ان اذكره أن كثيراً ما يسوّد صحيفتها احد ابنائها المقربين الذين لا يكونون في الشرق مؤمرين لولا نفوذ بعض اصدقائهم واقاربهم في الحكومة بلندن .

حدثني احد الموظفين البريطانيين في حكومة العراق عن ثورة ١٩٢٠ ، وعندما علم اني مسافر الى البحرين قال : ستجتمع هناك بواحد ممن وصفت . وكان قد افاض بالحديث في طبقة من الموظفين البريطانيين الذين يتخذون السر آرنلد ولسون مثالاً في الحكم ، فيحذون حذوه في سياسته ، وليس لهم شيء من حسناته ، هم من الضباط الذين لا يصلحون لغير الخدمة العسكرية ، فلا يفهمون العرب ، ولا يحبونهم ، ولا يعطفون اقل العطف على قضيتهم .

جئت البحرين وما تمكنت من الاجتماع بالوكيل البريطاني فيها . ولكني مما سمعته — وقد حدثني به الكبير والصغير والوطني والاجنبي — تحققت ما قاله زميله في حكومة العراق . فقد كان يقاوم كل فكرة اصلاح في الجزيرة غير التي يكون له فيها الكلمة الاولى

والاخيرة ، ولا يرى حقاً في غير القوة ، ولا عدلاً في غير العسف والاستبداد . فهل هي يا ترى سياسة دَوْنِن ستريت بلندن او سياسة بوشهر ؟ وما هي سيئات الوكيل وسيئات الاصيل ؟

ان البليوس موظف له رئيس في بوشهر وللوكيل في بوشهر رئيس في دلهي ولولي الامر في دلهي رئيس في وزارة الهند بلندن، ولرئيس تلك الدائرة مستشاران او وزيران في الوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، ولهاتين الوزارتين سياسة ثابتة قديمة التقليد غامضة المقاصد في الشرق وفي البلاد العربية تتمشى دائماً عليها . اضف الى ذلك ان كثيراً ما تصدر الاوامر من احداهما مبنية على هذه الخطة لا على الجديد المهم من الاحوال في البلاد التي تختص بها ، فتجيء الاوامر وما فيها غير اليسير من الحكمة والعدل ، بل ما فيها احياناً شيء من الحكمة والعدل . فتصل الى رجل متصلف متعسف ، قصير النظر والاناة ، فينفذها بالحرف ويثير على امته غضب الاهالي وكوامن بغضائهم .

فلو كان الوكيل حصيفاً حكيماً ، مدركاً عوامل التقدم في البلاد التي هو فيها ، عطوفاً ولو بعض العطف على مساعي الوطنيين في سبيلها ، لكان يطلع حكومته على حقيقة الحال ويسألها التبصر بها والاسترشاد بشيء من حقائقها في تكييف الخطة السياسية وتلطيفها . ولو كان الوكيل رجلاً كبيراً ، مثله الاعلى العدل في كل الاحوال ، او لو كان في الاقل دمث الخلق ، لين الجانب ، محباً للعرب ، لكان يتمكن من خدمة بلاده بما فيه كذلك مصالح البلاد التي وكل بها . ليس هذا بالامر المستحيل ، وليس مثله بالرجل النادر في الحكومة او في الامة البريطانية .

اعود الى الحادث الذي اوجب هذا البيان طلب اهـالي البحرين في السنين الاخيرة ثلاثة مطالب من الحكومة ، كلها ولا شك عادلة . فوقفت السياسة البريطانية تصدهم وتقاوم مسعاهم . طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فاجاب الشيخ عيسى بالايجـاب وابى البليوس . طلبوا تنظيم بوليس وطني فرضي الشيخ عيسى ورفض البليوس . قـدموا لائحة اصلاح استحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليـه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل وبذل ما لديه من قوة لاحباطها .

سمعت شكاوي الوطنيين في البحرين ، وسمعتها في ما اتصل بي من اخبارها بعدئذ في الفريكة [1] ، فافسحت لها مجالاً في هـــذا الكتاب تستحقه وكتبت الى احد الافاضل هناك كتاباً اقتطف منه ما يلي :

« ان في الامر ما يضعف الامل بالانكليز . ولكن التاريخ لا ينبئنا بحادث من الحوادث كانت فيه احدى الامم القوية الاستعمارية متغلبة وحدها على امة اخرى صغيرة . بل نرى غالباً ان المغلوب يساعد على نفسه الغالب المنتصر . ماذا يحمله على ذلك ؟ الجهل والضعف والجبن والمصلحة الخاصة والطاعة العمياء — اما الطاعة العمياء فقد تفيد في سبيل وطنية عامة كبيرة كما لو كان العرب كلهم اليوم يطيعون ابن سعود مثلاً او الملك حسيناً او الامام يحيى بن حميد الدين ويمتثلون لاوامره . عندئذ يعز العرب ، عندئذ يصلح الاوروبيون سياستهم في الشرق ، وعندئذ ، اذا طغى في البحرين او في قطر آخر طاغ اجنبي او وطني تذكرونه بكلمة ذاك العربي الى الخليفة الثاني وتقومون امره بحد السيف .

« اما الآن فعليكم ان تقتبسوا العلوم وتصبروا . واني اعتقد ان العلم بالاقتداء هو اسرع فعلاً واثبت . لذلك استحسن وجود الشركات

(١) بلد المؤلف في لبنان .

الاجنبية المجردة من كل صبغة سياسية في البلاد . فانها تعلمنا الاقتصاد والنظام والادارة من حيث لا ندري او نشاء . والعرب في حاجة شديدة اليها كلها ...

« ما جنى على العرب يا صديقي غير انفسهم . كنا وكنا وكنا – حديث مبتذل . يوم اقفلت المدارس في البلاد فعم الجهل وتوارثه الابناء كنا الجانين على انفسنا ، المقيدين بالجهل ارواحنا ، وبالخرافات عقولنا . واليوم نرى العلم والمال بيد الاوروبيين . ويوم كان الاثنان بيد العرب اخذهما الاوروبيون عنهم .فهلا اقتدينا بهم في الماضي فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ونربي في الوقت نفسه روح القومية الشاملة فينا . لو كنت في سوريا وعرفت سبب بليتها لقلت : اما نحن فعرب من صميم العرب وديننا الاسلام . فلا سبيل الى التفرقة قومية ومذهباً . ولو كان لكم عشر سنوات من التعليم المدني العام لفقتم غيركم في الربوع الساحلية . وهذا ما ابغيه لكم . التعليم في المدارس . التعليم بالاقتداء . الا ان العربي الكسلان اذا رأى ما هو مدفون في ارضه من الخيرات تتغير نفسيته وعقليته وكذلك اعصابه فلا تيأس يا صديقي ، ولا تظن ان الله يخص جيلاً واحداً من خلقه بالكمالات كلها .

« واذا شئت ان احدثك كطبيعي لا كالهي اقول : ان الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالمي الحيوان والنبات يعمل كذلك في الانسان وفي الاجتماع البشري . ومن النادر ان يرى الانسان نشوءاً تاماً ، بداءة ونهاية ، في نوع واحد من النبات او جيل واحد من الناس . اما نحن الذين نقاسي ما نقاسيه في هذا الزمان فقسمتنا قسمة من يجيء في آخر دور النشوء او في اهم اطواره . فنرى بعين البصيرة نتيجة ما

مضى وما هو كائن فنتألم لانها دنية منا وقصية ، دنية لاننا نراهـا ، وقصية لان اليد لا تصل اليها . لنحمد الله اننا نراها في الاقـل فنقبل قسمتنا قانعين وعاملـــين في الوقت نفسه في السبيل الذي هو روح الناموس والتطور .

« تلذ لي محادثتك وانت من المفكرين . فكل مفكر يتـــألم ، ولكن ليس كل من يتألمون واحداً . منهم من يقتلهم الالم . ومنهم من يزيدهم قوة على العمل . الامة المتألمة اليائسة تموت ــ تساعد المتغلب عليها . والامة المتألمة الطويلة الامل الناهضة الثابتة في نهوضها ، انهـــا لتحيا ، وانها لتساعد ابناءها على المتغلبين . »



جلالة الملك فيصل بن الحسين بن علي

الملك فيصل بن الحسين

العراق

حدوده : شمالاً ، جبال ارمينية والاناضول . شرقاً ، بلاد ايران . جنوباً خليج فارس . جنوباً بغرب ، البادية وحدود نجد . غرباً ، البادية وحدود الشام .

الويته : الموصل ، السليمانية ، كركوك ، شبه لواء اربل ، ديالى ، بغداد ، الكوت ، الدليم ، الحلة ، كربلاء العمارة ، المنتفق ، البصرة .

عدد سكانه : نحو مليونين وتسعمئة الف [1] نفس ، منهم مليون ونصف مليون من الشيعة ، ومليون ومئة وخمسون الفاً من السنة . وثمانية وثمانون الفاً من اليهود ، وثمانون الفاً من النصارى ، واثنان واربعون الفاً من الاديان الاخرى .

مساحته : نحو مئتي الف ميل مربع

شعوبه : العرب والفرس والاكراد والاشوريون والاتراك والارمن .

اهم قبائله : المنتفق وبنو لام والبو محمد وربيعة وتميم والدليم وعنزى وشمّر والاقرع وعفك وما يتفرع عنها كلها من الافخاذ والبطون العديدة .

(١) في سنة ١٩٢٢

مذاهبه : الشيعة : جعفريون وبعض الزيديين والاسماعيليين .
السنة حنفيون وشوافع وحنابلة .
المسيحية : يعاقبة ونساطرة وكلدان وسريان كاثوليك
وروم ارثوذكس وبروتستانيون . ثم اليهود والصابئة
واليزيدية والبارسيون والهندوس والبهائيون .

من العُروبة الى التغرُّب

الاسلوب الغربي في المراسلة – الارقام والاسماء – اقتصاد قبيح – شرقي متحذلق – لهجة من البصرة وشتائم من لندن. مسيحي يتفوق ويتسكسك – شهم انكليزي – الفرق بين العرب والهنود – شرب الوسكي – رطانات البصرة – محطة سكة الحديد – قطار مستشرق – عربية اوردية خنفشارية – القاطرة تكسر رجلها – النجدة من اور الكلدانيين – الاعرابي وعياله المسافرون الى بغداد – القطار ينتظرهم خمس ساعات – ضابط انكليزي يحمل على الرئيس ولسون – في محطة بغداد – واين انت يا بغداد ؟ – رجـــل ينادي : بابو ، بابو . – الرطانات الاوردية – عربة الموتى – ركبتُ في جنازتي – سيارات النقل – جسر « مود » – من نزل الى آخر – اين امين الكسباني ؟ – الامينان يلتقيان – كاتب سر جلالة الملك المعظم يزين روحه في كوخ منجع – الحرية والاخاء والتنازل عن المساواة عند كاتب السر الاول – في القصر – الملك فيصل .

ابحرت من عدن اقصد الى العراق . فلما وصلت الى بمباي التي لا بد من التعرج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهنـــد ، لقيت في قنصلية اميركا كتاباً من الديوان الملكي في بغداد كُتب على الآلة الكاتبة العربية هذا نصه :

بغداد – ١٩٢٢/٦/١٠

حضرة الفاضل امين افندي ريحاني المحترم

اما بعد التحية والاكرام ، فقد تناول صاحب الجلالة الملك فيصل كتابكم الصادر من لحج في ٧ شعبان وامرني بالكتابة اليكم معرباً

عن سروره بقدومكم العراق ومتمنياً لكم سلامة الحـــل والترحال في طريقكم اليه وتوفيقكم في ما نزعتم بهذه الرحلة لاجله .

وقد ارسلت الكلمة الى بمباي لاجل تصديق جواز سفركم الى العراق . واما توجهكم الى الرياض فقد أرسل السؤال بـــه الى عظمة السلطان عبد العزيز ومتى جاء جوابه بعثنا اليكم به والسلام .

رستم حيدر

هو ذا غير ما الفته في اليمن والحجاز كتاب غربي الاسلوب حتى في تاريخه ، خلو من الديباجة والتنميق وفيه الدليل على النفرة من تلك الطريقة القديمة التي تبدأ غالباً بالبسملة وتنتهي بـ ان شاء الله ، و يُخبـأ الغرض من الكتابة فيها بـين مدبجات التبجيل والتمجيد او يضمّن قصاصة عنوانها « حاوي خير » . فتكون هي الكتاب يقيناً ، ويكون الكتاب الرسمي ترهة من الترهات .

قد احسن الديوان الملكي لدولة العراق المتغربة . ولكن الاحسان في الاقتباس درجات تتجاوز الخروج من المألوف العربي الى المألوف الغربي . على اني وان كنت افضل الخط على هذه الاحرف العربية السمجة ، وأرى في الكلمة المخطوطة حساً لا تظهره بـل تقتله احرف الآلة الكاتبة ، فقد استبشرت بهذا الكتاب لما يرمز اليه ، وان كان في اول سطر منه ما هو في نظري من قبيح المقتبسات . فان الاستعاضة عن اسماء الاشهر بالارقام في التاريخ لمـن المبالغات الحديثة بالاقتصاد عند الغربيين . وما كل مظاهر الاقتصاد آية في الحكمة والجمال . اما اذا قيل ان المسألة ذوقية فجوابي هو ان ذوق الشرقيين فيها ارفع من ذوق الغربيين . وفي كل حـــال ان الالفاظ اجمل من الارقام نظراً وسمعاً ومعنى . اذا كُتبت زانهـا الخط ، واذا لُفظت زانهـا

النطق .

قد استبشرتُ مع ذلك بكتاب الديوان الملكي لما قرأت خلال سطوره من المقاصد الحميدة في دولة العراق الجديدة . ورأس هذه المقاصد انما هو فك قيود التقاليد القديمة العقيمة وان كان في تاريخ الرسائل وانشائها . بيد انه يتبادر الى الذهن فكر في سؤال : هل يعد مجرد التقليد الخارجي من مظاهر الارتقاء ؟

سافرت من بُمباي الى البصرة في باخرة بريطانية من بواخر الخليج . وكان حظي فيها اني شاهدت مثالا آخر من الرقي العراقي قبل ان اصل الى العراق . اجاب احد المسافرين سؤالي دون ان يدرك ذلك ، ودون ان يحدثني . هو رجل ابيض الاديم ، اشقر الشعر ، ازرق العين ، دخل ورفيق له يتقدمان نفراً من الخدم يحملون امتعتهما وكأن أحد اولئك الخدامين اخطأ في ما فعل فانهال عليه المسافر الاشقر بالشتائم والمسبات بلغة انكليزية فيها لكنة قبيحة . اللهجة من البصرة والشتائم من حانات لندن .

عرفت بعدئذ ان رفيق المسافر ارمني وهو يعرف الانكليزية ايضاً ولا يحدث رفيقه بسواها . وما شككت بانهما عرفا اني عربي لاني كنت معلناً ذلك على رأسي بالكوفية والعقال . مر اليوم الاول والثاني والثالث فاتفق ان التقينا على ظهر الباخرة صباحاً فسلمت باللغة العربية فرد سلامي باللغة الانكليزية . ثم عرفت انه ورفيقه من تجار التمر في البصرة ، فلم يتنازلا لمحادثة غير بعض الانكليز في الباخرة . الا انه سألني ذات يوم عن الشهر الاسلامي الذي كنا يومئذ فيه ، فأجبته بكلمة فشكرني باخرى كانت الخاتمة .

بعد ثلاثة اشهر كنت وبعض الاصحاب نشاهد سباق الخيل خارج البصرة فرأيت هناك رفيق السفر الاشقر الامجد وهو يحمل ناظوره كالانكليز مطلقاً في عنقه ، فبسم لي ابتسام التزلف ثم دنا من احد رفاقي وسلم عليه باللغة العربية — التي لا لكنة فيها . فاستطلعت بعدئذ خبره اليقين فقال صديقي : هو من البصرة ، من مسيحيي البصرة ، سمسار تمر . فقلت : يظهر ان عندكم في العراق طبقة من الناس شبيهة بطبقة المتفرنجين في سوريا ، المتحذلقين المتفوقين بين قومهم ، المتسكسكين امام الاجانب . فقال : نعم ، وهم يتشبهون بالانكليز كما ترى بحمل الناظور ولبس القفازات في الصيف .

اعود الى سؤالي : هل يعد مجرد التقليد الخارجي مظهراً من مظاهر الارتقاء؟ ان في رفيق السفر هذا جواباً واحداً لا أظن القارىء يرتاب بصحته . ولكن هناك رفيق سفر آخر وجواباً ثانياً . هناك طبيب انكليزي كان على عادة قومه الاماجد في السفر يعتزل الناس ، فيجلس في الزاوية او في كرسيه على ظهر الباخرة يدخن الغليون ويطالع كتاباً . وهو قلما يكترث بلبسه . بيد انه وان كان « بنطلونه » غير مكوي و « ساكوه » اشبه بالكيس منه بثوب مخيط ، فاذا وقف ومشى مشت المهابة في ظله وافصحت عن كريم محتده . دنا هذا الرجل يوماً مني فاعتذر وسلم وجلس الى جنبي قائلاً : انت عربي . فقلت : نعم . فقال : وعلى ما اظن من العلماء . فقلت : سائح طالب علم . فقال : هذا تواضع منك . قد سمعت من حدث عنك في بمباي . ثم قدم بطاقته فبادلته الاكرام .

— اني مما اعرفه عن العرب ، وهو قليل ، احترم الامة العربية كل الاحترام . اقمت زمناً في الهند ، في خدمة الهنود — وليس في الطب

سياسة كما تعلم – فما لقيت جزءاً مما لقيته في بضعة اشهر في بلاد العرب على هذه السواحل – كرم الاخلاق ، الاخلاص ، الضيافة ، انك لا تجدها في الهنود . اما الشجاعة والرجولة فهما في المسلمين منهم فقط . لا اظننا نقاسي في الهند ما نقاسيه لو كان في الهنود شيء من وفاء العربي واخلاصه اذا آخاك . قد تكون طالعت تاريخ الانكليز في تلك البلاد فتعرف كم من مرة طعننا الهنود في الظهر – خانونا وغدروا بنا – بعد ان عاهدونا على الولاء .

قال هذا ودعا الخادم فطلب كأساً من الوسكي والسودا وسألني متردداً عما اذا كنت اشاركه . فأجبت بالايجاب فقال : اعرف من المسلمين من يشرب الخمر . فقلت : اني مسيحي واني آسف من المسلمين العصريين من يظنون التشبه بالانكليز منحصراً بشرب الوسكي . حبذا المسلم المواظب من هذا القبيل على دينه . فقال الطبيب : صدقت . نحن الانكليز نبالغ في الشرب – نشرب كثيراً . خذني مثلاً . اني اشرب الوسكي قبل الاكل واثناء الاكل وبعد الاكل ، واشرب بين الوجبات كما ترى وبودي لو اقتدى الانكليز بالمسلمين . فقلت ممازحاً : المسلمين الذين لا يقتدون بكم في شرب الوسكي . وكانت الضحكة مسك الختام .

عندما وصلنا الى البصرة صعد الى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة واكثرهم من الهنود . وكنت قد ارسلت برقية من بمباي الى صديق لي في الديوان الملكي ببغداد علّه يأمر في البصرة من يلاقيني ليهديني في الاقل الى محطة سكة الحديد . فوجدت نفسي ، ولا احد يسأل عني ، أغرب في هذا البلد العربي القديم مني في « كراتشي »

الهندية [1] . وانا العربي الذي قضى الايام والليالي يطالع الحريري والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه في طواحين الكسائي وسيبويه، — ولا اقول الرحالة الشهير القادم من اليمن — اراني قد نزلت من الباخرة بين قوم لا افهم لغتهم . فيكلمني الحوذي بعربية يضطر ان يتوجها الى شيء من الانكليزية يُذهم . هو ايضاً هندي . ساق جواده الاعرج يجر عربة مكسرة وفيها بقية امال مبعثرة تدعى الريحاني .

رحنا في قفر سبسب خارج البصرة ، فاجتزنا معسكراً مهجوراً ، ثم آخر فيه بعض الجنود الهنود ، ووصلنا بعد ساعة الى محطة السكة بل الى بقعة يبدأ عندها الخط . ولا محطة غير كوخ لبيع التذاكر وجدناه مقفلاً . ووجدنا خارج الكوخ ولداً عربياً ، والحمدلله ، تلطف فراح ملبياً طلبنا يبحث عن الموظف . فعاد بعد ساعة يتبعه رجل — هندي — هو مدير السكة ولكنه يحسن الانكليزية . فسألته سؤالاً تعمدت فيه التعريف عله يكرمني في الاقل بان يخصني بشقة في العربة وحدي . وكان الرجل فهيماً كريماً ، فكان لي ما شئت . اعطاني تذكرة واحلني في القطار محلاً فسيحاً فيه ماء وحمام . وكنت قد كتبت برقية الى الصديق امين الكسباني في الديوان الملكي بالعاصمة وهممت بالرجوع الى بيت البرق لارسلها فاخذها مني قائلاً : سأرسلها من هنا رأساً . ثم امر بمن يعتني بامتعتي وودعني قائلاً : اذكرني لدى نوري باشا . الوداع صاحب .

الوداع صاحب . انت وان كنت كريماً لمن اغلاط الانكليز في العراق . والمسيحي المتفرنج وان كان عالماً لمن اغلاط التاريخ في العراق . والمتغرب اليوم في القشور فقط ، مسيحياً كان ام مسلماً ام

(١) كراتشي اصبحت عاصمة الباكستان .

اسرائيلياً ، لمن اغلاط الاجتماع في العراق ، بل في الشرق كله . حبذا مدنية جديدة تمتع الشعوب على السواء بثمارها اليانعة . والحق يقال ان ما ترمي اليه المدنية الحقة ، غربية كانت ام شرقية ، هو تعميم وتعزيز قياس واحد في آداب المعاملة وآداب السياسة بين الامم . فلا يستشرق الغربي ولا تستشرق الصناعة الغربية اذا ما لفحتها شمس الشرق ، ولا يتغرب الشرقي في سطحيات الحياة اذا مـــا بسم له خـادم السيد الاوروبي .

صفرت القاطرة وجرت ، فجرّت وراءها قطاراً مستشرقا جيء به وبعماله من الهند — قطاراً عسكرياً من بقايا الحرب . لا اظن امة من الامم الاوروبية او الاميركية تستخدمه لغير الشحن ، فتصلحه مع ذلك وتجدده . والقاطرات في اشد حاجة الى التصليح من العربات . بل قد تكون اجتازت زمن الخدمة فامست لا تصلح للعمل ولا يصلح فيها للبيع غير الحديد .

خرجنا من ضواحي البصرة مساء في قطار البريد « السريع » الذي يصل الى بغداد ساعة الغروب من اليوم التالي ، اللهم اذا سلمت القاطرة من عاديات الطريق . قد سلمت والحمدلله ليلا . فنهضنا صباحاً فاذا نحن في أور الكلدانيين في الوقت المعين بلائحة السفر . وهذا خادم عربـة الاكل جاءنا بكوب من الشاي قدمه من النافذة اذ لا مماشي في هذه العربات تصل الواحدة بالاخرى .

سرنا من أور الى الدراجة فوقفنا فيها وقفة نفذت بالعظم صدمتها . وقفنا فجـــأة وثبتنا تجاه العاديات ثبات الابطال . نظرت الى لائحة السفر فاذا فيها : الفطور في سمارة . ولكن خادم المائدة جاء بعد ساعة يدعونا للاكل فخرجنا من منازلنا وسرنا نلبي دعوته ونستطلع خـبر

القاطرة . فعلمنا انها ، حرسك الله ، كسرت رجلها ، وانهم ارسلوا الى أور يستحضرون قاطرة اخرى .

ولـّت ساعات الصباح واشتد الهجير ، فصعد الزئبق في ميزان فارنهايت الى المئـــة والست درجات ، فعمدنا الى المـراوح في العربات فاذا هي مثل كل شيء في ذاك القفر نائمة ولا حياة فيها . ثم جاء الخادم يدعونا ثانية للاكلـ الغداء . فوددنا لو ان ساعات الانتظار كلها ساعات اكل وشرب وحديث ، فتنسينا مصيبة القاطرة ومصيبتنا في فيافي العراق وقيظه .

جاء ونحن في الدرّاجة اعرابي يركب حماراً يتبعه حريمه وعياله ماشين . جاؤوا يبغون السفر الى بغداد في قطار البريد السريع ، وكان وصولهم الى المحطة بعد الميعاد بخمس ساعات فقط ، فقـــال الاعرابي يخاطب الحرمة ام عياله ، ما قلت لك يا سعيدي ان القطار ينتظرنا . وقد انتظر غيره من البدو هذا القطار المستشرق اللطيف . ثم جاءت القاطرة الصالحة من أور بعد الظهر فخرجت بنا من الدراجة وراحت تشيل بذنبها ، بارك الله فيها ، فاوصلتنا الى السمارة ساعـــة الشاي.ثم الى الديوانية التي كان قد أعد لنا الغداء فيها فقُدم عشاء بارداً .

جلست الى المائدة واثنان من الانكليز احدهما ضابط علمت من الشرائط الصفر والحمر والخضر التي على صدره انه من ابطال الحرب ، وعلم ، والله اعلم ممن علم ، اني قادم من اميركا . فسدد تواً الىالرئيس ولسون اسهم غضبه .

– قـــد نزع من يدنا السلاح الذي لا يصلح لضبط امور العراق سواه ، سلاح القوة ، العزم ، الشدة .

فقال رفيقه : لولا تدخـــل اميركا لكنا اليوم نحكم العراق كما

يجب . فكمل الضابط قائلاً : ولخير العراق ... وما الانتداب ؟ وما تقرير مصير الشعوب ؟ الفاظ هي ليس الا . قد حكم القوي الضعيف مئات من السنين قبل ان اخترع لنا رئيسكم ولسن هذه الكلمة — الانتداب . وحكمه حيناً بالعدل وحيناً بالعسف والشدة ، بما تسمونه ظلماً . وكان الظلم احياناً انفع له من العدل . وهل تظن ان هذه الكلمات الجديدة — الانتداب — تقرير مصير الشعوب — تصلح الشؤون وتحرر الامم ، ترانا مقيدين في هذه البلاد بارادة عصبة لا سيادة لها ، نعم ، عصبة الامم ، وباراء رجل نظري يحلم الاحلام هو رئيسكم المستر ولسون ، فلا نستطيع عملاً مفيداً لا لانفسنا ولا لاهل البلاد .

اعجبني من الرجل يقينه وصراحته ، فالجرأة المعنوية مستحبة دائماً . وما هو بعسكري فقط بل من غواة الادب ايضاً . رأى معي كتاباً ل ه . ج . ولس فاستعاره ولم يُعده الي . لعل التبعة في ذلك على القطار لاننا بعد ان دخلنا كل الى منزله لم يرَ بعضنا بعضاً . وعندما وصلنا الى بغداد الساعة الثانية بعد منتصف الليل — اي بعد الميعاد بثماني ساعات — كان هو ممن خرجوا من القطار وانا ممن ناموا فيه. والسبب في ذلك ان ذاك الضابط ، وان كان غريباً ، كان له في المدينة بيت يأوي اليه اية ساعة كانت اما انا فلم انتظر احداً من اصدقائي ان يوافيني الى المحطة بعد منتصف الليل ولم أجز لنفسي طرق ابوابهم او ابواب الفنادق في تلك الساعة . فنمت ، فلم يشأ على ما اظن ان يزعجني ، فغنم بلطفه الكتاب .

نمت ساعة فايقظني صوت ينادي : بالهندية : بابو ، بابو ! فتحت النافذة فاذا باحد الحمالين يبغي خدمتي ، فطردته وعدت الى النوم . ثم

بعد دقائق سمعت طارقاً يطرق زجاج النافذة ، فنهضت فاذا بحمال آخر ينادي بابو ، بابو ! فعمدت الى العصا وكلمته بهـا . أتتبعني لغات الهند الى العاصمة عاصمة العباسيين وقطب دائرة الشعراء المحدثين ! رح يا ملعون الوالدين ! وبعد هذا السب والتهديد بالعصا نمت ثالثة ونهضت باكراً ، فنظرت من النافذة يميناً ، ثم من النافذة يساراً ، فلم اجـد لبغداد اثراً من الآثار ، ولا رأيت على الرصيف احداً من النـاس . فساورني شيء من الغم ، كثير من الغم . فقلت في نفسي : الماء البارد للغم خير دواء وعندك الماء يا رجل . فاستحممت ولبست ثيابي هادىء البال متشبثاً بالآمال ، عل وجهاً من وجوه الاحباب يشرق على المحطة مع شروق الشمس .

جاءت الشمس وحدها ، ولم اجد عند المحطة حتى من ينقل امتعتي الى المدينة . فبعثت الولد الذي هددته بالعصا يستحضر عربة وبت انتظر ، واقفاً وحدي في ذاك القفر المفجع ، افتش في الآفاق الاربعة عن بغداد . وبعد نصف ساعة ظهر في جهة النخيل عربة لماعة ، يقودها جوادان مطهمان ، يزين رأسيهما الريش الاسود الكبير . فذكرني الريش بخيل عربات الاموات في جنازات النصارى . فقلت في نفسي : وانت في جنازة — جنازة آمالك ، وغرورك — في جنازة ما كنت تتمثله وتتصوره ببغداد .

ركبتُ في جنازتي ، فساق الحوذي خيله شرقاً الى النخيل فبدا لنا عندما دخلنا على جانبيه شيء من حركة المقاهي في ظلال تخللتها اشعة الشمس . ثم سمعت صوتاً يذبح ، وقرقعة ترجرجت الارض منهـا . هي عربات النقل - سيارات الجيش الهائلة — يسوقها جنود الانكليز . والغريب ان غبارهـا وروائحها نفعتني تلك الساعة فأخرجتني من

الجنازة . هي طلائع الحياة في بغداد اليوم . اما بغـداد الامس ففي كتاب الف ليلة وليلة تجدها .

وصلنا الى الجسر ، جسر « مود » [1] وهو مثل الارجوحة معلق بشاطئي دجلة ، بيد انهـــا ارجوحة من المراكب تنحني تحت ارجل المارين ، وتئن تحت دواليب العربات ، وتصفق تحت سنابك الخيل ، وتصرخ صرخات مزعجة تحت اثقال سيارات الجنود . وكان النهر في صباح يوم من ايلول صغير الموجة لطيفها ، يسير سيراً بطيئاً هادئـاً ، ومجذاف البلام [2] يحرك اللجين فيه فيستحيل ذهباً في اشعة الشمس . وهناك في الجهـــة الشرقية تبدو بغداد بقبابها الزرق ومآذنها البيض ، وقصورها على الشاطىء تعيد الى من كان شغفاً بمجد الزمان الغابر شيئاً من البهجة والانشراح . بيد ان تلك البهجة قصيرة الاجـــل ، فهي لا ترافقه الا في النهر او الشط بلغة اهل العراق .

عبرت الجسر فاذا انا في شارع مهشم حزين ، كأنه بحاناته ومقاهيه قد خاض عباب الحرب العظمى ، ووصلت الى نزل « مود » فوجدت العمال يشتغلون في الترميم ،فقصدت الى نزل آخر ، ،فاذا الخدم يغسلون صحن الدار وكان صاحب النزل لا يزال نائماً . فخاطبني الخادم يقول : ولا غرفـــة واحدة فارغة ولا سرير . ثم دلني على فندق في الجوار المبارك فبادرت اليه ، فاذا هو كالأمل الضائع في صدر الجائع ، فانزلت مع ذلك امتعتي ودفعت الى الحوذي مـا تبقى من ثروتي ، ودخلت

---

(١) Gen C. F. Maude هو الجنرال ث ف مود قائد الجيوش البريطانية الذي فتح بغداد (في ٢٤ جادي الاولى عام ١٣٣٥ ، ٩ اذار سنة ١٩١٧)فسمي الجسر باسمه .

(٢) النوتي صاحب البلَم . والبلَم — اللفظة هندية — زورق للعبور والنزهة.

الغرف واحدة بعد الاخرى ابغي احسنها فـــاذا هي مثال المساواة الاعلى – كلها صغيرة مظلمة باردة عفنة . فقلت لا حول ولا .

فطرت ثم سألت الخادم عن الهاتف فقال انه لا يزال نائماً . فقلت: التلفون اريد . فقـــال : تجده في « المدْجستيك » فسددت خطوات اليأس الى النزل ذي الاسم الجليل ، فلقيت صاحبه في الباب يستنشق هواء الصباح ، فقلت : عندكم تلفون ؟ فقال : نعم .

– وهل تظن ان احداً في قصر الملك يجاوبني الآن اذا تكلمت ؟

– ومع من تريد ان تتكلم ؟ مع امين الكسباني ؟

امين الكسباني عندي كان الجواب . بُهتُ حقاً ثم قلت: أساحرٌ انت؟ فقال : انا من تل كيف [1] . ثم نادى الخادم وامره ان يدلني على غرفته .

كان الباب مفتوحـــاً اذ لا نوافـذ للغرفة غير واحدة تفتح مثل الباب على الرواق . وكان الامين في ثوب النوم واقفاً امام المرآة يزين روحه ، وكانت ذقنه قد ابيضت بالصابون فلما رآني ابيض منه الوجه كذلك ، ووقعت الموسى من يده . ثم رشقني بالشتائم السود .

– متى وصلت ؟ وكيف تصل قبل الوقت المعين ؟ هذه قباحـة منك . تشغل اصحابك بك فيستعدون للقائك ثم تباغتهم هذه المباغتة. وانت الاديب المشهور بالذوق والكياسة .

– ألا تسمح بكلمة ؟

– سامحك الله . مـــاذا اقول لمن ناموا باكراً البـارح لينهضوا باكراً اليوم لملاقاتك ؟ القطار وصل قبـل الوقت المضروب ؟ يقولون لي : ولماذا لم ينتظرنا في المحطة؟ واذا قلت : انه رجل مثل القطار شاذ

(١) تل كيف قضاء في لواء الموصل واهله موصوفون بالحذق والنشاط .

الطبع والسلوك ، فهم لا يفهمون ولا يعذرون .

ــ ألا تسمح بكلمة ؟

ــ سامحك الله . قد خاب ظني بذوقك وادبك .

فقلت وانا لا ازال واقفاً في الباب صابراً على ذي السباب : وانت الذي قضيت حياتك في انكلترا ، وكنت على العمل في الليل ادأب منك في النهار ، ايزعجك الرواح الى المحطة منتصف الليل او بعده ؟ وهب انك علمت ان القطار لا يصل قبل الصبح فما كان عليك ان تحيي الليل ، اكراماً لصاحبك على الاقل ، لاعباً بـ « البريدج » ثم تخرج ساعة الفجر الى المحطة تستنشق الهواء ؟ الحق يقال يا امين ان سنة في بغداد اورثتك الكسل والخمول .

بعد هذه المشاتمة تصافحنا وسلمنا سلام الاحباب . وجلست اطالع آخر اعداد جريدة الـ « تيمس » الانكليزية التي كانت على الارض .

ــ نحن علمنا ان القطار تأخر ولكنه من عادته ان يتأخر اثنتي عشرة ساعة .

ــ ما لنا والقطار عسى ان يكون حالك احسن من حاله . يظهر انك الفت الظلمة في انكلترا فأحببت الاقامة في مثل هذه الغرفة .

ــ هذه بغداد ، فنادقها شبيهة بعضها ببعض ، ولا فرق بينها في غير الاسماء والاجور .

ــ أحقاً ما تقول ؟ الا يوجد في هذا النزل غرفة ترمقها الشمس ولو بلحظة ؟

اجاب الامين متبرماً : هذا احسن نزل في بغداد وقد نجد لــك غرفة فيه .

فقلت مصراً على المشاكسة : ومثل هذه الغرفة ؟

– افلا تتنازل الى مساواتنا ؟

– اذكر ان للمساواة اقنومين آخرين هما الحرية والاخاء . وبما اني قد آخيت النجوم واقترنت ثانية بالحرية في بلاد العرب فسأتنازل عن المساواة وانام على السطح .

فسبني بالانكليزية ثم العربية ثم قال : جرحت ذقني – الا تخشى البرد ؟

– اخشى العفونة اكثر من البرد . اين قصر الملك ؟

– لا قصر لجلالته .

– واين هو نازل ؟

– خارج السور – خارج المدينة .

– اوَ لا يؤذن لي ان انصب خيمتي خارج المدينـــة ؟ صدقني يا اخي اني امرض في مثل هذه الظلمات . قد صرت بدوياً فلا يطيب لي غـير الفلاة أليس عندكم بدو خارج المدينة انزل – عليهـم – معهم ؟ ...

فقال الامين متهكماً : ولكنك تتنازل فتزور جلالة الملك اولاً . أليس كذلك ؟

– طبعاً ، طبعاً . لا تؤاخذني

فضحك وفرح بغلبتي . فأخبرته اذ ذاك بما جرى لي منذ وصولي الى البصرة حتى وصولي الى محطة بغداد ، فرثى لحالي وغفر لي نزقاً انساني الواجب . وكنت قد علمت وانا في بمباي بالجراحة التي اجريت لجلالة الملك واخبرت في الطريق الى العاصمة انها نجحت وان جلالته قد تماثل الى الشفاء .

– أفلا ينبغي ان اكتب الى جلالته كتاباً اهنئه بصحته واعلمـه

بوصولي ؟

سنكفيك مؤونة الكتابة .

وكان قد أتم صديقي تزيين روحه ، ولمّ شعث طبعه ، فعادت اليه السكينة ، وتجلى فيه الحلم والوقار ، فصار اسلس من الماء ، كما يقال ، وألين من اعطاف النسيم . امّ الهاتف في النزل وعاد يقول : ستقابل جلالته اليوم . فسررت بذلك .

وبعد ساعة ركبنا سيارة اميركية سارت بنا هائجة تثير النقع في شارع بغداد الجديد ، الطويل المستقيم ، الوحيد ، الذي يمتد من اول المدينة جنوباً الي آخرها شمالاً ، وخرجنا من البوابة عند نظارة الدفاع ، فمررنا بثكنة الى اليمين وواصلنا السير في طريق الاعظمية حتى وصلنا الى بستان على احدى حواشيه بيت صغير انبأت المواعين في فنائه بانه بيت فلاح يكثر عنده الحليب واللبن . بل هو بيت مدير الزراعة الخاص لجلالة الملك . ثم نزلنا عند بيت آخر صغير داخل البستان ، شبيه ببيوت الـ « اسبستوس » التي كانت تبنى ايام الحرب بساعة وتنقل من مكان الى مكان ، فاذا هو مفروش بالفرش الاوروبي ببساطة افصحت عن ذوق لطيف ، وفيه خزانة كتب معلق فوقها صورة الملك فيصل مع الكاتب الافرنسي اناطول فرانس ومنضدتان وراء احدهما شاب عصري ، وضاح المحيا ، عالي الجبين ، حسن البزة ، بادر الى استقبالنا ، وكان في ترحيبه مثله في لبسه انيقاً دقيقاً — رسمياً . هو رستم حيدر السكرتير الاول لجلالة الملك ، وصاحب الرسالة التي صدرت بها هذا الفصل .

شربت القهوة في ديوانه ، وتلمست في محدثي بالرغم عن حجاب الرسميات نفساً هادئة كيسة ، وعقلية راقية ، وتمتعت بعدئذ اثناء

اقامتي في بغداد بشيء منها وراء الحجاب ، ساشاركك ايها القارىء به . اما الآن فهو الذي عجل ، شكراً له بتحقيق ما جئت من اجله . عمد الى الهاتف على منضدته ثم قال : سيدنا يقابلكم الان .

سرنا في ظلال النخيل الى بيت لا يعد في القاهرة او في بيروت فخماً ممتازاً . ولكنه مبني على شاطىء دجلة في بستان من النخيل . في جوار الامام الاعظم ، وقبالة المكان الذي ازدهرت يوماً فيه المدينة المدوّرة ، مدينة المنصور . دع عنك ذكر المنصور والامام العظيم . البيت قصر حتى ولو كان مجرداً عن المحاسن الطبيعية والتاريخية والدينية كلها . هو قصر لان ملك العراق الاول مقيم فيه .

حيّانا جنديان في الباب ، ثم استقبلنا احد الضباط فدعانا لغرفة فيها طاولة عليها سجل الزائرين ، ثم جاء احد الامناء يدعونا الى الطابق الاعلى فدخلنا وراءه ردهة للجلوس ، وبعد هنيهة فتح باب افضى بي الى غرفة النوم . وكان الاسبوع الثالث من الجراحة وكنت أول مَن حاز شرف الاستقبال بعدها .

الامير فيصل بن الحسين بن علي بن نُمي ، ابن بنت الرسول ، قائد جيش الشمال العربي في الحرب العظمى ، ممثل العرب في مؤتمر فرساي ، حامل لواء الوحدة العربية في اوروبا ، حاكم الشام ، ملك سوريا ، ملك العراق ! قد تتبعت وانا في نيويورك هذه المراحل الباهرة في ذلك التاريخ ، تاريخه القصير المجيد ، وانا معجب به كل الاعجاب ، مكبر منه الاعمال والاقوال والمقاصد العالية ، متأسف اني لم اجتمع به في باريس او في لندن او في الشام محتفظ بكل شاردة من شوارد الشوق والامل . ثم وفق الله فارتحلت شرقاً الى البلاد العربية فكانت عاصمة العباسيين ، خصوصاً لان فيها بطل

احلامي ، نوراً من الانوار المقصودة ، ومحجة من المحجات المنشودة .

لم اشعر وانا داخل الى غرفة النوم ، على ما تقدمها من الرسميات الملكية الغربية ، باني داخل على ملك من ملوك العرب ، هو من اكبرهم شأناً واصغرهم سناً . ذلك لان الخيـال مني رافـق فيصلًا في الخمس السنوات الاخيرة فادناني منه فاحسست تلك الساعة ان وراء الستار صديقاً لي واخاً في الجهاد الوطني . وما كان الحس ّ خؤوناً .

دخلت فاذا بجلالة الملك جالس عـلى الديوان مكشوف الرأس ملتفاً بعباءته ، فوقف وتقدم يلاقيني وسلم عـليّ سلام الاخوان . وكان وجهه الذي شبهه احد كتاب الافرنج بوجه المسيح اشبه بـه يومئذ على ما اظن منه في الماضي . لان المرض اكسبه لوناً تخف فيه حدة الحياة وتكاد تضمحل ،فيمتزج امتزاجاً لطيفاً بالنور الناعم الجالس هادئاً في عينيه ، ثم جو ّفه قليلا تحت العظم الاعلى فصار يظهر ما فوقه اي الجبين اكثر اتساعاً ورفعة ، وما دونه مستطيلاً مسنماً . اما في صوته وابتسامه واشاراته فقد كان اشبه بجلالة الملك ابيه .

شكرته على جميل تعطفه في استقبالي يوم وصولي وهو لا يزال في حال النقه . فقال انه يشاركني في الشوق الى المشاهدة . ثم هنأتـه بصحته وبعيد جلوسه — العيد الاول لملـك العراق الاول — فابتسم ابتسامة فيها بعض الغم وانتقل بالحديث الى رحلتي .

— انها رحلة عجيبة يا امين وسيكون فيها ولا شك فوائد كثيرة للعرب . كنا مرافقين لك معجبين بكل ما وصلنا من اخبارك وبمـا طالعناه في الجرائد عنك .

ثم سألني بعض سؤالات عن البلدان التي زرتها وعن امرائهـا وحكامها . وكان لا يزال الضعف يمنعه عن الافاضة بالحديث .

– احب ان تخبروني كل شيء وسنجتمع في مـا بعد اجتماعـات عديدة .

فاستأذنت بالانصراف فوقف وهو يقول . سنجتمع في ما بعد . ثم اعتذر ، وكان ذلك من جميل التواضع فيه ، عما اسماه تقصيراً في القيام بواجب الاكرام والضيافة .

ولكنه بعد ان خرجت دعا الكسباني فحدثه بكلمة ، فعادالصديق الي يقول : امش – الى النزل بامر جلالته وقـد امر ايضاً بسيارة اثناء اقامتك في بغداد .

لا حكومة ولا انتداب

بركان الثورة – الملك في يد الاطباء – سقوط وزارة النقيب – عيد الجلوس غير المأنوس – اتحاد الاحزاب – مطالبها – ملحق من النهضة الوطنية العراقية – استعباد الف سنة واستعباد سنة واحدة – وفد الاحزاب في قصر الملك – الشيخ مهدي البصير يخطب في الجمع – رئيس الامناء يعقب على كلامه – وصول المندوب السامي مهنئاً بعيد الجلوس – الشعب يصيح : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز – مطالب زعماء النجف – عريضة العشائر – عزل رئيس الامناء – الفرق بين السر ارنلد ولسون والسر برسي كوكس – اقفال الاحزاب الوطنية نفي الزعماء الوطنيين – الامة ساكتة ساكنة – وحجج الاسلام لا يحتجون – تأسيس حزب وطني معتدل – سياسة الملك فيصل – لا حكومة ولا انتداب .

يــوم وصلت الى العراق كان بركان السياسة قد انفجر من كل جانب ، فترامت من النجف الحمم ، واستعرت في بغداد النيران ، وتصاعد بين الرافدين اللهيب والدخان . في ذاك الحين قام الزعمـاء يطلبون رفض الانتداب ، وانتخاب المجلس النيابي ، واعلان الاستقلال التام ، وتأييد العرش . وسمع بين الاصوات الشاعر الحكيم يقول :

انا شاعر يبغي الوفاق موحد بين الشعوب سبيله الارشاد
ما الفرس والاعراب الا كتفا عدل وما الاتراك والاكراد
لم تكفنا هذي المطامع فرقة حتى تفرق بيننا الاحقاد

وكانت الحركة قد اشتدت قبل عيد الجلوس بايام ، فأثرت بصحة الملك وزادت بآلامه التي كانت الزائدة المعوية سببها ، فاشار

الاطباء بجراحة فاجلها جلالته الى مـــا بعد العيد .اما الوطنيون ، المتطرفون منهم والمعتدلون ، فلم يؤجلوا مما سعوا اليه شيئاً . ويظهر ان صوت الشاعر اثر فيهم يومئذ تأثيراً حسناً فحملهم على توحيد المطالب والآمال .

وقد كان لحملاتهم ثلاثة اهداف ، اي الوزارة والحكومة والملك نفسه ، فاستخدموا لها ثلاثة انواع من السلاح ، سلاح الكلام. صوبوا مدفعيتهم على الوزارة التي كان يرأسها السيد عبد الرحمـن النقيب فاستقالت ، وطاروا بطياراتهم الخطابية فوق دار الانتداب فأزعجت المندوب السامي فبات حائراً لا يدري ما يفعل ، ولا سيما ان الجيوش يومئذ لم تكن تكفي لاخماد فتنة صغيرة .

اما جلالة الملك فجاءته الوفود يوم العيد ، اول عيد لتاج العراق ، عيد الجلوس — غير — المأنوس — يهنئونه ويطالبونـــه والحكومـة المشارفة بالوعود التي مر العام الاول عليها دون ان ينجز شيء منها . وكان في البلاد حزبان سياسيان ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، فاتحدا بعد ان تشاقا واجتمعا اجتماعاً خصوصياً في اليوم السابق لعيد الجلوس قررا فيه بالاتفاق رفع احتجاج الى « اعتاب صاحب الجلالة المعظم » ونقطة الدائرة فيه ان الامة كانت تنتظر بعد التتويج حكومة دستورية نيابية ، فمرت السنة الاولى ، والحكومـة لا تعرف أدستورية هي ام نيابية ام ملكية مطلقـــة . ان الامة يا صاحب الجلالة تكابد انواع الاضرار الناتجة عن سوء الادارة« المتغلب عليهـــا نفوذ البريطانيين المنافي لروح الاستقلال لانهم اتخذوا سياسة التفريق وغيرهامن الاعمال غير المشروعة رائداً لهم ». وهذه الوزارة ، وزارتهم اسقطناها لانها كانت العامل الاعظم في مناهضة آمال الامة .

وبما ان المجلس النيابي لم يتألف حتى الآن ، وبما ان خطر الانتداب يهدد استقلال البلاد وحرية العراقيين ، فقد اجتمعت هيئتنا المركز العام للحزب الوطني العراقي ولحزب النهضة العراقية وقررتا عرض الحالة على جلالتكم مسترحمين صدور الارادة الملكية في ما يلي :

اولاً – الكف عن الاعمال المار ذكرها ولا سيما التدخل البريطاني في الامور الادارية .

ثانياً – تأليف وزارة من ذوي الجدارة المخلصين لكي تطمئن الامة باصلاح الحال .

ثالثاً – ان لا تعقد اية معاهدة ولا تجري اية مفاوضة بشأنها قبل تأليف المجلس النيابي .

ولم يكتف المركز العام لحزب النهضة العراقية بهذا الاحتجاج وهذه المطالب فأصدر مذكرة خصوصية من قلب البركان ، فيها لفتات الى الماضي والآنات . شكا الحزب سياسة الحكومة التي لم يرَ الشعب في خلال سنة منها فرقاً بينها وبين سياسة الحكومة الاحتلالية ، ورفع احتجاجه الى العالم المتمدن ، والى كل من يؤلمه صوت شعب مهضوم الحقوق ، منبعث من طيات افئدة مليئة بالآلام والاماني . – انا نحتج على ساسة حكومة بريطانيا الاستعماريين ، وعلى الانتداب وانصاره الممقوتين في البلاد ، في هذه البلاد العراقية التي كانت تستعيد في مثل هذا اليوم من العام الماضي ذكرى المنصور والرشيد والمأمون ، « مؤملة ان يكون بلسماً للجروح البليغة التي احدثها الاستعباد السنة الماضية في جسمها النحيف . »[1]

(١) والغريب العجيب ان امة استعبدت الف سنة ظلت حية سليمة الحواس

وهذه الامة ذات الجسم النحيف والقلب المفعم بالآلام والآمال تعيد عيدها السعيد بتتويج جلالة مليكها وارتقائه عرش العراق الذي « شيد فوق جماجم الشهداء » وتبعث الوفود ليرفعوا الى جلالته اصدق عبارات التبريك والخطباء ليسمعوه انينها وشكواها .

جاء صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب وفد الحزبين المذكورين ومعهم جمهور من الانصار احتشدوا في فناء القصر ، فطلب الزعماء من الملك ان يأمر بمن يمثل جلالته لسماع الخطب هناك . فأمر جلالته رئيس الامناء لينوب عنه . فخطب في الجمع خطيب الحزب الوطني العراقي ، الشاعر الضرير الشيخ مهدي البصير ، فهيج في رئيس الامناء الشجون فانتصب خطيباً . وحق له الكلام اذ كان الملك انابه عنه وحق له ايضاً ان يبرهن على حماسة — وقيل حماقة — فيه أنسته انه موظف في البلاط ، وان المندوب السامي لبريطانيا العظمى قادم في تلك الساعة ليهنىء جلالة الملك بعيد الجلوس ، وان عليه هو واجب الاستقبال والترحيب . وقد اتفق انه بينما كان حضرة الاستاذ رئيس الامناء يخطب ضد الانتداب اقبل المندوب السامي السر برسي كوكس ورجال الوكالة البريطانية لاداء التبريك فاستقبلهم الجمع صارخاً : ليسقط الانتداب ! ليسقط الانكليز !

وكان قد وصل لسعادة المندوب في اليوم السابق برقية من زعماء النجف يؤكدون له فيها انهم لا ينكرون « صداقة حكومة بريطانيا العظمى ، صداقة خالية من المحاباة » ويعلمونه برغائب الامة العراقية

تابع شرح صفحة ٣١٨

لتشكو استعباد سنة واحدة في هذا الزمان ، ولم يُسمع لها في الالف سنة مضت صوت ولا صدى .

« التي لا يمكنها التنازل عنها مهما كلفها الامر » وهي المواد الآتية: اولاً – رفض الانتداب بتاتا واعلان حكومة بريطانيا العظمى بالغائه رسمياً . ثانياً – مراجعة حكومة جلالة ملك العراق لوزارة الخارجية لا لوزير المستعمرات . ثالثاً – رفع تدخل ممثلي اية سلطة اجنبية لان في الامة نفسها الجدارة لادارة شؤونها .

هذا من علماء الشيعة وجلالة الملك يومئذ معهم . الا ان بعض العشائر لبوا الدعوة التي قيل ان دار الانتداب مصدرها ، فاجتمعوا يحتجون على العلماء ويعلنون ولاءهم للانكليز . ثم قدموا عريضة بذلك الى المندوب السامي ، فكانت بيده حجة على جلالة الملك . وقد اشار فخامته بان سيعلن العريضة اذا كان الملك يرفض المعاهدة . فلم يكن لينتظر والحال هذه مثل تلك المفاجأة القبيحة في القصر . اما اذا قيل ان من حقوق الشعب – واليوم يومه – ان يفاجيء السياسيين في اي وقت واي مكان كان فيجب ان يكونوا متأهبين له دائماً ، فمن النادر ان يحدث في بلاط ملكي – في غير وقت الحرب او الثورة – مثل هذا التظاهر الرسمي – رسمي هو بوجود مندوب الملك واشتراكه به – ضد دولة من الدول العظمى . بل هي اهانة اقتبلها السر برسي كوكس هاديء البادرة ساكناً . واظنه سُر بها . فقد كان متردداً كما قلت في اتخاذ خطة الشدة لقمع ما كان ينذر بثورة اخرى في العراق مثل ثورة سنة ١٩٢٠ ، فازالت حادثة البلاط التردد ، وشحذت فيه عزماً كان موضوع ريب الناس .

ولكنه انكليزي واكثر الانكليز في مثل هذا الموقف واحد . فلم يدع السر برسي الحادث المؤلم يحول دون واجبه تلك الساعة ، بل دخل على الملك وهنأه بعيده الاول . ثم اجتمع بعدئذ به فدار بينهما

حديث كانت له نتيجتان ، الاولى في البلاط الملكي وهي عزل رئيس الامناء ، والثانية في دار الاعتماد وهي الخطة التي اخمدت النيران التي كانت تتصاعد من بركان السياسة المتفجر .

لا ريب ان الاقدار ساعدت السر برسي كوكس في عمل لم يكن من طبعه ومبادئه . لانه رأياً وخلقاً وسياسة نقيض سلفه السر آرنلد ولسون الذي سبب او عجّل ثورة ١٩٢٠ فالسر آرنلد حاد المزاج ، سريع الغضب ، شديد البأس ، عالي الهمة ، قصير النظر ، يضرب ولا يحسب للعواقب حساباً . والسر برسي لين العريكة ، هادىء البادرة ، طويل الاناة ، يعالج الامور بالحنكة التي قلما تلجأ الى القوة . على انه ادرك ما في الحادث من الخطر على منصبه اذا كان لا يقف موقف كل انكليزي بل كل انسان أهين رسمياً وأهينت حكومته وأمته . قد يقال ان الملك في عزله رئيس الامناء اعتذر ضمناً وصراحة عما بدا . ولكن ذلك لا يكفي . بل قد يزيد الوطنيين شغباً وهياجاً . فاقدم على العمل الذي اقتبله العراق ساكناً ساكتاً .

قلت ان الاقدار ساعدته في سياسة الشدة لان جلالة الملك بعد عيد الجلوس سلم نفسه الى الاطباء ، وكانت الوزارة قد استقالت فاصبحت الحكومة كلها بيده — خلا له الجو — فاصدر امره باقفال الحزبين ، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية ، وبتوقيف جرائدهما ، ثم نفى الى هنجام [1] الزعماء وفيهم الحاج جعفر ابو التمن وحمدي افندي الباجچي والشيخ مهدي البصير ، واخطر مجتهدي الكاظمين السيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي

---

(١) جزيرة في الخليج الفارسي تجاه بندر عباس .

بتسفير نجليها ، وهما ، من زعماء النهضة ، الى ايران ففعلا دون تردد او احتجاج .

وكان جلالة الملك رهين الاطباء وموضوع الاشاعات المتعددة ، منها اشاعة موته التي ضجت لها العاصمة واتخذها انصار المنفيين ومن تبقى من الاحزاب الوطنية حجة على سكوتهم واخلادهم الى السكينة غير انه يستغرب سكوت ثلاث من « حجج الاسلام » المجتهدين وهم : السيد ابو الحسن الاصفهاني والسيد حسن الصدر والشيخ مهدي الخالصي ، وقد كانوا كلهم زعماء النهضة واعلامها . على ان بعض العشائر الموالين للعلماء ، من لم يعلموا بسكوتهم ، ظلوا يطالبون بسقوط الانتداب ، فسودت الحكومة الانكليزية صحيفتها في ارسالها الطيارات ترمي اكواخهم بالقذائف النارية ، وقد كانت في غنى عن ذلك لأن من ينادون مع المجتهدين يسكتون اذا هم سكتوا .

اما اذا نظرنا في الأمر نظرة اجمالية فقد افلح المندوب السامي وان كان قد اخمد في عمله ولو الى حين نار الوطنية التي رأى نفسه بعدئذ في حاجة اليها ليقاوم بها الاتراك ودسائسهم في الموصل وفي بلاد الاكراد . ولكنه في ذاك الحين لم يكن ليبغي غير امرين ، عقد المعاهدة الانكليزية العراقية وتأسيس مجلس نيابي يجيزها . وكان متيقناً ان الامر الاول لا يتم الا في ثبات الولاء والمؤازرة بين دار الانتداب وبيت النقيب . فسعى اولا في تأسيس حزب سياسي معتدل دُعي بالحزب العراقي الحر يرأسه السيد محمود بن السيد عبد الرحمن النقيب ليكون عوناً للحكومة في انتخاب المجلس . ثم سعى في اعادة الوزارة المستعفية لانجاز المعاهدة . وكان جلالة الملك يؤثر غير النقيب رئيساً ، والمندوب السامي للاسباب التي بسطتها لا يبغي سواه . وسترى

بعدئذ كيف ان يُخذل صديق الانكليز الاكبر في العراق بعد توقيعه المعاهدة المشهورة .

على ان هناك فترة مشؤومة مظلمة ، قبل التوقيع وبعد رجوعه الى الرئاسة ، كانت السيادة الانكليزية فيها مشلولة حقيقة ومعنى . فلم يكن في البلاد لا حكومة وطنية تذكر ولا انتداب . ذلك لان الملك فيصلاً عمد بعد شفائه الى سياسة ازعجت دار الانتداب ، فقبل محوقلاً برئاسة النقيب ، وظل متمسكاً باهداب احزاب تلاشت ، ووطنية لجأت الى التقية واستشعرت السكون .

مآدب الغم

حديث الملك – وعد المستر تشرشل – المعاهدة – الانتداب – فضل الحكومة الانكليزية في تتويج فيصل – الشيخ خزعل – السيد طالب النقيب – الملك بين جبلين – الملك محاط بالاعداء – الفرنسيس والاتراك والعجم وابن سعود – « ليدافع عن البلاد من يبغي احتلالها » – الكآبة والغم – مأدبة ملكية – حديث الخواتين الانكليزيات – سكوت الملك – احد الاربعة الذين يكفرونهم في العراق – مأدبة في الهويدر – الخاتون – الطيور والازهار وانواع الشاي والملك الكئيب – مائدة الملك الخاصة – سؤال في التطور والانقلاب – رأي السكرتير البلشفي – الشبقة والعمامة والطربوش – مصادر الغم ومآدبه .

سمعت الانكليز في العراق يقولون : هذا فيصل الذي اقمناه ملكاً ينقلب علينا في السنة الاولى . ولكن للمسئلة وجهة اخرى، ولجلالته قصة غير قصة الانكليز قصها عليّ في المقابلة الثانية .

كان لابساً صباح ذاك اليوم ثوباً مدنياً وسدارة من لونه . وكان لا يزال في وجهه اثر من العياء والضعف . بيد انه في حديثه كان شديد اللهجة صريحها . صوت ناعم فيه قوة اليقين ، وعين شهلاء يضطرم احياناً نورها الهادىء ولا يروع .

– يطلبون مني عقد المعاهدة وفيها نص صريح على الانتداب . وفي بعض موادها غموض ، فتحتمل التفاسير العديدة ، فيفسرها القوي في المستقبل لتوافق مصلحته وسياسته . وهذا لا يجوز . هذا غير ما عاهدوني عليه في لندن . قد صارحتهم هناك كما اصارحك الآن . قلت للمستر تشرشل اني لا اقبل ان اكون ملكاً على العراق الا بشرطين

اولين ، وهما استقلال البلاد والغاء الانتداب . فقبل المستر تشرشل بذلك ، ووعدني وعداً ايده بكلمة الشرف . وهو ان الحكومة الانكليزية تعترف باستقلال العراق وتساعد العراقيين بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب . كل ذلك في مقابل معاهدة نعقدها والحكومة البريطانية تضمن لها الحق ان يكون المستشارون والاخصائيون في حكومة العراق من الانكليز فقط وتضمن لها ايضاً بعض الحقوق في اقتصاديات البلاد ... وهم اليوم يقولون اني انقلبت عليهم . وليس في ما اقول وافعل غير الثبات على العهد والولاء. هذا وعد المستر تشرشل . كلمة شرف بالغاءالانتداب، والآن يا اخي امين تجيئني حكومته بمعاهدة تبتدىء بذكر الانتداب وعصبة الامم ثم تكرر هذه الالفاظ في اكثر موادها . لا والله . لا اوقعها ولا آذن بتوقيعها . ولا تتألف وزارة جديدة [1] قبل ان يجيئوني بخطة صريحة وكلمة صريحة بانهم سيبرون بالوعد .

هب ان هناك سوء تفاهم او ان المستر تشرشل وعد وعداً حالت بعد ذلك السياسة الانكليزية دون تنفيذه ، فموقف الملك فيصل مع ذلك لا يُقدح به واكثر العراقيين يرفضون الانتداب ويمقتونه . فهل يسلام يا ترى اذا فضل ان يكون ملك العراق على ان يكون فعلًا مأمور الانتداب وفوق يده يد المندوب السامي ؟ ولكن هناك امراً آخر لا يتغاضى عنه من أحب العدل والانصاف . ان فضل الحكومة الانكليزية في تتويج الملك فيصل يوازي في الاقل فضل العراقيين الذين بايعوه . فقد كان في البلاد يوم وصوله الى العراق وقبله عدد من طلاب المُلك منهم الشيخ خزعل خان حاكم عربستان فانسحب

(١) كانت حكومة الانتداب تحاول يومئذ اعادة تأليف وزارة النقيب .

بايماز من الانكليز . ومنهم ذاك الداهية العراقي السيد طالب النقيب الذي كان يطوف البلاد يومئذ بصفته وزير الداخلية ساعياً في سبيل المجد الوهاج ، طالباً العرش والتاج ، فتعقبه الانكليز والقوا القبض عليه بحيلة لا تليق بهم واجلوه عن البلاد . وكان نقيب بغداد السيد عبد الرحمن عونهم الاكبر على ابن نقيب الموصل السيد طالب . لذلك قيل ان النقيب كان النصير الاعظم لفيصل وهناك الامير عبدالله الذي كان يؤثره العراقيون على اخيه . اما طريقة الانتخاب فيكفي ان اقول ان الموظفين السياسيين في الالوية كانوا يديرونها .

ليس الملك فيصل ممن ينكرون الجميل . ولكنه بين جميلين ، هما احرق من نارين ، جميلُ من سعى في سبيله وجميلُ من بايعه . وفي الاثنين مبدآن لا يخطىء من يروم الحقيقة الوطنية في تفضيل مبدإ من بايع منهما على مبدإ من سعى . على انه من الخطل ان يعادي الملك الانكليز او ان تعادي الامة العراقية الحكومة البريطانية . قال جلالته بصراحة لا صراحة بعدها : — تراني اليوم محاطاً بالاعداء ولا صديق لي غير الانكليز . فمن اين لي بحليف لو شئت المحالفة . في الغرب ، في سوريا الافرنسيون وهم اعدائي . وفي الشمال الاتراك وهم يكرهونني . وفي الشرق الاكراد وقد تفلتوا من يدي . والعجم وهم يدسون الدسائس بواسطة الشيعة على حكومتي . وفي الجنوب ابن سعود وهو دائماً يهددنا بالاخوان . من لي اذاً غير الانكليز ؟ وهل يعقل اني انقلب عليهم ؟ بل هم المنقلبون يا اخي امين ، هم يعدون الوعود ولا يبرون بها .

عاد جلالته الى وعد المستر تشرشل فذكرني بجلالة ابيه يوم كان

يضرب لي الامثال ويرمز بالرموز ليبرهن على انه من النادر ان يجد المرء من يفوق الانكليز في المراوغة والتلون ونقض العهود . ـ يطلبون مني التصديق على معاهدة لا تمكنني من تأسيس حكومة ثابتة قوية — والحقيقة انه لو عقدنا هذه المعاهدة يستحيل علينا القيام بها . . ترانا الآن نعجز عن تأسيس جيش وطني لان العراقيين لا يلبون النداء ، لا لان الوطنية فيهم ضعيفة . لا . لا . ولكنهم يقولون : اذا كان الانكليز ينوون احتلال البلاد تحت طي الانتداب فليدافعوا هم عنها . اوَ لا ترى الحق يا اخي في هذا القول ؟

كان يتكلم جلالته بصوت هادىء وكان النور في عينيه ساكناً . مع ذلك كنت ارى في اناملهِ دليل الاضطراب اذ كان يخرج الخاتم من بنصره فيلعب به كأنه سُبحة ثم يعيده اليه . وعندما كان يتكلم عمن يحيط به من الأعداء رفع السدارة عن رأسه ووضعها على الديوان فانار جبينه العالي وجهه فتراءى فيه شيء من الحسن جليل ، ولا سيما ان لونه الحنطي كان لا يزال مائلاً الى الاصفرار . ان في الملك فيصل حسناً جذابا ، وان في حديثه لهجة بليغة مقنعة . ولكن الغم الذي يكمن في قلبه يظهر مراراً في طرفي فمه وفي ابتسامه .

اني اعتقد ان في الملك فيصل مزية روحية تحبب اليه المثل الاعلى في الحياة على انه وان كان ملكا يرى نفسه في هذا المضمار مثل كل من تعشق الكمالات ، وسعى اليها جاداً ، فرأها كقوس قزح بعيدة دائما عنه . وهذا في نظري احد اسباب الغم ، رفيق جلالته الدائم ، وان توارى احياناً عن الابصار . هـــو الغم الروحي الذي يتضاعف في علو المناصب وخطورتها فيكون في الملوك ، وان ندر ، أشدّ منه في غير الناس .

قد تشرفت بمقابلة الملك فيصل ومجالسته ومحادثته في احوال شتى، وسمياً وغير رسمي، في البلاط وخارج البلاط ، على المائدة الملكية والى السماط البيتي ، فلم اره مرة ناعم البال مطمئنا . بل كان الغم مثل الظل في اذار يظهر في مجلسه ويختفي اذا تكلم واذا سكت .

دُعيت الى مأدبة اعدها في القصر كان جالساً اليها في صفين متقابلين عشرون من كبار موظفي الحكومة العراقية والوجهاء وعشرون من رجال حكومة الانتداب وبعض حريمهم . وكان جلالته جالساً في الوسط والى يمينه قرينة المندوب السامي اللادي كوكس والى شماله القائد العام للجيش الانكليزي في العراق . وكان قبالة الملك اخوه الامير زيد والى يمين الامير المندوب السامي والى شماله آية النساء في العراق وشمعة سياسته الخاتون جرترود بِل . وكان بيني وبين المندوب السامي سيدة انكليزية . وقبالتي سيدة اخرى ، فعلمت من الواحدة انها حزينة جداً لانها تحب الموسيقى ولا تستطيع ان تقتني « بيانو » في بغداد ، واخبرتني الاخرى بان زوجها ، وهو احد المستشارين ، لا تهمه الازياء ولا قراءة الروايات . وكان القائد العام يحدث جارته بما صدر حديثاً من الرويات في لندن . ثم سمعت السر برسي كوكس ، وهو من غواة الصيد وله المام بعلم الحيوان ، يسأل ما اسم ال Badger في اللغة العربية فساح السؤال حول المائدة شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، وعاد الى فخامة المندوب خائب الامل .

اما جلالة الملك فكان اثناء المأدبة ، منذ قدم الحساء الى ان جاء الخدم بالقهوة ، صورة من صور اليأس المحزنة ، وقد احاط نفسه

بسيدة لا تحسن العربية وبقائد قاتم الجبين لا يحسن كذلك العربية ولا الافرنسية .

قد رأيته غير مرة يتثاءب وما سمعته والمندوب السامي يتحدثان ولو عن الطقس . وقلما هم ذلك الانكليز . فلا اظنهم ما عـدا المس بلْ احسوا بواجب في مثل هذا المقام تفرضه عليهـم في الاقل آداب المائدة فلا يتحدثون بامور خصوصيةلا تهم جلالة الملك ولا تهم المدعوين من الوطنيين . فقد رأيت حتى جعفر باشا ، وهو يحسن الانكليزية ، يجتهد في محادثةجارته التي ابت ان تخرج من موضوع الرواية الانكليزية الاخيرة ، وما يهم العراقيين بـل الشرقيين يا ترى من روايـــة انكليزية تبحث في احوال اجتماعيـــة محلية وقتية في قرية منقرى انكلترا ؟

اما جاري الاخر مجيد بك الشاوي ، وهو احد الاربعـة الذين يكفرونهم في العراق [1] والرجل الوحيد الذي تجاسر ان يلبي الدعوة الملكية في ثوب عادي ، فلم يكن ليهتم بحديث الخواتين والمستشارين بل كان يحسو الشمبانيا الكأس تلو الكأس ، ويضحك لنكات جاره سكرتير مجلس النظار السيد حسين افنان . وقد كان لمجيد بك فضل على جلالة الملك تلك الليلة لانه في سلوكه فتح باباً للمجون . كان واقفاًعند الوداع الى جنبي فقال له الملك وهو يشير الى شربه الخمر . شفتك والله شفتك . فأجاب الشاوي وهو يشير الي — لم ادرك وجه الشبه في ذاك الحين — هذا صديقي لانه صديق المعري . ونحن يامـولانا لا نعرف غـــير المعري والخيام . فضحك الملك فيصل وكانت ضحكته الاولى

---

(١) الثلاثة الاخرون هم : جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وكاظم الدجيلي . وسيجيء الكلام عليهم ولهم .

في تلك الليلة الحافلة بكبار العراقيين والانكليز ، المشعشعة بنياشين الوزراء وحلي الخواتين .

اني اذكر مأدبة اخرى خارج القصر وخارج المدينة ، مأدبة ويوما في البساتين وفي معزل عن الرسميات الغربية . هنـاك في شرقي بغداد على نهر ديالى ناحية بعقوبـــة وهي جنة العراق الشمالي : وبالقرب من بعقوبة بلدة على شاطىء النهر تدعى الهُويْدِر ، فيها ملاّك كريم هو فخري بك آل جميل دعا جلالة الملك وحاشيته لقضاء يوم في ضيافته . ودعا ايضاً بعض الانكليز ، منهم المس بـل والمستر كورنواليس مستشار الداخلية ، وصديقهم السيد محمود ابن النقيب .

نُصب السرادق بين اشجار الليمون والرمال ، وفُرش الطريق اليه بالسجاد ، ومدت المائدة تحت النخيل المزين بالذهب والياقوت من التمر ، وكان الهـواء مفعماً بطيب الرياحـين والازهار ، والطيور تغرد على الافنان وفي مخبآت الادغال ، والكروم مثقلة بافخر العنب المتعدد الانواع والالوان ، والمس بـل تروح وتجيء حاملة غصناً من الرمان او عنقوداً كبيراً من العنب فتقدمه جاثية لجلالة الملك .

وجلالة الملك — لله من غم يأبى الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين في أجمل بقعة من ارض الله . لله من غم يجلس فوق العرش ويلصق بصاحب العرش حيثما حل وجـال . لله من غم لا يحترم حتى الانكليز ، وقد يكون له في الانكليز ما يرويه ويغذيه . اظـن ان المس بل كانت تدرك ذلك فتحاول بما لها من فصاحة ولطافة ان تخفف وطأته ، وتبدد في الاقل ظلاله من بساتين آل جميل في ذاك اليوم الجميل ولكنها واأسفاه لم تفلح . وقد تكون في ما اسرفت زادت الظلال قتاماً .

جلس الملك في الخيمة بعد ان جال في البستان يلعب بسبحته ويدخن السيكارة تلو السيكارة . وكان التعب بادياً في وجهه والحديث لا يجيء إلا تكلفاً واجتهاداً. هي السياسة وهموم العرش. اضف اليها هماً جديداً جاء من الشمال . فقد كان لانتصار مصطفى كمال وقع في العراق لم يسر الملك ولا الحكومة . وكان بعض الموظفين في الموصل يفاوضون بطل الترك في الاناضول . وهؤلاء الانكليز لا يدعون جلالته ساعة وحده، يلزمونه كالظل في كل مكان . حبذا الحكمة في سلوكهم وفي سلوك الوطنيين الذين يظنون ان المآدب لا تتم دون ان يدعى اليها احد من دار الانتداب .

ان الملك فيصلًا لاقرب ملوك العالم اليوم الى الديمقراطية ، الامر الذي لا يروق على ما اظن الانكليز الشغفين بابهة الملك .وقد يضر بجلالته سلوك لم يتعوده الموظف الانكليزي فيسيء فهمه او يعتمد الاساءة . لا احد ينكر ان يوماً في البساتين لجدير بان يكون عدو الرسميات. فلا بأس اذا جلس جلالة الملك على الديوان. وهو في ثوب قائد الجيش العراقي، ورفع خوذته . ولكن الموظف في الحكومة الذي يجلس قبالته على كرسي ويمد رجليه ، كالو كان في بيته ، ولا ينزع قبعته عن رأسه ، يسيء الادب ويمتهن حرمة التاج. لا اظن ان موظفاً انكليزياً مهما علا منصبه يجلس كذلك في حضرة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، والملك فيصل دقيق الشعور شديد الحس، لا يستطيع ان يقول الكلمة التي تؤلم او تسيء ولا يتبسط في الحديث ويجيد اذا كان في حضرته من لا يرتاح اليه. خصوصاً اذا كانت مجالسه كلها التي حضرت خالية من الذكاء الحر او من الحرية المتشردة — البدوية .

ان الملك فيصلاً لفي حاجة في بلاطه وفي مجالسه غير الرسمية الى

من يحسن النكتة ، الى ظريف خفيف الروح ، الى نديم رسمي . قد عرفت اكثر من في القصر وما عرفت فيهم من يستطيع ان يقوم بهذه الوظيفة المهمة .

كنا ذات ليلة جالسين الى مائدته الخصوصية ولم يكن غيري وناجي بك السويدي وحسين افنان من خارج البلاط فسألني جلالته سؤالاً ادهشني لاول وهلة، ولكني علمت انه كثيراً ما يتباحث وكاتبا سره الفيلسوفان بمثل هذه المواضيع. قال جلالته: ما رأيك يا امين في التطور وفي الثورة؟ أتعتقد ان عوامل العمران والتمدن الحقيقية هي اصح في التطور أو في الانقلاب ؟ فقلت: اني ممن يعتقدون بالنشؤ والارتقاء في الطبيعة وفي الاجتماع ، وان التطور معراج الانقلاب الحقيقي المفيد الثابت وان الطفرة محال ، وان للثورات دائماً رد فعل يعود بالناس الى ما كانوا فيه ، وغيرها في هذا الباب .

فعارضني كاتب سر جلالته رستم حيدر ، وهو شيعي سوري من بعلبك ، فشرع يتكلم بالثورات والانقلابات في السياسة وفي الدين كأنه دنتون او كأنه لوتيروس . النشوء بطيء، التطور ضرب من البلادة . والامة التي تنتظر وتتوكل عليه تفقد مثل الامة الانكليزية كثيراً من مزايا النفس الجميلة التي تظهر في الفنون والاجتماعات .

حانت مني اذ ذاك التفاتة الى الفيلسوف الآخر في الديوان الملكي، الى ذاك الانكليزي في خلقه وعقله ، العربي في قلبه وشعوره ، الى امين الكسباني فرأيته يرفع بحاجبيه ويهز برأسه ، ثم سمعته يقول مخاطباً الملك : رستم يا سيدنا بلشيفي في آرائه .

فقال حسين افنان : والحمدلله انه كذلك في آرائه فقط . فضحك جلالته ضحكة كانت الاولى والاخيرة تلك الليلة . ثم سألني سؤالاً آخر

ظننته مضحكاً ولكنه لم يضحك احداً .

ـ ما رأيك يا امين في العمامة والبرنيطة . واي شكل تظنه يصلح لنا في العراق ؟

فقلت : ان العرب في تهامة وفي اليمن يلبسون الشبقة اي البرنيطة وهي صنع ايديهم ليقوا رؤوسهم حر الشمس . وهم عرب مسلمون. فما ضر العرب في الاقطار العربية الاخرى وخصوصاًفي التي يشتد فيها الحر مثل العراق لو اقتدوا بهم ؟

وكان ما قلت بخصوص الشبقة في اليمن جديداً عند كل الحضور ما عدا جلالته لانه قاد مرة حمـلة على الادريسي في تهامة ، وعلم بتلك الشبقات الكبيرة المصنوعة من القش . فدار الحديث على الخوذة وقبعة البلاط : السدارة، والطربوش، ولم يجيء احد بكلمة تضحك اثناء البحث على اننا عندما صعدنا من غرفة المائدة الى ردهة الاستقبال وجلس الملك ورستم والسويدي والكسباني الى طاولة صغيرة يلعبون الـ « بريـدج » خرجت والباقون الى الرواق فاسمعنا هناك افنـان نكات وددت من اجل جلالته لو انه اسمعنا بعضها على المائدة .

لا اظن ان ما يسود الملك فيصلاً من الغم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا اظن ان تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة وذاك السكوت الذي يسبق الكلام الى القلوب . ان فيصلاً، في ما لمع من نجم سعده وهوى في البسع السنوات الاخيرة، لمن الامراء القليل عددهم في العالم اليوم . فقد دانت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث في تسابقها حوله وعليه ،فلم يتمكن لسرعتها وتعددها من الانتفاع بها.

هوذا امير عربي كريم في دائرة خضراء من الشهرة ، حولها دائرة حمراء من السياسة الوطنية ،يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية.

وهذه لعمري حقيقة مآدب الغم – مأدبة الشهرة التي يتلوها ومـــع الرأس ، ومأدبة النصر في الحرب يتلوها فشل السياسة ، ومأدبـــة الكرم العربي الممدودة فوق ضريح المطامع العربية .

اما وقد اشرت الى اسباب الغم في جلالة الملك ، فينبغي لي ، وانا من المعجبين بالبيت الهاشمي الذي نصر الاحلاف وجند الوفاً من العرب على الاتراك والالمان في الحرب العظمى ، ومن المحزونين لانه لم يفز بكل ما كان يبغيه ويحارب من اجله ، ومن الطالبين الحقيقة قبل كل شيء ، ينبغي لي ان اعيد النظر في تلك الحوادث التي كان الامير فيصل قطب دائرتها . هي جزء من سيرة حياته التي اصبحت جزءاً من التاريخ العام .

الثوره في العراق

شهر الحرية شهر شؤم على طلاب الحرية — ولا زعامة ظاهرة — خسارة العراقيين والانكليز — فساد الاخلاق في اوروبا — روح التمرد في الشرق — حكومة هندية في العراق — ضعف السيادة المنوية — تأجج الفتنة — العشائر والمفاتيل — السر آلمير هالداين — المعاقل الانكليزية — سوري مقتدر حكيم — السر آرنلد ولسون — في سياسته سوط ونكتة — السر برسي كوكس — في سياسته كثير من الزيت — بلاغ المندوب السامي — حكومة وطنية — السيد عبد الرحمن النقيب الجيلاني — اعضاء المجلس الوطني — اعمال المجلس — السيد طالب النقيب — العراق يطلب ملكاً — السيد طالب يلبي الطلب .

ان الشهر الذي استقرت فيه السيادة الافرنسية في سوريا لشهر شؤم على السيادة البريطانية في العراق . فقد اختار الافرنسيس تموز ، شهر الحرية ، ليقاوموا شعباً مجاهداً في طلب حريته ففازوا . وقد حاول العراقيون في هذا الشهر ان يخرجوا البريطانيين من العراق فلم يفلحوا . وكانت الثورة قد اشتعلت وتأججت في انحاء العراق كلها ، من النجف الى بعقوبة ، ومن المنتفق الى الموصل وبلاد الاكراد .

جاءت الكلمة من العلماء ، وفي مقدمتهم كبير المجتهدين في النجف ، فقامت العشائر ترددها وتعمل بها ، فارسلت روح التمرد في البلاد سمومها ، فالتهمت الاخضر واليابس في المضارب وفي المدن ، وعمد الوكلاء السياسيون لبريطانيا الى البرق والتلفون يطلبون النجدات من البصرة ومن العاصمة . انه لا عجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال البريطاني .

هوذا بلد لا صحافة فيه تذكر ، ولا طرق مواصلات حديثة صالحة ، ولا قيادة . تعمه الثورة فتربط اطرافه بعضها ببعض ، ثم تستمر اشهراً وهي تزداد قوة وهولاً .حتى ان العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين .

قد انفقت الحكومة البريطانية ملايين من الليرات وفادت بالوف من الجنود لاخمادها، وكانت خسارة العراق كذلك كثيرة فادحة. هي ثورة شبيهة بزلزال هائل لا بحادث اجتماعي يديره مع ذلك العقل والحكمة، فلم يكن فيها شيء من الخير لأهل العراق ولا للحكومة المحتلة .

بيد انها نبهت البريطانيين الى حال في البلاد العربية بل في الشرق جديدة، وذكرتهم بحال في اوروبا هي بنت الحرب العظمى وام الانحطاط المعنوي، تلك الحال العامة وقد كادوا ينسونها. ان لكل عمل رجلاً ولكل رجل يوماً، ولكل يوم سياسة . قد كان البريطانيون السبب الأول في ثورة العراق في صيف ١٩٢٠ لأنهم نقلوا الى البلاد حكومة هندية قديمة عقيمة، هندية في طريقتها ، هندية في سياستها ، هندية في رجالها . والهنود بجملتهم لا يفهمون العرب ولا يحترمونهم ، وقد كان رئيس الحكومة البريطانية في هذه الفترة رجلا من الطراز الاول من ابناء بريطانيا الأشداء الذين شادوا في الماضي معالم مجدها غير انه وجد في زمان غير زمان اجداده ، وبين شعب غيرت نفسيته وعقليته حوادث الايام.

السر آرنلد ولسون (١) الحاكم بالوكالة يومئذ في العراق هو كهل في العقد الرابع من العمر ، ومن الانكليز الذين كانوا يحملون السوط في القرن الماضي ويحكمون بموجب ضميرهم لخير انكلترا اولاً ثم لخير الناس . وكانوا في تفوقهم محسنين ، وفي ظلمهم عادلين ، قوتهم في

(١) Sir Arnold Wilson .

يقينهم ويقينهم في اخلاقهم ، واخلاقهم متأصلة في فضائل شعب مجيدة، اظهرها الشرف والعدل والصدق والثبات . بيد ان هذه الفضائل امست اليوم من التقاليد المحترمة وقد بعيد الزمان الى التقاليد الحياة والعمل .

قام السر آرنلد ولسون يمثل في العراق امة افقدها الحرب كما افقدت امم اوروبا جمعاء كثيراً من قواها المعنوية الروحية ، فصارت تفادي بعدلها في سبيل شرفها، او تتنزل عن شرفها لتحفظ مقامها ،او تتساهل بالصدق لتظل ثابتة القدم مسموعة الكلمة ، او تتغلب وتتلون دفاعاً عن نفسها وكيانها. رجل من حديد يمثل امة من فولاذ اعتراه الصدأ ،قام في العراق يحكم باسم الله وبريطانيا العظمى ، فوجد شعباً ظنه كشعوب الهند في القرن الماضي يقبل بالتأديب ويشكر دائماً المؤدب .

قلت ان الحرب افقدت الامم الاوروبية كثيراً من قواها المعنوية ، الادبية والروحية ،ولم تُكسب الشعوب العربية بل الشرقية غير حب الحرية والاستقلال ونزعة في سبيلهما لا تماثلها شدة حتى النزعات الدينية . ولكن الحروب والثورات، اذا كسرت قيود الظلم ،لا تعلّم المظلومين النزاهة والحكمة والعدل ، ثم العمل المدني الذي فيه هذه الفضائل الثلاث. فقد الانكليزي من قواه المعنوية ما كانت تقدر في الاحكام بنصف نفوذه، ولم يبق في العربي بل الشرقي من الخوف والاحترام ما كان يقوم مقام النصف الآخر . كانت بريطانيا العظمى تحكم ثلاثمئة مليون من الناس بثلاثين الفاً من الجنود . هي حال ولّت ايامها . فقد ارسلت سبعين الفاً من جنودها الى العراق، وسكانه لا يتجاوزون الثلاثة ملايين، ولم تستطع ان تخمد الثورة في اقل من سبعة اشهر .

السبب بسيط . ان كلمة الحاكم العادل المستبد تستوجب في تنفيذها، اذا كان لا يحترمها الناس، قوة الشرطة او قوة الجيش. فكيف بها اذا كان

الناس ينفرون منها ويقاومونها. زرع السر آرنلد ولسون، اثناء قيامه مقام المندوب السامي، بذور الفتنة، وهو متيقن انها بذور الحكمة والخير، وشاركه في الزرع وفي الحصاد رجل آخر من رجال الحكم الانكليزي هو السر آلمر هالداين[1] قائد الجيوش البريطانية يومئذ في العراق. ويظهر ان السر آلمر كان احرص على صحته وراحته من السر آرنلد. فقد اعتاد في الهند ان يتنقل مع الحكومة في كل فصل من فصول البرد والحر، فجاء العراق في آخر الشتاء، وما كاد يدخل الربيع الذي هو النصف الاول من صيف هذا القطر حتى احس بحرّ حمله على التجوال في جبال العجم. ثم نقل مركز القيادة العامة الى تلك الجبال بينما البلاد كانت تتمخض بالثورة. اضف الى ذلك ما كان يحدث بينه وبين وكيله المندوب السامي والوكلاء السياسيين من الخلاف الذي زاد في خلل الادارة وفي امتداد الفتنة. حتى ان السر آرنلد بعث ذات يوم يشكوه الى الحكومة بلندن فجاءت برقية من الوزارة الحربية تسأل القائد العام ماذا يعمل في جبال العجم؟ ماذا يعمل في الجبال ونيران الفتنة تشتعل في السهول؟

اما الغاية من هذه الثورة فقد انحصرت كما يظهر بأمرين، اخراج الانكليز واعلان الاستقلال. على ان نهضة يديرها او يوعز بها، او يدعو لها المجتهدون لا تخلو من نزعة دينية تتخلل دعوتها السياسية. فقد كان المجتهدون في النجف وبعض الزعماء مثل يوسف السويدي وجعفر ابي التمن يعملون سراً في اثارة الفتنة. اما العشائر فقد كانوا مستعدين وهم دائماً يستعدون لتلبية اي دعوة تخلصهم من دفع الضرائب الباهظة التي تفرضها الحكومة عليهم وتحاول تحصيلها بالطرق الفعالة، القانونية

(1) Lieutenant Gen. Sir Aylmer Haldane

وغير القانونية . فما همهم شيء ولا عرفوا بشيء من مقاصد الزعماء المحتجبين الخفية .

وقد كانت للعشائر قوة في الدفاع والقتال عجزت دونهـا الجنود البريطانية . ارض العراق كما هو معلوم مسطحة بسيطة لا يكاد يكون فيها ملجأ يلجأ اليه المقاتلون في الغارات او مكمن يكمنون فيه فبنى العشائر لهذه الغاية المفاتيل . والمفتول هو برج صغير مستدير ، علوه من خمسين الى سبعين قدماً ، فيه درج غالباً لولبي يتصل بغرفة في رأسه فيها كوى كبيرة من الداخل صغيرة من الخـارج يرصد منها العدو ويطلق منهـا النار . وهي تختلف حجماً فيمكن ان يحاصر فيها من الخمسة الى العشرين رجلاً عدة ايام . قد رأيت منهـا . في اليمن وفي نجد ولكنها قليلة هناك .

اما العراق فقد كان فيه الوف من المفاتيل عند دخول الانكليز . بل كان في بعض الجهات لكل بيت او في الاقـل لكل حي مفتول . المفاتيل ! انما هي الويل الاكبر على الجنود الانكليزية ، وهم في الفلوات معرضون دائماً لنارها ولا كنف يحميهم منها . فلا عجب اذا عـدت حصن العراق المنيع ، والسلام الوحيـد الذي يخشاه العـدو . ولا عجب اذا كان العدو في الزحف والهجوم يسعى اولاً في هدمهـا ، ثم يبني في السهول ما يقوم مقامها لجنوده وهو المعقل او مـا يسمونه بالانكليزية Block House وليس هناك ما يحول دون ذلك . فالمعقل مربع بسيط له اربع نوافذ عالية وليس له باب ، وفي الداخل مواقف للجنود تمكنهم من الرصد واطلاق النار . قد بنى الانكليز الوفاً من هذه المعاقل ، وفي الطريق من البصرة الى بغداد كثير منها وليس بين الواحد والآخر اكثر من مسافة ميل واحد .

اما هدم المفاتيل فيستلزم قوة وشجاعة واستبسال . وقد بذل الانكليز فوق ذلك كثيراً من المال . فكانوا يتقدمون الى شيخ القرية او شيخ القبيلة بشرك او بمعروف او برش من الرصاص او المال ، فيضغطون عليه او يستغوونه او يرشونه او يغدرون به — والحرب خدعة . قد بذل الانكليز كثيراً من المال ومن الرجال في هدم المفاتيل . ولم تكن الطائرات التي حملوا بها على العشائر لتساعد كثيراً ، الا اذا كانت المفاتيل داخل القرية التي يضربونها ، فيهدمون ويحرقون فيها ليهدموا تلك الحصون الصغيرة المخفية او ليروعوا اهلها المتمردين . لا اظن ان في مظالم الحكم مظلمة تورث العراقيين بغض الانكليز وتثير عليهم ثائرة الاحقاد مثل الطائرات ، ذاك السلاح الطائش الاعمى الذي يقتل النساء والاطفال والابرياء مع المذنبين .

وعلى الرغم من الطائرات قد حاصر الثائرون كثيرين من الضباط والوكلاء السياسيين وهم في مراكزهم يدافعون عنها الى ان تجيئهم النجدة او يُقتلوا . وقد كان اكثر الموظفين من الجندية فلم يحسنوا الادارة خصوصاً في بلاد اجنبية ، ولم يكن بينهم وبين اهلها شيء من العطف ، فضلاً عن الخلل في الادارة العسكرية التي كانت قيادتها العامة معتصمة في جبال العجم . فلا عجب اذا استمرت الثورة سبعة اشهر والعرب فيها فائزون بالرغم عن المعاقل المشيدة والمفاتيل المهدومة .

وعلى ذكر المفاتيل اذكر سورياً سعى في هدم مئات منها وكان من المفلحين . فقد كان في خدمة الانكليز الادارية بعض السوريين من المقتدرين المخلصين ، كما جاء في تقرير المندوب السامي الى دائرة

المستعمرات . « وقد كان احد سوريينا المقتدرين المخلصين عوناً كبيراً لنا في هـذا الموقف الحرج » ولكن كاتب التقرير لم يـذكر اسم ذاك السوري . هو الجندي المجهول . فها اني عملاً بالواجب الانساني لا الوطني اذكر اسم من يستحق ضعفي هـذا الثناء . هو سوري من يافا كان نائب متصرف البصرة يوم كنت هنـاك ، فخدم الحكومـة العراقية الانكليزية في ايامها الاولى العصيبة خدمات جليلة في وظائف شتى ، وحاز جزاء خدماته في النجف خصوصاً وسام الدولة الهندية .

كان جاد غاوي معاون الوكيل السياسي في الشامية [1] وكانت المفاتيل في تلك الايام كما قلت اشد اعداء الجيوش البريطانية وامضى سلاح بيد العراقيين . فتمكن جاد غاوي في الشامية من حمل العرب على هـدم مفاتيلهم ولم يبذل من اسباب النجاح غـير اللطف والمعروف وقوة الاقناع . داراهم وهو في دارهم ، فاكتسب ثقتهم وحب مشايخهـم ، فهدموا من حصونهم ما يتجاوز الالفين منها ، وكانوا بعد ذلك من اصدقاء الحكومة والانكليز . قد لا يذكر اسم جاد غـاوي في التقارير الرسمية ، ولكنني سمعتـه حيثما سرت في العراق ومـا سمعته مقروناً بغير كلمات الحب والتكريم .

اما السر آرنلد ولسون ، فلا يزال في العراق من الانكليز لا من العرب ، من يعجب به بالرغم من هذه الثورة ، ويستحسن خطتـه السياسية ، ولا غرو ، فهو على نزقـه وتسرعه وعنفوانه حر الطبع ، صريح الكلمة ، طلق المحيا . وهو حنطي اللون ، اسود الشعر والعين ، كأنه ايطالي او اسباني . وله شيء ممـا كان لروزفلت من المغناطيس

(١) هو قضاء الشامية من متصرفية الحلة وعدد سكانه سنه ١٩٢٢ نحو خمسة وستين الف نفس كلهم شيعيون ومن العشائر .

في المصافحة والحديث. قد كان الرئيس الاميركي الشهير يضرب بيده على كتف من يحييه عند المصافحة ، فاصبحت من عاداته المحبوبة . اما السر آرنلد فلا يضرب بيده بل بلسانه او باشارة من اشارات النفس التي تظهر في اللحظ او الابتسام او في نبرات الكلام . قد اجتمعت به في البصرة بعد ان رجع من انكلترا ليرأس شركة النفط الانكليزية الفارسية في عبّادان . فسلم كأنه من المعارف . وعندما تبادلنا السلام تبادلنا كلمة بخصوص السر برسي كوكس . وكان قد علم السر آرنلد باني انتظره لارافقه في السفر الى العُقير فقال على الفور: ستنتظر طويلاً. فقلت : اذا كان لا يصل في هذا الاسبوع اسافر وحدي . فقال: حسناً تفعل . هي الطريقة الوحيدة في النجاح فخطر في بالي اذ ذاك ما قاله الشاعر العربي فترجمته له .

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

فقال السر آرنلد على الفور : عند العرب الشعر ولا ريب ، وليس عندهم العمل .

هوذا الرجل الذي كانت سياسته في العراق من العوامل الاولى في ثورة سنة ١٩٢٠ . ولا اظنه اذا ذُكرت مرة يحس بشيء من الندم، لانه كان ولا يزال يعتقد ان القوة في الحكم بالرغم عن التعنيف خير من اللين والفوضى . اما الرجل الذي جاء في تشرين الاول من هذه السنة ليطفىء ما تبقى تحت الرماد من جمرات الثورة ، ويؤسس حكومة وطنية لاهل العراق « وفقاً لرغائب جلالة الملك » فهو نقيض السر آرنلد على خط مستقيم .

السر برسي كوكس [1] رجل طويل القامة، نحيل الجسم، بيضاوي

(١) دخل السر برسي كوكس في سلك الحكومة الهندية سنة ١٨٩٠ . وعين

شكل الوجه ، دقيق الانف والشفة ، ابيض الاديم ، ازرق العين . هو انكليزي لا غش فيه . ظاهره ، وهو في سكون ، ينبيء عن نفس رائقة ولكنها ليست بشفافة . واذا كان من اضطراب هناك فقلما يبدو للنظر . في لطفه ما يدفيء ولا يشع ، وفي صراحته شيء يشير غالباً الى التعمد . هو من السياسيين الذين يحتفظون بسرهم ، وان كان لا يهم ، كأنه رأس مالهم في الحياة . واذا كشف عن زاوية منه فبعد ان تكون الحوادث قد كشفت عنه الستار كله .

ان سكوت السر برسي هو غالباً افصح من نطقه . وان عمله السياسي ، وان وقف فيه احياناً عند حد الغموض او العجز ، لا يخلو من الاخلاص للعراقيين وللعرب . فاذا حصرت النظر في سياسته العربية ارى ان اكبر فضله واظهر حسناته هو هذا الاخلاص ، ولو ظهر في بعض الاحايين في مظهر مائع او في مظهر مؤلم . فقد قضى مدة من حياته قريباً من العرب ولا يزال يحبهم ويعجب بمواهبهم الراقدة ، ويود ان تكون المنافع في العلائق الانكليزية العربية مشتركاً فيها على السواء بين الامتين .

كنت اتحدث وأحد رجال السياسة المعتدلين ، غير العرب ، وكان

....

تابع شرح صفحة ٣٤٢

بعد ثلاث سنين نائب قنصل زيلا في بلاد الصومال ، وانتقل في السنة التالية الى بربره ، ثم عين سنة ١٨٩٩ قنصلاً في مسقط ، ثم قنصلاً عاماً في ابي شهر . وفي سنة ١٩٠٩ اسند اليه منصب المندوب السامي في خليج العجم . وعندما شبت نار الحرب العظمى انتدب لان يكون رئيس الحكام السياسيين لفرقة D من الحملة الهندية لفتح العراق . ثم ذهب بعد الحرب الى بلاد ايران بصفة وكيل للوزير البريطاني في طهران ، وعاد منها مندوباً سامياً لحكومة بريطانيا في العراق .

السر برسي ونفط العراق موضوعنا فقال جليسي : ان في سياسته كثيراً من الزيت . هي استعارة غربية علمية ، وفيها خلا الاشارة الى زيت العراق مغزى لطيف . فالآلة الميكانيكية اذا كثر زيتها يخف صوتها وتنعم في احتكاك اجزائها . ولكنها تقف احياناً من الاحتقان في مفاصلها فيعتريها الخلل . وكثيراً ما وقفت الآلة السياسية في دار الانتداب ، وكان رئيس المهندسين ، بل رئيستهم المس بل ، تذكر في البلاغات بعض اسباب الخلل ، ولا تشير مرة الى كثرة الزيت والاحتقان .

مهما قيل في السر برسي فان وجوده في العراق ، في ما يعد من اهم ازمنة العراق السياسية بعد الحرب ، كان خير ضمين لكرامة انكلترا ومصلحتها ، وخير صلة بينها وبين هذا القطر الناهض من الاقطار العربية . فقد حدث في عهده من الحوادث ما ستكون بهمة العراقيين اول صفحة مجيدة في تاريخ العراق الجديد .

عند وصول السر برسي في تشرين الاول سنة ١٩٢٠ انتهى الحكم العسكري رسمياً . ولكن شراذم من الثورة كانت لا تزال خارجة في اماكن مختلفة فصوب المندوب السامي باكورة اعماله اليها . فسلمت كربلاء ، وهي قطب الفتنة ، في ١٣ تشرين الاول ثم أنجدت الحامية في الكوفة ، فسلمت على اثر ذلك النجف ، واذعنت عشائر الشامية والديوانية لاوامر الحكومة ، فكان عدد ما جمع من السلاح في هذه النواحي خمساً وستين الف بندقية .

اما في لواء ديالى ، حيث كانت الثورة في اشد حالها ، فقد استمر الأضطراب وما تخلله من الحوادث المؤلمة الى اواخر سنة ١٩٢١ عندما عقدت المعاهدة بين الحكومة ورؤساء العشائر هناك . وظل في الشمال

في نواحي الموصل نفوذ الاتراك ينخر كالسوس في عظم السيـــادة العربية الانكليزية .

عندما باشر المندوب السامي اعماله السلمية اصدر بلاغاً الى العشائر خصوصاً والى اهل العراق عموماً يعلمهم فيه بانـه انتدب ليساعد في تحقيق اماني الامة بواسطة زعمائهـا ، وليؤسس بمؤازرتهم حكومـة وطنية . على ان ذلك يستحيل قبل ان يستتب في البلاد الامن والنظام. ولما توفقت حكومة الانتداب الى ايجاد شيء من ذلك اصدر بلاغـاً آخر يعلم الامة بتأسيس حكومة موقتة الى ان يجتمع المجلس النيابي العام في ١٧ حزيران من سنة ١٩٢١ ، وان هذه الحكومة الموقتـة تتألف من مجلس وطني يحكم تحت مشارفة المندوب السامي في كل الامور ما عدا الخارجية والعسكرية .

ان اصدار مثل هذا البلاغ لمن ابسط الأمور واسهلهـا ، ولكن تأسيس حكومة موقتة ، تحوز ثقة البلاد وتكون مرنة بيد المندوب السامي ، هو من الأمور التي يكثر فيها العقد ولا تخلو من النفاثات .

لا ريب ان بيت النقيب .وعلى رأسه الشيخ الجليل السيد عبد الرحمن الجيلاني ، هو مسموع الكلمة ، محترم الجانب في بغداد بل في العراق . ولكنه في السياسة ، كما هو في الدين ، يؤثر التقاليد على البـدع ، ولا يرفع على الاعتدال حسنة من حسنات الوطنية . وقد تتغلب في اعتداله المحافظة التي يعقم عندها الرأي وتتقلص عوامل التجدد . الا ان ذلك لا يمنع النفاثات في العقد اللواتي تمثلهن المس بل* .

— ان فضيلة النقيب صديقنا ، صديـق انكلترا ، وهو ثابت في صداقته . وان له نفوذاً سياسياً مقروناً بنفوذ ديني لا يضاهيـه نفوذ في البلاد. اذن هو صديق الامة وصديق الانكليز — هو الزعيم. سأعود

الى فضيلة النقيب ومجلسه وسياسته في فصل آخر .

قبل متردداً رئاسة المجلس الوطني الذي كان من اعضائه الاخصائي المالي الشهير في العراق ساسون افندي حزقيل ، والسياسي الداهية السيد طالب النقيب ، نقيب البصرة ، والعالم الفقيه مصطفى افندي الالوسي والوجيه الفاضل عبد اللطيف باشا المنديل . كلهم من اصحاب التجلة والكرامة ، وليس فيهم ممن حارب في الحرب العظمى وكان من الشبيبة الوطنية التي تنعكس في آمالها واقوالها ، وفي بعض اعمالها ، جمال النهضة العربية ، وحقيقتها العالية ، الا جعفر باشا العسكري .

اجتمع المجلس لاول مرة في ١٠ تشرين الثاني واستمر في الحكم الى يوم تتويج الامير فيصل ملكاً على العراق . وقد كان من اعماله العفو عن بعض المنفيين ممن اشتركوا في الثورة ، ومساعدة الضباط العرب الذين خدموا في الحكومة السورية الفيصلية ليرجعوا الى العراق : وتنظيم حكومة مدنية يديرها موظفون وطنيون تحل محل الحكومة العسكرية التي كان يديرها الوكلاء السياسيون الانكليز . ثم باشر المجلس درس انشاء جيش عراقي ودرس قانون الانتخابات التركي وتصحيحه ليطابق احوال البلاد الجديدة .

وكان قد تولى هذا الامر ناظر الداخلية طالب باشا النقيب . غير ان الانتخابات والمطامع الملكية قلما تلتئم خصوصاً اذا كان امر الاثنين منوطاً برجل واحد . بدأت الامة تطالب بتنفيذ قرار ١٧ حزيران الذي اصدرته الحكومة العسكرية واجازته الحكومة الوطنية الموقتة . بدأت تطالب بانتخاب المجلس النيابي العام .

وكان الامير فيصل قد سافر الى اوروبا ووصل الى انكلترا ، وكانت الحكومة الانكليزية تفكر في ملكية العراق وفي نكبة

الامير . اما في العراق فكان قد ولى بعض النـــاس وجوههم شطر الكعبة يستمدون من ظلها المبارك الوحي في تشييد ملكهم الجديـد . فشاع في البلاد امر الملك حسين واولاده ، وبعث بعض اولئك العراقيين يرغبون اليه بان ينفذ احدهم ليتبوأ العرش الجديد .

ازعج الحبر وزير الداخلية الذي فكر ملياً في الامر فرآه متشعبـاً كثير الاخطار . ان للشريف اربعة انجال وفي كل واحد منهم الخـير والبركة . ولكن الامة العراقية تأبى التفضيل، وقد تسيء الأختيار ، فتنقسم على نفسها فيتزاحم ويتهالك الأنجال الاشراف في سبيل مصالحها ... وليس في مثل هذه الحال خير للعراق .

لذلك شرع السيد طالب يطوف في البلاد ليتم اصلاحاً خاصاً في قانون الانتخابات . كانت المادة الاولى فيه ، تلك الـــتي تولى بنفسه نشرها وتعميمها ، أن لا تنتخبوا شريفاً اجنبياً ملكاً عليكم . ويحكم. هوذا السيد طالب وهو مثل انجال الشريف من الاشراف .فهو يتكفل لكم بمن يملأ كرسي العرش ولا يكون التاج على رأسه كبيراً او صغيراً . بيـــد ان المستر تشرشل ، وزير المستعمرات الانكليزية ، وهو يومئذ « طنب سارح » مثل السيد طالب كان يسعى في غـير هذا السبيل .

عاش الملك

ثلاثة يهتمون والتاج واحد – السيد طالب يخطب – المستر تشرشل يدبر – الامير فيصل ينتظر – مؤتمر القاهرة – رجوع السر برسي كوكس الى بغداد – السيد طالب يهدد دار الانتداب – الخواتين يدعونه للشاي – الجنود تحمله على بساط الريح ... المندوب السامي يصدر بلاغاً – الامير فيصل يزور والده بمكة – السفر الى العراق – الوصول الى البصرة – الاستفتاء والمبايعة – التتويج – يعيش ملك العراق – ملكان يتعاهدان – الامة والصحافة تهللان .

ثلاثة في هذه الحوادث التاريخية عظمت همومهم فبلغت الحد الفاصل بين النكبة والنعمة . ثلاثـــة يمالئون الشعب الذي اصبح وبيده التاج والصولجان يهبهما من يشاء ، ويحطمهما اذا شاء ... ثلاثة يهتمون والتاج واحد . اما المستر تشرشل فقد كان همه الاول ان يخفف الضرائب عن الشعب البريطاني ليحفظ السيادة له ولحزبه في الحكومـــة فيضمن لمليكه سلامة التاج وثاني الثلاثة الامير فيصل الذي فقد تاجه في سوريا وراح يطالب الحكومة التي اعتادت – وفي كل عادة شيء من اللذة – ان تضارب خارج بلادها بالتيجان . والثالث سيد من سادات البصرة ، فيه شيء من الاسد وشيء من الثعلب ، رأى الامة وبيدها تاج تبغي صاحبه فجاء يخبرها بان صاحبه النقيب سيد البلاد الاوحـــد . اما اذا احببتم ان ينوب عنه السيد طالب ، وهو نقيب ابن نقيب مثله ، فلا بأس . وراح يطوف البلاد كما جاء في الفصل السابق ليتحقق رغبة الامة .

وجاء المستر تشرشل الى فلسطين ثم أمّ القـــاهرة ليدرس الحـالة السياسية في الشرق الادنى فيدعم بشيء من الاصلاح سياسة الاحرار في الحكومة . هذا ظاهر الغرض من تلك السياحة ، ومن المؤتمر الذي

عقد في القاهرة . دعـــا المستر تشرشل رؤوس الحكومات الانكليزية في بعض الاقطار العربية للمفاوضة فجاء من العراق المندوب السامي يصحبه بعض المستشارين والمس بل ووزير المالية ساسون افندي وجعفر باشا وزير الدفاع .

وجاء الى القاهرة في ذاك الشهر ايضاً اي الشهر الثاني من سنة ١٩٢١ الامير فيصل وحاشيته – متنزهين . فصفا الجو في العراق للسيد طالب ثم اكفهر كما سيجيء الكلام . والسبب في ذلك ، مهما قيل في التقارير الرسمية ، انما هو مؤتمر القاهرة . – قد اجتمعنا ايها السادة لننظر في طريقة صالحة تمكننا من تخفيض القوات الانكليزية المسلحة في الشرق الادنى دون ان يلحق شيء من الضرر بالسيادة الانكليزية . ثم للنظر في تأسيس دائرة خصوصيـــة للشرق الادنى في وزارة المستعمرات لتوحيد السياسة والعمل . وبكلمة اخرى ، بكلمـة وجيزة صريحة ، يجب ان نخفض نفقات حكومات الانتداب لنرفع عن مناكب الشعب البريطاني اثقال الضرائب . واننـــا نرى ان تنظموا في العراق جيشاً من الوطنيين فنتمكن من سحب جنودنا من تلك البلاد ... قد اجتمعنا ايها السادة ... ملك العراق ؟ نعم . نعم ... وكان الامير فيصل وحاشيته قد امّوا القاهرة كما قلت ترويحاً للنفس .

عاد وفد العراق الى بغـــداد فاصدر المندوب السامي بلاغاً في ١٢ نيسان قال فيه انما قرره مؤتمر القاهرة يجب ان يعرض على الحكومة بلندن قبل ان يعلن . وكان السيد طالب قـد امعن في التطواف والخطابة ، وتوسع في سياسة الانتخابات والتاج ، فازعـج فريقاً من الامة وخصوصاً فضيلة النقيب الذي كان يدرك من غوامض الامور ، وهو الصوفي الكامل ، ما تعجز دونـــه روحية طالب باشا وعقلية

امثاله . اغمض النقيب الاكبر عينيه ونظر الى ما وراء حجاب الغيب ، فرأى هناك وزيراً من كبار الوزراء وخاتوناً من كبيرات الخواتين ، دع النفاثات في العقد ، فسمع الاول يقول والثانية تترجم : لا ترغب حكومتي لعرش العراق بغير واحد من بيت الحسين بن علي .

ولكن السيد طالب لا يسمع ولا يرعوي . ففي مأدبة ادبها لبعض الصحافيين الانكليز ،وحضرها عدد من الوجهاء الوطنيين ورؤساء العشائر ، وقف بعد ان دارت الكؤوس خطيباً ، وكان في جهره عجيباً — ان في دار الانتداب من لا نحبهم لانهم يتدخلون في شؤون الامة التي لها الحق ،ولها وحدها، ان تؤمر ان تملك عليها من تشاء. وقد صرحت حكومة الانتداب بانها ستحترم ارادة الشعب العراقي ونحن نحترمها اذا فعلت . أما اذا اخلفت فها هنا عليها — ونظر اذ ذاك الى رؤساء العشائر — عشرون الف بندقية .

كلمة شديدة صريحة ساقت الى جو السياسة الغيوم والضباب فقامت الخواتين تبددها . دعت اللادي كوكس السيد طالباً للشاي وكانت المس بل هناك تمثل على الدوام النفاثات في العقد، فسحر النقيب ابن النقيب ، وخرج من القصر مسحوراً ، فاستقبله عند الباب بعض الجنود ، فدفعوه الى سيارة كانت طيارة . حملوه على بساط الريح دون ان يدري بذلك احد من الانس ، ولم يقفوا به حتى امسوا خارج العراق . ثم صدر منشور المندوب وفيه الاسباب التي حملته على نفي صاحب المعالي السيد طالب باشا النقيب .

وظل الأمير فيصل سائحاً في جو صفا اديمه وتلألأت من ورائه طلائع الغيب ، فوصل الى الحجاز في اوائل حزيران ، يوم القى المستر تشرشل خطاباً في مجلس النواب يختص بالعراق ، وركب الهجين من

جده الى مكة ليقوم هناك بالواجب النبوي . تباركت الاقدار التي تديرها سياسة بريطانيا العظمى . فقد أنست الابن غضب ابيه ثم استيقظت في صدر صاحب الجلالة الرحمة والرضوان ، فجاءت منه برقية تقول ان ابنه فيصلاً قد سافر الى العراق .

وبعد عشرة ايام اشرقت شمس الأمير في خليج فارس فجاءت النقيب برقية ثانية تقول انه سيصل إلى البصرة في ٢٤ حزيران . وما ضل البخار ولا غوى . وصلت الباخرة في الوقت المضروب فاستقبل من تقلّ استقبالاً رسمياً جميلاً في البصرة بالرغم عما كان فيها من عوامل الريب والتردد بشأن من جاء يجلس على عرش العراق . بيد ان الامير في محضره وحديثه وخطبه هو اكبر حجة لنفسه على المترددين من الناس وقبل ان أم بغداد زار المشهد (١) والحضرة (٢) فاستمال اليه القلب الجعفري الخفي . ثم في ١١ تموز اجتمع مجلس الوزراء برئاسة النقيب وقرر ان يكون الامير فيصل ملك العراق بشرط ان تكون الحكومة دستورية ديمقراطية نيابية . فاضاف المندوب السامي انه بموجب تصريحات حكومة جلالة الملك بان يكون للامة العراقية حق انتخاب من تشاء ملكاً عليها ، فلا يعمل بهذا القرار قبل ان يثبته الشعب العراقي . وشرعت الحكومة في الاستفتاء او الانتخاب أو المبايعة ، فكانت النتيجة واحدة . ان انتخابات هذا الزمان الديمقراطية ، خصوصاً في الشرق ، لاضحوكة من اضاحيك السياسة . على انه بالرغم من مساعي الضباط الانكليز السياسيين الذين تولوا امر الانتخاب قد اشترط كثيرون من المنتخبين بان تكون حكومة الملك

(١) قبر الامام علي في النجف .
(٢) قبر الحسين في كربلاء .

حكومة مستقلة عن اية سيادة اجنبية كانت اي انهم رفضوا الانتداب .

وكانت حفلة التتويج في ٢٣ آب سنة ١٩٢١ ، فوقف السر برسي كوكس يعلن امام الجماهير المحتشدة ان الامة العراقيـة اجمعت بستة وتسعين من اصواتها على مبـــايعة الامير فيصل ، وان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تعترف به ملكاً على العراق . فالقى جلالة الملك خطاباً جاء فيه : ان اول عمل اقوم بـــه مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي .

وبعد انتهـــاء الحفلة قدم المندوب السامي للملك برقية من الملك جورج الخامس فيها الكلام المألوف في التهنئة ثم ما يلي : « وان المعاهدة التي ستعقد قريبـاً بيننا فتثبت التحالف الذي تحالفناه في ايام الحرب المظلمة ستمكنني ولا ريب من القيام بواجباتي المقدسة لادخال العراق في عهد جديد من السلم والنجاح » فاجابه الملك فيصل بعد كلام الشكر المألوف بما يلي : « لا اشك بان المعاهدة التي ستعقد قريباً بيننا ستمكن عرى التحالف الذي قدسه في ساحة الحرب العظمى دم الانكليز والعرب وانها ستقام على اساس متين » .

اما الشعب والزعماء والصحافيون فلم يدركوا وهم في نوبة من الحماسة والابتهاج شديدة ، خطورة هاتين البرقيتين . لم يدركوا ان الملكين عقدا يومئذ عقدة استحال في السنة التالية حلها فكانت السبب في ما شوه الاحكام الاسمية ، الانتدابية من الخلل والاضطراب . غمس الصحافيون يومئذ اقلام الفصاحة في محابر البيان ، واستعاروا من البلاغة اجنحة طاروا بها في سماء الاماني الوطنية والاحلام .

— وفي هذا اليوم شخصت انظار الامة الى مليكها تستعيد ذكر المنصور والرشيد والمأمون . وفي هذا اليوم تستمد الامة من ماضي مجد

العباسيين نوراً تسير فيه الى اعالي مجدها الجديد .وفي هذا اليوم تؤسس حكومة عربية حرة دستورية نيابية ديمقراطية مستقلة كل الاستقلال . وفي هذا اليوم ـ سقط منذ سنة ملك سوريا، ليعيش اليوم ملك العراق .

بعد سنة اخرى ، في عيد الجلوس الاول ، رددت الصحافة آيات البلاغة الذهبية ، وحلقت في سماء الامال العسجدية ، فبرهنت على ضعف في ذاكرتها او في سمعها . في مثل هذا اليوم منـذ سنة وقف المندوب السامي يعلن للشعب باسم جلالة الملك استقلال العراق وانتخاب الامير فيصل ملكاً على العراق . وفي مثل هذا اليوم ابرق الملك جورج الخامس الى الملك فيصل يهنئه والشعب العراقي ويذكره بالمعاهدة . فلم يكن لا في كلام المندوب ولا في برقية الملك كلمة عن الاستقلال التام .

امر تساهلت به الحكومـــة قبل التتويج وامر تساهلت به الامة يوم التتويج وبعده ، ها هنا رأس الخطل والخلل . فقد اشترط المبايعون في بيعتهم رفض الانتداب فلم يأبه لذلك دار الانتداب . هم المشترطون ونحن الحاكمون . وقد تعاهد المليكان على عقد معاهدة في القريب العاجل فلم تدرك ذلك الأمة ، او انها ادركت ولم تكترث . دع الملوك يتعاهدون . امـا الحكم اليوم فللشعوب . هوذا الاساس الواهي في الملك الجديد . هوذا رأس الخطل والخلل .

المعاهدة

العجز في الحكومة عجزان ــ الضرائب ــ الامة حائرة ــ الانكليز قانطون ــ اعترافهم بالخطأ ــ معاهدة تثبت الاستقلال وتنفيه ــ لا صراحة ولا ثقة ولا يقين ــ الاستقلال مجاناً ــ لا حرية ولا اتحاد ــ الوزارة الجديدة ــ المعاهدة ــ بعض بنود النص الاول والنص الثاني حكومة اميركا تحتج ــ البند الحادي عشر ينقح اكراماً لها ــ خلاصة المعاهدة ــ توقيعها ــ المحتجون في بيت النقيب ــ سقوط الوزارة ــ وزارة السعدون ــ عبد اللطيف باشا المنديل ــ المعاهدة وملحقاتها في الوزارات التالية ــ المعاهدةفي المجلس التأسيسي ــ سياسة الضغط والارهاب ــ امضاء المعاهدة ــ ولا تزال الامة تشكو وتحتج .

باشرت الحكومة الجديدة اعمالها بما اشرت اليه من العجز المعنوي . هو عجز لان التصريح التام في مثل تلك الاحوال ، بل التحديد الأكيد الذي اقتضته تلك الحوادث الخطيرة ، كان مفقوداً . فلا الملك العربي قيّد وعده للملك الانكليزي بالشرط اللازم ، ولا الامة التي بايعت الملك اصرت على الحكومة في البداءة بقبول شرط الا « لا انتداب ». ولا حكومة الانتداب صرحت برفضها شرط الأمة في المبايعة. هذا هو العجز المعنوي الذي قلّ من سلم من نتائجه الخبيثة.

وقد كان في ميزانية الحكومة عجز مالي لا يقل عن المليون ليرة انكليزية فسُدد بقرار من مؤتمر القاهرة ــ أدخل في ميزانية حكومة انكلترا ــ تمهيداً للعهد العراقي الجديد . بيد ان ذلك القرار اوجب على الحكومة العراقية ان تخصص في ميزانيتها الجديدة ثلاثمئة وخمسين الف ليرة للجيش العراقي . فكان ذلك عجزاً آخر . لانه تعسر جمع

الضرائب من امة كانت ثائرة وظلت ناقمة معاندة . هما عجزان كانت الثورة السبب المباشر فيهما ، تلك الثورة التي اتلفت في الزرع والضرع مـا اثر في الضرائب تأثيراً شديداً وفكت من عرى الامن والنظام ما اضعف الحكومة الى حد لم يكن لها فيها سيادة تحترم . على ان الامة في حبوط الثورة فقدت الثقة بنفسها وصارت في جرأتها ، في جسارتها ، اقرب الى التهويل منها الى العمل . وما يصح فيها من هذا القبيل يصح في حكومة الأنتداب وفي الموظفين الأنكليز عامة . الا ان طريقة هؤلاء ، وهم يظهرون من الضعف قوة ، كانت اضمن للستر والكرامة . قد يكون الفرق بين الاثنين فرقاً طبيعياً لا خلقياً وقد يكون غير ذلك . أمرهما أمر اثنين تصارعا وتغالبا وكانا في النهاية مغلوبين على السواء في ما اصابهما من الم ونهك وقنوط . بيد ان آلام الواحد كانت ظاهرة ، وآلام الآخر خفية .

ومع ذلك فقد ابت على الكاظم الخفاء . ما كلمت انكليزياً في تلك الأيام ، ايام العجز الأدبي والمالي ، الا وكان ، بالرغم عن التجلد والشدة والثبات المشهور هذا الشعب بها ، متألماً من الحالة حتى اليأس. — « عندنا من الموظفين من يظنون انفسهم اكبر من كراسيهم فلا يحسنون الجلوس فيها. وعندنا آخرون هم كالأوتاد المستديرة في الأثقاب المربعة متزعزعون متقلقلون ». وقال آخر ، « عساكر وضباط في وظائف ادارية ومركزهم الطبيعي إنما هو في الجيش » . وآخر — بارك الله بمن عرف خطأه واعترف به —: « حكومة لندن تربط ايدينا وحكومة العراق تزدرينا ... النية حسنة وان كانت الأغلاط كثيرة ... نحن في حاجة الى العراق والعراق في حاجة الينا . ولا خير لنا وللعراقيين بغير المصلحة المشتركة والاكرام المتبادل » .

على انهم وهم ينطقون بالحق ويعترفون باغلاطهم ، يرتكبون الخطأ الفادح في معاهدة تكفل الاستقلال للعراق وتنقضه في بعض موادها وقد يكون الحق في جانبهم في مـــا ينقض ، من الوجهة الماليـة في الاقـــل لا في مـا يثبت الاستقلال . ولكنهم لم يصرحوا بذلك . نعطيكم كذا وكذا ، فتعطونا كذا وكذا ، والاستقلال الحقيقي انما هو القيام بالعهود . لم يكن في العراق لا من المعتدلين ولا من المتطرفين من يقول هذا القول . طلبوا الاستقلال مجاناً . وهذا لا يكون . ولكن الانكليز سكتوا فظُـــن في سكوتهم القبول . ثم جاؤوا بالمعاهدة تتقاضاهم ثمن الاستقــلال فرفض العراقيون الدفع وجاؤوا بالمعاهدة قبل ان يجتمع المجلس التأسيسي الموعود به في قرارات سابقة اثبتت رسمياً في حفلة التتويج .

ان المرء ليعجب من حكومة عاقلة راقية مثل حكومة انكلترا اذ تقدم على عمل في غير بلادها لا حكمة ولا سيـــاسة ولا عدل الا في عكسه . وهم يطلبون المعاهدة اولاً ، ثم يشترطون في القانون الاساسي ان لا يكون مخالفاً لموادها ، ثم يأذنون بانتخاب مجلس نيابي ليجيزها . والمثل الذي يعيب هذا المسلك مثل انكليزي . على ان العربة جرت الحصان في العراق ! فهـــل تستطيع ان تجره الى حيث تنتهي وظيفته المضحكة ؟

ثبت الانكليز في غلطهم وفازوا . فهـــل يثبت الفوز المبني على الغلط ؟ (١)

(١) وها قد مرت خمس سنوات على تلك المعاهـــدة ولا تزال الحكومتان البريطانية والعراقيـــة تتفاوضان في امرها . لا يزال فيها ما يجب اصلاحه او تعديله او الغاؤه . معاهدة ولدت قبل المجلس النيابي والدستور الاساسي ابويها ـ ولدت باعجوبة فهل تحيا باعجوبة يا ترى ؟

اعود حيث انعطفت بالقـارىء ، لاطلعه على القسم السوري من تاريخ جلالة الملك ، فاقف به ثانية عند حادثة القصر في تاريخ الحكومة العراقية الجديدة اعود به الى تلك الايام الـتي لم يكن في العراق لا حكومة تذكر ولا انتداب ، لاكمل قصة المعاهدة المشهورة . مــر العام الاول بعد التتويج وما رأى الناس فرقــاً كبيراً بين سياسة الحكومة الحاضرة وسياسة الحكومة الاحتلالية الغابرة . فلم تضع الامة ثقتها التامة بوزارة النقيب الثانية ولا وضعت الاحزاب المقاومة ، وعلى رأسها الشيعة ، ثقتها التامة بجلالة الملك .

وكانت دار الانتداب بين فريق يعرج ووجهته النقيب ، وفريق آخر مثله ووجهته القصر ، يحاول الانتفاع بالحالتين ليصل الى الغايـة المنشودة . والغاية عقد المعاهدة . الا ان هذا التمهيد في المعاهـدة يا فخامة المندوب ، وفيه نص صريح على الانتداب ، لا تقبل به الامة ولا يمكننا من العمل واياكم بما فيه خير البلدين . اجل ، قد كان حتى النقيب من المحتجين .

استمرت المفاوضات بين بغداد ولندن بخصوص ذاك التمهيد وبعض بنود في المعاهدة هي من بابه . وقد كانت دار الانتداب شديدة اللهجة على الوزارة الخارجية . — قد خفضنا كثيراً نفقات الحكومة يا مستر تشرشل ، اسقطنا اكثر من ثلثيها : فاصبحنا ولا قــوة لدينا تنفذ اوامر الحكومة وتجمع الضرائب . وكل تخفيض في النفقات في بلدان الشرق ، كما لا يخفى على فخامتكم ، يـلازمه او يتبعــه ضعف في الحكومة . ومع ذلك مشينا واياكم بما تأمرون — والحرب سهلة في الخريطة يا مستر تشرشل . انتم تبغون عقد المعاهدة ولا تراعون واقعة الحال . أليس من الممكن ان تتنازلوا عن الانتداب

ـــ او عن النص عليه في الاقل ؟

سمع المستر تشرشل شكوى دار الانتداب ببغداد ، فنُقحت المعاهدة ، وأُلغي ذلك التمهيد المشؤوم ، وأضيف الى المادة الاولى مادة احتياطية بخصوص السيادة الوطنية ، وأبدل في المادة الثالثة الشرط الايجابي بشرط سلبي ، ثم في المادة الحادية عشرة اضيفت جملة احتياطية طويلة لا اكراماً للعراقيين ولا للانكليز ، بل ارضاءً لحكومة ولايات اميركا المتحدة [١] .

اما المعاهدة نفسها فيمكن تلخيصها بعشرين كلمة . وهي ان حكومة انكلترا تمد الحكومة العراقية بالمال والسلاح وبالمساعدات الادارية والتقنية بشرط ان تقبل نصائحها واوامرها في كل ما يتعلق . . . .

(١) المادة ١١ في النص الثاني النهائي : يجب ان لا يكون ميزة ما في العراق للرعايا البريطانيين أو لغيرهم من رعايا الدول الاجنبية الاخرى على رعاية اية دولة هي عضو في جمعية الامم ، او رعاية اية دولة معاقد وافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة على أن يضمن لها الحقوق نفسها التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن اعضاء جمعية الأمم في الامور المتعلقة بالضرائب والتجارة الخ .

ولهذه الجملة الاحتياطية التي اضيفت ايضاً الى المادة ١٤ التي تختص بالاثار القديمة قصة لا تخلو من متعة : من المعلوم ان اميركا لم تدخل في جمعية الامم . ومن المعلوم كذلك انها كانت قد اتفقت مع انكلترا وفرنسا على استثمار زيت العراق . على ان هناك ما لا يعلمه غير بعض الاخصائيين والسياسيين وهو ان شركة اميركية ارسلت مهندسين من قبلها في شتاء ١٩٢٢ الى العراق ليتحروا الحقائق العلمية والاقتصادية بخصوص الزيت فلم يمكنهم المندوب السامي، من ذلك . وكانت المعاهدة يومئذ همه الاكبر . فاتصل الخبر بحكومة وشنطن التي احتجت على عمل المندوب السامي ، وبعد المفاوضات بينها وبين حكومة لندن ادخلت الجملة الاحتياطية على البندين الحادي عشر والرابع عشر من المعاهدة . فيظهر ان اميركا لا يهمها من العراق الا ما كان مدفوناً في اراضيه من الاثار ، ومن منابع الدولار

بذلك . في هذا شيء من الاستقلال ، فيـه يستقل العراق عن دول الارض كلها سوى دولة بريطانيا العظمى . ولكي يدرك القارىء ما هو اعتمادها على هذه الدولة اتوسع بما تقدم من خلاصة المعاهدة فاستعرض ما يلي من اهم بنودها .

ان جلالة ملك بريطانيا العظمى يتعهد بان يقدم ما يقتضي من المشورة والمساعدة الى دولة العراق (المادة الاولى) وان يقدم من الامداد والمساعدات الى قوات العراق المسلحة ما يتفق عليه من وقت الى آخر (المادة السابعة) وان يسعى بادخال العراق في عضوية جمعية الامم باقرب ما يمكن (المادة السادسة) .

ويتعهد جلالة ملك العراق في مقابلة ذلك بان لا يعين في الحكومة العراقية من الموظفين الاجانب غير الانكليز (المادة الثـانية) وان يقبل المشورة التي يقدمها ملك بريطانيـا بواسطة المندوب السامي في جميع الشؤون المهمة وخصوصاً الشؤون المالية (المادة الرابعة) وكذلك الخطة التي يشير بهـا في الامور العدلية لتأمين مصالح الاجانب (المادة التاسعة) وان ينظم قانوناً اساسياً لا يخالف في مواده هذه المعاهدة ليعرض على المجلس التأسيسي للتصديق .

وقد اتفق المتعاهدان بان تضمن المساواة بين رعايا بريطانيا العظمى ورعايا الدول الداخلة في جمعية الامم في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة أو الملاحة او ممارسة الصنائع والمهن الخ (المادة الحادية عشرة) وان تكون مدة المعاهدة عشرين سنة .

في اليوم العاشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م و ١٩ صفر ١٣٤١هـ اجتمع في باب السيد عبد الرحمن النقيب اشراف بغداد ورئيس الوزارة في الحكومة العراقية جمهور من الناس صاخبين مشاغبين وهم يبغون

مخاطبة الوزير، فحمل احد الحجاب خبرهم الى سيده فاذن لهم بالدخول. كان قد وقع المعاهدة صباح ذاك اليوم فدخلوا يحتجون عليها وعليه. فسألهم قائلاً: باسم من تحتجون؟ فاجابوا باسم البلاد؟ فاحتدم فضيلته غيظاً وانتهرهم قائلاً: ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم. انا صاحب البلاد فخرجوا احتراماً ساكتين، وما كانوا مقتنعين ولا راضين.

ثم نشرت الجرائد صورة المعاهدة مصدرة ببلاغ من صاحب الجلالة إلى الشعب العراقي يقول فيه ان قد اعترض سير المفاوضات مصاعب جمة «ولكننا تمكنا من التغلب عليها والوصول إلى هذا الحل المرضي ... وهي خطوة واسعة في سبيل تحقيق امانينا الوطنية ... فقد اعترفت بريطانيا العظمى باستقلالنا السياسي واحترام سيادتنا القومية» ثم يدعو الناس لمؤازرته ولاتخاذ الخطوة الثانية وهي مباشرة انتخاب المجلس التأسيسي ووضع القانون الاساسي للامة. فقرأ الناس البلاغ الملكي والمعاهدة وما كانوا مقتنعين ولا راضين. وقرأها اشياع الحكومة ساكتين احتراماً وآسفين.

بعد شهر من يوم التوقيع سقطت وزارة النقيب. كنت يومئذ في العقير وكان عبد اللطيف باشا المنديل (١) عندي في الخيمة عندما

---

(١) عبد اللطيف بن ابراهيم المنديل هــو من عشيره الدواسر ويمت بنسبه الى عمر بن الخطاب. ظعن احد اجداده الى جلاجل في نجد ومنها منذ تسعين سنة جاء والد عبد اللطيف باشا العراق فأسس محلا تجارياً في البصرة وآخر بعدئذ في بمباي، وآخر في بغداد. وقد سلك عبد اللطيف باشا مسلك والده في التجارة والزراعة فزاد ثروته واملاكه. وهو حر الكلمة سديد الرأي، يخلص الود لال سعود وخصوصاً للسلطان عبد العزيز، ويخلص العمل لوطنه الثاني العراق. فقد انتخب في زمن الحرب عضواً في مجلس الاشراف في البصرة، ثم اسندت اليه وزارة التجاره في الحكومـة العراقية الموقتة، وبعد التتويج تشكلت الوزارة برئاسة النقيب ايضاً واسندت اليـه

استلم برقية من عبد المحسن بك السعدون في بغداد يخبره فيها بان جلالة الملك قد عهد اليه بتأليف وزارة جديدة ويسأله ان يكون وزير الاوقاف فيهـــا . وفي ذلـك اليوم نفسه علمت من السر برسي كوكس السبب في سقـــوط الوزارة فحزنت لما علمت . اجتمعت الصداقة بالسياسة مرة في قديم الزمان فقالت الواحدة للاخرى : وكان سلامه عليّ وداعاً .

وبعد سنة وثلاثة اشهر من يوم التوقيع اجتمع المجلس التأسيسي في بغداد وكانت الامة لا تزال مقاومة لتلك المعاهدة، مناوئة لانصارها القليلين ، فرفض المجلس انفاذها . ثم انتقلت الوزارة الانكليزية الى حزب العمال ولم تتغير في سياستها الخارجية . فاصدر المستر مكدونلد بلاغاً رسمياً اعلن عزمه على احـــالة المعاهدة الى عصبة الامم اذا لم تُقبل بجذافيرهـــا في ١١ حزيران . وكانت معضلة الموصل يومئذ قيد البحث بين مندوبي انكلترا وتركيا في الاستانة فاتخذتها الحكومـة الانكليزية سلاحاً آخر تروّع به الامة العراقية : أتبغي الزيادة من هذه القصة المحزنة ؟

دُعي المجلس التاسيسي لعقد جلسة فوق العادة بعد ان ارفض في ١١ حزيران دون ان يبرم المعاهدة ، فلم يحضر الجلسة غير تسعة وستين عضواً من مئة وعشرة اعضاء . فاقترعوا على المعـــاهدة فكان معها

تابع شرح صفحة ٣٦٠

وزارة التجارة مرة ثانية . ثم جاء الى الحسا يزور السلطان عبد العزيز الذي شاء ان يفاوضه في بعض الشؤون . وعندما كنا في العقير جاءه من عبد المحسن بك السعدون برقية يسأله فيها ان يرأس وزارة الاوقاف فقبل عبد اللطيف باشا واستمر في هذا المنصب سنة ، ثم انتخب في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٤ عضواً عن البصرة للمجلس التأسيسي .

ستة وثلاثون وضدها اربعة وعشرون . امـا التسعة الباقون فرفضوا الاشتراك في الاقتراع .

هذه هي نتيجة ذاك المسلك السياسي الذي رأينا العربة فيه تجر الحصان . بل هذي هي النتيجة لتلك الخطة السياسية التي يبدأ صاحبها بالسقف قبل ان يهتم باساس البيت . فقد قبلت دولة بريطانيا العظمى معاهدة ابرمتها اقليـة صغيرة في المجلس التأسيسي العراقي ، ولا شرف في قبولها لانه يخالف تلك القاعدة الاساسية للحكم الدستوري المحترم في بلادها .

اصحاب المعالي

سكرتير الوزارة يخلصني من فندق بغداد – خليلي ومصيفي – السيد عبد الرحمن النقيب – تاريخ العالم منذ سقوط حواء الى سقوط الاتراك - اهل العراق – المشانق والكرسي الكهربائي – « لسنا بسياسيين» قصة الفيلسوف واللص – الاميركي العالم بكل شيء – اغراس النخل والزراعة – اولاد النقيب الشيوخ والصبيان – وفد من الصبيان – اراؤهم الثورية – اقيم في بيت القداسة والطهر – الولي عيدووس – مولانا عبد القادر الجيلاني – مائدة سيدي النقيب – المجتهدون والوطنيون – الفرق في حب الذات عند الانكليز وعند سواهم .

النادي العراقي – الطاولة الخضراء – اخصائي في لعبة ال « بريدج» – عربي لا غش فيه – السكوت العزوم – ترجمة عبد المحسن بك السعدون – وزارته واعمالها – نفي زعماء الشيعة – مطالبهم – رسالة من معالي الوزير .

الوزارة الجعفرية – جعفر باشا لا يكذب اسمه – الجيش العراقي – وزير لا يهمه المنطق – درهم جدارة خير من قنطار مقامات – الوزير التلميذ – الحية والعصفور – رأيه في الانكليز .

الوزير الكئيب – شجا في حلق الانكليز – فيلسوف في الاحزان – على مائدة المس بل – لجنة تدقيق المعاهدة – مطالبها – الثابت في الوزارات العراقية – ترجمة ساسون افندي .

الوزيرة الوحيدة جرترود بل – رأي احدى النساء بها – رأي احد المستشارين – انكليزية عربية – القاعدة والقضيب – قال العرب وعمتهم .

قد كان من حظي في بغداد اني لم اضطر ان اقيم دائماً في فندق من فنادقها الفخمة، فأروض الجسم في احدى غرفها منذ اليوم للقبر، وآكل تحت الارض في السراذيب من المآكل التي لا يعرف لها تاريخ ، ولا قومية . والفضل في خلاصي لشاب اديب كريم ، له جذور وفروع في تاريخ الدين والدنيا تحير علماء الانساب والاثار ، ولا تقيه مع ذلك

من النار . فهو فارسي الاصل ، انكليزي التربية ، شيعي المذهب ، درويني العقيدة ، نبوي السليلة قديماً وحديثاً . اقول قديماً وحديثاً ، واليك البيان : هو في الاول سيد من السادة الذين يتصل نسبهم عن طريق الحسين بفاطمة الزهراء ، وهو في الاخر غصن صغير يابس من شجرة النبوءة الحديثة التي زرعها « الباب » في بلاد العجم في القرن الماضي ، ثم نقلها « البهاء » الى حيفا ، فاستثمرها « عبد البهاء » خال صديقي ونقل من ثمارها الى اوروبا واميركا . وهو مع ذلك وفوق ذلك استاذ في علم الاقتصاد .

عرفته يوم وصولي الى العاصمة . جاء به الكسباني امين يقول : هذا الحسين بن الحسين وعنده من كل فن خبر . كان من الواجب ان يسموه فنوناً ولكنهم اساؤوا اختيار الجمع فسموه افنان ، — حسين افنان ، سكرتير مجلس الوزراء والصلة المرنة المفيدة بين الوزارة والعرش ودار الانتداب. فقلت :سبحان الله الذي جمع مساوىء الثلاثة في شخص واحد . فقال الكسباني: وقد اضاف اليها مساوىء اخرى ، فضحك افنان فانارت الضحكة وجهه القمري — المستدير كالقمر — وعندما سمعني اشكو من الفندق فخامةً فيه ، وفي مآكله واغانيه ، قال : غداً ان شاء الله نريحك منها وكان قد استأجر بيتاً له والكسباني فأعد لي فيه غرفة لا تهجرها الشمس في النهار ، ولا الهواء ولا الغبار . هي بغداد . وما فيها غير فصلين في السنة فصل الغبار وفصل الوحل . وصلت اليها في الفصل الاول ، ثم سافرت الى نجد وعدت اليها في الفصل الثاني كي لا يفوتني شيء من محاسنها . . .

رفيقي خليلي ، ولا اخاطبكما شعراً . قد تحسنان وقد تسيئان في وظيفتيكما ، قد تكونان في ما تكتبان وتترجمان ، وتسعيان

وتجربزان ، خيراً للانتداب يومـاً وشراً على الامة ، او خيراً صافياً للاثنين في بعض الاحايين . اما في صفتكما البرمكية في محلة الاشراف ، في ذاك البيت الذي كان مفتوحاً دائماً ، ليس لي فقط بل للشمس والغبار والضوضاء ، فكنا نعتصم من الحر بسردابه في النهار ، كما تذكران ، وبسطحه في الليل ، فلم يكن فيكما وانتما الرفيقان المضيفان غير الخير الصافي على الدوام .

عبد الرحمن النقيب (١)

قال الحسين يوم اجتماعي به في الفندق : قد قابلت صاحب الجلالة سيد الكسباني فيجب ان تقابل صاحب الفضيلة والمعالي سيدي. فقلت: اني في الحالين طائع وسرت واياه الى بيت جميـــل على شاطىء دجلة كان في تلك الايام قطب السياسة والسياسيين كما هـو قطب الاتقياء والمتعبدين ــ والمزارعين . فان سيدي النقيب يهتم بالارض اهتمامـــه بالسماء .

وكان اول اجتماعي به في القاعة التي تجتمع فيها الوزارة والتي وقعت فيها بعدئذ المعاهدة . هوذا شيخ في العقد الثامن من العمر ، يحمل في قلبه افراح الثمانين واتراحها هادىء البـــال ، ويحمل في رأسه فلسفة روحية سياسية زراعية خالية من غش الاوهام والخيال ، ويحمل في مفاصله داء اقعده فالجأه الى العصا يتوكأ عليها من عقر داره الى بهـــو الاستقبال . وكان يومئذ يحمل فوق ذلك كله الحمل الاثقل والاخشن ، حمل المعاهدة البريطانية العراقية وسياستي العرش ودار الانتداب .

(١) توفي شتاء عام ١٩٢٧ .

رجل عدل القامة ، وافر موضع النطـــاق ، براق العين ، ناصع الجبين ، قصير اللحية ، بسام المحيا . يلبس الاثابيز البيضاء وهي دائمـاً كالثلج ، ويجلس على الديوان ، والى يمينه عصاه وبالقرب منه على قيد ذراعين الزائر الجديد ، وقبالته على ديوان آخر شيوخ مثله اجـلاء . ولكنهم دونه سناً . هم اولاده . وكان قد اخبرني صديقي بان فضيلة النقيب ، على علمه وحصافته وروحانيته ، يتقزز من لمس ايدي الناس . فلما دخلت وقفت امامه محنيّ الرأس مسلماً وكان قد وقف لاستقبالي ومدّ يده مصافحاً ، فدهش الحضور كما علمت بعدئـــذ . ولكنني زرته وانا في بغداد مراراً ، وشرفني مراراً ، بان دعاني لمـــائدته ، فآكلني وصافحني دون ان يغسل بعد ذلك يديه . كأني به وهـو اكبر المقربين من سدة مولانا عبد القادر العلوية ، وحامل مفتـــاح حجرته القدسية ، نظر بعين الغيب الى ما وراء الحجب ، فرأى في هذا الرحالة رغبة في التصوف لا تزال طفـــلاً ، فاحب ان يغذيه بتعطفه وبقربه وبشيء من الكرامة في يده .

وكان اول مـــا حدثني به من مدهشات مجلسه انه قصّ عليّ في بضع دقائق قصة العالم منذ سقوط امنـــا حواء الى سقوط الاتراك في بغداد . ثم قـــال : وتاريخ الانسان يا افندي مثل تاريخ الامم — مقدمات لنتيجة واحدة هي السقوط . ونحن العرب خصوصاً العراقيين اوفر الامم حظاً من هذا القبيل . العراقيون يا افندي انت تذكر ما قاله الحجاج بن يوسف . فقلت : ولكننا في زمان غير زمان الحجاج . فقال على الفور : اما اهل العراق فلا يتغيرون . خلصناهم من الاتراك ، ومن العجم ، ومن الاحتلال العسكري ، ونحن نسعى الآن في خلاصهـــم من الفوضى وهم لا يريدون ، ولا يرضون ، ودائماً ناقمون . هــل

رأيت في كل سياحتك يا افندي شعباً يحسن صنع الحبال والمشانق ولا يجد من يجربها فيه غير نفسه ؟ وهل يستخدمون المشنقة في اعدام المجرمين في اميركا ؟

قلت : عندهم الكرسي الكهربائي. فسألني ان اصفه ثم قال: خوش طريقة . يلزمنا عدد من تلك الكراسي في العراق . فقلت . العفو اذا خالفت سيدي النقيب . فان امة توكل امرها الى مثله لتجد في اساليب السياسة وطرق الحكمة حلاً مرضيا لمشاكلها كلها .

فقال وهو يمكّن النفي بيديه: لا ، لا ، لسنا بسياسيين . ما عندنا من علم السياسة الا اليسير . وهذا اليسير التقطناه في اختلاطنا برجال السياسة الحقيقيين . مثلنا مثل اللص والفيلسوف . جاء اللص في ليلة مقمرة الى بيت الفيلسوف يبغي السرقة ، فدخله من النافذة وكان الفيلسوف جالساً في الزاوية يشكر الله الذي انار بيته بنور القمر . فجال اللص في البيت وهمّ بالخروج وهو خائب الامل . فخاطبه الفيلسوف قائلاً : اذا كنت انا صاحب البيت لا اجد فيه شيئاً في ضوء الشمس فهل تؤمل أنت الغريب ان تجد في ضوء القمر شيئاً فيه ؟

فقلت : ولكني لم ادخل البيت من النافذة يا مولاي . فضحك حتى استلقى وهو ينظر الى انجاله تارة وطوراً اليّ والى افنان ويقول : غلبني . غلبني .

ثم اخبرني قصة تفصح عما فيه من حب النكتة ومن البراعة في التهكم قال : زارنا الاسبوع الماضي رجل اميركي مندوب احد الجرائد هناك . وجلس هناك — اشار الى الديوان قبالته — واخذ يتكلم — خوش كلام — وهو يسألنا سؤالات في السياسة ، وفي الامتيازات ،

وفي النفط ، ويجيب عليها بنفسه ، ونحن مثل الفيلسوف الذي قصصت عليك قصته جالسون في زاوية السكوت نشكر الله الذي انار بيتنا السياسي بنور القمر . ولكننا استأنسنا بهذا الاميركي — جاء مثلكم في النهار ولم يدخل من النافذة . ولكن لسانه مثل سيف ذي الفقار — خوش لسان — هل كل الاميركيين مثله حذقاً وعلماً ؟ عندما قام يودع شكروناه على زيارته وعلى ما استفدنا من حديثه . وخطر لنا يومئذ ان نسأله عن اغراس النخل التي اخذت من هذه البلاد الى اميركا ، وزرعت هناك . ولكنه لم يفسح للسؤال مجالاً فهل لك علم يا افندي بتلك الاغراس ؟ هل نجحت في اميركا ؟

فاجبته قائلاً : اذا اذنتم باستعارة استعارتكم اقول ان بيتي الزراعي مثل بيت الفيلسوف الذي وصفتم .

فضحك وقال : وانا مثلكم دخلت من الباب لا من النافذة . ثم نظر الى انجاله وهم جالسون امامه متكتفين يبتسمون ولا يضحكون فقال : اراني مع الافندي مغلوباً — مغلوباً اليوم . يجب ان يزورنا مرة اخرى . فقلت : هو احب ما أُحب في هذا البلد ، ثم كملت جملتي السابقة : اما البيت فلكم كل مـــا فيه . اذكر اني قرأت مرة ان وزارة الزراعة في وشنطن استجلبت من البصرة اغراساً من النخل وغرستها في الولايات الجنوبية .

— اذن علمك وعلمنا واحد .

— في هذه المسألة فقط .

— بيتنا بيت الفيلسوف انتم تسوحون طالبين العلم ونحن نأخذ علومنا من الكتب وممن نجتمع به مثل فضلكم .

فاعتذرت وشكرت . وكنت قد نظرت الى افنان فاعطاني

الاشارة فقمت اودع . فنهض فضيلته ومد يده ثانية يصافحني .

ان للسيد عبد الرحمن النقيب الكيلاني ، سليل مولانا عبد القادر قدس الله سره ، طائفة من السالكين المتعبدين منتشرة في اقطار الشرق كله . وله في بيته جيلان من الانجال ، الجيل الاول كان جالساً معنا وهم ثلاثة تتراوح سنهم بين الخمسة والخمسين والستين يحضرون مجلس والدهم فلا يتكلمون ، اذا كان عنده زائر ، الا اذا سئلوا ولا يضحكون ، مهما كانت النكتة ظريفة ، ضحكة عالية . اما الجيل الثاني وعدده ستة او سبعة صبيان فمن هذا الزمان حقيقة ومجازاً . لان بينه وبين الاول فترة مقدارها نحو اربعين سنة . والسبب في ذلك سرّ احترمناه .

زارني ذات يوم كبيرهم ، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة ، فلم يكن مثل الصحفي الاميركي الذي زار فضيلة ابيه . سألني ان اقول له ما الفرق بين الانتداب والاحتلال . فاجبته فقال : ولكن البريطانيين يعترفون باستقلال العراق ولا يخرجون منه . وجاءني ثانية ومعه بضعة فتيان من اقاربه ورفاقه في المدرسة يبغون السلام والتعرف ثم الاحتجاج على الانكليز . فاتخذت في مقابلتهم الخطة التي اتخذها النقيب في زيارتي له اي اني سبقتهم الى السؤالات فكانوا في اجوبتهم مدهشين .

— واذا كانت اللغة الانكليزية لغة الحكومة المحتلة أفلا تتعلمونها ؟ فاجاب احدهم : اذا كانوا ينوون الاقامة في بلادنا يجب ان يتعلموا لغتنا . وقال آخر : نتعلم لغتهم ويتعلمون لغتنا فيفهم اذ ذاك بعضنا بعضاً . وقال الثالث وهو صغيرهم : اذا كان لا خير في الاجانب فلا خير في لغتهم . فاجابه ابن النقيب قائلاً : اللغة شيء

والسياسة شيء آخر . فاذا تعلمنا لغتهم نتعلم طرقهم السياسية ونحاربهم بها . فرد عليه الصغير وهو يضرب الارض برجله انا لا استعير يد رفيقي لاضربك بها . انا اقاتلك بيدي .

ولكن السياسيين لا يضربون بايديهم .

— يضربون بارجلهم اذن ؟ لنا ارجل مثلهم . ألا لا يجهلن احد علينا . فنجهل فوق جهل الجاهلينا .

صفق له رفاقه ثم عادوا ، وقد وبخهم الاكبر ،الى التأدب . وكنت اخشى ان ينتقل هذا الوفد العراقي الوطني العجيب من الكلام الى الايدي فنهضت اكشف الساعة ، فكان الصغير اول من فهم الاشارة، فنهضوا وسلموا مودعين .

كنت اقيم ببغداد بين وليين كريمين عرفت الواحد منهما لاول مرة في عدن . وهو هناك ولي البلد له مقام بقبة ، وعشيرة واحبّة ، وصندوق احسان يملأه كل شهر الاتقياء ، فيوزع المال على الفقراء . هو عَيدروس المدفون كما قيل في عدن ، وله في بغداد مقام وعباد . اما الولي الآخر الذي كان قربي ، بل كنت انا السعيد بقربه ، فهو اشهر من عيدروس واعظم ، اذا لم يكن كرامة وقداسة ، فسيادة ونفوذاً . كيف لا ومن شاطىء دجلة تشع شمسه شرقاً وغرباً فتنير ضفتي الكنج والنيل . كيف لا وهو مولانا عبد القادر الكيلاني المدفون رمزه المادي تحت تلك القباب اللازوردية في جامع يعد من افخر واجمل ما في بغداد . هناك شرقاً من سريري على السطح مطلع الانوار ،فكنت كل يوم عندما انهض صباحاً امتع نظري وروحي بمشهد الشروق على مسرح القداسة . فارى الشمس تكوّن من الغيوم البيضاء المتقطعة ، فوق قباب عبد القادر المتعددة ، ما يشبه قطعان الغنم

وهي تسرح في مروج من النرجس الذهبي العـــين ، والعصفر الذهبي الجبين . كأنها الزوار جاءت من العجم والهند لتستقي من الموارد القدسية ، وتحيا في المروج القادرية ... عبد القادر الكيلاني ، من احسانك لا تنساني !

وما كان كرم الله وجهه لينساني وانا في بغداد . فكان يوحي الى فرع دوحته الاكبر السيد عبد الرحمن حباً موضوعه هذا الغريب في جوار الحبيب . وكنت انا المجذوب الى تلك الشخصية الفُسَيْفسائية ، كأنها كُوِّنت من الوان تلك المروج وتلك القبـــاب فوق ضريح عبد القادر . ليتأكد القارىء اني مجد في ما اقول . قد لا استحسن سياسة النقيب ، وقد لا تهمني الا في سبيـــل الادب مصادر القداسة حوله وفيه . ولكنني ممن يعجبون بمظاهر الحياة الفريدة ، اينما كانت ، وبشواردها المجيدة ، كيفما باتت ، ولا سيما اذا تمثلت في مثل هذا البشر السوي والشيخ الكريم .

ما رددت مرة دعوة للسيد لمجلس او لمائدة ، وكنت كلما دنوت من صميم ذاتيته ازداد اعجاباً بها وان بين النقيب ومائدته وجه شبه لطيف . في الاثنين غذاء كثير ، وفاكهة وابازير . في الاثنين فيض برمكي اصمعي ، فـــترتاح الى الاول العين والمعدة كما يلتذ بالثاني السمع والفؤاد .

وما عرفت اشجع منه ، على سنه ودائه ، اذا مـدت الايدي الى الزاد . على انه لا يشبه الاكول في انـه يهمل من يواكله . كنت اسمعه يتكلم ، واراه يتصرف بالالوان الواحد تلو الآخر ، وعينه على ضيوفه ، يشجعهم ويحرضهم على الهجوم .

ـــ خوش حباري يا افندي امين . من صيد اليوم . لا تزهد بها ...

اذا كنت لا تتكلم يا حضرة الكسباني أفلا تأكل ؟.. أفنان لا يحتاج الى من يغريه بشيء .

وكان الكسباني امين على علمه وادبه وسياحاته في الارض — وسنه — يخجل كبنت السادسة عشرة اذا وجه اليه الكلام في مائدة النقيب او مائدة الملك . فيغص باللقمة ويزداد ارتباكاً . قليل الكلام ، قليل الاكل — في المواقف الرسمية . ولكني والحق يقال رأيته سكوتاً خجولاً حتى في حضرة السيدات .

بيد انه تغلب مرة على حيائه ونحن الى مائدة النقيب فأكثر من اكل الزيتون — اكل على ما اذكر ثلاث حبات ، وهو يحن الى صحراء الشويفات . فجاءنا من مولانا في اليوم التالي جرة من الزيتون واخرى من الزيت . أتبغي اوضح من ذلك دليلاً على عجيب مواهب النقيب وتعددها ؟ ان القابلية للطعام كمثل غيرها من المحاسن البشرية . بل هي ، مثل الكرم والذكاء والتيقظ وحسن الحديث ، واحدة من المواهب التي يغدقها الله على من يشاء من عباده . وقد خص هذا الرجل الكبير بكثير منها كلها . اني لا انساه حياتي وهو يأكل كالشاب ، ويحدث كالشيخ ، ويراقب من طرف خفي كالمرأة فلا يفوته شيء مما له ومما عليه .

وما كنا في الحديث لندنو من السياسة الا نادراً . اذكر انه مر بالموضوع مرة فقال انه شديد الرغبة في العزلة . ولولا الحاح المندوب السامي وزملائه في بداءة الامر ، قبل التتويج وبعده ، لما كان يقبل ان يدير سياسة البلاد . ولكنه بعد ان وقع المعاهدة واحس ان الفكرة في القصر تزداد صلابة وظهوراً عليه ، وان دار الانتداب تميل تسللاً اليها ، ورأى فوق ذلك ان مقاومة المتطرفين تزداد شدة وعناداً ،

نزع بحكم رد الفعل الى التسلط والاحتفـــاظ بمنصبه . ولما صدر امر الحكومة بمباشرة الانتخابات للمجلس التأسيسي ، واصدر على اثره احد المجتهدين في النجف فتوى بان الانتخاب مخالف لقواعد الاسلام، رأيت فضيلة النقيب مضطرباً وسمعته غضوباً :

ـ في البلاد وطنيون كثيرون وكلهم رجال سياسة . ولكن ليس في رؤوسهم عيون تريهم مـا هم فيه . اين هم من البلاد ، واين البلاد منهم ؟ كانوا امس تحت اقدام الترك ، واليوم يبيعون البلاد الى الترك بفلس لينتقموا ممن يظنونهم اعداءهم . نحن اخذنا الامر على عاتقنا ، ولا نسأل التوفيق من غـــير الله ، ولا نتوكل الا عليه سبحانه وتعالى ... امـا اجتمعت بالوطنيـــين يا افندي وسمعتهم يتبجحون ؟ غداً تجتمع بكبارهم في كربلاء والنجف ... نصف هذا الاجتهاد جهل ، ونصفه عناد .

ذكرني كلامه وتغيظه بالكلمـــة الانكليزية المأثورة التي قالها الفيلسوف جونسون فترجمتها لفضيلته : ان حب الوطن ملجأ المنافقين الاخير [1] . فسر بها جداً .

ـ خوش كلام . خوش حكمة . الانكليز يا افندي امين احكم الناس بالرغم عن سيئاتهم كلها . هم ينـــافقون ولا شك ولكنهم لا يسمون نفاقهم اجتهاداً ولا يخلطون الدين بالسياسة . هم يحبون انفسهم ولا شك ولكن حب الذات يختلف عندهم عما هو عند سواهم . عند الالمان مثلاً حب الذات نيء بارد لا تقبله الناس . اما عند الانكليز فهو ناضج وفيه شيء من الابازير هي لبعض النـــاس مثل السم . عند

(١) «Patriotism is the last refuge of the scoundrel.» - Samuel Johnson.

الانكليز العلم ، وعندهم المال ، وعندهم الحكمة . اما الوطنيون في البلاد فأي شيء عندهم ؟ هل هم يحبون البلاد اكثر منا وهي بلادنا قبل ان تكون بلادهم ؟ واكثرهم لا يزالون من الاجانب ... اعـــد المثل الانكليزي . حب الوطن آخر ملجأ للمنافقين — خوش كلام ، خوش حكمة .

ولكنه بعدئذ ، ولعله كان عالماً متجاهلاً بان السياسة ، بريطانية كانت او عراقية ، لا تعرف الثبات والوفاء ، فقد استنصره واستخدمه الانكليز الى ان تمت مقاصدهم فيه ، الى ان تم توقيع المعاهدة ، وبعد ذلك هجروه . وقبل الهجر ، عندما اراد السيادة والتغلب ، خذلوه .

عبد المحسن السعدون

في النادي العراقي روح اجتماعية وطنية صحيحة لانها مبنية على المساواة والاخاء ، ولانها فوق ذلك مختلطة اي انها عراقية بريطانية . ما رأيت الانكليز قبل اليوم ولا سمعت بهم يخالطون اجتماعياً من يحكمونهم او يساعدون في حكمهم من الشعوب . اما في العراق فالروح الجديدة يستبشر بهـا . قد تعرف في لعب الورق شيئاً من اسلوب خصمك في السياسة . والذي ادهشني من الموظفين والمستشارين البريطـانيين في العراق ان اكثرهم يحسنون التكلم بالعربية . كنت اجتمع بهم في النادي وارى بعضهم جالسين الى تلك الطاولة الخضراء يحاولون كسب روبية من زملائهم العرب .

اجل ان في النادي طاولة خضراء يجتمع اليها الوزراء بعد الظهر ، ساعة الشاي ، ليحافظوا على الموازنة النفسية بينها وبين تلك الطاولة الاخرى في السراي . فقـد كُتب لي ان ارى الوزراء يلعبون

ساعة بالورق ليبددوا هموم الاوراق الرسمية والمعاهـدات . وليس في ذلك ما يؤاخذون عليه، بل فيه برهان على ان للفلسفة العملية مقاماً عندهم محترماً .

ان الطاولة الخضراء في النادي العراقي مثل الحكومة العراقية قليلة الموارد محدودة الخراج ، ولها ان تفاخر غيرها بالكيفية لا بالكمية . هي برجالها تفتخر لا بالعابها واموالها . هاك على رأسها الاخصائي المالي ساسون افندي . من وكلت الامة اليه امر ماليتهـا ، يجيء كل يوم ، وهـو اثبت في ذلك من قيم النادي ، ليفــادي بشيء من مـاليته . ولكني لم اسمع انه خرج مرة خاسراً ، او ان ارباحـه كانت تتجاوز الخمس روبيات . وكلهم في لعب الـ « بريدج » اخصائيون . الا ان الكسباني امـين كان يسدد حسابه في الفندق من حسابه في النادي . لانه في الـ « بريدج » مثله في التحفظ السياسي سيد الاخصائيين .

قد ذكرت النادي لاني اجتمعت فيه لاول مرة بزملاء سيدي النقيب ، بساسون وصبيح ونوري وياسين وبالسعدون عبـد المحسن موضوع حديثي الآن . واظنني فضحت نفسي في ما كنت اجهل من امر آل السعدون ومـا لهم من السيادة والنفوذ في العـراق . على ان من يقابل وزيراً لاول مرة في تلك الحال لا يلام اذا نسي التاريخ او تناساه . ظننتها جلسة « بوكر » وظننت الاعضاء مثل غيرهم في اندية القمار فسلمنا وما تحدثنا . بل نسيت الرجل فخجلت بعدئـذٍ مما كان . ضاع وجه السعدون بين الوجوه العديدة التي كانت تمـر صورها امامي في تلك الايام فلا ينطبع في الذهن منها الا القليل . ثم اجتمعت به مرة ثانية في نادي الحزب العراقي الحر الذي خطبت

فيه ، وكان هو جالساً الى جنبي ، فسلم علي فسلمت وانا اذكر صورة وجهه ولا اذكر اين بدت لي سابقاً . فسألته ، فاضحكني بلطفه وابتسامه .

اجتمعنا بعد ذلك مراراً ، وكنت كل مرة ادنو منه اراه بعين التصور قبل ان اراه بعين الجسم . فيتمثل امامي لابساً العباءة والعقال ، راكباً الهجين ، قائداً الى الغزو العربان . اجل ، ان صاحب المعالي عبد المحسن السعدون هو الوزير الاول في وزارته الذي تبدو فيه العروبة الحقة ، والثاني هو عبد اللطيف باشا المنديل . اما الاخرون ففي ظاهرهم مستعجمون . ناجي السويدي اشبه برجل من شمال اوروبا . صبيح بك نشأت هو في تركيته اظهر منه في عروبته . جعفر ونوري من الاكراد ، وساسون افندي حزقيل من العالم — من الاسرائيليين في العالم . اما السعدون فمن العراق . من صميم العرب ، ووجهه اصدق اخباره الصادقة .

هو رجل في العقد الرابع من العمر [1] ربع القامة ، اسمر اللون ،

---

(١) ولد سنة ١٨٧٩ م في الناصرية مركز لواء المنتفق ، وكان يومئذ والده فهد باشا حاكماً في اللواء واميراً على جميع عشائره ومقرباً من المابين . فطلب منه السلطان عبد الحميد ان يرسل ابناءه الى الاستانة ليتعلموا في المدرسة التي كان قد انشأها خاصة لابناء رؤساء العشائر ، فارسل فهد باشا ابنيه عبد المحسن وعبد الكريم. وكان عبد المحسن يوم سافر الى الاستانة في الثالثة عشرة من سنه فتخرج من المدرسة المذكورة ، ثم دخل واخوه المدرسة الحربية العالية فتخرجا منها ضابطين في الجيش العثماني ، فاختارهما السلطان عبد الحميد مرافقين له في المابين ، وبقيا في تلك الوظيفة الى اعلان الدستور ، وترقيا اثناء ذلك في الجندية الى رتبة بكباشي . على انهما استقالا من الجندية بعد سقوط عبد الحميد ، فرجع عبد الكريم الى وطنه ليهتم باملاكه التي في البصرة وفي المنتفق ، وبقي عبد المحسن مقيماً في الاستانة . ثم انتخب

حسن البزة ، اوروبي حتى رأسه — حتى الاستثنائية اريد . فالرأس اسود الشعر قصيره ومثل كتلة المدفع مستدير ، والعين فيه كالمشعل بين الليل والغسق . والفم عدل الا انه قاس قلما يبسم وقلما يتكلم . ولكنه عندما يتحرك يؤنس ، اذ تسارع اليه نفس جذابة فتمتزج بكلماته القليلة ، وفيها مضاء وليس فيها جفاء . رجل سكوت وكل سكوت لغز لمن لا يعرف شيئاً من سابق حاله . على اني الفت السكوت في من سافرت معهم من العرب . فكنا نسير ساعات في النهار جنباً الى جنب دون ان نفوه بكلمة واحدة . وكنت غالباً اعجب بما يخبئه السكوت فيهم من شمم وكرم وذكاء .

وهوذا السعدون عبد المحسن العربي السكوت ، ويحق لي ان اقول الآن السكوت العزوم . فقد برهن في وزارته التي استمرت سنة [1] على انه فعال لا قوال ، وعليم في ما يفعل حكيم . كانت نفسية البلاد من حيث المعاهدة ، التي رُفعت منها لفظة الانتداب ولم تمس قيوده ، كما وصفت في ما سبق ، عندما استلم زمام السياسة العراقية . فاقدم السعدون على عمل يعد من اهم اعمال وزارته ولسان حاله يقول : لا نضحك من الامة فنصور لها الانتداب خيالاً زائلا ،

تابع شرح صفحة ٣٧٦

نائباً في مجلس النواب العثماني عن المنتفق وظل كذلك الى بداءة الحرب العظمى ، فرجع اذ ذاك الى وطنه العراق وتقلد بعد وصوله منصب وزارة العدلية في الوزارة النقيبية الاولى ثم وزارة الداخلية في الوزارة الثانية التي استقالت في شهر آب سنة ١٩٢٢ . والف الوزارة في كانون الاول من العام المذكور واستقال في تشرين الثاني ١٩٢٣ . وانهى حياته منتحراً وهو على رأس الحكم ثانية وذلك سنة ١٩٢٩ .

(١) تألفت في كانون الاول سنة ١٩٢٢ واستقالت في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ .

ولكننا نخفف عليها ثقل القيود . فتم عقد الملحق بين حكومة العراق وبريطانيا الذي بموجبه أنزلت مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات [1] .

ولتلك المعاهدة ملحقات أخرى تتعلق بالجندية والماليـة والقضاء وبشروط استخدام الموظفين البريطـــانيين في الحكومة العراقيـة . فتوفقت وزارة السعدون الى عقد الملحق الذي يتعلق بالقضاء ودرست الملحق الذي يختص بالموظفين البريطانيين ، فقدمت به لائحة فلم تقبلها حكومـة الانتـــداب . وسعت في تحسين الصلات بين العراقيين والبريطانيين فكان سعيها مبروراً وان لم يكن مثمراً . وجاهدت في سبيل الميزانية فافلحت ، اذ اعادت اليها التوازن بالرغم عن التخفيض الذي اجازته في رسوم الاراضي الاميرية ورسوم المواشي والنخيل . ولكن هناك صخرة اصطدمت بها فحملها ذلك على الاستقالة .

يذكر القارىء ان في المعاهدة بنداً يوجب على الملك ووزارتـه وضع دستور للبلاد ثم انتخاب المجلس التأسيسي للنظر فيه وتنفيذه . فقد وضعت وزارة سعدون الدستور واصدرت قراراً يوجب مباشرة الانتخاب : فاعترضها في ذا السبيل مـــا اعترض الوزارة السابقة من مقاومة علماء الجعفرية (الشيعة) . ولكنها تغلبت عليهم بعض التغلب

(١) هذا نص البروتوكول اي الملحق بالمعاهدة :

قد تم التفاهم بين الفريقين الساميين المتعاقدين على انه مع وجود نصوص المادة ١٨ يجب ان تنتهي المعاهدة الحالية عند دخول العراق عضواً في جمعية الامم وعلى كل حال يجب ان لا يتأخر انتهاؤها عن اربع سنوات من تاريخ عقد الصلح مع تركيا . وليس في هذا الاتفاق ما يمنع عقد اتفاق آخر لتنظيم ما يكون بعد ذلك من العلاقات بين الفريقين الساميين المتعاقدين. ويجب الدخول في المفاوضات بينهما لاجل ذلك الغرض قبل انتهاء المدة المذكورة اعلاه .

اذ قد تم في عهدها انتخاب المنتخبين الثانويين ولم يبق سوى انتخاب الاعضاء .

هي ذي العقبة الكؤود . قد سمعت ما قاله النقيب عند تغيظه في هؤلاء الاقوام ، واكثرهم من الاعجام . ان بسياستهم الوطنية اصولاً ونزعات كلها او جلها ولا شك مذهبية ايرانية . وان لعلمائهم في العراق نفوذاً يفوق نفوذ اعلى المقامات الرسمية . وفيهم المجتهدون الذين « يجتهدون » دائماً ان يعرقلوا مساعي الحكومة . ازعجوا السعدون كما ازعجوا سلفه النقيب . فاصدروا الفتاوى الدينية ضد الانتخاب والانتداب .

هاك ما حمل السعدون ، السكوت العزوم ، بالرغم من تردد الملك والمندوب السامي ، على العمل الذي يعد من اكبر اعماله ، اذا اعتبر فيه العزم والشجاعة فنفى الى الحجاز آية الله الشيخ مهدي الخالصي اكبر مجتهدي الكاظمية [1] والعراق ؛ فاحدث ضجة في البلاد ظن انها ستفضي الى ثورة ثانية . على انه لم يكن من نتائجها غير احتجاج نفر من العلماء فساروا الى ايران مغضبين .

اما جلالة الملك فقد كان يؤيد في البدء قولا وفعلا سياسة وزارته بالرغم عن احتجاج الشيعة في العراق وايران . وبما ان اكثر اهل الشيعة في العراق من التبعة الايرانية ، وهم ثابتون فيها ، فقد اصدر منشوراً طلب منهم فيه ان يتجنسوا بجنسية البلاد ليحق لهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العراقيون . فزادهم المنشور سخطاً وتمرداً . وقام اولئك الذين ظعنوا الى ايران يتقدمون الشعب الايراني في التظاهرات على الملك فيصل ، وعلى المندوب السامي البريطاني . ثم

---

(١) زميله هو السيد صدر الدين .

اعلنوا مقاطعة البضاعة البريطانية .

قد احتجت كذلك حكومة طهران الى حكومة العراق فاحس بعض الخاصة في الدواوين بسلك كهربائي انكليزي في ذاك الاحتجاج. هزّ دار الانتداب في بغداد فتأثر القصر والمجلس ، فقال جلالة الملك بعد المذكرات ما قاله فخامة المندوب — ولكن العلماء استمروا مكابرين معاندين فقالوا انهم لا يرجعون الى بلادهم الا اذا نفذت اربعة شروط ، وهي : — اخلاء الانكليز للقطر العراقي ، — استقالة الوزارة الحاضرة ، — تحديد زمن الانتخاب ، — ادخال عدد من الشيعة في المجلس النيابي ، قال المندوب السامي ... فقال الملك فيصل ... فقالت الوزارة : الوداع .

وما اجمل التغيظ في الرجل الجريء العادل . قد جاءني من معالي الوزير كلمة بعد استقالته يقول فيها : « احببت ان اسعى لرفع الغشاوة الفكرية عن اخواننا الشيعة وانارة بصائرهم بالحقائق . فبينت لهم ان الموكل موهوم والموَكل غشوم . لقد قمت بهذا الامر في هذا المحيط وهذا الزمان وتحملت من الاعباء ما تحملت لافتح طريقاً لاخي الوزير الشيعي فيتمم ما بدأت به . وحينئذ يبدأ بتغيير عام لطرد جيوش الرياء والاوهام ، وينفخ في صور الاخاء والمساواة وتتم نبوءة اشعيا الفيلسوف حيث السباع والغنم يرتعون سوية ، ويسود سلام في العالم وسلامة الضمير في بني الانسان » .

هوذا عربي يحلم مثل النبي اشعيا الاحلام وينشد المثل الاعلى في العالم . وهو في موقف العمل كما تبين يفقه حقائق الحياة الوضيعة وما بينها كلها من صلة العقل والخيال . وان السعدون صريح اذا قال ، مخلص اذا مال : سألته عن رأيه في السياسة العراقية الوطنية وما هي

عقيدته تجاه الانكليز. فاجاب بما لا يقبل التفسير والتأويل « اني اعتقد ان منفعة الوطن تقضي علينا في الوقت الحاضر بان نكون في سياستنا تجاه الانكليز مصادقين لهم لاننا محتـــاجون اليوم اشد الاحتياج في نهضتنا السياسية الحاضرة الى يد مساعدة ودماغ راق نسترشد به . ولا نجد في هذا الباب خيراً من الانكليز . ولكن على شرط ان لا يجحف ذلك باستقلال البلاد او بمنافعها » .

جعفر العسكري (١)

زرته لاول مرة في وزارة الدفاع التي كان يومئذ وزيرها . وكان

(١) هو مثل سلفه السعدون في العقد الرابع من العمر ، وقد تلقى العلوم مثله في المدرسة الحربية في الاستانة ، فخرج منها ضابطاً ثم سافر الى المانيا ليتمم دروسه الفنية وقد بدا من نبوغه لانور باشا في الحرب العظمى ما حمله على ترقيته الى رتبة باشا وارساله على غواصة الى بنغازي لقيادة متطوعي العرب الذين كانوا يقصدون الزحف على البلاد الداخلة في المنطقة الايطالية . فقادهم جعفر وحدث على الحدود المصرية قتال بينهم وبين الجيش البريطاني فجرح في المعركة ، فاعتنى به رجال الصليب الاحمر ونقل بعد ذلك الى القلعة في القاهرة . فحاول التفلت من الاسر فوقع فانكسرت رجله فلازم الفراش ستة اشهر .

وكانت الثورة العربية في بداءتها والضباط العرب ينضمون اليها ، فكتب لجعفر ان يكون منهم ، فجاء سنة ١٩١٧ الى مكة ثم الحق بالجيش العربي الذي كان مرابطاً حول المدينة . ثم ارسل الى العقبة فعين قائداً من قادة جيش الشمال . وبعد فتح الشام تعين مفتشاً عاماً للجيش العربي في سوريا ، ثم حاكماً عسكرياً لولاية حلب، ثم رئيساً لحجاب جلالة الملك ، وبعد واقعة ميسلون عاد الى بغداد ليساعد في تأسيس حكومة وطنية ، فتعين وزيراً للحربية في الحكومة الموقتة اي قبـــل التتويج، ثم في وزارتي النقيب الاولى والثانية . ولما دعا المستر تشرشل رؤساء مندوبي بريطانيا في الشرق الادنى لمؤتمر القاهرة كان جعفر باشا ممن رافقوا مندوب العراق السامي وشاركوا في البحث في امور العراق المالية والعسكرية وفي شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ كان مندوباً للحكومة العراقية في لندن .

الحر شديداً ، فدخل والعرق يتصبب من جبينه يجر ما فرضه الله عليه من وزر السمن ، كأنـــه مدفع يتحرك بنفسه ، او كأنه في ساحة القتـــال حيث لا ترسم ولا تجمل . جعفر باشا لا يكذب اسمه ، فهو اولاً وآخراً عسكري ، يسرع ولا يتكلف في مـــا يقول ويفعل . سلم سلام الاحباب ونزع « ساكوه » وجلس في الكرسي وراء منضدته وهو يروح بمروحة من القش ويتكلم . فتمثل امامي رجلاً اميركياً ، رجل عمل واهلية ، من اولئك الذين يديرون ادارات كبـيرة بالضغط على زر كهربائي . اما وزير الدفاع في الحكومة العراقية فكان يصفق كفاً على كف ليعطي اوامره . وهذا لا يهم عند روح العمل الجديدة التي تتمثل في جعفر وزملائـــه ــ روح العمل العصرية المجردة من خزعبلات الابهة الشرقية وسخافات اللياقة كلها .

ــ والله يا استاذ عندنا رجـــال وعندنا وطنية . ولكن الادارة مفقودة والمال ، اين المال . مثلنا ، او بالحري مثل الحكومة التي تولت في البدء امرنا ، مثل شاب ورث ثروة من ابيـــه فخسرها في القمار . بذل البريطانيون في سنة واحدة من المال في البلاد ما يكفي جيشاً وطنياً كبيراً خمس سنين . ولا اثر ولا نتيجة لما بذلوه . والآن نحن في اشد حاجة الى المال هم ينفضون ايديهم ويرونا كيساً فارغـاً . مبدئي الوطني واملي وعملي تتوقف كلها على تنظيم الجيش العراقي . يقول لنا الانكليز ، ساعدوا انفسكم نساعدكم . وهذا صواب ولكنهم افسدوا علينا وهم لا يدرون موارد المساعدة . عندما تكون البلاد في هياج سياسي يصعب على الحكومة فيهـا اية كانت ان تجبي اموال الخراج .

ــ وما هو عـــدد الجيش العراقي الذي باشرتم تنظيمه ، وما هي

حالته ؟

– عدده خمسة الاف وحالته المعنوية غير ما تروم . لا تظن ان السبب في ذلك نقص في الوطنية . لا والله . انما هو دليل من احد الوجوه على الوطنية . وهذه هي الورطة التي نحن فيها الآن . ندعو شبان البلاد الى التجند فلا يلبون واذا لبوا فيجيئون يعرجون ولسان حالهم يقول : اذا كان الانكليز يبغون الاقامة في البلاد فليدافعوا هم عنها . ومن وظيفتي انا ان اقنعهم بان الانكليز ، وهم في البلاد غير مقيمين فيها ، وانهم وهم الاغنياء بالمال والرجال ، لا يستطيعون الدفاع عنها مع رغبتهم فيها . هل تعرف وزيراً في حكومات العالم اليوم هذا موقفه في السياسة والمنطق ؟

جعفر باشا حر الكلمة صريح الاشارة والعبارة . سألته رأيه في احد رجال السياسة العراقيين الذي كان يومئذ من المرشحين لرئاسة الوزارة فقال : اي رجل آخر احسن منه . درهم من الاهلية يا استاذ خير من قنطار مقامات . البلية الكبرى في هذه المقامات التي ليس فيها غير الادعاء والسخافة .

وهو ان رفعته الجدارة الى اعلى المقامات لا يكتفي بما عنده من خبرة وحكمة بل يسعى دائماً في ما فيه زيادة وتحسين . قد اخبرت القارىء في مطلع هذا الفصل بان حسين افنان سكرتير مجلس الوزراء هو استاذ في علم الاقتصاد ، ولا فرق في مصادر علمه اصلية كانت او منتحلة . فكنت ارى الحسين مكباً على ترجمة آدم سميث [١] وغيره من اساتذة هذا العلم واعجب باخلاصه ، وبقوله : خير لي ان اترجم عن الثقات من ان اجيئهم بما يجلب اللعنات . انك لترى الفقيه

(١) The Wealth of Nations , by Adam Smith

والاديب والوزير في مَن يحضر تلك الدروس الاقتصادية ولست مبالغاً في ما اقول .

دهشت يوم اخبرني جعفر باشا بانه يحضر دروس السيد افنان وازددت اعجاباً بمعاليه . اطلب العلم من المهد الى اللحد . ليس اشرف من الحديث النبوي المأثور غير الحديث النبوي المتجسد في وزير من وزراء العرب وهو تلميذ من تلاميذ كاتب سره .جاء جعفر باشا يزورني يومئذ في البيت ويدعوني للعشاء في بيته .

– لا نظنك تؤاخذنا ونحن لا نزال في ما هو اشبه بالكوخ . ولكنه خارج البلد فتمر في طريقك ببساتين يروقك منظرها .

ثم تطرق في حديثه الى الانكليز ، وهو معجب بهم متخوف منهم ، الانكليز وجعفر مثل الحية والعصفور . ولكن الوزير العراقي وان وقف امام الحية مسحوراً ، فلا يمكنها منه . اسمع ما يقول :

– يجب ان نتفاهم واياهم ونتفق . وخير البر عاجله . الانكليز يختلفون عن بقية الناس . هم وحدهم يا اخي – ممتازون ! نزلوا من السماء في قفة . افلا ترى كيف يسلكون في نهارهم وفي ليلهم ؟ يلبس الجندي منهم البنطلون القصير فيكشف ساقه حتى الركبة – ابن عم البرابرة – ولكنه في المساء ، اذا دعي للعشاء ، تراه في ثوبه الرسمي وفي سلوكه كأنه من الاعيان . فلو كانت هذه الحرية لنا لكنا برابرة في النهار وفي الليل ... يجب ان ندرس هؤلاء الانكليز ونفهمهم ، ونتفاهم واياهم . هم لازمون لنا في الوقت الحاضر .

وقد حاول في السنة التي تولى فيها رئاسة الوزارة ان يفهمهم ويتفاهم واياهم ، فدرست وزارته ملاحق المعاهدة الثلاثية الباقية اي تلك التي تتعلق بالجندية والمالية والموظفين الانكليز . ولكن المجلس

التأسيسي ، او بالحري اللجنة التي عينها المجلس لدرس تلك الملاحق والاتفاقيات ، رأت ان الشروط فيها فادحة فتفاقمت على الوزارة الاحتجاجات ، فاستقالت .

ياسين الهاشمي

كان ياسين باشا [1] من المغضوب عليهم في دار الانتداب يوم كنت في بغداد ، وكانت المس بل مع ذلك تعجب به وتحترم آراءه . وقد يصح فيها وفيه ما قلته في جعفر باشا والانكليز . هما مثل العصفور والحية . على ان الآية تعكس ها هنا ، فلا تنحصر الحكمة والجاذب في المرأة .

كنت اجتمع بياسين باشا في النادي فاسمعه يجهر برأيه ضد الانكليز او بالحري ضد حكومة الانتداب . وكانت المس بل تدعوه لمائدتها

....

(١) ولد ياسين باشا الهاشمي في بغداد سنة ١٣٠٣ . تخرج في المعاهد التركية فيها ودخل بعدئذ في المدرسة الحربية بالاستانة وخرج منها في سنة ١٣٢٠ برتبة ملازم ثان وبعد ان درس سنتين في مدرسة ضباط اركان الحرب تقلد عدة وظائف في الجيش التركي الى ان اعلنت الحرب العامة وهو وقتئذ رئيس اركان حرب . وقد اشترك في مواقع غاليسيا وغيرها وكان في رأس الفيلق الثامن لما انهزم الترك في سوريا فانخرط في الجيش العربي وعين رئيس اركان حرب حاكم سوريا العسكري ورفع الى رتبة امير لواء وعين رئيساً لديوان الشورى وقد خطفه الانكليز ونفوه . وبعد رجوعه من المنفى احتل الفرنسيون سوريا فعاد الى مسقط راسه بغداد سنة ١٣٤٠ فعين متصرفاً للمنتفق . وبعد ان تولاها مدة شهرين عين وزيراً للاشغال والمواصلات في وزارة عبد المحسن السعدون . ثم انتخب نائباً عن لواء بغداد في المجلس التأسيسي . وكان رئيساً للجنة تدقيق المعاهدة العراقية البريطانية ولجنة قانون الانتخاب ولما اتم هذا المجلس اعماله واعتزلت وزارة جعفر العسكري انتدب لتأليف الوزارة في ٢ آب سنة ١٩٢٤ ،

فيجيء في ثوبه اليومي وبآرائه التي هي مثل ثوبه طليقة ، لا تقيد فيها ولا ادعاء .

وكان على الدوام كئيباً . وكانت الكآبة بليغة مستحبة ، تنظر من عينه السوداء كأنها تقول : ان هدوء نفسه ، وحسن وجهه ، وشجا صوته ، انها كلها مني . ظننت تلك الكآبة من خلقه ولكني ، علمت بعدئذٍ ان ابنه الصغير الوحيد كان مريضاً ولا يرجى شفاؤه فاغلقت في وجهه ابواب الطب كلها ، وانصرف عنها وعن الاشغال يسعى بما عسى ان يصل الى عرش الرحمة الاعلى ، فيأذن الله بشفاء صغيره العزيز .

لم يستجب الله طلبة عبده . وعندما رحت اعزي ياسين باشا الذي كان يومئذ وزير الاشغال في وزارة السعدون ، استقبلني هاشاً ولم يأذن بتلك الكلمة المألوفة التي لا تغني فتيلاً . ما شاء الله كان . هو مثل داود النبي تقي في المصيبة ، فيلسوف في الاحزان .

ولكنه في السياسة لا يستسلم دائماً الى الاقدار . اما وفي ذلك الوقت كان رئيس الوزارة التي خلفت الوزارة الجعفرية ، وكان رئيس اللجنة ، لجنة تدقيق المعاهدة ، التي عينها المجلس التأسيسي ، فماذا عسى ان يكون موقفه في سياسة اصبح لا يملك غير طرف واحد منها ؟

جاء في تقرير اللجنة ان في بنود المعاهدة والملحقات ما يثقل كاهل العراق فلا يمكنه القيام بتعهداته . ثم تطلب اللجنة التعديلات الآتية :

— التصريح باستقلال الدولة العراقية .

— التصريح بالغاء الامتيازات الاجنبية قضائية كانت ام اقتصادية .

— الحكومة العراقية حرة في تنظيم ميزانيتها السنوية .

— التصريح بان الحكومة العراقية ستصبح حكومة حرة مستقلة

ذات سيادة تامة عند دخولهـــا في عصبة الامم او عند انتهاء الاربع سنوات .

وهناك تعديلات فرعية تتعلق بالاتفاقيات المالية والعسكرية .

فمهما قيل في وجوب هذه التعديلات كلها لا اظن معالي الوزير الجديد يسعى في نقض قاعدة مالية اجمعت الامم على صحتهـا . يقول العراق لبريـــانيا : يجب ان تسحبي قواتك من العراق ويجب ان تقرضيني مالاً لانشىء جنداً وطنياً يقوم مقامهـــا . فتقول بريطانيا للعراق : يجب ان تعطيني ضمانة على المـــال وستبقى بعض قواتي في البلاد الى ان تسدد الدين .

هوذا المشكل الذي يُرجى حله في عهد الوزارة الهاشمية خصوصاً لان فيها اخصائياً في التجنيد هو رئيسها واخصائياً مالياً هو ساسون افندي (١) .

جرترود بل

النادي العراقي مختص بالرجال دون النساء، ولكنني سمعت يوماً

(١) كان الوزير الثابت في الوزارات العراقية لان ليس في العراق من يضاهيه في علم الاقتصاد والتضلع من ادارة الشؤون المالية . ولد ساسون حزقيل في بغداد في ١٧ اذار سنة ١٨٦٠ وتلقى علومه في بغداد ولندن وتخرج في الحقوق بفينا عاصمة النمسا . وقد شغل عدة مناصب ادارية في الحكومة العثمانية الى ان انتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٨ وكان رئيساً للجنة المالية في ذاك المجلس سنين عديدة ، وعين مستشاراً لوزارة التجارة والزراعة في الاستانة . ولما تألفت الحكومة الموقتة في العراق في تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عين وزيراً للمالية وبقي في الوزارة المذكورة ثلاث سنوات اي الى ان استقالت وزارة السعدون. ولما تألفت الوزارة الهاشمية في شهر آب سنة ١٩٢٤ اسند اليه المنصب نفسه

صوت امرأة في غرفة القراءة ، فدخلتها فاذا هناك المس بل وأحد الوزراء يتجاذبان اطراف الحديث كما يقال . وكنا يوماً مدعوين انا والسيد افنان لمأدبة فمررنا بأحد المستشارين ظننا منا بانه وزوجته من المدعوين فقال المستشار : انا ارافقكم اما الست فلا . يظهر ان الليلة مختصة بالرجال . فقلت : وقد سمعت ان المس بل ستكون هناك . فقالت السيدة زوجة المستشار : ولكن المس بل ... وسكتت .

نعم ، ان المس بل في صفتها الرسمية لمن الرجـــال . فهي لا تقيد نفسها بما يقيد بنات جنسها . وهي تغضبهن لان الحرية التي الفتها لا تأبه للاصطلاحات العقيمة . على ان الوظيفة تضطرها احيانا الى ما يظنه الناس تعمداً في الخروج عن المألوف . وهي في صفتها الرسمية تعمل عمل الرجال . بل هي شبه وزير دار الانتداب وعليه سأفسح لهـــا في هذا الفصل مجـالاً . ولا اظن اصحاب المعالي الوزراء يستنكرون او يعترضون .

ان السيدة جرترود بل كاتبة اسرار المندوب السامي في الامور الشرقية او رئيسة القـــلم الشرقي في دار الانتـداب [1] لمن اولئك الانكليزيات القليل عددهن اللواتي يستشرقن او يتعرّبن لدافع فيهن نفسي بل روحي يصعب تعليله على مـا اظن بغير ناموس التناسخ او الوراثة البعيد الاسرار والاسباب . ان امرأة عالمة ، نشيطة ، حصيفة ، ذات عزم ومضاء مثلها ، لتجد في بلادهـا من دواعي العمل والشهرة والفخار ما يرغبها عن البلدان الاجنبية ولكن نزعة فيها الى الشرق ، الى العرب ، تغلبت على كل آمالهـا ومطامعها ، فجاءت الشرق الادنى سائحة ، طالبة علم ، وجالت في البلاد العربية ، فقطعت الصحراء الى

(١) Oriental Secretary to the High Commissioner.

جبال شمر وحائل ، وآخت العربان ، ووضعت كتباً عن العرب والبلاد العربية والسورية فيها العلم مقرون بالعطف والاخلاص . ثم جاءت ايام الحرب الى بغداد فكانت للقيادة العامة والوكلاء السياسيين عوناً كبيراً في ادارة شؤون البلاد .

ان المس بل لتعلم من امور العراق وعشائره ومشايخه واشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر ان يعلمه سواها ، وهي تتكلم العربية بلسان تخف اللكنة فيه وتجالس العرب فتستأنس بهم ، ولا تكلف ولا عناء ، كأنها تجالس من تحب من ابناء جنسها ، بل كأنها عربية بنت عربي .

امرأة طويلة نحيلة جليلة ، تكاد تكون مجموعة اعصاب وافكار ، هادئة الاشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب في حديثها العقل ، وتتغلب في عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل اشياء ناضجة مستوية ، تزاحم العقل والسياسة احياناً فتجيء تارة عفواً وطوراً تنم عن اجتهاد وعناء .

حدثني احد المستشارين قال : طريقه المس بل السياسية قديمة ، وهي مع ذلك لا تركن في الامور لعقلها دائماً ولا لقلبها . وقال آخر : الناس يأبون التأديب اسواء كانوا عراقيين ام انكليز .

ولكن المس بل لا تجبه العراقيين بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة . بل تجيئهم مراراً وهي تحمل هدية بدل القضيب . هوذا قلبها عربون اخلاصها ايها الزعيم الوطني . هي ام المؤمنين يقيناً . واذا رفضت الهدية والمشورة ، اذا ابيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت الى يوم وقفت مستعطفاً او محتجاً في دار الانتداب .

لذلك لا يبادلها العراقيون الحب والوداد . ولكنهم يحترمونها ، ويعجبون بها ، ويودون لها ما يوده المرء لعمته او الفتاة لخالتها . لا تحبينا كثيراً عافاك الله ولا تتدخلي كثيراً في امورنا [١] .

(١) وافتها منيتها في بغداد سنة ١٩٢٦ .

الملك فيصل والعراق

اصحاب القوافي

السياسة والمقاهي – الفرج في التدخين – الشعراء – معروف الرصافي في القريكة – في الاستانة – الرحالة والشاعر في بغداد – الشاعر الناقم على الجميع – المس بل تحافظ على اللياقة في الصحافة – الشاعر يؤنبها – غضب المرأة الراقية – لا منفى للشاعر – ذنب الحرية – عقيدته في الدين – اقاربه في العالم – شيء من شعره في الشعر –
من ذا القادم من المعرة راكبا حماراً أين اتان ؟ – وصف الزهاوي – شيخ زاهد – ليلى الاخيلية تمسح دموعه – شكاية الشاعر الفيلسوف – قصة شاعر الملك – « لا امــدح بالاجرة » – المبتذل في شعر الزهاوي – « نزعات الشيطان » – حقائق رائعة – « ياشرق ويا غرب ؟ » – الشعر الحقيقي .
اولئك الذين يكفرون الناس – نقيق الضفادع – الاعظمية والكاظمية وراهب كبوشي كرمي – التقليد والتقييد والتعقيد – شاعر لا قلب له – اوهام الخيرية والاحسان – الدجيلي شاعر القوة القاهرة – هنــلي ونيتشي – شيء من شعر الدجيــلي – الـ « ريالزم » realism في شعره – مادي يهتم بالارواح – وطني يقرّع ابناء قومه ومذهبه – رابع الكفرة – ان الكرام قليل – « الفقر يشيعهم من الديوان الى البيت » مجيد الشاوي – في وجهه شيء من الأسد والنمر – وليس على صدره نيشان – ولا يعرف التلسم – الى من ينتسب – ابن عمي – المعري والخيام – في مجلس السيد محمود النقيب – جدال في حلم النبي وحنانه – وما ذنب النساء في الحروب؟ – دائرة معارف الادباء في العراق روفائيل بطي – مثال من نثره وشعره المنثور .

لولا الشعراء في العراق لسئمت السياسيين ، ولولا السيــاسيون لفررت هارباً من الشعراء . وبكلمة اوضح لولا الفريقان حولي لكنت من الهالكين . بيد اني مشيت مثل البلهوان على حبــل الاحتفالات والتكريم ، احمل بيدي خيزرانة التوازن وفي احد طرفيهــا اكرة

السياسية وفي الآخر قيثارة الشعر . تباركت الامة التي يتوازن فيها الشعر والسياسة .

ليس في امم الارض على ما اظن من يهتم بالسياسة اهتمام الامة العربية . وليس في الاقطار العربية كلها من يشغفون بالسياسة شغف العراقيين . في مدينة بغداد مثلاً ثلاثمئة مقهاة وفي كل مقهاة عشرون سياسياً في الاقل يدخنون الارجيلة ليل نهار ويديرون شؤون العرش والانتداب . ولكل سياسي رأي في السياسة الدولية وسياسة العراق غير رأي زميله وجاره. الا انهم لحسن الحظ يدخنون وينسون . ان في الارجيلة لتمتصم الامة

معروف الرصافي

ولكن في هذه الامة اناساً ممتازين يدخنون ويكتبون ، فيجمع اليراع احلاماً يولدها التنباك ويبددها ، ويحفظ القرطاس من النغمات والنقمات ما لا تعددها . هم الشعراء . واكثرهم بل كلهم في العراق اليوم سياسيون ينظمون ، او نظامون يعالجون السياسة كرماً منهم ، وفي مقدمتهم شاعر تجاوزت شهرته حدود بلده ، فرحبت بها سوريا ومصر والاستانة ، واجلستها على ديوان الفخر والاعجاب .

وقد وصلت هذه الشهرة الى الفريكة في شخص صاحبها المحبوب معروف الرصافي يوم كان عربياً – بدوياً – في قلبه ولهجته ، وفي نظمه وقيافته . نام معروف الرصافي يومئذ في خيمة الناسك المشرفة على الوادي ، واكل من جفنته ، وشرب من ابريقه . ثم سافر الى الاستانة اولاً وثانياً ، وكان فيها من المرشدين الواعظين ، وعاد منها يلبس الطربوش والثياب الافرنجية ، فافصح ذا التطور الظاهر عما

خفي منه فيه . اجل ، قد افسد الاتراك او بالحري مدنية الاستانة — وهي في هذا الباب اشد واسرع فعلاً من مدنية باريس — قد افسدت شيئاً من السذاجة الجميلة في شاعر عربي مجيد . احترقت حواشي تلك السذاجة فتغير لونها وطعمها ، وصار الشاعر سياسياً ، وصار العربي مسلماً . او بالحري صار الشاعر في سياسته وفي اسلامه تركياً من اتراك الزمان .

على ان الرصافي وهو ممن خصهم الله بشعلة النبوغ - والنبوغ طموح ، والطُموح جهاد مستمر — لم يقف في التطور عند حد يريب ويعيب ، بل ظل يشتغل في الادب والشعر حتى امست السياسة التركية الاسلامية بعيدة عنه ، تكاد لبعدها لا ترى ، وحلت محلها سياسة عربية قومية ، مجردة من كل نزعة دينية . وكل صبغة مذهبية وكأني بمعروف قد عاد الى تلك الخيمة ، خيمة الناسك ، فذكر فيها الجفنة والابريق ، وعقيدة الاخ الصديق ، الذي كان مثله هدفاً لعوامل التطور الشديدة . فقد صار ناسك الفريكة رحالة ، فراح يجول في الارض غرباً وشرقاً ، حتى اجتمع بعد سنين بصديقه الشاعر في بغداد وهو يشغل وظيفة صغيرة في وزارة المعارف .

وكان معروف اول المرحبين ، واول من قال شعراً فيه زجرة وفيه انين . شكا الى صديقه القديم حالاً وهو فيها فقال :

اقمت ببلدة مُلئت حقوداً ... علي فكل ما فيها مريب
امرُّ فتنظر الابصار شزراً ... الي كأنما قد مرَّ ذيب
وكم من اوجه تبدي ابتساماً ... وفي طي ابتسامتها قطوب
سكنت الخان في بلدي كأني ... اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه ... لاني اليوم في وطني غريب

وما هذا وان آذى بدائي ولا هـو امره امر عجيب
ولكنى ارى ابناء قومي يدبّر امرهم من لا يصيب

وحمل على السياسيين في العراق ، الوطنيين منهم والانكليز ، وحمل كذلك على الاغنياء والاعيان ، وشكا الدهر والزمان ، كان صديقه الرحالة يحمل في حقيبته دواء لكل ادواء الانسانية وترياقاً لسموم الحكومات الانتدابية والاستعمارية .

أأمين لا تغضب عليّ فانني لا ادعي شيئاً بغير دليـله
من اين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عنـد غريبه والحكم عند دخيله

ما كنت لاغضب على صديقي الشاعر لو لم اكن جئت العراق من قطر عربي ليس فيه جزء صغير مما في العراق من دلائل الرقي وطلائع الادب والعمران . الا ان غضبي عتاب اخوان ، ولعب صبيان ، اذا قوبل بغضب اصحاب المناصب العالية ، والسيادات الدينية البالية . وليس غضب هؤلاء وهم رجال بشيء اذا قيس بغضب سيدة سائدة ، لها الامر وهي اجنبية ، ولها نفوذ يمتد حتى الى ادارات الجرائد العراقية .

قد اغضب الرصافي المس بل فحالت دون نشر قصائده في الجرائد . وهذا قليل من كثير جاءه منها بالاساليب الدقيقة الخفية ، لانها وهي امرأة راقية وهي فوق ذلك سياسية ، لم تناصبه العـداء بالطرق الاعتيادية ، ولا اخطأت كما اخطأ سابقاً دار الانتداب في نفيه الوطنيين الاحرار . كأنها قالت في نفسها : هو شاعر ، والشعراء يلتذون بالسجن ويفتخرون بالمنفى وفي الاثنين مـا يكفيهم مؤونـة

العمل فيضمن لهم خبز يومهم والعزلة للنظم والتأليف . دعت المس بل معروفاً وشأنه ، ولم تلتجأ في تونيبه الى غير الدقيق الخفي من اساليب النقمة عندها . وكان معروف يومئذ ناقماً على العراق كـله كما تقدم وعلى كل من فيه :

سأنصب للهواجس حر وجه   يعود الى الشروق به الغروب
واضرب في البلاد بغير مكث   اجوب من المهامة ما اجوب
الى ان استظل بظـل قوم   حيـاة الحر عندهم تطيب

وكان امله ان المس بل ، وهي ولية الامر ، تسمع في الاقل هذه الشكوى منه ، فارسل اليها كتاباً يقول فيه انه يحترمها لانها عالمة ولكنها في الامور الوطنية ليست اعلم منه ، وانها اذا احسنت العمل يخلد ذكرها في التاريخ والا فلا رادع لشغره عنها « واني ارجو ايتهـا السيدة ان يكون لغضبك نتيجة ظاهرة »

سكنت الخان في بلدي كأني   اخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيـه   لاني اليوم في وطني غريب

افلا ترثي المس بل لحاله ، وقد سئم الاقامة في بلاد لا خير ولا ما يشبه الخير فيها ، فتسعى بابعاده او بسجنه او بنفيه ؟ انمـا الرصافي لم يفقه عقلية المرأة المهذبة ولا ادرك السر الاول من اسرار قلبها . فهو يطلب منها ما يبغي حقيقـة ولا يخفي عرضه او يموه به . فلو قال لها : اني افضل زاوية مظلمة في سرداب من سراديب بغداد على قصر في الأستانة لكانت سعت ولا ريب بابعـاده عاجلاً عن العراق ، بل بتسفيره الى الاستانة .

اما العلماء الناقمون على الرصافي او بالحري الناقم هو عليهم فانهم يجدون قصتهم في بيتين من شعره :

لقد مزقوا احكام كل ديانة وخاطوا لهم منها ثياب رياء
وما جعلوا الاديان الا ذريعة الى كل شغب بينهم وعداء

ولا همهم أأبعد الرصافي عن العراق ام لم يبعد ، فهم يعلمون ان الشاعر المجيد الحر الذي تتناسخ وتتناقل اشعاره الناس قبل ان تطبع يستطيع ان يضربهم اينما كان . وقد تجيء الضربة شديدة بالنسبة الى بُعد مرماها . لذلك اقتصروا على تكفيره في بلده وشرعوا يشنعون به لدى العامة حتى صار يُنظر اليه اذا ما مر « كأنما قد مر ذيب » وهو والحق يقال ذئب الحرية في العراق يثب على كل من يحاول قتلها او تقييدها .

لمعروف الرصافي عقيدة في الدين والآخرة تكاد تكون مادية ولكنه وهو الحكيم المدرك حدود علمه ، قلما يفصح عنها تأكيداً وتفصيلا في ما يكتب وينظم . وعندي انها في هاته الحال السديمية اشد تاثيراً في ما يقصد بها من اصلاح العقائد والتقاليد . قال لي مرة : لا تصطلح البلاد العربية وترتقي الا بالفكر . وانا افهم وهو يفهم ما يريد بما قال . فلو نطق كعالم بموجب قياس العلم والمنطق لما كان يؤثر في الناس كفره المزعوم .

ولرب قائل يقول : مالك وانت تكتب عن شاعر تقدم في شعره السياسة والدين ؟ الجواب : ان الباحث اليوم في احوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى ان للسياسة والدين الشأن الاول في امورهم كلها . اجل ، ان في مصبغتَي السياسة والدين تصطبغ الاقوال والاعمال والامال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الادبي في ما ينظمون ويكتبون . وعندما اجد في ثمرات العقول الكبيرة الحرة ما يعارض النعرات المبتذلة الذميمة بنزعات جديدة في الفكر والاعتقاد

اقدمها عملاً باهميتها على غيرها . كذلك سلكت في تشريح جزء من شخصية الرصافي الممتازة .

اما الشاعر فيه المجرد من نعرات الناس ، ومن النزعات السياسية كلها - الشاعر الذي لا يعرف في الحياة غير الشعر والجمال والحقيقة العلوية فيهما - فهو دائماً فوق الجماعات والاحزاب، لا يعتبر في الانساب غير النسب الذي بينه وبين البلابـل ، والعواصف ، والكواكب ، والازهار . ولا وطن له غير وطن الفكر والعلم والحرية . فهو اذا سألته : ما الشعر ؟ يجيبك قائلاً :

وما الشعر الا كل ما رنّح الفتى
كما رنّحت اعطافَ شاربها الخمرُ
وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتدى
مهيجاً كما يستنُّ في المسرح المُهر
فمن نفثات الشعر سجع حمامة
على ايكة يُشجي الحزين لها هدر
ومن شذرات الشعر حوم فراشة
على الزهر في روض به ابتسم الزهر
ومن ضحكات الشعر دمعة عاشق
بها قد شكا للحب ما فعل الهجر
ومن جمرات الشعر رنة ثاكل
مفجعة أودى بواحدها الدهر
ومن نفحات الشعر ترجيع مُطرب
تعاود مجرى صوته الخفض والنبر

وان من الشعر ائتلاف كواكب
بجنح الدجى باتت يضاحكها البدر
وان ابتسام الغيد عن كل اشنب
ليطرب نفسي فوق ما اطرب الشعر

هوذا الشاعر الحقيقي . هوذا الرصافي ينطق بلغة زملائه واقاربه في البساتين وفي السماء .

جميل صدقي الزهاوي

والرصافي زميل ونسيب من الناس يشاركه الاقامة في العراق كان ينبغي لي ، لو اعتبر السن والعلم في الشعر ، ان اقدمه عليه . ولكن الشاعر هو شاب ابداً والعلم في الشعر يكسبه حكمة ولا يزيده جمالاً . على ان لجميل صدقي الزهاوي منزلة في الشعر العربي اليوم لا يشاركه احد بها . فهو في علمه ، وفي شعره اقرب نوابغ العرب الى المعري ابي العلاء . واذا صح مبدأ التناسخ والحلول يكون « رهن المحبسين » قد عاد الى هذه الدنيا بعد الف سنة فاتخذت روحه الزهاوي محبساً جديداً ، ومعقلاً من الفكر مجيداً . او ليس شبيهاً بصوت صاحب اللزوميات صوتُ من قال :

نم بعيداً في خلوة الاجداث من رغاء الخطوب والاحداث
انما الموت خير ما خلفته لبنيها الاباء مـن ميراث

وما كان المعري في هذا التجسد الجديد موفقاً في الصحة والعافية ، لان شللاً في رجل من حل فيه يمنعه عن المشي . جاء في اللاميـة الزهاوية :

وقد احاول ان اسعى فتمنعني رجل رمتها يد الايام بالشلل

فاضطرته اذا خرج من البيت الى الركوب ، وكان اختياره في المركوب اختيار الشاعر الفيلسوف . هوذا الزهاوي راكباً اتانه البيضاء كأنه من مدينة المنصور المدورة لا من بغداد الجديدة . ولكنه يلبس الطربوش لا العمامة فيبدو شعره من تحته خُصلاً منثورة شاردة ، لكل منها يد من الهواء تداعبها فتبعدها عن اختها . وقد يتصل بعضها بشعر لحيته الشمطاء « البلشفية » التي لا تخضع حتى لمقرض او لمشط . وهي تظهر في اشد المظاهر الفوضوية في الشوارب منها الثائرة على كل نظام . وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذاك الفم البليغ الذي هو ختم الغم اذا سكت ، وباب الصواعق والاضاحيك اذا تكلم . اما الانف فمنبسط الاطناب مستريح تحت عين دامعة تشكر النظارات على ما تجسمه وتوحده لها من الوان الحياة . ويشرف على هذه الايات في التكوين المنشور جبين رفيع نصيع منيع .

اما ثيابه فافرنجية ، ولكنها كذلك حرة ابية ، لا يهمها الشكل والزي ، وقلما تلفت الاناقة فيها النظر . بنطلونه كالكيس حول الساق ، قميصه مفكوكة الزر عند العنق ، ومستقلة في بياضها — غير الناصع — فلا يحتل قسماً منه شيء مما تدعوه ربطة رقبة . شيخ زاهد بكل شيء الا بالعلم والحرية ، وليلى الاخيلية . اجل ان للزهاوي ليلاه ، تطرد من نفسه الظلمات ، ومن قلبه الشبهات ، ومن بيته الطالبات هي عروس شعره ، عروس حياته ، عروس افكاره واحلامه . وهي كذلك رمز سياسته .

كان يهوى ليلى ابن عم لليلى   فابتغاها من اهلها كخطيب
ولقد اخبروه من بعد حين   ان ليلى قد زُوجت بغريب

وان هذا الشاعر ليشرك في بعض الاحايين بحب ليـلى كل عاشق حزين . هي ليلى الاباحية التي يخاطبها فيقول :

ليلى أطلي على العا　　شقين ليـلى أطلي
تري اعزة قومٍ　　مطأطئين بـذل
تري صدوراً من الشو — ق والصبابة تغلي
عدي وان كان وعد الـ — حبيب رهناً بمطل

ثم يتفلت الشاعر من يدي الوطني والفيلسوف ، ويركب وعروسه الاتان البيضاء ، الى الصحراء ، او يختلي بطيفها في داره ، فيسمعه من الشعر الرقيق المنسجم ما يقارن اجمل نفثات « المجنون » .

ابيت في الدار وحدي　　معاتبـاً لخيالك
قد غرني انه كا　　ن باسماً كمثالك
لا تســأليني عمـا　　اصابني بعد ذلك
ما زلت اضمر حباً　　مناسباً لجمالـك
ابيع كل حياتي　　بساعة من وصالك
اني بحبــك يا ليـ　　لى لا محالة هالك
فهل سأخطر يومـاً　　اذا هلكت ببالك؟

جاءني الشاعر الفيلسوف ذات يوم يحمل الي شكاية هي ظاهراً عن ليلى وعشاقها « ما هم والله اهلاً لها ، ينظمون الشعر للاخيلية ويقدمون الهدايا للاجنبية . والملك فيصل لا يكترث ، واذا اكترث فلا ينصف . أوَ لم اقل له في قصيدتي :

لا يرأس الناس في عصر نعيش به　　الا الذي لقـلوب الناس يمتلك

والشاعر يا استاذ من الناس ، وله فوق ذلك حق على الناس ، في من ايملكون او يأمرون . ترانا نحمل النار بايدينا الى امة تكاد من الدنق

تموت ، فيوقفنا في الباب اناس لا يساوون قلامة ظفر . »

هي الحقيقة في كل قطر من الاقطار العربية . ولكنها في العراق مجسمة في كبار شعرائه . اعجب بشعراء غاضبين شاكين ، وقد تنازلوا عن مكافحة الزمان الى مكافحة الانسان . الا انهم يختارون ولا شك الاقران ، او من يدنو من الاقران . حمل الرصافي على سيدة اجنبية من اجل ليلى وعشاقها . وجاء الزهاوي يشكو من مدحه بالامس وكانت لا تزال قوافيه ترن في البلاد .

ــ سألوني يا استاذ ان اكون شاعر الملك وعينوا لي راتباً شهرياً . فقلت : لا امدح بالاجرة . واني اقبل الوظيفة بشرطين : ان لا اقول الا عندما ارى المدح واجباً وان يكون الراتب لوظيفة غير المدح .

فغضب جلالته ، وكان لي على بعض الاصحاب السائدين حق المساعدة فاغتنموا فرصة غضب الملك وانقلبوا علي . والله يا استاذ ما قبلت ان اكون شاعر الملك الرسمي الا بالشروط التي ذكرت ... معاذ الله ان اصير في اخر هذا الزمان مداحاً بالاجرة .

هذا نصف القصة سمعته غير مرة في بغداد كما رواه الزهاوي . وسمعت كذلك النصف الآخر . اما جلالة الملك فيصل فقد كان بين النصفين ، تتجاذبه اكثر من ارادتين . واني اروي القصة كلها لما فيها من نور يضيء بعض زوايا الملك الجديد . اننا نرى في البداءة جلالة الملك بين شاعرين هما صنوان ، هما شاعرا العراق الاولان . وللشاعرين اصحاب من ذوي السيادة والنفوذ في المدينة وفي البلاط . وبين الشاعرين ، بل بين الشعراء على الاطلاق ، منافسة دائمة تكاد تكون طبيعية . قد فات ذلك جلالة الملك فاغضب في انعامه

الشاعرين معاً .

ولو كان ممن مارسوا الشعر وخبروا طبائع الشعراء لاختار لهذه الوظيفة احد ابناء الطبقة الثالثة او الرابعة لانهم يحسنون المديح اكثر من سواهم ، ولكان كفى نفسه عداء شاعري العراق الكبيرين بل كان في استطاعة جلالته ان يعمل احسن من ذلك ، فيقول لمن حببوا اليه « الشاعر الرسمي » ، اننا في بداءة امرنا ، ولا حاجة لنا بمدّاح مأجور . او انه يقول : شاعر البلاط من كمالات الملك ونحن اليوم احوج الى الضروريات . أفلا تظنه مفلحاً لو اتخذ هذا المسلك ورفض ان يعين شاعراً رسمياً ، فيصير شعراء العراق كلهم شعراء البلاط — وبدون اجرة ؟

ظُلمت والله يا استاذ . انا لا ابغي اجرة على المديح اذا مدحت واني لا امدح دون فكر او نصح . ألم أقل لفيصل :

تلقي اعتمادك لاستتمام نهضتهم على الذين بنهج الحق قد سلكوا
على اناس لصدق القول قد لزموا على رجال لغل النفس قد تركوا
على الألى عرك الايام أظهرهم عركاً طويلاً وللايام قد عركوا

ومن يا ترى عركتهم الايام مثل الزهاوي ؟ ولكن الشاعر يخدم بلاده في ما لا يحسن الخدمة أحد مثله . فقد تقلد الزهاوي مناصب في الدولة كثيرة وكانت يوماً له ويوماً عليه ، وكان في ذلك واحداً من كثيرين وقد تعددت صفاته في فنون الادب ، فشغف بالعلوم الطبيعية ، وألف كتاب « الكائنات » وكتاب « الجاذبية وتعليلها » وكان فيها واحداً من مئات الغواة . ومن غرائب إجتهاده وتنوع علومه إنه كتب رسالة في سباق الخيل وكتاباً في علم الداما . وفي هذا الكتاب العجيب ذكر الف لعبة من مخترعاته ؟ فلو لم يكن

الزهاوي شاعراً وطنياً لقلنا ان في تعليم الامة لعب الداما وظيفته الاولى . ولكنه شاعر كبير بالرغم عمـــا في شعره من مبتذل القول مثل :

العـلم ثروة امة ويسار   والجهل حرمان لها وبوار

. . .

ان التوقف في زمام حازم   فيه تقدمت الشعوب لعار

. . .

من راح يمشي في الطريق مستو   أمين العثار فما هناك عثار

ومثل قوله في مطلع قصيدة « الجهل والعلم » :

الا ان ليل الجهل اسود دامس   وان نهار العـــلم ابيض شامس

وتشقى حياة ما لها من مدرّب   وتشقى بلاد ليس فيها مدارس

هي حقائق لا ريب فيها . ولكنها من الحقائق المعروفة المبتذلة ، وقد اصبح الاعتقاد بها عند الغربيين من باب الاعتقاد بوجوب الرياضة مثلا او الاكل . اما عند العرب فالامر غير ذلك . وانه ليغتفر للشاعر في امة تطرب للشعر طرب الغربيين للموسيقى اذا وضع لها حقائق كل يوم — حقائق ايام العمل — في قوالب شعرية .

من مزايا الشاعر الحقيقي ان البؤس في الامة يحزنه حتى الالم ، فيصيح كأنه هو الامة البائسة الموجوعة ، فيسمع صيحته من قد خشنت او تخدرت من الآلام اعصابهم ، فيستفيقون طالبين الدواء والشفاء . هذه هي وظيفة الشاعر الكبرى في امة كان للعلم فيهـــا ربوع زاهرة أمست كالقفر اليباب .

ولكن في شعر الزهاوي غير هذه الحقائق — حقائق ايام العمل . ان فيه كثيراً من حقائق الآحاد ايضاً والاعياد ، هو الشاعر الذي يبهجه

اريج الازهار ، وبريق الانوار ، فيود لو كان بامكانه ان يداوي بهـا البؤس والظلام ـ البؤس الذي منشأه الخمول ، والظلام الذي هو الجهل .

اننا نقدس سراً في الاكوان . فحبذا ما نقدس دواء لما نقاسية . حبذا الحياة ، حياة النمو العارم والتجدد الدائم . ولكن الجهل عدو هذه الحياة وعدو الله ، والمتاجرون بالجهل رؤساء الاديان ، ورؤساء الاديان في كل بلد لا يخفّ شرهم الا بمثل الزهاوي والرصافي وشعرهما. وها هنا في هذه الامة الجديدة سبب التغيظ الجديد ومصدره . اولئك الجامدون في مكانهم وفي علومهم يكفرون الناس فيدفعون ذوي النبوغ فيهم الى الكفر بالله . فيخرج الزهـاوي اذ ذاك من المبتذلات ، ومن الوطنيات ، وينظم ديواناً كاملاً في « نزعات الشيطان » فيسمعك من الحقائق التي هي كالنصل اليماني . ويسمعك بعـــد الزمجرة ضحكة لا تنسى زمانك صداها وصدى التهكم فيها .

توقفت لا ادري تجاه الحقائق أأني خلقت الله ام هو خالقي

ان الزهاوي في « نزعات الشيطان » مثـــل ابي العلاء في (رسالة الغفران) وقد يفوق معري اليوم معريَّ الامس جسارة وبريقـــاً . فتصل يد شيطانه حتى الى العرش الاقدس ، وحتى الى لحية صاحب العرش . على انه بعد التطاول والتجديف يستغفر الله ويعود الى عمل كل يوم فيرى الغرب في الشرق فاغراً فاه ، ضاربـاً بعصاه ، فيزجره بالمبتذلات ويهدده :

يا ايها الغرب ان الشرق مضطرب
يا ايها الغرب ان الشرق مغتَصب
خفف من الوطء فـــالايام تنقلب
الشرق يشبـــه بركاناً به حمم

الملك فيصل والعراق

اخـــاف من انه يا غرب ينفجر
يا سرحة المـــاء انت اليوم وافرة
وانت ناعمـــة خضراء ناضـرة
لا تأمني الدهر فالايام قاهـرة
يا سرحة الماء ان جاء الخريف غدا
فانمـا هـــذه الاوراق تنتثر

ثم بين التجديف والتعنيف يسمعنا الشاعر من نغماته الناعمة الصافية ما هو من صميم الشعر الذي يستاثر بمعناه الايماء، فالسكوت، فترى الدمعة فيهما تروي الابتسامة، وترى الابتسامة تحضن الدموع كما يحضن ورق الورود الندى. من ذلك قوله مخاطباً سماء العراق:

انظريني اذا العنادل غنت	سحراً فوق منكب الشجراء
انظريني ليلا اذا الشمس غابت	بعيون النجوم في الظلمـاء
انظريني اذا الطبيعة اصغت	في الدياجي الى خرير المـــاء
انظريني اذا الحوادث رامت	هدأة في الصباح او في المساء
انظريني اذا الخريف تراءى	آسيـاً من اشجاره الجرداء
انظريني اذا غدا الروض خلواً	من زهور او زهره من وراء
انظريني من الفروج خلال الـ	ـسحب سراً بعينك الزرقاء
انظريني اذا نظرت بعيني	وهي شكري اليك عند البكاء

كاظم الدجيلي

ان في العراق من العلماء من لا يزال في المعقل الذي مات فيه «ملفان» المسيحية يوم قضى على ما كان للكنيسة من سيادة ثقافية في العالم. ومهمة الملفان في مراقبة اداب الدنيا والدين لم تكن لتنحصر بالكنيسة الكاثوليكية،

بل تجاوزتها الى علمـــاء اكسفورد [1] البروتستانتيين الذين كفروا في النصف الاخير من القرن الماضي دروين واصحابه لقولهم بمبدأ النشؤ والارتقاء على ان زمن الـ « ملفان » في المسيحية قد ولى .

اما في الاسلام ففي بعض الاقطار كالعراق مثلًا لا يزال العالم يحمل سهام التحريم والتكفير، يرمي بهما من خالفه رأياً في اداب الدنياوالدين ولا يحق للشيعة وحدها ان تفاخر بمثل هؤلاء العلماء وان كثر عـددهم عندها . فان عند السنة منهم من يسوّد الوجه حتى يخفى على « ملافين » كربلاء والنجف .

وهناك في تلك البقعة النائية عن دوائر العلم الغربية بعض رجـــال الدين المسيحيين الذين يضيق صدرهم كل مرة يُسمَع في البلاد صوت حر كريم ، فيصدرون الفتاوى بالتحريم والتكفير اقتداءً بفضيلة الشيخ الاعظم و « آية الله » الاكبر . وما الفرق يا ترى بين ثلاثة هم واحـد تجاه الحقيقة ؟ الا ان الكرملي والالوسي والقزويني لثلاثـــة رؤوس هي التقليد والتقييد والتعقيد ، على جسم واحد ، هو التعصب .

وكلهم يكفرون الزهاوي والرصافي والدجيلي ، ثالث المغضوب عليهم هناك . على انه في التساهل والصراحة والجرأة الفكرية علم من الاعلام وقلما ُيعد احد قبله . الشيخ كاظم الدجيلي فيلسوف ينفر من الخيال ، وشاعر يهوى صدق المقال ، وليس في ظاهره ما ينبىء بوجود الشاعر فيه او الفيلسوف . ليس في طلعته او في صوته ما يستميلك اليه او يستوقفك وانت غريب . بل في وجهه المخروط الضامر ما يشير الى النزق والتسرع ، اللهم اذا قسنا التكوين الالهي بقياس الفن الانساني ،

(١) اكسفورد اكبر جامعات انكلترا وهي المدينة التي تدعى بهذا الاسم . والملفان يدعى في اكسفورد « دون » Don

فنقول ونستغفر الله ، قد ارتجفت يد المكون في تكوينه ، او ان الناظم اخل بالنظم فلم يكُ موزوناً . هاك وجه الدجيلي .عيناه بعيدتان الواحدة عن الاخرى ، فمه وانفه كبيران بالنسبة الى صفحة وجهه ، شعر رأسه وهو دائماً قصير يظهر انه ملتصق بجبينه . اما الرأس ففيه من الاذن الى القمة طول يخالف ايضاً قواعد التناسق ، وهو الدليل الظاهر الوحيد على ما في الرجل من قوى التفكير والحكمة ، وليس في صوته اذا حدثك ما ينسيك ظاهر صاحبه ، او يستغوي الغرض فيك ، فهو دائماً عالٍ رفيع لا منخفضات فيه ولا منعطفات . تنفر منه لاول وهلة ولا غرو ، الا انك بعد ان تألفه ترتاح الى الوتر الواحد فيه. وقد تكون المادة التي يحملها ويرمز اليها السبب في ذلك . انما هي لب الرجل وكنهه ، هي حقيقة وجوده .

أن الدجيلي عقل كله ، عقل صاف لا يمازجه شيء من الروح والقلب . فيه نور الشمس ونارها ، وليس فيه ظل او خيال . وهو في حريته مثل نور الشمس يحرق وينير ، ويحرق احياناً نفسه قبل ان يحرق سواه . ما اجتمعت في البلاد العربية برجل مثله في صراحته وجرأته واخلاصه . وانت في الشرق ، حيث اللطف ضارب اطنابه والتجمل حامل ابداً محرقة الطيب ، لتعجب بالدجيلي ضعفي اعجابك بمثله في اوروبا اوفي اميركا . وما تأثير الظواهر بعد ان ينكشف النقاب عن هذه العقلية الباهرة .

رجل ولد في مهد التقليد والتقييد والتعقيد وهو اليوم مطلق منها كلها . ينبذ المذاهب الدينية ، ويحمل عليها ، ولا يحتفظ بغير اللب من الدين . له في الحياة عقيدة مادية يجهر بها ويناضل عنها ، شغف بالقوة القاهرة وهي عنده الحق ، لا يرثي للضعيف ، ولا توقفه زخارف

التلطيف واوهام الغيرة والاحسان . هو في شعره اقرب الى شعراء الجاهلية من حيث لا يرى الا ما يُرى من حقائق الوجود . ولكنه في ذلك عصري ، اي انه اتخذ هذه الطريقة لانها تساعد اكثر من سواها في تجريد الاداب من ترهاتها ، والاديان من خزعبلاتها ، والانسان من اوهامه كلها .

يذكرني الدجيلي بشاعر انكليزي من شعراء الشطر الاخير من القرن الماضي جرد شعره من حلي التقاليـــد الصناعية كلها — من زخارف الخيال ، من اوهام الآمال ، من مصقول المقـــال ، فجاءت قوافيه كالبرق يشق الظلمـــات ، وكلماته كالنصال وقد جردت من الاغمـــاد . هو الشاعر الكبـــير شعراً لا شهرة ارنست هنيلي[1] القائل :

ولو احيقت بي الظلمات والاعصار ،
وكان الليل من القطب الى القطب كالقار ،
فالى الامام ولا اندحار ،
اني ربان هذه النفس ، اني سيد الاقدار .

وكأن هينيلي وقد كان معاصراً لنيتشي الفيلسوف الالماني الشهير يردد شعراً احدى كلماته الملتهبة او شيئاً من فلسفته المكهربة . — الارادة الارادة . العزم العزم . الاعتماد على النفس . قهر الضعف فلا تمكنه منك . القوة اولاً واخراً . خذ هذه الفلسفة نظماً من شاعر عربي عصري من « هينيلي » الشيعة ، من « نيتشي » العراق . قال الدجيلي في مطلع قصيدة « الحياة الاجتماعية » :

حديثك عن غـــير القوى حرام   وسعيك في نصر الضعيف اثام

(١) Ernest Henley

تحدث بمجد الاقوياء ففيهم قعود باحكام الورى وقيام
يؤلمه مذ صار ابن آدم قوة وما الكون الا قوة ونظام
اذا كنت بين العالمين اخا قوى رعتك عيون الناس حين تنام
حمى الغاب بأس الليث من كل طارق ولم ينج من فتك البزاة حمام
يقولون ان الحق من فوق قوة وما الحق الا مدفع وحسام

لولا ما في هذه القصيدة مما لا يخلو شعر عربي منه ، اي العادي المبتذل من الفكر والتعبير ، لجاءت في تجردها ، مثل شعر هنيلي ، من اوهام الخيال وزخرف الآمال ، فريدة في بابها . وقد تطرق الشاعر فيها الى ذكر الاديان فقال :

حكاية اديان الانام عجيبة تجمع فيها فرقة ووئام
تريد الهدى والخير للناس كلهم وكم ثار منها فتنة وخصام
وغايتها القصوى عبادة واحد حقيقته ما ان ترى وترام
عظيم لديه يصغر الحق كله وتستصغر الاجرام وهي عظام

مهما كان من تزعزع عقيدة الشرقي فلا يحمله ذلك على الالحاد . بل يظل مؤمناً بالله في ما صفا وتعكر من امره وخمره . وعلى ذكر الخمر ان للدجيلي اسهماً في شركة الخيام وابي النواس كما له في شركة ابي العلاء المعري . فقد وصف الخمر ومدحها وذمها كذلك بعد الاختبار فكان في الثلاثة صادقاً .

ألم يك ما نظمت بها صحيحاً ؟ فلي فيها تجارب واختبار

وقد جاء في قصيدة له عنوانها « بوليس بغداد » وهي احدى « منظومات السجن » :

ادرها علينا بالكبير فاننا كبار ومن شأن الصغار صغيرها
متى يهدر الابريق عند انسكابها علينا يزدنا من هواها هديرها

وفي هذه القصائد من التجريد ، ومن القول الصريح الشديد ، ما يجيز المقابلة بينها وبين « منظومات المستشفى » للشاعر الانكليزي الذي ذكرت .

الى ان وردنا السجن والسجن ضيق　　وقاعته محدودبات صخورهـــا
يشم حديث العهد منها نتـــانة　　يزيد اذا اشتد الهجير ظهورهـــا
وفي الصبح ساقونا الى متحكم　　باحكامه غر حكاه غريرهـا
وعاقبنا كلًا بعشرين جـــلدة　　فجيء باسواط دقاق سيورهـا

في آداب الافرنج وفنونهم طرائق شتى تشمـــل اغراض الحياة وطبائع الناس كلها . منها مايدعى الواقعية وهي طريقة من يلـتزم في ما يصف او يفصح عنه الحقيقة المجردة ، دون مبالغة ودون تنميق . وقد يجوز اهمال بعض اجزاء فيها حشمة ً ولياقة ، فلا يتقزز القارىء ولا ترتعـد فرائصه . وهناك طريقـــة اخرى نشأت بعدها لتسد فراغاً مزعوماً فجاء اصحابها وفي مقدمتهم اميل زولا بكل ما هناك من هول الحقائق الواقعة ومرعبات الوجود ، وفي شعر الدجيلي شيء من الطريقتين :

يا لك من آمرة ناهية　　احكامها نافذة ماضية
جامعة الاضداد شيطانة　　الاهة رشيدة غاوية
قاسية رفيعة الحاشية　　سافلة عالية راقيـــة
خبيثة شريرة باغيـــة　　طيبة طاهرة زاكية
يدفعها النفع على حب من　　ينفعها ولو الى الهاوية

ليست المرأة من يصف بل هي ... النفس التي حيرت افكار ارباب النهى السامية . وقد قال فيها ما لا يخرج عن الحقيقة ، فكان في هجوه صادقاً ولكنه جـائر . والجور من شيمة الا « نيتشيين » وقد قال في

عبادة الناس لله :

عبد النـــاس الهاً ما رأوه ورآهم
طمعاً فيه وخوفاً منه هل يخفى هواهم؟

بل قال اكثر من ذلك ولم يستثنِ حتى نفسه او يتناسها :

ارى حياة الورى جهاداً في معرك دائم النضالِ
يخدع فيه الفتى اخاه والخدع قد جاز في القتال
كل امرىء ناصب حبالا حتى انا ناصب حبالي

ان ادب الشاعر الحقيقي وان افقره ليَقيه من حبائل مثل هـــذه الحياة ، وان علم العالم واخلاقه ليرفعانه عليها فيسلك مسلكاً يغاير ما يسجله على نفسه . هذا لعمري فضل الادب والعـــلم حتى في من كانت عقيدتهم بالحياة مادية دهرية . والشيخ كاظم الدجيلي بعيد عن التعصب العلمي بعده عن التعصب الديـــني . سألني مرة رأيي في الارواح واستحضارها فقلت : لا اصدق ولا انفي . يهمني درس الموضوع ولا يلذ لي التشيـع . فقال : وانا من رأيك . الحياة اضداد . وقد تتخذ الارواح لها جسماً من الكهرباء في الفضاء . وقد تكون الكهرباء البحر الذي تعيش فيه الارواح بعد الموت كما يعيش السمك في المـــاء . بل قد تكون هي مصدر الكهرباء وكنهها فيمتزج بعضها بعد الانفصال عن المادة في الفيض العام ، وبعضها تضل مدة على كونيتهـــا الارضية فتزورنا اذا رغبنا بزيارتها وتبلبل افكارنا .

ان هذا مثال من عقلية الرجل العلمية . اما عقليته الوطنية فالحدة تغلب فيها ، بل هي غالباً في حـــالة الاضطرام . اذكر يوم كنا في كربلاء انه تكلم في مجلس غص برجال الشيعة اخوانه وكانت الصراحة تسابق التسخط في حديثه فاشفقت عليه من نقمة المتعصبين . سمعته يمدح

الامة الانكليزية لما فيها من علم وقوة ونظام ثم صاح بهم قائلًا :

— اين العلم واين القوة واين النظام عندنا ؟ أفي حكوماتنا العربية والعصر الماضي الذي تسمونه مجيداً انما كان عصر السفاحين؟ افي مدارسنا وقد عشش الفساد حتى في الكتاتيب؟ أفي بيوتنا وقد تراكمت في زواياها وفي صحونها اوساخ التقاليد وعفونة العادات القديمة ؟ أفي ديننا وقد حلت الخرافات والقداسات المزعومة محل اليقين والعمل المفيد ؟

هوذا الدجيلي يقرّع ابناء قومه ، ابناء مذهبه ، فلا عجب اذا افتى المجتهدون غير مرة بتكفيره .

مجيد الشاوي

ها قد عرفتك ايها القاريء العزيز الى ثلاثة ممن يكفرونهم في العراق . اليك الان بسجل الكفرة كله . ان الرابع في السجل الكريم عربي تجاوز العقد الخامس من العمر ولا يزال فتياً — فتياً برأيه ، فتياً بلهجته ، فتياً بروحه وبواجب راحه . قد شغل هذا العربي مناصب متعددة في الحكومة ، وما خرج من واحد منها آسفاً . هو من اولئك الموظفين القليل عددهم الذين يعطون المنصب اضعاف ما يأخذون . فيخلصون الخدمة ، يعدلون ويصلحون ، ولا يكون جزاؤهم غير جزاء من لا يعدل ولا يصلح . يبذلون من قواهم ومواهبهم خيرها ، ويخرجون من دار الحكومة والفقر يشيعهم الى البيت . على ان النزاهة ترافقهم ايضاً وتلازمهم دائماً فتعزيهم بعض التعزية .

ان الرابع ممن اخص هذا الفصل بذكرهم هو عبد المجيد الشاوي ، الشيخ عبد المجيد ، الذي يشبه السياسي الافرنسي كليمنصو ، ليس فقط في وجهه بل في ذكائه المتأجج وسلوكه البسيط الشاذ .

وقد تكون صورة الاسد في وجـه الشيخ عبد المجيد اظهر من صورة النمر . الا انه في صوته لا يهدر ولا يزمجر .

كنا في بهو الانتظار ننتظر الامر لنصعد الى بهو الاستقبال فنسلم على جلالة الملك فيصل نشترك بالواجب الآخر الذي دعينا له. وكان في المدعوين للمأدبة من الانكليز العسكريين والمدنيين من جاؤوا في اثوابهم الرسمية ونياشينهم تتلألأ على صدورهم ، ومن جاؤوا يلبسون الاسود القاتم وقد صقلته المكواة وعززت اطرافه وحروفه ولم يكن بين الوطنيين الذين ارتدوا كذلك الاسود المصقول ، والابيض الناصع المكوي طوعاً للامر الملكي المطبوع بماء الذهب على رقاع الدعوة ، غير واحد لم يكلف نفسه الطاعة وما تستوجبه مثل هذه الرسميات جاء في ثوبه الافرنجي اليومي وقد اكسبه الزمان لمعة في حناياه ، وهو يلبس قميصاً — استغفر الله اذا العين اخطأت او الذاكرة - لا تعرف النشاء حتى ولا المكواة . هو عبد المجيد الشاوي ، شيخ المعريين في بغـــداد .

كان اول اجتماعي به تلك الليلة فاتحة الحب والاعجاب .لم يزرني في الفندق ، ولم يسعَ اليّ في مكان آخر مثل غيره من الاخوان . ولكنه قال عندما تصافحنا: نحن ابناء عم وليس بيننا واجب المجاملة واللياقة. فلم افقه مراده ولم اتظاهر بغير ذلك . فقال : انت ابن المعري وانا ابن الخيام . والاثنان اخوة . ليس في الانساب اشرف من هذا النسب . اهنئك واهنىء نفسي .

واذا انتسبت وقلت اني واحد　　　من خلقه فكفى بذاك تنسبا

اراد المعري بقوله من خلق الله . ونحن فكراً ومبدا من خلق المعري .

فقال احد الحضور : ولكن المعري كان متقشفاً الى حد النسك .

فاجاب الشيخ مجيد على الفور : لزوم ما لا يلزم . ونحن كذلك نتقشف الى حد الاضطرار .

فقال اخر : والمعري يذم بنت الحان .

فاجاب الشيخ الذي أمسى نقطة الدائرة : والخيام يمدحها . وهي تستحق الاثنين . الذي ينقص المعري يكمله الخيام . هما خير الرسل ، رسولان صادقان كريمان سويان — فبأي الاء ربكما تكذبان .

وقد برهن الشيخ عبد المجيـــد تلك الليلة على انه من اتباع الاثنين الصادقين . رأيته الى المائدة يحسو من المشعشة الذهبية الكأس تلو الكأس وسمعته يردد من اللزوميات وهو يميل الى جاره السيد افنان :

رويدك قد غررت وانت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحـــاً   ويشربهـا على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء   وفي لذاتها رهن الكساء

ثم رفع الكأس ولم يبق فيها غير النزر فشرب وقال :

وقد شرب الدهر صفو الانام   فلم يبق في الارض الا العكر

ليس الشيخ عبد المجيد [1] من اصحاب القوافي الا ان تكون لغيره . وكأني به لا يضيع وقته في النظم وعنده اللزوميات يستعين بها على الزمان واضاليله . ولا هو ممن يسودون الاوراق ويبيضون مع انه غزير المادة ، صافي الذهن ، سريع الخاطر ، لا يكبو يراعه اذا راح عاديا في مضمار الانشاء . ولكنه مثل سقراط يفضل الكلمة المقولة على الكلمة المكتوبة . هو عبد المجيد كتاب لنفسة ، يقرأ منه في المجالس ،

(١) رحمه الله ، جيء به مريضا الى بيروت في صيف عام ١٩٢٧ فما افاده تغيير الهواء ، ولا نجع فيه العلاج والدواء .

ويعيد كلماته ويمكنها حسبما تقتضي الحاجة . لا يداري ، ولا يحابي، ولا يتهيب احداً . هو في صراحته مثل الدجيلي والرصافي ، ولكنه في سرعة خاطره ونكتته وميلـــه الى الاحماض اشبه بالنقيب السيد عبد الرحمن .

كنا يومـــاً في مجلس ابن النقيب السيد محمود فدار الحديث على حروب النبي محمد وما كان يظهر فيها من حنان صاحب النبوءة وحلمه . فقال الشيخ مجيد : حنان الذئب على الشاة : واين الحنان واين الحلم ، رعاك الله ، في تحليله الرق واباحة النساء لرجاله . كانت حروبه مثل حروب تلك الايام ، ولا تختلف عنها الا بالدعوة ... وما ذنب النساء في الحروب ؟

فاجاب السيد محمود بان النبي صلى الله عليه وسلم اراد بالنساء خيراً حينما كان يجيز سبيهن واسترقاقهن . لانـــه اذا دخلت جنود الاسلام بلداً فمن باب الشفقة على النساء يأخذ كل محارب قسمته منهن فيعولهن ويحميهن .

فقال الشيخ عبد المجيد : هذا من باب الاجتهاد . ما اظن في النساء قديماً وحديثاً من ترضى ان تكون عبدة اسيرة خوفاً من ان تموت وهي حرة من الجوع . دفاعك مثل دفاع الذئب عن الشاة عندما وثب عليها ليحميها من الضبع ... لا نزال متأخرين ، متأخرين جداً يا سيد محمود، اذا كنا نرى شيئاً من الحق في مثل هذا الدفاع عن مساوىء اجدادنا وفظائعهم ... الغريب في امرنا نحن المسلمين اننا لا نتقدم الا اذا رجعنا الف سنة الى الوراء، لا نرتقي حقاً الا اذا رجعنا الى ابي العلاء المعري . فننبذ الاضاليل كلها وننبذ المتنطعين من علمائنا الذين يبثون الاضاليل ويثبتونها في الناس .

تكذب العقل في تصديق كاذبهم   والعقل اولى باكرام وتصديق

وقد قال ايضاً المعري ونعم القول :

ولا تطيعنّ قوماً ما ديانتهم   الا احتيال على اخذ الاتاوات

ان الشرائع القت بيننا احناً   واودعتنا افانين العداوات

نعم ، وفي قلوبنا منهـــا السم ، وفي عقولنا العفونة . يضحكني ويبكيني صياح شعرائنا وخطبائنا . يهددون الغرب بنهضة الشرق . ولعمري يجب ان ينهض الشرق على نفسه ، قبل ان ينهض على الغرب ومدنيته . ولا نتقدم نحن المسلمين الا اذا عدنا الف سنة الى الوراء — الى المعري ابي العلاء (١) .

ابن خلكان والعراق

وفي العراق من الادباء كثيرون من هم شغفون بالحرية وبروح الادب الجديد . ولكن هذا الفصل يضيق دون ذكرهم ، وهـــذا الكتاب ، « ملوك العرب » لا يسمح بفصل آخر اخصه بهم . الا اني افسح لكبيرهم محلاً لا منناً فنقف — ولا كرسي آخر للجلوس بين من ذكرت .

هوذا دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم ، صديقهم الاكبر ، حامل لوائهم ، وناشر آثارهم ، روفائيل بطي (٢) . وهو منهم في الصف

(١) ما اصدقها كلمة ، وما ابلغها ، وما اجدرها بالنقل والترداد . خذوها عن الشيخ مجيد واسترحموا له الله . انها لمن الحكم التي تضمن الخلود لاصحابها : فكم من شاعر وكم من اديب تغلب على النسيان والفناء بكلمة بليغة ذهبت مثلا او ببيت من الشعر تغنت به الركبان .

(٢) توفي في ١٠ نيسان ١٩٥٦   الناشر

الاول . فقد حمله حب الاداب العصرية على تأليف كتـــاب « الادب العصري في العراق العربي » : هو عمل ادبي كبير جدير بالبطي المعروف بنشاطه واخلاصه ، وبذوقه وغزارة علمه . لذلك سميته دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم .

ولروفائيل اسلوب في الانشاء سهل منسجم جلي ، لا تكلف فيـه ولا اغراب . وله في معالجة المواضيع مزية مستحبة ، هي انه يقف عند حد بين الاسهاب والاقتضاب فلا يطولها على نفسه فيمل ، ولا يقصرها على القارىء فيضل .

هاك مثالاً من الكتاب الذي اشرت اليه :

قال في الزهاوي :

« نشأ الزهاوي في بيئة تصوحت ازاهير الادب فيها بعد الازدهار، ودرست معالم العلم بعد ان ناطحت بعلوها الفضاء ، فراعه الجمود الهائل المستولي على المفهوم والاقلام ، واستنكر الطريقة البالية التي يتبعهـــا النظامون مقلدين غير مبتكرين ... فلم تأنس روحه الناهضة هـــذه الخطة ، وعز على عقله المتوقد ذكاء ان يبقى مصفداً باغلال تقليدية . »

وقال في الرصافي :

هو اول شاعر جاء قومه العرب بما يحبون وصارحهم بما لا يحبون . لم يعرف للتقليد او الخضوع للبيئة معنى لا في صناعته ولا افكاره . كان من شعره صيحات عملت على تقويض معالم الاستبداد الحميدي ، كما انه ما لبث بعد تحية الدستور العثماني واستبشاره به ان رجع ينعي على القوم تخاذلهم لما شام فيهم من الرجعة . »

وقال في الدجيلي :

« لو كان للعلم والادب قيمة في هـــذه الديار لكان للشيـخ كاظم

الدجيلي مجال واسع لاظهار مواهبه وجلده على البحث . ولو كان لحرية الفكر حرمة في هذا القطر لرنت حقائق الدجيلي في شعره رنة تحدثت بها المجالس . »

ان روفائيل ايضاً من الشعراء العاملين في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير . وسيكفرونه ولا شك تكفيراً مضاعفاً لانه يسيء الى اصحاب العقائد والاداب العتيقة اساءتين في الفكر وفي الطريقة . اجل، هو من انصار الشعر المنثور . وقد قال قصيدة له عنوانها « النابغة » :

وجدتني في مجاهل ارض كل ما فيها يثير الدهش والذهول .
ورأيت نفسي مكبلًا بسلاسل التقليد ، سجيناً في قفص
الاوهام ، اسير عادات ، ورهين اوصاب .
حطمت السلاسل ، وكسرت القيود ، وقوضت جدران الوهم،
وانعتقت مما درج عليه اجدادي
فصاح اخواني وضجوا ، واعولوا وبكوا .
رأوني خارجاً من سجنهم اتمتع بحرية هم منها محرومون .
شاهدوني ارفل بصحة وسلامة ، وهم في آلامهم يتعذبون
اولئك الذين يتخذون من جهل الشعب علمهم ، ومن ضعفه
قوتهم .

حجر الزاوية

الشعراء والسياسيون – المدارس العالية –المدارس العامة – بوتقة الوطنية – في دار المعلمين – المدارس في العراق – الطريقة التركية في التعليم – الانكليز يقاومون فكرة اللاطائفية – مساعدات الحكومة للمدارس الخاصة – الحاجة الى معلمين – هل السوريون والمصريون اجانب ؟ – ساطع الحصري – حديث عن المعلمين السوريين – معمل الشوكولاته ودار المعلمين – استعينوا بالسوريين والمصريين .
الاعلانات في الاسواق – « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » – « لا حياة بغير العلم » – « العلم اساس العمران » – المعهد العلمي مصدر الاعلانات – عميد المعهد ثابت عبد النور يصطدم بعمد الحياة – لماذا خلق الله الانكليز ؟ – لماذا خلق الله الحواتين ؟ اخوان ثابت في المعهد – حفلة سوق عكاظ – قف عند العمود واتل الاية – ثابت يهتدي – ثمرة الاعلانات – تعليم الاميين – بعد عودتي من نجد – لماذا خلق الله ثابت عبد النور ؟ – ليعلم الاميين الألف باء – المدارس الليلية المجانية – دورة التفتيش – ثابت يمشي في الليل ولا يصطدم بعمود واحد – المبادىء الاجتماعية الخمسة – حجر الزاوية ـ الملك فيصل يساعد المشروع – هارون الرشيد يزور متنكراً المدارس الليلية .

ليس بالشعراء والادباء يُستدل على ترقي الأمة ، ولا بالسياسيين والصحفيين تُسير العقلية المدنية فيها . فقد تمتاز امة بتعدد شعرائها وادبائها ولا تمتاز بوطنيتها وقد يدير المحنكون من الساسيين شؤونها ولا يعززونها، وقد يقود الصحفيون الرأي العام وليس فيه روح مدنية ترفع البلاد المفككة الاوصال الى امة صحيحة سالمة موحدة المقاصد، موثقة العرى .

لم يبق اذن غير المدارس العامة نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . بل هي سياج الوطن وفيها عز الملك وشرف الامة .

ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، الا اذا كانت البوتقة واحدة لا تتغير بتغير المكان والمذهب واللغة . ان بلاداً تعددت شعوبها ، ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكوّن منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان سلطانها ، مهما كان جيشها ، مهما كانت ثروتها ، الا اذا قامت فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة هي لغة البلاد الاصلية .

ماذا في العراق من هذه المدارس اليوم ؟ استمشرت باول حفلة دعيت للخطابة فيها وكانت في دار المعلمين . فاجتمعت هناك بوزير المعارف يومئذ السيد هبة الدين الشهرستاني ومستشاره الانكليزي والمدير الاستاذ ساطع الحصري ، وبزهاء مئتين من المدرسين في المدارس الابتدائية وفيهم نفر من السوريين والمصريين . كانت الحفلة عامرة بالخطباء والشعراء وكان الحديث بعد الحفلة موضوع المدارس والتدريس ، فنم عن اشياء تثبتها بعدئذ من مصادر شتى ، وهي مما يستوجب الاسف .

لقد ارتكب الانكليز في العراق اغلاطاً هم انفسهم يعترفون بها او ببعضها ، فمنها ما كانوا فيه مسيرين ، ومنها ما كانوا فيه متعمدين ، وهم لا يعتبرون هذه من الاغلاط . مثال ذلك التعليم الابتدائي .

عندما دخل الانكليز العراق كانت الطريقة في التعليم تركية ، اي ان الدولة اجازت انشاء المدارس الاجنبية الطائفية ، وكانت تخصها

بشيء من المساعدة المالية . وفي هذه المدارس كان يتعلم التلاميذ دينهم ولغتهم اولاً ، ثم مما لا يضر بالروح الطائفية العنصرية من العلوم . لا يخفي ما في هذه الطريقة من عوامل التفريق واسباب الشقاق . واذا خفي على الشرقيين فلا يخفى على الانكليز الذين تمشوا مع ذلك في التعليم العام على طريقة الاتراك . وهذا ما يؤسف له جـــداً . كأنهم ارادوا ان يثبتوا الامة في طائفياتها وتقسيمها ومع ان في العراق من ينصرون الطريقة الحديثة المجردة من المذهبية ، ويطالبون ببرنامج واحد في التعليم وبلغة واحدة ، والاستاذ الحصري في مقدمـة هـؤلاء المصلحين ، فحكومة الانتداب لا تقبل بذلك . وما عذرها غير عذر الخائف من تسليح خصمه فيخرج عليه متحد القوى .

اما قول الانكليز ان اهـــل العراق غير مستعدين اليوم لبرنامج يوحّد التعليم العام ، وان الحكومة لا توحد اللغة في الاقل فتجعل العربية لغة التدريس في الموصل وفي كركوك مثلها في بغداد والبصرة ، فهو قول يحتاج الى برهان . لم تقدم الحكومة على هذا العمل ولا الانكليز اذنوا به . قد كان في امكانهم ان يقومـوا في البداءة بنصف الاصلاح فقط ، فتمنع الحكومة عن المدارس الخاصة ــ الطائفية ــ المساعدة المالية وتقـدم هـذا المال ، الذي لا يزال يبذل في سبيل التفريق ، لوزارة المعارف ، وهي احوج اليه لسد نفقات مدارس الحكومة الابتدائية .

ان هذه المدارس تزداد عدداً كل سنة فتضاعف لدى وزارة المعارف الصعوبات في ادارتها . والحقيقة هي اقبال الامة العراقية على العلم اكثر من اهتمام الحكومة في تخصيص النفقات وتسهيل الاسباب . وقد يكون بعض التبعة عليها اي على الامة . ان عدد التلاميذ تضاعف في السنتين

الاخيرتين ، صعد من ثمانية الاف الى سبعة عشر الفاً . وان عدد المدرسين لم يزدد اكثر من ثلاثين بالمئة ، ولم يتخرج من دار المعلمين في السنة الاخيرة غير خمسة وعشرين مدرساً . فما السبب في ذلك . هناك اسباب اولها الميزانية وآخرها الوطنية العراقية . واليك البيان والبرهان .

ليس في العراق ما يكفي من المعلمين العراقيين لسد الحاجة في ازدياد عدد الصفوف والمدارس . ولم تكن في ذلك النفر منهم تلك الجدارة التي يتطلبها التعليم الحديث . حتى وان كانت الجدارة فدار المعلمين لا تكفي لتخريج العدد اللازم كل سنة . ان خير ما يعملون في حل هذا المشكل هو ان يستعينوا بمعلمين من سوريا او من مصر . ولكن الوطنية العراقية تحول دون ذلك .

هب انها وطنية صحيحة ، أفيستغني العراق اليوم عن المساعدة الاجنبية ؟ هذا اذا عددنا سوريا من اوروبا . ولكن القطرين شقيقان لغة ، وقومية ، وروحاً ، ومذهبا . فحبذا وطنية في التعليم اعلى من الوطنية في السياسة . حبذا وطنية مثل التي في مديرية المعارف . ان الاستاذ ابا خلدون ساطع الحصري لمن الاخصائيين في علم التدريس الذي مارسه مدة في اماكن مختلفة وحكومات عديدة . وما هو بسوري ولا بعراقي . هو عربي لا غبار على عربيته غير لهجتها. ذلك لانه ، وان كان ولد في صنعاء اليمن ، فقد اقام مدة في الاستانة يخدم الامة التركية . ثم تجرد لخدمة العرب عندما دخلوا الشام فكان وزير المعارف في الحكومة الفيصلية ثم سافر مع من سافر الى بغداد من رجال النهضة وهو لا يزال في وزارة المعارف يدير اهم شؤونها .
والاستاذ ابو خلدون من اولئك القلائل الذين حرروا انفسهم وبيوتهم

من قيود التقاليد الاجتماعية . اظن مجلسه هو الوحيد في بغداد الذي تستقبل فيه ربة البيت الزائرين سافرة وتشاركهم في الاحاديث .

اول مرة زرت الاستاذ وحرمه الفاضلة المهذبة اجتمعت في بيتهما بعدد من المعلمين السوريين الذين يعلمون في المدارس الابتدائية واكثرهم من خريجي الجامعة الاميركية ببيروت . وكانت وزارة المعارف يومئذ هدفاً لانتقاد فريق من الناس شق عليهم ان يروا بعض التفضيل في معاملة المعلمين السوريين ، فقاموا يحتجون على وجود معلمين اجانب في سلك المعلمين . ظننت لشدة الاحتجاج ان اكثرهم من الاجانب فسألت الاستاذ الحصري فقال : عدد المدرسين اليوم سبعمئة وعدد غير العراقيين منهم خمسة وعشرون .

ثم قالت حرمه باللغة الانكليزية : لو كان في العراق دار معلمين ثانية ! ولكن من اين المال ؟ الانكليز لا يساعدون ، والعراقيون لا يستطيعون . وهم يظنون ان دار المعلمين تعطيهم المعلمين بالمئات . ليست دار المعلمين مثل معمل الشوكولاته يعمل مئة صندوق كل يوم ... ومن هم الاجانب بين المدرسين ؟ نشكر الله ليسوا باتراك . تأمل يا مستر ريحاني (كانت تكلمني بالانكليزية لانني لا احسن التركية) انهم ينظرون الى السوري والى المصري نظرهم الى الاجانب . وليس في السلك كله اكثر من ثلاثة بالمئة . عندنا عشرة معلمين سوريين وستة مصريين وتسعة انكليز ، خمسة وعشرون معلماً اجنبياً ، اذا دعوناهم كذلك ، بين سبعمئة معلم من العراق .

اثنان ونصف في المئة كان يجب ان تكون عشرين . ان في نفورنا من الاجانب الاوروبين شيئاً من التعصب في بعض الاحايين ، فكيف به اذا كان يشمل من ليس من قطرنا من البلاد العربية . الاجانب

السوريون ، الاجانب المصريون ، الاجانب الاوروبيون — ان هذه العصبية لشبيهة بالمذهبية . والويل لنا اذا كانت تحل محل الوطنية العربية والقومية العامة ، ما السوري ، خصوصاً في دوائر التعليم التي هي غير دوائر السياسة ، الا عربياً يساعد في تهذيب ناشئة عربية اينما كانت ، في العراق او في الكويت او في الحجاز . اني اذا لمت الانكليز لاتخاذهم في التعليم طريقة الاتراك الوم العراقيين اشد اللوم في تضييقهم نطاق الوطنية الى حد العصبية المذهبية او بالحري القُطرية فعدوا السوريين والمصريين من الاجانب .

ليست دار المعلمين بعمل شوكولاته كما قالت حرم الاستاذ ابي خلدون ، وليس المدرس من يحسن العلوم التي يدرسها فقط ، كما اوضح الاستاذ في كتابه [1] اما وزارة المعارف في مثل هذه الحال ، اي بين عجزين في المال والرجال ، فهي تضطر احياناً ان تعين من ليس فيهم الجدارة ليسدوا بعض النقص في المدرسين . وكثيراً ما يؤدي ازدياد عدد التلامذة بالنسبة الى عدد المعلمين الى الجمع بين صفين اثناء التدريس ، فيخسر في هـذا الجمع تلاميذ الصفين . أفلا يجدر بالحكومة العراقية ان تستعين بجارتها ، بسوريا او بمصر ، لتتلافى النقص والخلل ؟

. . .

من يسكن في المدن الحديثة يألف نظره الاعلانات في الشوارع فيراها ولا يقرأها ، كأنها جزء من الحائط او نقش على العمود الملتصقة به . وتمسي عمد الاسلاك البرقية وعمد المصابيح مثل الاشجار لدى الفلاح يصطدم بها فيظنها حجراً في طريقه فيسب بقرته او حماره ولا يسب الشجرة . كذلك كنت في بغداد وهي في عمد مصابيحها ،

(١) دروس في اصول التدريس

وفي جدران شارعها الاوحد [1] ، اشبه بمدينة اميركية يجبهك الاعلان فيها كيفما سرت ، وكيفما نظرت . ولكني مـــا سببت بقرتي ولا حماري ، بل كنت امشي في ذاك الشارع « الجديد » كأني في الدهناء، انظر الى الارض تارة وطوراً الى السماء . فتقاضتني الاقدار يوماً ثمن هذه المكابرة . نعم نطحت عموداً من حديـــد ، فاضطررت ان اقف هنيهة ليعود اليّ صفاء نظري ، فقرأت كرهاً الاعلان الملصق به :

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

فقلت : والحمدلله . هوذا في الشرق شيء جديد — اعلان للعلم ابل اخذتني نارية صديقي الزهاوي فصحت مبتهجاً : ايها الغرب! تعال انظر ما في الشرق من جديد مفيد . ايها الغرب ! هوذا اعلان يستحيل وجوده في بلادك ، ليس لانه غــــير لازم بل لانه لا يُستثمر مباشرة وليس من يقوم بنفقاته .

قرأت الاعلان ثم قرأته معجباً به مبتهجاً . وصرت بعد ذلك امشي وناظري لسبيين على العمود . تباركت اليد الطابعة ، واليد الناشرة ، واليد الدافعة المال. وهذا اعلان آخر : اطلبوا العلم من المهد الى اللحد. وهاك آية اخرى من آيات النور : لا حياة بغير العلم . وهوذا اعلان للامة جمعاء : العلم اساس العمران . واليك على الحائط قاعدة النجاح والسعادة : تهذب وابتغ ما شئت . والاعجب من ذلك كله هو عند باب الـ « سينما » على اللوحة التي تعلن الرواية الاخـــيرة . هنا تقرأ الانذار الاخير : بالعلم تحيا وبالجهل تموت !

(١) شارع الرشيد

استطلعت خبر هذه الاعلانات فعلمت ان الحكومة بريئة منهـا وان المحسنين الاغنياء او الاغنياء غير المحسنين لم يسمعوا بها . ان في بغداد جمعية ثقافية اصلاحية اسمها « المعهد العلمي »، هي مخترع اعلانات العلم ، وهي طابعها وناشرها على نفقتها مجاناً لوجه الله . ايها الغرب — العفو يا صديقي الزهاوي — هوذا الشرق ناهضاً ، وقد نبذ النظريات والخيالات والاوهام . هوذا الشرق ايها الغرب يحتذيك ويفوقك في الغيرة المدنية . هوذا اسلوب في الاصلاح عملي — هوذا مثال واحد من مظاهر النهضة الحقيقية في العراق .

سألت عن المعهد العلمي وسددت خطواتي اليه ، فاجتمعت هناك بعميده الاول ، وهو فيه القوة الدافعة المحركة المدبرة ثابت عبد النور. حدثت ثابتاً فابهجني وازعجني معاً . الفيته شاباً في العقد الثالث ،له من الحسن ما كان ليوسف وعنده من التسخط ما كان لايوب . وهو مع ذلك سليم الجسم والعقل ، براق العين والجبين ، صافي الذهن والصوت، وطنه فوق مذهب اجـــداده ، وشرفه اكبر من دينه . شاب رائع تبسم له الحياة بكل ما فيها من بوادر الامل وبوارق السعد والمجد ، وهو مع ذلك مثل ايوب ، بل مثل « دون كيشوت » حاملا رمحه على الدنيا ، كئيباً على الدوام .

حدثت ثابتاً فازعجني سمعته يشكو ويتسخط ويئن ، كأنه اصطدم بعمود في جادة الحياة ولا يزال الشرر يتطاير من عينيه . — لماذا خلق الله الانكليز ؟ لماذا خلق الخواتين ؟ لـماذا خلق السادة الأشراف ؟ لماذا خلق المنافقين والخونة ؟ وجاءني منه بعد ايام كتاب يدعوني لتناول الشاي في بيته — « فتجتمع بصفوة الناهضين او بانموذج منهم في الاقل بشبان وطنيين اثبتت التجارب صدق عزيمتهم واخلاصهم ،

ومقتهم المنافقين وغيرهم من ذوي الالقاب الضخمة والابهة الفارغة الذي ما برحوا يسوقون الامة من سيء الى اسوأ ... الخ» فنسي ثابت كما ترى « صفوة الناهضين » الذين دعاني لاجتمع بهم في بيته .

هم اخوانه في المعهد وفي الجهاد، يسلكون في الاصلاح ، اوسع السُبل واطولها، سبيل العلم« تعلم يا فتى فالجهل عار » . وهو عميدهم المسؤول عن الاعلانات في شوارع بغداد . ان في هذا المعهد عقولاً عاملة مخترعة فلا مسوّغ فيه للنفوس المكتئبة . وقد كانت باكورة اعماله واختراعاته انه اعاد الى بغداد الجديدة القديمة احدى المفاخر العربية . اقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين ، وكانت اول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج ، حضرها جلالة الملك فيصل فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون. وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله احد الفتيان الاذكياء ، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها احدى الاوانس المسلمات سافرة .

فاز ثابت وزملاؤه في اقامة هذه السوق التي تقام بعناية المعهد كل سنة ، وحاز فوق ذلك الجائزة الاولى في النثر . وهو مع ذلك يمشي في جادة الحياة الضيقة فيصطدم بالعمُد فيها . احببت ثابتاً ورافقته مراراً . وكنت كل مرة نصل الى عمود في الشارع الجديد اقف امامه واتلو الآية فيضحك . العلم اساس العمران . ليس في ذلك ما يضحك يا ثابت . ان امركم كله جد ، وان من يخترع مثل هذه الاعلانات ويسعى في نشرها لمن اكبر الوطنيين ويحق له ان يفتخر ويفرك يديه . بل يجب عليه ان يشكر الله الذي هداه سواء السبيل . سرّ عنك ودع المنافقين ينافقون . ان لله في خلقه مقاصد لا يدركها الناس . والانكليز

واصحاب الالقاب الضخمة من خلق الله .

نعم ، وعظت ثابتاً ، بيد ان الوعظ ليس من شأني ، ولم اتأسف لذلك بل سررت بالنتيجة . وكيف لا تظهر النتيجة الحسنة وصديقي من الاذكياء النجباء الحكماء . صار يمشي في الجـــادة الضيقة الواسعة دون ان يصطدم بالعمد . ثم جاءني ذات يوم يخبرني انه متابع للعمل الذي باشره بالاعلانات . قد فتحنا في المعهد مدرسة ليلية لتعليم الاميين مجاناً . ثم بشرني بعد اسبوع بفتح مدرسة اخرى خارج المعهد .

. . .

سافرت الى نجد وعدت بعد اربعة اشهر الى بغداد فاجتمعت بثابت عبد النور ودهشت لتغير ظاهر فيه — في حديثه ، وفي وجهه ، وفي خطواته . حدثته فيما ذكر المنافقين . مشينا في الشارع فكانت خطواته اكثر سداداً من خطواتي ، فلم يصطدم ببشر او بحيوان او بشيء من الاشياء الاخرى الجامدة سألته عن مشروعه فقال : نجاحاً باهراً يا استاذ . صار عندنا اربع مدارس في المدينة وهي لا تكفي . تعال الليلة تر بعينك .

مشيت وثابت في الغسق ، في جادات بغداد الضيقة ، وهو ينيرها بانوار اماله العالية واعماله الناجحة . وسرنا الى مدرسة من مدارس المعهد فدهشت اذ دخلت مما شاهدت وسمعت . في الغرفة الاولى التي دخلناها صف الاولاد وسنهم تراوح بين الخمس والخمس عشرة ، وكلهم يشتغلون في النهار فيحرمون التعليم في مدارس الحكومة . هم من الطبقة الثالثة في الامة ، من الشعب ، من العمال ، وفيهم بياع الخبز ، وبياع الليمون وفيهم من يساعد اباه الحداد ، او عمه السنكري . وفيهم من يخدم ليتعلم صنعة من الصناعات . وفيهم الحوذي والبويجي واجير

الحلاق .

وقفت عند صغير الصف فوقف ويده على رأسه يجيب على سؤالي . اخبرني بجرية انه يشتغل في احـــد الافران في النهار ، وانه لا يحب الشغل ولا يحب المدرسة . فقلت : ولماذا تشتغل ؟ فقال : عندي ام وعندها قضيب . فقلت : ولماذا تجيء الى المدرسة ؟ فاجاب : امي تقول اذا تعلمت القراءة والكتابة اتخلص من الشغل في الفرن . واخبرني آخر لا يتجاوز الست سناً بانه جاء المدرسة من تلقاء نفسه مع رفاقه في الحي . وقد بان لي من مجمل الاجوبة ان للأم في هذه النهضة الشريفة فضلًا يذكر .

دخلنا الغرفة الثانية في المدرسة فاذا فيهـــا صف الشبان وبينهم الكهول . جالت عيني في الصف فوقفت عند الكبير فيه ، وهو رجل معمم حسن البزة يناهز الخمسين . همّ بالوقوف ليجيب على سؤالي – النظام على الكبير والصغير – فاشار المعلم تلطفاً ان يقبل رجائي ويظـــل جالساً . اخبرني انه تاجر في السوق يتاجر بالسجاد ، وانه والحمـــدلله ناجح في تجارته مع انه قضى السنين فيها وهو اميّ . ثم قال : ولكن الزمان تغير يا افندي والرجل الذي لا يحسن الكتابة والقراءة في هذه الايام يحتقره الناس . فعقّب جاره على كلامه قائلا : ويحتقره خصوصاً الاجانب . عار علينا ونحن نطلب الاستقلال ان لا نحسن القراءة والكتابة . وقال آخر ، افصح الصباغ على يديه بصنعته : انه سمع بهذه المدارس الليلية وكان دائماً يتوق الى تعلم القراءة والكتابة بشرط ان لا يمنعه ذلك عن متابعة عمله في النهار ، لانه صاحب عيال وعليه رزقها . ومثله في صف الشباب والرجال كثيرون ، فيهم الحـــداد والدباغ ، والساعاتي والطيان ، والبناء والحلاق والفران . وكلهم يؤمون المدرسة

الليلية راغبين بجني ثمارها ، شاكرين القائمين بها .

قطعنا الجسر لنزور مدرسة اخرى في الكرخ، فعندما وصلت اليها رأيت عند الباب جمهوراً من الاولاد والشبان يتسابقون ويتزاحمون كانهم داخلون الى ال « السينما » لا الى مدرسة الفباء . ها هي ذي امة جُنت بالعلم . اخبرني مدير المدرسة بان عندهم ثلاث غرف فقط للتدريس وفي كل غرفة من الخمسة والسبعين الى المئة طالب من الاولاد والشبان والرجال ، وانه لو كان عندهم ثلاث غرف اخرى لامتلأت كلها بليلة واحدة .

هنأت صديقي وزملاءه جماعة المعهد العلمي بنجاح مشروعهم هذا النجاح المدهش . ومما هو جدير بالذكر انهم لا يقتصرون في تعليم الاميين على الكتابة والقراءة وبعض مبادىء العلوم [1] فقد وضعوا لمشروعهم نظاماً اقتطف منه ما يلي :

قد رأى مجلس المعهد العلمي في بغداد انه لا يتمكن من تحقيق مبادئه الاجتماعية اذا لم تستنر الاكثرية بنور العلم الصحيح وتتلقن مبادىء الاخلاق الراقية ... ولهذا فانه عزم على مكافحة داء الامية في بلاد العراق ... فوضع نظاماً لهذا المشروع العلمي وقرر اذاعته مع

. . . .

(١) الدروس مقسومة الى دورات فيتعلم الطالب :

في الدورة الاولى – قراءة ، املاء ، حساب ، مبادىء معلومات ارضية ، مبادىء معلومات مدنية .

وفي الدورة الثانية – قراءة ، املاء ، حساب ، جغرافية ، تاريخ ، مبادىء الصرف والنحو ، معلومات مدنية .

وفي الدورة الثالثة – قراءة ، املاء ، انشاء ، حساب ، تاريخ ، جغرافية ، صرف ونحو ، معلومات مدنية ، مبادىء هندسية .

المبادىء الاجتماعية الآتية :

- حب الوطن من الايمان .
- حب النظافة من الايمان .
- طلب العلم من المهد الى اللحد .
- مقت الكذب واحتقار الكاذبين .
- حب الخير وعمله .

ويجب على مدير المدرسة ان يلقن الطالب قبل كل شيء هـذه المبادىء الخمسة الاساسية . مدارس ليلية تعلم الاميين ابناء الشعب الالفباء وحب الوطن والنظافة والصدق ـ هوذا حجر الزاوية في الرقي الحقيقي الثابت . هوذا الاساس الامتن في بناء الامة الجديد ، بناء الوطنية الصادقة ، القائمة على العلم والتهذيب ، المنيرة سبيل الاستقلال التام . هوذا حجر الزاوية ، وهو من صنع العراق .

انه وايم الله لاجمل واحب ما شاهدت من مظاهر نهضة العرب في الاقطار العربية كلها . مشروع تعليم بدأ بثلاثين طالباً في غرفة صغيرة من المعهد العلمي فعم في سنة واحدة مدن العراق الكبيرة كلها من البصرة الى الموصل . وان عـدد الطلاب الاميين الذين يداومـون ويتعلمون ليلاً مجاناً يتجاوز اليوم الخمسة آلاف ، وقد يصل الى العشرة الاف غداً بفضل ادارة المعهد المنظمة واساليبه المبتكرة في التشويق ، وفي جمع ما يقتضيه المشروع من المال . فقد قررت بلديات المدن التي فيها مدارس ان تشترك في نفقاتها .

وهناك عدد من المؤازرين المتبرعين وفي مقدمتهم جلالة الملك فيصل الذي يعطف على المعهد ومشروعه عطف المؤسسين ويخصه سنوياً بمبلغ

من المال . اجل قد اهتم جلالته اهتماماً خاصاً بمشروع تعليم الاميين ، وزار متنكراً المدارس الليلية فشاهد بعينه مظاهر الفلاح . وحبذا التنكر في غير سبيل اللهو والسرور، حبذا بغداد الجديدة ، وقد جُنّت بالعلم ، ورشيدها الجديد ينشطها ويساعدها ، فيطوف ليلاً كاحد عامة الناس لا ليحدث الصياد ، ويضحك من العباد ، بل ليقف امام اللوح الاسود ، الذي سيبيض منه وجه الامة ، فيستطلع خبر المتهافتين عليه من رعيته .

والحق يقال ان جلالة الملك فيصل ، مهما كان من شأنه في السياسة والزعامة ، لمن اكبر ملوك العرب غيرة على الثقافة ، وله في بث روح العلم والعرفان ، وفي تشجيع الادب والمشاريع التهذيبية في الامـة ، الفضل الذي سيجعل عهده ولا شك ذهبياً مجيداً .

واني اتمنى ان يكون في كل قطر من الاقطار العربية مشروع مثل مشروع المعهد العلمي وامير مثل فيصل الاول يعضد المشروع ، فيقضى بعد ذلك على الامية والجهل في البلاد كلها .

الخاتمة

عود الى الوحدة العربية

اذا كنت تصفحت هذا الكتاب ايها القارىء وما جـــاء فيه من المباحث السياسية تجد من نفسك ميلاً ، مقروناً بالعلم الذي لا يشوبه شائب الغرض والتحزب لتتبع هذه المباحث .

قلت في الفاتحة ان شرقي الاردن هي جزء من الحجاز ، والحجاز جزء من تهامة التي تمتد جنوباً الى المخا ، والمخا من اليمن ، واليمن هـو الاصل الذي تتفرع منه نجران وعسير سهولاً وحزوناً. هوذا شطر من اساس الوحدة العربية لو كان للجغرافية السيادة على السياسة ، او لو كان للدين نفوذ في تلطيف مطامع الامراء ، او لو كان للقوميـة العربية سطوة في القلوب حقيقية تسوقها الى محجة واحدة .

ان المذهب الديني في شبه الجزيرة لا يزال متغلباً على الدين . وهناك مذهبان قويان عصبية وسياسية لا يقبلهما السنيون ، هما الوهابية في نجد والزيدية في اليمن . ومن عقبات القضية ان حاكمي البلدين ، السلطان عبد العزيز والامام يحيى يحكمان حكماً مذهبياً . هما مليكان بفضل المذهب وباسمه ويصح ان اقول ايضاً ومن اجله . هما من اعظم ملوك العرب قوة واقتداراً .

فلو فرضنا ان اكثر الاقطار العربية دانت لابن سعود فيظل القطر اليماني عاصياً خارجاً محارباً. ولو فرضنا ان الامام يحيى اكتسح الاقطار الغربية والجنوبية كلها فبسط سيادته من حضرموت الى الطائف ومن

نجران الى جيزان وتقدم طالباً تحقيق الوحدة كلها فانه ليجد في نجد سداً لمطامعه عالياً منيعاً .

هذا هو الداء الأول ومكروبه المذهبية فهل تتحقق اماني الوحدة او بعضها يا ترى اذا قتل المكروب او عُزل في الاقل من السياسة ؟ أن نجاح القضية لا يتوقف على هذا الاصلاح وحده .

ان روح القبائل لا تزال سائدة في البلاد العربية ومتغلبة في اكثر اقطارها على الروح القوميـــة . فلو فرضنا ان الامام يحيى خرج باسم القومية يجاهد في سبيل الوحدة العربية ، وقد اتخذ لقباً علمانياً وانشأ في اليمن حكماً مدنياً ، فلا تخفى نهضته ان سيفها لا يزال سيف قحطان، وان قحطان لا تزال نازعة الى عصبيتها ، مثيرة في نزوعها العصبيات الاخرى . وبكلمة اوضح ان العداء بين قحطان وعدنان عموماً ، وبين قحطان وربيعة خصوصاً ، لا يزال مستحكماً في جنوبي نجد مثلاً وفي اعالي عسير . فضلاً عن ان نجداً ، والصولة فيها لا تزال لربيعة ، تأبى السيادة العامة ليس في قحطان فقط بل في مضر ايضاً ومعقل مضر لا يزال الحجاز .

هذا هو الداء الثاني ومكروبه العصبية . فاذا تغلب امراء العرب الكبار على العصبيات القديمة فيهم وقاموا باسم القومية العربية المحضـة الشاملة يبغون الوحدة ، فهل يظفرون بها يا ترى ؟ ان نجاح القضية لا يتوقف على هذين الاصلاحين وحدهما .

ان العوامل الطبيعية توجد في شكل اقسام من الارض، وفي سكانها ما يسمى وحدة جغرافية تتشابه فيه القوميـــات والطباع والعادات والتقاليد ، وتشترك فيها مصالح الاهالي وسياسات المتقدمين فيهـم غير ان هذه الوحدة لا تدوم الا بثلاث : حكومة منظمة عـادلة ،

ومدارس وطنية عـــامة ، وطرق مواصلات حديثة . وليس في البلاد العربية اليوم ، ما سوى العراق ، غــير قطرين في احكامهما شيء من النظام المدني ، هما الحجاز واليمن . وليس في البلاد العربية اليوم غير حكم واحد عادل ، هو حكم ابن سعود . اما المدارس الوطنيـة العامـة فلا تجدها الا في الحجاز ولحج والبحرين والكويت ، وليس في شبه الجزيرة كلها ، اذا استثنينا سكة حديد المدينة والتلغرافات السلكية واللاسلكية في اليمن والحجاز ، شيء من البرق والبخار .

على ان في الحالة الجغرافية بعض الامل ، فيها اليسير مما يثبت وحدتها ويبشر بتعميم عواملها . وكأني بالقارىء يسأل سؤالاً آخر . اذا عمت هذه العوامل الاقطار العربية كلها ، فانشئت الحكومات المنظمة ، وطرق المواصلات الحديثة ، والمـــدارس الوطنية العامة فهل نفوز بضالتنا المنشودة ؟

اجيب : نعم . ولكن بعد خمس وعشرين سنة في الاقل من بداءة هذه المؤسسات ، فتزول بوساطتها العصبيات القديمة لتحل محلها روح القومية العربية الكبرى ، وتنبذ السيادات المذهبية من الاحكام المدنية ، فتقوم مقامها سيادة العقل والعدل والتساهل ، بل سيادة العقلية العربية الجديدة التي ترفع فوق كل مصلحة وفوق كل سياسة ، مصلحة العرب المشتركة وسياسة العرب الموحدة .

اذن لا امل للعرب في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم . فهل من الممكن ان يتفاهم ملوكها ويتآلفون ؟ اجيب : نعم . واقول فوق ذلك انه من الممكن ان يؤلفوا وحدتين اوليتين تقسمان شبه الجزيرة شطرين في الحكم كما قسمتها الطبيعة ، اي الشطر الغربي والشطر الشرقي . وما كان هذا ليتم اليوم لولا سقوط الخلافة وتنازل الاتراك عنها .

أما رأيي فيها انا ذا اعرضه على سادتي ملوك العرب . الخلافة يا سادة في قريش – حديث شريف . ومن في قريش اليوم ومن سلالة الرسول اصلح واشرف من جلالة الملك حسين؟[1] ولكننا في القرن الرابع عشر بعد البعثة النبوية ، وسنة التطور سنة الله . فاذا استنكرنا عمل الاتراك فلا يجوز ان نتعامى عما هو صالح فيه ، بدأ مصطفى كمال وزملاؤه في فصل الخلافة عن السلطنة وهذا هو النصف الصالح في اصلاحهم . واني اظن ان الاسلام لا يعود بعد اليوم الى التقليد القديم .

افلا يجدر بالعرب ان يخطو هذه الخطوة الى الامام فيقبلون من مصطفى كمال نصف برنامج اصلاحه ؟ وهم اذا بايعوا حسيناً بن علي على الخلافة فيجعلون مقره مكة (اي كالبابا في رومه) [2]، ويقيمون بعدئذٍ ملكاً غيره منهم .

اذا سلّمت بهذا اتقدم واياك الى ما يليه . لنفرض ان الملك حسيناً قبل الزعامة الدينية فمن من ملوك العرب اليوم يستحق الزعامة المدنية ويحقق آمال العرب بها ؟ لا اظنك اذا كنت قرأت ما تقدم تتردد في الجواب . نعم ، ابن سعود وابن حميد الدين . فيحكم الاول شطر البلاد الشرقي ، والثاني شطرها الغربي . فلماذا لا نساعد كلاً منهما اذن ليبسط حكمه على سائر الشطر الذي هو اليوم السيد الاكبر فيه ؟

اني احدثك ايها القارىء بلغة فيها سداد المنطق وبساطة الف باء . ولا انتقل من مقدمة الى اختها قبل ان ابين الحقيقة فيها . سلمنا بالخلافة

(١) قد كتب الفصل قبل سقوط الملك حسين . وبعده كان لا يزال المؤلف على رأيه .. ان فصل الخلافة عن السيادة المدنية خير للاسلام والمسلمين .

(٢) عند كتابة هذا الفصل لم تكن قد قامت دولة الفاتيكان .

للحسين ، وبالملكية المكين . ولكنما السبيل الى ذلك ، ما هي ؟

ان في سبيل الفلاح عقبتين لا يستخف بهما ، الاولى في داخل البلاد والاخرى خارجها . اسم الاولى امراء العرب واسم الثانية بريطانيا وان بين الثنتين صلة لا تقطع اليوم ، ولست ممن يطالبون بقطعها . انما اقترح ان تنتقل من الفروع الى الاصل ، ارتئي ان يتألف من الصلات المتعددة صلة واحدة او بالحري صلتان لا غير . اما اذا اعترض الانكليز قائلين ان الامراء لا يقبلون بذلك فاجيب : ان للامراء ولوجهاء العرب الحق في معالجة الامر دون تدخل حكومة بريطانيا على شريطة انهم منذ البدء يؤكدون لها ان مصالحها في البحر الاحمر والبحر العربي وخليج فارس لا تمس بضر بتاتاً .

اما الامراء الحاكمون اليوم فاول ما يجب اقراره هو ان الحكم يبقى في بيوتهم كما كان منذ القدم ، اي ان آل صباح يظلون في الكويت ، وآل خليفة في البحرين ، والعبادلة في لحج ، والادارسة في عسير الخ . ولا يتغير في استقلالهم غير اعترافهم بالسلطان الاكبر واشتراكهم واياه في الدفاع عن البلاد وفي عقد المعاهدات ، وفي نظام واحد يختص بالمسائل الاقتصادية والمصالح العامة

ليس في هؤلاء الامراء اليوم واحد مطلق من نفوذ الانكليز مهما كان ضئيلاً . وليس فيهم من لا اتفاق او معاهدة بينه وبين بريطانيا . فهل يعارض ان يكون النفوذ لامير عربي كبير اذا توفرت فيه شروط الزعامة فيتعزز بذلك شأن الاثنين ؟ وهل تخسر بريطانيا او تفادي بشيء من مصالحها اذا عقد السلطان الاكبر معاهدة معها شبيهة مبدئياً بالمعاهدة او الاتفاق الذي بينها الآن وبين الأمراء ؟

انني ادرك انها تفضل ان يكون اتفاقها مع كل امير على حدة ، لان في

ذلك تقسيم قواهم والاقتصاد بقواها . ولكن الامراء اذا هم فكروا ملياً ، يرون مصلحتهم الكبرى في غير هذه السياسة . فهم اذا وحدوا سياستهم يعتزون ويتخلصون من تدخل عمال الانكليز ، ذلك التدخل الذي يشنون كلهم منـــه . وان بريطانيا لتكتسب ثقـة العرب وحبهم اذا قبلت بمثل هذا الأصلاح وفيه ضمان مصالحها .

ان ابن سعود صديقها وحليفها . فـما ضرها اذا كان هو الموقع للمعاهدات والاتفاقات التي بينها وبين البحرين والكويت وقطـَر وعُمان؟ وما ضر هولاء لو كان ابن سعود ، وهو صاحب الصولة والاقتدار ، الضامن سلامتهم واستقلالهم ، العامل في سبيلهم – على شرط – الا يكون لسيادته فيهم صبغة مذهبية . واكثر هولاء الامراء مثل ابن سعود من قبيلة واحدة من ربيعة ويمتون الى بكر بن وائل .

ليس في ذا الامر شيء مستحيل . والخطوة الاولى في سبيله هو ان يعقد مؤتمر عربي عام في مكة مثلاً يحضره كل الامراء فتتم فيه مبايعة الملك حسين على الخلافة ، ثم مبايعة الامام يحيى على الملك في الغرب والسلطان عبد العزيز في الشرق ، ويكون بين الملكين معاهدة ولائية اقتصادية واتفاق بان يكون ايضاً بينهما وبين بريطانيا مثل هذه المعاهدة او ما يقترن بها مبدئياً .

اما الملك حسين فيشترط العرب في بيعتهم انه يقبل بمن يقيمونه ملكاً عليهم . واذا بايعه كل العرب يبايعه ولا شك المسلمون في الهند وفي الاقطار الاسلامية الاخرى أفلا يرضى ، وهو الحصيف الحكيم ، ان يكون خليفة يحترمه المسلمون اجمع ، ولا يكون ملكاً في الحجاز همومه السياسية الخارجية والداخلية هي اشد من هموم حاكم من حكام الدول العظمى .

الخاتمة

ان في البلاد العربية اليوم اربعة ملوك كبار ، وان في نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية اولئك الملوك وشرحا على حالة تسود سياستهم في البلاد .

رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الامام يحيي تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تطيع الا مكرهة .

فمن من الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحق ان يسود العرب؟

تم تأليف كتاب « ملوك العرب »

في ١٤ ايلول سنة ١٩٢٤ و ١٥ صفر سنة ١٣٤٣

فهرست اعلام

ملوك العرب ـ الجزء الثاني

ملاحظة

« ـ » تدل على وجوب تعداد الارقام ما بين الرقمين . مثلا ١ ـ ٥ يعني ١ ٢ ٣ ٤ ٥ اي ان الكلمة المذكورة تجاه الرقم واردة في اكثر الصفحات الواردة بين هذين الرقمين .

حرف الالف

فهرس الاعلام

فهرس الاعلام

حرف الباء

حرف التاء

ملوك العرب

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

فهرس الاعلام

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

ملوك العرب

حرف القاف

فهرس الاعلام

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الاعلام

فهرس ملوك العرب
الجزء الأول

فهرس ملوك العرب
الجزء الثاني

فهرس الرسوم والخرائط
ملوك العرب ـــ الجزء الأول

فهرس الرسوم والخرائط
ملوك العرب ـــ الجزء الثاني

مؤلفات أمين الريحاني

باللغة العربية

الرحلات :

قلب لبنان

ملوك العرب (جزءان)

نور الاندلس

المغرب الأقصى

قلب العراق

التاريخ

فيصل الأول

تاريخ نجد الحديث

النكبات

نبذة في الثورة الفرنسية

المقالات الاجتماعية والفلسفية

شذرات من عهد الصبا

الريحانيات (جزءان)

المقالات السياسية :

القوميات (جزءان)

التطرف والاصلاح

وصيتي

النقد الادبي والمقالات الادبية:

انتم الشعراء

ادب وفن.

وجوه شرقية وغربية

قصتي مع مي

الشعر المنثور:

هتاف الأودية

الرواية والقصة والمسرح:

زنبقة الغور

خارج الحريم

المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية

المكاري والكاهن

سجل التوبة

وفاء الزمان

القول المأثور:

بذور للزارعين

الرسائل:

الرسائل الادبية والسياسية والشخصية

باللغة الانكليزية :

الشعر

Myrtle and Myrrh

The Quatrains of Abul-Ala'

The Lyzumiat of Abul-Ala'

A Chant of Mystics

MS. A Book of Poetry

الرواية والقصة والمسرح:

The Book of Khalid

MS. Doctor Della Valle

MS. The Green Flag

MS. Jahan

MS. Wajdah

MS. The Lily of El-Ghore

التاريخ:

The Descent of Bolchevism
Maker of Modern Arabia
MS. Turkey and Islam in the War

الرحلات :

Around the Coasts of Arabia
Arabian Peak and Desert
MS. Iraq During the Days of King Faisal
MS. Kurdistan
MS. In the Land of the Mayas

المقالات الاجتماعية:

The Path of Vision
MS. The White Way and the Desert

المقلات السياسية:

MS. Letters to Uncle Sam
The Fate of Palestine
MS. The Pan Arab Movement

النقد والدراسات الادبية:

MS. The Lore of the Arabian Nights
MS. Arabian Contribution to Civilization
MS. The Poetry of Arabia
MS. Critics in Art
MS. Critics in Dancing

الرسائل:

MS. The Letters of Ameen Rihani (3 volumes)